kitabweb-2013.forumaroc.net

رشحات عين الحياة

في مناقب مشايخ الطريقة النقشبندية وآدابهم النبوية وأسرارهم الربانية

للشيخ حسين بن علي الكاشفي

المعروف بالواعظ الهروي

المتوفى ٩١٠هـ

تعريب

الشيخ محمد مراد بن عبد الله القازاني

المتوفى سنة ١٣٥٢هـ

ويليه

ذيل كتاب رشحات عين الحياة

للمعرب

ضبطه وصححه وعلق عليه

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

دار الكتب العلمية

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

أسسها محمد علي بيضون

سنة 1971 بيروت - لبنان

DKI

رشحات عين الحياة

في مناقب مشايخ الطريقة النقشبندية
وآدابهم النبوية وأسرارهم الربانية

للشيخ حسين بن علي الكاشفي
المعروف بالواعظ الهروي
المتوفى ٩١٠هـ

تعريب

الشيخ محمد مراد بن عبد الله القازاني
المتوفى سنة ١٣٥٢هـ

ويليه

ذيل كتاب رشحات عين الحياة

للمعرب

ضبطه وصححه وعلق عليه

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

دار الكتب العلمية
DKI
أسسها محمد علي بيضون
سنة 1971 بيروت - لبنان

Title: Rašaḥāt ʿayn al-ḥayāt

fi manāqib mašāyiḫ al-ṭarīqa al-Naqšbandiyyah wa ʾādābihim al-Nabawiyyah wa ʾasrārihim al-Rabbāniyyah

Classification: Sufism

Author: Ḥusayn ben ʿAli al-Kāšifi

Editor: Dr. ʿĀṣim Ibrāhim al-Kayyāli

Publisher: *Dar Al-Kotob Al-ilmiyah*

Pages: 576

Year: *2008*

Printed in: *Lebanon*

Edition: *1st*

الكتاب: رشحات عين الحياة

في مناقب مشايخ الطريقة النقشبندية و آدابهم النبوية و أسرارهم الربّانية

التصنيف: تصوف

المؤلف: الشيخ حسين بن علي الكاشفي

المحقق: د. عاصم إبراهيم الكيالي

الناشر: دار الكتب العلميــة – بيروت

عدد الصفحات: 576

سنة الطباعة: 2008

بلد الطباعة: لبنان

الطبعة: الأولى

ISBN 2-7451-5628-4 (10 dig)

ISBN 978-2-7451-5628-0 (13 dig)

دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Copyright

All rights reserved

Tous droits réservés ©

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة لـدار الكتب العلمية بيروت – لبنان

ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive rights by ©

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban

Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

الطبعة الأولى

٢٠٠٨م - ١٤٢٩هـ

دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.
Tel: +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-lebanon
Riyad al-Solah Beirut 1107 2290

عرمون، القبة،
مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٩٦١ ٥ ٨٠٤ ٨١٠/١١/١٢+
فاكس: ٩٦١ ٥ ٨٠٤ ٨١٣+
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت ١١٠٧ ٢٢٩٠

http://www.al-ilmiyah.com
sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بسم الله الرحمٰن الرحيم، والحمد لله الواحد الأحد الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: الآيتان ٣، ٤]، والذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١] لا في ذاته ولا في صفاته وأسمائه ولا في أفعاله وأحكامه، الغني عن كل ما سواه، والمفتقر إليه كل ما عداه، واجب الوجود وما سواه مفقود مصداقاً لقوله ﷺ: «أصدق كلمة قالتها العرب كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»، المتصف بكل كمال والمنزّه عن كل نقص، خالق الأشياء من العدم على غير مثال سبق، .لا لعلة ولا لغرض، أحكم كل شيء خلقه ثم هدى إلى الصراط المستقيم صراط استعداد الممكنات حسب ما كشفه العلم وخصصته الإرادة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: الآية ٥٦] ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: الآية ٥٦] صراط الأسماء الإلٰهية المتوجهة على الأعيان الثابتة في العلم.

أحب أن يُعرف فخلق الخلق وتعرّف إليهم فعرفوه به وبخلفائه الكُمَّل من الأنبياء والرُّسل المعصومين وورائهم الأولياء المحفوظين مصداقاً لقوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء».

وصلى الله على سيِّدنا محمد الأول بروحه، والخاتم بجسده، الإنسان الكامل والخليفة الكلي، الجامع للحقائق الحقيّة والخلقية، ولتجليات الجلال والجمال، المبعوث رحمة للعالمين بمقتضى ما بعث لهم به من مقامات ومنازل وأحوال قلبية ملكوتية، وأسرار وأنوار جبروتية، زكّى النفوس بالإسلام، وطهّر القلوب بالإيمان،

ورقّى الأرواح بالإحسان.

وبعد، فإنَّ السير والسلوك إلى الله تعالى يحتاج إلى ميزان، يزن المريد به نفسه وعقله وقلبه وروحه وسرّه، كما يحتاج إلى مرآة يرى بها كيفية التحقق بتجليات الأسماء والصفات وصولاً إلى مقام الجمع أو الفناء، مقام شهود تجليات الذات، ثم رجوعاً إلى مقام جمع الجمع أو فناء الفناء، وهو الفرق الثاني أو الفرق النوراني، الذي يرجع به المريد من الاستهلاك بالأحدية إلى البقاء بالواحدية، فيقوم بحق الشريعة في ظاهره وبحق الحقيقة في باطنه، فظاهره مع الخلق، وباطنه مع الملك الحق لا يحجبه جمعه عن فرقه ولا فرقه عن جمعه، أي لا يحجبه شهود الوحدة الحقيقية عن إثبات الكثرة السرابية الخلقية.

ومما لا شك فيه أن سيّدنا محمد ﷺ هو باب الحضرة، وقدوة السلوك والتسليك، فيه انطوت حقائق الأنبياء والرُّسل، وختمت رسالاتهم، وبدينه كَمُلَ الدين، لذلك لا يقبل الله تعالى غيره من أحد من العالمين مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المَائدة: الآية ٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨٥].

والعلماء العاملون هم ورثة الأنبياء الذين ورثوا عن النبي ﷺ أحكام وشرائع وأسرار مقامات الدين الإسلامي الكامل: الإسلام والإيمان والإحسان، الشريعة والطريقة والحقيقة. الذين يدعون الخلق إلى الحق تعالى على بصيرة، فهم المستحقون والمؤهلون لتربية المريدين وإرشادهم في سيرهم إلى الله تعالى مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٨].

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا هو للإمام الفاضل، والعالم العامل الكامل، حضرة الشيخ **محمد مراد بن عبد الله القزاني المنزلوي**، ترجم فيه كتاب «رشحات عين الحياة» المؤلف باللغة الفارسية في مناقب مشائخ السادة النشقبندية، ورسوم طريقتهم، ضمّها إلى اللغة العربية.

ومؤلف الأصل العارف الرباني، والعالم الصمداني، **مولانا الشيخ حسين ابن مولانا علي الواعظ، الكاشفي، الهروي**، صاحب

التفسير الفارسي المشهور بـ«الحسيني». من علماء القرن العاشر.

قال: ولما تشرّفت بصحبة الشيخ ناصر الدين خواجة عبيد الله في سنة ٨٨٩هـ مرة، وأخرى في سنة ٨٩٣هـ ثمانمائة وثلاث وتسعين، وكتبت ما استفدته من مجلسه الشريف، جمعته في ضمن بيان مناقبهم العلية، فوافق إتمامه سنة ٩٠٩هـ تسع وتسعمائة، فصار اسم الكتاب ـ يعني لفظ رشحات ـ تاريخاً لتأليفه.

ورتّبه على: مقالة في طبقات خواجكان وسلسلة النقشبندية.

وثلاثة مقاصد:

المقصد الأول: في مناقب الخواجة عبيد الله خاصة.

والمقصد الثاني: في بعض الحقائق الإلٰهية والأسرار الربانية والمعارف الحقية المسموعة في مجلسه.

والمقصد الثالث: في كراماته.

وكل من هذه المقاصد الثلاثة يشتمل على ثلاثة فصول.

وخاتمة: في وفاة الشيخ عبيد الله.

رشحات عين حياتنا وصلت إلى روض المـ ـنى فنبارك الله الذي أعطى الورى بركاتها
لما رأيت تمامها فشرعت في تاريخها ما كنت عطشاناً له قد فاض من رشحاتها

وترجمه بالتركية المولى المعروف بابن محمد الشريف العباسي الطربزوني، المتوفى سنة ١٠٠٢ ألف واثنتين هجرية، ترجمه حين كان قاضياً بأزمير باسم «حضرة السلطان مراد خان ابن حضرة السلطان سليم خان» مع إلحاقات كاشفة، وله تكملة الرشحات أيضاً كما ذكر فيه، كتب فيها من بعده من الطائفة المشار إليها، رضي الله عنهم وقدّس أسرارهم أجمعين.

والكتاب كما قال عنه مترجمه: من أوله إلى آخره مشحون ببيان «آداب هذه الطريقة العلية [النقشبندية] خاصة فمن ظفر به وعمل بما فيه فقد صادف البغية، فإن فيه غنية، وكل صيد في جوف الفرا». انتهى.

وفي الختام لا بد من الإشارة إلى أن كتب التصوُّف الإسلامي تساعد المُريد على الإطّلاع على الأحوال والمقامات، التي يمرّ بها السالك إلى الله تعالى، كما

يطّلع على الحكم والقواعد الصوفية، التي يستلهم منها كيفية التحقّق بأحكام مقام الإسلام وأنوار مقام الإيمان، وأسرار مقام الإحسان، وصولاً إلى قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: الآية ٩٩]. كل ذلك بإشراف ورعاية وتربية شيخه العالم بأمراض النفوس والقلوب؛ وبالأدوية الشافية له من هذه الأمراض.

هذا ونرجو الله تعالى أن ينفعنا والمسلمين بما في هذه الكتب من الحب والإخلاص والصدق واليقين ومن أنوار أسرار ما تعبَّدنا لله به على لسان نبيّه ﷺ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: الآيتان ٣، ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: الآية ٦٩] لننال السعادة الحقيقية المتمثّلة بمعرفة الله تعالى في الدنيا، والنظر إلى وجهه الكريم في الآخرة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: الآيتان ٢٢، ٢٣].

كتبه الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

* * *

ترجمة المؤلف

الشيخ حسين الكاشفي

••• ـــ ٩١٠ هجرية

هو العارف بالله الشيخ حسين بن علي الكاشفي، البيهقي، السبزواري، ثم الهروي، المعروف بالولي حسين الكاشفي البيهقي، وبالواعظ الهروي.

صوفي، أديب، شاعر، فقيه، محدِّث، مفسِّر، فلكي. توفي بهراة.

من آثاره: تفسير سورة يوسف بلسان الحقائق، وروضة الصفا في مقتل الحسين عليه السلام، لوامع الشمس في أحكام طوالع سني العالم، ما لا بد منه في المذهب، ورشحات عين الحياة في مناقب مشايخ النقشبندية. (معجم المؤلفين [٤/ ٣٤]).

* * *

ترجمة المُعَرِّب

الشيخ محمد مراد

••• ـــ ١٣٥٢ هجرية

هو الشيخ محمد مراد بن عبد الله القازاني المكي الحنفي، فاضل، من فقهاء الحنفية، له اشتغال بالتاريخ.

ولد في «قازان» وجاور بمكة أكثر من أربعين عاماً، ورحل إلى روسيا قبل الحرب العالمية الأولى، ومنها إلى الصين الشمالية فأقام بها في بلدة جوكاجك إلى أن توفي، وقد جاوز التسعين.

من كتبه: الرشحات، ترجمه عن الفارسية، والدرر المكنونات، ومشابعة حزب الرحمٰن في الرد على موسى جار الله. (الأعلام للزركلي [٧/ ٩٥]).

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

ما شاء الله كان

الحمد لله الذي خلق الخلق في الظلمة، ثم رشّ عليهم من رشحات نوره، وجعلهم مظاهر أسمائه وصفاته، ومرايا ظهوره، وخصّ خواص عباده بمشاهدة أنوار جماله، وشرّفهم بدوام حضوره.

وأفضل الصلوات وأكمل التسليمات على مَن كان نبيّاً وآدم بين الماء والطين، وعلى آله وأصحابه الذين اقتبسوا من مشكاة أفعاله وأقواله أنوار الهداية والدين، واغترفوا من بحار أخلاقه وأحواله أسرار الدراية واليقين، وتابعيهم وتابعي تابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد، فلا يخفى على العاقل أن التفاضل بين بني نوع الإنسان، ليس هو بالنسب أو المال أو الأبدان، بل هو بقدر تفاوتهم في تقوى الله سبحانه ومعرفة الرحمٰن، كما نطق به نص القرآن. ولهذا صار الأولياء الكرام عليهم الرحمة والرضوان، بعد الأنبياء والصحابة، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، خلاصة الأكوان، وأشرف مَن في عالم الإمكان، فإنهم هم الذين بذلوا مهجهم في تحصيل تلك المعرفة، وأذابوا نفوسهم بنيران الشوق والمحبة، وأنحلوا جسومهم بأنواع الرياضة والمشقة، وهجروا في ذلك الخلائق، وسلكوا صراطاً مستقيماً، وتركوا سائر السبل والطرائق، حتى حازوا قصب السبق في ميدان المنافسة والمجاهدة، وفازوا بحصول أسرار المنازلة وأنوار المشاهدة، وتيسّر لهم الخروج من مضيق عالم الزور والأشباح، والولوج في فضاء عالم النور والأرواح. فأشباحهم سائرة في العالم السفلي، وأرواحهم طائرة في العالم العلوي، وأسرارهم مرتوية من كؤس

المواجيد والعرفان، وأبصارهم مكتحلة بكحل المكاشفة والعيان.

وبحكم: هم قوم لا يشقى جليسهم، سَرَتْ تلك الأسرار منهم إلى قلوب السالكين المجدّين، وانعكست تلك الأنوار على بواطن الطالبين المستعدّين، وترشّحت من تلك الكؤس رشحات إلى رياض استعداد المحبين.

* وللأرض من كأس الكرام نصيب *

فأراد هؤلاء الطالبون الصادقون بمنطوق ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: الآية ١١] إظهار نبذة من شكر تلك النعمة الجزيلة، وإبراز ثمرة من أشجار تلك المسحة الجليلة، في ضمن نشر مناقبهم الجميلة، رغبة في قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: الآية ٧]. وقد قيل: عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة، مع ما فيه من تكثير الفوائد للإخوان، وتخليد ذكر المشائخ الكرام في بطون الأوراق إلى آخر الدوران.

فكتبوا في هذا الباب كتباً ورسائل، وتوسلوا بها إلى استمطار الفيوض من المبدأ الفيّاض، ونعمت الوسائل.

ومن أحسن ما صنّف في بيان مناقب المشايخ النقشبندية، قدّس الله أسرارهم العليّة، كتاب «رشحات عين الحياة» للعالم الرباني، والعارف الصمداني، مولانا الشيخ فخر الدين علي، المشتهر بالصفي، ابن مولانا الحسين الواعظ الكاشفي الهروي، صاحب التفسير الفارسي المشهور بـ«الحسيني»، صنّفه لبيان مناقب ناصر الشريعة والدين خواجة عبيد الله أحرار الطاشكندي السمرقندي، قدّس سرّه، خاصة، وذكر فيه أحوال سائر المشائخ النقشبندية وغيرهم استطراداً.

ولعمري إنه لكتاب عزيز فريد في بابه، حري بأن يعضّ عليه السالك بنواجذه ونابه، وحقيق بأن يجعله جليسه وأنيسه في اغترابه وإيابه، فإنه لم يترك دقيقة من دقائق الطريقة، ولطيفة من لطائف أهل الحقيقة، إلا أتى منها بالحظ الأوفر، والنصيب الأوفى الأكثر، وكأنه أصل أصيل في بابه لما سواه، لكونه مأخوذاً عند صفو مناهل مشارب القوم قبل تكدرها باختلاط سائر المياه، كما هو حال اليوم.

بيد أن كسوته لما كانت منسوجة باللغة الفارسية، تعذّر الوصول إلى ما حرته لمن لم يعرفها ولم يألفها، ولم أعثر إلى يومنا هذا على مَن تصدّى لتعريبه، وكشف

القناع عن وجه تفصيله وتبويبه. وقد وقع نظر هذا الفقير العاجز في أثناء الاشتغال بمطالعة العلوم الحقيقية، وملاحظة المعارف اليقينية، على أصل نسخته الفارسية وترجمته التركية مرة بعد أخرى، وجعلته سميري سرّاً وجهراً، فاختلج في خلدي أن أنقله إلى اللغة العربية، معترفاً بقصور الباع، في باب الكشف والاطلاع، على الفنون الأدبية، ومقرّاً بقلّة البضاعة وعدم الاستطاعة عند أهل هذه الصناعة، مستعيناً بمن تنزّه عن الكيف والأين، متبرّأ عن رؤية نفسي في البَيْن.

فشمّرت بعد الاستخارة النبويّة واستجازة الحضرة الربوبية، عن ساق الجدّ والطلب، وتوجّهت تلقاء مدين الأرب، فاستخرجت جواهره المكنونة من ظلمة قعر البحر الفارسي إلى منتزهات جزيرة العرب، بعون الله سبحانه وتعالى، الكاشف للكرْب، فإنه لا معين سواه، ولا نستعين إلا إيّاه، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله، وسمَّيته بـ«الباقيات الصالحات في تعريب الرشحات».

وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يستر عجزي بكرمه العميم، وأن ينفع به كل كريم حر ذي قلب سليم، وأن يصونه عن كلّ خب لئيم ذي طبع سقيم وفكر عقيم. وما حداني إلى ارتكاب هذا الخطب العظيم والأمر الجسيم إلاّ رغبة في خدمة المشائخ الكرام، قدّس الله أسرارهم العليّة، بإشاعة مناقبهم السنيّة. فإن من أحب شيئاً أكثر ذكره، مع ما فيه من تشويق إخوان الصفا، وترغيب الخلان ذوي الوفا، فإن مطالعة مناقب رجال الحال، والوقوف على أحوال الرجال، تحرّك القلب وتنوّر البال، وتزيد الرغبة في طلب مطالب أهل الكمال.

وأيضاً، فيه إدحاض دعوى المدّعين، بالإطلاع على فضل غيره، وإفلاس نفسه. ومن كلام بعض المشائخ الكرام، قدّس سرّهم: «لا تزن الخلق بميزانك وزِنْ نفسك بميزان الصدّيقين لتعلم فضلهم وإفلاس نفسك».

اللهم أرِنا الحق حقّاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، وثبّت قلوبنا على محبة أوليائك، ولا تباعدنا عن سواعد خُلص عبادك وأصفيائك، فإن السعيد من عرفته ما لهم، وأظهرت له شيئاً من حلاهم، وهم قوم لا يشقى جليسهم، ولا يخيب أنيسهم، وإني وإن لم أكن من جملتهم ولكني من محبّي زمرتهم، ومغترف على ساحل التمني بمغرفة الترجي من بحار معرفتهم. ولله در من قال: [شعر]

لـي سـادة مِـن عِـزّهـم أقـدامُـهُـم فـوق الـجِـبـاه
إن لـم أكـن مـنـهـم فـلـي فـي حـبّـهـم عـزٌّ وجَـاه[١]

وقال آخر، ولله دره شعر:

وإن لـم أفُـز حـقّـاً إلـيـك بـنـسـبـة لعزّتها حسبي افْتِخاراً بِتُهْمَتي[٢]

* * *

(١) لم أقف على قائل هذين البيتين.
(٢) هذا البيت هو أحد أبيات تائية سلطان العاشقين ابن الفارض: عمر بن علي بن مرشد بن علي الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة [٥٧٦- ٦٣٢هـ/ ١١٨١- ١٢٣٥م].
والتائية من البحر الطويل، وتفعيلته هي:
طـويـل لـه دون الـبـحـور فـضـائـل فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن
(الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي - أبو ظبي).

وهذا أوان الشروع في المقصود. قال المؤلف رحمه الله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لمن رشّ رشحات الحقائق والحكم على قلوب العارفين بفيضه الأقدس[1] الأقدم، والصلاة على المظهر الأتم ومظهر «أوتيت جوامع الكلم»[2]، ليكمل به طوائف الأمم. والسلام على آله وأصحابه مفاتيح الكرم ومصابيح الظُلم.

أما بعد، يقول الفقير الذي ليس له أدنى شيء من البضاعة، الحقير الخالي عن الاستطاعة، علي بن الحسين الواعظ الكاشفي، المشتهر بالصفيّ، ثبّته الله تعالى على محبة أوليائه، وشرّفه بكمال متابعة أصفيائه: أنه لما اتفق لي بميامن الألطاف الإلهية، وبركات أعطافه الغير المتناهية، تقبيل عتبة حضرة من منزلته الولاية، ولثم سدّة مَن منقبته الهداية، قطب كبراء المحققين، وغوث عظماء الموحدين، مطلع الأنوار، ومظهر الأسرار، ناصر الحق والحقيقة والدين، خواجه عبيد الله أحرار، رضي الله عنه وأرضاه، وقدّس سرّه وسقاه ثراه وأرواه، في أواخر ذي القعدة، سنة تسع وثمانين وثمانمائة مرة، وتيسر التبرُّك أخرى، باستلام أقدام خُدّام ذلك الجناب، في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة، تشرّفت في خلال المجالس المحفوفة بالأنوار، وأثناء المحافل المملوءة بالأسرار، باستماع خصائص كبراء السلسلة النقشبندية العلّية، قدّس الله أسرارهم السنيّة، وشمائلهم ومناقبهم وفضائلهم التي كانت مذكورة ببيان شيخنا، قدّس سرّه، في كل الأوقات، واستسعدت بإدراك طرف من معارف عالية، وحقائق سامية، ونبذة من لطائف نامية ودقائق زاهية، إذ كانت جارية على لسانه الشريفة المفيضة للبركات، وكنت أربي

---

(١) قال الشيخ عبد الكريم الجيلي في كتابه شرح مشكلات الفتوحات المكيّة: «كلما ينسب إلى الذات من حيث هو ذات يسمى أقدسياً، وكلما ينسب إلى ما ينزل عن التجلي الذاتي كتجلي الأسماء والصفات يسمى قدسياً».

(٢) رواه أحمد في المسند عن أبي هريرة، حديث رقم (٧٣٩٧) [٢/ ٢٥٠] ورواه ابن أبي شيبة في المصنف عن أبي موسى، حديث رقم (٣١٧٣٥) [٦/ ٣١٨] ورواه غيرهما.

هذه الفوائد الشريفة والجواهر النفيسة بأمداد القوة المدركة اللطيفة، في صدف القوة الحافظة كأمثال اللؤلؤ المكنون، وأنظم تلك الفرائد المكنونة واليواقيت المحفوظة، بعد انقضاء كل صحبة وانطواء كل بَسطة، من غير شائبة تبديل وتغيير في سلك التحرير كالدرّ المصون.

ولما تطرق جنود الحرمان بواسطة شآمة حوادث الزمان، إلى سرير سعادة مجاورة كعبة العزّ والإقبال، وتسلّط جيوش الهجران بسبب نوازل الأيام ذات أنواع وألوان، على دولة ملازمة قبلة الأماني والآمال، خطر عليّ الخاطر الفاتر، في أوان المفارقة الصورية والمهاجرة الضرورية، وارتسم في الضمير المنكسر، أن أجمع هذه النفائس المتبرّكة، والكلمات المباركة، التي وقع استماعها من حضرة شيخنا في تلك الأيام المحمودة، والأوقات المسعودة، ليكون جليساً لهذا المتحيّر في بادية البُعد والهجران، وأنيساً لمقعد زاوية اليأس والحرمان، راجياً لحصول التشفّي من ملاحظة معانيه الدقيقة للقلب المحزون، ومتمنيّاً تيسُّر التسلّي من مشاهدة صور خطه الأنيقة للعيون. [شعر]:

إذا ما مضت أيام ورد ونته ... فمن أين أبغي عرْفه غير ما ورد
ولما مضى وَصْلُ الحبيب وأنسه ... فلا بد من شيء يذكر بالعهد
ولا بد من ضوء المصابيح في الدجى ... إذا استترت شمس ورافقها السعد(١)

ولكن بسبب عوارض الفلك الدوّار، ونوائب الليل والنهار، وقع هذا المعنى على الدوام في عقدة التعويق والتأخير ولم ينحل قيد التعلُّل عن قدم التأليف والتحرير، إلى أن مضت ست عشرة سنة، فتجدّدت هذه الداعية القديمة، وأسرع الخاطر إلى جمعها بالعزيمة، ومما عثرت عليه من أحوال أكابر السلسلة النقشبندية العليّة، وأطوار خلفائهم وأصحابهم طبقة بعد طبقة في كتبهم المعتبرة، أو سمعته من حضرة شيخنا أو سائر أعزّة هذه السلسلة العلّية بواسطة أو بغير واسطة، أدرجته في هذه المجموعة بترتيب لائق، وتركيب موافق، وأتممتها بذكر مناقب شيخنا وشمائله الذي هو المقصود الأصلي من هذا التصنيف، والعلّة الغائية لهذا التأليف، وجعلتها مسك الختام بإيراد أحواله ومقاماته العلية، وشرح أطواره وكراماته السامية.

---

(١) لم أعثر على قائل هذه الأبيات، وقد تكون للمؤلف.

ومتى ورد في هذا الكتاب لفظ: شيخنا، على الإطلاق، فالمراد به صاحب الولاية العليا والمناقب العظمى قطب الآفاق ومنبع الإشفاق، حضرة الشيخ خواجه عبيد الله أحرار قدّس الله سرّه وأعلى ذِكْره. وإذا ذكرت نكتة من معارف هؤلاء الطائفة العلية، روّح الله أرواحهم ونوّر أشباحهم، رشحتها لأجل الفاصلة من أختها بعنوان الرشحة. فإن احتيج في مواضع أخرى إلى الفاصلة وشحنتها بدائرة صغيرة مرشحة.

ولما كان هذا الفيض الجديد، ولأرواح المشتاقين مزيد، ترشحاً من عين حياة قلوب أرباب العِلم والعرفان، وصدور أصحاب الذوق والوجدان إلى بساتين صدور الطالبين صادقي الإخلاص، وروح المحبين كاملي الاختصاص، وزادها نضارة وحلاوة، سمّيته بـ: «رشحات عين الحياة».

ومن عجائب الاتفاق، أن تاريخ إتمام هذا الكتاب خرج من حروف لفظ رشحات بحساب الجمل، وهي تسعمائة وتسعة عدداً كما هو مستفاد من أبيات التاريخ في آخر الكتاب، والله يهدي إلى سبيل الرشاد.

والمرجو من طالبي الطريق، وسالكي سبيل التحقيق، إذا طابت أوقاتهم الشريفة من مطالعة أحوال الأعزة وملاحظة أطوار الأكابر ومعارفهم العزيزة، أن يخطر، والمتصدي هذا الجمع والترتيب بخاطرهم العاطر، وأن يدعوا له بالخير الوافر. وليعلم الناظر في هذه المجموعة أن ليس لجامع هذا الكتاب، ومؤلف الخطاب، مدخل في القيل والقال، والمقام والأحوال، غير نقل شمائل أهل الحقيقة ورجال الحال، وفضائل أهل الكمال. وليس له حظ ونصيب في أداء معارف هؤلاء الطائفة ولطائفهم غير الترجمانية بإمدادات ربانيّة، وعناية أرواحهم العلية، فالمأمول من مكارم أخلاق الناظرين المنصفين، ومراسم إشفاق أهل الشعور الذين لم يزالوا بالإدراك متّصفين، أن لا يلقوا أنفسهم في هاوية الهوان والإدبار، وبادية الهلاك والبوار، بإنكار عبارات هؤلاء الأعزّة وإشاراتهم وجعلها هدفاً للطعن بسبب البغي والعناد والحسد والإفساد، والسلام على من اتبع الهدى وترك طريق الغي والردى.

وقد اتفق أن يكون مبنى هذه المجموعة على مقالة وثلاثة مقاصد وخاتمة، منه المبدأ وإليه المعاد. وهذه فهرست الكتاب:

المقالة: في ذِكر طبقات أكابر السلسلة النقشبنديّة، قدّس الله أرواحهم العليّة،

من أولها إلى آخرها على الإجمال والتفصيل ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: الآية ٤].

المقصد الأول: في ذكر آباء حضرة شيخنا، قدّس سرّه، وأجداده وأقربائه، وتاريخ ولادته، وأحواله في أيام صباه، ونبذة من شمائله وأخلاقه وأطواره، وابتداء أسفاره، ورؤية مشايخ زمنه قدّس الله أرواحهم.

المقصد الثاني: في ذكر بعض الحقائق والمعارف والدقائق واللطائف، والحكايات، والأمثال، التي وقع الاستماع لها من حضرة شيخنا في خلال المجالس من غير واسطة.

المقصد الثالث: في ذكر بعض التصرفات العجيبة والأمور الغريبة التي ظهرت من حضرة شيخنا، قدّس سرّه، على طريق خرق العادة حتى وصل إلى مرتبة الصحة والثبات بنقل العدول والثقات. وكل مقصد من المقاصد الثلاثة مشتمل على ثلاثة فصول.

الخاتمة: في ذكر تاريخ وفاة حضرة شيخنا قدّس سرّه، وكيفيّة انتقاله وارتحاله من دار البلاء والبوار إلى دار النعيم والقرار.

* * *

المقالة

في ذكر طبقات أكابر السلسلة النقشبندية قدّس الله أرواحهم العلية من أولها إلى آخرها على وجه الإجمال والتفصيل

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾

[الأحزاب: الآية ٤]

لا يخفى أن حضرة شيخنا، قدّس سرّه، تلقّن الذِكْر وأخذ النسبة النقشبندية عن مولانا يعقوب الكرخي عن حضرة الشيخ الخواجة بهاء الدين المشتهر بشاه نقشبند، قدّس سرّه، عن السيد الأمير كلال، عن الشيخ محمد بابا السماسي، عن الشيخ الخواجه علي الراميتني الملقّب بعزيزان، عن الشيخ الخواجة محمود الأنجير فغنوي، عن الشيخ الخواجه عارف الريوكري، عن شيخ مشايخ العالَم الخواجه عبد الخالق الفجدواني رئيس أكابر السلسلة النقشبنديّة العلية، عن الشيخ الخواجة يوسف الهمداني، عن الشيخ أبي علي الفارمدي، عن الشيخ أبي القاسم الجرجاني.

وانتساب الشيخ أبي القاسم في عِلم الباطن إلى طرفين، **أحدهما**: إلى الشيخ أبي الحسن الخرقاني، وانتسابه إلى الشيخ أبي يزيد البسطامي.

وولادة الشيخ أبي الحسن الخرقاني، بعد وفاة أبي يزيد البسطامي بمدة كثيرة، وإنما كان تربيته له بحسب الباطن والروحانية لا بحسب الظاهر والصورة. ونسبة إرادة الشيخ أبي يزيد إلى الإمام جعفر الصادق، رضي الله عنه، وقد ثبّت بنقل صحيح أن ولادة الشيخ أبي يزيد أيضاً بعد وفاة الإمام بمدة كثيرة، وتربية الإمام له بحسب المعنى والروحانية، لا بحسب الظاهر والصورة.

ونسبة الإمام جعفر الصادق على ما أورده الشيخ أبو طالب المكي، قدّس سرّه، في «قوت القلوب»[1] إلى طرفين:

أحدهما: إلى والده الماجد، قبلة الأماجد الإمام محمد الباقر، رضي الله عن

(١) مطبوع في الدار بتحقيقنا.

والده الماجد الإمام علي زين العابدين، رضي الله عنه، عن والده الماجد سيد الشهداء الإمام حسين، رضي الله عنه، عن والده الماجد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، كرّم الله وجهه ورضي الله تعالى عنه، عن حضرة الرسالة سيّدنا محمد المصطفى ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم. وتسمى سلسلة نسبة أئمة أهل البيت لعزّها وشرفها بـ: «سلسلة الذهب» عند مشايخ الطريقة، قدّس الله أرواحهم.

وثانيتهما: من نسبتي الإمام جعفر الصادق، رضي الله عنه، على قول الشيخ أبي طالب المكي، قدّس سرّه، إلى جده لأمه، أحد الفقهاء السبعة المشهورة، الإمام قاسم بن محمد بن أبي بكر الصدّيق، رضي الله عنهم، ونسبته الباطنية إلى سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه، ونسبته الباطنية مع وجود شرف صحبة معدن الرسالة ﷺ إلى أمير المؤمنين أبي بكر الصدّيق، رضي الله عنه، بعد انتسابه إلى النبي ﷺ.

وثانيهما: من انتساب الشيخ أبي القاسم الجرجاني إلى الشيخ أبي عثمان المغربي، وله لأبي علي الكاتب، وله لأبي علي الروذباري، وله لسيد الطائفة جنيد البغدادي، وله لسري السقطي، له لمعروف الكرخي. وله نسبتان، **إحداهما**: لداود الطائي، وله لحبيب العجمي، وله للشيخ حسن البصري، قدّس سرّهم، وله لحضرة أمير المؤمنين علي كرَّم الله وجهه، وله لسيدنا ومولانا محمد ﷺ.

وثانيتهما: إلى الإمام علي الرضا، وله لوالده الإمام موسى الكاظم، وله لوالده الإمام جعفر الصادق، ، رضي الله عنهم وعن آبائه الكرام، إلى آخر النسبة كما مر، والله أعلم.

يقول الفقير المعرب، ستر الله عجزه: وإلى هنا انتهى ذكر سلسلة النقشبندية من أولها إلى زمن المؤلف، قدّس سرّه، على سبيل الإجمال. ثم شرع في ذكرها على وجه التفصيل، فبدأ بذكر الشيخ خواجه يوسف الهمداني، قدّس سرّه، إما لاتصال السلسلة به بلا انقطاع، أو سبب آخر بدا له، فأحببت أن ألحق بها ذكر بعض المشائخ الذين قبله ولكني اقتصرت على ذكر المشائخ الذين يذكرهم الآن مشائخنا في إجازاتهم وتوسلاتهم من غير إنكار للآخرين.

ورئيسهم، قدّس سرّهم، سيدنا أبو بكر الصدّيق، رضي الله عنه، أول مَن آمن برسول الله ﷺ على الإطلاق، أو من الرجال على اختلاف من الأقوال، وأفضل الناس جميعاً بعد الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، واسمه عبد الله، سمّاه به

النبي ﷺ بعد إسلامه، وكان اسمه في الجاهلية: عبد رب الكعبة. ووصفه العتيق، ولقّبه الصدِّيق، آمن بالنبي ﷺ في أول أمره ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فاستجاب له طلحة، وعثمان، والزبير بن العوَّام، وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين.

كان رضي الله عنه يكسب المعدوم، ويعين الضعفاء، ويواسي الفقراء، وقد أعتق ست رقاب في الإسلام قبل أن يهاجر، وبلال رضي الله عنه سابعهم، فأنزل الله سبحانه هذه الآية: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ [الليل: الآيات ١٧ - ١٨] السورة، وأنزل فيه أيضاً قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [التوبة: الآية ٤٠] الآية.

قال في «تفسير الخازن» تحت هذه الآية، قال الشعبي: عاتب الله عزَّ وجلَّ أهل الأرض جميعاً في هذه الآية غير أبي بكر. وقال الحسن بن الفضل: مَن قال إن أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله ﷺ فهو كافر لإنكاره نص القرآن. وفي سائر الصحابة إذا أنكر يكون مبتدعاً لا كافراً.

عن ابن عمران: رسول الله ﷺ قال لأبي بكر: «**أنت صاحبي على الحوض وصاحبي في الغار**» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن غريب. وقال فيه بعد سرد قصة الهجرة فصل في الوجوه المستنبطة من هذه الآية الدالة على فضل أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه.

منها: أن النبي ﷺ لما اختفى في الغار من الكفار، كان مطلعاً على أبي بكر الصدِّيق في سرّه وإعلانه، وأنه من المؤمنين الصادقين الصدِّيقين المخلصين، فاختار صحبته في ذلك المكان المخوف لعلمه بحاله.

ومنها: أن هذه الهجرة كانت بإذن الله تعالى، فخصّ الله بصحبة نبيه ﷺ أبا بكر دون غيره من أهله وعشيرته، وهذا التخصيص يدل على شرف أبي بكر وفضله على غيره.

ومنها: أن الله تعالى عاتب أهل الأرض بقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: الآية ٤٠]، سوى أبي بكر الصدِّيق، وهذا دليل على فضله.

ومنها: أن أبا بكر لم يتخلّف عن رسول الله ﷺ في سفره وحَضَره، بل كان ملازماً له. وهذا دليل على صدق محبته له وصحة صحبته به.

ومنها: مؤانسته للنبي ﷺ وبذل نفسه له، وفي هذا دليل على فضله.

ومنها: أن الله سبحانه وتعالى جعله ثاني رسول الله ﷺ بقوله: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾ [التوبة: الآية ٤٠]، وفي هذا نهاية فضيلة لأبي بكر، رضي الله عنه. وقد ذكر بعض العلماء أن أبا بكر كان ثاني رسول الله ﷺ في أكثر الأحوال.

منها: أن النبي ﷺ دعا الخلق للإيمان، فكان أبو بكر أول من آمن، فكان ثانيه في الإيمان. ثم دعا أبو بكر إلى الإيمان بالله ورسوله، فاستجاب له جماعة، فكان ثانيه في الدعوة.

ومنها: أن النبي ﷺ لم يقف في موقف من غزواته إلا وأبو بكر معه في ذلك الموقف.

ومنها: أنه لما مرض رسول الله ﷺ قام مقامه في الإمامة فكان ثانيه فيها.

ومنها: أنه ثانيه في تربته ﷺ، وفي هذا دليل على فضله.

ومنها: أن الله سبحانه نص على صحبته دون غيره بقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ﴾ [التوبة: الآية ٤٠].

ومنها: أن الله تعالى كان ثالثهما، ومَن كان الله معه لا يُشك في فضله وشرفه على غيره.

ومنها: إنزال السكينة على أبي بكر الصدِّيق واختصاصه بها دليل على فضله، يعني في قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: الآية ٤٠]. قال ابن عباس، رضي الله عنهما: أنزل السكينة على أبي بكر لأن النبي ﷺ كان على السكينة من قبل ذلك. انتهى.

ومما نُقل عن أبي بكر الصدِّيق، رضي الله عنه، في وقعة الغار قوله، [أشعار]:

قال النبي ولم يجزع يوقرني ... ونحن في سَدف من ظلمة الغار
لا تخش شيئاً فإن الله ثالثنا ... وقد تكفل لي منه بإظهار
وإنما كيد من تخشى بوادره ... كيد الشياطين قد كادت لكفار
الله مهلكهم طراً بما صنعوا ... وجاعل المنتهى منهم إلى النار

ولو لم يرد في حقه، رضي الله عنه، شيء سوى حديث الهجرة لكفى ذلك دليلاً على رفعة رتبته وعلوّ منزلته على من سواه، ولذلك قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، حين ذكر عنده أبو بكر الصدّيق، رضي الله عنه: وددت أن عملي كله مثل عمله يوماً واحداً من أيامه وليلة واحدة من لياليه. أما ليلته فليلة سار مع رسول الله ﷺ إلى الغار فلما انتهيا إليه قال: والله لا تدخل حتى أدخل قبلك، فإن كان فيه شيء أصابني دونك. فدخله فكنّسه ووجد في جوانبه ثقباً فشقّ رداءه وسده به، ولقي ثعباناً فألقمه رجليه ثم قال لرسول الله ﷺ: أدخل، فدخل ووضع رأسه في حجره ونام، فلدغ أبو بكر في رجله من الجحر ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله ﷺ، فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ فقال: ما لك يا أبا بكر؟ فقال: لُدغت فداك أبي وأمي. فتفل عليه رسول الله ﷺ فذهب ما يجده ثم انتقض عليه وكان سبب موته.

وأما يومه، فلما قبض رسول الله ﷺ ارتدّت العرب وقالوا: لا نؤدي الزكاة، فقال: لو منعوني عقالاً لجاهدتهم عليه فقلت: يا خليفة رسول الله تألّف الناس وارفق بهم، فقال: لي أجبارٌ في الجاهلية، خوارٌ في الإسلام، إنه قد انقطع الوحي وتمّ الدين، أينقص وأنا حي. أخرجه في «جامع الأصول» ولم يرقم عليه علامة لأحد. انتهى من «الخازن» منتخباً.

وفي «البخاري» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أنه قال: خطب النبي ﷺ فقال: «إن الله سبحانه خيّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله» فبكى أبو بكر رضي الله عنه، فقلت في نفسي: ما يبكي هذا الشيخ إن يكن الله خيّرَ عبداً ما بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله فكان رسول الله ﷺ هو العبد وكان أبو بكر أعلمنا، فقال: يا أبا بكر لا تبك إن من أمنِّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر ولو كنت متخذاً خليلاً من أمّتي لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الإسلام ومودته لا يبقين في المسجد باب إلاّ سد إلاّ باب أبي بكر».

وفيه أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: خرج رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه عاصباً رأسه بخرقة فقعد على المنبر، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: «إنه ليس من الناس أحد أمّن عليّ في نفسه وماله من أبي بكر بن أبي قُحافة، ولو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن خلة الإسلام أفضل. سدّوا عني كل خوخة في هذا المسجد غير خوخة أبي بكر». قال الشراح: وأخرج مثله مسلم عن أبي سعيد الخدري وجندب رضي الله عنهما، غير

أن في حديث جندب: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل أن يموت بخمس ليال، فذكره. وفي «طبقات ابن سعد» عن معاوية بن صالح أن ناساً قالوا: أغلق أبوابنا وترك باب خليله، فقال رسول الله ﷺ: **«قد بلغني الذي قلتم في باب أبي بكر، وإني أرى على باب أبي بكر نوراً وعلى أبوابكم ظلمة»**[١].

فائدة: ذهبت طائفة من العلماء إلى أن هذا الحديث مع كونه محمولاً على ظاهره فيه إشارة إلى الخصوصية لأبي بكر بالخلافة، وأنه هو المستخلف بعده دون سائر الناس. وطائفة: إلى أنه مصروف الظاهر متروك الحقيقة، بل هو كناية عن الخلافة، وسدّ أبواب المقالة، وحسم أطماع الناس عنها دون التطرق إليها والتطلع عليها. وإلى هذا مال العلامة التوربشتي وابن حبان وغيرهما، وقووا ذلك بأن منزل أبي بكر، رضي الله عنه، كان في السنح. وتفصيل الكلام واستيفاء المرام بالنقض والإبرام في «فتح الباري» للحافظ ابن حجر وغيره من شروح البخاري.

وقال أهل الحقيقة ومشايخ الطريقة، قدّس الله أسرارهم، على ما سيجيء في الفصل الأول من المقصد الثاني من هذا الكتاب: فيه إشارة إلى الخلافة الباطنية، وأن لأبي بكر رضي الله عنه كمال النسبة الحبيّة إلى رسول الله ﷺ. فأشار النبي ﷺ في هذا الحديث إلى أن جميع النسب والطرق مسدودة في جانب النسبة الحبيّة وما هو المُوَصِّل إلى المقصود ليس إلا في هذه النسبة الحبيّة والرابطة المعروفة عند أربابها عبارة عن تلك النسبة الحبيّة إلى صاحب دولة لائقة بالوساطة وانتساب الطريقة النقشبندية، قدّس الله أسرار أهلها، إلى أبي بكر الصدّيق، رضي الله عنه، من حيثية هذه النسبة لاختصاصها بها دون غيرها. وطريقة هؤلاء الأكابر في الحقيقة هي المحافظة على تلك النسبة الشريفة.

ويؤيد ما اختاره أهل الحقيقة، ما ورد في باب عليّ كرّم الله وجهه من الأحاديث، كما سردها الحافظ ابن حجر في «شرح البخاري»، منها: حديث سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه: **«أمر رسول الله ﷺ بسد الأبواب الشارعة في المسجد وترك باب علي»** أخرجه أحمد والنسائي وسنده قوي، زاد الطبراني في «الأوسط»: ورجاله ثقات. فقالوا: يا رسول الله سددت أبوابنا فقال: ما أنا سددتها ولكن الله تعالى سدها. وروي مثله أيضاً عن زيد بن أرقم، وابن عباس، وجابر بن سمرة، وابن عمر رضي الله عنهم، أخرجه أحمد والنسائي والطبراني والحاكم

---

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

وغيرهم، انتهى مختصراً.

وجه التأييد: أن الخلافة غير مختصة بأبي بكر وعلي رضي الله عنهما، بخلاف نسبة الطريقة والخلافة الباطنية، فإنها مع كثرة طرقها ينتهي انشعابها إلى هذين البحرين التيارين، وينتمي أنجمها إلى ذينك النيرين السيَّارين دون غيرهما مع تحقق اتصافهم بأقصى مراتب الولاية وبلوغهم في ذلك وراء الغاية، كما لا يخفى على أربابها، فصحت الإشارة بأن الخلافة المعنوية. ونسبة الطريقة مسدودة أبوابها وممنوع انشعابها إلا لهذين الإمامين ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٠]، واستطاب كل فريق مأدبهم، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يُوسُف: الآية ٧٦].

وما قيل من أن متأخري مشائخ النقشبندية يجرون سلسلة أخذهم إلى أبي بكر الصدِّيق بواسطة سلمان الفارسي رضي الله عنهما، ويذكرون ذلك في إجازاتهم، وهذا شيء لم يثبت عند أهل النقل، انتهى، فمدفوع ومردود عليه، فإنك قد علمت مما سبق في عبارة «الرشحات» أن القائل بذلك هو الشيخ أبو طالب المكي، قدّس سرّه، وأين زمان أبي طالب المكي من زمان قدماء المشائخ النقشبندية فضلاً عن متأخريهم، فإن اسم النقشبندية إنما أطلق على هذه السلسلة من لدن الخواجة بهاء الدين النقشبند، قدّس سرّه، وقبله كانت تسمى: بسطامية، وطيفورية، نسبة إلى أبي يزيد البسطامي. وقبله كانت تسمى: صدِّيقية كما لا يخفى على أربابها. فنسبته إليهم افتراء محض.

وقوله: وهذا شيء لم يثبت إلخ، مما يقضي منه العجب. كيف يصدر هذا الكلام ممن له أدنى حظ من العلم، فإن أهل الطريقة لا ينقلون طريقتهم بواسطة أئمة النقل حتى يحتاج إلى تقريرهم بل لهم طريقة خاصة بهم ورثوها كابراً عن كابر، من الأول إلى الآخر.

قال[1] في آخر «الرسالة القشيرية»[2]: والناس إما أصحاب النقل والأثر، وإما أرباب العقل والفكر. وشيوخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة، فالذي للناس غيب فلهم ظهور، والذي للخلق من المعارف مقصود فلهم من الحق سبحانه

---

(١) الشيخ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري.

(٢) مطبوع في الدار بتحقيق الأستاذ: خليل منصور.

موجود، فهم أهل الوصال والناس أهل الاستدلال. وهم كما قال القائل (شعر):

لـيـلـي بـوجـهـك مـشـرق وظـلامـه فـي الـنـاس سـار
والـنـاس فـي سـدف الـظـلام ونـحـن فـي ضـوء الـنـهـار[١]

انتهى. وكذلك قوله: وكذا لا يصححون لقاء حسن البصري لعليّ كرّم الله وجهه، مردود أيضاً بما ذكر في «قوت القلوب»[٢] و«تهذيب التهذيب»[٣] وغيرهما من كتب المحققين من أنه ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر، رضي الله عنه، ولقي عثمان وعليّاً ومن بعدهما من الصحابة، رضي الله عنهم، وناهيك بهم قدوة. [شعر]:

إذا قـالـت حـذام فـصـدّقـوهـا فـإن الـقـول مـا قـالـت حـذام
ومـن قـال سـواه فـكـذّبـوه أمـا هـو مـنـكـر رعـى الـذِمـام[٤]

توفي رضي الله عنه في المدينة بين المغرب والعشاء في الثاني والعشرين من جمادى الأخرى سنة ثلاث عشرة من الهجرة وهو ابن ثلاث وستين سنة رضي الله عنه.

* * *

(١) نسبت هذه الأبيات في الموسوعة الشعرية، إصدار المجمع الثقافي ـ أبو ظبي، للشيخ عمر تقي الدين عبد القادر الرافعي المتوفى سنة ١٢٣٣ هجرية، وهي من مجزوء الكامل، وتفعيلته:

مـتـفـاعـلـن مـتـفـاعـلـن متفاعلن متفاعلن

وجاءت الأبيات في الموسوعة الشعرية على النحو التالي:

لَـيـلـي بِـوَجـهِـكَ مُـشـرِقٌ فـي كُـلِّ مـعـنًـى كـالـمـنـار
وبـدون وجـهِـكَ مُـظـلِـم وظـلامُـهُ فـي الـنـاسِ سـاري
فـالـنـاسُ فـي سَـدَفِ الـظَـلامِ لـنـور وجـهِـكَ بـافـتِـقـار
قَـد شـاقَـهُـم بـدرُ الـتَـمـامِ ونـحـنُ فـي ضـوءِ الـنـهـار

(٢) سبقت الإشارة إلى هذا الكتاب.

(٣) تهذيب التهذيب في أسماء الرجال، للذهبي، وكتاب تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني.

(٤) البيت الأول هو للشاعر الجاهلي زهير بن جناب الكلبي المتوفى سنة ٥٦٠ هجرية. (الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي ـ أبو ظبي).

سابق الفرسان

سيدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه

كان أبوه من أعيان قرية بنواحي أصبهان، وكان مجوسياً، فصادف ممر سلمان، رضي الله عنه، مرة لكنيسة من كنائس النصارى القاطنين في تلك القرية، فاستحسن دينهم لما رأى فيهم قراءة الإنجيل والخشوع والخضوع، ورغّب قلبه عن عبادة النار ودين المجوس فأظهر لهم رغبته في دين النصارى وعجزه عنه لمنع أبيه. فأخرجوه إلى الشام فأقام هناك مدة وخالط كبار الرهبان وخدمهم. ولما قرب وفاة مَن صحبه أخيراً استفسره عمن يصحبه بعده، فقال: والله لا أدري الآن أحداً أدلك عليه، ولكن قد قرب زمان بعثة نبي آخر الزمان. فأخبَرَهُ بعلامته وشمائله ومبعثه ومحل هجرته ودلائل نبوَّته.

فصحب قافلة بعد وفاة الأسقف تريد الحجاز، وأعطى أهلها جميع ما عنده. ولما وصلوا إلى وادي القرى غدروا به وباعوه من يهودي يسمى بعبد الأشهل، ثم ابتاعه منه ابن عمه وحمله إلى المدينة وقد شرّفها النبي ﷺ بنزوله فيها. فوصل إلى مجلسه ﷺ وتيّقن بالعلامات التي أخبر بها الأسقف أنه نبي مرسل، فأسلم، وحكى له ﷺ قصته وما جرى عليه في الطلب. فتعجب النبي ﷺ منه وأمر أصحابه باستماع قصته، وذلك في سنة خمس من الهجرة. فقال له النبي ﷺ: «خلّص نفسك من رقبة المخلوق»[1]. فالتمس ذلك من سيده، فتقرّر الأمر بعد قيل وقال على أن يغرس لسيده ثلاثمائة نخلة ويربيها حتى تثمر وأن يعطيه أربعين أوقية ذهباً. فأخبر النبي ﷺ بذلك، فقال لأصحابه: «أعينوا أخاكم»[2]، فجمعوا له ثلاثمائة نخلة فغرسها النبي ﷺ بيده الشريفة إلا واحدة فإنها غرسها عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فأثمرت كلها في تلك السنة بإذن الله تعالى إلاَّ ما غرسها عمر رضي الله عنه، فقلعها النبي ﷺ وغرسها بيده، فأثمرت في حالتها. فسلمها لسيده وأعطاه النبي ﷺ مقدار

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٢) رواه أحمد في المسند من حديث رفاعة بن شداد برقم (٢٣٧٨٨) [٥/ ٤٤١] ورواه الطبراني في الكبير، ما روى عن ابن عباس عن سلمان الفارسي برقم (٦٠٦٥) [٦/ ٢٢٢] ورواه غيرهما.

بيضة الدجاج من الذهب من مال الغنيمة، فسلَّمه لسيده وخلَّص نفسه من الرقية. ثم حضر مع النبي ﷺ الغزوات وشهد الوقائع.

قيل: أنه بيع إلى سبعة عشر شخصاً. واختلف فيه المهاجرون والأنصار أنه من أي الفريقين، فقال النبي ﷺ: «**سلمان منا أهل البيت**»[(١)] وكفى بذلك شرفاً. ولذا قيل: [شعر]

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه ... فلا تترك التقوى اتكالاً على النسب

فقد فاز بالإسلام سلمان فارس ... وقد حُطَّ بالجهل الشريفُ أبو لهب[(٢)]

ولما سمع النبي ﷺ تحزُّب الأحزاب، أشار إليه سلمان بحفر الخندق في أطراف المدينة. فقبله النبي ﷺ وعمل فيه بنفسه الكريمة رغبة في أجره وترغيباً لغيره. فعرضت لسلمان رضي الله عنه فيه صخرة كبيرة فأعجزته ورسول الله ﷺ قريب منه، فلما رأى رسول الله ﷺ شدة المكان وعجزه نزل الخندق وأخذ المعول من يده فضرب به ضربة فلمعت تحت المعول برقة، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى، ثم ضرب به ثالثة فلمعت تحته لمعة أخرى. فقال سلمان رضي الله عنه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما هذا الذي رأيت من البرق واللمعان تحت المعول حين ضربت؟ قال: «**أوَ قد رأيت ذلك يا سلمان؟!**» قال: نعم، قال: «**أما الأولى: فقد فتح الله لي بها اليمن. وأما الثانية: فقد فتح الله لي بها الشام والمغرب. وأما الثالثة: فقد فتح الله لي بها المشرق**»[(٣)].

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، ذكر سلمان الفارسي رضي الله عنه، حديث رقم (٦٥٣٩) [٣/ ٦٩١]، ورواه الطبراني في الكبير عن سهيل بن حنظلة، حديث رقم (٦٠٣٩) [٦/ ٢١٢] ورواه غيرهما.

(٢) هذان البيتان ينسبان للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرَّم وجهه. (الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي ـ أبو ظبي).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في المصنف، غزوة الخندق، حديث رقم (٣٦٨٢٠) [٧/ ٣٧٨] ونصه: عن ميمون قال: حدثنا البراء بن عازب قال: «لما كان حيث أمرنا رسول الله ﷺ أن نحفر الخندق عرض لنا في بعض الجبل صخرة عظيمة شديدة لا تدخل فيها المعاول، فاشتكينا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فجاء رسول الله ﷺ، فلما رآها أخذ المعول، وألقى ثوبه، وقال: بسم الله، ثم ضرب ضربة فكسر ثلثها وقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة، ثم ضرب الثانية فقطع ثلثاً آخر فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض، ثم ضرب الثالثة فقال: بسم الله فقطع بقية الحجر وقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء».

ولا يخفى ما في ضمن هذا الحديث من البشارة لأرباب الإشارة من أنه لا بد في هذا الطريق الموروث من صاحب الترجمة من وجود المجاهدات والمشاق ومقاسات الشدائد في أولها، وظهور التجليات في آخرها، وترتب الفتوحات عليها.

ولما فتحت بلاد العجم واستولى جيوش الإسلام على مدائن كسرى، سلم ولايتها لسلمان الفارسي، رضي الله عنه، فكان بقية عمره والياً هناك، وكان يأكل من شغل يديه. وقد كان أميراً على ثلاثين ألفاً من المسلمين وعطاؤه خمسة آلاف، وكان يخطب الناس في عباءة يفرش بعضها ويلبس بعضها، ولم يكن له بيت بل كان يستظلّ بالفيء حيثما دار، وكان يعجن عن الخادم حين يرسلها لحاجة ويقول: لا نجمع عليها عملين. وكان لا يأكل من صدقات الناس، بل كان لا يكاتب عبداً إذا لم يكن عنده كسب ويقول: أتريد أن تطعمني أوساخ الناس. وكان يقول: عجباً لمؤمل الدنيا والموت يطلبه وغافل ليس بمغفول عنه، وضاحك ولا يدري أربه راضٍ عنه أم ساخط.

وكان، رضي الله عنه، يقول: عهد إلينا رسول الله ﷺ وقال: «ليكن بلغة أحدكم مثل زاد الراكب»[1]. ولما وقع الحريق مرة في المدائن أخذ سيفه ومصحفه وسجادته وخرج مسرعاً، وقال: كذلك ينجو المخفون.

عاش رضي الله عنه مائتين وخمسين سنة، وقيل غير ذلك. وتوفي في خلافة عثمان رضي الله عنه، وقيل: في سنة ثلاث وثلاثين، والله أعلم.

* * *

---

(١) رواه ابن السري في الزهد، باب الزهد، حديث رقم (٥٦٦) [١/ ٣١٦] ورواه أبو القاسم علي بن هبة الله الشافعي في تاريخ مدينة دمشق، ذكر من اسمه سلمان، [٢١/ ٤٥٤].

الإمام أبو عبد الرحمٰن
قاسم بن محمد بن أبي بكر الصدّيق
رضي الله عنه

أحد الفقهاء السبعة المشهورين بالمدينة. قيل: أمه من بنات ملوك العجم. وذلك أنه لما أتي عمر، رضي الله عنه، ببنات يزدجرد بن شهريار مسبيات، أراد بيعهن، فأعطاهن على يد دلال ينادي عليهن في أسواق، فقال علي رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قال: «أكرموا كريم قوم ذلّ، وغنياً افتقر»[1] إن بنات الملوك لا يُبعن في الأسواق مثل غيرهن من بنات السوقة، ولكن قوّموهُن فيشتريهن من يختارهن. فَقَوَّمْنَ فأعطي علي أثمانهن وقسَّمهن بين الحسين بن علي، ومحمد بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر. فولدن ثلاثة هم خيار أهل زمانهم ـ أعني الإمام علياً زين العابدين بن الإمام حسين، والإمام قاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله رضي الله عنهم ـ. قال ابن سعد: أنه ثقة رفيع، عالم فقيه، إمام ورع كثير الحديث. وقال يحيى بن سعيد: ما أدركنا بالمدينة أحداً نفضّله عليه. وقال أبو الزناد: ما رأيت أحداً أعلم بالسنّة منه، وما كان الرجل يعدّ رجلاً حتى يعرف السنّة. وقال أيوب: ما رأيت أفضل منه. وقال أبو نعيم في «الحلية»: كان لغوامض الأحكام فاتقاً، وإلى محاسن الأخلاق سابقاً.

وفيها أيضاً: عن أيوب قال: سمعت القاسم يسأل بمنى فيقول: لا أدري، لا أعلم. فلما أكثروا عليه قال: والله لا نعلم كل ما تسألون عنه ولو علمناه ما كتمنا

(١) لم أجده بلفظه، وورد بلفظ: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: دخل جرير بن عبد الله رضي الله عنه على رسول الله ﷺ وعنده أصحابه وضن كل رجل بمجلسه، فأخذ رسول الله ﷺ رداءه فألقاه إليه فتلقاه بنحره ووجهه فقبّله ووضعه على عينيه وقال: أكرمك الله كما أكرمتني. ثم وضعه على ظهر رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الأخر فإذا أتاه كريم قوم فليكرمه». رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الأدب، حديث رقم (٧٧٩١) [٤/ ٣٢٤] ورواه ابن ماجه في السنن، باب إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه، حديث رقم (٣٧١٢) [٢/ ١٢٢٣] ورواه غيره.

عنكم، ولا يحل لنا أن نكتم.

وفيها أيضاً: عن يحيى بن سعيد: سمعت القاسم يقول: ما نعلم كل ما نسأل عنه. ولأن يعيش الرجل جاهلاً بعد أن يعرف حق الله عليه خير له من أن يقول ما لا يعلم.

وفيها: عن محمد بن إسحٰق: جاء أعرابي إلى القاسم بن محمد فقال: أنت أعلم أو سالم؟ قال: ذاك منزل سالم. فلم يزده عليها حتى قام الأعرابي. قال محمد بن إسحٰق: كره أن يقول هو أعلم مني فيكذب، أو يقول أنا أعلم فيزكّي نفسه.

وفيها أيضاً: عن جابر بن أبي سلمة فقال: مات القاسم بن محمد بين مكة والمدينة حاجّاً أو معتمراً، فقال لابنه: سنّ علي التراب سنّاً وسوِّي على قبري ثم الحق بأهلك وإياك أن تقول كان كان.

ووفاته رضي الله عنه سنة ست ومائة على الصحيح.

* * *

مجمع البحرين وملتقى النهرين

الإمام الحاذق سيدنا جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر بن الإمام علي زين العابدين ابن الإمام حسين رضي الله عنهم أجمعين

ولد رضي الله عنه سنة ثمانين، وقيل: ثامن رمضان من سنة ثلاث وثمانين. وأقبل، رضي الله عنه، على العبادة والخضوع وآثر العزلة والخشوع، وأعرض عن الرياسة والجموع.

عن عمر بن أبي المقدام قال: كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أنه من سلالة النبيِّين. وقال مالك بن أنس: قال جعفر بن محمد لسفيان الثوري حين قال: لا أقوم حتى تحدِّثني: أنا أحدِّثك وما كثرة الحديث لك بخير يا سفيان: إذا أنعم الله عليك بنعمة فأحببت بقاءها ودوامها فأكثر من الحمد والشكر عليها فإن الله عزَّ وجلَّ قال في كتابه: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: الآية ٧]، وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار، فإن الله تعالى قال في كتابه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠﴾ [نوح: الآية ١٠] الآيات. يا سفيان، إذا أحزنك أمر من سلطان أو غيره فأكثر: لا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله، فإنها مفتاح الفرج وكنز من كنوز الجنة. فعقد سفيان بيده وقال: ثلاث وأي ثلاث. قال جعفر: عقلها والله أبو عبد الله ولينتفعن بها.

وقال سفيان الثوري: دخلت على جعفر بن محمد وعليه جبة خز، فجعلت أنظر إليه متعجباً، فقال لي: يا ثوري ما لك تنظر إلينا ولعلك تعجب مما رأيت؟ قلت: يا ابن رسول الله ليس هذا من لباسك ولا لباس آبائك، فقال لي: يا ثوري كان ذلك زماناً مقفراً وكانوا يعملون على قدر إقفاره وإقتاره وهذا زمان أقبل كل شيء فيه عز إليه. ثم حسر عن ردن جبته فإذا تحتها جبة صوف بيضاء، فقال لي: يا ثوري لبسنا هذا لله وهذا لكم، فما كان لله أخفيناه وما كان لكم أبديناه.

ومن كلامه رضي الله عنه: أوحى الله تعالى إلى الدنيا أن اخدمي من خدمني،

وأتعبي من خدمك[1]. وقال في قوله تعالى: ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾ [الحجر: الآية ٧٥]: للمتفرسين. وقال: كيف أعتذر وقد أحججت، وكيف أحتج وقد علمت. وقال: الصلاة قربان كل تقي، والحج جهاد كل ضعيف، وزكاة البدن الصيام، والراجي بلا عمل كالرامي بلا وتر. استنزلوا الرزق بالصدقة وحصِّنوا أموالكم بالزكاة، وما غالى من اقتصد، والتدبير نصف العيش، والتؤدة نصف العقل، وقلّة العيال إحدى اليسارين، ومن حزن والديه فقد عقهما، ومن ضرب بيده على فخذيه عند مصيبة فقد حبط أجره، والصنعة لا تكون صنعة إلا عند ذي حسب ودين، والله مُنْزِل الصبر على قدر المصيبة ومُنْزِل الرزق بقدر المؤنة.

وقال: الفقهاء أمناء الرسل فإذا رأيتم الفقهاء قد ركنوا إلى السلاطين فاتهموهم. وقال: لا زاد أفضل من التقوى ولا شيء أحسن من الصمت، ولا عدوّ أضر من الجهل، ولا داء أودى من الكذب.

وقال: إذا بلغك من أخيك ما تكرهه فاطلب له من عذر واحد إلى سبعين عذراً، فإن لم تجد له عذراً فقل: لعل له عذراً لا أعرفه.

وقال: إذا سمعتم من مسلم كلمة فاحملوها على أحسن ما تجدون حتى تجدوا لها محملاً، فإن لم تجدوا لها محملاً فلوموا أنفسكم.

وقال: لا تأكلوا من يد جاعت ثم شبعت.

ومما أوصى به ابنه الإمام موسى الكاظم، رضي الله عنهما: يا بني من رضي بما قسم له استغنى، ومن مدّ عينه إلى ما في يد غيره مات فقيراً. أو من لم يرض بما قسم الله له اتهم الله في قضائه، ومن استصغر زلّة نفسه استعظم زلّة غيره، ومن استصغر زلّة غيره استعظم زلّة نفسه. يا بني، من كشف حجاب غيره انكشفت عورات بيته، ومن سلّ سيف البغي قتل به، ومن احتفر بئر لأخيه سقط فيه، ومن داخل السفهاء حقر، ومن خالط العلماء وقر، ومن دخل مداخل السوء اتهم. يا بني، إياك أن تزري بالرجال فيُزرى بك، وإياك والدخول فيما لا يعنيك فتَذلّ بذلك. يا بني، قل الحق لك أو عليك تستشار من بين أقرانك، يا بني، كن لكتاب الله تالياً

---

(١) رواه القضاعي في مسند الشهاب، باب يا دنيا اخدمي. . .، حديث رقم (١٤٥٤) [٢/ ٣٢٥] والديلمي في الفردوس، عن ابن مسعود برقم (٨٠٦٤) [٥/ ٢٣٩].

وللسلام فاشياً وبالمعروف آمراً وعن المنكر ناهياً، ولمن قطعك واصلاً، ولمن سكت عنك مبتدئاً، ولمن سألك معطياً، وإياك والنميمة فإنها تزرع الشحناء في قلوب الرجال والتعرُّض لعيوب الناس، فمنزلة المتعرِّض لعيوب الناس بمنزلة الهدف.

ومن دعائه رضي الله عنه: اللهم أعزّني بطاعتك ولا تخزني بمعصيتك، اللهم ارزقني مواساة من قترت عليه رزقك بما وسعت عليَّ من فضلك.

وقال لسفيان الثوري: إذا بلغت البيت الحرام فضع يدك على الحائط ثم قل: يا سابق الفوت، يا سامع الصوت، ويا كاسي العظام لحماً بعد الموت، ثم ادع بما شئت.

مات، رضي الله عنه، بالمدينة المنورة في شوال سنة ثمان وأربعين ومائة، ودفن في قبة أهل البيت رضي الله عنهم.

* * *

سلطان العارفين

ابو يزيد البسطامي رضي الله عنه

اسمه: طيفور بن عيسى بن آدم. كان جده نصرانياً فأسلم. كان قدّس سرّه من أقران أبي حفص الحداد ويحيى بن معاذ. ولقي الشقيق البلخي. قال، قدّس سرّه: ما زلت أسوق نفسي إلى الله تعالى وهي تبكي إلى أن سقتها وهي تضحك. وقال: رأيت ربّ العزّة في المنام فقلت: كيف الطريق إليك يا ربي؟ فقال: إن تركت نفسك فقد وصلت. وسئل: بأي شيء وجدت هذه المعرفة؟ فقال: ببطن جائع وبدن عار. وقيل له: ما أشد ما لقيت في سبيل الله تعالى؟ فقال: لا يمكن وصفه. فقيل: ما أهون ما لقيت نفسك منك؟ فقال: أما هذا فنعم، دعوتها إلى شيء من الطاعات فلم تجبني فمنعتها عن الماء سنة. وقال: الناس كلهم يهربون من الحساب ويتجافون عنه وأنا أسأل الله أن يحاسبني، فقيل له: لِم ذلك؟ فقال: لعله يقول فيما بين ذلك: يا عبدي، فأقول: لبيك.

وسمع مرة قارئاً يقرأ هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ [مريم: الآية ٨٥]، فبكى حتى جرى الدمع على المنبر وصاح قائلاً: يا عجباً كيف يحشر إليه من كان جليسه. وقال له رجل: دلّني على عمل أتقرّب به إلى ربي؟ فقال: أحب أولياء الله ليحبُّوك فإن الله تعالى ينظر إلى قلوب أوليائه، فلعله ينظر إليك في قلب وليّ فيغفر لك. وسئل عن المحبة فقال: هي استقلال الكثير من نفسك، واستكثار القليل من حبيبك.

قال العارف الجامي في «شرح اللمعات»: إن أبا يزيد كان من الواصلين الواقفين، فإنه لما وصل إلى سمعه خطاب: ارجع، غشي عليه من خوف الفرقة، فجاء الخطاب: أن ردوا إليَّ حبيبي فإنه لا صبر له عني. ولذلك قال: خضت في بحر وقف الأنبياء على ساحله ـ يعني رجع الأنبياء ـ وكذلك كمل الأولياء لإرشاد الخلق إلى الساحل بعد الوصول. وأما من لم يرجع فيقال له: واصل واقف، ولذا

قيل: النهاية هو الرجوع إلى البداية، فحال الواقف أصفى وأحلى، وحال الثاني أوفى وأعلى.

رآه واحد في المنام بعد موته، فقال: كيف كان حالك بعد الموت؟ فقال: قيل لي ماذا جئت به إلينا يا شيخ؟ فقلت: إذا جاء فقير بباب الملك لا يقال له: ماذا جئت به إلينا، بل يقال له: ما تريد.

واختلف في لقائه الإمام جعفر الصادق، رضي الله عنه، والصحيح الذي ذهب إليه المحققون أنه لم يره بل ولد بعد وفاة الإمام بمدة، منهم: الخواجة محمد بارسا، والسيد الشريف الجرجاني. ومال إليه صاحب «الرشحات» كما مر. وإنما كان تربيته من روحانية الإمام.

وقال في مرض موته: إلٰهي ما ذكرتك إلا عن غفلة، وما خدمتك إلا عن فترة. قال ذلك ومات، وكان ذلك على الصحيح سنة إحدى وستين ومائتين، وقيل: أربع وثلاثين ومائتين.

* * *

الشيخ أبو الحسن الخرقاني
قدّس الله سرّه

اسمه: علي بن جعفر. كان، قدّس سرّه، أوحد أهل زمانه وغوث أوانه، وكانت الرحلة في وقته إليه.

قال الشيخ أبو العباس القصاب: قد وقعت سويقتنا هذه إلى خرقان ـ يعني أن الرحلة والزيارة صارت إلى خرقان ـ فكان كذلك، فإن رحلة الطالبين وقعت إلى خرقان للشيخ أبي الحسن بعد وفاة الشيخ أبي العباس القصاب، قدّس سرّهما.

وانتسابه في التصوف إلى الشيخ أبي يزيد البسطامي، قدّس سرّه. وكانت تربيته إياه بحسب الروحانية كما مر. قال يوماً لأصحابه: ما أفضل الأشياء؟ قالوا: السماع من الشيخ أولى. قال: القلب الذي مليء من ذكر الله تعالى.

وسئل رضي الله عنه عن الصوفي، فقال: الصوفي لا يكون صوفياً بالمُرقع ولا بالسجادة، ولا بإجراء الرسوم والعادة، بل الصوفي مَن كان فانياً عن وجوده في عالم الشهادة. وقال: إن الصوفي لا يحتاج إلى الشمس في النهار، ولا يحتاج إلى النجوم والقمر في الليل، بل هو عدم محض لا يحتاج إلى الوجود لاستغراقه في بحر الشهود.

وسئل: أن الإنسان من أين يعرف أنه غافل أم يقظان؟ قال: إذا ذكر الله سبحانه وتعالى فكان من الفرق إلى القدم من خشية الله ملآن فهو يقظان.

وسئل عن الصدق فقال: الصدق أن يتكلم بالجنان ـ يعني يترجم لسانه ما في جنانه ـ.

وسئل: لمن يجوز أن يتكلم في الفناء والبقاء؟ قال: لمن إذا علقوه بشعرة في الهواء فجاءت ريح شديدة بحيث تقلع الأشجار وتهدم الجدار وتكدّر البحار، وتحرّك الجبال والأحجار ولا تقدر أن تحركه من مكانه قيد أشبار ـ يعني لا يترك ما هو فيه وإن عَظُمَت المصيبة وعمّت الحوادث لقوّة يقينه ـ.

وقال: لا تصاحبوا شخصاً إن أنتم تقولون الله، وهو يقول شيئاً آخر.

وقال: إن وارث رسول الله ﷺ شخص يكون مقتدياً بفعله ومتبعاً لأثره ﷺ لا من يسود وجه الورق.

وقال: قال الشبلي: إذا قيل لي اختر أختار أن لا أختار، وهذا أيضاً اختيار. وقال: أنا منذ أربعين سنة على حال واحد، وينظر الله سبحانه وتعالى إلى قلبي فلا يرى فيه غيره.

وقال: تريد نفسي منذ أربعين سنة شربة من الماء البارد أو اللبن الحامض، فلم أعطها إلى الآن.

وقال: إن العلماء والعباد كثيرون في الدنيا لكن ينبغي أن يكون من الذين يمسون بما يرضي الله سبحانه ويصبحون كذلك بما يرضي الله تعالى.

وقال: إن أنور القلوب قلب لا يكون فيه ما سواه تعالى، وأفضل الأعمال عمل لا يكون فيه فكر رؤية المخلوقين، وأطيب الرزق ما يكون بسعيك، وأفضل الرفقاء مَن يكون عيشه بالله.

توفي، قدّس سرّه، يوم عاشوراء سنة خمس وعشرين وأربعمائة، رضي الله عنه وأرضاه آمين.

* * *

الشيخ
أبو القاسم الجرجاني قدّس سرّه

اسمه: علي، ولم يكن له نظير في وقته ولا بديل في زمانه. تصل نسبته بثلاثة وسائط إلى الشيخ أبي القاسم الجنيد كما مر في «الرشحات». وصحب الشيخ أبا الحسن الخرقاني على قول البعض ولكن لم يحرّره مولانا الجامي، قدّس سرّه السامي، في «النفحات» ولذا لا يثبته مشايخنا الآن في السلسلة، ولعله لم تحصل له ببعة وإرادة للشيخ أبي الحسن، فمن أثبته كصاحب «الرشحات» أثبته نظراً إلى صحبته، ومن أسقطه كمشايخنا الآن أسقطه نظراً إلى عدم بيعته وإرادته ولكل وجهة، ونظيره كثير.

وكانت له، قدّس سرّه، حالة قوية بحيث قد توجه جميع مشائخ زمنه إليه، وكان في كشف وقائع المريدين آية ظاهرة. قال صاحب كتاب «كشف المحجوب»[1]: وقعت لي مرة واقعة عظيمة وعسر عليَّ حلها، نقصدت الشيخ أبا القاسم الجرجاني فوجدته في المسجد الذي عند باب قصره منفرداً يقرر جواب واقعتي إلى عمود فيه، فوجدت الجواب بلا سؤال وقلت: أيها الشيخ هذه واقعتي التي قصدتك من أجلها! فقال: يا بني إن الله سبحانه أنطق لي هذا العمود الساعة حتى سألني عن هذا.

كان الشيخ أبو سعيد جالساً يوماً مع الشيخ أبي القاسم الجرجاني، قدّس سرّهما، على سرير واحد في طوس وحولهما جماعة من الصوفيّة، فخطر في قلب واحد منهم: ليت شعري ما مقدار منزلة هذين الشيخين؟ فالتفت الشيخ أبو سعيد إلى هذا الدرويش وقال: مَن أراد أن ينظر إلى مَلَكين في وقت واحد وعلى سرير واحد فلينظر إلينا. فلما سمعه الدرويش أخذ ينظر إليهما فرفع الله الحجاب عن عين

---

(١) كشف المحجوب لأرباب القلوب، للشيخ أبي الحسن علي بن عثمان الغزنوي المتوفى سنة ٤٦٥ هجرية.

الدرويش حتى انكشف لقلبه صدق كلام الشيخ ورأى مرتبتهما عياناً، ثم خطر في قلبه: هل على وجه الأرض أحد من عباد الله تعالى في هذا الوقت أعظم منزلة وأعلى درجة منهما؟ فالتفت الشيخ أبو سعيد إليه وقال: قد اختصر ملك الله تعالى، لو لم يجيء فيه كل يوم ولم يذهب سبعون ألفاً مثل أبي سعيد وأبي القاسم قدّس الله سرّهما.

* * *

الشيخ أبو علي الفارمدي قدّس سرّه

اسمه: فضيل بن محمد. كان فريد وقته، وشيخ الشيوخ في خراسان في طريقته الخاصة. وكان تلميذ الإمام أبي القاسم القشيري، قدّس سرّه، في الوعظ والتذكير. وانتسابه في التصوُّف إلى طرفين، **أحدهما**: الشيخ أبو القاسم الجرجاني. **والثاني**: الشيخ أبو الحسن الخرقاني.

قال، قدّس سرّه: كنت في ابتداء أمري مشغولاً بطلب العلم في نيسابور، فسمعت أن الشيخ أبا سعيد أبا الخير، قد قَدِمَ إلى نيسابور وفتح مجلس الوعظ، فذهبت عنده لأراه، فلما وقع نظري على جماله صرت عاشقاً له وزادت محبة هذه الطائفة في قلبي. وكنت يوماً قاعداً في حجرتي بالمدرسة فظهر فيّ شوق رؤية الشيخ ولم يكن إذ ذاك وقت خروج الشيخ، فأردت أن أصبر إلى وقت خروجه فلم أقدر، فقمت وخرجت ولما وصلت السوق رأيت الشيخ يذهب مع جمع كثير. فمشيت أيضاً في أثرهم فوصلوا إلى محل، فجلس الشيخ والجماعة حوله وجلست أنا في ناحية بحيث لا يراني الشيخ. ولما شرعوا في السماع وطاب وقت الشيخ وظهر فيه أثر الوجد وشقّ الجبة وفرغوا من السماع، وقسموا الجبة، أخذ الشيخ قطعة منها ووضعها بين يديه، وقال: يا أبا علي الطوسي أين أنت؟ فلم أجب، وقلت: إنه لا يراني ولا يعرفني ولعل في مريديه من يسمى بهذا الاسم. فنادى ثانياً، فلم أجب، ثم نادى ثالثاً فقال جمع من أصحابه: إن الشيخ يعرفك. فقمت من مكاني وجئت عنده فأعطاني القطعة وقال: هذه لك. فلففتها بشيء ووضعتها في محل نظيف وكنت أجيء في خدمته على الدوام فحصلت لي في خدمته فوائد جمة وشاهدت في نفسي أنواراً وظهرت لي الأحوال.

ولما خرج الشيخ من نيسابور حضرت عند الأستاذ أبي القاسم القشيري وقلت

له ما ظهر لي من الأحوال، فقال: اذهب واشتغل بطلب العلم. ففعلت ما أمرني به، وكانت تلك الأنوار تزيد يوماً فيوماً، فاشتغلت بالتحصيل ثلاث سنين أخرى حتى أخرجت القلم يوماً من المحبرة فخرج أبيض، فقمت وجئت عند الإمام أبي القاسم القشيري وقصصت عليه القصة فقال: لما أعرض العلم عنك إعرض أنت عنه واشتغل بالشغل الباطني. فتحوّلت من المدرسة إلى الخانقاه واشتغلت بخدمة الأستاذ الإمام.

وقال: دخل الأستاذ مرة الحمام وحده، فذهبت وصببت دلاء من الماء الحار في الحمام، ولما خرج الأستاذ من الحمام وصلّى الصلاة قال: من صبّ الماء في الحمام؟ فسكت وقلت في نفسي: أخطأت في هذا حيث اجترأت على صبّ الماء من غير إذنه. فأعاد ثانياً فلم أجب، ولما قال ثالثاً، قلت: أنا، فقال: يا أبا علي ند وجدت بدلو واحد ما لم يجده أبو القاسم في سبعين سنة. فكنت عند الإمام مدة واشتغلت بالمجاهدات حتى ظهرت لي يوماً حالة قوية بحيث غبت عن نفسي وصرت مضمحلاً ومتلاشياً في تلك الحالة، فقصصتها على الأستاذ الإمام، فقال: يا أبا علي إن جياد فكري لم يتجاوز عن هذا المحل وما كان فوق ذلك لا أعرف طريقه. فكرت في نفسي: أني قد احتجت إذاً إلى شيخ يرقيني إلى مقام أعلى من هذا المقام حتى تزيد تلك الحالة، وقد كنت سمعت اسم الشيخ أبي القاسم الجرجاني، فتوجّهت إلى طوس، ولما وصلت هناك سألت عن منزل الشيخ فدلوني عليه، ولما دخلت وجدته قاعداً في المسجد مع جماعة من مريديه، فصلّيت ركعتين تحية المسجد ثم جئت عنده فأطرق قليلاً ثم رفع رأسه وقال: تعال يا أبا علي وهات ما عندك. فسلّمت عليه وقعدت بين يديه وقلت له واقعتي، فقال: نعم يبارك لك الابتداء ولم تصل إلى درجة بعد، ولكن إن صادفت التربية تصل إلى درجة عالية. فقلت في نفسي: إن شيخي هو هذا. فأقمت عنده فأمرني بالرياضات والمجاهدات مدة مديدة ثم عقد لي مجلس الوعظ والتذكير وزوّجني كريمته.

قال الإمام حجة الإسلام الغزالي قدّس سره: سمعت الشيخ أبا علي الفارمدي، قدّس سرّه، يقول نقلاً عن شيخه أبي القاسم الجرجاني قدّس سرّه: إن الأسماء التسعة والتسعين تصير أوصافاً للعبد السالك وهو بعد في سلوكه غير واصل. انتهى.

وقد عُلم مما سبق في أول ترجمة صاحب الترجمة أن اجتماع النسبتين إنما هو في الشيخ أبي علي الفارمدي، قدّس سرّه، على الصحيح وما في «الرشحات» إنما هو قول البعض، والله أعلم.

وإلى هنا تمّت الزيادة، فلنشرع بعد فيما نحن بصدده بحول الله تعالى وقوّته.

* * *

حضرة الشيخ الخواجه يوسف أبو يعقوب الهمداني قدّس الله سرّه

أورد الشيخ قطب الأولياء الحافظ خواجة محمد بارسا، قدّس سرّه، في كتابه المسمى بـ«فصل الخطاب»: رأيت مكتوباً بخط مولانا شرف الملة والدين، العقيلي الأنصاري البخاري روّح الله روحه، وكان من كبار العلماء ومنسلكاً في سلسلة الأكابر النقشبندية العلية ما نصه: إن الشيخ يوسف الهمداني، قدّس الله سرّه، لما بلغ سنه ثمانية عشر سنة سافر إلى بغداد وتفقّه على الشيخ أبي إسحاق وبلغ درجة الكمال في علم النظر. وكان على مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى، واشتغل أيضاً بالتحصيل في بخارى وأصفهان، وكان مقبولاً في بلاد العراق وخراسان وخوارزم وما وراء النهر. وأقام مدة في جبل زر، ولبس الخرقة من يد الشيخ عبد الله الجويني، وانتسب في التصوُّف إليه وإلى الشيخ حسن السمناني والشيخ أبي علي الفارمدي، رحمهم الله تعالى.

وكانت ولادته في سنة أربعين وأربعمائة، ووفاته سنة خمس وثلاثين وخمسمائة.

وذكر الإمام اليافعي، قدّس سرّه، في تاريخه: أن الشيخ الخواجة يوسف الهمداني كان صاحب الأحوال والكرامات واستفاد في بغداد وأصفهان والعراق وخراسان وسمرقند وبخارا وأفاد. وتعلّم علم الحديث، وكان واعظاً وانتفع به خلق كثير، ونزل في مرو وأقام فيه مدة، ثم ذهب منه إلى هراة وجلس فيها زماناً، ثم رجع ثانياً إلى مرو، ثم خرج بعد مدة إلى هراة وسكن فيها برهة، ثم عزم ثالثاً إلى مرو، وتوفي في الطريق ودفن في موضع وفاته.

وقيل: إن مريده ابن النجار نقل جسده المبارك من مدفنه إلى مرو، وقبره الآن فيه يُزار ويُتبرَّك به.

ولما قرب وفاته انتخب أربعة من أصحابه للإرشاد وشرَّفهم بالخلافة والنيابة على رؤس الأشهاد، فكان كل من هؤلاء الأربعة في مقام دعوة الخلق وهداية الطالبين إلى طريق الحق. وأقام الباقون من أصحابه في مرتبة المتابعة والملازمة لهم رعاية للأدب. وسنورد كلاً منهم مع خلفائهم طبقة بعد طبقة إلى آخر السلسلة النقشبندية العلّية على الترتيب، وبالله التوفيق.

* * *

الشيخ الخواجة عبد الله البرقي قدّس سرّه

هو أول خلفاء الشيخ خواجه يوسف الهمداني، قدّس سرّه. خوارزمي الأصل، كان عالماً وعارفاً، صاحب الكرامات والمقامات. وذكر في أنساب الشيخ عبد الكريم السمعاني رحمة الله عليه أن نسبة الخواجة عبد الله إلى برق - بفتح الراء المهملة المشددة معرب بره - لأن بعض آبائه وأجداده كان صاحب غنم وكان يبيع أولادها. وبره بالفارسية هو ولد الغنم. وقبره المبارك على رأس شورستان - يعني في بخارا - قريب مزار الشيخ أبي بكر إسحاق الكلابادي رحمهما الله.

* * *

الشيخ الخواجة حسن الإنداقي قدّس سرّه

هو ثاني خلفاء الشيخ الخواجة يوسف، قدّس سرّه، وكنيته: أبو محمد، واسمه: حسن بن حسين الإنداقي. وهي قرية على ثلاثة فراسخ من بخارا.

وأورد السمعاني في «أنسابه»: أن في مرو قرية على فرسخين من البلد يقال لها أيضاً: أنداقا، معرّب أندك بالفارسية، ونسبة الخواجة حسن إلى أنداق بخارا لا أنداق مرو.

وقال فيه: كان الخواجة حسن شيخ وقته، ومرشد زمانه، وكانت له طريقة مقبولة في تربية المريدين ودعوة الخلق إلى الحق سبحانه، وصفاء الوقت، ودرام العبادة، وكثرة الرياضة، ومتابعة الآثار والسنّة النبويّة، وملازمة الآداب المصطفوية ﷺ. وصحب خواجة يوسف الهمداني، قدّس سرّه، ولازمه سنين، وكان من خواص أصحابه ومريديه وسافر معه إلى خوارزم وبغداد. ولقيته أولاً في خانقاه الشيخ يوسف الهمداني بمرو ولكن لم يحصل التعارف بيننا، ثم لقيته ثانياً في بخارى

فكنت أتردد إليه وأطلب التبرُّك بصحبته والمثول لديه وهو يكرمني فوق الغاية. وسمعت منه بعض الأحاديث برواية شيخنا الخواجة يوسف الهمداني، قدّس سرّه.

وولادته سنة اثنتين وستين وأربعمائة. ووفاته في السادس والعشرين من شهر رمضان سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة. وحلّ في مرقده الشريف في الليلة السابعة والعشرين من الشهر المذكور. وهو حفيد الإمام العالم الرباني العامل الفقيه الحقاني الشيخ عبد الكريم أبي حنيفة الإنداقي الذي هو من كبار تلامذة شمس الأئمة الحلواني رحمهما الله تعالى.

وحكي أنه لما وصل الخواجة حسن الإنداقي إلى ملازمة الخواجة يوسف الهمداني، قدّس سرّه، وأخذ منه الطريقة، وصل حاله من دوام الاشتغال بالذكر والفكر في مدة يسيرة إلى مرتبة صار فيها مغلوب الحال ووقع كثير من مهماته الضرورية في التعويق والاختلال، ولم يتيسر له كفاية معاش الأولاد والعيال، فقال له شيخه الخواجة يوسف: إنك محتاج وصاحب عيال ومباشرة بعض الأمور ضرورية والإهمال فيه والإمهال غير جائز شرعاً وعقلاً. فقال له في جوابه: إن حالي على وجه ليس لي معه مجال مباشرة أمر آخر. فحصل لخواجة يوسف من هذا الكلام غيرة فعاتبه فرأى ليلته في منامه ربّ العزّة وهو سبحانه وتعالى يقول: «يا يوسف إنَّا أعطيناك البصارة، وأعطينا الحسن البصارة والبصيرة». المراد من البصارة: عين العقل، ومن البصيرة: عين القلب. فأكرمه خواجة يوسف بعد ذلك غاية الإكرام ولم يكلفه بشيء من أمور الدنيا.

وقبره المبارك في بخارى خارج باب كلاباد قريب مزار الشيخ أبي بكر إسحاق الكلابادي في جانبه الشرقي، رحمهما الله تعالى.

* * *

حضرة الخواجة أحمد اليسوي
رحمه الله وقدّس سرّه

هو ثالث خلفاء الشيخ خواجه، قدّس سرّه. ويقول له الأتراك: آتايسوي. وآتا: لفظ تركي بمعنى الأب والوَالد، والأتراك يطلقونه على المشائخ الكبار تعظيماً لهم.

مولده: يسي، وهو بلد مشهور من بلاد تركستان، ومرقده أيضاً هناك.

كان، قدّس سرّه، صاحب آيات ظاهرة وكرامات باهرة، وأحوال سامية،

ومقامات عالية، وكان في صباه منظوراً ينظر كيمياء بابا أرسلان، قدّس سرّه، الذي هو من قدماء مشائخ الترك ومن كبار علمائهم. وقيل: إن بابا آرسلان اشتغل بتربيته بإشارة النبي عليه الصلاة والسلام ـ يعني في المنام ـ ووقعت له في خدمة بابا ترقيات كلية. وكان ملازماً لصحبته مدة حياته. ولما توفي إلى رحمة الله قَدِمَ بخارى وصَحب الشيخ يوسف الهمداني وتمّ سلوكه في خدمته وبلغ درجة الإرشاد والتكميل.

وذكر في رسالة بعض المتأخرين من هذه الطائفة، قدّس الله أرواحهم: أنه لما وصلت نوبة الخلافة إلى الشيخ الخواجة أحمد اليسوي بعد وفاة الخواجة عبد الله البرقي والخواجة حسن الإنداقي، واشتغل بدعوة الخلق في بخارى مدة، وقعت له الهزيمة بإشارة غيبيته إلى طرف تركستان ووصى أصحابه وقت سفره بمتابعة الخواجه عبد الخالق الغجدواني، قدّس سرّه، وملازمته وتوجه إلى طرف يسي.

واعلم أن حضرة الشيخ خواجه أحمد اليسوي، قدّس سرّه، هو رئيس حلقة مشائخ الترك ومقتداهم وانتساب أكثر مشائخ الترك ينتهي إليه. وكان في سلسلته من الأكابر والأعزّة ما لا يحصى بحيث يستدعي ذكر كلهم كتاباً على حدّة فلا جرم نكتفي هنا بذكر سلسلة أصحابه المتصلة بزمان حضرة شيخنا، قدّس سرّه، ثم نشرع بعد ذلك في ذكر الخواجة عبد الخالق الغجدواني، قدّس سرّه.

واعلم أنه كان لخواجة أحمد أربعة خلفاء، وأنا أذكرهم على سبيل الإجمال، وبالله التوفيق.

• **منصور آتا**: رحمه الله هو الأول من خلفائه، ابن بابا أرسلان من صلبه. كان عالماً في علم الظاهر والباطن وحصل التربية في مبادي أمره من والده الماجد. وبعد وفاته بادر إلى ملازمة الخواجة أحمد بإذن والده ووصل بعنايته ورعايته إلى أعلى درجات الولاية.

• **عبد الملك آتا**: رحمه الله تعالى، ابن منصور آتا. جلس بعده مجلسه وتشمّر لتربية المستعدّين، وكان في مسند الإرشاد سنين. وأرشد الطالبين إلى طريق الهداية واليقين.

• **الشيخ تاج خواجة**: رحمه الله تعالى، ابن عبد الملك آتا ووالد زنجي آتا الآتي ذكره. حصّل التربية في الطريقة والحقيقة من والده الماجد بعد تحصيل علوم

الرسوم، وتصدّى لتربية الطالبين بعد البلوغ درجة الكمال والتكميل.

• **سعيد آتا رحمه الله تعالى**: هو الثاني من خلفاء الخواجة أحمد، وربى المريدين بإشارته.

• **سليمان آتا رحمه الله تعالى**: ثالث خلفائه، وهو من كبار مشايخ الترك، وحكمه التركية في معاملات السالكين مشهورة ومعروفة في بلاد تركستان. ومن جملة فوائد أنفاسه المباركة هذا المثل الذي أورده في احترام الخلق واغتنام الوقت:

هركيم كور سنك خضر بيل ... هرتون كورسنك قدر بيل

يعني:

اعتقد كل من لقيته خضراً ... وتصور كل الليالي قدراً

وأيضاً هذا المثل في كسر النفس منسوب إليه:

بارچه يخشى بزيمان ... بسارچه بغداي يزصمان

يعني:

كل الناس أخيار ونحن الأشرار ... وكل الناس حنطة ونحن تبن

• **حكيم آتا رحمه الله تعالى**: رابع خلفائه. جلس سنين في مسند الإرشاد ودعا الخلق إلى طريق الحق بعد الخلفاء الثلاثة. وكان مسكنه خوارزم، وفيه ارتحل عن الدنيا في موضع يقال له: آق فورغان، يعني: القلعة البيضاء. وقبره هناك معروف ومشهور يزار ويتبرّك به.

• **زنجي آتا قدّس سرّه**: ويقال له أيضاً: زنجي بابا، هو من أعظم خلفاء حكيم آتا وأقدمهم. مولده ومسكنه بلد تاشكند، وقبره المبارك أيضاً هناك يذهب الخلق لزيارته ويَصِلُون بمدده إلى مراداتهم.

وروى مولانا القاضي محمد عليه الرحمة عن حضرة شيخنا أنه قال: كلما جئت إلى مزار زنكي آتا كنت أسمع من قبره المبارك نداء: الله الله.

وهو، قدّس سرّه، ابن تاج خواجة حفيد بابا أرسلان. وكان سنين في تربية والده الماجد، وبعد وفاة والده التزم صحبة حكيم آتا بإشارة غيبية وبشارة ربيّة مدة حياته. وتزوج بعد وفاته زوجته المسماة بعنبرآنا بنت براق خان وحصل له منها أولاد

وأحفاد، وكان كل واحد منهم عالماً وعاملاً وصاحب إرشاد، وكان كل واحد في زمانه مقتدى السالكين ومرشد الطالبين إلى سبيل الرشاد.

قيل: إن حكيم آتا كان أسود اللون، فخطر يوماً على قلب عنبرآتا: ليت حكيم آتا لم يكن أسود. فأشرف حكيم آتا بنور الكرامة على خاطرها وقال: ستصحبين بعدي شخصاً أسود مني. فكانت بعد موت حكيم آتا نصيب زنجي آتا.

وقال البعض: إن زنجي آتا ما لقي حكيم آتا بحسب الظاهر بل كانت تربيته له بحسب المعنى والروحانية. والأول أصح. وقيل: إن زنجي آتا لم يكن في خوارزم حين توفي حكيم آتا بل كان في تاشكندر، ولما سمع خبر وفاته توجه إلى طرف خوارزم ولم يمكث لحظة إلى أن وصل إليها وأدى آداب الزيارة وتعزية أهل المصيبة، ولما انقضت مدة عدة عنبر آتا أرسل إليها واحداً من محارمها يخطبها لنفسه فأعرضت عنه بوجهها وقالت: لا أرضى بزواج أحد بعد حكيم آتا خصوصاً بهذا الزنجي الأسود. فصارت رقبتها معوجة إلى جانب قلبت فيه وجهها فاضطربت من هذا الحال. ورجع الرسول إلى زنجي آتا وأخبره بما جرى بينها وبينه وبما أجابت، فأرسله إليها ثانياً وقال: اقرأها مني السلام وقل لها: أما تذكرين وقتاً خطر على قلبك أن ليت لم يكن حكيم آتا أسود فأشرف حكيم آتا على ما وقع في قلبك وقال: ستصحبين بعدي شخصاً أسود مني. فلما بلَّغها الرسول ذلك تذكرت ما جرى بينها وبين حكيم آتا وبكت وقالت: رضيت بما يريد زنجي آتا. فاستقامت رقبتها في حالتها، فتزوجها زنجي آتا.

وكان لزنجي آتا أربعة خلفاء: أوزن حسن آتا، وسيد آتا، وصدر آتا، وبدر آتا. وكان هؤلاء الأربعة في مبادي الحال ساكنين في مدرسة من مدارس بخارى مشتغلين بتحصيل العلوم، وكانوا متشاركين في المطالعة بغاية الاهتمام والجد التام. فوقع على خاطر كل من هؤلاء الأربعة العظام في ليلة واحدة على سبيل الاتفاق سلوك الطريقة العلية وإرادتها، ففرقوا على الصباح ما في حجرهم من الأشياء وتوجهوا إلى جانب الصحراء قاصدين لتركستان، فصادف ممرهم إلى زنجي آتا. ولنذكر أحوال كل منهم على سبيل الإجمال:

* **أوزن حسن آتا رحمه الله تعالى**: أول خلفاء زنجي آتا. قيل: إن هؤلاء الأعزّة الأربعة لما وصلوا إلى ولاية تاشكند رأوا في الصحراء شخصاً أسود غليظ

الشفة يرعى طائفة من البقر، وكان هو زنكي آتا، فإنه كان يرعى بقرات أهل تاشكند في مبادي أحواله لستر حاله ومعيشة عياله وكفاية أولاده وأطفاله. قيل إنه كان يشتغل في الصحراء بعد كل صلاة بذكر الجهر وكانت البقرات تتركن الأكل وتتحلقن حوله مدة اشتغاله بالذكر، فلما قرب هؤلاء الطلبة إليه رأوه حافياً يكسر أشجاراً ذات شوك برجليه ولا يؤثر الشوك في رجليه، ويربطها بالحبال ليحملها إلى بيته. فتعجبوا من عدم تأثير الشوك في رجله، فجاؤوا إليه وسلَّموا عليه، فرد عليهم السلام، وقال: أحسبكم غرباء في هذه الديار، فمن أين ساقتكم الأقدار؟ فقالوا: نحن من طلبة العلوم، كنا في بخارى مشتغلين بالتحصيل، فوقع الفراغ عنه علينا وحبب سلوك طريق القوم لدينا، فخرجنا من تلك الديار وجبنا الصحارى والقفار نلتمس المرشد الكامل من قوم أخيار، ونرجو من فضله سبحانه وتعالى أن يوصل إلى مشام أبصارنا أو مسام آذاننا روائح الأبرار فيتيسّر لنا في صحبته الخروج عن دائرة البُعد والضلال والعروج إلى مركز القرب والكمال. فقال لهم: اصبروا حتى أشم أطراف العالم وأستخبر لكم: مَن مرشد الأنام.

فجعل يستنشق الجهات الأربع، ثم قال: شممت جميع جوانب العالم فلم أجد في الربع المسكون إنساناً يخلِّصكم عن حضيض النقصان ويرقِّيكم إلى ذروة الكمال غيري. فوقع من هذا الكلام إنكار في باطن سيد آتا وبدر آتا، وقال سيدي آتا في قلبه: إني مع كوني سيداً عالماً كيف أتبع هذا الأسود راعي البقر! وقال بدر آتا في نفسه: أنظر إلى هذا الزنجي الذي شفته كشفة البعير كيف يدعي دعاوى طويلة عريضة.

وأما أوزون حسن آتا وصدر آتا فلم يحصل لهما إنكار على دعواه بل قالا في نفسهما: يمكن أن يودع الله سبحانه نوراً في هذا الأسود. فتصرف زنجي آتا في باطنهم مقارناً لهذا الحال وجعل قلوبهم متعلقة به ومنجذبة إليه. وكان أول من تقدم منهم للبيعة لزنجي آتا آوزون حسن آتا، وكان أول من وجد الإذن والإرشاد بعد البلوغ إلى درجة الكمال أيضاً آوزون حسن آتا.

• **سيد آتا رحمه الله**: ثاني خلفاء زنجي آتا. واسمه سيد أحمد. لكن اشتهر بسيد آتا. قيل: إنه اجتهد في ملازمة زنجي آتا اجتهاداً بليغاً واشتغل بالرياضات الشاقة ومع ذلك لم ير في باطنه أثر الرشد، ولم يترتب على سعيه الفتوح، فعرض

ألم باطنه على عنبر آتا وقال: إن كلامك مقبول عند آتا فأرجو أن تشفعين لي بكلمة إليه فلعليّ أتشرف بنظر عنايته وأكون من المرضيين لديه. فقبلته عنبر آتا وقالت: لف نفسك الليلة بالنبد الأسود وكن منتظراً في الطريق، فلعله يراك وقت ذهابه إلى الطهارة على هذا الحال فيرق لك ويرحمك.

ففعل سيد آتا ما أمرت به وقالت عنبر آتا في الليلة لجناب آتا: إن السيد أحمد عالم، وكان مدة في الملازمة ولم يكن منظوراً بنظر خاص من جنابك، فألتمس منك أن ترحم لحاله. فتبسَّم زنجي آتا وقال: إن سبب انسداد طريق الفتوح عليه إنما هو علمه وسيادته فإني لما أرشدته إلى نفسي في أول لقائه أخطر بقلبه: أني مع كوني سيداً وعالماً جيداً كيف أتبع هذا الأسود راعي البقر، لكن لما كنت شفيعة له عفوت عنه.

ثم إنه لما خرج وقت السحر رأى شيئاً أسود مطروحاً في الطريق، فوضع عليه رجله، وكان هذا الشيء هو السيد آتا، فصادف رجل زنجي آتا إلى صدره فقبَّل رجله فقال له آتا: مَن أنت؟ فقال: غلامك أحمد، فقال آتا: قم فقد استقام أمرك بهذا الانكسار. والتفت إليه في هذا المحل بالتفات خاص، ولما قام من مطرحه انكشف له مقصوده وفُتح له أبواب المواهب والفتوح ووصل في مدة يسيرة إلى درجة الإرشاد، ورقّي كثيراً من الناقصين إلى ذروة الكمال.

واعلم أن سيد آتا كان معاصراً لحضرة عزيزان، خواجة علي الراميتني، الآتي ذكره في بيان طبقة المشايخ النقشبندية، قدّس الله أسرارهم العلية، ووقعت بينهم مفاوضات سنورد نبذة منها عند ذكر أحوال عزيزان، قدّس سرّه.

وذكر في مقامات خواجة بهاء الدين النقشبند، قدّس سرّه: نقل حضرة الخواجة أن سيد آتا مر يوماً بزرّاع يزرع الذرة في أرض، فقال له: إيش تزرع؟ فقال: أزرع الذرة ولكن لا تنبت هذه الأرض الذرة جيداً. فقال سيد آتا ـ خطاباً للأرض ـ: يا أرض أعط ذرة جيدة. فنبتت الذرة في تلك الأرض سنين من غير إلقاء البذر.

* **إسماعيل آتا قدّس سرّه**: كان هو من كبار خلفاء سيد آتا، وخُلص أصحابه.

قال حضرة شيخنا: تعرض الناس على إسماعيل آتا في أوائل حاله، فكان إسماعيل آتا يقول لهم: أنا ما أعرف هذا ولا ذاك، آشين ورم طبلن ققرم ـ يعني:

أعطي طعامه واضرب طبله ـ. وكان يسكن في نواحي خوزيان، وهي قصبة بين سيرام وتاشكند يقال لها: كجك تربت والوغ. تربت يعني: التربة الصغيرة والتربة الكبيرة. وكان موالي تلك الديار يتعرّضون إليه ويغتابونه دائماً وهو يقول: إن هؤلاء الموالي صابوننا وأشناننا. وكان حضرة شيخنا يستحسن هذا الكلام منه غاية الاستحسان.

ومن أنفاسه النفيسة: كن ظلاً في الشمس، ولباساً في البرد، وخبزاً عند الجوع.

قال حضرة شيخنا: إن كلامه هذا كلام جامع. وقال حضرة شيخنا: إن إسماعيل آتا كان يقول للمريد بعد تلقين الذِكْر إياه: يا درويش كنت أنا وأنت أخوين في الطريقة فاقبل مني نصيحة: تخيّل هذه الدنيا كأنها قبة واحدة زرقاء ليس فيها أحد إلا أنت والحق سبحانه وتعالى لا غير، فاذكر الله سبحانه وتعالى ذِكراً كثيراً حتى لا يبقى فيها من غلبة التوحيد وقهره للنفس إلاّ الحق سبحانه وتعالى وترتفع أنت من البين وتكون متلاشياً في أنوار التوحيد.

قال حضرة شيخنا: تفوح من هذا الكلام روائح عطرية. وقال حضرة شيخنا نقلاً عن خاله الشيخ إبراهيم: إن حضرة السيد الشريف الجرجاني، قدّس سرّه: كان يقول لي: يا شيخ زاده يفوح من سجدات مريدي إسماعيل آتا عرف المذاق رحمهم الله تعالى.

• **إسحاق خواجة رحمه الله**: ابن إسماعيل آتا. كان صاحب صفاء وقت وأحوال عالية، وكان مقيماً في نواحي أسبيجاب، وهي قصبة بين تاشكند وسيرام.

قال الشيخ عبد الله الخجندي، الذي هو من أصحاب حضرة خواجة بهاء الدين، قدّس سرّه: إنه حصلت لي جذبة قوية قبل تشرُّفي بشرف صحبة حضرة الخواجة، قدّس سرّه، بسنين، فوصلت إلى مرقد الخواجة محمد بن علي الحكيم الترمذي، قدّس سرّه، فوجدت منه إشارة مشتملة على بشارة بأن: ارجع إلى وطنك فإن مقصودك يحصل ببخارا بعد اثنتي عشرة سنة وهو موقوف على ظهور خواجة بهاء الدين النقشبند قدّس سرّه. فحصل لي من تلك الإشارة جمعية في الجملة فرجعت إلى وطني. ثم بعد زمان قصدت السوق ومررت بشخصين من الأتراك قاعدين على

باب مسجد يتكلمان ويبكيان، فملت إليهما وأصغيت إلى كلامهما فإذا هما يتكلمان في الطريقة، فرغبت في صحبتهما، فجئت عندهما بمقدار من الطعام والثمار وأظهرت لهما التواضع والانكسار، فقال أحدهما للآخر: أرى هذا الرجل طالباً صادقاً فاللائق به أن يكون في صحبة سلطان زادة مخدومنا إسحاق خواجة. ولما سمعت منهما هذا الكلام قويت في داعية الطلب، فقلت لهما: مَن إسحاق خواجة وأين هو؟ قالا: هو في أسبيجاب. فوصلت إلى صحبته، وطلبت منه الطريقة وأضمرت عنه واقعة ترمذ، فبقيت في خدمته أياماً وكان له ولد يلوح من ناصيته آثار النجابة وأنوار الرشد، فقال يوماً لوالده الماجد شفاعة لي: أن هذا الدرويش رجل متواضع لائق بالخدمة فالأنسب أن تشرّفه بشرف القبول. فقال إسحاق خواجة: يا ولدي إن هذا الدرويش من مريدي خواجة بهاء الدين النقشبند وليس لنا فيه مجال التصرف. فلما سمعت منه هذا الكلام زاد يقيني بظهور حضرة خواجة بهاء الدين النقشبند، قدّس سرّه، فاستأذنته ورجعت إلى خجند وانتظرت ظهور خواجة بهاء الدين النقشبند، قدّس سرّه، إلى أن ظهر في بخارى، فتشرّفت بشرف صحبته وقبوله.

● **صدر آتا وبدر آتا رحمهما الله**: هما الثالث والرابع من خلفاء زنجي آتا. واسمهما: صدر الدين محمد، وبدر الدين محمد. وكانا في بخارى في حجرة واحدة ودرس واحد، وكانا يأكلان من قصعة واحدة وينامان على فراش واحد. ولما وصلوا إلى صحبة زنجي آتا ظهرت في كل يوم آثار الترقّي في أحوال مولانا صدر الدين، وآثار التنزُّل في أحوال مولانا بدر الدين. فضاق صدر مولانا بدر الدين من هذا الحال وقال في نفسه: إن السيد لما توصل إلى آتا بعنبر آتا كان مظهراً لعنايته، فاللازم عليَّ الآن أن أذهب إليها وألتمس الدواء لدائي من دار شفاء شفقتها.

فجاء عندها حزيناً باكياً وأنهى لها حاله متحسراً والتمس منها الشفاعة لحاله عند زنجي آتا وقال: قولي لجناب آتا أن بدر الدين يقول: كنت أنا ومولانا صدر الدين من غلمان بابه ومتساويين في العبودية فما السبب في زيادة عنايته في حقه؟ فإن وقع مني التقصير فاللازم على جناب آتا التنبيه والتقرير أو التأديب والتعزير حتى أتبادر لتداركه. فلما جاء زنجي آتا من الصحراء في هذا اليوم، وكان اتفاقاً منبسط

الحال ومنشرح البال، بلغت عنبر آتا عريضة مولانا بدر الدين، فقال لها آتا: إن سبب تنزله أنه في أول ملاقاته إياي وحضوره لديّ أخطر بقلبه: أن انظروا إلى هذا الأسود عريض المشفر، كيف يدَّعي دعاوى طويلة عريضة. لكن لما كُنْتِ له شفيعة عفوت عنه وتجاوزت عن ذنبه. فطلبه في حينه، والتفت إليه فوصل في الحال إلى درجة مولانا صدر الدين ومقامه فكانا بعد ذلك متساويين في سير المقامات وقطع منازل السالكين ومتشاركين في ظهور الأحوال ومواجيد العارفين ولم يغلبه بعد ذلك مولانا صدر الدين في وقت من الأوقات، ولم يسبقه في حال من الأحوال في سلوك الطريقة والحقيقة أبداً.

• **أيمن بابا رحمه الله تعالى:** هو من خلفاء صدر آتا. رشد الطالبين إلى طريق الحق بعد وفاته بإشارته.

• **الشيخ علي رحمه الله تعالى:** خليفة أيمن بابا وجلس بعده مكانه على مسند الإرشاد.

• **الشيخ مودود رحمه الله تعالى:** خليفة الشيخ علي، وربى بعده المستعدين.

• **الشيخ كمال رحمه الله تعالى:** هو من كبار أصحاب الشيخ مودود، وكان مقيماً بولاية شاش.

قال حضرة شيخنا، قدّس سرّه: كان الشيخ كمال من مريديِ الشيخ مودود وأخاً في الطريقة للشيخ خادم. ولما قدمت من سفر خراسان وأقمت بطاشكند كان الشيخ كمال يحضر مجلسنا كثيراً.

قال بعض الأعزّة: جاء الشيخ كمال يوماً عند حضرة شيخنا فقال له شيخنا: قل لنا ذكر الآره ـ وهو ذكر من أذكار سلسلة مشايخ الترك يظهر عند الاشتغال بهذا الذكر من حنجرة الذاكر صوت مثل صوت المنشار عند إمراره على الخشب. والآره بالفارسية هو: المنشار ـ. فقال الشيخ من هذا الذِكر سبع أو ثماني مرات امتثالاً لأمر شيخنا، فقال حضرة شيخنا: يكفي، فقد توجع قلبي.

وقال بعض الأصحاب: بل قال شيخنا: يكفي فقد احترق من العرش إلى الفرش ـ يعني من أثر هذا الذكر ـ، ثم تأمل لحظة فقال: إني تفكّرت الآن أنه إذا

قال منكر أي نوع هذا من الأذكار ماذا نقول في جوابه. ثم أنشد هذا البيت من الشعر:

طيور رياض بكل صباح بشن ثناك بكل اصطلاح

* **الشيخ خادم رحمه الله:** كان من جملة أصحاب الشيخ مودود، وكان في مبادىء ظهور شيخنا مقتدى جمعٍ كثيرٍ في ما وراء النهر ومرشدهم، وكان مقيماً بولاية شاش ووقع بينه وبين شيخنا ملاقات كثيرة رحمه الله تعالى.

* **الشيخ جمال الدين البخاري رحمه الله:** هو خليفة الشيخ خادم وقائم مقامه. قَدِمَ هرة وأقام مع جمع كثير من مريديه في مرقد مولانا سعد الدين الكاشغري، قدّس سرّه، وتوفي فيه إلى رحمة الله تعالى، ودفن تحت قبر مولانا المذكور. وكان هذا الفقير يتشرّف بصحبته أحياناً في ملازمة مولانا رضي الله عبد الغفور عليه الرحمة والغفران وكان هو ينقل عن شيخه فوائد كثيرة. ولنذكر بعضاً منها في ضمن خمس رشحات:

* رشحة: قال: قال شيخنا، الشيخ خادم، في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: الآية ٢٢]: إن طائفة من الناس يحصلون من الذكر قساوة القلب، وذلك أنهم يذكرون الله سبحانه من غير رعاية الأدب وعلى غير الحضور بل على الغفلة والفتور بمقتضى نفوسهم الخبيثة وطباعهم الخسيسة، ولعل في قوله تعالى: ﴿مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: الآية ٢٢] إشارة إلى أمثال هذا الذكر وإن فسر المفسرون: مَن بـ: عن، قالوا: معناه غَفِلَ عن ذكر الله.

* رشحة: قال: قال شيخنا: إن الحضور الذي يحصل للسالك في نهاية الذكر وغاية العبور عن مراتب الذكر ربما يحصل قبل الوصول إلى النهاية، لكن لا يكون لهذا الحضور بقاء بل يزول سريعاً بمقتضى بقية أحوال الطبيعة البشرية، فإن تيسر العبور عن مراتب الذكر الذي هو عبارة عن مشاهدة بعض الأنوار ومكاشفة شيء من الأسرار تقعد تلك المراتب مقام الطبيعة كالأجسام اللطيفة فيتخلص السالك من قيد الطبيعة البشرية وربط التفرقة.

* رشحة: قال: قال شيخنا: إن الدليل على صحة الأحوال الواردة أن يحصل تلك الأحوال وقت الفناء والاضمحلال ويزول الكلفة في الأعمال، ويحصل الميل

إلى الشريعة الغراء، وتتجدد المحبة لها حتى يقوم بإتيان أحكام الشريعة بكمال الشوق والبهجة والسرور من غير كلفة وكسالة وفتور.

* رشحة: قال: جاء واحد من علماء الرسوم عند شيخنا وقال: إن حال أهل الرقص والسماع لا يخلو من أحد الشقّين، فإنهم وقت الرقص إما متصفون بصفة اليقظة والشعور أم لا. فإن كانوا متصفين بالشعور فالحركة والرقص وإظهار الغيبة والفناء مع وجود الشعور في غاية القباحة، وإن لم يكونوا متصفين به فما بالهم يُصلّون بعد الإفاقة من غير تجديد الوضوء، فهذا أشنع وأقبح من الأول فإن وضوئهم قد انتقض بزوال الشعور. فقال له الشيخ: إن واحداً من أسباب انتقاض الوضوء أن يكون العقل مسلوباً كما يقع على المجانين أو أن يكون العقل مستوراً ومغلوباً كما يقع في حالة الإغماء والغشي وعدم شعور هذه الطائفة حال الرقص والسماع ليس بداخل في واحد من هذين الشقين فإنه لا تسلب عقولهم ولا تكون مستورة، وإنما السبب لعدم شعورهم. والحكمة فيه: أن العقل الكلي يفاض من العالم الإلٰهي على العقل الجزئي الحاصل في الإنسان وقت السماع، ويكون حاكماً في مملكة وجود السالك ويغلب عليه. وفي هذا العقل الكلي قوة تدبير جميع العالم وقدرة ضبطه، فكيف لهذا البدن الضعيف من بني آدم؟ فالبدن في هذا الحال يكون في ظل حمايته وكنف تدبيره، فكيف يتطرّق إليه شيء من نواقض الوضوء! لأن الطالب الصادق لما كان مدبره وحاميه هذا العقل الكلي يخرج في تلك الحالة من أحكام الطبيعة بكليته ويتخلص من لوازم البشرية برمته فلا يحتاج إذاً إلى تجديد الوضوء أصلاً.

* رشحة: قال: قال شيخنا: قال بعض أكابر النقشبندية قدّس الله أرواحهم: إن وجود العدم يعود إلى وجود البشرية، وأما وجود الفناء فلا يعود إلى وجود البشرية.

ومعنى هذا الكلام بحسب الظاهر: أن المراد من وجود العدم هو تحقق صفة العدم في الطالب التي هي عبارة عن الغيبة التي تحصل للمبتدئين في الطريقة النقشبندية في أثناء مشغوليتهم. وأما بحسب الحقيقة فإن وجود العدم عبارة عن ظل الوجود الحقيقي الذي يلقيه إلى مدركة السالك ثم بواسطة كمال شغله الباطني وخلوّ قلبه عن النقوش الكونية يظهر ذلك الظل بعد غيبته وهذا الظل هو وجود ذلك العدم، وهذا الوجود يعود إلى وجود البشرية، يعني يزول هذا الظل ثانياً ويستتر ويغلب لوازم وجود البشرية بخلاف الوجود الموهوب الحقاني الذي يقال له: البقاء بعد

الفناء، فإنه لا يزول لحصوله بعد التحقق بمقام الفناء، فكما أن الفناء يعقبه وجود البقاء، كذلك هذا العدم يعقبه الوجود. وذلك الوجود وإن كان في الحقيقة ظل الوجود الحقيقي الباقي لكنه بواسطة عدم التحقق بمقام الفناء يتوارى أحياناً إلى أن يكون ثابتاً وراسخاً.

* **خواجه عبد الخالق الغجدواني قدّس سرّه:** هو الرابع من خلفاء خواجة يوسف الهمداني، قدّس سرّه، وقدوة طبقات خواجكان، ورئيس السلسلة النقشبندية قدّس الله أرواحهم وروح أشباحهم.

مولده ومدفنه قرية غجدوان، وهي قرية كبيرة تقارب البلد على ستة فراسخ من بخارى. واسم والده الشريف عبد الجميل. وعرف بالإمام عبد الجميل، وهو من أولاد الإمام مالك إمام دار الهجرة رضي الله عنه. وكان مقتدي وقته وعالماً بعلوم الظاهر والباطن. وكان أولاً ساكناً في ملاطية من بلاد الروم، وكانت زوجته والدة خواجة عبد الخالق من بنات بعض ملوك الروم.

قيل: إن الإمام عبد الجميل تشرّف بصحبة الخضر عليه السلام وبشّره الخضر بوجود حضرة خواجة، وسمّاه بعبد الخالق. ولما ارتحل الإمام بسبب حوادث الأيام من بلاد الروم والشام إلى ديار ما وراء النهر مع متعلقاته من الخاص والعام، قدم ولاية بخارى واختار للإقامة قرية غجدوان فولد له فيها حضرة خواجة ونشأ بها واشتغل في مبادي حاله بتحصيل العلوم في بخارا.

ولما بلغ قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: الآية ٥٥] الآية، وقت اشتغاله بقراءة التفسير عند أستاذه الإمام صدر الدين الذي هو من كبار علماء بخارى في زمانه، سأله عن حقيقة هذه الخفية وطريقتها وكيفيّة تحصيلها، وقال: إن الذاكر إذا ذكر بلسانه جهراً أو تحرك شيء من أعضائه وقت الذكر يطلع عليه الأغيار، وإن ذكر بقلبه فبمقتضى هذا الحديث: **«أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»**[(١)]، يطلع عليه الشيطان فلا تتحقق الخفية في حال من الأحوال. فقال أستاذه: إن هذا علم لدني فإذا أراد الله تعالى لك ذلك يوصلك إلى واحد من أهل

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في أبواب عدة منها: باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، حديث رقم (١٩٣٣) [٢/ ٧١٧] ورواه مسلم في صحيحه، باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خالياً بامرأة. . .، حديث رقم (٢١٧٥) [٤/ ١٧١٢] ورواه الترمذي في سننه، باب ١٧، حديث رقم (١١٧٢) [٣/ ٤٧٥] ورواه غيرهما.

الله فيعلّمك كيفيّتها وحقيقتها. فكان حضرة الخواجة بعد ذلك منتظراً لقاء أحد من أهل الله سبحانه وتعالى حتى لقي الخضر عليه السلام، فعلّمه الوقوف العددي.

وذكر في «فصل الخطاب»: أن كيفيّة اشتغال خواجة عبد الخالق الغجدواني حجة في الطريقة ومقبولة عند جميع الفرق.

كان، قدّس سرّه، مداوماً على طريق الصدق والصفاء ومتابعة الشريعة، وسنّة نبيّنا محمد المصطفى ﷺ، ومجانباً للنفس، ومخالفاً لهواها. وكان يستر سيرته السنيّة عن نظر الأغيار. تلقن الذكر القلبي أيام شبابه عن الخضر عليه السلام فكان يواظب على الذكر المذكور، وقبّله حضرة الخضر عليه السلام للوالدية وأمره بأن يغوص في الحوض وأن يقول بقلبه تحت الماء: لا إله إلا الله محمد رسول الله. ففعله الخواجة وأخذ منه ذلك واشتغل به هنالك ففتح له أنواع الفتوح والترقيّات فوق إدراك المدارك.

وكان كيفيّة اشتغاله من أول حاله إلى آخر أمره ومآله ونهاية كماله مقبولة ومحبوبة عند جميع الخلق. ولما قَدِم الخواجة يوسف الهمداني، قدّس سرّه، إلى بخارى حضر الخواجة عبد الخالق صحبته وعلم أن له أيضاً اشتغالاً بالذكر القلبي. فاغتنم صحبته ولازمه مدة إقامته ببخارا ولذا قيل: إن الخضر عليه السلام شيخه في التعليم والتلقين والخواجة يوسف شيخه في الصحبة. وطريقة خواجة يوسف ومشايخه قدّس الله أسرارهم، وإن كانت علانية لكن لما أخذ الخواجة عبد الخالق الذكر الخفي عن الخضر عليه السلام وأمر بذلك لم يغيره شيخه الخواجة يوسف بل أمره أن يشتغل على الوجه الذي كان مأموراً به من الخضر عليه السلام.

وذكر في بعض تحريرات الخواجة عبد الخالق قدّس سرّه: لما بلغت من العمر اثنين وعشرين سنة فوّضني محيي القلوب الميتة الخضر عليه السلام إلى الشيخ الكبير العارف الرباني خواجة يوسف الهمداني، قدّس سرّه، ووصّاه بتربيتي. فما دام ساكناً في ما وراء النهر كنت في خدمته وملازمته واستفدت منه واستفضت. ثم لما رجع خواجة يوسف إلى خراسان اشتغل خواجة عبد الخالق بالرياضات وستر أحواله عن الأغيار وبلغ ولايته وكرامته مرتبة. كان يذهب إلى مكة في كل وقت من أوقات الصلاة ويرجع.

وظهر له في ولاية الشام مريدون لا يحصون، وبنيت رباطات نيها على اسمه.

وجلس مدة في مقام الإرشاد ودعوة الخلق ودلالة الطالبين على طريق الحق. وله رسالة «الوصية في آداب الطريقة» كتبها لأجل ولده المعنوي خواجة أولبا كبير، قدّس سرّه، مشتملة على فوائد جزيلة وعوائد جليلة لا بد منها لجميع السالكين والمريدين، ومن جملتها هذه الفقرات الجامعة نوردها للتبرُّك والتيمُّن.

● رشحة: قال قدّس سرّه: أوصيك يا بني بتعلُّم العلم والأدب والتقوى في جميع الأحوال وعليك بأن تتبع آثار السلف وأن تلازم السنّة والجماعة وتعلم الفقه والحديث. واجتنب الصوفي الجاهل وصِلْ الصلوات بالجماعة على الدوام بشرط أن لا تقبل شيئاً من وظائف الإمامة والأذان، وإياك وطلب الشهرة فإن في الشهرة آفات، ولا تكن مقيداً بمنصب، واختر الخمولة دائماً، ولا تكتب اسمك في الحجج والوثائق ولا تحضر محكمة القضاء ولا تكن كفيلاً لأحد ولا تدخل في وصايا الناس، ولا تصحب الملوك وأبناءهم، ولا تبني رباطاً فإن أصحاب السماع كثير، وكن قليل الكلام وقليل الطعام وقليل المنام، وفر من الخلق فرارك من الأسد. والزم الخلوة ولا تصحب الولدان والنسوان والمبتدعين والأغنياء المتكبِّرين والعوام كالأنعام، وكُلْ من الحلال، واحذر من الشبهة، ولا تتزوج ما استطعت فتطلب الدنيا ويكون دينك هباء في طلب الدنيا، ولا تكثر الضحك، واحذر في الضحك من القهقهة فإن كثرة الضحك تميت القلب. وانظر إلى كل أحد بعين الشفقة ولا تحقر أحداً، ولا تزيِّن ظاهرك فإن تزيين الظاهر ينبيء عن خراب الباطن، ولا تجادل مع الخلق، ولا تطلب شيئاً من أحد، ولا تأمر أحداً بالخدمة، واخدم المشايخ بالمال والبدن والروح، ولا تنكر على أفعالهم فإن منكر المشائخ لا يفلح أبداً، ولا تكن مغروراً بالدنيا ولا بأهلها، وينبغي أن تكون مغموم القلب دائماً وأن يكون بدنك مريضاً، وعينك باكية، وعملك خالصاً، ودعاؤك مقروناً بالتضرع، ولباسك خلقاً، ورفيقك طالباً صادقاً، ورأس مالك فقراً، وبيتك مسجداً، ومؤنسك الحق سبحانه وتعالى.

● رشحة: ومن كلماته القدسية هذه الكلمات الثمان التي بنى عليها طريق أكابر النقشبندية قدّس الله أسرارهم العليّة: هوش دردم، نظر بر قدم، سفرد روطن، خلوة درانجمن، يا دكرد بازكشت، نكاء داشت ياد داشت، وما وراء ذلك كله ظنون وأوهام. ولا يخفى أن من جملة مصطلحات هذه الطائفة العليّة ثلاث كلمات أخرى وهي: الوقوف الزماني، والوقوف العددي، والوقوف القلبي. فكان الكل إحدى عشر كلمة.

ولما كان خواجة عبد الخالق، قدّس سرّه، رئيس سلسلة النقشبندية قدّس الله أسرارهم، أحببت أن أبيّن في هذا المقام معاني ألفاظه المصطلحة فإن معرفة طريق هؤلاء الأعزة موقوفة على معرفتها ولنوردها بعبارات هذه الطائفة في ضمن إحدى عشرة رشحة إجمالاً وتفصيلاً، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: الآية ٤].

* رشحة: هوش دردم، يعني: أن كل نفس من أنفاس السالك ينبغي أن يكون خروجه على وجه الحضور والشعور دون الغفلة والفتور.

قال مولانا الشيخ سعد الدين الكاشغري، قدّس سرّه: إن معنى: هوش دردم هو: أن الانتقال من نفس إلى نفس ينبغي أن لا يكون على الغفلة بل على الحضور، وأن لا يكون غافلاً عن الحق سبحانه وتعالى في كل نفس وعند كل نفس.

وقال حضرة شيخنا: جعلوا في هذه الطريقة رعاية النفس وحفظه من أهم الأمور. يعني: ينبغي أن يكون جميع الأنفاس مصروفة وخارجة على نعت الحضور ووصف الشعور، فإن لم يكن أحد متحفظاً لنفسه يقولون: إن فلاناً ضيّع نفسه، يعني: ضيّع طريقه وسيرته.

قال حضرة الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه: ينبغي أن يجعل بناء الأمر في هذا الطريق على النفس بأن يشغلك أهم الأحوال في الزمان الحال عن تذكر الماضي وتفكُّر المستقبل، وأن لا يترك النفس حتى يضيع، وأن يسعى في المحافظة على ما بين النفسين وقت خروجه ودخوله لئلا يكون خروجه ودخوله على الغفلة. [رباعي]:

أي مانده زبحر علم بر ساحل عين   در بحر فراغتست وبر ساحل شين
بردار صفي نظر زموج كونين   آكاه ببحرباش بين النفسين

ترجمة:

أيا واقفاً من بحر علم بساحله   فراغك في بحر وفي الشط أشغال
تجاوز عن أمواج الحوادث مغضياً   وراقب لأنفاس وإن حال أحوال

وأورد مولانا نور الدين عبد الرحمٰن الجامي، قدّس سرّه السامي، في أواخر شرح «الرباعيات» قال الشيخ أبو الجناب نجم الدين الكبرى قدّس سرّه في رسالته

المسماة بـ«لوائح الجمال»: إن الذكر الجاري على نفوس الحيوانات هو أنفاسها الضرورية، فإن حرف الهاء التي هي إشارة إلى غيب هوية الحق سبحانه وتعالى تحصل عند كل أوقات خروج النفس ودخوله، أرادوا ذلك أولاً. وحرف الهاء في لفظة: الجلالة، هو هذا الهاء، والألف واللام إنما هو للتعريف، وتشديد اللام للمبالغة في التعريف. فينبغي للطالب العاقل أن يكون في نسبة الحضور مع الله سبحانه على وجه تكون الهوية الحق سبحانه ملحوظة وقت التلفظ بهذا الحرف الشريف، وأن يكون حاضراً وقت خروج النفس ودخوله حتى لا يقع الفتور في نسبة الحضور مع الله، وأن يجتهد في حفظ هذه النسبة ليكون واقفاً لقلبه دائماً من غير تكلُّف وتعمُّل بل ربما لا يستطيع أن يزيل هذه النسبة عن قلبه. [رباعي]:

ها غيب هويت آمداي حرف شناس وأنفاس ترابود آن حرف أساس

باش آكاه برآن حرف در أميدو هراس حر فيكه كفتم شكرف أكرداري پاس

ترجمة:

يشير إلى غيب الهوية هاء هو وأنفاس مخلوق لهذا الحرف حامل

فكن صاحياً في كل حال لحفظها لقد قلت حرف الصدق إن أنت فاعل

لا يخفى أن غيب الهوية على ما بيَّنه مولانا الجامي في شرح هذا الرباعي، عبارة في اصطلاح أهل التحقيق عن ذات الحق سبحانه وتعالى باعتبار اللاتعين. يعني بشرط الإطلاق الحقيقي الذي يكون خالياً من جميع القيود حتى الإطلاق فإنه مناف للإطلاق الحقيقي، ولا يمكن أن يتعلق به سبحانه في تلك المرتبة علم وإدراك، وهو تعالى من هذه الحيثية مجهول مطلق.

* رشحة: نظر بر قدم. هو: أن يكون نظر السالك في جميع أحواله، في الذهاب والإياب، والعمران والبادية، وفي كل مكان إلى ظهر قدمه لئلا يتفرق نظره ولكي لا يقع على محل لا ينبغي وقوعه عليه. ويمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلى سرعة سير السالك في قطع مسافة وجوده وطي عقبة أنانيته. يعني: يضع قدمه في محل ينتهي نظره إليه في الحال. ولعل ما قاله أبو محمد رويم، قدّس سرّه، من أن: أدب المسافر أن لا يجاوز همه قدمه، إشارة إلى هذا المعنى.

وأورد مولانا الجامي، قدّس سرّه السامي، في كتاب «تحفة الأحرار» في

مناقب خواجة بهاء الدين قدّس سرّه هذا المضمون منظوماً، حيث قال ما معربه [شعر]:

ما أخرجوا نفساً إلا لهم خبر   وما تجاوز عن أقدامهم نظر
من سرعة السير من أخلاق أنفسهم   ما عي أقدامهم مما رأى البصر

* **رشحة**: سفر در وطن. هو أن يسافر السالك في طبيعته البشرية. يعني: ينتقل من صفاته البشرية إلى الصفات الملكية، ومن الأخلاق الذميمة إلى الأخلاق الحميدة.

قال الشيخ مولانا سعد الدين الكاشغري، قدّس سرّه: إن الإنسان الخبيث لا يزول خبثه بالانتقال من محل إلى محل آخر حتى ينتقل من صفاته الخبيثة.

ولا يخفى أن أحوال مشائخ الطريقة، قدّس الله أرواحهم، مختلفة في اختيار السفر والإقامة، فبعضهم اختار السفر في البداية والإقامة في النهاية، وبعضهم اختار عكس ذلك. واختار بعضهم الإقامة في البداية والنهاية، وبعضهم عكس هذا. ولكل طائفة من هذه الطوائف الأربعة نيّة صادقة وغرض صحيح فيما اختاروا كما هو مشروح في «العوارف». وأما اختيار أكابر النقشبندية العلية في السفر والإقامة فهو أن يسافر في البداية إلى أن يوصل نفسه إلى صحبة مرشد كامل، فبعد ذلك يكون مقيماً في خدمته، ملازماً لصحبته، فإن وجد في دياره مرشد كامل من هذه الطائفة يترك السفر بالكلية ويبادر إلى خدمته، ويسعى سعياً بليغاً في تحصيل ملكة الحضور، ويجتهد اجتهاداً كاملاً في الاتصاف بصفة الشعور. فإذا تخلص من قيد البشرية وتحقق بصفة الملكية، فالإقامة والسفر في حقه سواسية.

قال حضرة شيخنا: ليس حاصل المبتدي من السفر غير التفرقة، فإذا وصل الطالب إلى صحبة مرشد يلزم عليه أن يقيم عنده ويحصل صفة التمكين وملكة النسبة النقشبندية، قدّس الله أرواحهم، فبعد ذلك يذهب أين شاء ليس له مانع. [رباعي]:

يا رب چه خوشت بي دهان خنديدن   بيواسطه چشم جهان راديدن
بنشين وسفركن كه بيغايت خوبست   بي منت پاكسر دجهان كرد يدن

ترجمة:

فيا رب نعم الضحك من غير آلة   ومن غير عين لحظ تلك المعالم

وسافر قعوداً في مكان فحبذا ... بلا منة الرجلين سير العوالم

قال مولانا الجامي، قدّس سرّه، في «أشعة اللمعات» في شرح هذا البيت:

آينـنـه صورت إز سفر دورست ... كان بدير أي صورت أزنورست

ترجمة:

لا الكون في المرآة من حركاتها ... لكنها قبلت له لصفاتها

يعني: أن المرآة الصورية التي هي عبارة عن شيء مصقول لا تحتاج في انطباع صورة الناظر فيها إلى أن تتحرك وتذهب إلى جانب الصورة، فإن قبولها للصورة لأجل نورانية وجهها وصفائها، فكل شيء يقابلها تنطبع صورته فيها وتظهر من غير حركتها إلى جانب الصورة، وكذلك المرآة المعنوية، أعني القلب، إذا تخلصت عن كدورات الصور الكونية وحصل لها الصفاء والنورانية وزالت عنها ظلمات المقتضيات الطبيعية لا تحتاج في قبول التجليات الذاتية والصفات والشؤونات الإلٰهية إلى السير والسلوك لأن السير والسلوك عبارة عن تصفية وجه القلب وتصقيله. فمتى حصل له الصفاء والصقالة يستغني عن السفر والسير والسلوك، فإنه ليس وراء عبادان قرية[1].

■ رشحة: خلوة در أنجمن. سأل الخواجة بهاء الدين النقشبند، قدّس سرّه، بأنَّ بناء طريقكم على أي شيء؟ فقال في جوابه هذه العبارة، يعني خلوة در أنجمن، ومعناه: الخلوة في الجلوة في الظاهر مع الخلق وفي الباطن مع الحق سبحانه وتعالى. [شعر]

بقلبك صاحبنا وجانب بظاهر ... وذا السير في الدنيا قليل النظائر

وقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: الآية ٣٧] الآية، إشارة إلى هذا المقام.

وقال قدّس سرّه: إن نسبة الباطن في هذا الطريق على نهج تحصل جمعية

---

(١) عبادان: جزيرة تحت البصرة قرب البحر المالح، فإن دجلة إذا قاربت البحر تفرقت فرقتين عند قرية تسمى المحرزي: فرقة تذهب إلى ناحية البحرين وهي اليمنى، واليسرى تذهب إلى عبادان وسيراف والجنابة، وعبادان في هذه الجزيرة وهي مثلثة الشكل، وإنما قالوا: ليس وراء عبادان قرية لأن وراءها بحراً، وصارت مثلاً لبُعد المكان.

القلب في ملاء وصورة تفرقة أكثر مما تحصل في الخلوة.

وقال قدّس سرّه: إن طريقنا هذا مبني على الصحبة، فإن في الخلوة شهرة، وفي الشهرة آفة، والخير كله في الجمعية. والجمعية في الصحبة بشرط فناء كل في الآخر.

قال الخواجة أوليا كبير قدّس سرّه: الخلوة في الجلوة هو: أن يبلغ الاشتغال بالذكر والاستغراق فيه مرتبة لو مشى الذاكر في السوق لا يسمع شيئاً من الكلام والإشارات بسبب استيلاء الذكر على حقيقة القلب.

قال حضرة شيخنا: يصل السالك بسبب الاشتغال بالذكر بالجد والاهتمام في مدة خمسة أو ستة أيام إلى مرتبة يخيل له جميع أقوال الناس وأصوات المخلوقات ذكراً بل يخيل له كلام نفسه أيضاً ذكراً لكن لا يحصل ذلك بدون سعي واهتمام.

* **رشحة**: ياد كرد، هي عبارة عن الذكر اللساني والقلبي.

قال مولانا سعد الدين الكاشغري قدّس سرّه: إن طريق تعليم الذكر هو أن يقول الشيخ أولاً بقلبه: لا إله إلا الله محمد رسول الله. ويحضر المريد بقلبه ويجعله في مقابلة قلب شيخه ويغمض عينيه ويضم شفتيه ويلصق لسانه بحنكه الأعلى ويضع أسنانه بعضها على بعض ويحبس نفسه ويشرع في الذكر بالتعظيم والقوة التامة موافقاً لشيخه بالقلب لا باللسان، ولا يترك نفسه حتى يقول في نفس واحد ثلاث مرات ليصل أثر حلاوة الذكر إلى قلبه.

وكتب حضرة شيخنا في بعض كلماته القدسية: إن المقصود من الذكر هو أن يكون القلب حاضراً مع الحق سبحانه بوصف المحبة والتعظيم، فإذا حصل ذلك الحضور في صحبة أرباب الجمعية فقد حصل خلاصة الذكر.

والحاصل: أن مخ الذكر وروحه هو حصول الحضور مع الحق سبحانه، فإن لم يحصل هذا الحضور في الصحبة فحينئذ يشتغل بالذكر لتحصيله، والطريق الذي يسهل المحافظة عليه هو أن يحبس النفس تحت السرة، وأن يضم الشفتين ويلصق اللسان بالحنك الأعلى بحيث لا يتضيق النفس ويخلي حقيقة القلب التي هي عبارة عن المدرك الدارك الذي يذهب في لمحة إلى أطراف العالم ويتفكر الدنيا ومصالحها دائماً، ويتيسر له في طرفة العين العروج إلى السماء وسير أكناف الأرض عن جميع

الأفكار ووساوس الأغيار ويجعلها متوجهة إلى القلب الصنوبري، ويشغلها بالذكر بأن يمد كلمة لا إلى طرف الفوق، وكلمة إلٰه إلى طرف اليمين، ويضرب كلمة لا إلٰه إلا الله إلى القلب الصنوبري بالقوة التامة بحيث تصل حرارته على جميع الأعضاء. وينبغي أن يلاحظ في طرف النفي وجود جميع المحدثات بنظر الفناء والترك، وأن يلاحظ في طرف الإثبات وجود الحق سبحانه بنظر البقاء والمقصودية، وينبغي أن يستغرق جميع أوقاته بالذكر على هذا الوجه ولا يتركه لشغل من الأشغال حتى تستقر صورة التوحيد في القلب بتكرار هذه الكلمة الطيبة ويكون الذكر صفته اللازمة.

* رشحة: باز كشت، هي أن يقول السالك بعد تكرار الكلمة الطيبة مرات بلسان القلب: إلٰهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي. فإن هذه الكلمة تنفي كل خاطر حاصل في القلب من الخير والشر حتى يبقى ذكره خالصاً، ويكون سرّه عن نقش السوى فارغاً. ولا يترك المبتدىء هذه الكلمة بسبب فقدان صدقه في مضمونها في بداية أمره، فإن بتكرارها تظهر فيه آثار الصدق تدريجاً.

قال مولانا الشيخ علاء الدين عليه الرحمة، الذي هو من أجّلة أصحاب حضرة مولانا سعد الدين الكاشغري قدّس سرّه: لما أخذت الذكر من حضرة شيخي في مبادىء أحوالي أمرني بذكر بازكشت، فلما قلت: إلٰهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي، حصل لي من هذا الكلام استحياء لعدم صدقي فيه وعلمي يقيناً أني كاذب فيه. وكنت يوماً في هذا الخيال فجئت عند شيخي فقال: تعال نذهب عند الشيخ بهاء الدين عمر. فذهبت في ملازمته، فلما جلسنا قال الشيخ بهاء الدين عمر: قال الشيخ ركن الدين علاء الدولة، قدّس سرّه: ينبغي للسالك أن يقول: إلٰهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي، وإن لم يجد في نفسه الصدق في الطلب فإنه تظهر فيه حقيقة الصدق بالمداومة على هذه الكلمة.

فلما خرجنا من عنده قال شيخي: إن الشيخ من أهل الجذبة لا يعرف الاصطلاح. فخفي عليّ معنى هذا الكلام مدة ثم ظهر لي أن غرضه من هذا الكلام: أن الشيخ حصّل التربية من طريق الجذبة لا من طريق السلوك، فلا يعرف طريق الإرشاد. فإن هذا الوقت ليس وقت إظهار هذا السر لي لأني كنت أقول هذه الكلمة قبل سماع هذا الكلام من الشيخ بالانكسار والاستحياء، وكنت عند التلفظ بها خجلاً منفعلاً، ولما سمعت هذا الكلام من الشيخ زال عني ذلك الانكسار والخجالة والانفعال.

* **رشحة**: نكاه داشت. هي عبارة عن مراقبة الخواطر بحيث لا يترك خاطره يذهب نحو الأغيار مدة تكرار الكلمة الطيبة في نفس واحد. قال مولانا سعد الدين قدّس سرّه في معنى هذه الكلمة: ينبغي أن يحفظ خاطره ساعة أو ساعتين أو أزيَد مقدار ما يتيسّر لئلا يتطرق الأغيار على قلبه.

قال مولانا قاسم عليه الرحمة، الذي هو من كبار أصحاب حضرة شيخنا وخواصهم، يوماً بالتقريب: إن ملكة مراقبة الخواطر بلغت درجة يمكن أن يحفظ القلب عن خطور الأغيار من طلوع الفجر إلى الضحوة الكبرى على وجه تكون القوة المتخيّلة في تلك المدة معزولة عن العمل، ولا يخفى أن انعزال القوة المتخيلة عن عملها ولو نصف ساعة أمر عظيم عند أهل التحقيق ومن النوادر، وإنما يحصل أحياناً لكُمَّل الأولياء كما حقق هذا البحث محي الدين بن عربي، قدّس سرّه، في «الفتوحات المكيّة» في أثناء إيراد أسئلة الخواجة محمد بن علي الحكيم الترمذي، قدّس سرّه، وأجوبته في بيان سجود القلب، وتفصيله غير لائق في هذا المقام.

* **رشحة**: ياد داشت. وهذا هو المقصود من جميع ما سبق، وهو عبارة عن الحضور مع الحق سبحانه على وجه الذوق. وفسّره بعضهم بأنه حضور بلا غيبة. وعند أهل التحقيق: أن المشاهدة التي هي عبارة عن استيلاء شهود الحق على القلب بواسطة الحب الذاتي كناية عن حصول هذا الحضور.

وقال حضرة شيخنا في شرح هذه الكلمات الأربعة المذكورة: أن ياد كرد، عبارة عن الذكر بالتكلُّف. وبازكشت: عبارة عن الرجوع إلى الحق سبحانه بأن يقول بعد تكرار الكلمة الطيبة مرات بقلبه: إلٰهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي. ونكاه داشت: عبارة عن المحافظة على هذا الرجوع من غير تلفظ باللسان. وياد داشت: عبارة عن رسوخ هذه المحافظة.

* **رشحة**: الوقوف الزماني. قال حضرة خواجة بهاء الدين، قدّس سرّه: إن الوقوف الزماني الذي هو حال أهل الطريقة، ورأس مال السائرين إلى عالم الحقيقة، عبارة عن كون السالك واقفاً على أحواله في كل زمان: أنها موجبة للشكر أم موجبة للعذرا. وقال مولانا يعقوب الكرخي قدّس سرّه: أمرني حضرة شيخي خواجة بهاء الدين، قدّس سرّه، بالاستغفار في حال القبض، والشكر في حال البسط. وقال الخواجة بهاء الدين: قد بني أحوال السالك في الوقوف الزماني على

الساعة ليكون واجداً للنفس فيعلم أنه يمر بالحضور أو الغفلة. فإن بني على النفس لما يكون واجداً لهاتين الصفتين، والوقوف الزماني عند الصوفية، قدّس الله تعالى أرواحهم، عبارة عن المحاسبة.

وقال خواجة بهاء الدين قدّس سرّه: المحاسبة هي أن نحاسب كل ساعة تمر بنا، فننظر ما الغفلة وما الحضورا فإن كان عملنا في تلك الساعة نقصاناً كله نرجع ونأخذ العمل من الابتداء.

* رشحة: الوقوف العددي. وهي عبارة عن رعاية العدد في الذكر. قال حضرة خواجة بهاء الدين قدّس سرّه: إن رعاية العدد في الذكر القلبي إنما هي لأجل جمعية الخواطر المتفرقة وما وقع في كلام أكابر النقشبندية أن فلاناً أمر فلاناً بالوقوف العددي فالمراد به الذكر القلبي مع رعاية العدد، لا مجرد رعاية العدد في الذكر القلبي. وينبغي للسالك أن يقول في نفس واحد ثلاث مرات، ثم خمس مرات، ثم سبع مرات، إلى إحدى وعشرين مرة، وأن يعدّ العدد لفرد لازماً.

قال الشيخ علاء الدين العطار، قدّس سرّه: الإكثار من الذكر ليس بشرط، بل الشرط كون الذكر ناشئاً من الحضور والوقوف حتى يترتب عليه الفائدة فمتى تجاوز الذكر إحدى وعشرين مرة في نفس واحد ولم يظهر الأثر فهو دليل على عدم فائدة العمل. وأثره أن ينتفي الوجود البشري وقت النفي، وأن تظهر آثار الجذبات الإلٰهية وقت الإثبات، وما قال الخواجة بهاء الدين، قدّس سرّه، من أن الوقوف العددي أول مرتبة من العلم اللدني يمكن أن يكون مراده: أن أول مرتبة العلم اللدني بالنسبة إلى أهل البداية هو مطالعة آثار تصرفات الجذبات الإلٰهية المذكورة، كما قال الخواجة علاء الدين العطار، قدّس سرّه: إنه كيفيّة وحالة تنكشف فيها مواصلة القرب والعلم اللدني، وأما كون الوقوف العددي أول مرتبة العلم اللدني بالنسبة إلى أهل النهاية فهو أن يكون الذاكر واقفاً على سر سريان الواحد الحقيقي في مراتب الأعداد الكونية كما أنه واقف على سر سريان الواحد العددي في مراتب الأعداد الحسابية.

وقال بعض أكابر المحققين في هذا المضمون نظماً:

لقد جاءت الوحدات عيناً لكثرة ولا شك لي فيه وإن أنت جاحد

ففي كل أعداد تفكّرت ممعناً تجده كثيراً وهو في الأصل واحد

وقال في شرح الرباعيات [شعر]:

صاح لدى أهل كشف هم لنا سند ... في كل رتبة أعداد سرى الأحد

لو أنه جاز عن حد بكثرته ... لكن حقيقة هذا ذلك الأحد

والتحقيق: أن هذا الوقوف، يعني الوقوف على سر سريان الواحد الحقيقي في مراتب الأعداد الكونية، هو أول مرتبة العلم اللدني، والله أعلم.

لا يخفى أن العلم اللدني علم يحصل لأهل القرب بتعليم إلٰهي وتفهيم رباني، لا بدلائل عقلية وشواهد نقلية، كما ورد في التنزيل في حق الخضر عليه السلام قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: الآية ٦٥]. والفرق بين علم اليقين والعلم اللدني: هو أن علم اليقين عبارة عن إدراك نور الذات والصفات الإلٰهية. والعلم اللدني عبارة عن إدراك المعاني وفهم الكلمات من الحق سبحانه وتعالى بطريق الإلهام.

* رشحة: الوقوف القلبي، وهو على معنيين، **أحدهما**: كون قلب الذاكر حاضراً مع الحق سبحانه وتعالى، فهو بهذا المعنى من مقولة: ياد داشت، المذكورة.

وكتب حضرة شيخنا في بعض كلماته القدسية: أن الوقوف القلبي عبارة عن حضور القلب مع الحق سبحانه على وجه لا يبقى للقلب مقصود غير الحق سبحانه. وقال في محل آخر: ومن الشروط حين الذكر الارتباط بالمذكور والحضور معه. ويقال لهذا الحضور: شهود، ووصول، ووجود، ووقوف قلبي.

والثاني: كون الذاكر واقفاً على قلبه، يعني: يكون متوجهاً في أثناء الذكر إلى قطعة اللحم الصنوبري الشكل الذي يقال له: القلب، مجازاً. وهو واقع في الجانب الأيسر محاذي الثدي الأيسر، ويجعله مشغولاً بالذكر ولا يتركه غافلاً عنه وذاهلاً عن مفهومه. ولم يجعل الخواجة بهاء الدين، قدّس سرّه، حبس النفس ورعاية العدد لازماً في الذكر. وأما الوقوف القلبي فجعله مهماً بمعنييه وعده لازماً. فإن خلاصته الذكر والمقصود منه هو الوقوف القلبي. [شعر]

ترّقب لبيض القلب كالطير يا فتى ... فمن بيض قلب يحصل الذوق والوجد

ولما قربت الوفاة لخواجة عبد الخالق، قدّس سرّه، انتخب أربعة من أصحابه

لمقام الدعوة والإرشاد، فقام كل منهم بعد وفاته بأمر الإرشاد ودعوة الخلق إلى طريق الرشاد. ولنورد ذكر كل واحد منهم على الترتيب:

• **الخواجة أحمد الصدّيقي رحمه الله**: هو أول خلفائه، بخاري الأصل، جلس بعد وفاته مكانه وكان الباقون من أصحابه في متابعته وملازمته. ولما حان حمامه أمر جميع الأصحاب بمتابعة الخواجة، أوليا كبير، والخواجة عارف الريوكري قدّس سرّهم، فاشتغل هذان الشيخان بعد وفاته في بخارى بدعوة الخلق وإرشاد المستعدين والطالبين المجدّين. وقبر الخواجة أحمد في قرية مغيان، وهي قرية على ثلاثة فراسخ من بخارى.

• **الخواجة أوليا كبير قدّس سرّه**: هو الثاني من خلفاء خواجة عبد الخالق قدّس سرّه. بخاري الأصل، وكان في بدايته مشغولاً بتحصيل العلوم عند واحد من علماء بخارى، فاتفق أن الخواجة عبد الخالق، قدّس سرّه، خرج يوماً إلى السوق واشترى قطعة لحم من الجزار فرآه الخواجة أوليا، فجاء عنده والتمس بكمال التواضع أن يحمل اللحم إلى بيته، فأعطاه إياه، فذهب معه إلى بيته، فتوجه حضرة الخواجة بخاطره إليه وأمره بأن يحضر عنده بعد سويعة ليأكل معه الطعام. فلما رجع من عنده وجد قلبه في غاية الرغبة عن التحصيل ونهاية الميلان إلى صحبة حضرة الخواجة، فبادر بعد زمان إلى ملازمته وتشرّف بشرف القبول لولايته، وتلقّن طريقته والفوز بنسبته. ثم لم يذهب بعد ذلك عند أستاذه، وقد اجتهد أستاذه لإرجاعه عن الطريقة وسعى سعياً بليغاً لكنه لم يظفر به أصلاً وكلما رآه بعد ذلك كان يطلق لسانه بالطعن والملامة ويُكثر العتاب والسفاهة. وكان خواجة أوليا يسكت ولا يرد عليه بكلمة ولا يقابله بشيء إلى أن انكشف له في ليلة من الليالي أن أستاذه مرتكب فيها أمراً قبيحاً وفعلاً شنيعاً وفاحشة كبيرة. فلما لقيه في غد شرع أستاذه على عادته في سفاهته مغمضاً عن قباحته، فقال له الخواجة أوليا: أما تستحي يا أستاذ، تكون في ليلتك في مثل تلك الفاحشة وتمنعني في نهارك من طريق الحق كما هو ديدن أرباب العقول الناقصة. فخجل العالِم وصار منفعلاً وتيقّن أنه قد فتح له في ملازمة الخواجة عبد الخالق، فتنبّه من ساعته وتندّم على إساءته وقصد صحبة حضرة الخواجة، وتشمّر لملازمته، ورجع من أفعاله القبيحة الموجبة للفضيحة، وتاب وأناب وأقبل على طريقته الشريفة بلا ارتياب وصار من المقبولين عند أولي

الألباب. ومشهور أن الخواجة أوليا جلس لأربعين لمراقبة الخواطر في باب مسجد على رأس سوق الصيارفة ببخارى ولم يزاحم حضوره شيء من الخواطر في تلك المدة. وكان حضرة شيخنا يستعظم ذلك منه ويستغربه ويستحسنه ويعض أصبعه المبارك من التعجب. وقال: إن الاشتغال بالطريقة النقشبندية يبلغ مرتبة في مدة يسيرة يتخيّل جميع الأصوات للمشتغل بها ذِكراً. وقال: إن معنى جلوس الأربعين لمراقبة الخواطر الذي نقل عن الخواجة أوليا ليس المراد به أنه لا يخطر في قلبه شيء من الخواطر مطلقاً، بل المراد به عدم وقوع خاطر مزاحم للنسبة الباطنية كما أن الحشيش على وجه النهر لا يكون مانعاً لجريانه.

قال: قيل لخواجة علاء الدين الغجدواني عليه الرحمة، الذي هو من أجلّة أصحاب خواجة بهاء الدين قدّس سرّه: هل قلبك على وجه لا يخطر فيه غير الحق سبحانه؟ فقال: لا، بل يكون كذلك أحياناً. ثم أنشد هذا البيت [شعر]:

من أجل سرعة جرى نهر الفيض لا يبقى المحب رهين غمّ دائماً

قال حضرة شيخنا قال: لا يبقى المحب رهين الغم ولا يدوم الغم، ولم يقل: لا يخطر ولا يحصل له غم. ويؤيد هذا القول ما قاله حضرة الخواجة علاء الدين العطار، قدّس سرّه: أن الخطرات لا تكون مانعة فإن الاحتراز عنها متعسر ولقد كنت مدة عشرين سنة في نفي الاختيار الطبيعي فمرت خطرة على نسبة الباطن لكنها لم تستقر، فمنع الخطرات أمر عظيم متعسر. وذهب البعض إلى أن الخطرات لا اعتبار لها، لكن ينبغي أن لا يتركها حتى تتمكن، فإن بتمكنها تحصل السدة في مجاري الفيض.

وقبر خواجة أوليا في بخارى على جنب القلعة قريب برج العيار. ولما قربت وفاته انتخب أربعة من أصحابه للخلافة وأجازهم للإرشاد، ولنذكرهم على الترتيب:

* **الخواجة دهقان القلتي رحمه الله تعالى**: هو أول خلفائه. جلس على مسند الإرشاد بعد وفاته، وكان الباقون من أصحابه في مقام المتابعة والخدمة. وقبره في قرية، قلت: هي قرية في شمال بخارى على فرسخين منه.

* **الخواجة زكي خدا آبادي رحمه الله تعالى**: هو ثاني خلفائه. كان في مقام الإرشاد بعد الخواجة دهقان، والتزم الباقون من الأصحاب ملازمته ومتابعته. وقبره في قرية خدا آباد وهي قرية كبيرة من قرى بخارى على خمسة فراسخ منه.

• **الخواجة سوكمان رحمه الله تعالى:** هو الثالث من خلفائه. اشتغل بدعوة الخلق بعد الخواجة زكي. وكان سائر الأصحاب في مقام المتابعة والملازمة له. وقبره قريب من قبر شيخه الخواجة أوليا.

• **الخواجة غريب قدس سرّه الشريف:** ابن الخواجة أوليا من صلبه. قام بأمر الإرشاد بعد الخواجة سوكمان ودعا الخلق إلى الحق. وكان معاصراً لشيخ العالم الشيخ سيف الدين الباخرزي، قدّس سرّه، الذي هو من كبار أصحاب الشيخ نجم الدين الكبرى، قدّس سرّه، وصحبه كثيراً في فتح آباد بخارى الذي هو مدفن الشيخ سيف الدين المذكور. ولما قدم الشيخ المجذوب محبوب القلوب، الشيخ حسن البلغاري عليه رحمة الباري، من طرف الروس وبلغار، ولاية بخارى، وصل إلى صحبة الخواجة غريب رحمه الله وهو إذ ذاك ابن تسعين سنة وكان معتقداً فيه غاية الاعتقاد.

ولما لقي الشيخ حسن الشيخ سيف الدين، قدّس سرّه، سأله الشيخ سيف الدين: كيف وجدت الخواجة غريب؟ فقال: إنه رجل تام وسلوكه مزين بالجذبة. وصحبه الشيخ حسن ثلاث سنين مدة إقامته في بخارى، ونقل عن الشيخ خداوند تاج الدين الستاجي الذي هو من أكابر وقته أنه قال: قال الشيخ حسن البلغاري: أني صحبت في مدة حياتي كثيراً من الأولياء وأرباب القلوب فما رأيت أحداً في مرتبة الخواجة غريب.

وذكر في «مقامات الشيخ حسن» أنه قال: كنت ملازماً في مدة عمري لثمانية وعشرين شخصاً من الأولياء، أولهم الشيخ سعد الدين الحموي، وآخرهم الخواجة غريب قدّس الله تعالى أرواحهم. وسيرد ذكر شيء من أحوال الشيخ حسن البلغاري على الإجمال في الفصل الأول من المقصد الأول عند ذكر الشيخ عمر الباغستاني الذي هو من أجداد حضرة شيخنا قدّس سرّه.

وكان للخواجة غريب أربعة خلفاء، وكان كل واحد منهم سالكاً طريق الرشاد، وصاحب الدعوة والإرشاد. ولنذكر كلاً منهم على الترتيب:

• **الخواجة أوليا بارسا قدّس سرّه:** هو أقدم خلفائه مولده ومدفنه خرمن تهي وهي قرية في ولاية بخارى والآن مندرسة.

* **الخواجة حسن الساوري رحمه الله تعالى**: هو الثاني من خلفائه. أصله من قرية ساور من ولاية بخارى وهي أيضاً مندرسة الآن، وقبره هناك.

* **الخواجة أوكتمان رحمه الله تعالى**: هو الثالث من خلفائه. وقبره في بخارى قريب الحوض المقدم على ردم الخواجه جهارشنبه الذي هو في قبلة البلد.

* **الخواجة أولياء غريب قدّس سرّه**: هو الرابع من خلفائه.

* **الخواجه سليمان الكرميني قدّس سرّه**: هو الثالث من خلفاء الخواجة عبد الخالق الغجدواني، قدّس سرّه. وذهب البعض إلى أنه كان من خلفاء الخواجة أولياء. ويمكن التوفيق بين القولين بأنه يمكن أن يكون أولاً ملازماً لحضرة الخواجة عبد الخالق ويكون تمام أمره في صحبة الخواجة أولياء.

* **رشحة**: سئل هو عن معنى الخطر العظيم الواقع في الحديث النبوي والمخلصون على خطر عظيم، فقال: لو كان المراد من هذا الخطر خطر الخوف ينبغي أن يؤتى بلفظ في، ولما صدر بلفظ: على، دل على أن المراد بهذا الخطر مقام عال يكون للمخلصين ويلزم لهذا المقام الخوف لعلوه، فإن الأقرب إلى الشمس يتأثر من حرارتها أكثر مما يتأثر منها الأبعد.

وقبر الخواجة سليمان في كرمينة، وهي قصبة مشتملة على قرى كثيرة، ومنها إلى بخارى اثنا عشر فرسخاً، وفي الرسالة البهائية التي هي مشتملة على مقامات الخواجة بهاء الدين، قدّس سرّه، ومناقبه تأليف الشيخ الفاضل الكامل أبي القاسم محمد بن مسعود البخاري عليه الرحمة من كبار أصحاب الخواجة محمد بارسا، قدّس سرّه، ومن أرشد تلامذته أن لخواجة سليمان رحمه الله خليفتين كان كل منهما في زمانه صاحب إرشاد ودعوة العبّاد. وفي رسالة «مسلك العارفين» أن له خليفة واحداً. ولنذكر هنا كلاً منهم إن شاء الله تعالى.

* **الخواجة محمد شاه البخاري عليه الرحمة**: هو أول خليفتيه. جلس بعده في مقامه.

* **الشيخ سعد الدين الغجدراني عليه الرحمة**: هو الثاني من خليفتيه. اشتغل بدعوة الخلق وتربيتهم بعد الخواجة محمد شاه رحمهما الله.

* **الشيخ أبو سعيد رحمه الله تعالى**: كان هو أيضاً من كبار أصحاب الخواجة

سليمان وخلفائه. وهو شيخ الشيخ محمد البخاري ومقتداه الذي هو صاحب كتاب «مسلك العارفين» ألفه في بيان طريقة خواجكان، قدّس الله تعالى أسرارهم، وذكر فيه: أنه لما قربت وفاة خواجة سليمان اختار الشيخ أبا سعيد للخلافة والنيابة من بين أصحابه، فكان الشيخ بعده مرشد الطالبين ومقتدى الصادقين.

• **رشحة**: سئل الشيخ أبو سعيد بأنه: إذا خطر خاطر ونفيناه بكلمة: بازكشت، فانتفى، فبأي علامة نعرف أنه نفساني أو شيطاني؟ فقال: انظروا فإن عاد في اللباس الأول وخطر ثانياً مثل الأول فاعلموا أنه نفساني، فإن الإبرام واللجاجة من صفة النفس فإنها تطالب بحاجة واحدة مرات كثيرة، فإن حصلت تطالب بأخرى، وإلا فهو شيطاني، فإن مراد الشيطان إضلال وإغواء إن لم يقدر أن يقطع طريق السالك في لباس يأتي في لباس آخر ويدق باباً آخر.

• **رشحة**: سئل أيضاً: أنه لمن يجوز التكلم في الطريقة؟ فقال: يجوز التكلم فيها لمن لو عرض ظاهره على جميع أهل الأرض لا يجدون فيه عيباً شرعياً، وإن عرض باطنه على جميع أهل السماء لا يرون فيه نقصاناً.

• **الخواجة عارف الريوكري قدّس الله تعالى سرّه**: هو الرابع من خلفاء الخواجة عبد الخالق قدّس سرّه. مولده ومدفنه ريوكر، وهي قرية من قرى بخارى على ستة فراسخ منه، ومنها إلى غجدوان فرسخ شرعي. وسلسلة نسبة حضرة خواجة بهاء الدين قدّس الله تعالى سرّه، تتصل به من بين خلفاء الخواجة عبد الخالق قدّس سرّه.

• **الخواجة محمود الأنجير فغنوي قدّس الله سرّه**: هو أفضل أصحاب الخواجة عارف عليه الرحمة، وأكملهم. وامتاز من بين الأصحاب بالخلافة والإرشاد. مولده انجير فغنى، قرية من مضافاة وابكن، وهي قرية كبيرة من قرى بخارى مشتملة على قرى كثيرة ومزارع جزيلة على ثلاثة فراسخ من بخارى. وكان مقيماً بها، ودفن فيها، وكان نجاراً وبه كان يحصّل كفاية معاشه.

ولما تشرّف من حضرة الخواجة بإجازة الإرشاد وصار ممتازاً بدعوة الخلق إلى طريق الرشاد، افتتح بذكر العلانية بمقتضى الوقت ومصلحة حال الطالبين. وكان أول اشتغاله به في مرض موت خواجة عارف قبيل احتضاره فوق تل ريوكر، فقال الخواجة عارف في هذا الوقت: هذا وقت قد أشاروا به إليَّ قبل. ثم اشتغل به بعد

وفاته في مسجد على باب قلعة وابكن. واستفسره مولانا حافظ الدين الذي هو من كبار علماء وقته ومن أجداد الخواجة محمد بارسا، قدّس سرّه، بإشارة أستاذ العلماء شمس الأئمة الحلواني رحمهما الله تعالى ببخارا عند جمع كثير من الأئمة وعلماء الزمان: إنكم بأي نيّة تشتغلون بذكر العلانية؟ فقال: بنيّة إيقاظ النائم، وتنبيه الغافل، آخى البهائم حتى يقبل على الطريقة ويستقيم على الشريعة، ويرغب في الحقيقة، فيصير سبباً لتوبته وإنابته التي هي مفتاح جميع الخيرات وأصل كل السعادات. فقال له مولانا حافظ الدين: إذا نيّتكم صحيحة فيحلّ لكم الاشتغال به.

ثم التمس منه في هذا الوقت أن يبيِّن حد ذكر العلانية لتمتاز الحقيقة بذلك الحد عن المجاز، فقال الخواجة: إن ذكر العلانية مسلم ممن يكون لسانه طاهراً عن الكذب والغيبة، وحلقه عن الحرام والشبهة، وقلبه صافياً عن الرياء والسمعة، وسرّه منزّهاً عن التوجه إلى غير جناب الربوبية.

قال الخواجة علي الراميتني ـ الآتي ذكره ـ: رأى واحد من الفقراء الخضر عليه السلام في عهد خواجة محمود، فسأله عن شيخ ثابت على جادة الاستقامة من بين مشائخ زمنه ليتمسك بذيل إرادته ومتابعته ويقتدي به، فقال له الخضر عليه السلام: إن الموصوف بهذه الصفة الآن هو الخواجة محمود الإنجير فغنوي.

وقال بعض أصحاب خواجة علي: إن الفقير الذي رأى الخضر عليه السلام هو الخواجة علي نفسه، لكنه تحاشا عن التصريح بأنه رأى الخضر عليه السلام، فعبّر عن نفسه بواحد من الفقراء.

قيل: إن الخواجة عليّاً كان يوماً مشغولاً بالذكر في بادية راميتن مع سائر أصحاب خواجة محمود، فرأوا طائراً كبيراً أبيض يطير في الهواء فلما حاذاهم نادى بلسان فصيح: يا علي كن رجلاً كاملاً. فحصل للأصحاب من رؤية ذلك الطائر وسماع كلامه كيفيّة عجيبة حتى غابوا عن أنفسهم، فلما أفاقوا سألوه عن الطائر وكلامه، فقال: هو الخواجة محمود أكرمه الله تعالى بهذه الكرامة يطير دائماً في مقام كلّم الله تعالى فيه موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام بألوف من الكلام، وكان الآن ذاهباً لعيادة الخواجة دهقان القلتي ـ المار ذكره ـ فإنه لما احتضر سأل الله سبحانه أن يوصل إليه أحداً من أوليائه في آخر نفسه ليكون عوناً له في ذلك الوقت، فذهب إليه الخواجة محمود لهذا السبب.

وكان للخواجة محمود خليفتان جلسا بعده في مسند الإرشاد ودلالة الخلق على طريق الحق والرشاد:

* **الأمير خورد الوابكندي قدّس الله سرّه العزيز:** اسمه: الأمير حسين. هو أول خليفتيه، كان من أكابر زمانه ومرجع الطالبين والسالكين في أوانه، وله أخ أكبر منه يسمى بـ: الأمير حسن المعروف بالأمير كلان، وكان هو أيضاً من أصحاب خواجة محمود، ولكن فوّض أمر الخلافة والنيابة إلى الأمير خورد. وقبره في قرية وابكن يزار ويتبرّك به.

* **الخواجة علي الأرغنداني عليه الرحمة:** هو خليفة الأمير خورد. وقبره في قرية أرغندان من قصبة زندني على خمسة فراسخ من بخارى.

* **الخواجة علي الراميتني قدّس سرّه العزيز:** هو الثاني من خليفتيّ الخواجة محمود، ولقبه في سلسلة النقشبندية عزيزان. قيل: أنه لما قربت وفاة الخواجة محمود أحال أمر الخلافة إلى حضرة عزيزان وفوّض سائر الأصحاب إليه. وسلسلة نسبة خواجة بهاء الدين تتصل به من بين أصحاب خواجة محمود بواسطتين. وله مقامات رفيعة وكرامات عجيبة، وكان نسّاجاً، وكتب مولانا الجامي، قدّس الله سرّه السامي، في كتاب «نفحات الأنس»: أن هذا الفقير سمع من بعض الأكابر أن ما قاله حضرة مولانا جلال الدين الرومي، قدّس سرّه، في بعض غزلياته حيث قال [شعر]:

لو الحال لم يكن فضل عليّ قال لما　　　كان أعيان بخارى عبد نساج عليّ

إشارة إلى حضرة عزيزان. مولده في راميتن وهي قصبة كبيرة في ولاية بخارى على فرسخين من البلدة، مشتملة على قرى كثيرة، وقبره في خوارزم معروف ومشهور يُزار ويتبرَّك به.

ومن كلماته القدسيّة هذه الكلمات المتبرّكة نوردها في ضمن ست عشرة رشحة.

* **رشحة:** كان الشيخ ركن الدين علاء الدولة السمناني، قدّس سرّه، معاصراً له، ووقعت بينهما مراسلات ومفاوضات. قيل: أرسل إليه الشيخ ركن الدين قاصداً ليسأله عن ثلاث مسائل ويسمع الجواب.

المسألة الأولى: أنه نخدم نحن وأنتم الواردين والصادرين وأنتم لا تتكلفون في إطعام الطعام ونحن نتكلّف فيه ومع ذلك الناس راضون عنكم وساخطون علينا فما السبب في ذلك؟ فقال عزيزان في جوابه: إن من يخدم مع المنة في الخدمة كثير ولكن من يخدم مع قبول المنة قليل، فاجتهدوا في الخدمة مع قبول المنة حتى لا يكون أحد ساخطاً عليكم.

المسألة الثانية: أنّا سمعنا أن تربيتكم حاصلة من الخضر عليه السلام، فكيف ذلك؟ فقال: إن لله سبحانه عباداً عاشقين له تعالى والخضر عاشق لهم.

المسألة الثالثة: أنّا سمعنا أنكم تشتغلون بذكر الجهر، فكيف هذا؟ فقال: ونحن أيضاً سمعنا أنكم تشتغلون بالذكر الخفي فكان ذكركم أيضاً جهراً.

• **رشحة:** سأله مولانا سيف الدين قصبة، الذي هو من أكابر علماء زمانه: أنكم بأي نيّة تشتغلون بذكر الجهر؟ فقال: إن تلقين المحتضر كلمة لا إله إلا الله جهراً جائز بإجماع العلماء لحديث: «**لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله**» وكل نفس نفس أخير عند الصوفية فهي في حكم المحتضر.

• **رشحة:** سأله مولانا بدر الدين الميداني الذي كان من كبار أصحاب الشيخ حسن البلغاري ووجد صحبة عزيزان أيضاً: أن الذكر الكثير الذي أمرنا به من عند الحق سبحانه حيث قال عزّ من قائل: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: الآية ٤١]، هل هو ذكر اللسان أو ذكر القلب؟ فقال: هو في حق المبتدي ذكر اللسان وفي حق المنتهي ذكر القلب، فإن المبتدي يتكلف في الذكر دائماً ويتعمل ويبذل روحه، وأما المنتهي فإنه إذا وصل أثر الذكر إلى قلبه يكون جميع أعضائه وجوارحه وعروقه ومفاصله ذاكرة. فيتحقق الذاكر في ذلك الوقت بكونه ذاكراً بالذكر الكثير ويكون يومه الواحد في ذلك الحال مساوياً لسنّة غيره من الرجال.

• **رشحة:** قال قدّس سرّه: أن معنى قولهم: «إن الله ينظر في اليوم والليلة إلى قلب المؤمن بنظر الرحمة ثلاثمائة وستين نظرة» هو أن للقلب ثلاثمائة وستين روزنة إلى جميع الأعضاء وهي عبارة عن ثلاثمائة وستين عرقاً في البدن من الأوردة والشرايين متصلة بالقلب، فإذا تأثر القلب من الذكر وبلغ مرتبة الكون منظوراً إليه بنظر خاص من الحق سبحانه، تتشعب حينئذ آثار ذلك النظر من القلب إلى جميع

الأعضاء حتى يشتغل كل عضو من الأعضاء بطاعة لائقة بحاله فيصل الفيض الحاصل من تلك الطاعة إلى القلب، وذلك الفيض هو المراد بنظر الرحمة.

• رشحة: سألوه مرة عن الإيمان، فقال: الإيمان انفصال واتصال. أجاب بجواب مناسب لصنعته فإنه كان نساجاً، والانفصال والاتصال مناسبان له.

• رشحة: وسألوه: بأن المسبوق متى يقوم لقضاء ما فات؟ فقال: قبل الصبح ـ يعني ينبغي أن يقوم قبل الوقت حتى لا يفوته شيء من الصلاة.

• رشحة: قال: إن في هذه الآية الكريمة ـ أعني قوله تعالى: ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [التحريم: الآية ٨]، إشارة وبشارة. أما الإشارة فهي التوبة والرجوع. وأما البشارة: فقبول التوبة. فإنه تعالى لو لم يقبل التوبة لما أمر بها والأمر دليل القبول لكن مع رؤية القصور.

• رشحة: قال: ينبغي أن يعمل، ويعتقد أنه لم يعمل، وأن يرى نفسه مقصراً في العمل وأن يستأنفه من الأول.

• رشحة: قال: حافظوا على أنفسكم في وقتين، وقت الكلام ووقت الطعام.

• رشحة: قال: جاء الخضر عليه السلام عند الخواجة عبد الخالق مرة، فجاءه الخواجة بقرصين من خبز الشعير من بيته، فلم يأكله الخضر عليه السلام، فقال الخواجة: لم لا تأكل فإنه حلال؟ فقال الخضر: نعم ولكن العاجن عجنه على غير طهارة فلا يجوز لنا أكله.

• رشحة: قال: ينبغي لمن جلس في محل الإرشاد ودعوة الخلق إلى الحق أن يكون مثل من يربي الطيور، فكما أنه يعرف طبيعة كل واحد من الطيور فيطعمه ما هو موافق لمزاجه وطبعه، فكذلك المرشد ينبغي له أن يربي الطالبين الصادقين على قدر قابليتهم واستعدادهم.

• رشحة: قال: لو كان على وجه الأرض واحد من أولاد الخواجة عبد الخالق في عصر حسين بن منصور لما صلب ـ يعني لو كان واحد من أولاده المعنوية موجوداً في عصره لرقّاه بالتربية من هذا المقام الذي صدر عنه فيه قول: أنا الحق، وغيره من الكلام ـ وخلّصه من الصلب بين الأنام.

* رشحة: قال: ينبغي لأهل الطريقة أن يكثر من الرياضة والمجاهدة حتى يصل إلى مرتبة ومقام، لكن للسالكين طريق آخر أقرب من جميع الطرق يمكن أن يصل منه إلى المقصود سريعاً وهو أن يجتهد الطالب في أن يتمكن في قلب واحد من أرباب المقلوب بواسطة خلق حسن أو خدمة لائقة به، فإن قلب هذه الطائفة مورد لنظر الحق سبحانه، فيكون له نصيب منه.

* رشحة: قال: ادعوا الله تعالى بلسان لم تعصوا به الله حتى تترتب عليه الإجابة. يعني: تواضعوا أولياء الله تعالى وأظهروا الهم والانكسار والافتقار حتى يدعوا لكم فيستجاب.

* رشحة: أنشد شخص يوماً عند عزيزان هذا المصراع:

«للعاشق العيدان في كل أنفاس»

فقال: بل ثلاثة أعياد. فالتمس المنشد بيان ذلك، فقال: إن الذكر الواحد من العبد بين الذكرين من الحق سبحانه، الأول: التوفيق لذكره. والثاني: قبوله منه. فيكون التوفيق والذكر والقبول ثلاثة أعياد.

* رشحة: سأله الشيخ نور الدين النوري الذي كان من كبار ذلك الزمان أنه: ما سبب جواب طائفة في الأزل لقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٢] بلفظ: بلى، وسبب سكوتهم يوم الأبد حين قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: الآية ١٦]؟ فقال: إن يوم سؤاله في الأزل يوم وضع التكاليف الشرعية وبسطها بين الخلق وفي الشرع. قيل: وقال: وأما يوم سؤاله في الأبد فيوم رفع التكاليف الشرعية وطيّها عن الخلق وابتداء عالم الحقيقة وليس في الحقيقة. قيل وقال: فلا جرم يجيب فيه الحق سبحانه نفسه بقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: الآية ٤٨].

ومن جملة الأشعار المنسوبة إلى خواجة عزيزان هذه القطعة وأربع رباعيات.

قطعة:

نفس مرغ مقيد دردرونست نكه دارش كه خوش مرغيست دمساز
زبالش بند مكسل تانبرد كه نتواني كرفتن بعد برواز

ترجمة:

النفس طير قيّدها الأبدان فاحفظنها يا حبذا الندمان

ورابط جناحها فإن أرسلتها فبها إذاً لا تسمح الأزمان

رباعي :

باهر كه نشسني ونشد جمع دلت وازتو نرميد زحمت آب وكلت
از صحبت وي اكرتبرا نكني هركز نكند روح عزيزان بحلت

ترجمة :

إذا لم تجد جمعية من مصاحب ولم تك تنجو من هموم المصائب
فإن أنت لم تترك لقاه تبريّاً فأنت إذاً يا صاح لست بصائب

آخر :

بيجاره دلم كه عاشق روى توبود تاوقت صبوح دوش دركوي توبود
جوكان سر زلف تواز حال بحال مي بردش وهمجنان بكي كوى توبود

ترجمة :

غدا عبدك المضني بعشقك عانياً لياليه لم يبرح بمغناك ثاويا
وإن كان بالدل المسلسل عاجزاً ولكنه ما زال باسمك ناديا

آخر :

چون ذكر بدل رسد دلت دردكند آن ذكر بودكه مردرا فرد كند
هرچندكه خاصيت آتش دارد ليكن دوجهان بردل توسرد كند

ترجمة :

إذا وصل الأذكار قلباً ترجداً هو الذكر ما به النبيه تفرّدا
ولو أنه خاصية النار حائز ولكن من الكونين قلبك أبردا

آخر :

خواهيكه بحق رسي بيارام أي تن واندر طلب دو ست نيارامي تن
خواهيكه مدد أزروح عزيزان يابي باي إز سر خودساز وبيارا ميتن

ترجمة :

إذا رمت وصل الحق استرح أيها البدن وفي طلب المحبوب اصبر على المحن
فإن كنت من روح العزيزان راجياً تعالى على رأس وواصل برامتن

ومن خوارقه: العادات، قدّس سرّه: واعلم أنه كان معاصراً لسيد آتا، المار ذكره، ووقعت بينهما ملاقاة ومراسلات كما تقدم، وكان لسيد آتا في حقه مناقشة ومناظرة في مبادي أحواله، فصدرت مرة من سيد آتا صورة منافية للأدب في حق عزيزان، فاتفق أن جمعاً من أتراك دشت قبجاق نهبوا في تلك الأيام أموالاً كثيرة من نواحي سيد آتا وأسروا ولده، فتنبه السيد وتيقن أن هذه الحادثة إنما حدثت بسبب ارتكابه سوء الأدب، فتندّم على ما تقدم، وأحضر الطعام ودعا حضرة عزيزان برسم الضيافة للاعتذار وأظهر له التواضع والانكسار. فأطلع حضرة عزيزان على غرض السيد وقبل التماسه وحضر مجلسه، وكان ذلك المجلس مملوءاً من الأكابر والعلماء والمشائخ. وكان في ذلك اليوم لحضرة عزيزان كيفية عظيمة وبسط تام، فلما مدّ السماط وحضر الطعام قال حضرة عزيزان: أن علياً لا يذوق الملح ولا يمد يده إلى الطعام حتى يحضر ولد سيد آتا. ثم سكت لحظة وانتظر الحاضرين ظهور أثر هذا النفس، فدخل ولد سيد آتا من الباب في هذا الوقت بغتة فقام من ذلك المجلس صياح ونياح برؤية هذا الحال وتحيّر كلهم وتعجبوا، فسألوه عن كيفية نجاته من يد الأشرار ووصوله إلى تلك الديار؟ فقال: إني كنت الآن أسيراً في يد جمع من الأتراك مربوط اليد والرِجْل بالحبال، والآن أرى نفسي حاضراً عندكم ولا أعلم أزيد من ذلك. فحصل اليقين لأهل المجلس أن هذا كان تصرفاً من حضرة عزيزان فوضع الكل رؤوسهم على قدميه وسلموا يد الإرادة إليه.

نقل: أنه جاء يوماً لحضرة عزيزان ضيوف لازموا الإكرام ولم يحضر في بيته في ذلك الوقت شيء من الطعام، فصار من ذلك الحال منكسر البال. فخرج من بيته فصادف غلاماً من مخلّصيه كان يبيع الأكارع ومعه قدر مملوء من الأكارع، فتواضع لحضرة عزيزان وقال: قد طبخت هذا الطعام لأجل ملازمي العتبة العلية من الأحباب والخدام فيرجى قبوله. فاغتنم حضرة عزيزان حضور الغلام بهذا الطعام في هذا الحال وطاب وقته وصار منشرح البال وأثنى على الغلام خيراً فأطعمه للأضياف ثم طلب الغلام وقال: إن خدمتك هذه قد بلغت من الحسن الغاية ووقعت من القبول في النهاية، فاطلب الآن مني أي مراد شئت تنل مقصودك. وكان الغلام عاقلاً ذكياً فقال: إني أريد أن أكون مثلك. فقال عزيزان: إن هذا أمر صعب يقع عليك حمل لا تطيقه. فقال الغلام بالتواضع والانكسار: إن مرادي هو هذا ولا أريد غيره. فقال

حضرة عزيزان: تكون كذلك. فأخذ بيده وأدخله في خلوته الخاصة، وتوجه إليه بحسن التوجه فوقع بعد ساعة شبح الشيخ على الغلام فصار في الحال في صورته وسيرته ظاهراً وباطناً بحيث لا يعرف الفرق في البين ولا يمتاز المثل من العين. وعاش الغلام بعد هذه أربعين يوماً ثم تخلص طير روحه من قفص البدن وطار نحو حظيرة القدس، ولحق برحمة ربه ذي المنن رحمة الله عليه رحمة واسعة.

قيل: إن حضرة عزيزان لما توجه من ولاية بخارى إلى خوارزم بإشارة غيبية ووصل إلى باب البلد، وقف هناك وأرسل اثنين من أصحابه إلى خوارزم شاه وقال لهما: قولا لخوارزم شاه إن نسّاجاً قَدِمَ بلدك يريد الإقامة فيه، فإن أذن له الملك يدخل وإلا فيرجع من حيث جاء. وقال لهما: فإن أذن الملك فخذا منه حجة مختومة بختمه. فلما دخلا على الملك وعرضا عليه حاجتهما ضحك الملك وأركان الدولة وقالوا: إن هؤلاء قوم غلبت عليهم البلاهة والجهالة. فكتبوا لهما ورقة الإذن على وفق مرامهم استهزاء بهم وختمها الملك وأعطوها لهما. فجاءا بها عند حضرة عزيزان فدخل البلد وقعد في زاوية واشتغل بطريق خواجكان، قدّس الله أرواحهم. وكان يذهب في كل صباح عند موقف العمال ويأخذ أجيراً أو أجيرين ويجيء به في بيته ويقول له: توضأ وضوء كاملاً واقعد معي اليوم على الطهارة إلى وقت العصر فتذكر الله سبحانه ثم خذ مني أجرتك ثم اذهب حيث شئت. فاغتنم العمال ذلك وصاروا يشتغلون في صحبة عزيزان بالذكر إلى وقت العصر بطيب القلب والنشاط، وصار كل من اشتغل في صحبته يوماً واحداً بهذا الطريق يحصل له حالة عجيبة ببركة صحبته الشريفة وتأثير الذكر وتصرفه في باطنه بحيث كان لا يقدر في اليوم الثاني مفارقة صحبته ولا يمكن له الذهاب من عنده حتى مضت مدة مديدة على هذا المنوال، فدخل أكثر أهل تلك الديار في طريقته، فكان الطالبون في بابه لا يحصون كثرة.

فلما زاد الازدحام سعى النمام إلى خوارزم شاه بأنه ظهر شيخ في تلك الديار ودخل في طريقته وربقة إرادته كثيرون من الأنام، وقاموا في ملازمته وخدمته على الأقدام، فيخشى من كثرة أتباعه أن يحدث خلل في المملكة العلية ودلل للسلطنة السنية، أو تقع فتنة لا يمكن تسكينها. فتأثر الملك من هذا الخبر المفزع وعزم أن يخرج حضرة عزيزان من بلاده، فأرسل حضرة عزيزان الشخصين المذكورين بالورقة المكتوبة المختومة بختمه إليه وقال: قولا له نحن ما دخلنا هذا البلد إلا بإذن منك

فإن بدلت الآن رأيك وغيّرت كلامك ونقضت حكمك تخرج من بلادك. فصار الملك وأركان الدولة خجلين منفعلين من الصورة المذكورة فوق الغاية وذهبوا إلى صحبته وملازمته، وكانوا من جملة المحبين والمخلصين له.

قيل: إن عمره بلغ مائة وثلاثين سنة، وكان له ولدان أمجدان عالمان عاملان، عارفان كاملان، وكان لهما من أعلى مراتب الولاية نصيب تام.

* **الخواجة خورد رحمه الله تعالى**: هو أكبر ولديه. واسمه خواجة محمد. وبلغ عمره في حياة والده الماجد ثمانين. وكان أصحاب عزيزان يقولون له: خواجة بزرك ولولده خواجة محمد خواجة خورد. فاشتهر خواجة محمد بهذا الاسم.

* **الخواجة إبراهيم رحمه الله تعالى**: هو أصغر ولديه. قيل: أنه لما قربت وفاة حضرة عزيزان أعطى إجازة الإرشاد لولده الأصغر الخواجة إبراهيم وأمره بدعوة المستعدين فخطر على قلب بعض أصحابه أنه مع وجود خواجة خورد الذي هو أكبر ولديه وعالم في علم الظاهر والباطن كيف اختار الخواجة إبراهيم لإرشاد الخلق، وما السبب في ذلك! فأشرف حضرة عزيزان على هذا الخاطر وقال: إن الخواجة خورد لا يمكث بعدنا إلا قليلاً ويلحقنا سريعاً.

توفي حضرة عزيزان بين الصلاتين يوم الاثنين الثامن والعشرين من ذي القعدة سنة خمس عشرة وسبعمائة والله أعلم. وتوفي الخواجة خورد ضحى يوم الاثنين السابع عشر من ذي الحجة من السنة المذكورة بعد تسعة عشر يوماً من وفاة حضرة عزيزان. وتوفي الخواجة إبراهيم في شهور ثلاث وتسعين وسبعمائة، وقيل: في تاريخ وفاة حضرة عزيزان. هذه القطعة [قطعة]:

هفتصد وبا نزده زهجرت بود　　بست هشتم زماه ذي القعده

كان جنيد زمان وشبلي وقت　　زين سرارفت دربس برده

وكان لحضرة عزيزان أربعة خلفاء غير الخواجة إبراهيم، يسمى كل منهم محمداً. وكانوا أصحاب أحوال وأرباب أذواق، وكانوا في مسند إرشاد الخلق إلى الحق.

* **الخواجة محمد كلاه دوز رحمه الله تعالى**: كان من كبار أصحاب عزيزان ومن جملة خلفائه. وقبره في خوارزم.

* **الخواجة محمد حلاج البلخي رحمه الله تعالى:** كان من كُمَّل أصحاب عزيزان ومن جملة خلفائه. وقبره في ولاية بلخ.

* **الخواجة محمد الباوردي رحمه الله تعالى:** هو أيضاً من جملة أصحاب عزيزان وخلفائه. وقبره في خوارزم.

* **الخواجة محمد بابا السماسي رحمه الله تعالى:** هو أكمل أصحاب حضرة عزيزان وأفضلهم. مولده قرية سماس، وهي من جملة قرى راميتن على بعد فرسخ شرعي منه ومنها إلى بخارى ثلاثة فراسخ. وقبره أيضاً هناك.

نقل: أنه لما قربت وفاة حضرة عزيزان اختار الخواجة محمد بابا السماسي من بين الأصحاب لمقام الإرشاد وفوّض إليه أمر الخلافة والنيابة، وأمر باقي الأصحاب بمتابعته وملازمته. وحصل لحضرة الخواجة بهاء الدين، قدّس سرّه، نظر القبول بالولدية منه.

وكان، قدّس سرّه، كلما يمر بقصر هندوان قبل ولادة الخواجة بهاء الدين يقول: يفوح من هذه الأرض رائحة رجل وسيصير قصر هندوان قصر عارفان. فلما مر به يوماً قال: قد ازدادت تلك الرائحة وأظن أنه قد ولد ذلك الرجل. وكان قد مضى في ذلك الوقت ثلاثة أيام من ولادة خواجة بهاء الدين، فوضع جده هدية على صدره الشريف وجاء به عند خواجة بابا فقال: إنه ولدنا ونحن قبلناه. وقال لأصحابه: إن هذا المولود هو الذي كنت أشم رائحته فيوشك أن يكون مقتداً وقته. ثم التفت إلى خليفته الجليل السيد الأمير كلال وقال: لا تقصر في تربية ولدي بهاء الدين وشفقته ولا أجعلك في حل مني إن كنت مقصراً. فقام الأمير على قدمه ووضع يده على صدره وقال: لا أكون رجلاً إن كنت مقصراً. وما بقي من تلك الحكاية، وكيفية تربية الأمير لحضرة الخواجة، مذكور في مقامات الخواجة بهاء الدين بالتفصيل.

قال حضرة شيخنا: كان لخواجة محمد بابا بستان صغير في قرية سماس، وكان يباشر إصلاحه بنفسه أحياناً وينقيه بيده الكريمة، وكان يمتد إصلاحه إلى زمان طويل وذلك أنه كلما وضع المنشار على غصن من الأغصان كان يغلبه الحال ويغيب عن نفسه ويسقط المنشار من يده ويبقى في غيبيته زماناً.

وكان له قدّس سرّه أربعة خلفاء فضلاء كملاء اشتغلوا بعد وفاته بدعوة الصادقين وإرشاد الطالبين.

• **الخواجة صوفي السوخاري رحمه الله تعالى**: هو من خلفاء الخواجة بابا، وقبره في قرية سوخار، وهي قرية على فرسخين من بخارى.

• **الخواجة محمود السماسي**: ابن الخواجة محمد بابا، ومن جملة خلفائه.

• **مولانا دانشمند علي رحمه الله**: هو من كبار أصحاب محمد بابا ومن أجلّة خلفائه.

• **السيد الأمير كلال قدّس سرّه**: هو أفضل أصحاب الخواجة محمد بابا وأكمل خلفائه، وفيه شرف السيادة. مولده ومدفنه قرية سوخار، وكان يصنع الكيزان. ويقال في لغة أهل بخارى لمن يصنع الكيزان: كلال.

وذكر في «المقامات» أن والدته الشريفة كانت تقول: إذا أكلت لقمة ذات شبهة مدة حملي بالأمير كلال كان يعرض لي وجع البطن بالشدة. فلما تكرر ذلك علمت أنه بسبب ذلك الجنين، فكنت بعد ذلك أحتاط في اللقمة راجيةً خير ذلك الجنين.

فلما بلغ السيد أمير كلال سن الشباب اشتغل بالمصارعة، وكان يجتمع حوله جمع كبير للتفرج، فخطر يوماً على قلب رجل في ذلك الاجتماع أنه كيف يليق بالسادة الشرفاء أن يشتغل بمثل هذه الصنعة وأن يسلك طريق أهل البدعة! فغلبه النوم في الحال ورأى في المنام أن قد قامت القيامة ورأى نفسه مغموراً في الطين إلى صدره وقد عجز عن الخروج منه، فبينما هو متحيّر في تلك الحالة، إذ ظهر السيد وأخذ بيده وأخرجه من الطين بسهولة. فلما انتبه التفت إليه حضرة الأمير في ذلك الاجتماع وقال: نحن إنما نتدرب المصارعة ونتمرن المجاسرة والتجبر لمثل هذا اليوم.

روي أن الخواجة محمد بابا مر يوماً بمعركة السيد فوقف برهة يتفرج، فخطر على خاطر بعض أصحابه أنه كيف ينظر حضرة الخواجة إلى هؤلاء المبتدعة! فأشرف حضرة الخواجة على خاطره وقال: إن في تلك المعركة رجلاً يصل في صحبته رجال كثيرون إلى درجة الكمال ونظرنا هذا إنما هو لأجله ونريد أن نصيده. فوقع نظر الأمير في هذا الحال على حضرة الخواجة وجذبته جاذبة نظر الخواجة مما

كان فيه، فلما ذهب الخواجة ترك الأمير معركته من غير اختيار وتوجه من عقبه، ولما وصل الخواجة إلى بيته وأدركه الأمير من عقبه أدخله في محله وعلّمه الطريقة وقبله للولدية. فلم يره أحد بعد ذلك في المعركة والأسواق وسائر مجامع الفسّاق، وكان في خدمته وملازمته مدة عشرين سنة متصلة، وكان يجيء في كل يوم الاثنين والخميس من قرية سوخار إلى قرية سماس لملازمته ويرجع من يومه. ومسافة ما بينهما خمسة فراسخ. واشتغل مدة ملازمته بطريقة خواجكان قدّس الله أرواحهم بحيث لم يطلع أحد من الأغيار على حاله، حتى وصل في ظل تربية الخواجة إلى مقام التكميل والإرشاد ونسبة صحبة الخواجة بهاء الدين وتعلّمه الطريقة وآداب سلوكه كانت إليه قدّس سرّه.

وله أربعة أولاد، وأربعة خلفاء، كان كلهم أرباب الكمال وأصحاب الوقت والحال. وأحال تربية كل من أولاده على كل واحد من خلفائه. ولنورد ذكر كل منهم مع بعض أصحاب الأمير وأصحاب أصحابه.

وقيل: إنه كان للأمير أربعة عشر خليفة بعضهم مذكور في مقامات الأمير.

* **الأمير برهان رحمه الله**: هو أكبر أولاد الأمير السيد كلال، قدّس سرّه، وكثيراً ما كان يقول الأمير في حقه: إن هذا الولد برهاننا - يعني حجتنا في الطريقة - وهو من أجلّة أصحاب الخواجة بهاء الدين، قدّس سرّه، وأحال الأمير تربيته إليه.

قال الأمير يوماً لحضرة الخواجة: إن الأستاذ إذا ربى تلميذه وبلغه درجة الكمال فلا جرم يريد أن يطالع أثر تربيته فيه حتى يحصل له الاعتماد والاطمئنان ويعلم يقيناً أن تربيته وقع موقعه أم لا، فإن رأى خللاً فيه يصلحه. وإن ولدي برهان الدين حاضر، ولم يتصرّف فيه أحد، وما ربّاه بالتربية المعنوية فاشتغل عندي بتربيته، فأطالع أثرها، ويحصل لي اعتماد على صنعتك.

وكان حضرة خواجة قاعداً مراقباً متوجهاً بكليته إلى حضرة الأمير، ومن غاية رعاية الأدب توقف في امتثال أمره، فقال حضرة الأمير: لا ينبغي التوقف، وإنما عليك الامتثال. فتوجه حضرة الخواجة إلى باطن الأمير برهان امتثالاً لأمر شيخه، واشتغل بالتصرف، فظهرت آثار التصرف في الأمير برهان في حينه ظاهراً وباطناً، وشوهدت فيه حالة عظيمة حتى ظهر منه السكر الحقيقي.

واعلم أن الأمير برهان كان صاحب سكر وجذبة قوية، وكانت طريقته وسيرته

الانزواء والانقطاع عن الخلق، ولم يأنس في عمره بأحد أبداً، ولم يمل قلبه إلى الإلفة سرمداً، ولم يطلع أحد على أطواره وأحواله. وكان في قوة الباطن بمرتبة كان ينهب من أصحاب حضرة الخواجة أحوالهم الباطنية ويتركهم عارين عن اللباس المعنوي.

وحكى الشيخ نيكروز، الذي هو من جملة أصحاب الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه: أنه كلما وقعت لي الملاقاة مع الأمير برهان كان يسلب مني أحوالي الباطنية ويتركني خالياً عن النسبة، متفرّق الباطن. فلما وقع ذلك منه كرات ومرات أردت أن أعرض ما في بالي من أخذ الأمير أحوالي على حضرة الخواجة، فجئت عنده بهذه النية، فلما وقع نظره عليَّ قال: لعلك جئت للشكاية من الأمير برهان؟ قلت: نعم، فقال: متى توجَّه إليك لسلب أحوالك توجَّه أنت إليَّ وقل من قلبك: لست أنا بل هو - يعني حضرة الخواجة -. فلما لقيت الأمير برهان بعد هذا التعليم وأراد أن يشتغل بسلب أحوالي على عادته القديمة، توجَّهت في الحال إلى حضرة الخواجة ببالي وأحضرت صورته الشريفة في خيالي وقلت: لست أنا بل حضرة الخواجة، فرأيته في الحال متغيِّر الأحوال حتى سقط في الأرض مغشياً عليه، فلم يكن بعد ذلك متوجهاً إليَّ بطريق التصرُّف.

ونقل عن الأمير برهان أنه قال: رأيت حول حضرة الخواجة خلقاً كثيراً وجمعية عظيمة حين رجوعه من الجبانة وأنا في آخر الكل، فلما شاهدت ذلك الازدحام وإقبال الخلق على حضرة الخواجة من الخواص والعوام قلت في قلبي: نِعْمَ الأيام كانت أوائل ظهور حضرة الخواجة حيث كانت زمان ظهور الأحوال وتصرفاته في بواطن الرجال، والآن يشوشه الخلق، فأين التصرف، وأين الحال!. فلما خطر ذلك على خاطري توقف حضرة الخواجة حتى وصلت إليه فأخذ بجيبي وهزني قليلاً، فحصل في باطني صفة عجيبة بحيث لم أقدر من عظمتها وصولتها على القيام. وكان حضرة الخواجة يحفظني حتى مر زمان وأنا على تلك الحالة، فلما أفقت قال: ما تقول، هل هذا من الأحوال والتصرفات أم لا؟ فرميت نفسي على قدمه الشريفة وقلت: التصرُّف والأحوال زيادة في زيادة.

* **الأمير حمزة رحمه الله تعالى**: هو ولده الثاني، وسمَّاه باسم والده الماجد السيد حمزة. ولم يدعه باسمه أبداً، بل كان يقول له: يا والد. وظهر منه كرامات

كثيرة وخوارق العادات، وذكر بعضها في «مقامات الأمير كلال» التي ألّفها حفيد الأمير حمزة. وكانت حِرفته الصيد، وكان يحصل منه كفاية المعيشة. وأحال حضرة الأمير تربيته إلى مولانا عارف الديك كراني.

قال الأمير حمزة: قال لي مولانا عارف: إن أردت رفيقاً يحمل أثقالك فهذا عزيز الوجود وعسير الحصول، وإن أردت رفيقاً تحمل أثقاله فكل مَن في الدنيا رفيقك وصاحبك.

وكان الأمير حمزة قائماً مقام والده بعد وفاته، وأرشد الخلق سنين إلى طريق الرشاد. ووفاته في غزة شوال سنة ثمان وثمانمائة، وكان له أربعة خلفاء كانوا بعده في مسند الإرشاد ودعوة الخلق إلى الحق.

* **مولانا حسام الدين البخاري رحمه الله تعالى**: هو الأول من خلفاء الأمير حمزة. وكان من أولاده مولانا حميد الدين الشاشي الذي كان من أكابر علماء بخارى في زمان الخواجة بهاء الدين، قدّس سرّه، وكان له لحضرة الخواجة محبة صادقة وإخلاص تام، وكان إنابة مولانا حسام الدين أولاً على يد الشيخ محمد السويجي الذي كان من جملة مشائخ ذلك الوقت. ثم اتصل بصحبة الأمير حمزة، ووجد التربية التامة في صحبته.

قال حضرة شيخنا: لما دخلت بخارى في مبادي الحال، نزلت مدرسة مبار كشاه، ولما عرفني مولانا حسام الدين ابن مولانا حميد الدين أكرمني غاية الإكرام وأمرني بالاشتغال بالمطالعة. وقال: كان للشيخ خاوند ظهور إلى والدي التفافات كثيرة وعنايات جزيلة وكأنه أراد بإكرامه إياي مكافأته، وأعطاني حجرة لطيفة من المدرسة.

وقال: إنه لما لقيت مولانا حسام الدين أول مرة كان لي قباء بنفسجي اللون، فلما رآه على ظهري لم يعجبه ذلك وقال: هل يلبس الدرويش مثل هذا! فخرجت من عنده في الحال وأعطيته رجلاً وأخذت عوضه فروة له وجئت عنده ثانياً، فلما رآني قال: هذا أحسن.

وقال أيضاً: كان لمولانا حسام الدين جمعية قوية واستغراق تام، وكانت آثار جمعيته ظاهرة، وكانت عيناه مملوءتان من سكر الحال، وكان بحيث لو رآه مَن ليس له شيء من مذاق القوم لكان منجذباً إليه. وكان من غاية حرارة الجمعية وغلبة

الجذبات يكسر الجمد في الشتاء ويُدخل رجليه في الماء، ويفتح صدره ويرش فيه ماء بارداً لتسكين حرارته.

وكلَّفه السلطان مرزا إلغ بك بقضاء بخارى ونصبه قاضياً بها بغير رضاه، فكان الطالبون يكتسبون منه الجمعية وهو قاعد في دار القضاء لفصل الخصومة وإجراء وظائف الحكومة. وكنت أحضر محكمته وكان قبالته روزنة صغيرة كنت أطالعه منها وهو لا يراني، فما أحسست فيه فتوراً ولا ذهولاً في نسبة خواجكان قدّس الله أرواحهم، وكان يبالغ في إخفاء طريقه وجمعيته الباطنية ويستر نسبته الشريفة بألبسة متعددة بحيث لا يظهر منه شيء بسهولة. وكثيراً ما كان يقول: ليس لهذا الأمر لباس أحسن من لباس الاشتغال بالإفادة والاستفادة في صورة أهل العلم.

ونقل مولانا الجامي في «نفحات الأنس» عن حضرة شيخنا أنه قال: لما وصلت إلى بخارى وتشرَّفت بصحبة مولانا حسام الدين ابن مولانا حميد الدين الشاشي وكان لي في ذلك الوقت اضطراب واضطرار، قال لي مولانا: إن المراقبة هي انتظار في الحقيقة، وحقيقة المراقبة عبارة عن ذلك الانتظار، ونهاية السير عبارة عن حصول ذلك الانتظار. فإذا حصل للسالك هذا الانتظار الذي نشأ عن غلبة المحبة وتحقق به ليس له دليل ومرشد سوى هذا الانتظار ـ يعني يوصله هذا الانتظار إلى منزل المقصود من غير دليل ـ.

وقال حضرة شيخنا: أنه لما حضرت الوفاة لمولانا حميد الدين، دخل عليه ولده مولانا حسام الدين ووجده في غاية التشويش ونهاية الاضطراب، فقال: يا أبت ما هذا التشويش؟ فقال: يا بني يطلبون مني ما لا أملكه ولا أعلم طريق تحصيله، يطلبون مني قلباً سليماً. فقال مولانا حسام الدين: كن حاضراً معي لحظة ـ يعني كن متوجِّهاً إليَّ ـ يكون الحال معلوماً لك. ثم توجَّه إلى والده فوجد مولانا حميد الدين بعد ساعة اطمئناناً في باطنه وسكونة في قلبه، ففتح عينيه وقال: يا بني، جزاك الله عني خيراً، ولقد كان اللازم عليَّ أن أصرف جميع عمري لتحصيل هذه الطريقة، فيا أسفي على عمر قد ضيّعته. فارتحل عن الدنيا بجمعية تامة ببركة الولد الصالح.

• **مولانا كمال الدين الميداني قدّس الله سرّه:** هو الثاني من خلفاء الأمير حمزة. أصله من ميدان وهي قرية من قصبة كوفين في ولاية سمرقند.

• **الأمير بزرك والأمير خورد قدّس الله سرّهما:** ابنا الأمير برهان أخي الأمير

حمزة، وهما الثالث والرابع من خلفائه.

* **بابا شيخ مبارك البخاري عليه الرحمة**: هو من كبار أصحاب الأمير حمزة. وقال البعض: إنه كان من أصحاب الأمير كلال. وذكر في «مقامات الأمير كلال» شخص مسمّى بشيخ مبارك عند ذكر أصحاب الأمير كلال وآخر عند ذكر أصحاب الأمير حمزة، لكن الشيخ مبارك الذي هو من أصحاب الأمير كلال كان من كرمينة، وهذا الذي هو من أصحاب الأمير حمزة بخاري، وكان من أكابر الوقت. وكان الخواجة محمد بارسا يحضر صحبته مع تشرّفه بشرف صحبة الخواجة بهاء الدين، قدّس الله أسرارهم.

قال حضرة شيخنا: قال الخواجة علاء الدين الغجدواني عليه الرحمة: كان الخواجة محمد بارسا كثيراً ما يذهب لزيارة بابا شيخ مبارك، فخطرت لي يوماً داعية زيارته معه فأخبرته بذلك فقال لي: لا تذهب فإنك تطلب من صحبته جمعية صحبة الخواجة بهاء الدين ولا تجدها فيها فيضعف اعتقادك في حقه، فلا مصلحة لك في زيارته.

قيل: جاء بابا شيخ مبارك مرة في منزل الخواجة محمد بارسا، فطلب منه حضرة الخواجة في آخر الصحبة فاتحة لولده الخواجة أبي نصر، فافتتح الفاتحة في البيت وأتمّها خارج البيت، فسئل عن سبب إتمام الفاتحة خارج البيت فقال: لما شرعت في الفاتحة نزلت الملائكة من السماء وازدحموا في البيت فلم يبق محل لمبارك فخرجت من البيت بالضرورة.

لا يخفى أن للأمير حمزة أصحاباً غير الذين مر ذكرهم، مثل الشيخ عمر سوزنكر البخاري، والشيخ أحمد الخوارزمي، ومولانا عطاء الله السمرقندي، والخواجة محمود الحموي، ومولانا حميد الدين، ومولانا نور الدين، ومولانا سيد أحمد الكرمينين، والشيخ حسن، والشيخ تاج الدين، والشيخ علي خواجة النسفيين وغيرهم من الفضلاء والكملاء، لكن لم أسمع من أحوالهم شيئاً من حضرة شيخنا ولم يكن شيء من أحوالهم معلوماً لي، ولم أذكرهم بالتفصيل.

* **الأمير شاه قدّس سرّه**: هو الثالث من أولاد الأمير كلال. وكان طريق تحصيل معاشه بيع الملح، كان يحمله من الصحراء ويبيعه في الأمصار والقرى. وكان يقنع من الدنيا بقدر الكفاف، وكان يقول: لكل أخذ جواب، ولكل تصرُّف حساب. وكان مشغولاً بخدمة عباد الله دائماً، وكان يسعى في كفاية مهمات ذوي

الحاجات ويهتم بقدر الإمكان في تحصيل الخبرات وإيصال المبرات. وكان لا يفوّت دقيقة في تعهد الخواطر وحفظ القلوب ورعايتها. وأحال الأمير كلال تربيته من بين خلفائه إلى الشيخ يادكار.

* **الأمير عمر قدّس الله سرّه العزيز**: هو الرابع من أولاد الأمير كلال. كان صاحب الكرامات وخوارق العادات. وكان في أكثر الأوقات مشتغلاً بأمر الاحتساب. وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وكان غيوراً فوق الغاية، وقال: قال الأكابر إذا كان زمان قطع رأس البقرة فأرسلوها في مزرعة هذه الطائفة، وإذا آن أوان إحراق السلم فضعوه على جدران هذه الطائفة، وإذا أردتم صرع أحد فألقوه إلى هذه الطائفة - يعني أوقعوه في طعنهم وملامتهم - عياذاً بالله من ذلك. وأحال الأمير كلال تربيته إلى الشيخ جمال الدهستاني الذي هو من خلفائه. وكان وفاة الأمير عمر في شهور سنة ثلاث وثمانمائة.

لا يخفى أن أفضل خلفاء الأمير كلال وأكمل أصحابه هو حضرة الخواجة بهاء الدين، قدّس سرّه، وسنورد نبذة من أحواله وأحوال أصحابه طبقة بعد طبقة بعد ذكر سائر خلفاء الأمير وأصحابه لكون ذكره طويل الذيل، والله يهدي إلى سبيل الرشاد.

* **مولانا عارف الديك كراني قدّس سرّه**: هو الثاني من خلفاء الأمير كلال، قدّس سرّه. مولده ومدفنه قرية ديك كران من قصبة هزارة الواقعة على ساحل نهر كوهك، وبينها وبين بخارى تسعة فراسخ شرعية. وقبره خارج القرية في طريق هزارة. قال حضرة الأمير كلال: ليس في أصحابي أحد مثل هذين - يعني الخواجة بهاء الدين ومولانا عارف - وكأنهما أخذا النسبة من الكل. ولما صدرت الإجازة من الأمير كلال لخواجة بهاء الدين بأنه إذا وصلت رائحة المعارف إلى مشامك من الترك والتاجيك[1] فاطلب منه مقصودك ولا تقصر في الطلب بموجب همتك.

---

(١) الطاجيك: سكان جمهورية طاجيكستان. تقع جمهورية طاجيكستان في الجنوب الشرقي من آسيا الوسطى. عاصمتها دوشنبه. تحدها شمالاً أوزبكستان وغرقيزيا، وجنوباً أفغانستان وباكستان، وشرقاً الصين، وغرباً أوزبكستان. مساحتها ١٤٣١٠٠ كلم^2، استوطنها الطاجيك الذين كانوا يعيشون في بخارى عدد سكانها ٦٠٢٠٠٩٥. أهم مدنها: دوشنبه، ميرجاب، كولياب. دياناتها: ٨٥٪ مسلمون. عملتها: الروبل. متوسط دخل الفرد: ٣٠٠ دولار.

كان مصاحباً لمولانا عارف سبع سنين بموجب أمر شيخه، وكان في تلك المدة يعامله بالتعظيم والتقديم بحيث إذا توضأ من نهر كان لا يتوضأ في أعلاه، وإذا مشيا في الطريق كان لا يسبقه في المشي، وكان يصاحبه في صورة المتابعة لسبق مولانا عارف في صحبة حضرة الأمير، فإنه كان في تربية الأمير قبله بسنين.

قال حضرة الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه: لما كنت مشغولاً بالذكر الخفي حصل لي حضور وجمعية فأخذت في طلب أصل ذلك وسرّه، فكنت في طلبه ثلاثين سنة مع مولانا عارف حتى سافرنا إلى الحجاز مرتين، فإذا سمعنا أحداً من أهل التحقيق في الزوايا والرباطات التمسناه ووجدناه، فلو لقيت أحداً مثل مولانا عارف أو كان مظهراً لحبه ما وجده مولانا عارف لالتزمت صحبته. ولما رجعت هنا ماذا تقول في من يجالس الناس في الفرش ويكون بسره متجاوزاً السماء والعرش ويكون مشغولاً هناك ظاهراً وباطناً.

* رشحة: ومن كلماته القدسيَّة: مَن كان في قيد تدبير نفسه فهو الآن في جهنم، ومَن كان في مطالعة تقدير الحق سبحانه وملاحظة لطفه فهو الآن في الجنة.

* رشحة: قال: إن كل عضو من الأعضاء مشغول بشيء عند أكل الطعام، فبأي شيء يشتغل القلب في ذلك الوقت؟ فقال له أصحابه: يشتغل بذكر الحق سبحانه. فقال: ليس الذكر في هذا الوقت الله ولا إله إلا الله، بل الذكر في هذا الوقت الانتقال من السبب إلى المسبب ورؤية النعمة من المُنعم.

ونقل مولانا أشرف الدين، الذي هو من خواص أصحاب مولانا عارف: جاء شخص يوماً عند مولانا عارف بهدية فلم يقبلها وقال: إن قبول الهدية ينبغي لمن يحصل مقصود صاحب الهدية بيمن همَّته العلّية، وليس فينا هذه الهمَّة.

قيل: إن واحداً من أقرباء مولانا عارف يسمى بمولانا درويش الإدرسكني من توابع الأمير خورد الوابكني، كان يشتغل بذكر الجهر، فجاء مولانا عارف عنده مرة ومنعه من ذكر الجهر فلم يمتنع ولم يقبل قوله، فقال له مولانا عارف: إن لم تقبل قولي تَمُتْ بقرة حرثك. فلم يلتفت إلى قوله، فماتت واحدة من بقرات حرثه في يومه ومع ذلك لم يتنبه ولم يمتنع من شغله بل ذهب إلى مرقد عزيزان مستمداً من روحانيته، فماتت الثانية في اليوم الثاني، فلما رأى ذلك امتنع عما هنالك وجاء عند

مولانا عارف للاعتذار فقال له مولانا عارف: إحفظ مني هذا البيت: [بيت]

كارنادان كوته أند بشست ياد كرد كسيكه دريشست

ترجمة:

ومن عادة الجُهَّال من سوء فكرة نداهم على مَن في حذاهم مصاحب

ونقل أنه جاء يوماً سيل عظيم من نهر كوهك إلى قرية ديك كران فخاف أهل القرية من خراب القرية باستيلاء السيل وأخذوا في الصياح والنياح والاستغاثة، فخرج مولانا عارف ورمى نفسه في محل شدة طغيانه وقوّة جريانه وقال: إن قدرت على إذهابي فأذهبني. فنقص السيل وسكن جريانه وطغيانه.

ونقل أنه لما قَدِم حضرة الخواجة من سفر الحجاز في المرة الأولى، أقام مدة في مرو وجاء الأصحاب عنده من وراء النهر واجتمعوا هناك، وانعقدت صحبات عالية، فوصل في ذلك الأثناء قاصد من مولانا عارف وقال: إن مولانا عارف يقرئك السلام ويقول: إن كان قاعداً فليقم، وإن كان قائماً فليتوجه إلى هذا الطرف فإنه قد قرب أوان الرحلة وعندي وصايا أريد أن أوصيه بها. فترك حضرة الخواجة أصحابه في مرو وتوجَّه بنفسه إلى طرف بخارى بتمام العجلة وكمال السرعة. ووصل مولانا عارف في قرية ديك كران.

فقال مولانا عارف لأصحابه: إن لي معه سرّاً أريد أن أكلّمه في الخلوة، فأما أذهب أنا وإياه إلى بيت آخر أو أنتم تخلون هذا البيت؟ فقال الأصحاب: إن فيك ضعفاً، نحن نذهب إلى بيت آخر. فلما خرجوا من عندهما قال مولانا عارف لحضرة الخواجة: لا يخفى ما بيني وبينك من الاتحاد الكلي فيما سبق وهو الآن كما كان، وقد مرت الأوقات والأزمان على محبة كاملة ومودة شاملة. والحال، قد قَرُبَ الارتحال، ونادى منادي الانتقال، فنظرت إلى أصحابي وأصحابك فرأيت قابلية هذه الطريقة، ووصف الغيبة والفناء والاضمحلال في الخواجة محمد بارسا أكثر منه في غيره من الرجال، وكل نظر وجدته في هذا الطريق، وكل معنى حصّلته بالفكر الدقيق جعلته نثاراً لوقته وسلّمته إليه، وأمر أصحابي في متابعته وأنت أيضاً لا تقصّر في حقه في هذا الباب فإنه من جملة أصحابك.

ثم قال: ما بقي غير يومين أو ثلاثة أيام، فاغسل قدور الماء بنفسك، واقعد

على ركبتيك، وأوقد النار بيديك تحت القدور، وسخّن الماء، وباشر في إحضار المهمات والتجهيز والتكفين والدفن، ثم ارجع إلى مكانك بعد ثلاثة أيام من وفاتي. فقام حضرة الخواجة بموجب وصاياه بالاهتمام التام وتوجه إلى مرو بعدما مضى من وفاته ثلاثة أيام.

وكان لمولانا عارف خليفتين جلسا بعده في مسند الإرشاد وهداية الخلق إلى طريق الرشد والسداد:

* * *

• **مولانا الأمير أشرف البخاري رحمه الله تعالى**: هو أول خليفتيه، جلس بعده في مكانه وعقد الصحبة مع طالبي الحق، واجتهد في إفادة جمعية القلوب للخلق.

* * *

• **الأمير اختيار الدين الديك كراني قدّس سرّه**: هو ثاني خليفتيه. وكان مأموراً بعده بإرشاد المريدين.

* * *

• **الشيخ يادكار الكونسروني قدّس سرّه**: هو الثالث من خلفاء الأمير كلال. وكان من قرية كون سرون، قرية في ولاية بخارى على فرسخين من البلد. وقد أحال الأمير تربية ولده الثالث الأمير شاه إليه، ووصل الأمير شاه بتربيته إلى درجة عالية، كما تقدم.

* * *

• **الشيخ جمال الدهستاني قدّس سرّه**: هو الرابع من خلفاء الأمير كلال. وربّى ولده الرابع الأمير عمر بأمره، ووصل الأمير عمر في ظلّ تربيته ويُمْنِ همّته إلى مقامات رفيعة، كما مر.

* * *

• **الشيخ محمد خليفة رحمه الله**: كان من كبار أصحاب الأمير كلال، وذكر في آخر «المقامات» أنه لما توفي الأمير كلال اجتمع الأصحاب كلهم على باب الشيخ محمد خليفة وقالوا: إنك اليوم قائم مقام الأمير، وهذا المعنى موجود فيك، فينبغي أن ترشد الطالبين إلى الطريق. فقال: إن المعنى الذي تطلبونه مني إنما هو

في ولد شيخنا، الشيخ الأمير حمزة. فذهب الشيخ محمد مع سائر الأصحاب عند الأمير حمزة واختاروا ملازمته وخدمته.

* * *

* **الأمير كلال الواشي قدّس سرّه**: هو من أجلة أصحاب الأمير كلال، وكان من قرية واش من أعمال بخارى على ثلاثة فراسخ من البلد. وقام بتربية المريدين وتربية الطالبين بعد الأمير كلال، وأخذ عنه الخواجة علاء الدين الغجدواني، عليه الرحمة، الذكر، قبل اتصاله بصحبة الخواجة بهاء الدين.

قال حضرة شيخنا: قال الشيخ علاء الدين الغجدواني عليه الرحمة: لما كنت ابن ست عشرة سنة وصلت إلى ملازمة الأمير كلال الواشي، فأمرني بالاشتغال بالذكر الخفي وبالغ في إخفاء هذا الطريق حتى عن اطلاع الجلساء. وقال: إذا أحسست اطلاع الناس عليه أظهر أمراً يستره عن الناس وكن مشغولاً بما أمرت به مستنداً على هذا الأمر. فكنت زماناً مشغولاً به مدة واشتغلت بالرياضات والمجاهدات فظهرت آثار الضعف في بشرتي، فقالت لي والدتي يوماً: إن فيك مرضاً وضعفاً ولكن تكتمه عني. قلت: ليس بي مرض، فقالت مشيرة إلى صدرها: إن لم تقل سبب ضعفك لا أجعل لك لبني حلالاً. فشرحت لها القصة بالضرورة وعرضت عليها الطريقة التي أخذتها، فأخذتها عني واشتغلت بطريق النفي والإثبات فحصل لي قلق من إظهار هذا المعنى، وجئت عند الأمير كلال بغاية الاضطراب وعرضت عليه قصة الوالدة، فقال: أجزت أيضاً لوالدتك أن تشتغل بهذا الطريق!. فكانت الوالدة مشغولة به مدة، فيوماً من الأيام ذهب أخي إلى الصحراء، فطلبتني والدتي وقالت: إغسل القدر واملأه بالماء وسخّن الماء. ففعلت ما أمرت به، فتوضأت وصلّت ركعتين وأجلستني قدامها وأمرتني بالاشتغال بالذكر، فاشتغلت واشتغلت هي أيضاً زماناً، ثم قبضت روحها بعد ساعة رحمها الله.

* * *

* **الشيخ شمس الدين كلال عليه الرحمة**: هو من كبار أصحاب الأمير كلال. وسافر إلى الحجاز من قرشي بنعل واحدة، وصحب في العراق مشائخ الوقت، وجاء بطريق المراقبة منهم إلى ما وراء النهر ونشرها هناك. وكان له في مبادي الحال مناقشة في حق الخواجة بهاء الدين، قدّس سرّه، ومنافرة ولكنها ارتفعت في الآخر

وزالت بالكلية كما هو مذكور في «مقامات حضرة الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه» بالتفصيل.

* * *

• **مولانا علاء الدين الكونسروني رحمه الله**: هو من جملة أرباب الأمور العظام من بين أصحاب الأمير كلال عليه الرحمة، واسمه مذكور في «مقامات الخواجة بهاء الدين قدس سره».

لا يخفى أن للأمير كلال، قدّس سرّه، أصحاباً أجلاء غير المذكورين من الخلفاء والأعزّة مثل: الخواجة شيخ الورازوني، ومولانا جلال الدين الكشي، ومولانا بهاء الدين الطوايسي، والشيخ بدر الدين الميداني، ومولانا سليمان، والشيخ أيمن الكرمينيين، والخواجة محمد الوابكني، رحمهم الله تعالى، وكلهم كانوا عالمين فاضلين وعارفين كاملين، لكن لما لم أسمع شيئاً من أحوالهم وأقوالهم لم أذكر كل واحد منهم على حدة.

* * *

• **مولانا بهاء الدين القشلاقي قدّس سرّه**: كان مقتدى أهل زمانه، وكان عالماً في علوم الظاهر والباطن، وصاحب آيات وكرامات. مولده قشلاق.

الخواجة مبارك القرشوي من مضافات بخارى ومنه إلى بخارى اثنا عشر فرسخاً شرعياً. وكان من جملة شيوخ الخواجة بهاء الدين، قدّس سرّه، بحسب الصحبة وأستاذه في الحديث. وهو والد زوجة مولانا عارف الديك كراني، قدّس سرّهم. ونقل عن مولانا الأمير أشرف ومولانا الأمير اختيار الدين، خليفتي مولانا عارف أن الخواجة بهاء الدين، قدّس سرّه.

لما وصل في مبادي أحواله إلى صحبة مولانا بهاء الدين القشلاقي في نشلاق، الخواجة مبارك من ولاية نسف، قال له مولانا بهاء الدين: إن الباز العالي الهمّة والعالي الطيران مثلك ينبغي أن يكون صاحبه الخواجة عارف الديك كراني. نقال حضرة الخواجة: متى تتيسر لي صحبتها وغلب عليه شوق ملاقاة مولانا عارف، وكان مولانا عارف في ذلك الوقت مقيماً في قريته يزرع القطن مع جمع من أصحابه، فقال مولانا بهاء الدين لحضرة الخواجة: إن أردت لقاء عارف فأناديه فإنه

سيحضر البتة. فصعد سطح بيت ونادى لمولانا عارف ثلاث مرات، فترك مولانا عارف اشتغاله بالزراعة في نصف النهار وقال لأصحابه: اذهبوا إلى المنزل فإن مولانا بهاء الدين قد طلبني. فتوجه نحوه بتمام العجلة فوصل إلى صحبتهم في القشلاق قبل إنزال القدر الذي وضع في نصف النهار، ومسافة ما بين ديك كران وقشلاق خواجة مبارك قريب من عشرين فرسخاً.

وكان أول ملاقاة حضرة الخواجة بهاء الدين مولانا عارفاً في تلك الصحبة، قال حضرة شيخنا: كان مولانا بهاء الدين رجلاً جليل القدر، ولما اتصل حضرة الخواجة بهاء الدين، قدّس سرّه، في بداية إرادته بصحبته الشريفة قال له مولانا بهاء الدين: إن لنا درويشاً يحمل الحطب إلى مطبخنا ينبغي لك أن تبصره. فخرج حضرة الخواجة ورأى الدرويش قد حمل مقداراً من حطب ذي شوك يابس على ظهره عرياناً وجاء به من الصحراء إلى مطبخ مولانا بهاء الدين وكان ذلك عادته دائماً، وإنما أمره مولانا بهاء الدين برؤيته للتنبيه على كمال الإخلاص في الخدمة حتى يعتبر به. ثم التفت حضرة شيخنا للأصحاب بعد نقل هذه الحكاية، وقال: إن الرجال قد فعلوا أمثال هذه الأفعال بكمال الانكسار والانفعال وسلكوا طريق الخلوص والتواضع ورؤية القصور في الأعمال، فلا جرم أنهم وصلوا إلى درجات عظيمة لا تتصور درجة فوقها وأنتم وإن لم تقدروا على أمثال هذه الخدمات فاعلموا أنه كان رجال فعلوها فيما مضى وفات.

* * *

حضرة الخواجة

بهاء الحق والدين محمد، المشتهر بالنقشبند، قدّس الله تعالى سرّه العزيز

ولادته في محرم سنة ثمان عشرة وسبعمائة في عهد حضرة عزيزان خواجة علي الراميتني عليه الرحمة، على قول من قال أن وفاته كانت في شهور سنة إحدى وعشرين وسبعمائة. مولده ومدفنه قصر عارفان، وهي قرية على فرسخ من بخارى. وكانت آثار الولاية واضحة في وجهه وأنوار الكرامة والهداية لائحة من جبينه في طفوليته.

نُقل عن والدته أنها قالت: كان ولدي بهاء الدين ابن أربع سنين فأشار إلى بقرة من بقراتنا وقال: إن بقرتنا هذه تلد عجلاً أغر الجبين، فولدت بعد أشهر عجلاً موصوفاً بالصفة المذكورة. وكان لحضرة خواجة نظر القبول للوالدية من حضرة الخواجة محمد بابا السماسي حين كان طفلاً، وكان تعلّمه لآداب الطريقة بحسب الصورة من الأمير كلال كما أشرنا إليه عند ذكر محمد بابا السماسي. وأما بحسب الحقيقة، فهو أويسي، تربى من روحانية الخواجة عبد الخالق الغجدواني كما هو معلوم من واقعته التي رآها في مبادي أحواله، وتفصيلها مذكور في «المقامات».

لا يخفى أن جمعاً من مشايخ سلسلة خواجكان، قدّس الله أسرارهم، جمعوا بين الذكر الخفي وذكر العلانية، وذلك من لدن الخواجة محمود الإنجير فغنوي إلى زمان الأمير كلال رحمهما الله تعالى، ويقال لهم في هذه السلسلة الشريفة: العلانيون. ولما كان زمان ظهور حضرة الخواجة بهاء الدين، قدّس سرّه، وكان مأموراً من روحانية الخواجة عبد الخالق بالعزيمة في العمل، اختار ذكر الخفية واجتنب ذِكر العلانية، وكلما شرع أصحاب الأمير كلال في الذِكر الجهري كان حضرة الخواجة يقوم عن هذا المجلس ويخرج، وكان ذلك يثقل على خاطر سائر الأصحاب. وكان حضرة الخواجة لا يلتفت إليه ولا يتقيّد برفع هذا الثقل عن خواطرهم ولكن كان لا يترك دقيقة من خدمة الأمير كلال وملازمته، ولا يخرج رأس

التسليم والإرادة من ربقة متابعته. وكان التفات الأمير إلى حضرة الخواجة في الزيادة يوماً فيوماً، فخاض بعض الأصحاب في طعن حضرة الخواجة وعرضوا على الأمير بعض أحواله وصفاته في صورة القصور والنقصان فلم يردهم الأمير بشيء في هذه النوبة حتى اجتمع الأصحاب كبارهم وصغارهم زهاء خمسمائة نفس في قرية سوخار لعمارة المسجد والرباط ومنازل أخرى. فلما تمَّ أمر العمارة اجتمع الأصحاب كلهم عند الأمير فتوجه الأمير إلى الطاعنين في حضرة الخواجة، وقال: إنكم أسأتم الظن في حق ولدي بهاء الدين وأخطأتم في نسبة آحواله إلى القصور وأنتم لا تعرفون أمره ولا تقدِّرون قدره، فإن نظر الحق سبحانه شامل لحاله دائماً ونظر خواص عباد الله تابع لنظره سبحانه وتعالى، وليس لي صنع واختيار في مزيد النظر في حقه.

وكان حضرة الخواجة في ذلك الوقت مشغولاً بنقل الآجر، فطلبه الأمير وتوجه إليه في هذا المجمع وقال: يا ولدي بهاء الدين، إني قمت بموجب أمر محمد بابا في حقك حيث قال، كما أني بذلت جهدي في تربيتك كذلك لا تقصر أنت في تربية ولدي بهاء الدين. ففعلت ما أمرت، ثم أشار إلى صدره الشريف وقال: قد أفرغت ثدي العرفان لأجلك فتخلص طائر روحانيتك من بيضة البشرية ولكن باز همَّتك عالية الطيران، فأجزتك الآن أن تطوف في البلدان فإذا وصل إلى مشامك رائحة المعارف من الترك والتاجيك فاطلبها منه ولا تقصر في أمر الطلب بموجب همَّتك. قال حضرة الخواجة: إن صدور هذا الكلام من حضرة الأمير كان سبباً لابتلائي فإني لو كنت في صورة المتابعة المعهودة للأمير لكنت أبعد عن البلاء وأقرب إلى السلامة.

فصحب بعد ذلك مولانا عارفاً سبع سنين، ثم وصل إلى ملازمة الشيخ قثم وخليل آتا، وصاحب خليل آتا اثنتي عشرة سنة، وسافر إلى الحجاز مرتين وسافر معه الخواجة محمد بارسا، قدّس سرّه، في المرة الثانية. ولما وصلوا إلى خراسان أرسل الخواجة محمد بارسا مع سائر أصحابه من طريق باورد إلى نيسابور وتوجه بنفسه إلى هراة لملاقاة مولانا زين الدين أبي بكر التايبادي وصاحبه ثلاثة أيام في تايباد. ثم توجه إلى الحجاز ولحق الأصحاب في نيسابور وأقام مدة في مرو بعد رجوعه من الحجاز. ثم قدم بخارى، فأقام بها إلى آخر عمره. وتفصيل أحواله مذكور في مقاماته.

ولما أشار الأمير كلال في مرض موته إلى أصحابه بمتابعته، قال الأصحاب:

أنه لم يتابعك في ذكر العلانية، فكيف تتابعه؟ فقال الأمير: كل عمل صدر عنه فهو مبني على الحكمة الإلٰهية وليس له اختيار فيه، ثم أنشد هذا المصراع الفارسي:

* أي همه تؤمن كنم چنانكه توداني *

يعني:

* يا من أفعل كل فعلك مثل ما أنت تعلمه *

ومن كلام خواجكان، قدّس الله أرواحهم: إن أخرجوك من غير صنعك فلا تخف، وإن خرجت بصنعك واختيارك فخف.

* * *

ذكر كيفية انتقال
حضرة الخواجة قدّس سرّه وتاريخ وفاته

قال مولانا محمد مسكين عليه الرحمة، الذي هو من أكابر ذلك الزمان: لما توفي الشيخ نور الدين الخلوتي في بخارى حضر حضرة الخواجة بهاء الدين، قدّس سرّه، مجلس التعزية، فرفع أصحاب التعزية أصواتهم بالبكاء وصاح الضعفاء بما لا يليق، فحصل منه الكراهة للحاضرين، فمنعوهم وتكلم كل واحد على حسب حاله. فقال حضرة الخواجة: إذا بلغ عمري نهايته أعلم الموت الدراويش. قال مولانا مسكين: كان هذا الكلام مركوزاً في قلبي دائماً حتى مرض حضرة الخواجة مرض موته، فذهب إلى كاروان سراً ـ يعني الخان ـ وكان مدة مرضه هناك، ولازمه خواص أصحابه وهو، قدّس سرّه، يبذل لكل واحد منهم شفقة خاصة ويلتفت إليهم بالتفات خاص. ولما احتضر رفع يديه إلى السماء بالدعاء في نفسه الأخير ودعا مدة مديدة ثم مسح بيديه الكريمتين وجهه الشريف وانتقل من العالم في تلك الحالة.

قال حضرة شيخنا: قال مولانا علاء الدين الغجدواني عليه الرحمة: كنت حاضراً عند حضرة الخواجة في مرضه الأخير، فدخلت عليه في حالة النزع، فلما رآني قال: يا علا خذ السفرة وكُل الطعام. وكان دائماً يناديني بـ: علا، فأكلت لقمتين أو ثلاثاً امتثالاً لأمره وما كنت قادراً على أكل الطعام في تلك الحالة. ثم رُفعت السفرة، ففتح عينيه ورآني قد رفعت السفرة فقال: يا علا خذ السُفرة وكُل الطعام. فأكلت لقيمات ورفعت السفرة، فلما رآني قد رفعت السفرة قال: خذ السفرة وكُل الطعام، ينبغي أن يأكل الطعام كثيراً ويشتغل كثيراً ـ قال ذلك أربع مرات ـ وكان خاطر الأصحاب مشغولاً في هذا الوقت بأن حضرة الخواجة إلى من

يفوّض أمر الإرشاد وإلى مَن يُسلّم أمور الفقراء. فأشرف حضرة الخواجة على خواطرهم وقال: ليش تشوشونني في هذا الوقت! ليس هذا الأمر في يدي، فإن الحاكم هو الله سبحانه فإذا أراد أن يشرّفكم بهذه الحالة يشير إليكم بها.

قال الخواجة علي داماد الذي هو من جملة خدّام حضرة الخواجة قدّس سرّه: أمرني حضرة الخواجة في مرضه الأخير بحفر القبر الذي هو مرقده المنوَّر، فلما أتممت جئت عنده فخطر في قلبي أنه إلى مَن يحيل أمر الإرشاد بعده، فرفع رأسه المبارك وقال: الكلام هو الذي قلته في «سفر الحجاز» وأتممته: كل من أراد أن ينظر إلى الخواجة محمد پارسا، فانتقل في اليوم الثاني بعد هذا الكلام إلى جوار رحمة الحق سبحانه.

قال حضرة الخواجة علاء الدين العطار قدّس سرّه: قرأت سورة (يٰس) وقت نزع حضرة الخواجة، فلما وصلت إلى نصف السورة أخذت الأنوار في الظهور فاشتغلت بالكلمة الطيبة فانقطع بعد ذلك نفس الخواجة، قدّس سرّه، وقد بلغ سنه الشريف ثلاثاً وسبعين سنة وشرع في الرابعة والسبعين. وتوفي ليلة الاثنين الثالثة من ربيع الأول سنة إحدى وتسعين وسبعمائة. وقيل في تاريخ وفاته هذه القطعة الفارسية: [شعر]

رفت شاه نقشبندان خواجه دنيا ودين   آنكه بودي شاه راه دين ودولت ملتش

مسكن ومأواي أوچون بود قصر عارفان   قصر عرفان زين سبب آمد حساب رحلتش

لا يخفى أن أفضل خلفاء حضرة الخواجة بهاء الدين، قدّس سرّه، وأكمل أصحابه، الخواجة علاء الدين العطار، والخواجة محمد پارسا قدّس سرهما، وأصحابه وخدّامه، قدّس سرّه، لا يضبطهم الحد والعد، وإنما نذكر في هذه المجموعة من أصحابه من نقل عنه حضرة شيخنا شيئاً من المعارف أو لقيه وصحبه. وإن كان أعظم أصحابه قدراً وأقدمهم فخراً، وخليفته على الحق، ونائبه المطلق والأولى بالتقديم هو الشيخ الخواجة علاء الدين العطار، قدّس سرّه، لكن نؤخر ذكره من ذكر سائر أصحاب حضرة الخواجة لكون ذكره وخلفائه وأتباعه طويل الذيل، قدّس الله أرواحهم وروح أشباحهم.

* * *

حضرة الخواجة

محمد بارسا قدّس سرّه

هو الثاني من خلفاء حضرة الخواجة. وكان أعلم أهل الزمان وأورعهم؛ وتذكرة خلفاء خواجكان قدّس الله أرواحهم.

ولما التزم ملازمة حضرة الخواجة في مبادي أحواله وأخذ في الرياضات والمجاهدات، جاء يوماً في ذلك الأثناء منزل حضرة الخواجة وانتظره خارج الباب، فبينما هو واقف في الباب منتظراً خروجه إذ دخلت جارية من خدم حضرة الخواجة في المنزل، فسألها: مَن في الباب؟ فقالت: غلام پارسا - يعني ظريف وعفيف - منتظر في الباب. فخرج حضرة الخواجة ورأى الخواجة محمداً فقال: كنت پارسا، فوقع هذا اللفظ في أفواه الناس وألسنتهم من يوم صدوره من لسانه الشريف، واشتهر الخواجة محمد بهذا اللقب.

وكان الخواجة محمد في ملازمة حضرة الخواجة في سفر الحجاز في النوبة الثانية. وقال: أمر حضرة الخواجة في بادية الحجاز مخلصاً بالمراقبة وأمره أيضاً بحفظ صورته الشريفة في خزانة خياله، وقال: إن طريق هذا المخلص طريق الجذبة وصفته بين الجلال والجمال. ولقّنه الذكر أيضاً، وأحال كيفية الذكر إلى علمه وأمره بالتمسك باللطف الإلٰهي ورؤية فضله وقطع النظر عن جزاء الأعمال، وأمره أيضاً أن يرمي ما صدر عنه من صفة الكمال قولاً وفعلاً في بحر العدم، وأمره بالمحافظة على رؤية القصور دائماً. وقال في حق هذا المخلص: هو من المرادين، ويعامل المرادون في بعض الأوقات معاملة المريدين لأجل التربية.

ولما أمر ذلك المخلص بالتكلم - يعني في معارف القوم في مبادي الحال - رآه يوماً ماشياً أمامه فنظر إليه ثم توجه إلى الأصحاب وقال: إن كل من يحضر مجلسه يسمع منه كلاماً على حسب فهمه وحاله. وكان يشرفه في بعض الأوقات بالنظر الوهباني ويدعو له بتأثير كلامه في كل أحد وبحصول كل ما يريد ويقول.

وقال في وقت آخر: إن الله سبحانه يفعل كل ما يقوله، وأنا أقول له قل وتكلم

وهو لا يقول ولا يتكلم ـ يعني رعاية للأدب ـ. وشرف هذا المخلص مرة بنظر وهباني بصفة برخ الأسود. وبرخ الأسود ـ بضم الموحدة وسكون الراء المهملة والخاء المعجمة ـ كان عبداً أسود في زمان سيدنا موسى على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام، وكانت له درجة المحبوبية عند الله سبحانه.

قيل: إن برخاً في بني إسرائيل كان قرين الأويس القرني في هذه الأمة.

قال حضرة شيخنا: إن طائفة من كبراء المتقدمين كانوا يكتسبون الأمور الحقيقية والمعارف اليقينية بعضهم من بعض بالمجالسة والمصاحبة من غير واسطة اللسان، وكان يقال لهم: البرخيون.

وأما الطائفة المتصفون بهذه الصفة بعد ظهور الشريعة المحمدية على صاحبها الصلاة والتحية يقال لهم: الأويسيون.

وقال حضرة الخواجة محمد پارسا قدس سرّه: لما عرض المرض لحضرة الخواجة في طريق الحجاز، وصّى أصحابه بوصايا وقال في أثناء وصاياه مخاطباً هذا المخلص في حضور الأصحاب: إن كل حق وأمانة وصل إلى هذا الضعيف من خلفاء خواجكان قدّس الله أرواحهم، وما كسبته في هذه الطريقة فوضت كلها إليك كما فوضها أخي في الدين مولانا عارف، فينبغي لك أن تقبلها وتوصلها إلى خلق الله سبحانه فيقبلها ذلك المخلص بالتواضع.

ولما رجع من سفر الحجاز شرّفه في حضور الأصحاب بنظر الموهبة وقال: قد أخذت عني كل ما جمعته، وكرر ذلك. وازداد نظر عنايته بعد ذلك لهذا المخلص يوماً فيوماً.

وقال في وقت آخر: إني أقول في حقه ما قاله مولانا عارف، وأنا على ذلك، ولكن ظهوره موقوف على اختيارنا، يعني سفر الآخرة.

وقال في آخر حياته: إن المعنى الباطني الذي قلته يظهر البتة ولكن في طريقه الآن حجر أسود، فإذا أميط عن الطريق يظهر ذلك المعنى.

وقال: قال حضرة الخواجة في آخر حياته في حق ذلك المخلص حين غيبوبته: إني ما تأذيت منه أبداً، وقد حصل لي تأذ في الجملة من كل من الأصحاب، وأما منه فلم يحصل أبداً، فإن حصلت المناقشة بيننا في بعض الأوقات

فإنما كانت مني لمصلحة وحكمة عارضية فإن أعرضت عنه أياماً قلائل بحسب الباطن فالآن قلبي راض عنه رضاءً تاماً وأنا على قول قلته في طريق الحجاز في حضور الأصحاب، فلو كان حاضراً في هذا الوقت لقلت في حقه أزيد من الأول وأظهر له في هذا الحال نظراً كثيراً وذكره كثيراً، والحمد لله على ذلك. [شعر]

عنايتك الجزيلة جرّأتني بأنواع الرجاء العاليات

وقال: قال حضرة الخواجة في حق ذلك المخلص حين غيبوبته في حضور الأصحاب في مرضه الأخير: إن المقصود من وجودنا ظهوره وقد ربيته بطريقي الجذبة والسلوك، فإن اشتغل بالتربية ينوّر الدنيا كلها.

وقال حضرة شيخنا: سمعت هذا النقل بغير هذا الوجه، وهو أن حضرة الخواجة قال في حق الخواجة محمد پارسا قدّس سرّهما: أن المقصود من وجودنا ظهور محمد، وهذه العبارة متضمنة للإيهام. ولازم الخواجة محمد پارسا، قدّس سرّه، لحضرة الخواجة في مرضه الأخير، وكان في خدمته كثيراً بكرة وأصيلاً، وأظهر حضرة الخواجة في حقه يوماً ألطافاً كثيرة وقال: لا حاجة لكم إلى الملازمة بهذا القدر.

جاء مرة بعض أحفاد الخواجة محمد پارسا، قدّس سرّه، لملازمة شيخنا إلى محلة الخواجة كفشير بسمرقند، فأظهر له شيخنا التفاتاً كثيراً وزاد في تعظيمه وتوقيره، وقال: في أثناء الصحبة رأى واحد من الكبراء حضرة الخواجة في المنام بعد وفاته، فسأله عن عمل تكون المواظبة عليه سبباً لنجاته، فقال: اشتغل في صحتك بما تشتغل به في النفس الأخير - يعني كما أنه ينبغي أن يتوجه في النفس الأخير إلى الله سبحانه بكليته ويكون حاضراً به وناظراً إليه - كذلك ينبغي أن يكون دائماً على هذه الصفة.

ثم قال: كان جدكم العزيز حضرة الخواجة محمد پارسا على وجه جاء حضرة الخواجة بهاء الدين يوماً ساحل حوض بستان المزار، فرأى الخواجة محمد پارسا قد أدخل رجليه في الماء واشتغل بالمراقبة وغاب عن نفسه، فتأزر حضرة الخواجة في الحال ودخل في الماء ووضع وجهه المبارك على ظهر قدمه وقال: إلٰهي بحرمة هذه القدم ارحم بهاء الدين. ثم قال حضرة شيخنا: إني لا أعلم أن حضرة الخواجة محمد پارسا عمل عملاً وصل به إلى هذه الدرجة القصوى غير الذي يعمل في النفس الأخير من خوارق.

ومن خوارقه للعادات قدّس سرّه

واعلم: أن مرتبة الخواجة محمد پارسا، قدّس سرّه، وإن كانت أعلى وأجل من أن يحمد بصدور الخوارق للعادات أو ينقل عنه الكرامات، لكن لما حصل لي استماع نبذة من خوارقه للعادات عن العدول والثقات من أكابر هذه السلسلة الشريفة تجرأت على الإقدام على إيراد هذا.

قال بعض الأكابر: إن الخواجة محمد پارسا، قدّس سرّه، كان يستر آثار تصرفاته ويجتهد اجتهاداً بليغاً في سترها وإخفائها لكن أظهرها مرة بالضرورة للزوم لحوق الإهانة بمشائخه في سند الحديث عند إخفائها. وصورة تلك الواقعة على الإجمال:

أنه لما قَدِمَ قدوة العلماء والمحدِّثين، الشيخ شمس الدين محمد بن محمد الجزري عليه الرحمة، إلى سمرقند في عهد مرزا ألغ بك، واشتغل بتحقيق إسناد محدثي ما وراء النهر وتصحيحه، فعرض على الشيخ بعض أرباب الحسد والغرض أن الخواجة محمد پارسا يروي أحاديث كثيرة في بخارى ولا يعلم صحة سنده، فلا يبعد أن حققه حضرة الشيخ، فالتزم الشيخ تحقيقه وأخبر المرزا الغ بك بذلك، فأرسل المرزا قاصداً إلى بخارى لطلب حضرة الخواجة. فلما قدم سمرقند عقد الشيخ مع الخواجة عصام الدين شيخ الإسلام السمرقندي وسائر العظماء وعلماء الوقت، مجلساً عالياً وجمعاً عظيماً، وحضر فيه حضرة الخواجة پارسا، فالتمس الشيخ منه رواية حديث بسنده. فروى حضرة الخواجة حديثاً فقال الشيخ: لا شبهة في صحة هذا الحديث، ولكن لم يثبت عندي هذا السند. فطاب وقت الحاسدين من هذا الكلام وصاروا يتغامزونه بعيونهم، فأسند حضرة الخواجة الحديث المذكور بطريق آخر فردّه الشيخ مثل الأول بجهالة الإسناد. فتيقّن حضرة الخواجة أن كل إسناد يذكره لا يكون معروضاً للقبول، فراقب لحظة مطرقاً ثم توجه إلى الشيخ وقال: إن المسند الفلاني من كتب أهل الحديث، هل هو مسلم عندك ومقبول الأسانيد؟ فقال الشيخ: نعم هو مقبول وأسانيده معتبرة ومعتمدة لا شبهة في صحتها عند محققي فن الحديث، فإن كان إسنادك من ذلك المسند فلا كلام لنا فيه. فتوجه حضرة الخواجة إلى شيخ الإسلام الخواجة عصام الدين وقال: إن هذا المسند الذي ذكرته موجود في خزانة كتبك في الدولاب الفلاني، وفي الرف الفلاني، تحت

الكتب الفلانية، في قطعة كذا وجلد كذا، وهذا الحديث مذكور فيه بإسناده الذي ذكرته بعد أوراق كذائية في الصحيفة الكذائية، فارسل واحداً من تلامذتك ليجيء به سريعاً.

فتردَّد الشيخ عصام الدين في وجود المسند المذكور، وتعجب أهل المجلس من هذا الكلام غاية العجب لتيقنهم جميعاً أن حضرة الخواجة لم يدخل في الخزانة المذكورة أصلاً.

فأرسل الشيخ عصام الدين واحداً من خواص أصحابه ووصاه بالاستعجال وملاحظة العلامات التي ذكرها حضرة الخواجة. فذهب ذلك الشخص ووجده بالصفات المذكورة وجاء به في المجلس فوجدوا الحديث في الصحيفة التي عيَّنها وبالإسناد الذي ذكره، فقام الصياح من المجلس وتحيَّر الشيخ مع سائر العلماء تحيُّراً عظيماً وتحيُّر الشيخ عصام، وتعجبه كان أزيد وأكثر من تحيُّر غيره وتعجُّبهم لعدم علمه بوجود هذا المسند مع كون خزانة الكتب في يده وتصرفه. فلما عرضت تلك القصة لمرزا ألغ بك صار خجلاً ومنفعلاً من طلبه لحضرة الخواجة وارتكابه سوء الأدب، فكان وقوع هذا التصرف في مثل ذلك المحفل العظيم سبباً لزيادة شهرته وقوّة اعتقاد الأعيان والأكابر في حقه.

وقال مولانا الشيخ عبد الرحيم النيستاني رحمه الله تعالى، الذي هو من أصحاب خواجة محمد پارسا وأخو الخواجة برهان الدين أبي نصر، قدّس سرّهما، من الرضاعة: أن المرزا خليل ابن المرزا ميرانشاه بن الأمير تيمور كان سلطاناً بسمرقند، وكان المرزا شاهرخ بن الأمير تيمور سلطاناً في خراسان، وكان حضرة الخواجة محمد پارسا يكتب المكاتيب أحياناً إلى المرزا شاهرخ في كفاية مهمات المسلمين، وكان ذلك لا يلائم المرزا خليلاً. فتأثر من ذلك أخيراً غاية التأثر بسبب سعاية أهل الحسد، فأرسل قاصداً إلى بخارى ليبلغ حضرة الخواجة أن يذهب إلى طرف البادية وقال: لعل ببركة قدومه ويُمن همَّته يتشرف خلق كثير من كفار البادية بشرف الإسلام.

فلما بلغ القاصد قال حضرة الخواجة مرحِّباً: سمعاً وطاعة، ولكن نزور أولاً مقابر أكابرنا ثم نتوجه. فطلب فرسه في الحال، فأسرجت الفرس بيدي وجئت به عنده، فركب فوراً وتوجه أولاً إلى قصر عارفان لزيارة مرقد خواجة بهاء الدين،

قدّس سرّه، فذهبت في ملازمته مع جمع من الأصحاب. فلما خرج من المزار ظهرت آثار الهيبة والعظمة في بشرته المباركة، ثم توجه منه إلى السوخار فتوقف زماناً عند قبر السيد الأمير كلال، قدّس سرّه، فلما فرغ من الزيارة ساق فرسه وصعد على كثيب وتوجه إلى طرف خراسان وأنشد هذا البيت شعراً:

اجعل أعالي كلهم أسافلا كي يعلمو ذا اليوم في الميدان مَن

ثم رجع منه إلى بخارى فوصل في ذلك الوقت كتاب من المرزا الشاهرخ، كتبه لمرزا خليل، يهدده بأني قد وصلت فهيىء موضع الحرب. فأمر حضرة الخواجة بقراءته في الجامع على المنبر، فقرؤوه ثم أرسلوه إلى المرزا خليل في سمرقند ووصل المرزا شاهرخ عقب كتابه، وقتل المرزا خليل.

وذكر في «**نفحات الأنس**» أنه قال واحد من مريدي الخواجة محمد پارسا ومعتقديه: قلت لحضرة الخواجة وقت عزيمته على سفر الحجاز في النوبة الأخيرة عند الوداع: أنه قد ذهبت يا سيدي! فقال: ذهبت وذهبت، وكأنه أشار بتكراره إلى وفاته في هذا السفر.

وكان حضرة الخواجة أبو نصر، قدّس سرّه، في معية والده الماجد في سفر الحجاز، قال: كنت غائباً وقت وفاة والدي، فلما حضرت كشفت عن وجهه المبارك لأنظر إليه ففتح عينيه وتبسّم فزاد قلقي واضطرابي، فوضعت خدي على قدميه فرفعهما.

لا يخفى أن حضرة الخواجة سافر إلى الحجاز مرتين، مرة في ملازمة حضرة الخواجة بهاء الدين، قدّس سرّه، في سفره الأخير. وفي النوبة الثانية خرج من بخارى بنية الحج وزيارة النبي ﷺ في المحرم سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة. وتوجه إلى صغانيان من طريق النسف، ثم منه إلى ترمذ وبلخ وهراة، قاصداً لزيارة المشاهد المباركة. واغتنم السادات والعلماء والمشايخ مقدمه الشريف في كل بلد واستقبلوه بالإعزاز والإكرام.

فلما وصلوا إلى نيسابور تكلّم أصحابه في حرارة الهواء وخوف الطريق. وبالجملة، وقع الفتور في عزيمة التوجه، فأخذ حضرة الخواجة ديوان مولانا جلال الدين الرومي، قدّس سرّه، للتغالي، فجاءت هذه القطعة: [شعر]

رويد أي عاشقان حق بإقبال أبد ملحق روان باشيد همچون مه بسرى برج مسعودي

مـبـارك بـادتـان أيـن ره بـتـوفـيـق أمـان الله بهرشهر وبهرجاي وبهردشتي كه پيمودي

فتوجه من نيسابور في حادي عشر من جمادي الأخرى من السنة المذكورة، ودخل مكة المكرمة بالصحة والعافية، وأتم الحج. ثم عرض له المرض، فطاف طواف الوداع محمولاً، ثم توجه إلى المدينة المنوَّرة وتشرَّف في أثناء الطريق ببشارات كثيرة. ووصل إلى المدينة المنوَّرة يوم الأربعاء الثالث والعشرين من ذي الحجة، ووجد عنايات جليلة وألطافاً جزيلة من النبي ﷺ. وتوجه يوم الخميس نحو عالم القدس، ووصل إلى جوار رحمة الله تعالى ومقام الأنس، وصلّى عليه مولانا شمس الدين محمد الفناري الرومي رحمه الله مع أهل المدينة والقافلة. ودفن في ليلة الجمعة في جوار قبة سيدنا العباس رضي الله عنه، وحمل مولانا زين الدين الحافي، قدّس سرّه، رخاماً مكتوباً من نصر ونصبه على قبره فامتاز به عن سائر القبور. قيل: إنه بلغ عمره ثلاثاً وسبعين سنة تقريباً، وقال بعض الأفاضل في تاريخ وفاته: [قطعة]

مـحـمـد حـافـظـي إمـام فـاخـرة ... مَـن كـان يُـسـمـع قـول الـحـق مـن فِـيـهِ
إذا سـألـت لـتـاريـخ فـوتـه سـنـه ... فـقـال: فـصـل خـطـابـي إشـارة فـيـه

* * *

* **حضرة خواجة أبو نصر بارسا قدّس سرّه:** هو ثمرة شجرة خواجة محمد بارسا قدّس سرّه. ولقبه الشريف: برهان الدين، وحافظ الدين.

أورد مولانا الجامي قدّس سرّه السامي في «نفحات الأنس»: أن مولانا الخواجة أبا نصر بلغ في علوم الشريعة ورسوم الطريقة مرتبة والده الماجد وفاق عليه في نفي الوجود وبذل المجهود، وكان في ستر الحال وتلبيسه بمثابة لم يظهر منه شيء من الأحوال قط، وكان كأنه لم يضع قدمه في هذا الطريق ولم يعلم شيئاً من علوم هذه الطائفة، بل من سائر العلوم. وكان إذا سأل عن مسألة من العلوم يقول: حتى أراجع الكتاب. فإذا فتح الكتاب كان يجيء المحل الذي فيه تلك المسألة أو قبله قريباً أو بعده بعدة أوراق قليلة لا يتخلف عنها.

جاء مرة إلى هراة شيخ معمر معزز معروف بالشيخ خلط من ملازمي عتبة الخواجة محمد بارسا قدّس سرّه منذ سنين، وكان في خدمة الخواجة أبي نصر أيضاً سنين، وله نسبة جليلة من نسبة هذه الطائفة، فقال يوماً: سمعت المخدوم الخواجة

أبا نصر يقول: سمعت من والدي الماجد هذا البيت: [شعر]

كن صابراً فرحان ظُنّ الخير واعـ ـمـلـه فـهـذه مـفـاتـيـح الـفـرح

وكنا يوماً قاعدين حول الشيخ خلط المذكور في جامع هراة مع جماعة من طالبي العلم، وهو متوغل في تِعداد شمائل خواجكان خصوصاً في مناقب الخواجة محمد پارسا قدّس سرّه وابنه، وحضرة أبي نصر، فأذّن المؤذن للظهر في أثناء الكلام، فقام بعض المستمعين المستعجلين للتوضي قبل إتمام الكلام، فقال الشيخ: سمعت الخواجة محمد پارسا قدّس سرّه ينشد هذا البيت: [شعر]

إذا مضت الصلاة لها قضاء ولكن لا لصحبتنا قضاء

توفي الخواجة أبو نصر في شهور سنة خمس وستين وثمانمائة. وقيل في تاريخ وفاته هذه القطعة: [قطعة]

منزل الخواجة أبي نصر غدا جنّة الفردوس في دار البقا

سرّه إذ كان دوماً بالإله جاء حساب موته سرخدا

* * *

• **مولانا محمد الفغانزي رحمه الله**: كان من جملة المقبولين والمنظورين لحضرة الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه. ومولده في قرية فغانزه، وهي قصبة كبيرة بين بخارى وسمرقند من أعمال بخارى.

قال حضرة شيخنا: كان مولانا محمد غلاماً جميلاً غاية الجمال، فصاده حضرة الخواجة قدّس سرّه وقبله بنظر العناية والشفقة واستكثر هو أيضاً من ملازمة الخواجة محمد پارسا قدّس سرّه بعد وفاة حضرة الخواجة بأمره.

وكان يقول: قد صَحِبْتُ الخواجة محمد پارسا فمن بركة نظر حضرة الخواجة بهاء الدين ويمن همّة الخواجة محمد پارسا حصلت نسبة الجمعية.

وقال: كان الخواجة محمد پارسا يخرج من المسجد بعد صلاة العشاء في أكثر الأوقات ويتكيء بعصاه على صدره الشريف قائماً على باب المسجد، ويتكلم مع الأصحاب كلمتين أو ثلاثة ثم يسكت ويغيب عن نفسه في هذا السكوت. وكثيراً ما كانت تمتد تلك الغيبة إلى أن يؤذن المؤذن للصبح، فيدخل المسجد ثانياً لصلاة الصبح.

قال حضرة شيخنا قدّس سرّه: إن أمثال هذه الأفعال ليست بعجيبة من أكابر السلسلة النقشبندية قدّس الله أرواحهم، فإن تلك الحالة تتيسر بدوام المشغولية وترتفع بها كلفة العمل.

* * *

▪ **الخواجة مسافر الخوارزمي قدّس سرّه**: كان من مخلصي حضرة الخواجة قدّس سرّه. والتزم بعد وفاته صحبة الخواجة محمد پارسا قدّس سرّه بإشارة حضرة الخواجة. ولقيه حضرة شيخنا وصحبه.

قال حضرة شيخنا: لما توجّهت إلى هراة في النوبة الأولى رافقت مولانا المسافر في الطريق، كان خوارزمي الأصل، وكان معمراً قد بلغ عمره تسعين سنة، وكان قد تشرّف بصحبة كثير من الصوفية وسائر الأكابر، وكان مشربه موافقاً للتصوُّف. وكان يقول: كنت في خدمة الخواجة بهاء الدين، وخَدَمْته كثيراً، وكان قلبي مائلاً إلى السماع. فاتفقنا يوماً مع جمع من الأصحاب أن نحضر القوال والزمار والعوّاد في مجلس الخواجة ونشتغل بالسماع فننظر ماذا يقول فيه. ففعلنا ذلك، وكان حضرة الخواجة حاضراً في هذا المجلس فلم يمنعنا عن ذلك بوجه من الوجوه. ثم قال في آخر السماع: ما أين كار نميكنيم وإنكار نميكنيم ـ يعني: نحن ما نفعل هذا الأمر ولا ننكره ـ.

ونقل حضرة شيخنا عن الخواجة مسافر أنه قال: كان حضرة الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه يوماً من الأيام مشغولاً بأمر بناء عمارة، وكان الأصحاب كلهم كبارهم وصغارهم مشغولين بعمل الطين بتمام الاهتمام، وكان خواجة محمد پارسا قدّس سرّه يومئذ في ما بين الطين. فلما كان وقت الاستواء واشتدت حرارة الهواء أمر حضرة الخواجة الأصحاب بالاستراحة، فغسَّل الأصحاب كلهم أيديهم وأرجلهم وذهبوا إلى الظل وناموا. وجاء حضرة الخواجة محمد پارسا في جنب الطين ونام هناك في الشمس من غير غسل رجليه ويديه، فجاء حضرة الخواجة قدّس سرّه في هذا الوقت ومر بالأصحاب واحداً بعد واحد، فلما انتهى إلى الخواجة محمد پارسا ورآه نائماً بهذه الكيفيّة في الشمس مسح وجهه المباركة برجله، وقال: إلٰهي بحرمة هذا الرجل ارحم بهاء الدين.

* * *

* **حضرة مولانا يعقوب الكرخي قدّس سرّه:** هو من كبار أصحاب حضرة الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه. وكان عالماً في العلوم الظاهرية والباطنية. وأصله من كرخ، قرية في ولاية غزنين. وقبره المبارك في هلفتو، قرية من قرى حصار.

قال قدّس سرّه: كنت قبل وصولي إلى صحبة حضرة الخواجة قدّس سرّه محباً له، وكان في إخلاص تام له، ولما أخذت الإجازة من علماء بخارى للفتيا والإفتاء عزمت أن أرجع إلى وطني الأصلي. فحصل لي الملاقاة يوماً بحضرة الخواجة فأظهرت له التواضع والتضرُّع وتمنيت منه التوجه بخاطره العاطر، فقال: تحضر عندي الآن في وقت السفر! فقلت: إني أحب جنابك. فقال: مِن أية حيثية؟ قلت: من حيث أنك عظيم القدر ومقبول عند جميع الخلق. فقال: لا بد من دليل أقوى من هذا، فإن هذا القبول يحتمل أن يكون شيطانياً! قلت: قد ثبت في الحديث الصحيح أنه إذا أحب الله عبداً يوقع في قلوب عباده محبته فيحبونه. فتبسَّم وقال: نحن العزيزان، فتغيَّر على الحال من هذا المقال، فإني قد كنت رأيت في المنام قبل هذا الشهر قائلاً يقول لي: كن مريداً لعزيزان وكنت نسيته، فلما قال ذلك الكلام تذكرته ثم قلت له ثانياً: توجَّه إليَّ بحسب الباطن، فقال: طلب شخص توجه الخاطر من حضرة عزيزان فقال: ما بقي في الخاطر محل للغير فاترك عندي شيئاً نتذكرك برؤيته. ثم قال: وليس عندك شيء تتركه عندي، فخذ هذه الكوفية واحفظها فكلما رأيته تتذكرني، ولما تذكرتني وجدتني.

ثم قال: عليك بزيارة مولانا تاج الدين الدشت كولكي في سفرك هذا، فإنه من أولياء الله. فخطر في قلبي بأني متوجه إلى طرف بلخ ومنه إلى الطين، وأين الدشت كولكي من بلخ. ولما توجهت نلقاء بلخ اتفق لي بالضرورة أن أذهب من بلخ إلى الدشت كولكي. فتوجَّهت هناك وتذكَّرت إشارة حضرة الخواجة، وتعجَّبت من هذا الاتفاق. ووصلت إلى صحبة مولانا تاج الدين فقويت رابطة المحبة لحضرة الخواجة بعد رؤيته.

ووقع لي سبب المراجعة إلى بخارى ثانياً، فرجعت وحضرت صحبة الخواجة ووقع في قلبي أن أسلِّم يد الإرادة إلى حضرة الخواجة. وكان في بخارى مجذوب، وكنت معتقده، فرأيته قاعداً في الطريق فقلت له: أنا أذهب، فقال: اذهب وعجِّل. وكان قد خط بين يديه خطوطاً كثيرة فقلت في نفسي: أعد تلك الخطوط فإن كانت

فرداً فهو دليل على حقية هذا القصد بدليل أن الله فرد يحب الفرد. فعددتها فكانت فرداً، فجئت عند حضرة الخواجة بتمام اليقين وأظهرت له الإرادة، فلقنني الوقوف العددي وقال: كن مراعياً للعدد الفرد ما استطعت. وكأنه أشار بهذا القول إلى الخطوط الفرد التي جعلتها دليلاً على حقية أمري.

وكتب مولانا يعقوب الكرخي قدّس سرّه في بعض مصنفاته: لما ظهرت في هذا الفقير داعية الطلب بعناية الله سبحانه، قادني الفضل الإلٰهي وحداني الكرم الغير المتناهي، إلى صحبة الخواجة بهاء الحق والدين قدّس سرّه، فصحبته في بخارى ووجدت من كرمه العميم التفاتات كثيرة فحصل لي اليقين بهداية الله تعالى بأنه من خواص أولياء الله تعالى، وأنه كامل مُكمِّل، وتفاءلت بكلام الله تعالى بعد إشارة غيبية وواقعات عديدة فجاءت هذه الآية الكريمة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: الآية ٩٠] وكنت قاعداً في آخر أيام التردد للإنابة في فتح آباد ببخارا الذي فيه مسكن الفقير متوجهاً إلى مرقد الشيخ سيف الدين، فبلغ إلى رسول قبول الحق وظهر في باطني القلق والاضطراب، فقصدت حضرة الخواجة. فلما وصلت إلى منزله الشريف بقصر عارفان رأيته منتظراً في الطريق، فتلقاني بالإحسان وجلس معي بعد الصلاة وقد استولت هيبته عليَّ بحيث لم يبق فيَّ مجال النطق. فقال في أثناء الصحبة: قد ورد في الأخبار: العلم علمان: علم القلب، فذلك علم نافع علمه الأنبياء والمرسلون. وعلم اللسان: فذلك حجة الله على ابن آدم. والمرجو أن يكون لك نصيب من علم الباطن.

وقال: قد ورد في الخبر: «إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق، فإنهم جواسيس القلوب يدخلون في قلوبكم وينظرون إلى هممكم»[1]، وأنا مأمور ولا أقبل أحداً باختياري وصنعي فننظر بماذا تكون الإشارة في تلك الليلة، فإن قبلوك نقبلك. فمرت تلك الليلة عليَّ في غاية الصعوبة بحيث لم أر في عمري أصعب منها من خوف فتح باب الرد عليَّ، فلما صلّيت معه صلاة الصبح قال: أبشر فقد حصلت الإشارة بالقبول وإني أقبل الناس قليلاً. وأتاني في قبوله حين قبلته وأنظر كيف يجيء الناس، وكيف يكون الوقت. ثم بيَّن سلسلة مشائخه قدّس الله أسرارهم إلى حضرة الخواجة عبد الخالق الغجدواني قدّس سرّه وأمرني بالوقوف

(١) هذا الخبر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

العددي، وقال: إن أول مرتبة العلم اللدني هو هذا الدرس الذي علمه حضرة الخضر عليه السلام الخواجة عبد الخالق قدّس سرّه.

فكنت بعد ذلك في صحبته أوقاتاً كثيرة إلى أن صدرت لي الإجازة بالسفر من بخاري، فقال وقت السفر: كل ما وصل إليك مني بلّغه عباد الله تعالى فيكون ذلك سبباً لسعادتك.

قال حضرة شيخنا: قال مولانا يعقوب الكرخي عليه الرحمة: أمرني حضرة الخواجة أن أصاحب الخواجة علاء الدين العطار، فأقمت بعد وفاته مدة في بدخشان وكان الخواجة علاء الدين العطار متوطناً في صفانيان. فكتب إلى حضرة الخواجة: قد وصّاك بأن تكون في صحبتي فماذا ترى الآن من المصلحة!. فلما اطّلعت على مضمونه جئت إلى صغانيان وكنت في ملازمته إلى أن توفي، فسافرت بعد ثلاثة أيام وجئت إلى هلفتو.

اعلم: أن حضرة مولانا يعقوب الكرخي اشتغل بطلب علوم الرسوم والقال في مبادي الحال، وسكن مدة وقت التحصيل بجامع هراة، وسافر إلى مصر وأقام هناك زماناً. قال حضرة شيخنا: قال مولانا يعقوب الكرخي قدّس سرّه: أقمت مدة في هراة وكنت آكل في مدة إقامتي من طعام خانقاه الخواجة عبد الله الأنصاري قدّس سرّه الواقع في سوق الملك بسبب سعة شرط وقفه ولاحتياطه في أصل الوقت. قال حضرة شيخنا: لا بأس أن يأكل من أوقاف المدرسة الغياثية وعدم مراعات الاحتياط في أوقافه. وقد سكن فيه الصلحاء والمتورعون ولم يجتنبوا عن أوقافه.

ونقل حضرة شيخنا عن مولانا يعقوب الكرخي قدّس سرّه أنه قال: لا ينبغي أن يأكل من أوقاف هراة غير المواضع الثلاثة: خانقاه الخواجة عبد الله الأنصاري قدّس سرّه، وخانقاه الملك والمدرسة الغياثية وليس فيها موضع آخر ليس في صحة وقفه تردد ولهذا منع أكابر ما وراء النهر مريديهم عن سفر هراة؛ فإن الحلال فيها قليل فإذا وقع السالك في الحرام رجع القهقرى رجوع المشئوم إلى طبعه ويرجع إلى طبيعته وينحرف عن الصراط المستقيم.

وقال حضرة شيخنا: كان مولانا يعقوب الكرخي عليه الرحمة شريكاً في الدرس لمولانا زين الدين الحافي رحمه الله وقت إقامتهما بمصر، وكانا من تلامذة مولانا شهاب الدين السيرامي عليه الرحمة الذي هو من أكابر علماء زمانه، وكانا

متحابين، قال مولانا يعقوب الكرخي لهذا الفقير: إن الناس يقولون: إن مولانا زين الدين الحافي يعبر منامات مريديه ويعتبرها ويعتمد عليها، فهل عندك علم بهذا؟ فإنك أقمت بخراسان! قلت: نعم هو كذلك. فأخذ لحيته بيده وغاب عن نفسه، وكان من عادته الكريمة أن يغيب عن نفسه آنافاً. فمال رأسه المبارك في تلك الغيبة إلى صدره الشريف حتى بقيت شعرات من لحيته في يده، ثم رفع رأسه بعد ساعة وأنشد هذا البيت: [شعر]

وإني غلام الشمس أروي حديثها ... وما لي وللّيل فأروي حديثه

* * *

• حضرة الخواجة ناصر الدين عبيد الله أحرار قدّس سرّه ورضي عنه وأرضاه: واعلم أن الأليق والأنسب وإن كان ذكر مناقبه قدّس سرّه بعد ذكر مولانا يعقوب الكرخي لانتسابه إليه، لكن لما كانت أحواله من الابتداء إلى الانتهاء مشتملة على أنواع من الحكايات والروايات من أوصاف آبائه وأجداده وأقربائه وأولاده، وبيان مبادي أطواره وأحواله، وصحبته مع المشائخ الكبار، وأصناف المعارف واللطائف التي تيسر لي سماعها في خلال المجالس من غير واسطة، وشرح تصرفاته وخوارق العادات التي ظهرت منه، وذكر تاريخ وفاته، وكيفيَّة انتقاله وارتحاله إلى دار الآخرة، ناسب شرح أحواله على التفصيل المذكور في فهرس الكتاب بعد إتمام هذه المقالة التي هي مشتملة على ذكر سلسلة خواجكان قدّس الله أرواحهم.

* * *

• خواجة علاء الدين الغجدواني قدّس سرّه: هو من أجِلّة أصحاب الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه. مولده في غجدوان، وقبره المبارك في فيل مرزة، قرية في جنوب بخارى قريب الجبانة، وفيها كثيب وهو مدفون في ذلك الكثيب.

وصل إلى صحبة الأمير كلان الواشي وهو ابن ست عشرة سنة وأخذ عنه الذكر كما مر.

قال حضرة شيخنا: قد تشرّف مولانا علاء الدين الغجدواني في أوان شبابه بشرف القبول من حضرة الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه وكان في ملازمته مدة حياته، والتزم بعد وفاته صحبة الخواجة محمد پارسا والخواجة أبي نصر پارسا قدّس سرّهما

بقية عمره بإشارة حضرة الخواجه. وكانا مغتنمين صحبته الشريفة أيضاً.

قال حضرة شيخنا: كان لخواجة علاء الدين استغراق تام، وكان حلو العبارة، وكان تقع له الغيبة في أثناء الكلام أحياناً. وقال: ما رأيت في الناس من كان مشغولاً وحريصاً على شغله مثل الخواجة علاء الدين إلا قليلاً. فمن نهاية مشغوليته صار كأنه عين النسبة. ولما أراد الخواجة محمد پارسا قدّس سرّه سفر الحجاز، أراد أن يأخذ معه الخواجة علاء الدين وقد بلغ عمره في هذا الوقت تخميناً تسعين سنة وظهرت فيه آثار الضعف والشيخوخة ظهوراً بيّناً. قال واحد من أكابر سمرقند: ترّجيت من حضرة الخواجة محمد پارسا إعذار الخواجة علاء الدين وإعفائه عن هذا السفر وقلت: إنه كبير السن ضعيف لا تحصل منه كثير فائدة. فقال: لا حاجة لنا إليه، غير أني كلما أراه أتذكر نسبة المشايخ الكرام وفي ذلك لنا مدد كثير ومعاونة تامة.

قال حضرة الخواجة علاء الدين قدّس سرّه: مذ عرفت نفسي ما طرأت عليّ غفلة عن الله تعالى مدة ما يدخل العصفور منقاره في الماء ويخرج لا في النوم ولا في اليقظة.

قال حضرة شيخنا: كان الاستغراق غالباً على الخواجة علاء الدين، وكان حين دخولي بخارى قد بلغ تسعين سنة، وكنت في صحبته وفي ذلك الأثناء ذهبت يوماً إلى قصر عارفان ماشياً بنيّة زيارة مرقد الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه. ولما وصلت إلى نصف الطريق راجعاً استقبلني الخواجة علاء الدين ذاهباً إلى المزار، فقال: إني ظننت أنك تبيت هناك فلذلك توجهت إلى المزار. فرجعت معه ثانياً إلى المزار، فقال بعدما صلّينا العشاء: إنك طالب وصاحب حاجة فينبغي لك أن تحيي هذه الليلة بلا منام. فجلس بعد العشاء إلى الصبح على وجه لم يتحول في جلوسه من جانب إلى جانب ولم يتحرك أصلاً.

قال حضرة شيخنا: إن أمثال هذا القعود لا تيسر من غير جمعية تامة ولا تفي القوّة البشرية أن يقعد أحد على هذا الوجه من غير كمال الجمعية. وقال: كان متولي المزار رجلاً فقيراً، فجاء إلى التربة بكأسين من السويق ووضع أكبرهما بين يدي حضرة الخواجة فأكله بالتمام، وقعد من وقت العشاء إلى الصبح ولم يخرج لحاجة إنسانية ولم يحتج إلى تجديد الوضوء.

قال حضرة شيخنا: قد كنت في هذا الوقت تعباناً من كثرة المشي ولكن قعدت بالضرورة لموافقته فلم يبق لي مجال القعود بعد نصف الليل، فرأيت الأصوب والأفضل أن أقوم وأمرّخه، فلما شرعت في التمريخ قال: أردت أن تدفع الثقل! قلت: لم يبق مجال للقعود فأردت أن أخفف عن نفسي بالحركة فأستريح.

وقال حضرة شيخنا: عرض لي رمد في سمرقند وامتد إلى أربعين يوماً، فملَّت نفسي عن القعود، فأردت الخروج من سمرقند فمنعني مولانا سعد الدين الكاشغري ولكني ما امتنعت. فتوجَّهت إلى بخارى لرؤية الخواجة علاء الدين الغجدواني فإني قد كنت سمعت من أوصافه الشريفة كثيراً، ولكن ما كنت رأيته. فلما دخلت بخارى خرجت يوماً للتفرج فرأيت مسجداً فدخلت فيه فرأيت شيخاً حسن السمت، قاعداً فيه، فحصل في باطني انجذاب قوي إلى صحبته. فجلست بين يديه، فأخذني عن نفسي أخذاً قوياً، فكنت أحضر صحبته متصلاً. ولما مضت على ذلك ثلاثة أيام قال: تحضر هنا منذ ثلاثة أيام وتصحبني فما مقصودك من الحضور والصحبة! فإن كان مقصودك رؤية شيخ صاحب كرامة فليس ذلك بموجود هنا، وإن أردت أن تتأثر من صحبتنا وأن تجد تفاوتاً فيك فأنت مبارك ـ أو قال: فيبارك لك ـ فأنشد الرباعية المنسوبة لحضرة عزيزان: [مصراع]

* إذا لم تجد جمعية من مصاحب البنين *

وكان ذلك الشيخ هو الخواجة علاء الدين الغجدواني قدّس سرّه.

وقال حضرة شيخنا: كان لي في بداية الحال اضطراب عجيب وما وجدت الاطمئنان إلى أن وصلت إلى صحبة الخواجة علاء الدين عليه الرحمة. وقال: قد وصلت في بداية الحال إلى صحبة كثير من الأكابر وشغلني بعضهم بالطريقة، وكان يظهر لي نسبة الحضور والجمعية في مدة يسيرة فإذا برزت آثار ذلك الحضور في عرصة الظهور كان يشغلني بأمر آخر فيزول عني آثار تلك الجمعية فيكون موجباً للتفرقة. فكنت مشوشاً من هذه الحيثية كثيراً ولم أدر سبب ذلك، ثم تبيَّن لي أن مقصودهم من ذلك إظهار أن ذلك الطريق عزيز في الغاية لا يكون معلوم شخص بسرعة وأن الجمعية لا تتيسر بسهولة. فلما وصلت إلى صحبة الخواجة علاء الدين ببخارى تخلَّصت من تلك التفرقة ببركة صحبته الشريفة وصار الطريق واضحاً.

وقال حضرة شيخنا: كان لي في بداية الحال اعتقادان: حصول المقصود

موقوف على التفات مرشد كامل ومربوط به، وأن المقصود يمكن أن يتيسر بنظر والتفات واحد منه، ولما وصلت إلى صحبة الخواجة علاء الدين قال: ينبغي لك أن تشتغل بما صار معلوماً لك فإن للسعي والاهتمام دخلاً تاماً وكل شيء حصل من غير سعي واهتمام لا يكون له بقاء ودوام.

وقال حضرة شيخنا: صحبت الخواجة علاء الدين مدة أربعين يوماً فذكر لي مرة في ذلك الأثناء كمال تصرف الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه وبركات مجلسه الشريف، ثم قال في الآخر: صحبة أكابر الوقت أيضاً غنيمة وإن لم يكونوا في مرتبة المشايخ الماضين.

وقال: قال الخواجة بهاء الدين: قال الأكابر: كربه زنده به إزشير مرده ـ يعني: الهر الحي خير من الأسد الميت.

وقال حضرة شيخنا: وعظ الخواجة أبو نصر پارسا الناس يوم وفاة الخواجة علاء الدين عليه الرحمة، وقال في أثنائه: كان الخواجة علاء الدين جارنا وكنا مأمونين مستريحين في ظل عنايته وبركة همته فارتحل الآن إلى جوار الرحمة والرضوان، فحق لنا الآن الخوف والحذر.

وحكى لي مولانا بدر الدين الصرافاني، الذي هو من جملة مريدي خواجة علاء الدين عليه الرحمة وخدمه، وكان من محلة الصرافان من محلات بخارى: أنه لما أعطى الخواجة علاء الدين عليه الرحمة إجازة لخواجة ناصر الدين عبيد الله أحرار قدّس سرّه قلت له: استعجلت في الإجازة له. فقال: إنه جاء عندنا تاماً وذهب تاماً.

وكان مولانا بدر الدين المذكور يجيء لصحبة شيخنا من بخارى إلى سمرقند دائماً، وقال هو لبعض الأصحاب: إنه لما فارق الشيخ عبيد الله أحرار عن الخواجة علاء الدين مجازاً قال الخواجة علاء الدين: سبحان الله ما هذا خواجة عبيد الله بل هذا خواجة بهاء الدين جاء إلى الدنيا ثانياً مع زيادة ألوف من الكمال.

* * *

• **الشيخ سراج الدين كلال البيرمسي قدّس سرّه**: مولده بيرمسي، قرية في نصبة وابكن ومنها إلى بخارى مسافة أربعة فراسخ شرعية. كان في مبادي أحواله من

مريدي الأمير حمزة ابن الأمير كلال قدّس سرّه ثم انسلك أخيراً في سلك أصحاب الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه.

اشتغل في مبادي حاله بالرياضات الكثيرة والمجاهدات الشاقة، فوقعت له مرة غيبة في ذلك الأثناء بحيث لم يكن له خبر عن نفسه إلى ثلاثة أيام، فأخبروا بذلك الأمير حمزة فقال: اذهبوا ونادوا في أذنه بأن الأمير حمزة يقول ارجع من المقام الذي وصلت إليه. فلما فعلوا ذلك ظهر فيه الحس والحركة بعد لحظة وجاء إلى نفسه.

ولقيه حضرة شيخنا في مبادي أحواله وصحبه. وكان يقول: لما بلغت من العمر اثنتين وعشرين سنة توجهت من سمرقند إلى بخارى فصادف مروري إلى قرية الشيخ سراج الدين البيرمسي، فاجتهد كثيراً لأقيم عنده، ولكن لم يطمئن قلبي، فاستأذنته فقال: ادخل في هذا البستان وتفرج فيه وتخيَّل نفسك كأنك رأيت خراسان والعراق وكل البلاد. فتفرجت فيه ولكن لما لم تكن لي نية الإقامة استأذنته أن أذهب إلى بخارى وكنت ألاحظ أحوال الشيخ سراج الدين مدة إقامتي عنده، فرأيته في النهار مشغولاً بصنعة الكيزان وفي الليل كان يقعد كثيراً ـ يعني: بالاشتغال بالمراقبة والأذكار.

وقال حضرة شيخنا: قَدِمَ مولانا سراج الدين الهروي إلى سمرقند وصار مدرساً في مدرسة المرزا ألغ بك، وكان يقول: إني رأيت الشيخ سراج الدين البيرمسي. وكان تتبعه للعلوم المتداولة قليلاً ومع ذلك كانت في مجلسه وكلامه حلاوة ولذاذة لم تكن في مجلس كثير من العلماء والصوفية.

وكان مولانا سراج الدين الهروي المذكور قد رأى كثيراً من الصوفية، وصحب غير واحد من هذه الطائفة، وقرأ كتاب «المفاحص» على الخواجة صائن الدين عليه الرحمة والرضوان. وبسبب ملاقاته للشيخ سراج الدين البيرمسي ولطافة مجلسه وحلاوة كلامه كان قوي الاعتقاد لأكابر خواجكان قدّس الله أرواحهم.

قال حضرة شيخنا: كان الشيخ سراج الدين البيرمسي من أهل هذه السلسلة فإذا قصد أحد صحبته كان يكنس بيته في الحال، أو كانت المكنسة وقت وصول القاصد في يده. فسألته عن سر ذلك، فقال: إن لي قريناً من الجن فإذا قصد أحد صحبتي يخبرني ذلك القرين بمجيئه.

وقال حضرة شيخنا: قال الشيخ سراج الدين: وقعت لي الملاقاة مرة مع أصحاب الشيخ أبي الحسن العشقي فحسبوا أني أريد أن أجعلهم مريداً لي، فقالوا: أيها الشيخ لا تضيّع كثيراً من أوقاتك فإنا مملؤون من محبة الشيخ أبي الحسن وتصرفه إلى هنا، وأشاروا إلى حلقهم، ولا محل فينا لشيء غير ذلك ولا تقدر أن تضع لنا محبتك. فاقتضت الغيرة أن أتصرف في بواطنهم، فأخذوا يشقون جيوبهم ويتمرغون في الأرض صرعى، فكانوا مدة على هذا الحال سكارى، فاقتضت الهمة أن أتصرف فيهم ثانياً ليصحوا فكان كل منهم بعد ذلك في مقام الاعتذار بغاية الانكسار فقلت لهم: لا ضير، فإنا نشرب مع شيخكم أبي الحسن من عين واحدة، فإرادتكم إياه هي عين إرادتنا.

وسمعت من بعض الأكابر أن مولانا سعد الدين الكاشغري صحب الشيخ سراج الدين البيرمسي في مبادي أحواله وما ذكره في رسالته من كيفية ذكر لا إلٰه إلا الله بأن يعتبر أحد رأسي الألف من السرة، وكرسي لا من الثدي الأيمن، وأحد رأسي الألف من القلب الصنـ ي، ولفظة إلٰه متصلة بكرسي لا الواقع في الثدي الأيمن، وإلا الله ومحمد رسول الله متصلة بالقلب، فيحفظ هذا الشكل بهذه الكيفية ويشتغل بالذكر بالطريقة المقررة عند أهلها، أخذه عن الشيخ سراج الدين رحمه الله.

* * *

* **مولانا سيف الدين المناري قدّس سرّه**: كان من قرية منار، وهي قرية في ولاية فركت، وهي قصبة بين تاشكند وسمرقند على أربعة فراسخ من تاشكند. وكان من كبار أصحاب الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه، وكان عالماً في العلوم الظاهرية والباطنية.

لا يخفى أنه كان في أصحاب الخواجة بهاء اندين قدّس سرّه أربعة أشخاص مسميين بمولانا سيف الدين. كان واحد منهم محبوباً، وواحد مقبولاً، وواحد مقهوراً، وواحد مردوداً. ولنورد من أحوال كل منهم نبذة:

* * *

أما مولانا سيف الدين: الذي كان محبوب القلوب، فهو مولانا سيف الدين المناري. وكان لحضرة الخواجة في حقه توجه الخاطر والتفاتات كثيرة، وكان

مولانا ملازماً لصحبة حضرة الخواجة مدة حياته، والتزم بعد وفاته صحبة الخواجة علاء الدين العطار قدّس سرّه بإشارته.

قال حضرة شيخنا: كان مولانا سيف الدين المناري عليه الرحمة مشغولاً باستفادة العلوم المتداولة وإفادتها قبل وصوله إلى صحبة الخواجة بهاء الدين اشتغالاً تاماً. وتلمذ على مولانا حميد الدين الشاشي والد مولانا حسام الدين الشاشي المار ذكره.

ولما تشرف بشرف القبول من حضرة الخواجة أعرض عن مطالعة العلوم الرسمية. وكان يقول: دخلت على مولانا حميد الدين في مرضه الذي توفي فيه، فرأيته في غاية الاضطراب، فقلت: يا مولانا ما معنى هذا القلق والاضطراب! وأين تلك العلوم التي كنت تلومني دائماً على ترك تحصيلها وتوبخني عليه؟ فقال: يطلبون مني قلباً سليماً وأحوال القلب لا العلوم وأنا لا أملك ذلك، واضطرابي إنما هو من أجل ذلك.

قال حضرة شيخنا: إذا لم تحصل ملكة حضور القلب في حال صحة المزاج، فكسب الجمعية والحضور حال المرض الذي هو وقت ضعف جميع قوى الدماغ والطبيعة وشروعها في الانحطاط والفتور في غاية التعذر، وسر حضور أهل الله عند المحتضر هو أن ترتفع الثقلة عن المريض بواسطة شرف صحبتهم ويقل عنهم شيء من العلائق.

وقال حضرة شيخنا: وكم من أناس كان لهم كلام عال في هذا الطريق فرأيتهم وقت رحلتهم عن الدنيا في غاية العجز والتعب، ووجدتهم في نهاية التشويش والنصب وقد ذهب عنه جميع المعارف والتحقيقات على طرف. فإن كل أمر حاصل بالتكلف والتعمل كيف يتيسر استحضاره وقت المرض والهموم وهجوم الضعف على الطبيعة خصوصاً حين مفارقة الروح عن البدن التي هي أصعب الشدائد وأشد المحن فإنه لا مجال فيه للتكلّف والتعمّل.

وقال حضرة شيخنا: حضرت عند مولانا ركن الدين الخافي وقت وفاته مع الشيخ بهاء الدين عمر ومولانا سعد الدين الكاشغري، وحضر أيضاً مولانا خواجة الذي هو من مريدي مولانا ركن الدين المذكور ومحرمه ومعه غلامه الخادم، ولم يكن أحد غير هؤلاء المذكورين. وكان مولانا ركن الدين غير معتقد لتحقيقات الإمام

الغزالي، فلم يكن له في هذا الوقت شغل غير بيان الاعتقاد وتكرار كلمة التوحيد، وكان جميع أموره الدنياوية وبيانه للفضل والكمال هباء.

* * *

وأما مولانا سيف الدين: الذي تشرّف بشرف القبول من حضرة الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه فهو مولانا سيف الدين خوشخان البخاري. وكان سبب وصوله إلى صحبة حضرة الخواجة أنه سافر مرة من بخارى إلى خوارزم للتجارة فصادف فيه مرات صحبة الخواجة علاء الدين العطار قدّس سرّه وتأثر في مجلسه غاية التأثر. ولما قدم إلى بخارى بادر إلى ملازمة الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه ووجد منه سعادة القبول، وأخذ عنه الطريقة، واشتغل بكمال الاهتمام والجد التام، وتوجه بجميع همّته لتحصيل نسبة خواجكان قدّس الله أرواحهم، وترك الاختلاط بأصحابه القدماء والاجتماع بأحبابه الندماء.

* * *

وأما مولانا سيف الدين المقهور: فهو مولانا سيف الدين البالاخانوي. كان من أكابر علماء بخارى وأعيانهم، وكان مولانا سيف الدين هذا وخواجة حسام الدين يوسف عم الخواجة محمد پارسا مصاحبين لمولانا سيف الدين خوشخان ليلاً ونهاراً. ولما رجع مولانا سيف الدين من خوارزم واختار الطريقة وترك الاختلاط مع أحبابه بالكلية جاء يوماً خواجة حسام الدين مع مولانا سيف الدين بالإخانة متفقين إلى منزل مولانا سيف الدين خوشخان وجلسا معه وقالا له: كنا نحن أولاً أحباباً وأصحاباً ومصاحبين جميعاً ليلاً ونهاراً ولم يصدر منا ما ينافي المودة وينفي المحبة، وأن حقوق الصحبة ثابتة بيننا، فإن وصل إلى مشامك نسيم السعادة فبمقتضى المحبة وحق الصحبة ينبغي لك أن تخبرنا به وتدلنا عليه فلعلنا نتشرّف أيضاً بتلك السعادة. فقال بعد كمال المبالغة وتمام الإلحاج والإبرام: إن في هذه الولاية شيخاً معززاً صفته كذا وكيفيته كذا وصورته كذا، وأشار إلى حضرة الخواجة بهاء الدين وقال: إن في صحبته الشريفة ما لا يحصى من آثار السعادة وأنوار الهداية، يعني: فعليكما بصحبته إن أردتم السعادة. فقال مولانا سيف الدين بالإخانة: نعم هو في الواقع مثل ما قلت، فإني لقيته يوماً وعليه فروة جديدة فخطر في قلبي أن ليت هذا الشيخ يعطيني فروته هذه فأعطانيها في الحال، وأنا أشهد بحقيته. ثم قال

لمولانا خوشخان: قم بنا وأوصلنا إلى صحبته. فجاؤا جميعاً إلى صحبة حضرة الخواجة قدّس سرّه، فتشرّف الخواجة حسام الدين يوسف ومولانا سيف الدين بالاخانة بشرف قبول نسبته وطريقته ولكن صدر من مولانا سيف الدين في الآخر ترك أدب موجب لكراهة خاطر حضرة الخواجة وكدورة قلبه الشريف، فصار بواسطته محروماً من شرف صحبته وصار مهجوراً ومقهوراً.

وصورة الواقعة: أن حضرة الخواجة كان يوماً يمشي في بعض أزقة بخارى وكان مولانا سيف الدين بالاخانة في ملازمته، فلقيه الشيخ محمد الحلاج، وكان شيخاً معتبراً في زمان حضرة الخواجة بهاء الدين وله مريدون لا يحصون، وكان من منكري حضرة الخواجة. فلما دنى منه توجه حضرة الخواجة إلى جانبه بموجب كرمه الذاتي ومروءته وشايعه خطوات فلم يناسب هذا القدر من التشييع لمولانا سيف الدين ولم يكتف به بل شايعه خطوات أخرى من قبل نفسه، فحصلت لحضرة الخواجة غيرة عظيمة من فعله ذلك وتأثر غاية التأثر وتغيّر نهاية التغيُّر. ولما رجع مولانا سيف الدين إليه قال له حضرة الخواجة عتاباً: شايعت الحلاج وجعلت نفسك بسبب ترك الأدب هباء وأخربت بخارى بل جميع العالم. فمات مولانا سيف الدين بعد أيام قلائل من تغير حضرة الخواجة وقهره وغضبه، وجاءت قبيلة توقمق من طائفة أوزبك وحاصرت البخارى وقتلت أناساً كثيرة وأفسدت كثيراً من تلك الناحية بالنهب والتخريب.

ونقل بعض الأكابر عن حضرة شيخنا أنه قال: كان للشيخ محمد الحلاج سبعة خلفاء، أولهم: الشيخ اختيار وآخرهم الشيخ سعد البيرمسي.

وصحب الشيخ اختيار في مبادي أحواله حضرة الخواجة كثيراً، وكان له إرادة صادقة وإخلاص تام.

ومن العجائب، أنه مع وجدان صحبة حضرة الخواجة تركها في الآخر وذهب إلى صحبة الشيخ محمد الحلاج. ومع ارتداده عن طريقة خواجكان كان يتكلم في طريقتهم ويقوي نسبتهم الشريفة.

وقال حضرة شيخنا: إني رأيت أخا الشيخ اختيار في الطريقة كان شيخاً نساجاً يسمى بالشيخ الحاج، وكان من خلفاء الشيخ محمد الحلاج. وكان مقيماً بمرو، وكان يذهب إلى السوق لشراء الخيط وغيره من مصالح أموره، وكان لا يعرف غير

مهماته ومصالحه التي جاء السوق لأجلها. وكان صاحب شعور بنسبته وذاهلاً عن غيرها، كان لا يلتفت إلى يمينه وشماله وكان ناظراً إلى قدمه دائماً.

قال حضرة شيخنا: إن الشيخ سعدي البيرمسي الذي هو آخر خلفاء الشيخ محمد الحلاج كان في أوائل حاله من المقبولين لحضرة الخواجة قدّس سرّه، ومن جملة المنظورين لديه. فوقعت في الآخر صورة منافية للأدب فذهب بسببها إلى صحبة الشيخ محمد الحلاج وصار مريداً له. وأنا رأيته في أرذل العمر وكان وقت صحبته لحضرة الخواجة صغير السن حتى عيّن له حضرة الخواجة وظيفة خدمة جدته من أمه، وكانت مسنة. وكان لحضرة الخواجة بستان فذهب الشيخ سعدي مرة إلى البستان وقت بلوغ المشمش وأراد أن يأخذ مشمشاً فمنعه من ذلك قيم البستان، فقال له الشيخ سعدي: يا هذا ما أشدك بلادة، فإن حضرة الخواجة لا يبخلنا بالله وأنت تبخل بمشمش من بستانه!. فلما بلغ هذا الكلام حضرة الخواجة استحسنه كثيراً وزاد له نظر عنايته، ولكن وقعت في الآخر صورة منافية للالتفات وهو: أن الشيخ سعدي طلب من حضرة الخواجة إجازة لسفر الحج فلم يستحسن ذلك عند حضرة الخواجة وكبار أصحابه ولم يمتنع هو بمنع حضرة الخواجة، بل توجه للحجاز. فلما رجع لم يجد من حضرة الخواجة التفاتاً، فذهب عند الشيخ محمد وصار مريداً له.

وأما مولانا سيف الدين الذي كان مبتلى في الآخر بمرض الحرمان والرد والهجران، فهو مولانا سيف الدين الخوارزمي. كان في مبادي أحواله من محبي حضرة الخواجة ومخلصيه، ولكن صدرت منه أخيراً صورة منافية للأدب، مستلزمة لعدم الالتفات، فكان مهجوراً ومحروماً من شرف صحبة حضرة الخواجة، وصار بعيداً من توجه قلبه. ونقل بعض الأكابر عن حضرة شيخنا: سبب حرمانه ومردوديته أنه كان يشتغل أحياناً بالتجارة ولم يكن خالياً عن البخل والإمساك. فدعى يوماً حضرة الخواجة مع جماعة من أصحابه إلى منزله للضيافة وكان دأب حضرة الخواجة وأصحابه إحضار شيء من الحلواء والفواكه بعد الطعام، فإن لم يحضر بعد الطعام شيء من ذلك كانوا يقولون لهذا الطعام: ناقصاً، وأنه طعام بلا ذَنَب. فلم يتفق في هذا اليوم لمولانا سيف الدين إحضار شيء من الحلواء والفواكه، يعني مع علمه عادة حضرة الخواجة وأصحابه، فقال له حضرة الخواجة على وجه الملاطفة والمطايبة: يا مولانا سيف الدين إن طعامك هذا ليس له ذَنَب. فوقعت في قلبه كراهة من هذا الكلام فأشرف حضرة الخواجة على خاطره فقال له: كيف أنت إن

حصل لك اثنا عشر ألف دينار من النقود، وكان في خاطره دائماً أنه نعم المعيشة إن حصل لي اثنا عشر ألف دينار، فأعرض حضرة الخواجة بعد ذلك بخاطره الشريف فلم يبق له ميل وإقبال إلى صحبته الشريفة ولم ينجذب إلى مجلسه، فآل الأمر إلى أن يكون أحوال باطنه الحرص التام على جمع الحطام والإقبال على الدنيا الدنية متاع اللئام حتى لم يبق له استراحة لأجل طلب الدنيا ولا منام، وترك صحبة حضرة الخواجة وملازمته وتوجه بكليته إلى التجارة.

كان مرة في قافلة بين مرو وماخان فوصلوا إلى أرض ذات أعشاب ومرعى خصيب فنزلوا فيها، فأخذ يتمرغ في الأعشاب من فرحه وسروره ويقول: نِعم الحال حال مَن ليس له شيخ. قال حضرة شيخنا: ما أبعده عن اللطف وما أغلظ طبيعته حيث لم يتأثر من حرمانه ولم يتألم قلبه من هجرانه من صحبة مثل حضرة الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه.

وقال حضرة شيخنا: كان واحد من أصحاب حضرة الخواجة قدّس سرّه أيضاً مهجوراً ومردوداً بسبب إساءة الأدب، وهو ابن أخت مولانا سيف الدين المناري. قال مولانا شمس الدين الفركتي: كان لأخت مولانا سيف الدين المناري ولدان، أحدهما مولانا محمد، كان شاباً عالماً متقياً ومنزوياً عن الأغيار، وكان من المقبولين عند حضرة الخواجة. وكان له اشتغال تام في ظل عنايته وحسن تربيته. وثانيهما: مولانا شمس الدين. كان شاباً طالب علم وكان في خدمة حضرة الخواجة وملازمته، ولكن وقع منه مرة قصور في الخدمة وإهمال بسبب الكسالة فسقط بشآمته عن نظر حضرة الخواجة فلم يفلح بعد ذلك ولم يصلح أبداً. وصورة الحال: أنه قَدِم يوماً لحضرة الخواجة ضيوف يجب إكرامهم، ونزلوا منزله، فاحتيج إلى الماء فأمر حضرة الخواجة مولانا شمس الدين أن يسد طريق النهر من طرف آخر وأن يفتح من هذا الطرف ليجري الماء إلى منزله، وأمره بالاستعجال. فأهمل مولانا شمس الدين في ذلك وتأخر، ثم جاء بعد مدة عنده وقال: لم أقدر أن أسده بسبب الضعف الذي فيَّ. فحصلت كراهة عظيمة لحضرة الخواجة من إهماله وتقصيره وقال: لو قطعت أوداجك وأجريت دمك من هذا النهر لكان خيراً لك من هذا الكلام. فعرض له بعد ذلك مرض دماغي فترك خدمة حضرة الخواجة وذهب إلى فركت عند خاله مولانا سيف الدين وعرض عليه حاله، فقال له مولانا سيف الدين: اذهب عند حضرة الخواجة علاء الدين العطار والتمس منه الشفاعة لك عند حضرة الخواجة فلعله يرحمك ويسأل العفو لك من حضرة الخواجة فعساه يقبل معذرتك ببركة شفاعته.

فلم يعمل هو بما أمر به خاله بل جاء عند الخواجة محمد پارسا وعرض عليه حاله، فقال: إن هذا الأمر لا يفتح من عندنا، فعليك أن تذهب عند الخواجة علاء الدين العطار. فلم يعمل هو أيضاً بكلام الخواجة محمد پارسا بل رجع ثانياً إلى فركت عند خاله، فقال له مولانا سيف الدين: إني أرسلتك عند الخواجة علاء الدين، فلم ذهبت إلى محل آخر! فإن أمرك إنما يفتح عند الخواجة علاء الدين. فرجع ثانياً إلى بخارى وجاء عند الخواجة محمد پارسا فأحاله أيضاً إلى الخواجة علاء الدين، فلم يعمل بموجب إشارته بل رجع إلى فركت ولم يذهب بعد عند خاله، فكان بعد ذلك مبهوتاً ومدهوشاً وعرض له النسيان وصار بحيث لم يبق في خاطره شيء من معلوماته وبلغ إلى حد كان لا يعرف أسامي أولاده.

وكان لمولانا شمس الدين هذا مودة تامة مع الخواجة عماد الملك من أقرباء حضرة شيخنا، وسيجيء ذكره، وصار لا يعرف اسمه بل كان يقول له: آتا.

قال حضرة شيخنا بعد نقل هذه الحكاية: إن حفظ خواطر الأولياء وامتثال أوامرهم والانقياد إلى إشاراتهم واجب على جميع الطالبين الصادقين وتقديم أمرهم على جميع المرادات والمقاصد من أهم المهمات وألزم اللوازم.

قال مولانا عبد العزيز البخاري عليه الرحمة، وكان من أصحاب حضرة الخواجة قدّس سرّه: ينبغي لطالب صحبة حضرة الخواجة وصحبة أصحابه أن يحافظ على ثلاثة آداب:

الأول: أنه إذا صدر منه عمل مقبول عندهم ينبغي له أن لا يرفع رأس الأنانية، وأن لا يرى عمله، بل ينبغي أن يتصف بصفة الانعدام والتواضع والانكسار أضعاف ما كان قبل ذلك بألف مرة، وأن يطالب نفسه بالزيادة والاجتهاد في العمل وترك الأمل.

الثاني: أنه إذا صدر منه عمل موجب للرد عنهم ينبغي أن لا يكون مأيوساً وأن يحفظ نفسه في قبضة تصرفه حفظاً بليغاً لئلا يتردد ولا يذهب إلى طرف آخر.

والثالث: أنهم إذا أمروا بشيء ينبغي له أن يبادر إليه وأن يقوم به بكمال النشاط والفرح ليبلغ مقصوده وإلا فيبقى بلا حظ ولا نصيب من بركاتهم.

* * *

حضرة الخواجة

علاء الدين محمد العطار قدّس سرّه

اسمه محمد بن محمد البخاري. وكان أصله من خوارزم. وكان لوالده خواجة محمد ثلاثة أولاد: خواجة شهاب الدين، وخواجة مبارك، وخواجة علاء الدين. فلما توفي أبوهم الخواجة محمد، لم يأخذ خواجة علاء الدين من ميراثه شيئاً واشتغل بتحصيل العلوم في واحدة من مدارس بخارى على التجريد. وكان لحضرة الخواجة بهاء الدين صبية، فقال لوالدتها: إذا بلغت حد البلوغ أخبريني في تلك الساعة. فلما بلغت أخبرته، فجاء حضرة الخواجة من قصر عارفان إلى بخارى ودخل حجرة الخواجة علاء الدين في المدرسة، فرأى فيها حصيراً مشقوقاً مفروشاً كان الخواجة علاء الدين يضع عليه جنبه أحياناً ولبنتين كان يتوسدهما وقمقمة مكسورة يتوضأ بها. فلما رآه الخواجة علاء الدين قام من مكانه ووضع رأسه على قدمه تواضعاً وتعظيماً. فقال له حضرة الخواجة: إن لي صبية وقد بلغت في هذه الليلة، وأنا مأمور بأن أزوجكها. فقال الخواجة علاء الدين متواضعاً: إن هذه لسعادة عظيمة توجهت إليّ من محض لطف الحق سبحانه ولكن ليس لي شيء من أسباب الدنيا حتى أصرفه في لوازم الازدواج والحال ما تراه وتشاهده. فقال حضرة الخواجة: إن لك ولها رزقاً مقدراً ومقرراً عند الله تعالى، لا حاجة إلى الفكر والتشويش من هذه الجهة. فتحقق العقد، فولد له منها بعد زمان خواجة حسن العطار قدّس سرّه.

وسمعت من بعض الأكابر أنه لما قبل حضرة الخواجة خواجة علاء الدين العطار للولدية أخرجه من المدرسة وأمره بكسر رعونته المولوية، أو لحكمة أخرى، بأن يضع مقداراً من التفاح في طبق من طين وأن يحمله فوق رأسه ويبيعه في أسواق بخارى ماشياً حافياً طائفاً في أزقة بخارى بصوت عال. فقام الخواجة علاء الدين بهذا الأمر على الذوق والنشاط التام بلا تأخير، وكان أخواه الخواجة شهاب الدين

والخواجة مبارك صاحبي عار وناموس، فحصلت لهما من ذلك غاية الخجالة ونهاية الانفعال. فلما أخبروا حضرة الخواجة بذلك قال له: اذهب وضع الطبق على جنب دكان أخويك وبع هناك بصوت عال. ففعل وبقي على ذلك مدة ثم علمه حضرة الخواجة الطريقة وأمره بشغل الباطن.

وذكر في «المقامات»: أن حضرة الخواجة كان يجلس الخواجة علاء الدين في المجالس قريباً منه، وكان يتوجه إليه آناً فآناً. فسأله بعض الأكابر عن سره، فقال: إنما أجلسه إلى جنبي لئلا يأكله الذئب، فإن الذئب نفسه في كمينه دائماً فأتفحص عن حاله في كل لحظة ليكون مظهراً للأسرار الإلٰهية.

قال الخواجة علاء الدين: سألني الشيخ محمد في راميتن في بداية ملازمتي حضرة الخواجة، عن كيفية القلب؟ قلت: إن كيفيته ليست بمعلومة عندي. فقال: إن القلب عندي مثل الهلال في اليوم الثالث. فعرضت تعريفه وتمثيله للقلب على حضرة الخواجة، فقال: إنه إنما بيَّن نسبة حاله فقط.

وكان حضرة الخواجة قائماً في ذلك الوقت، فوضع قدمه المبارك على ظهر قدمي فظهرت فيَّ كيفية عظيمة حتى شاهدت جميع الموجودات فيَّ. فلما رجعت إلى حالي الأول قال: إن النسبة هي هذه لا ذاك، فكيف تقدر أن تدرك حال القلب! فإن عظمية القلب يضيق عنها نطاق البيان، وسر حديث: «**لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي**»(١) من الغوامض، فمن عرف القلب فقد عرف هذا السر.

وأحال حضرة الخواجة تربية كثير من الطالبين في حياته إلى حضرة الخواجة علاء الدين قدّس سرّه. وكان يقول: إن علاء الدين قد خفف عني كثيراً من الأثقال والأحمال.

فلا جرم ظهر فيه أنوار الولاية وآثار الهداية على الوجه الأتم والأكمل. ووصل كثير من الطالبين بيمن صحبته وحسن تربيته إلى أوج القرب والكمال، ونالوا مرتبة التكميل والإكمال.

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء برقم (٢٢٥٦) [٢/ ٢٥٥] ورواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب بلفظ: قال الله عزَّ وجلَّ: «لا يسعني شيء ووسعني قلب عبدي المؤمن إذا ألبسته لبسة أحبائي»، حديث رقم (٤٤٦٦) [٣/ ١٧٤].

نقل: أنه وقع مرة اختلاف بين طائفة من علماء بخارى في مسألة رؤيته تعالى أنها جائزة أم لا! وكان لهم اعتقاد تام في حق الخواجة علاء الدين، فجاؤوا عنده وعرضوا عليه المسألة وقالوا: أنت الحكم فاحكم بيننا بالحق. فقال حضرة الخواجة لمنكري الرؤية ميلاً منهم إلى مذهب المعتزلة: احضروا عندي إلى ثلاثة أيام متصلاً واقعدوا معي في الصحبة على طهارة كاملة ساكتين فأحكم بعد ذلك. ففعلوا فوقعت عليهم كيفية عظيمة في اليوم الأخير حتى غشيتهم الغيبة وصاروا يتمرغون في الأرض. فلما أفاقوا قاموا وقالوا بغاية التواضع والانكسار: آمنا وصدّقنا، إن رؤية الله تعالى حق. والتزموا بعد ذلك صحبته واعتكفوا على عتبته. قيل: أنشد بعض أصحابه في ذلك المجلس هذا البيت: [شعر]

وقالوا متى وصل الإله من العمى   فناولهم شمع الصفاقل وهكذا

ورأيت بخط الخواجة محمد پارسا قدّس سرّه: قال حضرة الخواجة علاء الدين قدّس سرّه في مرضه الأخير: لو أردت أن يصل جميع الخلق إلى المقصود الحقيقي لوصلوا بعناية الله سبحانه وتعالى ونظر حضرة الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه. [شعر]

لو لم أخف من كسر قلب الخازن   لفتحت أقفال العوالم كلها

قال حضرة شيخنا: كانت الغيبة عالية على حضرة الخواجة محمد في التوجهات والمراقبات، وكان لحضرة الخواجة علاء الدين شعور كامل ووقوف تام، وتلك الصفة، أعني: الشعور والوقوف، أتم وأكمل عند أهل التحقيق.

وقال حضرة شيخنا: لما توفي حضرة الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه بايع أصحابه كلهم حضرة الخواجة علاء الدين حتى الخواجة محمد پارسا قدّس سرّه لكمال علو شأنه.

ومن أنفاسه النفيسة الشريفة قدّس سرّه: لا يخفى أن الخواجة محمد پارسا قدّس سرّه أورد بعض كلماته القدسية التي صدرت عنه في المجالس والصحبة إلى قيد الكتابة، وأراد أن يلحقه بمقامات الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه لكن لم يتيسر له ذلك. فنذكر بعضاً منها في هذه المجموعة للتيمّن والتبرّك في ضمن سبع وعشرين رشحة نقلاً من خط الخواجة محمد پارسا قدّس سرّه.

* رشحة: قال قدّس سرّه: إن المقصود من الرياضات إنما هو نفي التعلقات الجسمانية بالكلية والتوجه الكلي إلى عالم الأرواح وعالم الحقيقة. والمقصود من السلوك أن يتخلص العبد باختياره وكسبه عن هذه التعلقات التي هي مانعة للعبد عن الطريقة، وأن يعرض كل واحد من تلك التعلقات على نفسه، فإن كان قادراً على تركه فليعلم أن هذا التعلق ليس بمانع عن الحق ولم يغلب عليه، فإن لم يكن قادراً على تركه ورأى قلبه مربوطاً به فليعلم أنه مانع له عن الطريقة فليتشبث بتدبير قطعه وقلعه عنه. وقد كان حضرة الخواجة إذا لبس ثوباً جديداً يقول أولاً للاحتياط: إن هذا حق فلان، ويلبسه مثل ثوب العارية.

* رشحة: قال قدّس سرّه: إن التعلق بالمرشد وإن كان تعلقاً بالغير، واجب النفي في الأخير لكنه في الأول سبب الوصول. ونفي التعلق عن ما سوى المرشد من اللوازم، وينبغي للطالب أن يطلب وجوده ورضاه وينفي ما سواه تعالى في محله، يعني في الانتهاء، فإن النفي في غير محله ليس بمفيد.

* رشحة: قال قدّس سرّه: قال المشائخ قدّس الله أرواحهم: التوفيق مع السعي، وكذلك يكون مدد روحانية المرشد للطالب على قدر سعيه بأمر المرشد فإنه لا بقاء لهذا المعنى بدون السعي، وليس لتوجه المرشد للطالب بقاء فوق أيام ثلاثة، فإن من المعلوم أن المرشد إلى متى يتوجه إلى الغير. وكان من اللطف الإلهي أن مولانا دادرك أمرني أولاً بالسعي وكان التوفيق رفيقاً حتى صارت أوقاتنا كلها مصروفة في السعي في صحبة حضرة الخواجة قدّس سرّه وأنا لا أعرف من كان يوماً واحداً بتمامه في السعي من أصحاب حضرة الخواجة إلا قليلاً.

* رشحة: قال قدّس سرّه: قد تظهر في أثناء السعي والتوجه أحياناً حالة للطالب ويراها الطالب ولكن لا يعلم أنه ماذا يرى، فينظر إلى نفسه فيرى نفسه معدوماً فيقع في الحيرة ثم تحتجب عنه تلك الحالة بعد زمان ويكون طلوعها سبباً لحديث النفس. فينبغي للطالب في هذا الحال أن يرى قصور نفسه ومطالعة نقصانه، وأن يكون راضياً باحتجاب تلك الحالة من حيث إنه رضا المحبوب ومقتضى عزّته، وأن لا يتقيّد بربطها، فإن فخ البشر غير لائق بهذا الصيد إلى أن تطلع ثانياً وتكون قوية وباقية فيجتهد بالجد التام وكمال الاهتمام، ويلتزم المشقة والسعي ثلاثة أيام لا أكثر فيكون السعي بعد ذلك ملكة له حتى يصل الطالب

باختياره إلى الفناء وفناء الفناء.

* **رشحة**: قال قدّس سرّه: إذا استتر الملك والملكوت عن الطالب ونسيهما الطالب يكون ذلك فناء، وإذا استتر وجود السالك عن نفسه يكون ذلك فناء الفناء. امتحن فلان في هذا المعنى فاستولت عليه الهيبة فتضرَّع حتى ارتفعت عنه لم يجوز الأكابر امتحان هذه الطائفة.

* **رشحة**: قال قدّس سرّه: إذا جعل الطالب نفسه خالياً بأمر المرشد ومدده عن كل ما يكون مانعاً من محبة الشيخ الذي تمكَّن في قلبه، يصير حينئذ قابلاً للفيض الإلٰهي ومحلاً للوارد الغير المتناهي. ولا قصور في الحقيقة في الفيض الإلٰهي وإنما القصور في طرف الطالب. فإذا رفع الطالب موانع الفيض عن نفسه يطلع له حال البتة بواسطة روحانية المرشد ويكون ذلك الحال سبباً لحيرته، ولا يمكن إدراك وجوده وحقيقته بوجه من الوجوه. [مصراع]

* رب زدني تحيُّراً فيك *

وحكمة وجود الاختيار في الإنسان كثيرة.

ولما كانت الموانع الطبيعية أصلاً في الإنسان، ينبغي أن يرفع تلك الموانع بقوة الاختيار والجهد الكثير. والملائكة، وإن كانوا مجبولين على الطاعة ومعصومين عن المخالفة قصداً وفعلاً، لكنهم في الخشية والخوف والاعتبار التام في السعادة والشقاوة والترقي والتنزل إنما هو للاختيار.

* **رشحة**: قال قدّس سرّه: ينبغي للطالب أن يطالع عجزه وعدم اقتداره عند المرشد دائماً، وأن يعلم يقيناً أن الوصول إلى المقصود الحقيقي لا يتيسر إلا من جهة المرشد وبواسطة تحصيل رضاه، وأن يعتقد أن جميع الطرق والأبواب الأخر مسدودة عليه، وأن يجعل ظاهره وباطنه بكليته فداء للمرشد. وعلامة المرشد الكامل أن الطالب لو كان عالماً وعارفاً وساعياً في السلوك بتمام قدرته وكمال علمه، ثم إذا توجه لروحانية المرشد في حضوره أو غيبته تكون تلك الكمالات والاجتهادات متلاشية ومضمحلة بالكلية، ويتيقّن أن ما كان حاصلاً له قبل التوجه إلى المرشد ليس بشيء، بل ليس له حاصل قبل هذا. ويعلم ذلك بالوجدان ويشاهده على التحقيق ويرى أن ما قطع من المنازل والمراحل في غاية القلة في جنب مطالعة كمال المرشد وقوّة سيره وروحانيته التي كانت مبدلة بالطير بمدد الجذبات الإلٰهية بحيث إن

سير سنواته لا يساوي سير ساعة المرشد.

* رشحة: قال قدّس سرّه: لا رجاء غير مشاهدة قصور الأفعال دائماً في كل لحظة، ينبغي أن يدخل من باب القصور وأن يلاحظ كرمه تعالى وألطافه مع عدم استعداده وبُعده وهجرانه، وأن يلتجيء إلى محض لطفه وعنايته. أمرني حضرة الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه بهذه الصفة وأمسكني عليها دائماً.

* رشحة: قال قدّس سرّه: ينبغي للطالب أن يسعى دائماً في طلب رضا المرشد، ظاهراً وباطناً، في حضوره وغيبته. وأن يعلم محل نظر رضاه بمحض عناية الله تعالى، ومعرفة محل نظر رضا المرشد والعمل بموجبه بحيث يقع في محل نظر رضاه ومعرفة بقاء نظر رضاه ودوامه في غاية العسرة، ولكن إذا كان توفيق الحق سبحانه رفيق عبده فهو سهل وأنه ليسير لمن يسّره الله تعالى.

* رشحة: قال قدّس سرّه: اللازم على الطالب أن يكون بلا اختيار في جميع أموره الدينية والدنيوية والكلية والجزئية، بالنسبة إلى المرشد. واللازم على المرشد أن يتفحص أحواله وأن يأمره بما يصلح له بالنسبة إلى الزمان والوقت، وأن يعين أمره حتى يشرع فيه باختيار المرشد.

* رشحة: قال قدّس سرّه: ينبغي رعاية جانب أهل العلم واسترحال نفسه والتكلم مع كل واحد من أهل الطريقة بحسب حاله، وأن يراعي الخواطر والاحتراز عن إيذاء أهل القلوب. والاختلاط بهذه الطائفة يعسر الأمور، فإن أحوالهم الباطنية دقيقة جداً وإنما تفيد مخالطتهم ومجالستهم وتكون سبباً لزيادة الأحوال. إذا حصلت الزيادة علم بآداب صحبتهم بواسطة تلك المخالطة وازدادت رعايتهم وإلا فالمخالطة تكون سبباً لزيادة المخاطرة. لا ضرر لمن لا أدب له، إنما الضرر للأديب، وضرر الأدب ظهور حظ نفسه بأن يرى نفسه أديباً.

* رشحة: قال قدّس سرّه: إن أفضل الأحوال الظاهرية والباطنية وأكملها الاجتهاد في التفويض المناسب للحال. وكان جميع الأنبياء والأولياء على ذلك بأسرهم. وينبغي للعبد أن يجتهد في كل لحظة دائماً في كسب التفويض بباطنه بالنسبة إلى أحواله الظاهرية والباطنية وأن يمحو وينفي عن نفسه جميع أنواع الاختيار الذي يظهر منه بكسب التفويض، وأن يعلم يقيناً أن اختيار الحق سبحانه وتعالى له خير البتة من اختياره لنفسه. واللازم على الطالب دائماً بالنسبة إلى المرشد في

حضوره وغيبته أن يقوم بكسب هذا التفويض بحسب أحواله الباطنية. يعني: لا ينبغي للطالب أن يختار شيئاً من أحوال الباطن وأن يريد حصولها، بل ينبغي له تفويض اختياره وإرادته لمرشده في حضوره وغيبته.

* رشحة: قال قدّس سرّه: إن المقصود من رؤية صفة الجبار: ظهور وصف التضرع والانكسار والتوبة والإنابة إلى العزيز الغفار. وعلامة صحة هذه الرؤية: الميل إلى المناجاة لقاضي الحاجات، والإعراض عن الخرافات ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾ [الشمس: الآية ٨]. والحكمة في ذلك: أن العبد إذا شاهد في نفسه ميلاً إلى ما فيه رضا مولاه فيشكر ويتوجه إليه، وإن رأى ميلاً في نفسه إلى ما ليس فيه رضا مولاه فيتضرع ويرجع إلى ربه ويخاف من صفة الاستغناء.

* رشحة: قال قدّس سرّه: ينبغي للعبد أن يرى سبقة العناية الأزلية أولاً وأن لا يغفل عن طلب تلك العناية لحظة، وأن يحفظ نفسه عن الاستغناء، وأن يعد قليل نعمة الحق سبحانه وتعالى عظيمة وكثيرة، وأن يكون خائفاً ومشفقاً على نفسه عن ظهور الاستغناء الحقيقي.

* رشحة: قال قدّس سرّه: أن الولاية تكون ثابتة في شخص لا يتركونه بنفسه، فإن ظهر منه قصور ما فإنما يكون ذلك لعذر ثم يبادر إلى الاعتذار. وقال في توجيه هذه الآية: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾ [يونس: الآية ٦٢]: ليس عليهم خوف ظهور الطبيعة بحكم قولهم الفاني لا يرد إلى أوصافه.

* رشحة: قال قدّس سرّه: ينبغي للطالب أن يكون في الباطن معتصماً بالله، وفي الظاهر معتصماً بحبل الله، والجمع بين هاتين الصفتين كمال. [شعر]

جمع صورت باجنين معنى زرف نيست ممكن جزز سلطان شكرف

ترجمته:

جمع ذا المعنى الدقيق بالصور شأن سلطان المعاني ذي الخطر

* رشحة: قال قدّس سرّه: إن زائر مشاهد المشائخ الكرام يقدر أن يأخذ عنهم الفيض بقدر ما يعرف صفة المزور، ويتوجه إليه بتلك الصفة، ويحضر عنده بها. وأن القرب الصوري في زيارة المشاهد المقدسة، وإن كانت له آثار كثيرة، ولكن لا يمنع البُعد الصوري في الحقيقة عن التوجه إلى الأرواح المقدسة. وفي قوله ﷺ:

«صلُّوا عليَّ حيث ما كنتم»[(١)] بيان وبرهان لهذا المعنى. ومشاهدة الصور المثالية لأهل القبور عند التوجه والزيارة ليس لها كثير اعتبار في جنب معرفة صفاتهم ومع ذلك كله قال الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه: إن مجاورة الله أحق وأولى من مجاورة خلق الله عزَّ وجلَّ. وكثيراً ما كان يجري على لسانه المبارك هذا البيت: [شعر]

تـوتـاكـي كـورمـر دانـر إبـرسـتـي   بـكـسر دكـار مـردان كـر درسـتـي

ترجمة:

كـم تـبـعـدن مـراقـد الأمـوات   قـم وانـتـهـج في مـنـهـج الـسـادات

وينبغي أن يكون مقصود زائر مشاهد الأكابر، رضي الله تعالى عنهم أجمعين، التوجه إلى الله سبحانه وتعالى، وأن يجعل روح ذلك الولي الذي اجتباه الله إليه وسيلة لكمال التوجه. كما أن التواضع للخلق وإن كان في الظاهر تواضعاً لهم ينبغي أن يكون المقصود من التواضع في الحقيقة التواضع لله تعالى، فإن التواضع إنما يكون محموداً إذا كان لله تعالى خاصة بمعنى أنه يرى الخلق مظاهر لآثار قدرة الله تعالى وحكمته، وإلا فيكون تصنعاً وتكلُّفاً وسمعة وضعة لا تواضعاً، ويكون مذموماً جداً كما ورد في الحديث: «من تواضع لغني لغناه ذهب ثلث دينه»[(٢)] وفي رواية: ثلثا دينه[(٣)]. وقال بعض أكابر المشايخ قدّس سرّهم: هذا إذا تواضع بظاهره، وأما إذا تواضع بباطنه فيذهب دينه كله.

* رشحة: قال قدّس سرّه: إن طريق المراقبة أعلى وأقرب إلى الجذبة من طريق النفي والإثبات، ويمكن الوصول من طريق المراقبة إلى مرتبة الوزارة

---

(١) عن حسن بن حسن بن علي، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتخذوا قبري عيداً ولا بيوتكم قبوراً، وصلُّوا عليَّ حيث ما كنتم فإن صلاتكم تبلغني». رواه ابن أبي شيبة في المصنف، من كره زيارة القبور، حديث رقم (١١٨١٨) [٣/ ٣٠] ورواه عبد الرزاق في المصنف، باب التطوع في البيت، حديث رقم (٤٨٣٩) [٣/ ٧١] ورواه غيرهما.

(٢) ورد بلفظ: من أصبح حزيناً على الدنيا أصبح ساخطاً على الله عزَّ وجلَّ، ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به إنما يشكو ربه، ومن قعد إلى غني تضعضع له الدنيا بصيبها منه ذهب ثلث دينه ودخل النار معه، ومن قرأ القرآن لدنيا واتخذ آيات الله هزواً» رواه الديلمي في الفردوس عن أبي الدرداء، برقم (٥٨١٧) [٣/ ٥٨٠].

(٣) رواه الديلمي في الفردوس عن أبي ذر، برقم (٥٤٤٩) [٣/ ٤٦٧] ولفظه: «لعن الله فقيراً تواضع لغني من أجل ماله، فمن فعل ذلك منهم فقد ذهب ثلثا دينه». وروى نحوه البيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم (١٠٠٤٣) [٧/ ٢١٣].

والتصرف في الملك والملكوت. والإشراف على الخواطر والنظر بنظر الموهبة، وتنوير البواطن، كل ذلك من دوام المراقبة. ويحصل من ملكة المراقبة دوام الجمعية ودوام قبول القلوب، ويسمى ذلك بالجمع والقبول. قال: لما ذهبت في الابتداء إلى خوارزم كنت مشتغلاً بحسب الباطن مع كل من الأصحاب باختبار باطنه ليعلم أنه هل لهذه الصفة بقاء أم لا! فحصلت من ذلك الاشتغال فائدة عظيمة وبقيت تلك الملكة.

• رشحة: قال قدّس سرّه: ينبغي في السكوت أن لا يخلو عن أحد الأوصاف الثلاثة: إما المحافظة على الخطرات، وإما مطالعة ذكر القلب إن كان جارياً بالذكر، وإما مشاهدة أحوال القلب التي تمر عليه.

• رشحة: قال قدّس سرّه: لا تكون الخطرات مانعة، فإن الاحتراز عنها متعسر. وإني كنت في نفي الاختيار الطبيعي مدة عشرين سنة، فمرت خطرة على النسبة ولكنها لم تستقر فمنع الخطرات بالكلية أمر قوي عسير. وذهب البعض إلى أن الخطرات لا اعتبار لها ولكن لا ينبغي أن يتركها حتى تصير متمكنة، فإن بتمكنها تحصل السدة في مجاري الفيض ولهذا يلزم على السالك التفحص عن أحواله الباطنية دائماً. وجعل السالك نفسه خالياً بإخراج النفس ظاهراً بأمر المرشد في حضوره وغيبته إنما هو لأجل نفي الخطرات التي تمكنت في الباطن. وسبب تخلية السالك نفسه أن لكل معنى صورة وهو متلبس بها، ونفي الخطرات معنى من المعاني، وله صورة وهي تخلية السالك نفسه بإخراج النفس، ولذلك ينبغي للسالك أن يخلي نفسه دائماً بإخراج النفس من الخطرات والموانع التي تمكنت فيه.

• رشحة: قال قدّس سرّه: إذا بقي العمر ينبغي لي إحياء طريقة الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه الأولى، إن شاء الله تعالى، فنعم الشيء المواخذة بكل خاطر للتربية. وأظهر الملامة أيضاً في آخر حياته من اشتغاله بتربية الخلق فإنهم لا يراعون حق ما يصل إليهم من المشائخ.

• رشحة: كان ينقل عن الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه دائماً هذه الكلمات: العبادة عشرة أجزاء، تسعة منها: طلب الحلال. وقال: إن الزراعة والاشتغال بالبساتين أقرب إلى الحلال بعد التجارة في هذا الزمان.

• رشحة: قال قدّس سرّه: دوام الصحبة مع أهل الله تعالى سبب لزيادة عقل المعاد.

* رشحة: قال قدّس سرّه: سنّة مؤكدة ينبغي أن يكون في صحبة هذه الطائفة في كل يوم أو في يومين مرة، وأن يحافظ على آدابهم. فإن وقع للطالب بعد صوري ينبغي أن يعلم أحواله الباطنية والظاهرية في كل شهر أو شهرين بالكتابة إما صراحة وإما إشارة، وأن يكون مشغولاً بهم في منزله لئلا تقع غيبة كليّة.

* رشحة: قيل في صحبة الخواجة علاء الدين قدّس سرّه: إن المطلوب في نهاية العظمة وليس لنا لسان الطلب، وذلك الطلب أيضاً من عنايتك. فقال: إن التأخير من جهة زمان القابلية يجدون ويضيعون ولا يعرفون أنه من أين.

* رشحة: قال قدّس سرّه: أنا ضامن لمن دخل في هذه الطريقة تقليداً أن يصل إلى مرتبة التحقيق البتة. وقال: أمرني حضرة الخواجة بتقليده وكل شيء قلّدته فيه وأقلّده الآن أشاهد أثره ونتيجته على التحقيق البتة.

* رشحة: قال قدّس سرّه: لا يمكن معرفة هذه الطائفة في غير مقام التلوين. وظهر لي الآن أن معرفتهم في مقام التمكين غير واقع فمن وجدهم في مقام التمكين وعمل فيه تقليداً لهم يبقى بلا حظ ولا نصيب، بل يخاف عليه من الزندقة، اللهم إلاّ أن يظهروا له أنفسهم عناية له. انتهى كلامه قدّس سرّه.

لا يخفى أن التلوين عند مشائخ الطريقة قدّس الله تعالى أرواحهم عبارة عن تقلّب قلب السالك وتنقُّله في الأحوال الواردة إلى القلب. وقال البعض: إنه عبارة عن تقلُّب القلب بين الكشف والحجاب بسبب غيبوبة صفات النفس تارة وظهورها أخرى. فلا جرم يمكن معرفة السالك في هذا المقام من جهة تلوين أحواله بين الصفتين المتقابلتين كالقبض والبسط والسكر والصحو وأمثالها. والتمكين عبارة في اصطلاحهم عن دوام كشف الحقيقة بواسطة اطمئنان القلب في موطن القرب، فلا جرم لا يمكن معرفة السالك في هذا المقام. فإن صاحب التمكين قد وصل إلى مرتبة سعة العلم فهو مماثل ومشابه لأهل الظاهر في الأكل والشرب، والبيع والشراء، والنوم واليقظة، وسائر الصفات البشرية. والتقليد لأهل التمكين في الأمور الطبيعية، وترك الرياضات والمجاهدات موجب لخطر الزندقة كما قال الخواجة علاء الدين العطار قدّس سرّه.

وأما إذا حملنا التلوين على ما اصطلحه قطب الموحدين وغوث المحققين الشيخ محي الدين بن العربي قدّس سرّه وأتباعه، فمعرفة صاحب التلوين أشكل

وأدق من معرفة صاحب التمكين، فإنه قال في اصطلاحاته: إن التلوين عند الأكثرين مقام ناقص، وعندنا هو أفضل وأكمل من كل المقامات. وحال العبد فيه حال قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٢٩] والتمكين عندنا عبارة عن التمكين في التلوين.

قال أستاذي مولانا رضي الدين عبد الغفور عليه الرحمة: أن معنى كلام الشيخ قدّس سرّه: التلوين عندنا أكمل المقامات، ليس معناه: أن السالك يتشرف في كل آن بتجلي من التجليات الغير المتناهية أو يدرك في كل زمان مدركاً من المدركات التي لا حد لها ولا غاية، بل المراد أن حقيقة السالك تكون لا لونية مشابهة للأصل ومطابقة له. يعني الذات البحت المنزَّهة عن الكيف والكم، فكما أن ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٢٩] واقع فيها، كذلك هنا يظهر عن حقيقة السالك في كل زمان لون ما، ويجعل السالك تابعاً لنفسه.

وتكون نسبة حقيقته مساوية لجميع الألوان، بل يعمل في كل لحظة بمقتضى لون من الشؤونات الإلٰهية، ويكون في حقيقته لا لونياً، كما قيل: [شعر]

منم كه رنك من ونتك من معين نيست نه قيقرايم ونه قيقزل ونه صيصارغ

ترجمة:

وأنا الذي لا لون لي متعيّن لست أسوداً ومعصفراً ومزعفرا

فلا شك أن معرفة شخص يظهر بجميع الألوان ونسبته مساوية لها وفي حقيقته يكون لا لونياً، أشكل وأعسر من معرفة صاحب التمكين الذي هو مقيم في مرتبة واحدة دائماً وثابت ومستقيم على لون واحد، والله أعلم.

* * *

ذكر وفاة الخواجة علاء الدين قدّس سرّه

ورأيت بخط الخواجة محمد بارسا قدّس سرّه: قال حضرة الخواجة علاء الدين قدّس سرّه للأصحاب في مرض موته: لا تقيسوا أحوالكم على ما يمر عليَّ من تفرقة الظاهر، بل كونوا على رعاية الحضور الظاهري والباطني ولا تكونوا متفرقين ومتحيِّرين.

وقال: قد ذهبت الأحباب والأعزَّة، وكذلك يذهبون، ولا شك أن ذلك العالم

أفضل من هذا العالم. وقد أريت الخضرة في النظر فقال شخص: نعم الخضرة، فقال: التراب أيضاً طيب لم يبق ميل إلى هذا العالم أصلاً، غير أن الأحباب يجيئون ولا يجدونني فيرجعون مكسوري القلوب.

وقال في هذا المرض للأصحاب: اتركوا الرسم والعادة وافعلوا خلاف ما هو رسم الخلق وعادة العامة وليوافق بعضكم بعضاً. وحكمة بعثة النبي ﷺ إنما هي لإبطال العادات ورسوم البشرية، وليكن كل واحد منكم مقيماً في جنب الآخر وجواره بنفي نفسه وإثبات صاحبه، واعملوا في جميع الأمور بالعزيمة ولا تعدلوا عنها ما استطعتم. والصحبة سنَّة مؤكدة فداوموا على تلك السنَّة خصوصاً وعموماً ولا تتركوها البتة. فإن استقمتم على هذه الأمور التي أمرتكم بها يحصل لكم على استقامة لحظة ما حصل لي في جميع عمري، وتكون أحوالكم في التزايد. وإن تركتم هذه الوصايا وخالفتموها تكونوا أذلاء متفرقين. ثم شرع في ذلك الأثناء في تكرار كلمة التوحيد بصوت عال.

وقال في آخر حياته في حق هذا الفقير في حضور الأصحاب: كان بيني وبينه محبة لله وفي الله أزيد من مدة عشرين سنة وهي لا تتغير البتة.

وقال في غيبة هذا الفقير: إني راض عنه كما أن النبي ﷺ راضٍ عن أصحابه. ولقد جرى ليلة بيني وبينه كلام وشرف هذا الفقير بنسبته الباطنية، وتكلم في الاتحاد المعنوي، وكان ذلك الكلام مناسباً لمعنى ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: الآية ٩] فذكر تلك الليلة وقت رحلته وقال: قد مرت بيني وبينه ليلة وهو يعلم الكلام الذي جرى فيها وغيره لا يعلم، وإنما ذكر تلك الليلة لأجل تأكيد المحبة والرضا.

وقال: لو كانت بيني وبينه صورة العتاب كان الباعث عليها المحبة والشوق.

وذكر الفقير في مرضه الأخير كثيراً. وبالجملة، كان في خاطره الشريف التفات تام إلى هذا الفقير وكل رجاء الفقير من هذا المعنى.

وكان كلامه في مرضه الأخير أحياناً في باب الرضا والوجد والمحبة والشوق، وأحياناً في النصيحة والحكمة ودعاء الخير للخلق. ومن جملة ما جرى على لسانه في هذا الوقت هذا البيت: [شعر]

مانيستانيم وعشقت آتش بست — منتظرتا آتش اندرني فتند

ترجمة:

ونحن كآجام وعشقك نارها فننظر وقوع النار ما بين آجام

وقال وقت شدّة مرضه مكرِّراً: كنت في الخدمة شجيع الصورة والمعنى. وقال: هل من مزيد، هل من مزيد! كثيراً. ورأى حضرة الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه عياناً وكلّمه وسمع كلامه. وقال بياناً لعدم اختياره في ذهابه وإقامته: قد كنتم في ذهابي وإقامتي فرقتين، كونوا متفقين على كلمة واحدة حتى أكون عليها. واختار الذهاب قبل موته بعشرة أو خمس عشرة أيام، وقال تأكيداً لذلك: لا أرجع من هذا الاختيار. وكان مرضه الصداع القوي ووجع الجنب والخاصرة، وكان ابتداء مرضه يوم الاثنين ثاني رجب سنة اثنتين وثمانمائة، وارتحاله إلى دار القرار بعد عشاء ليلة الأربعاء من رجب، ومرقده المنور في قرية نو، من قرى حصار.

وكتب الخواجة محمد بارسا قدّس سرّه أيضاً: أنه رأى حضرة الخواجة علاء الدين قدّس سرّه بعد وفاته فقير من فقرائه ومحبيه في المنام ليلة السبت الثامنة والعشرين من شعبان بعد مضي أربعين يوماً من وفاته تقريباً، فقال له: إن الذي أكرمونا به أعلى وأولى مما يعتقده المحبُّون في حقنا. وقال: قد تركت فيما بينكم ما قد كان لي. وكان بين يديه إبرة فأخذها وأقامها وقال: إن ظهور هذا المعنى متيسر لمن يقوم على رأس هذه الإبرة مستقيماً من غير ميلان إلى طرف ما.

وكتب حضرة الخواجة محمد بارسا قدّس سرّه أيضاً: توجه الخواجة علاء الدين قدّس سرّه قبل وفاته بسبع سنين في أوائل شعبان سنة خمس وتسعين وسبعمائة من صغانيان إلى بخارى بنيَّة زيارة قبر الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه، ووصل إليه بعد ثمانية عشر يوماً، ثم رجع في أوائل شوال وكان ليلة العيد في بخارى، فرأى فقير من فقرائه في المنام في ليلة العيد خيمة مضروبة في غاية العظمة، ورأى حضرة الخواجة بهاء الدين وخواجة علاء الدين قدّس سرّهما في قربها، ثم صار له معلوماً أن تلك الخيمة هي خيمة النبي ﷺ فدخل حضرة الخواجة فيها لملاقاة النبي ﷺ ثم خرج بعد زمان بكمال البشاشة والبسط التام، وقال: قد أكرموني بالشفاعة لمن دفن في أطراف قبري إلى مائة فرسخ. وأعطى العطار شفاعة من دفن في أطراف قبره إلى أربعين فرسخاً بأذان الله ومنح أصغر محبينا وأحقر متابعينا شفاعة مسافة فرسخ من أطراف قبره.

* * *

• **حضرة الخواجة حسن العطار قدّس سرّه**: ابن الخواجة علاء الدين العطار قدّس سرّه وثمرة شجرة ولايته. وكان في أيام صباه منظوراً بنظر عناية جده لأمه حضرة الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه.

قيل: كان الخواجة حسن يلعب يوماً مع جمع من الأطفال في بستان المزار، وكان راكباً على عجل والأطفال يسرعون في أطرافه، فوصل حضرة الخواجة إلى هذا المحل في ذلك الحال ورآه مع الأطفال على هذا المنوال، فقال: يوشك أن يكون هذا الطفل راكباً ويسعى السلاطين ذوو الشوكة والسلطنة في ركابه راجلين. فكان كما قال. فإنه لما قدم حضرة الخواجة حسن إلى خراسان ولقي السلطان مرزا شاهرخ في بستان زاغان جاء المرزا شاهرخ ببغلة برسم الهدية وأراد من غاية خلوصه له أن يركبه عليها بيده، فأخذ بإحدى يديه الركاب وبالأخرى زمام البغلة وأركبه عليها، فجمحت البغلة وأخذ المرزا زمامها بالقوة ومشى خطوات في ركابه فتذللت البغلة بعد ذلك، فنزل الخواجة حسن وتوجه إلى طرف بخارى وتواضع وتضرع وقص على المرزا قصة أيام صباه من ركوبه على العجل وإخبار حضرة الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه بسعي السلاطين ذوي الشوكة في ركابه، وظهر سر جموح البغلة. فكان سماع هذه الحكاية ومشاهدة تلك الصورة سبب لازدياد يقين الحاضرين لحضرة الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه.

وأورد مولانا الجامي قدّس سرّه السامي في «النفحات»: كان الخواجة حسن صاحب جذبة قوية، وكان يتصرف بصفة الجذبة أي وقت شاء، ويوصل من يتصرف فيه من مقام الحضور والشعور بهذا العالم إلى كيفية الغيبة وعدم الشعور ويذيقه ذوق الغيبة والفناء اللتين تتيسران لبعض أرباب السلوك بعد رياضة شاقة ومجاهدة كثيرة على سبيل الندرة. واشتهر تصرفه في الطالبين والزائرين في ما وراء النهر وخراسان اشتهاراً تاماً، وكل من تشرّف بتقبيل يده الكريمة كان يقع على الأرض لعدم قدرته على القيام على رجليه، ويتشرّف بدولة الغيبة وعدم الشعور. وسمعت أنه خرج غداة يوم من بيته وكانت له إذ ذاك كيفية غالبة فكل من وقع نظره عليه ظهر فيه كيفية الغيبة وسقط غائباً عن نفسه.

قدم مرة واحد من فقرائه هراة بنية سفر الحج، وكانت آثار الجذبة والغيبة والحيرة ظاهرة فيه، وكان يمشي في الأسواق أحياناً وكان يفهم منه أن الأمر الباطني

قد أخذه عن نفسه بكليته وغلب عليه بحيث لم يبق له شعور من ذهاب الخلق وإيابهم وتكلُّمهم. قال واحد من أكابر هذه السلسلة العلية، وقد وصل هذا الفقير إلى صحبته: إن أمر ذلك الفقير القادم إلى هراة ليس غير رابطة بصورة الخواجة حسن ومراقبته إياها دائماً، فببركة رابطته ومحافظته عليها كان أثر جذبته يسري منه إليه. وكتب حضرة الخواجة حسن رسالة مختصرة في طريقة خواجكان قدّس الله أرواحهم بالتماس بعض أكابر الوقت ممن كان فيه إخلاص تام لهم، ولنورد بعضاً منها للتيمُّن والتبرُّك والاسترشاد:

• رشحة: اعلم أن كيفية سلوك الطائفة العلائية زاد الله فتوحاتهم أعلى أطوار سلوك جميع المشائخ، قدّس الله أرواحهم، وأقرب السبل إلى المطلب الأعلى والمقصد الأسنى، وهو الله سبحانه وتعالى. فإنه رفع حجب التعيُّنات عن وجه الأحدية السارية في الكل بالمحو والفناء في الوحدة حتى تشرق سبحات جلاله فتحرق ما سواه. وفي الحقيقة نهاية سائر المشائخ بداية طريقتهم، فإن أول محل ورودهم هو حد الفناء والسلوك بعد الجذبة، أعني به تفصيل مجمل التوحيد الذي هو المقصود من خلق العالم وإيجاد بني آدم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: الآية ٥٦] أي: ليعرفون. فمن أراد الاشتغال بهذه الطريقة ينبغي له أولاً أن يحضر صورة شيخه الذي أخذ النسبة عنه في خاطره حتى تظهر فيه نسبة عدم الشعور فيكون ملازماً لتلك النسبة ثم يتوجه مع هذه الصورة بالخيال الذي هو مرآة الروح المطلق إلى نقطة القلب ويسلِّم نفسه إلى تلك النسبة، وكلما تتقوى هذه النسبة يقلّ الشعور بهذا العالم. ويقال لتلك الحالة: عدماً وغيبة، ولهذا قيل: [شعر]

وصل إعدام أكرتوانـي كرد ... كار مردان مردتاني كرد

ترجمة:

فإن قدرت الوصل للإعدام ... قد كنت في الدهر من الأعلام

فإذا بلغت هذه النسبة وعدم الشعور ومرتبة لا يبقى فيها شعور بوجود الغير يقال لها: الفناء. قال مولانا الرومي قدّس سرّه: [شعر]

سباس آن عدمي راكه هست ما بربود ... زذوق أين عدم آمد جهان جان بوجود

بهر كجا عدم آيد وجود كم كردد ... زهي عدم جوآمد وجو دازو أفزود

ترجمة:

يا حبذا عدم أزال وجودنا ... من ذوق ذا العدم المكوّن كونا
عهدي بفقدان الوجود بذا العدم ... مذ جاء ذا العدم الوجود زادنا

وقال الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه في ترقّي حال العدم وزيادة هذه النسبة ومقدمة ظهور صفة عدم الشعور: [مصراع]

* ما رامان خودرا بسآن بيخودي *

ترجمة:

* فدعني وكن في قبضة المحو والفناء *

فإن خطرت الخواطر فليحضر خيال حضرة المرشد فيرجى اندفاعها بإذن الله تعالى، فإن لم تندفع بذلك ينبغي أن يجذب نفسه ثلاث مرات بالقوة كأنه يجذب من دماغه شيئاً، ثم يشتغل بالطريق المذكور فإن عادت الخواطر ثانياً ينبغي أن يقول بعد التخلية بالطريق المذكور: أستغفر الله من جميع ما كره الله قولاً وفعلاً وخاطراً وسامعاً وناظراً، لا حول ولا قوة إلاّ بالله، ثلاث مرات، وليوافق قلبه لسانه والاشتغال بتكرار: يا فعّال، أصل كليّ في دفع الوساوس. وينبغي أن يجتهد في تحصيل تلك النسبة على وجه لا يخلو ولا يغفل عنها لحظة، فإن غفل عنها لحظة يستأنف الاشتغال. وليكن ناظراً إلى هذه النسبة بعين قلبه وحاضراً بها دائماً في الأسواق، والذهاب والقعود، والبيع والشراء، والأكل والنوم، إلى أن تصير ملكة. وإذا أراد أن يشتغل بأمر مهم يقرأ هذا الدعاء بتمام التضرع في حضرته الجامعة: اللهم كن وجهتي في كل وجهة، ومقصدي في كل قصد، وغايتي في كل سعي، وملجئي وملاذي في كل شدة وهم، ووكيلي في كل أمر، وتولني تولي محبة وعناية في كل حال.

وكان حضرة الخواجة حسن قدّس سرّه يدخل تحت أحمال الناس وأثقال المرضى ويرفع أمراضهم كما هو طريقة سلسلة خواجكان قدّس الله أرواحهم، ولما دخل شيراز في سفر الحجاز، اتفق أن واحداً من أكابر تلك البلدة قد طرأ عليه المرض وكان فيه إخلاص تام لخواجة حسن، فدخل تحت حمل مرضه فبرىء هذا الشخص وانتقل المرض إلى خواجة حسن، وتوفي بهذا المرض ليلة الاثنين عيد

الأضحى سنة ست وعشرين وثمانمائة، وحملوا نعشه المبارك من شيراز إلى مدفن والده الماجد بصغانيان. وله ولد أمجد يسمى بخواجة يوسف العطار عليه الرحمة. ورقع بينه وبين الشيخ بهاء الدين عمر قدّس الله روحهما مراسلات ومفاوضات.

قال حضرة شيخنا: ذكر يوماً في مجلس بهاء الدين عمر قدّس سرّه: أن بعض أكابر الطريقة يأمر بحبس النفس في الذكر ويعده شرطاً فيه. فقال الشيخ: أن حبس النفس طريقة جوكية الهنود وإنما الشرط في هذا الطريق حصر النفس لا حبس النفس. فبلغ هذا الكلام الخواجة يوسف عليه الرحمة بأن الشيخ نفى الطريقة، فكتب إلى الشيخ: سمعت أنكم قد نفيتم طريقة حبس النفس قائلاً بأن أحداً من مشايخ الطريقة قدّس الله أرواحهم لم يأمر بهذا، ومن المقرر والمحقق أن الخواجة بهاء الدين وخلفائه، قدّس الله أرواحهم، كانوا يأمرون بحبس النفس في الذكر، فكيف تنفونه!؟. فكتب الشيخ قدّس سرّه في جوابه: أن مقصودنا من هذا الكلام ليس نفي طورهم. فأجمل في الجواب وأبهم.

* * *

• **الشيخ عبد الرزاق رحمه الله تعالى**: هو من أجلّة أصحاب الخواجة حسن وأكمل خلفائه، وكان طريقه السعي والاجتهاد في نسبة الرابطة. جاء يوماً عند حضرة السيد قاسم التبريزي قدّس سرّه فقال له السيد: إن نسبتك وطريقتك المعروفة حسنة. واستحسن منه حفظ طريقة الرابطة.

قال حضرة شيخنا يوماً في مجلس كبير حضر فيه كثير من الرجال: قد وقعت الملاقاة بيني وبين بعض المشايخ مرة في مبادي الأحوال، وكنت إذ ذاك في صحبة بعض الأكابر، وقال: لا أذكر اسم الذي لقيته. وكان معلوماً بقرنية الحال وسياق المقال أن المراد به الشيخ عبد الرزاق، لكن لم يذكر اسمه لملاحظة مصلحة ما، فأراد أن يظهر التصرف فيَّ والغلبة عليَّ. وكانت الصحبة عالية جداً وفيها كثير من الأكابر، فصرفت عنان همتي نحو نسبتي وسلّمت نفسي إليها وأحكمت حفظها، فأحس ذلك واجتهد في التصرف هنالك ونصب عينيه عليَّ وتوجه بكليته إليَّ وأراد أن يرمي ثقلاً عليَّ، وكان يضع يده المباركة على كتفي كثيراً نظهر ثقل فبادرت وصرفته عني وألقيته عليه. ولما كان دفع تصرفه في خاطري غلبته ولم يؤثر توجهه

فيّ أصلاً ووقع الثقل عليه فكان متأثراً جداً بحيث سال العرق من جبينه وصار خجلاً ومنفعلاً. وكنت أيضاً مستحيياً لكونه شيخاً كبيراً ومعزّزاً، فسلمت نفسي إليه في الآخر ليتصرف كيف يشاء فأحس بذلك وأراد أن يتصرف ثانياً فلم يقدر أيضاً مع وجود ذلك، فقمت وخرجت من المجلس حياء من زيادة انفعاله.

* * *

* **مولانا حسام الدين بارسا البلخي رحمه الله تعالى**: هو من خلفاء الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه وصحبته، ولكن أحال تربيته على حضرة الخواجة علاء الدين العطار قدّس سرّه فوصل في خدمته وملازمته إلى درجة التكميل والإكمال. وكان متصفاً بكمال الورع والتقوى، مراعياً لآداب الشريعة. وكان له اهتمام تام في المحافظة على الأوقات والأحوال.

قال حضرة شيخنا: لما خرجت من هراة قاصداً صحبة مولانا يعقوب الكرخي عليه الرحمة، لقيت في البلخ حضرة مولانا حسام الدين بارسا، فاجتهد كثيراً أن يبين لي طريقة خواجكان، وأن آخذ عنه هذه الطريقة، لكن لما كان لي نية ملازمة مولانا يعقوب الكرخي لم أقبل منه، فبالغ كثيراً في هذا الباب لكن لم ينجذب خاطري إليه. فقال أخيراً: أمهلني قليلاً حتى أبين لك الطريق الخاص، ولعله يلزمك في وقت من الأوقات لتربية الطالبين به، ويحتمل طلبهم ذلك منك، فينبغي أن يكون معلوماً عندك. فبيَّن لي هذا الطريق وقال: إن لكثير من الرجال استعداداً على نهج يحصل لهم في هذه النسبة من الجمعية في وقت يسير ما لا يحصل في غيرها في أوقات كثيرة، ومعرفة هذا الطريق مهم لك جداً. فلما قدمت تاشكند اتفق أن جماعة من الطالبين طلبوا مني هذا الطريق الخاص فصار معلوماً أن مبالغة مولانا حسام الدين إنما كانت من هذا الوجه.

وقال حضرة شيخنا: كان أوقات مولانا حسام الدين أضبط من أوقات مولانا بهاء الدين عمر، بل من أوقات الشيخ زين الدين الخافي عليهما الرحمة، مع كثرة أوراده وأذكاره قد كان له كمال الاجتهاد وتمام الاهتمام في المحافظة على الأوقات ورعاية الأحوال. وقد أذن الناس لصحبته من الصبح إلى العصر غير وقت القيلولة، وبعد العصر لا يكون عنده أحد إلى الصبح. كانت أوقاته محفوظة ومضبوطة غاية

الحفظ والضبط، وقد ألزم على نفسه صلاة التهجد والإشراق والضحى وسائر السنن، وكانت تلك العبادات وجميع آداب الشريعة حاصلة له مع جمعية الخاطر.

وقال حضرة شيخنا: قال مولانا حسام الدين: ينبغي أن لا يترك التسمية وقت الأكل وإن حصلت جمعية الخاطر، فإن التسمية ليست بمنافية لها. وسمعت حضرة شيخنا يقول: سألت مولانا حسام الدين البلخي أنه ما سبب الأمر بالذكر في النهاية في طريقة خواجكان؟ فقال: إن الذكر في هذا المقام لرفع الدرجات لا لقطع المقامات.

* * *

• **مولانا أبو سعيد رحمه الله تعالى**: كان من كبار أصحاب خواجة علاء الدين العطار قدّس سرّه. وصحب بعد وفاته الخواجة حسن قدّس سرّه. قال حضرة شيخنا: كان نظر حضرة السيد قاسم التبريزي قدّس سرّه إلى المبدأ دائماً، وكان معنى التوحيد غالباً عليه، وكلما ظهر من حوادث العالم وعوارضه كان راضياً به ومعاملاً بمقتضاه بناء على مشرب أهل التوحيد.

وقال في سياق هذا الكلام: لما قدم حضرة الخواجة حسن هراة، جاء منزل السيد قاسم التبريزي، وكان مولانا أبو سعيد في ملازمته، فلما جلسوا عند السيد خطر في خاطر مولانا أبي سعيد دغدغة التصرف في باطن السيد قدّس سرّه فعزم على ذلك وجمع همّته لما هنالك، فتفرسه حضرة السيد واستسلمت نفسه إلى مولانا أبي سعيد بمقتضى مروة، مشرب أهل التوحيد، فتصرف فيه مولانا أبو سعيد تصرفاً تاماً بحيث وقع الذهول لحضرة السيد وغاب عن نفسه، وبقي على ذلك زماناً. فلما رفع رأسه بعد الإفاقة قال لمولانا أبي سعيد: بارك الله، بارك الله، أحسنت وأظهرت العناية. فصار الخواجة حسن ومولانا أبو سعيد خجلين ومنفعلين من هذه الصورة، فلما خرجا من عنده عاتبه الخواجة حسن لإساءته الأدب.

* * *

• **خواجة عبد الله الإمامي الأصفهاني قدّس سرّه**: هو من جملة أصحاب الخواجة علاء الدين قدّس سرّه. قال: لما لقيت الخواجة علاء الدين أول مرة أنشدني هذا البيت:

[شعر]

تومباش أصلاً كمال أينست وبس   رودروكم شو وصال أنيست وبس

ترجمة : --

لا تكن أصلاً إذا رُمْتَ الكمال   وامح فيه النفس إن شئت الوصال

وكتب الخواجة عبد الله الإمامي هذا مختصراً مفيداً في طريقة خواجكان قدّس الله أرواحهم بالتماس واحد من أكابر السادات. ولنورد بعضاً منه برسم التبرُّك:

* * *

فصل

في طريقة التوجه برسم العلائية وتربية النسبة الباطنية

اعلم أن من أراد الاشتغال بالطريقة العلائية ينبغي له أولاً أن يحضر في خياله صورة شيخ أخذ عنه هذه النسبة إلى أن يظهر فيه أثر الحرارة والكيفية المعهودة فيما بينهم، ولا ينفي ذلك الخيال بعد ذلك بل يحفظ ويتوجه به وبأذنه وسمعه وجميع قواه إلى القلب الذي هو عبارة عن الحقيقة الجامعة الإنسانية التي مفصلها جميع الكائنات من العلويات والسفليات. وهي وإن كانت منزهة عن الحلول في الأجسام، لكن لما كانت بينها وبين القلب الصنوبري نسبة وارتباط ينبغي أن يتوجه هذا القلب الصنوبري وينبغي أن يصرف الفكر والخيال وجميع القوى إلى هذا قاعداً على باب القلب، حاضراً به، ولا نشك في ظهور كيفية الغيبة والذهول في هذه الحالة. فإذا ظهرت ينبغي أن يفرضها طريقاً وليذهب في أثرها وينفي كل فكر وارد على القلب بالتوجه إلى حقيقة القلب، وأن لا يشتغل بالفكر الجزئي وأن يلتجيء بكليته إلى حقيقته المجملة حتى ينتفي هذا الفكر، فإن لم ينتف بهذا ينبغي أن يلتجيء إلى صورة شخص أخذ عنه هذه النسبة وأن يحفظها لحظة حتى تظهر تلك النسبة ثانياً، فإن لم ينتف بهذا تنتفي هذه الصورة نفسها. ومع ذلك ينبغي أن لا ينفيها السالك المتوجه، فإن لم تنتف الوساوس بتلك الصورة يشتغل من قلبه بتكرار: يا فعَّال، بحسب المعنى ويكرره مرات تندفع بإذن الله البتة، فإن لم تندفع يتأمل بقلبه كلمة: لا إله إلا الله، مرات، بأن يتصور لا موجود إلا الله، فإن تلك الوسوسة المشوشة أي نوع كانت موجودة من الموجودات الذهنية ويراها في الحقيقة قائمة بالله تعالى، بل يراها عين الحق، فإن الباطل أيضاً من بعض ظهورات الحق ولا شك أنه يحصل بهذا التأمل ذوق عظيم وتتقوى نسبة خواجكان قدَّس الله أرواحهم، وينتفي في ذلك الوقت هذا الفكر أيضاً. وليتوجه السالك إلى حقيقة ذهوله ويذهب من أثرها، فإن لم يجد الحضور بتكرار: لا إله إلا الله، بالقلب، يكررها جهراً مرات ويمد لفظة الجلالة: الله، وينزلها في القلب ويشتغل مدة لا يحصل له الملالة، ومتى أحس

بالملالة يترك الاشتغال. وما دامت الغيبة والذهول ونسبة الأكابر في الترقي يكون الفكر في حقائق الأشياء والتوجه إلى الجزئيات عين الكفر. [مصرع]

* يـل خـودي كـفـر وبـيـخـودي ديـنـسـت *

بل لا ينبغي في هذا الحال الفكر في أسماء الله تعالى أو صفاته، فإن عرض الفكر فيها بنفسه ينبغي أن ينفيه بالطرق المذكورة. فإن قيل: يلزم في هذه الصورة نفي الحق تعالى! أجيب: يجوز نفي الحق للحق: كما قال خواجة بهاء الدين قدّس سرّه، فإن الفكر إن كان حقاً صرفاً لا بد من أن يزيد ولو نفيته، فإن الحق لا ينتفي بنفي أحد وإلا فيزول.

وأيضاً مطلب روحانية هذه الطائفة العلية التوجه إلى المحو والفناء الذي هو مبدأ حدود الحيرة ومقام تجلي أنوار الذات ولا بقاء للوجود في هذا المقام، ولا شك أن فكر الأسماء والصفات أدنى من هذا المقام بمراتب. وينبغي أن يجعل هذه الحقيقة الجامعة نصب عينيه في الأسواق والتكلم والأكل والشرب وجميع الحالات، ويراها حاضرة ولا يغفل عنها بالتوجه إلى الصور الجزئية، بل ينبغي أن يرى جميع الأشياء قائماً بها ويجتهد أن يشاهدها في كل المستحسنات والمستقبحات حتى يصل إلى مرتبة يرى نفسه في جميع الأشياء ويشاهد الأشياء كلها مرآة لكمال جماله بل يجد الكل أجزاء نفسه كما قيل: [مصراع]

* جـزء درويـش إسـت جـمـلـة نـيـك ويـد *

ولا ينبغي أن يغفل عن هذه المشاهدة أيضاً وقت التكلم، بل يجعل عين قلبه في هذا الطرف وإن كان في الظاهر مشغولاً بشيء آخر كما قيل: [شعر]

كـن بـاطـنـاً نـحـو الـمـنـى وبـظـاهـر كـالأجـنـبـي
لا سـيـرة أمـثـال ذا فـي مـشـرق أو مـغـرب

وكلما كان الصمت أكثر كانت تلك النسبة أقوى وأوفر، فإذا بلغ مرتبة الفرق بين القلب واللسان ولا يكون الخلق حجاباً عن الحق يمكن في هذا الوقت أن يتصرف في الآخر بصفة الجذبة. ويجوز الإجازة للإرشاد ودعوة الخلق إلى الحق لمن بلغ هذه المرتبة، وينبغي للسالك أن يحفظ نفسه عن الغضب مهما أمكن، فإن الغضب يجعل ظرف الباطن خالياً عن نور المعنى، فإن وقع في الغضب وظهر

القصور وطرأ الكدور وضاعت بضاعة النسبة أو صارت ضعيفة فليغتسل بالماء البارد إن تحمَّل مزاجه، فإنه يورث الصفاء، وإلا فبالماء الحار، ويلبس ثوباً نظيفاً ويصلّي ركعتين في مكان خال ويخلي نفسه بجذب النفس وإخراجه مرات ويتوجه بعد ذلك بالطريق المذكور ويتضرع في الظاهر أيضاً عند حضرته الجامعة ويترجه بكليته إليها، ويتيقن أن هذه الحقيقة الجامعة مظهر للذات وجميع الأسماء والصفات لا بمعنى أن الله تعالى يحل فيه، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً، بل بمعنى أنه كالصورة في المرآة، فيكون هذا التضرع في الحقيقة عند الله تعالى.

* * *

* **الشيخ عمر الماتريدي قدّس سرّه**: هو من أصحاب الخواجة علاء الدين قدّس سرّه، وكان له قبول تام عنده. ورآه حضرة شيخنا وقال نقلاً عنه: أن مشائخ العراق أرسلوا قاصداً إلى مشائخ خراسان وكتبوا ألفاظاً من مصطلحات أهل المجاهدات والمكاشفات وقالوا: إن لنا أحوالاً ومواجيد وعبرنا عن هذه الأحوال والمواجيد بهذه الألفاظ، فما قولكم في هذا الباب؟ فعرض مشايخ خراسان هذه الصورة على مشايخ ما وراء النهر وهم سألوا عن ذلك مشايخ الترك فقال مشائخ الترك: نحن ما نعرف ذلك وإنما جوابنا هذه الكلمات:

بارجه يخشي بزيمان بارجه بغداي بز صمان

يعني: كل أناس أخيار ونحن أشرار، وكل أناس حنطة ونحن تبن.

* * *

* **مولانا أحمد مسكه رحمه الله**: هو من جملة أصحاب الخواجة علاء الدين قدّس سرّه، ومن جملة ملازمي عتبته العلية وخدمة سدته السنية. قال حضرة شيخنا: استأذن مولانا أحمد مسكه يوماً في مبادي أحواله حضرة الخواجة علاء الدين أن يذهب إلى بدخشان لزيارة أقربائه فوصل وقت مراجعته من بدخشان إلى محل قد دخلت فيه طائفة من بنات الأتراك في الماء فهجست في قلبه رؤيتهن وطالبته نفسه بذلك حتى لم يبق له قرار فقال في نفسه: انظر إليهن مرة وأخلص نفسي من هذا القلق والاضطراب. فجاء عندهن وتفرج لحظة ثم مضى لسبيله. فلما تشرّف بملاقاة الخواجة علاء الدين صادف قدومه اتفاقاً مجمعاً عظيماً ومجلساً عالياً، فتوجه حضرة الخواجة إليه وقال: إن في طريق خواجكان قدّس الله أرواحهم محاسبة فلا بد لك

من أن تبين لنا ما جرى لك في أوان مفارقتك إلى زمان مراجعتك إلينا على سبيل الإجمال، فقص عليه جميع ما مر عليه من الأطوار والأحوال حين مفارقته وذكر أشياء كثيرة. فلما بلغ قصة تفرجه البنات أعرض عنها ولم يتجاسر أن يتكلم بها، فقال له حضرة الخواجة: قد بقي شيء لم تقصه بعد، فلا بد لك من بيانه وإلا فأقصه أنا وأفضحك. فاضطرب مولانا أحمد غاية الاضطراب ولم يجد بداً من إفشائها نقررها بتمام الخجالة وكمال انفعال، فأعرض عنه حضرة الخواجة بوجهه وقال: انظروا إلى هذا الغلام عديم الحياء، قال مولانا أحمد: كنت في هذا المجلس من الدهشة والخجلة بحيث لم يبق أثر من وجودي وكدت أن أذوب وأخلي بدني من الروح لولا أن تداركني الله سبحانه بمنه وجوده.

* * *

مولانا

درويش أحمد السمرقندي رحمه الله تعالى

كنيته أبو الميامن، ولقبه: جمال الدين، واسمه: أحمد بن جلال الدين محمد السمرقندي. وهو وإن كان بحسب الظاهر مريد الشيخ زين الدين الحافي قدّس سرّه. وكتب حضرة الشيخ إجازة له، وكتب في آخرها اسمه وتاريخ الكتابة هكذا: كتب هذه الأحرف العبد الفقير إلى الكرم الوافي زين الحافي ثبته الله تعالى على قوانين أهل الطريقة وأوصله إلى مقامات الكمال من أرباب الحقيقة تذكرة للولد الأعز السيار أحمد السمرقندي فتح الله له أبواب الحقائق ورزقه التميز بين الدرجات والدقائق في رجب سنة إحدى وعشرين وثمانمائة في بعض نواحي هراة صينت عن الآفات، لكن غلب عليه مشرب أهل التوحيد الوجودي وكان يحب أكابر خواجكان قدّس الله تعالى أرواحهم، وقد نال صحبة الخواجة علاء الدين العطار قدّس سرّه وتشرّف بها كثيراً قبل مسافرته إلى طرف خراسان والعراق والحجاز وما وراء النهر. وكان محتظياً من بركات مجلسه الشريف بحظ وافر وكان يظهر الندامة كثيراً دائماً على فوت صحبته الشريفة وملازمته عتبته المنيفة بعد المفارقة الصورية والمهاجرة الضرورية كما هو واضح ولائح من مكاتيبه المرسلة إلى حضرة الخواجة. وأنقل هنا واحداً من مكاتيبه المحررة بخطه للاستشهاد:

المكتوب: هو الجامع أيزد سبحانه وتعالى، مشرقيان ومغربيان، كيتي رابغر جبهه غرا. وتلألؤ غرة مصفاي آن نور ديده عالم كه مردم ديده خواص بني آدمست. نتيجة مظهر أنوار سبحاني، ولطيفة مهبط آثار رحماني هو تو شعاع خلق أرواح شبنم هوائي أربعين صباح. المستبدع سلالته من العنصر العظيم، المستخرج فضالته من أرومة الكريم، نفحة رياض التحقيق قطرة حياض التوفيق، عنوان صحائف الطريقة، لمعان لوائح الحقيقة، شهاب فلك الدراية، دري سماء الولاية، دائرة نقطة الألباب، نقطة دائرة الأقطاب، سكينة قلوب العاشقين، علاء الحق والملة والدين، شمس الإسلام والمسلمين، والمخصوص بألطاف رب العالمين، مخدوممكه زجاجة دل

محبان بفروغ زيت وجوداً ونور على نورست، وخطبة مد دلسان صدق في الآخرين بمورد أذكار أو مذكور، ألبسه الله تعالى لباس المجد والجلال، وأسكنه مقاعد الأبدال، براه معاد سعادات جاوداني، ومرجع إقبال نامتناهي أرزاني دارد، وهو المجيب لمن دعا، والقادر على القبول والإعطاء: [بيت]

خداي عز وجل أين نور سعادت را جوآفتاب برايوان آسمان دارد

صحيفة:

تحيتي أرق من نسيم الأسحار ووثيقة مدحتي أبهج من شميم نسيم الأزهار

إلى أقصى غايات العبودية، ومدى نهايات العبودة، أزين حضيض نياز، بدان زروة معارج ناز، كه مسند معالي وإعزاز ست تبليغ مي أفتد: [بيت]

ألا يا نسيم الريح من أرض بابل تحمل إلى أهل الخيام سلامي

وعرضه ميدار دبدان آستان كه مخيم كروبي وروحاني، وعروة وثقى زميني وزماني، كه فيض اعتصام حبل متين اسما نيست، آن دودمان آفتاب أضائت، كه شمع هداية سراي جهان در ظلمت ثلث ست: [نظم]

بقاؤهم عصمة الدنيا وعزهم سجف على صفحة الأيام منسدل

مسكين غريب شكسته تنها بندة مخلص ومحب متخصص، كه غريق بحار فراق، وحبق نوائر اشتياق أست، أحمدكه كنية نعلين داران عتبة أست، وبجهرة تمنى زمين آن باركاه كه نمونة وجنة عرضها ست مي سايد، وباستين مزدة كوهربار، ودامن جهرة زرنكار، خاك آن سركوي دولتكه موقف مياهات بختياران، ومطاف كرامات نيك بختانست، كه ميروبد ويلب حسرة حاشية آن بساط مبارك كه بوسه كاه طبقة أهل الله ست مي بوسد ودر قبول عذر مفارقت وتقاعد خدمت أنبياء وأولياء صلوات الرحمٰن عليهم أجمعين وقدّس أرواحهم شفيع مي أوردكه. درين مدة تقصير على الدوام جوامع همت، ومجامع نهمت، بران مقصور بوده أست، كه بهرجه زودتر خويشتن رادران صف نعال جاي ساخته آيد، وليكن جون محول أحوال، ومقدر آمال وآجال، حجاب موانع ونقاب تعذر درروي كاراين بيجارة مي كشيده ست، وزنجير تقدير وسلسلة مشيت در حرمان زندان هجران محبوس ميداشت، جز صبر وتسليم روانيو ده ست. [بيت]

كسي زجون وجرادم نمي توا ندزد كه نقشبند حوادث وراي جون وجراست

نظم:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

روزشب بادم آتشين صباح وآه عنبرين مراح ورواح

كاه هوار أكلة آتشين مي بستم، وكاه صبارا لخلخة عنبرين ميداد، كه أين جه عقدة أست كه وقت دركاراين شكسته أفكندة، بعد أزان كه آفتاب سعادت برسراين مخلص تافت، وهماي عزت ساية رحمت برسراين محروم أنداخت، ودر كنف سايبان أهل الحق مد ظله مدة مديد طفيلي بودودر حوضة نور وبيضة سروركه مطرح آثار أنوار خورشيد حق ومسرح أنظار أبصار حقيقت الذي يقصد إليه القاصدون الصادقون ويغبطه الأولون والآخرون روز كار مطالعة آيات بينات إلهي نمود وشواهدا بجاز ودلائل إعجازنا متناهي مشاهدة نمردوبر آهين ساطعة وحجج واضحة كه «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر». إز حجب غيب وأستار لا ريب نظاره نمودنا كاه دست نامرادي رقم مباينت برلوح آن ملازمت كشيدوكار كذران أين خيمة آب كون كه فراشان كلة إيداعيان كن فيكون يندرحت أين كدارا برراحلة فراق بستند وأزمر كزعر وإقبال كه محل أعلاء كلمة الحقست درآ كناف آفاق وأطراف أقطار بريشان كردند. [نظم]

وإن كنت لا أرضى بوصل مقطع فها أنا راضٍ لو أتاني خيالها

أبيات:

يا رب جه عهد بودكه عهد وصال بود دركلشن أميد نسيم شمال بود

آسوده بوددل زخيال وبسوى جان هردم زدوست تازة نويد جمال بود

كيتي جنان ربود زما عهد آن وصال كفتي مكرد رآينة جان خيال بود

أميداز مكور كون ومكان ومقدر كن فكان آنست كه يكبار ديكر خاك آن باركاة راكه كحل الجواهر أهل ديدست بزودي درديدة درديدة ستم ديدة كشيدة آيدوا كنون كه ميدان حميات تنك شد وحادثي رحيل مقرعة تحويل خواهد جنبانيد وآفتاب جان روي بمغرب أبدخواهد آورد ومرغ قديسي ازدا مكاه أنسي برواز خواهد كرد وطائر همايون عرشي أين قفص جارد رفرشي رابدرود خواهد نمود وجنانكه هست وبودو خواهد بود دست تولى دردامن عاطفت آن حضرت زده آيدوبيوسيدن آن بايكه تاج

سر سرور أنست كارآن سراي ساخته آيد إن شاء الله العزيز: [بيت]

سررشته بدست تست ومن دست آموز جون سوى خودت كشي بسر باز آيم

بيت:

جنين كه من زفراقت بسر در آمده أم كرم تودست نكيري كجاتوان برخواست

وعليك اعتمادي في هذه الأمنية، وعليه أتوكل وبه أستعين. آري أكردرنما زدر أول تحريم وتكبير دل حاضر باشدوا كردر آخر تسليم جان ناظر غيبتها وغفلتها كه درميانه روداً نوبكرم عميم بحضور برميكير ندوآن طاعت شكست بسته رادرمي بذير ند كرم بيشترازان تتواندبودو رحمت أزان فزون تر صورت نتو أندبست وشفقت برفرماند كان أزان وافرتر تصور نتوان كرد إن شاء الله كه أين جند رقم كه رقعة نيازاست وبعرق تشوير وبقلم دهشت بربياض خجلت ثبت أفتاد دران حضرت محلي يابد وبر فتراك قبول أين فرومائدة رادست آويزي تونامزد شود. [شعر]

جاءت سليمان يوم العرض قبرة يأتي برجل جراد كان في فيها

ترنمت بلطيف القول واعتذرت أن الهدايا على مقدار مهديها

بيت:

هدية مارد مكن إنكار كه يا ملخي تحفة مور بود سوى سليمان آورد

حالياً روى نيازبر آستانة بي نيازمي مالدوزارز أربدر دمي نالد باشدكه بحكم العود أحمد أزين سوى دري بكشايد وازان جناب إشارتي بدكه [نظم]

عودوا عودوا إلى وصالي عودوا بازآكه ترابنا زمبدانم داشت

أبيات:

شود ميسرم أياد رين جهان أينم كه باز باتودمي شاد مانه بنشينم

بكوش دل سخن دلكشاي تونسنوم بجشم دل رخى راحت فزاي توبينم

أكرجه درخور تونيستم قبو لم كن أكربدم من وكرنيك جون كنم أينم

خدام آن حضرت وملازمان آنجناب يا ليتني كنت مهم فأفوز فوزاً عظيماً على الخصوص خواجة نيك بخت مقبول آن حضرة خواجة كافور سلمه الله بأجميع أهل بيت إز مخلصان دعاء ومحبت قبول فرمايندوآر زومندي زيادة أزان دانندكه بتحرير بيان آن توان كرد.

بيت:

ولــو جــرع الأيــام كــأس فــراقــنــا لأصـبـحـت الآفـاق شـهـب الـذوائـب

في غرة محرم سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة تسويد أين أرقام ناتمام بتطويل إنجاميد وسياقت أين نياز نامه مستدعي كثرت شدو ليكن غم زدكان فراق وما تم رسيد كان اشتياقرا معذور بايد داشت. بيت:

نه جندان آرزومنلم كه وصفش دربيان آيد وكرصد نامه بنوسيم حكايت بيش أزان آيد

هـمـواره مـسـدة عـالـيـة مـقـصـد أربـاب سـعـادت بـاد بـمـنـه ويـمـنـه

قال حضرة شيخنا: كان للشيخ زين الدين الخافي عليه الرحمة اهتمام تام في حق درويش أحمد في مبادي حاله، وكان يصرف خاطره إلى ترويج أمره وقيله وقاله، ونصبه واعظاً في مقصورة جامع هراة، وأقام بالبلد لأجله بضع عشرة أيام، وحضر مجلسه ورغّب الناس في سماع وعظه، وبالغ في الاهتمام بجمعية مجلسه، وأمر الناس ببيعته ومجالسته وأنسه. ثم تأذى منه بعد زمان غاية التأذي حتى كفره ونفر الناس عن مجلسه ومنعهم منعاً بليغاً وأعرض عنه بخاطره بالكلية، وذلك أن درويش أحمد كان ينشد أشعار السيد قاسم التبريزي المشعرة بالتوحيد الوجودي فوق المنبر ويأمر المطربين أخيراً أن ينشدوها ويغنوا بها. وكان الشيخ يمنعه عن ذلك وهو لا يمتنع بل يستمر على ما هنالك، فكان من تلك الحيثية متألم القلب حتى آل الأمر إلى أن لم يبق في مجلسه غير سبعة أو ثمانية أنفار.

قال حضرة شيخنا: كان وقوع هذه الواقعة حين ذهابي إلى طرف حصار لملاقاة مولانا يعقوب الكرخي قدّس سرّه، ولما قدمت هراة وسمعت هذه الواقعة صرت مغموم الخاطر جداً وما كان إذ ذاك بيني وبين درويش أحمد زيادة معرفة. فبينما أنا ماش في سوق الملك يوماً من الأيام إذ لقيني درويش أحمد فوق الجسر، ولما رآني رمى نفسه من فرسه وقال: كنت خرجت بنية زيارتكم ومرادي أن نذهب إلى حجرتكم وأن أعرض ألم قلبي على حضرتكم. وكان مفتاح باب الحجرة في يد مولانا سعد الدين الكاشغري، فقلت في نفسي: عسى أن نلقاه في الطريق. فتوجهت مع درويش أحمد نحو المدرسة الغياثية التي فيها حجرتي، وأرسل درويش أحمد فرسه إلى منزله، فلقينا مولانا سعد الدين في الطريق، فجئنا معاً إلى الحجرة. ولما جلسنا شرع درويش أحمد في البكاء قبل الكلام ثم أظهر الملامة والشكاية وقص

القصة بتمامها، وقال: قد آذاني بكذا وكذا ولم يبق أحد في مجلس وعظي. وبكى كثيراً في أثناء الكلام ثم قال: كنت متحيِّراً في أمري غاية الحيرة، فقال لي واحد من الأكابر: إن أمرك إنما ينجلي من يد فلان وأن كفاية هذا الأمر الخطير لا تحصل من يد غيره. وأحالني ذلك العزيز على جنابك وإني مددت الآن يد التضرع إلى ذيل عنايتك.

قال حضرة شيخنا: لقد أحسست في باطني ألماً عظيماً من سماع قصته وبكائه وتضرُّعه، واحترق قلبي لحاله، ورأيت خاطري متوجهاً إلى جانبه من غير اختيار وكان مشغولاً بالفعل، فقلت: لا بأس أحضر إلى المسجد الفلاني واشتغل هناك بالوعظ وقد لاح لقلبي أن الجمعية في مجلسك تكون زيادة في زيادة. فقام الدرويش بطيب القلب وشرع في الوعظ في المسجد الذي أشرت به إليه. فاجتمع إليه الناس في أيام قلائل حتى صاروا لا يسعهم هذا المسجد، فانتقل إلى مسجد آخر أوسع منه ثم وثم إلى أن بلغ الاجتماع والازدحام مرتبة لزمه أن ينتقل إلى مسجد الجامع بالضرورة. ثم زاد الازدحام وهجوم الخلق في المسجد الجامع حتى كان ينادي مرات: رحم الله من يجلس قريباً ريفسح قليلاً. وكان لا يبلغ صوته حاشية المجلس مع جلوسهم متراصين.

فبلغ خبر هذا الازدحام والكثرة الشيخ زين الحافي، فسعى سعياً بليغاً في منع الخلق عن مجلسه لكنه لم يفد شيئاً ولم يجد نفعاً ولم يسمع أحد قوله، بل ازداد الازدحام والكثرة في مجلس الدرويش. فاشتهر بين الناس أن الغلام التركستاني عارض الشيخ زين الدين الحافي وغلبه، وكنت بعد ذلك في هراة مشاراً إليه بالبنان، وكلما رآني مريد والشيخ زين الدين الحافي، كانوا يقولون: هذا الذي أمد الدرويش وروَّج مجلسه. وقال حضرة شيخنا: أول معارضة صدرت عني في عنفوان شبابي هي هذه المعارضة التي كانت مع الشيخ زين الدين الحافي وغلبته فيها، وقال: كانت طريقتي وسيرتي من صغر سني على هذا المنوال لم يغلب عليَّ أحد بالمقابلة والعناد.

وقال: قال السلطان مرزا أبو سعيد: رأيت في المنام طائفة من الأولياء يقولون: أن للخواجة عبيد الله قوة كثيرة لا يمكن أحداً معاندته ومقابلته فإذا كان هو على طرف يكون الأمر على مراده. وقال: لقد رأى رؤيا صادقة، فإني لأعلم من

صغر سني أنه لم يقابلني أحد إلا كان مغلوباً ولم يروج أمره ولا مجال لأحد في معاندة مريدي خواجه عبد الخالق، فإنهم هم الغالبون البتة بإذن الله تعالى وعونه ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: الآية ٥٦].

وكان حضرة شيخنا قوي الاعتقاد وكثير الاستحسان لوعظ درويش أحمد، وقال: كان قلبي كثير الميلان إلى وعظه، وقد كان يتكلم كثيراً بكلام حسن دقيق وكان مجلس وعظه حقيقاً بأن يحضر فيه أمثال الشيخ أبي حفص الحداد وأبي عثمان الحيري، وكان يقول أحياناً: كان ينبغي أن يحضر في مجلسه أبو القاسم الجنيد والشيخ أبو بكر الشبلي ليسمعا منه الحقائق الرفيعة. تكلم يوماً في مجلس الوعظ بكلام رفيع دقيق ففطن أن بعض المنكرين في المجلس يقول: ما كان ينبغي أن يتكلم بأمثال هذا الكلام في مجلس العوام، بل الأليق التكلم على قدر عقول الأنام. فقال في الحال: إنك لا تفهم دقائق كلام هذه الطائفة لدناءتك وغباوتك، فمن أين علمت أن الحاضرين كلهم أغبياء مثلك لا يفهمون المرام من الكلام. ولعل في هذا المجلس أناس يصدر هذا الكلام من أجلهم وبالنسبة إليهم ولا ينبغي أن تحسب الكل غبياً عديم الفهم مثلك.

وقال حضرة شيخنا: كان درويش أحمد يتكلم في المنبر بكلام عال جداً، وكان النظاميون يطلقون عليه لسان الطعن والإنكار، وكان جواب معتقديه ومحبيه من طرفه: أن أمثال هذا الكلام تصدر عنه بلا اختيار فإن الكلام إنما يصدر على حسب استعداد الحاضرين في المجلس، فلا اختيار له في هذا الكلام ولا مواخذة فيما لا اختيار فيه.

وقال: كنت مرة في مجلسه فصدر عنه كلام في غاية الدقة واللطافة، فافتخر بهذا الكلام وظن أنه ناشيء عن استعداده. وأظهر المنة على أهل المجلس وقال: أنا الذي يقرع سمعكم بواسطتي الحقائق الغيبية والمعارف اللاريبية، وأنتم لا تعرفون قدرها ولا تخرجون عن عهدة شكرها. وكرر هذا الكلام وتجاوز الحد في الامتنان، وبلغ من المبالغة في هذا الباب النهاية، فثقل تفاخره هذا عليَّ، فقلت في نفسي: من أين صار لك معلوماً أن هذا الكلام ناشيء عن حقيقتك! فلم لا تحمله على أن يكون في هذا المجلس بعض خواص عباد الله بجذب استعدادهم هذه المعاني من المبدأ الفياض فإن لم يكن استعدادات وقابلية من أهل المجلس لم تقدر

أن تتكلم بهذا.

وكانت لي في هذا اليوم جبة مدورة الجيب فجعلت رأسي في جيبها ووضعت مسبحتي على أذني وحبست نفسي وقلت: أنا لا أسمع كلامك فانظر كيف تقدر على الكلام في المعارف! فحصر في الحال وسد عليه مجاري الكلام، وكلما اجتهد في التكلم لم يسير أصلاً. فعلم أن هذا الحصر حصل من أين، فنادى من رأس المنبر: أنه ما معنى سد طريق الكلام على فقير وجعل المستمعين محرومين؟ فلم يجد بداً من أن ينزل عن المنبر، فنزل واختفيت عنه فيما بين الناس فلم يرني.

وقال حضرة شيخنا: كان درويش أحمد جسوراً في الوعظ غاية الجسارة، وكان يقول في وعظه: إن طائفة من الموالي يؤدون الصلاة بتمام العجلة بحيث لا يتحملون انتظار تسليم الإمام ويخرجون من المسجد بكمال الاضطراب، ويلبسون أثواب الصوف ويذهبون إلى باب عليكة وفيروز شاه مثل الكلاب. ثم قال: أستغفر الله، أستغفر الله، أخطأت في تشبيههم بالكلاب، ماذا أقول يوم القيامة إذا سألني الله سبحانه وتعالى أنه لِمَ أطلقت اسم الكلاب التي لم يعصين لي قط في طول أعمارها على جماعة العصاة! بل هم في الحقيقة ذباب في حوالي الكلاب، فإن الكلاب أمثال عليكه وفيروز شاه وأمثالهما فإن فيهم القوة السبعية التي هي للكلاب وليست تلك القوة لهؤلاء الجماعة، فلا يصح التشبيه لعدم العلاقة بل هم اجتمعوا اجتماع الذباب حول ما جمعته تلك الطائفة بقوتهم السبعية من الجيف والنجاسات.

وقال حضرة شيخنا: قال درويش أحمد في مجلس وعظه يوماً: أريد أن أترك الوعظ بعد حين، فإن المداومة على الوعظ ينبغي لأحد النوعين من الناس:

أحدهما: أن يكون متخلصاً عن مكايد النفس الأمارة بالسوء بحيث لم يبق فيه أثر من آثار النفس ودواعيها بسبب شدة تمسكه بالشريعة الغراء وورعه وتقواه، ولا يكون الباعث على وعظه الرعونة وحظ النفس وجلب النفع، بل يكون مقصوده ومطمح نظره في وعظه محض الحقانية والشفقة على الخلق.

وثانيهما: أن لا يكون له شغل بالآخرة وبالحق تعالى، ولا يكون له فكر تهيئة أسباب الآخرة بل يكون متوجهاً إلى الخلق دائماً، ويكون مراده استيفاء الحظوظ العاجلة والرعونة وحظ النفس وأني لست من النوع الأول، فإن بقايا آثار حفظ النفس كثيرة فيَّ جداً وأنا معترف أن مقتضيات الطبيعة البشرية لم ترتفع عني بالكلية،

ولست أيضاً من النوع الثاني فإن ملاحظة أمور الآخرة وغم تهيئة أسبابها غالبة عليّ، وقد قمت بأمر الوعظ أياماً مقدار ما نقص عني من آثار حظوظ النفس فأتركه أياماً أخرى مقدار ما بقيت فيَّ منها.

ورأيت بخط درويش أحمد عليه الرحمة مكتوباً في مجموعة هذه الكلمات: كنت في القدس متوجهاً إلى حضرة القدوس، سمعت منه جل ظهره يقول: تحنث لي، قلت: كيف أتحنث يا رب! قال جلّ وعلا: بخلو سرك عن غيري والتوجه بالكلية إليّ. وسمعت في درويش آباد في اليقظة قائلاً روحانياً بكلام روحاني يقول: أين خودكه كوئي من ذات شريفم نيست. يعني: أن ما تقول أنا الذات الشريفة ليس كذلك. ففهمت من هذه العبارة أن ما يقوله البعض من أن الوجود المقيد عين الوجود المطلق. يعني: وجود المخلوق عين وجود الخالق ليس كذلك، تعالى شأنه عن ذلك علواً كبيراً، الحمد لله قد كان لنا معلوماً بالمشاهدة أن وجود الخالق تعالى منزه عن أن يكون عين وجود الموجودات. وشوهد في ذلك اليوم بعد حلقة الذكر نور منبسط في جميع الكائنات، وكأن الكائنات بأسرها مقدار ذرة في لمعان ذلك وعلمية تلك الواقعة كما أن وجود الذرة وظهورها ناشيء عن نور الشمس، كذلك نسبة جميع الموجودات إلى الشمس الحقيقية هي هذه النسبة بعينها في كون وجود جميع الممكنات وظهورها ناشئاً عن الشمس الحقيقية وقائماً بها. ومنحوا هذا الفقير العروج والتجريد، وكان ذلك العروج في ذاته تعالى، وكان الفرق بين ذات الحق وذات هذا الفقير في هذا التجريد والمعراج أن ذات الحق سبحانه لم تكن لها نهاية بخلاف ذات هذا الفقير فإنها كانت متناهية ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾ [الجُمُعَة: الآية ٤].

وقد أخبر بعض الأكابر عن هذا المقام حيث قال في مشاهدته: ليس بيني وبينه فرق، إلا أني تقدمته بالعبودية.

ورأيت شيخ الإسلام خواجه عبد الله الأنصاري قدّس سرّه في المنام، فقال: إن بيني وبينك أبوة وبنوّة بحيث أن لا يكون في البين أنا وأنت. وكتب درويش أحمد في آخر تلك الكلمات هذه الأبيات: [أشعار]

عشقم كه درد وكون مقامم بديدنيست عنقاي مغر بمكة نشانم بد بد نيست
زابرو وغمزه هرد وجهان صيد كرده أم منكر بدان كه تيرو كمانم بديد نيست

جـون آفــتــاب ذرزخ هــرذره ظــاهــرم | إز غـايـت ظـهـور عـيـانـم بـديـد نـيـسـت
كـويـم بـهـر زبـان وبـهـر كـوش بـشـنـوم | وين طرفة تركه كوش وزبانم بديد نيست

ترجمة:

وإنـــي عـــشـــق عـــن مـــكـــان مـــبـــرأ | وعـن رؤيـة الـخـلـق كـعـنـقـاء مـغـرب
وصـدت الـورى من غـمـز عـيـن وحـاجـب | ومـا أنـكـروا إلا لـفـقـدان مـخـلـب
ظـهـرت كـشـمـس فـي جـلا كـل ذرة | فـمـن غـايـة الأجـلاء خـفـيـت بـمـوكـب
وأصـــغـــي بـــآذان أقـــول بـــألـــســـن | ولا شـيء لـي مـنـهـا آلـيـس بـأعـجـب

* * *

* **حضرة الأمير السيد الشريف الجرجاني قدّس سرّه**: كان من جملة المنظورين والمقبولين عند حضرة الخواجة علاء الدين العطار قدّس سرّه. وذكر مولانا العارف الجامي قدّس سرّه في «نفحات الأنس» أنه سمع هذا الفقير من بعض الأكابر أن قدوة العلماء المحققين، وأسوة الكبراء المدققين، صاحب التصانيف الفائقة، والتحقيقات الرائقة، السيد الشريف الجرجاني رحمه الله، كان موفقاً للانخراط في سلك أصحاب حضرة الخواجة علاء الدين العطار قدّس سرّه، وكان له إخلاص تام وتواضع عام لخادميه وملازميه. وكان يقول مراراً: ما تخلصت من الرفض إلا بعد وصولي إلى صحبة الشيخ زين الدين علي كلا الشيرازي، وما عرفت الله سبحانه وتعالى إلا بعد اتصالي بصحبة الخواجة علاء الدين العطار قدّس سرّه.

قال حضرة شيخنا: قال خالي الخواجة إبراهيم: كنت في مدرسة الأمير تيمور بسمرقند، وكان السيد الشريف أيضاً هناك، وكان يحضر صحبة الخواجة علاء الدين العطار في مدرسة أولاد صاحب الهداية بنعل فقط في الأسحار وقت برد الهواء في فصل الشتاء، وكان يأخذني معه. وكنا نقعد عند الباب زماناً طويلاً حتى يصدر الإذن بالدخول، وكان خدمة الخواجة يتكلفون في طبخ الطعام في السحر بمثل الدجاج المملوءة بالبيض وأولاد الغنم وغيرها من التكلفات. وكان مولانا بهاء الدين الأندجاني يحضر مجلسه أحياناً وكان من العلماء المتقين، فأحضروا مرة في السحور من هذا الطعام فخطر في قلبه أنه ما هذه التكلفات للدراويش في السحور، وكيف ينبغي التكلُّف بأمثال هذا! فأشرف حضرة الخواجة على ما جرى على ضميره

فقال: يا مولانا بهاء الدين، كُلِ الطعام كيف ما شئت، فإن الطعام لا يضر إن كان من الوجه الحلال. وأمر حضرة الخواجة علاء الدين قدّس سرّه السيد الشريف أن يصحب مولانا نظام الدين الخاموش، فكان السيد في ملازمته امتثالاً لأمره.

وقال حضرة شيخنا: قال مولانا نظام الدين الخاموش: ولما وصل السيد الشريف الجرجاني إلى صحبة حضرة الخواجة علاء الدين وقبله حضرة الخواجة، طلب السيد منه أن يصحب أحداً من أصحابه لتحصيل الأهلية في صحبته لصحبته والمناسبة لأهل هذه النسبة. فأشار إليه حضرة الخواجة بصحبتي، فكان يحضر عندي بعد فراغه من الدرس ويقعد على الصمت والسكوت. ولما كان يوماً من الأيام قاعداً عندي مراقباً، ظهر فيه أثر عدم الشعور والاضطراب حتى سقطت عمامته عن رأسه، فقمت ووضعت عمامته على رأسه. فلما صحى سألته عن سبب ذهوله وعدم شعوره فقال: قد كنت من مدة مديدة متمنياً لأن يكون لوح مدركتي طاهراً عن النقوش العلمية ولو مقدار ساعة لطيفة، وأن يتخلص قلبي عن فكر المعلومات ولو مدة يسيرة، فظهر هذا التمني في تلك الساعة ببركة هذه الصحبة الشريفة، فطرأ عليَّ الذهول وعدم الشعور من غاية ذوق هذا المعنى ولذته وصدر عني إساءة الأدب.

وكان السيد الشريف قدّس سرّه يرسل المكاتيب إلى حضرة الخواجة علاء الدين العَدَّار(١) قدّس سرّه في أوقات مفارقته وأوان مهاجرته. ومن جملة مكاتيبه هذان المكتوبان نوردهما للتبرك والتيمُّن:

المكتوب الأول: جعل الله سبحانه وتعالى ظلّ حضرة معدن الإرشاد، قطب الأقطاب، محرم حظيرة قدس ربّ الأرباب، سلطان المحققين برهان المدققين، واقف الأسرار، قدوة الأخيار، مرشد الخلائق، موضح الطرائق، ظلّ الله على العالمين، مرجع الطلاب والمسترشدين، أعلى الله أمره وشأنه، ممدوداً ومبسوطاً على رؤس كافة الأنام إلى يوم القيام، ورجاء تيسر سعادة استلام الأقدام السنية، وشرف ملازمة العتبة العلية على أحسن الأحوال لكون هذه الضراعة مرفوعة عن المقام المعلوم، ومستظهرة بيمن التفات خاطر ذلك الجناب العاطر الحائز لخاصية الكيمياء قوى ومجزوم وسائر الأحوال الظاهرية والباطنية موجبة للحمد والثناء

(١) العَدَّار: الملاّح. (لسان العرب: عدر).

والاعتصام الكلي بكرم الأعزة العميم، والتمسك بعروة نسبتهم الشريفة الوثقى، والحمد لله على ذلك. والمرجو من المخاديم على الإطلاق وعلى الخصوص والخلوص نادرة الآفاق كريم الشمائل والأخلاق، تاج الملّة والدين، خواجة حسن أحسن الله أحوالنا بلقائه قبول الخدمات، والمأمول من ملازمي السدة العلياء ومبارزي ميدان البقاء(١) بعد الفناء(٢)، مولانا صلاح الدنيا والدين ومولانا كمال الدين أبو سعيد مع سائر إخوان الصفاء، أن يتأملوا الدعوات والتحيات من غاية الخلوص والاشتياق. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وتحياته.

المكتوب الثاني:

ومن عجب أني أحن إليهم ... وأسأل عن أخبارهم وهم معي

وتشتاقهم عيني وهم في سوادها ... ويطلبهم قلبي وهم بين أضلعي(٣)

أي صورت توصورت ألطاف إلهي ... در صورت تو معنى حق نا متناهي

أقبّل تراب العتبة العلية، مكرراً هذا البيت: [شعر]

ولو أن لي في كل منبت شعرة ... لساناً يبث الشكر كنت مقصرا

وأعتقد أن ما أشاهده من ألطاف المخاديم وأعطافهم أحسن الله أحوالي بيمن صحبتهم، أنموذجاً من اعتناء خاطركم الفياض وألطافه والرجاء في التزايد في كل

---

(١) **البقاء**: يطلق، ويراد به: رؤية العبد قيام الله في كل شيء. فالبقاء أحد المقامات العشرة التي يشتمل عليها قسم النهايات لأهل السلوك في منازل السير إلى الحق تعالى، وهو مقام أرباب التمكين في التلوين، وعند حصول هذا التمكين لم يبق عليه الاسم ولا العبارة ولا الإشارة ليؤذن ذلك بتميز وإضافة فيبقى من لم يزل ويفنى من لم يكن، ولهذا كان مقام البقاء بعد الحالة المسماة بالفناء.

(٢) **الفناء**: هو الزوال والاضمحلال، كما أن البقاء ضده، والطائفة يجعلون الفناء على مراتب: **الفناء عن الشهوة**: يعني بها سقوط الأوصاف المذمومة التي ما دامت النفس متصفة بها فهي النفس الأمّارة، أي بالسوء، فإذا أخذ العبد في مجاهدة نفسه بنفي سفساف أخلاقها، ومواظبته على تزكية أعمالها، فإنه ما دامت هذه حاله فنفسه لوَّامة، لأنه لو لم يكن في قلبه بقية لما احتاج إلى المجاهدة، وهذا هو الذي يقال له: الفاني عن شهوته، وذلك لأنه قد ترك ملموم الأفعال بجوارحه امتثالاً لأمر الشريعة، إلاّ أن قلبه بعد ينازعه إليها لكونه لم يستقم بعد على الطريقة لتصفو أخلاقه الباطنة.

(٣) بيتان من قصيدة بلغت أحد عشر بيتاً للشاعر الصوفي القطب أبو مدين التلمساني: شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني المتوفى سنة ٥٩٤ هجرية.

لحظة، ويديم الله سبحانه ظل حضرة منبع الإرشاد على رؤوس كافة الأنام. ونخص المخاديم بالدعوات خصوصاً الخواجة تاج الملة والدين الحسن، وملازمي العتبة العلية مولانا صلاح الملة والدين، ومولانا كمال الدين أبو سعيد مع سائر الأبرار والأخيار والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

• **حضرة مولانا نظام الملة والدين الخاموش قدّس سرّه:** هو أفضل أصحاب حضرة الخواجة علاء الدين قدّس سرّه وأكملهم، وسبب تأخير ذكره ما مر في تأخير ذكر حضرة الخواجة بهاء الدين وخواجة علاء الدين قدّس سرّهما. وقد لقي هو الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه أوان تحصيله في صحبة واحد من العلماء في بعض نواحي بخارى، ثم التحق بصحبة الخواجة علاء الدين قدّس سرّه.

قال حضرة شيخنا: قال مولانا نظام الدين: كان لي قبل وصولي إلى صحبة الخواجة علاء قدّس سرّه وملازمته، مجاهدات كثيرة ورياضات شديدة، وشاهدت من آثار الرياضات كثيراً من الخوارق والعادات، وكنت بحيث إذا وصلت إلى باب مسجد مقفل وأردت الدخول فيه كان ينفتح لي بمجرد الإشارة، وأمثال هذا لا يحصى. فلما سمعت قدوم حضرة الخواجة سمرقند خطرت في قلبي داعية التشرف بصحبته، فجئت منزله ولقيت أولاً مولانا أبا سعيد. فلما رآني قال: يا مولانا أنت في غاية النظافة، أما آن لك أن تتخلص من هذه النظافة والزهد! فحصل لي كراهة من هذا الكلام وثقل على قلبي، فلما دخلت عند حضرة الخواجة علاء الدين قال هو أيضاً عين هذه العبارة لكن لم يحصل لي من كلام حضرة الخواجة ثقل وكراهة بل ارتفعت الكراهة والثقل اللتان حصلتا قبل، فعرفت مقصوده من هذا الكلام فالتزمت صحبته وملازمته بتوفيق الله سبحانه وتعالى.

نقل عن بعض الأكابر أنه قال: كنت يوماً قاعداً عند مولانا نظام الدين، فمرت جارية مليحة من جواريه من قدامنا لمهمة ما، فخطر في قلبي أنه هل يتصرف حضرة مولانا في هذه الجارية بملك اليمين أم لا؟ فقال في الحال: لا ينبغي أن تلوث قلبك بأمثال هذه الأشياء، فإن أهل الحق يحسون بإذن الله ما يمر على خواطر الناس، والله سبحانه وتعالى يعلم أزيد من أهل الحق بألف مرة، فوالله ما وقع لي

احتلام منذ أربعين سنة بسبب أن جماعة من الروحانيين نزلوا إليّ وقالوا: ينبغي لك رعاية نفسك لئلا يقع عليك الاحتلام فيقع عليك الرجوع والتنزل بسببه. فكنت مراعياً لهذا المعنى من هذه الحيثية مدة أربعين سنة، وما وجب عليّ الغسل منذ سبع عشرة سنة مع أنه كان متأهلاً.

* * *

ذكر نبذة
من لطائف مولانا قدّس سرّه

قال حضرة شيخنا: كانت لطافة مولانا نظام الدين الخاموش عليه الرحمة في غاية حد الكمال، وكان سريع التأثر من أوصاف الناس وأحوالهم وأخلاقهم، وكان يدعي اللالونية لنفسه، والحق أنه كان يقول: هذا نسبة فلان، وذاك صفة فلان.

وقال حضرة شيخنا: قال حضرة مولانا يوماً: إن من طريقة أكابر خواجكان قدّس الله أرواحهم المقررة عندهم، ما إذا حضر عندهم شخص ينظرون ماذا يقع في خاطرهم بعد حضوره، فما لاح في خاطرهم يحكمون بأنه وصف هذا الشخص ونعته ظهر فيهم بطريق الانعكاس، فإن مرايا قلوبهم لما كانت مصفاة عن نقوش الغير والسوى بسبب كمال صفائها لا ينسب إليهم ما ظهر فيها، فإن كان الظاهر فيهم ما يتعلق بالإيمان والإسلام من الصلاة والصوم وتحصيل العلوم الدينية، يقولون: ظهرت نسبة الإسلام ونسبة الديانة ونسبة العلم، وإن ظهرت المحبة والعشق يقولون: ظهرت نسبة الجذبة.

وقال حضرة شيخنا: كان مولانا نظام الدين ضيفنا في منزلنا بتاشكند، وكنت في خدمته متصلاً مغتنماً لقدومه. وبينما أنا قاعد عنده يوماً من الأيام إذ شرع في أن يقول: آه آه ظهرت نسبة الثقل. وسمى شخصاً من أعيان تاشكند وقال: أظن أنه يحضر هنا. فأخذ يقول: سبحان الله ولا حول ولا قوة إلاّ بالله. فحضر الشخص المذكور بعيد زمان يسير، فقال له مولانا: تعال أهلاً وسهلاً، وقد جاءت نسبتك قبل قدومك وأخبرت بمجيئك.

وقال حضرة شيخنا: قد بلغ عمر مولانا تسعين سنة، وكان في آخر حياته إذا حضر عنده من ليس في نسبته أو كان ممن لا يحب طوره وسيرته، كان يقول حين وقعت عينه عليه من بعيد: يحضر عندنا فلان بحمل يكاد يهلكني بثقله، اذهبوا إليه وارجعوه بإقامة عذر ما.

وكنت مرة قاعداً عنده، فجاء شخص من أهل شاش يسمى بالشيخ سراج.

فلما استقر به المجلس ووقع نظر مولانا على رجهه ورأى أثر رياضة في بشرته أعجبه ذلك وأكثر من قول: الحمد لله، الحمد لله، وأظهر البهجة والسرور. وكنت أعرف هذا الشيخ سراجاً، كان رجلاً معجباً بنفسه ومنكراً للأولياء، ولو كانت له رياضة في الظاهر لكنه لم يكن معتقداً في أحد غيره. وكان بعض الناس يقول: أنه يشتم أكابر الدين، فكلما كان مولانا يقول الحمد لله، كنت أقول في نفسي: سيصير حاله معلوماً. فلم يلبث إلا قليلاً إذ قال له مولانا: قم عني، قم عني، وطرده عن المجلس بكمال السرعة وتمام الزجر.

وقال حضرة شيخنا: وقع مرة لمولانا وجع البطن وأظهر التوجع والتألم كثيراً، فصار معلوماً بعد التفحص أن ولده أكل السويق مع تفاح غير ناضج.

وقال حضرة شيخنا: جاءني مرة شخص وقال: إن حضرة مولانا صار مريضاً وكان ضيفنا في منزلنا بتاشكند، فجئت عنده مسرعاً فرأيته قد استولى عليه البرد وأوقدوا النار حوله وألبسوه ألبسة كثيرة وغطوه باللحاف وألقوا فوقه أناساً كثيرة وهو يرتعد ويتمرج كمن عرضته الحمى الباردة لا يسكن ارتعاده بوجه من الوجوه، فصرت مغموماً من مشاهدة هذا الحال غاية الغم. فبينا هو في هذا الحال إذا جاء واحد من أصحابه الذي له رابطة تامة به بعد ساعة من الرحا وقد وقع في النهر وابتلّت أثوابه واستولى عليه البرد وصار يرتعد غاية الارتعاد، فلما رآه حضرة مولانا قال: خلوني واستدفئوه فإن البرد الذي فيّ إنما هو من برده وصفة حاله قد سرت إليّ واستولى عليّ، فأخرجوا أثوابه المبتلة عنه وألبسوه ألبسة يابسة وأدفئوه، فسكن ارتعاد مولانا وعاد حاله وقام من غير تشويش.

وسمعت حضرة شيخنا يقول: كنت يوماً قاعداً عند مولانا نظام الدين وفي يده كتاب، فاستولى عليه بكاء عظيم من غير سبب ظاهر وقال: آه ماذا طرأ عليّ وأظن أني قد وقعت في البداية. ثم قال حضرة شيخنا بعد نقل هذا الكلام: كان هذا الكلام في غاية العجب من مولانا، فإنه كان ينبغي له أن يرى هذه النسبة من أحد المبتدئين الحاضرين في ذلك المجلس ظهرت فيه بطريق الانعكاس.

ونقل مولانا خواجة كلان ابن مولانا سعد الدين الكاشغري قدّس سرّه عن والده الماجد أنه قال: ظهر يوماً في أصبع من أصابع رِجْل مولانا نظام الدين ورم،

فأمر الخادم بتركيب مرهم. فلما أحضر الخادم المرهم ووضعه على ورمه قال بعد مضي سويعة: قد ظهر في دماغي ما يظهر لآكلي البنج وأظن أن في هذا المرهم شيئاً من البنج. فقال الخادم: نعم فيه شيء منه. فقال: هذا الذي أحسه في دماغي، فنزعه ورماه. ونقل عنه كثير من أمثال هذه الحكايات، وذكرها بالتفصيل موجب للتطويل، فاكتفينا في هذه المجموعة بهذا القدر.

* * *

ذكر شيء
من أحواله الباطنية

أورد مولانا العارف الجامي قدّس سرّه في «نفحات الأنس» أنه قال مخدومي حضرة الخواجة عبيد الله أدام الله بقاءه قال مولانا نظام الدين الخاموش: مرض واحد من أكابر سمرقند وكان له في حقنا محبة تامة وإخلاص كامل وإرادة خاصة. وقرب من الموت، فتضرع أولاده ومتعلقاته إليّ كثيراً، فتوجهت إليه فرأيت أنه لا بقاء له ولا حياة إلا في الضمن فأخذته في ضمني فصح وقام. ثم وقعت عليّ بعد زمان تهمة مفضية إلى الإهانة والتذليل وهو قادر على السعي والاجتهاد في دفعها لكنها كانت في حفظ عرضه ومرتبته ولم يسع ولم يجتهد في الذب مخافة من توهم وصول ضرر إليه، فتألم منه خاطري فأخرجته من ضمني فسقط من ساعته ومات على إساءته.

ولا يخفى أن صاحب هذه الواقعة هو شيخ الإسلام الخواجة عصام الدين السمرقندي، والتهمة التي اتهم بها مولانا نظام الدين إنما وصلت إليه من طرف ولده فإنه كان مشهوراً بقراءة الدعوات والعزائم وتسخير الجن، وكان يختلط بهذا السبب مع معظم أهل حرم السلطان فنسبه بعض أرباب الحسد والغرض إلى محبة بعض أهل الحرم واتهموه بها، فبلغ شيء من ذلك سمع السلطان مرزا ألغ بك ففر ولد شيخ الإسلام لإنجاء نفسه، فسرى أثر شآمة هذه السعاية والتهمة إلى حضرة مولانا، فطلبه المرزا ألغ بك بتمام الغضب غيرة منه. فجاء به القاصدون عند السلطان مكشوف الرأس، محمولاً على دابة خلف القاصد إلى باغ ميدان فقعد فيه مراقباً، فمر به السلطان فلم يلتفت إليه ولم يقم له، ولما طلبه السلطان للاستنطاق وشرع في العتاب قال له مولانا: إن جواب هذه الكلمات كلمة واحدة وهي أني أقول أنا مسلم فإن تصدقني فيها وإلا فأمر بما لاح لك وافعل ما شئت. فتأثر السلطان من هذا الكلام وقام وقال: خلوا سبيله.

قال حضرة شيخنا: قد عرض لمرزا ألغ بك بعد صدور هذه الإساءة عنه كثير

من الانكسار والتشويش وقتله في هذه الأثناء ولده عبد اللطيف.

وقال حضرة شيخنا: كان مولانا نظام قوياً غاية القوة، فبلغوه مساوىء شخص فتأثر منه وتغيّر، فخط في الجدار خطاً واحداً، فمات ذلك الشخص من زمانه.

ونقل مولانا محمد الروحي من كبار أصحاب مولانا سعد الدين الكاشغري قدّس سرّه عن شيخه مولانا سعد الدين الكاشغري أنه قال: كنت يوماً قاعداً عند مولانا نظام الدين عليه الرحمة، فشكى إليه مولانا سعد الدين لور، وكان من العلماء المحققين ومن جملة المخلصين لمولانا نظام الدين، واحداً من طلبة العلوم، وقال: إنه عديم الأدب، خليع الحياء، متوغل في غيبتكم وإهانتكم دائماً، وأكثر الشكاية حتى تغيّر قلب مولانا. فاتفق أن ظهر ذلك الخبيث المنكر في هذا الحال فأشار إليه مولانا سعد الدين لور وقال: هو هذا الخبيث المنكر. فمر من أمامهم بلا التفات ولا رعاية أدب، فاستولى الغضب على مولانا وخطّ بخشب صورة قبر على الجدار فسقط ذلك الخبيث في الحال مغشياً عليه ودخل مولانا بيته وأسرع الناس إلى هذا الخبيث فرأوا أنه قد أسرعت روحه إلى مرجعه ومصيره.

وقال حضرة شيخنا: كان مولانا نظام الدين قاعداً يوماً في مقسم الماء للتوضيء، فاتفق أن شخصاً سد طريق ماء شخص من الزارعين فجاء ذلك الشخص مسرعاً ورأى مولانا نظام الدين قاعداً في مقسم الماء فظن أنه هو الذي سد الماء، فجاء بشدة الغضب من وراءه وألقاه في الماء برأسه من غير تأمل وملاحظة. ولما سقط مولانا في الماء ودخل رأسه تحته وقع ذلك الشخص من ساعته ميتاً في ساحل النهر.

وقال له مرة واحد من مخلصيه: إني أريد أن أجعل لك بستاناً، ثم جاء بعد مدة وقال: ألا تنظر إلى بستانك! فجاء به إلى البستان وكان أصله حائطاً واحداً فقسمه وجعل نصفه لأجل مولانا ولم يهتم فيه بكثير الاهتمام، وجعل نصفه الآخر لنفسه وقد اهتم فيه اهتماماً كثيراً وعمّره تعميراً. فلما نظر إليه ورأى نصفه الذي جعله لنفسه أفضل وأزهى مما جعله لأجله ظهر من باطن مولانا صوت بمير، يعني: مت، ولم ينقطع ذلك الصوت أصلاً حتى نظر إلى أنهر كثيرة ثم سقط هذا الشخص مرة واحدة ومات.

وحكى حضرة شيخنا: أنه لما قبل حضرة الخواجة علاء الدين العلامة السيد

الشريف، وصحب السيد مولانا نظام الدين بموجب إشارته، كما مر، عرض بعض أرباب الغرض على حضرة الخواجة علاء الدين: أن لمولانا نظام الدين داعية المشيخة والاستقلال وتكلم في هذا الباب كثيراً بما يوجب الكدورة لخاطر الخواجة وتشوش قلبه وتألمه من حضرة مولانا. ولما تكررت تلك النميمة والسعاية وبلغ تألم خاطره الغاية والنهاية، طلب حضرة مولانا: أن أحضروه. وأراد أن يتصرف فيه بنوع تصرف، وكان حضرة الخواجة وقتئذ في صغانيان ومولانا في سمرقند. ولما بلغه أمر حضرة الخواجة، توجه مولانا من غير توقف ورافقه السيد الشريف. وكان مولانا على حمار والسيد على بغلة، فعرض المرض لبغلة السيد في الطريق بسبب الإكثار من أكل الشعير وبقيت عن المشي وكانت بحيث لا يمكن ركوبها مطلقاً، فتوقفا عن السير فأركب حضرة مولانا السيد الشريف على مركبه وركب بنفسه على بغلة السيد لكونه خفيف الجسم ضعيف البنية نحيف البدن، فمشت البغلة في الحال. فلما شاهد السيد هذا الحال منه أهدى إليه البغلة، فدخل مولانا صغانيان فبلغ بعض أصحاب الغرض حضرة الخواجة هذه الصورة أيضاً وقال: إن هذا دليل آخر على أن مولانا يدَّعي المشيخة والحشمة لنفسه حيث ركب نفسه على البغلة وأركب السيد على الحمار وجعله مريداً لنفسه حتى أنه أهدى إليه بغلته في الطريق فصار ذلك المجموع سبباً لحصول ثقل عظيم في حضرة الخواجة. فلما وصل مولانا مع السيد إلى ملازمة حضرة الخواجة واستقر بهما المجلس الشريف، قال الأصحاب جميعاً: إن هذا يوم يأخذ فيه حضرة الخواجة من مولانا نظام الدين ما أعطاه إياه قبل، وكان هذا اليوم في غاية الحرارة اتفاقاً، وامتدت الصحبة ووقعت الشمس على المجلس فقام الناس كلهم وبقي حضرة الخواجة ومولانا جالسين في الشمس على هيئة المراقبة متقابلين، وامتدت المراقبة إلى نصف النهار. قال حضرة مولانا: وجدت نفسي في تلك المراقبة بمثابة حمامة، ووجدت حضرة الخواجة كالباز الأشهب يطير من ورائي، وكلما فررت منه إلى مكان يقصدني ويجيء من ورائي فاضطربت اضطراباً شديداً والتجأت إلى روحانية حضرة معدن الرسالة ﷺ، فظهرت في ذلك الأثناء الخيمة النبوية على صاحبها أفضل الصلوات وأكمل التحيات، وأخذني في حجر عنايته وكنف حمايته فصرت ممحواً في أنواره التي لا نهاية لها ﷺ. ولما وصل حضرة الخواجة إلى هذا المقام لم يبق له مجال التصرف فيَّ: وصدر الخطاب عن حضرة النبي ﷺ أن نظام الدبن منا لا دخل لأحد فيه. فرفع حضرة الخواجة

رأسه بعد ذلك ودخل إلى منزله الشريف بعد قيامه بكيفية عظيمة وصار مريضاً من الغيرة أياماً، ولم يطلع أحد على سبب مرضه ذلك. ثم توجه بعد ذلك إلى زيارة حضرة الخواجة محمد بن علي الحكيم الترمذي قدّس سرّه وأشار إلى مولانا أن يرافقه. فتوجه مولانا أيضاً بموجب إشارته إلى زيارته ولم يعطه مركباً للركوب مع كونه ضعيفاً كبير السن. فتوجه ماشياً من وراء حضرة الخواجة إلى ترمذ وأوصل نفسه هناك بمحنة كبيرة. ولما وصل حضرة الخواجة إلى مرقد الخواجة محمد بن علي وجده خالياً، فصار معلوماً بالتجسس والتفرس أن روح الخواجة محمد بن علي قد توجه لاستقبال مولانا نظام الدين وخلّى روضته. فقال حضرة الخواجة: إذا كانت عناية الحق سبحانه وتعالى شاملة لحال شخص فماذا أصنع فيه! ثم بذل الالتفات الكثير في حق مولانا بعد ذلك وارتفع الغبار من خاطره الشريف بالكلية.

وحكى حضرة شيخنا: أنه قدم مولانا نظام الدين إلى ولاية شاش ونزل في منزلنا، وكنت في خدمته وملازمته في أكثر الأوقات. فجاء إليه مولانا زاده الفركتي بجلود أولاد الغنم مدبوغة وأهداها إليه، فأخذت في ذمتي أن أجعل له منها فروة. ولما أعطيتها للخياط تبيَّن أنها لا تكفي للجيب فكنت في تداركه، فقال له مولانا زادة على سبيل الملاطفة والمطالبة: أن الخواجة قد أهمل في إتمام الفروة. فبمجرد سماع هذا الكلام ظهر التغير في باطنه وتأثر غاية التأثر وقال: إهمال والإهمال يخرج الشخص عن النسبة. ثم شرع يحكي أنه عرض مرض قوي لخواجة عصام الدين السمرقندي حين إقامتنا فيه حتى أشرف على الموت، فجاء أولاده إليَّ ونضرَّعوا لديَّ والتمسوا مني الحضور عنده، فذهبت فرأيت أنه قد حان أجله، فتوقفت في تحمل مرضه فتجاوز أولاده عن الحد في التضرع والابتهال وبالغوا في الإبرام والإلحاح وجعلوني ملجأ، فأثبَّت نفسي صارفاً خاطري إليه وأخذته في ضمن حياتي وأدخلته في نسبتي فصحَّ وقام. ثم وقعت عليَّ بعد مدة واقعة عظيمة حتى شدوا على يدي في عنقي وجاءوا بي عند المرزا ألغ بك مكشوف الرأس من وسط الأسواق. وكان الخواجة عصام شيخ الإسلام بسمرقند في هذا الوقت، فلم يقدر أن يشفع لي عند المرزا بكلمة ولم يمدني في تلك الشدة والنكبة. فأخذني القهر والغيرة من صيانة نفسه وجاهه وإهماله، فأخرجته من ضمني، فلما خرج من النسبة سقط في الحال ومات بلا إمهال. ثم توجه بعد هذه الحكاية إلى الفقير وقال: يا خواجة كن واقفاً فقد خرجت من النسبة. فبمجرد هذا الكلام أحسست في نفسي ثقلاً عظيماً

بحيث قمت عن مجلسه بأنواع الحيلة. ولما لم أكن مريداً له توجهت إلى مرقد الشيخ خاوند طهور والشيخ عمر الباغستاني قدّس سرّهما وقعدت قريباً من قبرهما. وعرضت حالي عليهما بحسب الباطن، واستمددت منهما، فصار معلوماً لي في ذلك القعود والتوجه أن الثقل الذي رماه مولانا على هذا الفقير وقع على نفسه بمدد روحانية الأكابر بسبب الرابطة الصورية والمعنوية بهم وزال عني ذلك الثقل بالتمام. فقمت بخفة ونشاط وجئت عند مولانا، فرأيته قاعداً على حاله والصحبة عالية جداً مع مولانا زادة الفركتي وجمع من الأصحاب وليس له أثر من التشويش، فقعدت متعجباً ومتحيراً فإنه كان معلوماً لي على التحقيق أن الثقل كان متوجهاً إليه فما السبب في عدم ظهور أثره! وبين أنا في هذا الفكر صاح مولانا على أهل المجلس: أن قوموا عني، قوموا عني، قد وقع عليَّ ثقل وغلبني. فقمنا عن مجلسه ووقع هو في فراش المرض وارتحل من الدنيا في ذلك المرض.

وعين حضرة شيخنا لخدمة مولانا نظام الدين وتعهده في هذا المرض مولانا قاسم عليه الرحمة الذي هو من كبار أصحاب حضرة شيخنا.

قال مولانا قاسم: كان مولانا نظام الدين قدّس سرّه يبكي كثيراً في مرضه ذلك ويقول: قد وجدني الخواجة عبيد الله ضعيفاً وكبير السن فأخذ عني كل ما حصّلته في مدة حياتي وتركني خالياً مفلساً في آخر حياتي. وقد بذل حضرة الخواجة علاء الدين قدّس سرّه كمال الجهد وتمام السعي في أن يتصرف في نسبتي فلم يقدر على ذلك مع أنه كان في نهاية القوة وغاية التصرف.

* **رشحة**: إن لفظ النسبة والحمل قد كثر وقوعهما في عبارات خواجكان قدَّس الله أرواحهم وإشاراتهم، فأحياناً يطلقون لفظ النسبة ويريدون بها الطريقة المخصوصة والكيفية المعهودة فيما بينهم. وأحياناً يريدون بها ملكة نفس شخص وصفتها الغالبة، وأحياناً يطلقون لفظ الحمل والثقل ويريدون به الثقل الذي لا نسبة له حيث يقولون: إن فلاناً جاء بالحمل والثقل، أو: أنه أثقلني، إذا لقوا شخصاً ليس له مناسبة لطريقتهم وكانوا متأثرين من نسبته، ولو كان هو من أهل السلوك والعلم والتقوى فإن نسبة هذه الطائفة العلية فوق جميع النسب، وكل ما يغاير نسبتهم يكون ثقيلاً على خاطرهم. وأحياناً يريدون بالحمل والثقل المرض كما إذا قالوا: إن فلاناً رفع حمل فلان، وأن فلاناً رمى عليه حملاً. فمرادهم من هذا أنه رفع مرضه

أو أنه أوقع عليه المرض ورماه له وأحاله إليه.

قال لي حضرة والدي الماجد: ولدت في ليلة الجمعة الحادية والعشرين من جمادى الأولى سنة سبع وستين وثمانمائة، وقدم في صباح هذه الليلة شيخ معظَّم من أصحاب حضرة الخواجة محمد بارسا قدَّس الله أرواحهم من ما وراء النهر إلى سبزوار بنيَّة سفر الحجاز. وأقام في منزلنا أياماً، وجئت بك عنده غداة يوم قدومه فأخذك من يدي وأذَّن في أذنك اليمنى وأقام في اليسرى وقبَّل جبينك وقال: إن هذا الطفل منا. فعرض لك بعد ثلاثة أيام مرض أم الصبيان، وهو مرض مهلك للأطفال، فخفنا منه كثيراً، فلما اشتد ذلك المرض جئت بك عنده ثانياً وأخبرته بمرضك فقال: لا بأس عليه. وأخذك مني ووضعك في جنبه ومسح بيده من رأسك إلى قدمك وقال: ليطمئن قلوبكم من طرف هذا الطفل فإن معه أموراً. فلم يظهر بعد ذلك أثر من هذا المرض فيك. ولما اطَّلع الطالبون والمستعدون في تلك الديار على حال هذا العزيز بادروا إلى خدمته مغتنمين لصحبته. ولما كان يوم من الأيام قال لهذا الفقير: إني لم أر الشاب الفلاني الذي كان له زيادة التفات لنا منذ أيام وقد كان هذا الغلام من أبناء أكابر هذا البلد ونقبائه، قلت: إنه مبتلى بوجع الأسنان منذ جمعة وقد تورم طرف واحد من وجهه. فقال: إنه غلام مستعد وله قابلية، فقم بنا نعوده. فذهبت معه لعيادة ذلك الغلام فرأينا أن وجهه قد تورم وهو واقع في الفراش وأخذته الحمى من شدة الوجع وهو يتأوه ويئن. فسكت الشيخ زماناً بعد استفسار حاله وسماع مقاله، فصار معلوماً لي أنه قد توجه إلى مرضه، ثم رفع رأسه بعد ساعة وقد انتقل المرض من أسنان الغلام إلى أسنانه وتورم وجهه من الجانب الذي تورم منه وجه الغلام. فقام مع وجع الأسنان وحرارة الحمى ووجع الضرس فخرج الغلام مع تمام الصحة والعافية لتشييعه إلى باب القصر. فكان الشيخ مبتلى بوجع الأسنان مدة نصف شهر.

قال حضرة شيخنا: إن ما نقل عن أكابر خواجكان قدَّس الله أرواحهم من دخولهم تحت أحمال الناس وأثقالهم لا يخلو من أحد الوجهين:

أحدهما: أنه إذا عرض لواحد من أحبابهم أو من الأكابر مرض أو ملالة أو ابتلاء بالمعصية يتوضئون ويصلُّون ويتضرَّعون إلى الله تعالى ويسألونه خلاصه عن هذه الأشياء وطهارته.

وثانيهما: أنهم يفرضون أنفسهم صاحب هذا المرض ومصدر تلك المعصية ويثبتون أنفسهم مكانه ويتضرعون إلى الله بكمال التضرع بعدما يتوضئون ويتوبون إلى الله تعالى بالصدق والإخلاص والإنابة والرجوع إليه تعالى، ويشتغلون بتوجه الخاطر وصرف الهمة إلى أن يتيسر الخلاص والنجاة لصاحب الابتلاء.

وكان حضرة شيخنا يقول: إذا عرض المرض لواحد من الأحباب والأكابر فنعم الكرم المدد إليه بصرف الهمة. والمدد على نوعين:

أحدهما: صرف الهمة بتمامها إلى أن يرتفع عنه المرض.

وثانيهما: أن تفرقة الخاطر تتكثر في أوقات المرض ولا تبقى الجمعية فيها ولا تحصل بسهولة فيمده بالهمة حتى ترتفع عنه تفرقة الخاطر ويكون المقصود الأصلي نصب عينيه.

* * *

* **حضرة مولانا سعد الدين الكاشغري قدّس سرّه**: اشتغل في أوائل حاله بتحصيل العلوم وجمع الكتب المتداولة. وكانت له جمعية صورية، يعني: غناء واستغناء عن الخلق. ولما وقعت له داعية الطريقة التحق بصحبة مولانا نظام الدين بترك الكل والتجريد التام.

قال حضرة خواجة كلان ابن مولانا سعد الدين: قال والدي الماجد: لما كنت ابن سبع سنين تقريباً أخذني والدي في رفاقته في السفر، وكان مشغولاً بالتجارة دائماً وكان يسافر في الأطراف والجوانب لكسب مهم المعاش. وكان في هذا السفر الذي أخذني معه غلام في غاية الجمال وكان مثلي في السن، فوقعت عليَّ علاقة المحبة له وكنت معه ليلة في خان وبت معه في محل واحد. فلما انطفىء السراج ونام الأنام خطر لي أن أمسك يده وأمسحها بعيني فانشقت زاوية من البيت قبل أن أمد إليه يدي ودخل منها رجل مهيب في يده شمع كبير منوَّر ونظر إلى جانبي ومر بي مسرعاً، وانشقت زاوية أخرى من البيت فخرج منها وغاب. فتغيَّر عليَّ الحال وصرت بعد ذلك متنبهاً ولم يبق فيَّ أثر من تلك العلاقة.

وقال خواجة كلان: لما بلغ عمر والدي الماجد اثنتي عشرة سنة أخذه والده معه في السفر. وكان يوماً قاعداً عند باب الخان وكانت بين جماعة من التجار في

قربه محاسبة ومناقشة، فامتدت مجادلتهم إلى وقت الاستواء فغلب البكاء على والدي وبكى من غير اختيار، فتركت تلك الجماعة مجادلتهم وتوجهوا إليه وسألوه عن سبب بكائه، فقال: أنا قاعد في هذا المكان من الصبح إلى هذا الزمان ولم يقع في خاطركم ذكر الله تعالى في تلك المدة، فغلب عليَّ البكاء بلا اختيار ترحُّماً لكم.

ولما بدا له بعد تحصيل العلوم ذوق هذا الطريق التحق بصحبة مولانا نظام الدين وبقي في صحبته وخدمته سنين، ثم استأذنه بعد سنين لسفر الحج وقدم خراسان وتشرّف في هراة بصحبة مشايخ الوقت مثل حضرة السيد قاسم التبريزي قدِّس سرّه، ومولانا أبي يزيد البوراني، والشيخ زين الدين الخافي، والشيخ بهاء الدين عمر قدَّس الله أرواحهم.

وقال في وصف السيد قاسم قدِّس سرّه: إنه عباب معاني العالم، وقد اجتمعت عنده في هذا الزمان جميع حقائق الأولياء.

وقال في حق مولانا أبي يزيد البوراني: إنه ليس له شغل بالله تعالى أصلاً بل شغله كله على الله تعالى. يعني أنه في مقام المحبوبية.

وقال في شأن الشيخ بهاء الدين عمر قدِّس سرّه: إن مرآته قد وقعت في محاذات الذات فلا يشاهد شيئاً غير الذات.

وكان يمدح الشيخ زين الدين الخافي قدِّس سرّه بكمال التشرع.

قال مولانا علاء الدين الذي هو من كبار أصحابه: قال مولانا سعد الدين الكاشغري قدِّس سرّه: لما قدمت هراة في مبادي الحال رأيت ليلة في الواقعة مجمعاً عظيماً وقد حضر فيه جميع أكابر أولياء هراة فأدخلوني في ذلك المجمع وأجلسوني فرق جميع الحاضرين غير الاثنين، أحدهما: الشيخ عبد الله الطاقي، والثاني: خواجة عبد الله الأنصاري. انتهى كلام مولانا علاء الدين.

وسمعت غيره يقول: إنه قال مولانا سعد الدين: فوجدت نفسي أثر الرعونة بعد الانتباه من تلك الواقعة، فأخذت أمشي في نصف الليل إلى الجوانب طلباً لعلاج دفع هذه الرعونة، فلسعت رجلي عقرب بتمام الشدة، فأصبحت بالأنين والتأوه، فزالت عني تلك الرعونة بالتمام بسبب الوجع والمحنة.

وأورد مولانا الجامي قدِّس سرّه السامي في «نفحات الأنس»: قال مولانا سعد

الدين: قويت فيَّ داعية زيارة الحرمين الشريفين بعدما تشرّفت بصحبة مولانا نظام الدين عليه الرحمة سنين، فاستأذنته فقال: كل ما نظرت إلى القافلة ما رأيتك فيها في هذه السنة، ولقد كنت رأيت قبل هذا واقعات متعددة ووقعت منها في التوهم. وكان مولانا نظام الدين يقول: لا تخف كثيراً فإذا سافرت ووصلت إلى هراة أعرض هذه الواقعات على الشيخ زين الدين، فإنه رجل متشرع وثابت على جادة السنَّة. وكان مراده منه الشيخ زين الدين الخافي، وكان في هذا الوقت متعيناً لمقام الإرشاد في خراسان. ولما وصلت إلى خراسان وقع التوقف عن السفر كما قال مولانا نظام الدين ثم تيسر بعد تلك السنة بسنين. ولما التحقت بصحبة الشيخ زين الدين عرضت عليه تلك الواقعات، فقال: جدد البيعة لي وادخل في قيد إرادتي. قلت: إن الشيخ الذي أخذت منه الطريقة في قيد الحياة وأنت أمين، فإن كنت تعرف أنه جائز في طريقة هذه الطائفة أقبل ذلك وأفعل بما أشرت به هنالك. فقال: استخر! قلت: لا اعتماد لي على استخارتي بل استخر أنت. فقال: استخر أنت وأنا أيضاً أستخير. فلما دخلنا الليلة استخرت فرأيت أن طبقة خواجكان قد اجتمعوا في مقبرة هراة التي كان الشيخ في هذا الوقت هناك، وشرعوا في قلع أشجارها وهدم جدرانها وقد ظهرت فيهم آثار القهر والغضب فتيّقنت أن هذا إشارة إلى المنع من الدخول في طريقة أخرى فمددت نفسي ونمت بالاستراحة وفراغ الخاطر. ولما حضرت مجلسه في الصبح قال لي قبل حكاية الراحة: إن الطريق واحد ومرجع الكل إلى واحد، فكن مشغولاً بالطريقة التي أخذتها قبل، فإن وقع عليك إشكال أو واقعة فاعرضه على مددك بقدر ما استطعت.

وقد اكتفى في «النفحات» بهذا القدر، ولم يذكر استخارة الشيخ. ولكني سمعت بعض الأكابر يقول: إن الشيخ توجه في تلك الليلة بناء على وعده بالاستخارة فرأى شجرة في غاية العظمة ولها أغصان كثيرة، فأراد أن يقلع عنها غصناً كبيراً واجتهد وسعى سعياً بليغاً، لكنه لم يتيسر له ذلك. ولما حضر مولانا مجلسه في الصبح قال له ما قال.

قال مولانا محمد الروجي: قال مولانا سعد الدين: لما طلبت من مولانا نظام الدين إجازة سفر الحج قال: رأيت قافلة الحجاج في البادية ولم تكن أنت فيها. فسكت في هذه النوبة، ثم استأذنته بعد أيام فقال: اذهب ولكن اقبل مني وصية: لا تفعل مثل ما فعلت وندمت عليه، واحمل تلك الخجالة إلى يوم القيامة إذا ظهر فيك

أثر القهر الإلٰهي لا تستعمل القوة القهرية كما فعلته أنا في حق الخواجة عصام الدين وسائر المنكرين والمعاندين كما ذكرت قصصهم عند بيان قوة مولانا نظام الدين.
قال مولانا سعد الدين: فقبلت منه تلك الوصية وانتفعت بها، فإنه قد ظهرت فيَّ بعد مدة كيفية عجيبة وصرت بحيث إذا وقعت على عين أحد كان يصير مدهوشاً، فإن قرب مني كان يصير هالكاً. فاختفيت في مبادي ظهور هذه الكيفية في زاوية البيت وما خرجت منها إلى أربعة عشر يوماً، فإذا ظهر شخص من بعيد وأراد الصحبة معي كنت أشير إليه بيدي وأمنعه من صحبتي ولم أتركه يقرب مني إلى أن انجلت عني تلك الكيفية.

* * *

ذكر
فوائد أنفاسه النفيسة قدّس سرّه

لا يخفى أن واحداً من أكابر أصحابه جمع بعض كلماته القدسيّة، ولنورد طرفاً منها في ضمن ست عشرة رشحة:

* رشحة: قال قدّس سرّه: إن الشغل بالله تعالى أسهل وأيسر من كل شيء يفرضونه، فإن الأشياء المطلوبة كلها إنما يطلبها من يطلبها أولاً ثم يجدها بعد الطلب بخلاف الحق سبحانه وتعالى. فإنه تعالى يجدونه أولاً ثم يطلبونه، فإنك إن لم تجده أولاً كيف تميل إليه. [شعر]

إن أنت لم تر مِن مُناك جماله   لا ينتهي فيك الغرام كماله

ومعنى هذا الكلام: أن الله سبحانه وتعالى يتجلى أولاً لباطن العبد بصفة الإرادة، ويقال لهذا التجلي: التجلي الإرادي. فيكون العبد بعد وجدانه لهذا التجلي مريداً للحق تعالى وطالباً له فكان الوجدان مقدماً على الطلب في هذه الصورة.

* رشحة: قال: من أحب شخصاً يريد أن يحبه الناس كلهم وإن كان مقتضى غيرة المحبة إخفاء المحبوب لكنه يجتهد من غاية محبته إليه في أن لا يكون له أحد منكر ولا يعرف أنه كيف يحتال وكيف يدبر وكيف يفكر لأن يكون الكل معتقداً له وطالباً إياه، فيصفه بكل وصف ممكن وبكل صفة متيسرة رجاء طلبهم إياه.

* رشحة: قال: إذا تغيّرت شعرة من بدنك وتأثرت بسبب حال من الأحوال فينبغي لك أن تتبع أثرها. يعني: ينبغي أن يعتني بشأن الحال وإن كان حقيراً، وأن يستكثره وإن كان قليلاً في الظاهر.

* رشحة: قال: قال الخواجة محمد بارسا قدّس سرّه: إن الحجاب بين الله تعالى وبين العبد هو انتقاش الصور الكونية في القلب لا غير. ويزيد هذا الانتقاش بسبب الصحبة مع أرباب التفرقة والتفرجات المتشتتة ورؤية الألوان والأشكال المتنوعة، ويستقر في القلب فينبغي نفيه بمحنة ومشقة شديدة. وأيضاً تزيد تلك النقوش من مطالعة الكتب والتكلم بكلام رسمي وكلمات شتى وسماعها، وتتحرك

هذه النقوش وتتموج بمشاهدة الصور الجميلة واستماع الغناء والنغمات المطربة. وهذه المذكورات كلها موجبات للبعد والغفلة عن الحق سبحانه فنفيها واجب على الطالب، فينبغي له أن يجتنب عن كل ما يزيد الخيالات الفارغة ليتوجه إلى الله تعالى بقلب صادق. وقد جرت سنَّة الله تعالى بأن لا يحصل ذلك المعنى من غير محنة ومشقة وترك لذات جسمانية وشهوات حسية، والراحة المطلوبة إنما هي في دار الآخرة، فإن التزمت مشقة يسيرة في أيام معدودة في الدنيا تسترح في الآخرة أبد الآباد، فإنه لا قدر لهذا العالم بالنسبة إلى عالم الآخرة وكأنه بزر خشخاش مرمى في صحراء لا نهاية لها.

* رشحة: كان واحد من أصحابه يكتب رسائل في فصل الربيع، وكان يخطر في باله أن يتنزَّه ويتفرَّج بعد إتمامها. فجاء في ذلك الأثناء صاحبه فأنشده هذين البيتين: [شعر]

بادوست باكلذ أرشدم رهكذري بركل نظري فكندم إز بيخبري
دلدار بأطعنه كفت شرمت بادار رخسار من إينجاو تودر كل نكري

ترجمة:

دخلت بمن أهوى ببستان عابراً فكنت من الغفلات للورد ناظرا
فقالت: لك الويلات يا مدَّعي الهوى أترمق ورداً تاركاً خدي زاهرا

ثم قال: إذا ذهبت للتفرج فإن كنت محتظياً به فأنت غافل عن الحق سبحانه، وإن لم تكن محتظياً به فما الفائدة فيه. وتكتب الرسائل فإن أردت العمل بما فيها فتكفيك كلمة وهي: كن مشغولاً بالله. وإن لم ترد العمل بما فيها فما الفائدة في تحريرها. ثم قال: يك ني هزار آساني، يعني: أن في كلمة لا وحدها ألف سهولة. وهذا الكلام جار في جميع المقام ففي كل شيء غير الحق سبحانه قلت: لا، فقد تخلصت.

* رشحة: قال: قال مولانا نظام الدين: السكوت أنفع من الكلام، فإنه يحصل من كل كلام حديث النفس. والفيض الإلهي غير منقطع أبداً، والمانع من إحساسه ووجدانه إنما هو حديث النفس. فينبغي لك أن تحفظ قلبك في صحبة الأولياء عن حديث النفس فإن لهم أذناً يسمعون هذا الحديث بتلك الأذن فتكون مشوشاً لوقتهم. ألا ترى أن المشتغل بمطالعة الكتب يتشوَّش وقته بسماع كلام من

الخارج، بل وقوع ذبابة في الورق، فالجماعة الذين توجههم إلى الله وشغلهم بالله دائماً يكون حديث النفس مشوّشاً لحالهم البتة ولا يتركهم للاشتغال بالله، فمن كان عنده طفل يبكي ويشوش وقته يأمر أمه بإرضاعه حتى يسكت. فينبغي للطالب أيضاً أن يضع ثدي الذكر على فم القلب ليمصّ منه اللبن المعنوي فيتخلص من الخيالات الفارغة وحديث النفس بسبب اشتغاله بالذكر. وقد يكون الذكر أيضاً حديث النفس بالنسبة إلى بعض آخر.

* **رشحة**: قال يوماً مخاطباً للأصحاب: أيها الأحباب اعلموا أن الحق سبحانه مع كونه في غاية العظمة والكبرياء، في غاية القرب منكم، فكونوا في هذا الاعتقاد. وإن لم يكن هذا المعنى معلوماً لكم الآن لكن ينبغي أن تكونوا مع الأدب دائماً في الخلاء والملاء، فإذا كان أحدكم في بيته وحده لا يمدن رجليه واقعدوا في الخلوة مصاحبين للحياء، ناكسين رؤوسكم، وغامضين عيونكم، وكونوا مع الله بالصدق في السر والعلانية، والظاهر والباطن. فإن قمتم بحفظ هذه الآداب يكون لكم ذلك المعنى معلوماً بالتدريج. وينبغي تحلية أنفسكم بحلى الآداب الظاهرية والباطنية.

فالآداب الظاهرية: القيام بأوامر الشرع ونواهيه والمداومة على الوضوء والاستغفار، وتقليل الكلام، والاحتياط في جميع الأمور، وتتبع آثار السلف. والآداب الباطنية: عسيرة جداً، وأهم الآداب حفظ القلب عن خطور الأغيار فيه، خيراً كان أو شراً، فإنهما مساويان في كونهما حجاباً عن الحق.

* **رشحة**: قال: إن الله سبحانه قد علّم رسوله ﷺ طريقة المراقبة حيث قال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: الآية ٦١]. وأصل المسألة: هو أن الله سبحانه قال ذلك تعليماً لنبيه ﷺ.

فخلاصة الأمر: أن تكونوا مشتغلين بالله فإنه قريب إلى عبده من كل شيء، بل هو أقرب من أن نقول أقرب، فإن حال القُرب لا تسعه العبارة. فمتى عبروا عن القرب بالعبارة ينقلب القُرب بُعداً. والقُرب ليس هو قولك: قد تقرَّبت إليك، حتى تعبِّر عنه بعبارة، بل القُرب كونك ممحواً وفانياً فيه، وذهولك عن نفسك وعن غيرك فيه، وأن لا يكون لك علم بأنك أين كنت ومن أين جئت، وأن لا تقدر أن تعبِّر عنه

بعبارة مطلقاً. قال شخص عند واحد من الأكابر: إن الشيخ الفلان يتكلم في القُرب. فقال: إذا وصلت إليه قل له: إن قرب القُرب في المحل الذي نحن فيه بُعد البُعد، فإن القُرب عبارة عن عدم كونك، فإذا كنت معدوماً فيه كيف تسعه العبارة. [شعر]

ليس قرب بالهبوط والصعود　　إنما القرب انطلاق عن وجود

* رشحة: قال: إن في كل نفس خزينة، فينبغي أن يكون واقفاً. فإن الله حاضر وناظر، وينبغي الاستحياء من الله تعالى، وأن لا يغفل عنه فإن الله سبحانه يقول تشنيعاً للغافلين وتوبيخاً لهم: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: الآية ٤]، يعني: ليس في جوف بني آدم قلبان حتى يجعل أحدهما مشغولاً بالدنيا والثاني بالحق سبحانه، بل فيه قلب واحد فإن جعله مشغولاً بالدنيا يبقى بلا حظ من الله تعالى، وإن كان متوجهاً به إلى الله تنفتح من قلبه كوة إلى الله فتشرق منها إليه شمس الفيض الإلٰهي. فكما أن الشمس إذا طلعت تكون كل ذرة من ذرات العالم محظوظة من نورها من المشرق إلى المغرب وينبسط نورها على الكل، فإن كان بيت لا روزنة له ولا كوة يبقى محروماً من ذلك النور البتة. كذلك القلب إن كان حاضراً فحضوره بمثابة الكوة يشرق إليه منها نور فيض الوجود، وإن كان غافلاً يفوت عنه الاحتظاظ بذلك النور كالبيت الذي لا كوة فيه. [شعر]

ولا نقص في فيض الإلٰه ولا بخل　　ولكنما النقصان في نفس قابل

* رشحة: قال: إن الطاعة سبب للوصول إلى الجنة، والأدب في الطاعة سبب لقُرب الحق. وذهبت كملاء المشائخ قدَّس الله أرواحهم إلى أن اللازم للمريد في الابتداء تصفية الباطن، فيشتغل بالتصفية والتزكية حتى يحصل دوام المراقبة بتمام الحضور وإلا يزيد دنس القلب ومرضه بكل عمل صالح يؤديه على وجه الكمال. [مصراع]

* هرجه كيرد علتي علت شود *

ولا ينبغي للسالك أن يكون أدون من تلامذة النسَّاج، فإن أحدهم يبقى مدة في تعلُّم وصل الخيوط وترتيبها وأين له الاشتغال بأمور أخرى، فكذلك ينبغي للطالب أن يسعى بالجد والجهد حتى يكون أستاذاً في نفي الخواطر وماهراً في كيفية نفيه. ولا ينبغي له في الابتداء الاشتغال بشغل آخر غير نفي الخواطر. والذين يطالعون

الرسائل ويجمعون منها الكلام فلا نفع لهم منها أصلاً، بل أمثال ذلك كلها تعطيل وتضييع للأوقات، فإن طريق الحق سبحانه وأمره سلوك وعمل لا سماع وجدل وتطويل الأمل. فمن كان في بغداد عند السلطان مثلاً وهو قادر أن يجالسه دائماً ومع ذلك يكون مشغولاً بمطالعة مكتوب كتبه واحد من كتّابه ورعاياه وأرسله إلى الشام ومحتظياً به، فهو في غاية الجهل والغواية ونهاية الغفلة والعماية، فكيف يبعد إنسان عن حضور السلطان باختياره ويسافر من بغداد إلى الشام لمطالعة مكتوب كتابه.

* رشحة: قال: من كان في محل واحد فهو في كل محل، ومن كان في كل محل فليس هو في مجل أصلاً.

* رشحة: قال: إن الاحتياط والاحتماء أفضل من الدواء وأنفع، وذلك أنَّ من أكل فوق الشبع يعرض له أنواع المرض، فيشرب دواء لدفعه حتى يبرأ، فإذا برىء يشرع ثانياً في الأكل فوق الشبع فيمرض، فيشرب الدواء وهكذا إلى مرات، فيعرض له من تلك الدواء ضرر كلي في الآخرة. فكذلك صاحب ذنب يذنب ويتوب، ثم يذنب ويتوب، ثم وثم، فإن الإنابة التي لا تخلص صاحبها عن الذنوب بتمامها ولم تؤثر فيه أثراً عظيماً مثل ذنب آخر، فلذلك التزم أهل الله لأنفسهم احتياطاً كلياً واشتغلوا بالحق سبحانه بترك الكل خوفاً من الموت في مرض الغفلة.

* رشحة: قال: قال الجنيد: إن أستاذي في المراقبة هرة، فإني رأيت مرة هرة قاعدة على فم جحر فأرة متوجهة إليه بكليتها بحيث لا تتحرك منها شعرة، فنظرت إليها متعجباً، فبينما أنا في التعجب نوديت في سري أن: يا قليل الهمَّة إني لست بأقل من الفأرة في كوني مقصوداً لك، فلا تكن أنت أدون من الهرة في طلبي. فشرعت في المراقبة من ذلك اليوم. [شعر]

أعملت ما قال الحبيب تلطفاً ... إياك والنظرات للأغيار

* رشحة: قال: داوموا على ذكر الله تعالى حتى تكونوا غائبين عن أنفسكم، فإن الحق سبحانه ألطف من كل شيء. فكل من كانت لطافته أزيد يكون شغله بالله أزيد، فالنسَّاج والإسكاف ألطفان من كنَّاس الحمام وحطابه، فإنهما لا يقدران على شغلهما. والبزاز ألطف منهما، فإنه لا يتحمل صنعتهما. والعلماء ألطف من البزَّاز فإنهم لا يقدرون على البزازية والجماعة الذين يشتغلون بالله لطافتهم أشد وأكثر من

الكل، فإن سرّهم وقلبهم لا يتحملان الاشتغال لغير الله تعالى فإذا ركعوا لا تريد نفوسهم أن يرفعوا منه رؤسهم، وإذا سجدوا لا تطيب قلوبهم أن يرفعوا منه قوالبهم. فهذه الطائفة ألطف من الكل فإنهم لا يتحملون الاشتغال بغير الحق لحظة، ويغبط الأنبياء أحوالهم لا من جهة أن درجاتهم وكمالاتهم فوق درجات الأنبياء وكمالاتهم، بل من جهة شرف حالهم وهو كونهم في قرب الحق دائماً وقد أخفاهم الله سبحانه عن نظر الخلق وأشغلهم بنفسه على الدوام. فمثال نبي مثل مقرب سلطان فوّض إليه جميع ممالكه، فهو يتصرف فيه بأمر السلطان. ومقال ولي كصاحب طهارة السلطان، يهيىء له الماء وسائر أسباب وضوئه دائماً. ولا جرم أن التصرف في الممالك أقرب إلى السلطان من صاحب الطهارة وأفضل منه رتبة وأعلى درجة، فلو لم تكن قابليته أزيد البتة لما يكون متصرفاً في الممالك ولكن إن لصاحب الطهارة شرف دوام قرب السلطان وحضوره والالتذاذ بخدمته الخاصة، والالتذاذ بعدم كونه مشغولاً بغيره. وإلا فأين مرتبة المتصرف في الممالك من مرتبة صاحب الطهارة والمتصرف إنما يغبطه ويحسده من جهة قربه الصوري للسلطان ودوام حضوره عنده لا من جهة القرب المعنوي ورفعة الدرجة.

• رشحة: قال في معنى بيت مولانا الرومي هذا: [شعر]

أي ديد عجايبها بنكر عجب أينست ابن معشوق بر عاشق بي وي ني وباري ني

لو أن أحداً طار ثلاثة آلاف سنة لا يعرف معنى هذا البيت كما ينبغي، فكيف يمكن إدراك قرب الحق سبحانه. ولكن إذا سعى العبد واشتغل بالجد والجهد يكرمه الله سبحانه بإدراك ويقين، فيدرك ذلك المعنى أن الحق سبحانه لم يكن مفارقه ولكنه كان غافلاً عن ذلك، ويحصل لأهل الله يقين خال عن جميع الظنون. والتردد في كون وجود الحق سبحانه وتعالى كما أنه لا شك لأحد في كون وجود نفسه فإنه وإن لبس ألبسة على بدنه وغمض عينيه لا يفقد وجود نفسه ولا يذهل عنه ولا يشك فيه.

• رشحة: قال: إذا تجرَّد الذكر عن لباس الحرف والصوت، عربياً كان أو فارسياً أو غيره، عن جميع الجهات، يبلغ في هذا الوقت مقام الشجرية ويقدر الطالب حينئذ أن يأكل منها ثمرة أي وقت شاء. قال الله تعالى: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٥] الآية. ومثل الذكر كمثل حبة تنبت منها شجرة المعرفة كما قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٤] الآية.

وكما أن الشجرة تطلع من الحبة كذلك التوحيد الصرف المجرد عن لباس الحرف والصوت العربي والفارسي والشكل واللون والكيف والكم وعن جميع الجهات، يظهر من مضمون الكلمة.

* * *

من خوارقه للعادات قدّس سرّه

قال مولانا علاء الدين الذي هو من أجلّة أصحابه، وسيجيء ذكره: كنت مرة مريضاً، فجاء مولانا سعد الدين لعيادتي وجلس على طرف صفة مراقباً، وكان في سقف تلك الصفة روزنة حذاء رأسه، فنشرت فأرة من تلك الروزنة مقداراً من التراب فسقط على رقبته وجيبه فرفع رأسه إلى جهة الفوق ثم راقب ثانياً فنشرت الفأرة مقداراً من التراب أيضاً، فنظر إليه كالأول حتى وقعت تلك الصورة ثلاث مرات، فنظر إليها في الرابعة وقال مغضباً: يا فئيرة، يا فويسقة. ثم قام وخرج وكنت قاعداً على فراشي وصرت خجلاً ومنفعلاً من هذه الصورة، فرأيت بعد لحظة هرة ظهرت من تلك الروزنة وقعدت في الكمين فنشرت الفأرة قدراً من التراب فوثبت الهرة وجرت الفأرة بأظفارها من جحرها وقتلتها وأكلت قدراً منها وتركت الباقية. فأحصيت في هذا اليوم ما قتلت الهرة من الفأرة في تلك الروزنة فبلغت ثمان عشرة فأرة وأكلت من كل واحدة منها قليلاً وتركت الباقي ثم غابت.

وقال مولانا بير علي أخو مولانا علاء الدين المذكور، وكان من مخلصي مولانا سعد الدين قدّس سرّه: كنت أبيع أثواباً في دكان، فجاء يوماً محصّل الأمير بمنشور وشرع في الغلظة والسفاهة ولم تكن لي في هذا الوقت قدرة على أداء ما في منشوره، فصرت متحيّراً وعاجزاً، فظهر مولانا مقارناً لهذا الحال، ولما رأى منه هذا التشديد وضع يده المباركة على كتفه وقال: يا أخي احفظ لسانك. ولما وصلت يده إلى كتفه صار مدهوشاً وسقط مغشياً عليه في وسط السوق وبقي مدة على هذا الحال، وجلس مولانا على باب دكاني. فلما أفاق قام بتمام التواضع وألقى نفسه على قَدَمِ مولانا ومسح وجهه عليها وتاب من شغله الذي كان فيه وأقبل على الطريقة.

وحكى هو أيضاً: أن والدة أولادي كانت حاملاً ولما مر من حملها أربعة أشهر قصدت إسقاط الجنين، فانعكس الجنين وتغيّر عليها الحال وصارت قريبة من

الموت. فجئت عند مولانا بتمام الاضطراب، فصادف المجيء مجمعاً عظيماً مملوءاً من العلماء والصلحاء عنده فلم يمكن الوصول إليه والتكلم معه، فكنت متحيراً ولم أدر ماذا أفعل! فلما وقع نظره عليّ قام في الحال وراح إلى طرف منزله وتبعه جماعة من الأصحاب، فدعاني نحوه وقال: قل لهذه الظالمة إنك تحركت بمثل تلك الحركة أولاً في تاريخ كذا فعفوت عنك والآن أيضاً عفوت فإن فعلت مثلها مرة أخرى تربن جزاءك. فرجعت مسرعاً بطيب القلب فرأيتها قد صلح حالها ولم يبق أثر من ذلك المرض. فقصصت عليها القصة، فبكت وقالت: صدق، قد صدقت لهذا الأمر في ذلك التاريخ ونجوت من الموت. ثم عاهدت الله سبحانه أن لا تقصد بمثل هذا القصد.

قال مولانا علاء الدين: جاء يوماً قاصد من ولاية قوهستان حين كوني في ملازمة مولانا وأعطاني مكتوباً من والديَّ قد طلباني فيه بمبالغة تامة وتأكيد بليغ للتزويج فصرت ملولاً ومحزوناً من ذلك خوفاً من الحرمان من شرف ملازمته، وقلت في نفسي: لعل حضرة مولانا لا يتركني أن أذهب إلى قوهستان بل يحفظني عنده أن أطلع على مضمون المكتوب. فلما حضرت عنده قال لي قبل عرض مضمون المكتوب: أنه لما طلبوك بالمبالغة ينبغي لك أن ترجع فصرت متحيراً ولم أر بدّاً من الذهاب. ولما وصلت إلى ملازمة الوالدين زوجوني في تلك الجمعة فبقيت هناك سبع سنين وكنت في تلك المدة متوجهاً إليه دائماً ومستفيضاً من باطنه الشريف. وكان في تلك الديار عالم ظالم قد تعدى على كثير من الناس في توجيه الأموال الميرية والخراجات وجاوز الحد في الظلم والجبر، وكنت عاجزاً عن دفع ظلمه ومتحيّراً في أمره. فكنت أخيراً متوجهاً إلى مولانا بحسب الباطن ومستغيثاً به، فرأيته ليلة في المنام وفي يده قوس مع سهمه، فظهر ذلك العالم من مقابله بغتة، فوضع مولانا السهم في القوس ورماه إلى طرف الظالم. فلما استيقظت قلت في نفسي: بأي شيء يبتلى هذا الظالم! فجئت عنده غدوة وقلت: تهيّأ فقد أقبل عليك بلاء عظيم. فاستهزأ بي وضحك وتكلم بما لا يليق. فعرض له الفالج بعد ثلاثة أيام فلم يقم ثانياً.

وقال أيضاً: كان لي وقت إقامتي في ولاية قوهستان مقدار من دود القز، فصعدت يوماً شجرة كبيرة لقطع الأغصان وكنت في ذلك الأثناء مشغولاً بحفظ نسبة الرابطة، فانكسر الغصن الذي أنا عليه فسقطت من فوق الشجرة فرأيت حضرة مولانا

قد ظهر وأمسكني في الهواء قبل وصولي إلى الأرض ووضعني في الأرض سالماً بحيث لم يتضرر عضو من أعضائي أصلاً، فحفظت هذا المعنى. ولما تشرّفت ملازمته ثانياً، أردت أن أقص عليه قصة الظالم وسقوطي من الشجرة فقال قبل شروعي في الكلام: إن سقوط الظالم ليس كسقوط المظلوم.

وقال أيضاً: لما علّمني حضرة مولانا الذكر القلبي في مبادي الأحوال بهراة، قال: قل عندي مقداراً من ذكر القلب. فابتدأت بالذكر وكنت مشغولاً به من القلب فقال: لا تفعل هكذا، ولا تحرك قلبك في الذكر بل إحمل مفهوم الذكر على القلب واجره فيه إلى أن يتأثر القلب عن مفهوم الذكر، فيتحرك بنفسه فسلم الأمر إليه في هذا الوقت ولم تكن لي وقت إخباره عن حركة القلب عقيدة وجود شخص في جميع أطراف الأرض يخبره عن باطن الناس وأحوال قلب الخلق فوقعت من ذلك في الحيرة والتعجب وعجزت عن الذكر. فقال مقارناً لهذا الحال: على ما تتحيَّرا والله إن لي مريداً في بلخ بقالاً وهو الآن قائم في ما وراء دكة دكانه. واعلم ما في قلبه من مكاني هذا أزيد منه. فبعد اطلاعي على هذا المعنى ظهرت في كيفية عظيمة فأخذت ذيله أخذاً قوياً، قال مولانا محمد رحمه الله أخو مولانا عبد الرحمٰن الجامي الأصغر: كنت في مبادي الأحوال مشغولاً بأعمال الإكسير ومشغوفاً به وصرفت لأجله أوقاتاً كثيرة وحصلت منه تجارب يقينية وشاهدت فيه علامات كثيرة قريبة من الفعل ولكن ما ظهر لي ما هو الحق فكنت متردد الخاطر بين الأخذ والترك وكنت من تلك الحيثية مكسور البال متفرّق الأحوال، فجئت يوماً في أثناء التفرقة سوق الخوش ولما وصلت إلى قرب وسط السوق ودخلت فيما بين ازدحام الناس وكثرتهم، جاء شخص من ورائي ووضع يده على عنقي فنظرت إليه فإذا هو مولانا سعد الدين فوقفت متواضعاً له ومتضرعاً بين يديه، فقال: يا أخي، وأنشد هذين البيتين: [شعر]

أخي عندي من الكيمياء نوع جليل الشأن عن كل الصناعة
فالزم للقناعة وادخرها فلا كيمياء أفضل من قناعة

ثم مضى لسبيله فزالت عن قلبي داعية هذا الشغل بالتمام وتخلص الخاطر بكليته عن تلك الدغدغة والمرام، وتيقنت أن هذا كان تصرُّفاً منه صدر عنه في حق هذا الفقير لمحض شفقته عليَّ.

قال مولانا علاء الدين: لما اخترت ملازمة مولانا في أوائل الحال أشار إليَّ بترك الاشتغال بالعلوم الرسمية، فتركت بعض الدرس الذي يتعلق بالعربية والمنطق والكلام بالتمام، لكن كنت أقرأ كتاباً من فن الحديث عند الأمير السيد أصيل الدين المحدث وقد قرب إلى الإتمام، فقلت في نفسي: إن قراءة الحديث لا تكون منافية للطريقة، فأتم هذا الكتاب. ولما كان غداة يوم السبت أخذت جزءاً من الحديث وتوجهت من داخل البلد إلى محلة چل دختران وكان منزل السيد هناك. ولما وضعت القدم خارج باب الملك ظهر في رجلي قيد ثقيل من حديد، فكنت بحيث أرفع رجلي بالعسرة والمشقة فصرت من ذلك متوحشاً ومتحيّراً وطفقت أنظر إلى الناس لأعلم أنهم ما يقولون في حق، فرأيتهم غير واقفين على هذا المعنى، فعبرت من الجسر بتمام المحنة، فرأيت في ذلك الأثناء أن عمامتي قد طارت من رأسي وبقيت مكشوف الرأس، فزاد تحيري وتوحشي. ولما مشيت خطوات طارت جبتي عن بدني، وهكذا كان يطير عني في كل خطوتين أو خطوات شيء من أثوابي حتى بقيت مع السروال فقط، وكان القيد الثقيل على رجلي وقد كنت وصلت إلى قرب سويقة فقلت في نفسي: إن مشيت خطوة يطير السروال أيضاً فأفتضح بين الناس. فرجعت من هذا المكان فوراً فرأيت القميص قد ظهر في بدني، وكلما وصلت إلى محل ضاع عني فيه شيء كان يظهر ذلك الشيء في بدني. ولما وضعت على البلد قدمي سقط القيد الثقيل عني وغاب فبادرت في الفور إلى ملازمته بقلب نفور عن المطالعة فرأيته قاعداً في المسجد الجامع مراقباً، فجئت عنده وقعدت، فرفع رأسه المبارك ونظر إلى جانبي متبسماً فصار معلوماً لي من تبسمه أن هذا كان تصرفاً منه.

وقال مولانا المذكور أيضاً: طرأ عليَّ يوماً قبض عظيم وغلبني حزن قوي فجئت إلى باب قصر مولانا مضطراً، وتوجهت إليه والتجأت بالتضرع والانكسار لديه وقلت: خلصني من هذا الألم والهم والغم بالعناية والكرامة. فخرج من بيته في الحال وآثار البسط ظاهرة فيه وتوجه نحوي متبسماً وأخذ جيبي بيده اليمنى ووضع رأس مسبحته على عاتقي، فحصل في الحال سرور في باطني ونور وحضور في قلبي، وانشراح في صدري حتى كان قلبي في نهاية الفرح والسرور والنضرة والنور مثل الزهر الباسم إلى أربعة أشهر متصلاً، وكانت آثار ذلك السرور ظاهرة في بشرتي بحيث لم أكن قادراً على ضم شفتي من الضحك.

وقال مولانا المذكور أيضاً: اتفق لي ليلة مجلس رقص وسماع مع جماعة من أهل الرسوم والعادة، فلما جئت إلى ملازمته بعد الصبح اتفق أنه كانت جماعة من الأكابر وأعيان أهل البلد في مجلسه فنظر إلى جانبي بالغضب فأحسست في نفسي ثقلاً عظيماً حتى حسبت أن جبلاً عظيماً قد وقع عليّ وصرت منحنياً بحيث كاد أن يصل أنفي إلى الأرض وضاق نفسي وصار يخرج متعاقباً وسال العرق من جبيني، فخفت من انقطاع رابطة الحياة. فلما رأى مولانا شهاب الدين أحمد البرجندي عليه الرحمة الذي هو من العلماء المتبحرين ومن كبار أصحاب مولانا، وسيجيء ذكره، عجزي واضطرابي، تضرع إلى مولانا شفاعة لي فتوجه مولانا بعد ساعة إلى طرف مولانا شهاب الدين أحمد وقال: إن طباخاً يطهر الكرش مع كونه في غاية النجاسة وينظفه بحيث يرغب فيه الطبع السليم ولست بأدون من هذا الطباخ في تطهير بعض النفوس وتزكيتها. ثم وضع كفه اليمنى على كفه اليسرى ومسح بعضها على بعض فزال ذلك الحمل عن ظهري وزال الثقل عني في الحال.

كان أستاذي الخواجة حافظ غياث الدين المحدِّث، رحمه الله تعالى، من جملة علماء الزمان وأعيان هراة، وقد وصل إلى صحبة السيد قاسم التبريزي قدِّس سرّه وصحب مدة الشيخ بهاء الدين عمر. ثم بعده ولده الأمجد الشيخ نور الدين محمداً قدِّس سرّهما وكان له قرب تام من السلطان مرزا أبي سعيد حتى كان في بعض الأحيان يقعد معه على سرير سلطنته ويقرأ له المثنوي، فقال هو يوماً: حضرت مرة صحبة مولانا سعد الدين بالمسجد الجامع وكان في مجلسه كثير من العلماء والفقراء وكان فيه رجل فقير من ولاية قوهستان قاعداً في صف النعال أسفل من الكل، وكان مولانا قاعداً على السكوت فرفع رأسه بغتة ودعا ذلك الرجل القوهستاني وأخذ بيده وأعطانيه. وقال: فوّضت هذا الرجل إليك فلا تقصر في مدده وحمايته. فقبلته ولم يكن سر تفويضه معلوماً لي ولا لأحد غيري حتى توفي مولانا وظهر بعد خمس عشرة سنة من وفاته شخص في زمان السلطان أبي سعيد، وكان يأخذ الناس بتهمة اليهودية بإمداد من الأمراء ويفديهم بمبلغ كثير، فأخذ اتفاقاً هذا الرجل القوهستاني وآل أمره إلى القتل لعدم ماله الذي يفديه به وعدم أعوانه ولإرهاب الآخرين فيتيسر بعد ذلك أمر هذا الظالم ويروج سوقه، فانجرّ الأمر إلى أن ربطوا حبلاً في عنقه وجاؤوا به إلى باب العراق لصلبه وكنت في ذلك الأثناء

راجعاً من عند السلطان إلى منزلي. فلما وصلت إلى باب الدار ورأيت ازدحام الناس سألت عن السبب فقصوا عليَّ القصة، فتقدّمت إليه، ولما وقع نظره عليَّ صاح وقال: يا حافظ أنا ذلك القوهستاني الذي فوّضه مولانا سعد الدين في المسجد الجامع إليك، وقال: لا تقصر في مدد، وحمايته وقبلته منه والآن وقت المدد والحماية. فلما نظرت إليه عرفته فخلصته عن أيديهم في الحال وعطفت عنان فرسي من هذا المحل نحو السلطان وعرضت عليه قصة الفقير وتفويض مولانا سعد الدين، فأمر السلطان بصلب ذلك الظالم مكان الفقير فتخلص الفقير وسائر الناس من شره. فأنشد الحافظ بعد تقرير هذه الحكاية هذين البيتين من المثنوي:

أزيـــس صـــد ســـال هـــرچـــه آيـــدبـــرو　　پـــيـــر مـــيـــبـــنـــيـــد مـــعـــيـــن مـــوبـــمـــو

كـــريـــمـــيـــر ديـــدا ويـــاقـــي بـــود　　زانـــكـــه ديـــدش ديـــد خـــلاقـــي بـــود

وقد صحب مولانا خواجة شمس الدين محمد الكوسوي رحمه الله كثيراً، مولانا سعد الدين. وسمعت بعض أجلّة أصحابه يقول: قال مولانا خواجة محمد يوماً لمولانا سعد الدين: أنه وقع عليَّ إشكالان عظيمان في حقائق التوحيد وعجزت عن حلهما ولم أدر هنا من يقدر على حلهما وصار قلبي متألماً من هذه الجهة وأريد السفر فلعلي ألتقي أحداً يدفع هذا الألم عن قلبي. فقال حضرة مولانا: توجه غداً في الصبح إلى هذا الجانب بنية حل هذا المشكل فعسى لا يبقى الاحتياج إلى السفر. فجاءه حضرة الخواجة في الصبح ولما وقع نظره على مولانا صاح وغاب عن نفسه وبقي في غيبته مدة. فأنشد بعد إفاقته وشعوره هذا البيت من المثنوي:

أي جـــمـــال تـــوجـــواب هـــر ســـؤال　　مـــشـــكـــل أزتـــو حـــل شـــده بـــي قـــيـــل وقـــال

فسأله يوماً واحداً من الفقراء في الخلوة عن سبب غيبته في ذلك الوقت وترك السفر بعده، فقال: لما وقع بصري على حاجبه الأيمن انحل أحد الإشكالين، ولما وقع على حاجبه الأيسر انحل الثاني فصدر عني صيحة بلا اختيار من لذته وذوقه وغبت عن وجودي.

وذكر في «النفحات» أنه حكى واحد من الفقراء الذي وصل إلى صحبة مولانا سعد الدين: كان لي تغيُّر كثير في مجالس الوعظ التي تذكر فيها معارف الصوفية، وكنت ذا صيحة كثيرة وكنت محجوباً ومستحيياً من ذلك، فشكوت حالي إلى مولانا، فقال: إذا وقع عليك التغير أحضرني في خاطرك. ولما سافر إلى الحجاز طرأ عليَّ

تغير في واحد من المدارس من سماع وعظ بعض الأكابر. فتوجهت بقلبي إليه فرأيته قد دخل من باب المدرسة وجاء عندي ووضع يديه على كتفي فغبت عن نفسي وسقطت على الأرض من غير شعور. ولما صحوت رأيت المجلس قد انقرض وتفرّق الناس وبقيت في حرارة الشمس، وكان ذلك اليوم يوم الخميس الأخير من شهر رمضان فحفظته في خاطري لأعرضه عليه بعد رجوعه من مكة. فلما قدم من مكة المكرمة وتشرّفت بصحبته كان عنده خلق كثير من أصحابه فلم يمكن لي حكاية الحال له فتوجه نحوي وقال: كان يوم خميس ولم يكن بعده خميس آخر إلى العيد. وكان وفاته قدّس سرّه وقت ظهر الأربعاء السابع من جمادي الأخرى سنة ستين وثمانمائة. وسمعت بعض أهل البلدة يقول: إن الخواجة شمس الدين محمد الكوسوي عقد مجلس وعظ يوم تعزيته وأنشد في أثناء وعظه على المنبر هذا البيت: [شعر]

بك مشت خاك آينه شدبر وزكار بنمود وجه باقي وپس خاك توده شد

وكان له ابنان من صلبه، **أحدهما**: خواجة محمد أكبر المعروف بخواجة كلان، وقد تشرّف بتوفيق الانخراط في سلك أصحاب حضرة شيخنا وسافر مرتين من هراة إلى ما وراء النهر لملازمته وتشرّف راقم هذه الحروف بصبحته في قرية چل دختران حين توجهي إلى ما وراء النهر لاستلام عتبة حضرة شيخنا في أول مرة، وكان ذلك في سفره الثاني لملازمته. ولما رآني سألني متعجباً: إلى أين تذهب وما مطلوبك! فعرضت عليه ما في البال على وجه الإجمال. فسُر بذلك وأظهر البشاشة وقال: إذاً ينبغي لك أن لا تفارقني حتى نقطع المسافة على المرافقة والموافقة. فقبلت ذلك، فأمر بإحضار أحمال متعلقاتي واثقاً لهم وصدر عنه في هذا السفر شفقة كثيرة وعناية جزيلة لهذا الفقير. ولما دخلنا بخارى تركنا أكثر الأحمال والأثقال مع الخادمين وسائر المتعلقات هناك وتوجهنا منه مع حضرة خواجة كلان وجماعة من أصحاب حضرة شيخنا الذين كانوا في مزارع بخارى إلى طرف بلدة نسف وتشرّفنا فيها بسعادة ملازمته. وشاهدت من حضرة شيخنا التفاتاً كثيراً في حق الخواجة كلان في خلال المجالس وتشرّفت باستماع كثير من لطائف مصاحبته مع مولانا سعيد الدين وبعض خصائصه قدّس سرّه.

أمر يوماً الخواجة كلان في الخلوة بالاشتغال بطريق النفي والإثبات وقال: كن

مشغولاً بهذا الطريق فإذا رجعت إلى هراة وجاء صحبتك أحد ادعه إلى هذا الطريق أيضاً ولقنه الذكر فإن والدك الماجد لم يكن أتم السلوك وقت قدومه هراة لكن حصل فيه أصحاباً لنفسه وأشغلهم بهذا الطريق، واشتغل أيضاً بنفسه بتمام الجد والجهد حتى ترقى أمره وبلغ النهاية سلوكه. فينبغي لك أيضاً أن تكون مشغولاً بذلك حتى يبلغ الكتاب أجله وينتهي المهم إلى الإتمام. ثم أنشد هذا البيت بمعناه من المثنوي:

إجمع الأحباب من كل البشر　　　وانحتهم نحت آزر من حجر

ثم أذن له بعد مدة بالرجوع إلى خراسان وأمر الفقير أيضاً بالوصول إلى ملازمة الوالدين فجئت بخارى في رفاقته امتثالاً لأمر شيخنا فمكث الخواجة كلان فيه زماناً وتوجهت أنا إلى خراسان مسرعاً بإجازته وقدم هو أيضاً خراسان بعد شهر أو شهرين وكان ملتفتاً إلى حال هذا الفقير دائماً، وكان يظهر لي ألطافاً كثيرة حتى زوّجني بعد خمس عشرة سنة كريمته وقبلني للولدية. أنشد مولانا نور الدين عبد الرحمٰن الجامي قدّس سرّه هذا المصراع يوماً بتقريب في صفة خواجة كلان وطهارة طينته: [مصراع]

* خاك أو بهتر زخون ديكران *

والثاني من ولديه: خواجة محمد أصغر المشتهر بخواجة خورد، وله حظ تام من العلوم الظاهرية والأخلاق الباطنية وكلاهما حفظا القرآن المجيد، وكان لهما اطلاع على دقائق التفسير وحقائق التأويل. وتوفي حضرة خواجة خورد في ولاية زمين داور في شهور سنة ست وتسعمائة وحمل بعض الخادمين نعشه إلى هراة ودفن تحت المزار خلف قبر والده الشريف رحمهما الله رحمة واسعة.

* * *

حضرة مولانا

نور الدين عبد الرحمن الجامي قدَّس الله سرّه السامي

لقبه الأصلي: عماد الدين. ولقبه المشهور: نور الدين. ولادته في خرجرد جام وقت العشاء، الثالث والعشرين من شعبان المعظم سنة سبع عشرة وثمانمائة كما ذكر نفسه في كتابه المنظوم المسمى بـ«رشح البال في شرح الحال» الذي هو كتاب مشتمل على وقائعه وأحواله في مدة حياته على الإجمال.

ولا يخفى أن نسبه الشريف يتصل بالشيخ العالم العامل إمام المجتهدين، وارث علوم الأنبياء والمرسلين، الإمام محمد الشيباني، غشيه اللطف السجاني، أعظم المجتهدين في مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه وأحد صاحبيه، وهو محمد بن الحسن بن عبد الله بن طاوس بن هرمز الشيباني، وكان هرمز هذا ملك بني شيبان، أسلم على يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وذكر في «المصفى»: أنه كان بين الإمام محمد وبين الإمام أبي حنيفة قرابة قريبة، فإنه محمد بن الحسن بن عبد الله بن طاوس بن هرمز الشيباني، وهو ملك بني شيبان. أسلم على يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. والإمام أبو حنيفة هو: نعمان بن ثابت بن طاوس بن هرمز اهـ. وكان والده مولانا نظام الدين أحمد الدشتي وجده مولانا شمس الدين محمد الدشتي من مشاهير أهل العلم والتقوى منسوبان إلى محلة دشت من محروسة أصفهان. وارتحلا عن وطنهما المألوف إلى ولاية جام بسبب بعض حوادث الأيام، واشتغلا هناك بأمر القضاء والفتوى. وكانت جدته لأبيه من بنات أولاد الإمام محمد الشيباني أيضاً، فإن مولانا قوام الدين محمد الذي هو من أولاد الإمام محمد لما قدم من ولايته إلى ديار جام زوج كريمته من مولانا الحاج شرف الدين شاه: المفتي الفقيه، فولدت له منها بنت، فتزوَّجها مولانا شمس الدين محمد جد مولانا الجامي، فولد منها مولانا نظام الدين أحمد الدشتي والد مولانا الجامي. وكان آباؤه وأجداده يكتبون في السجلات والحجج عبارة الدشتي مدة

إقامتهم في ولاية جام. ولما قدموا هراة صاروا يكتبون لفظ الجامي مكان الدشتي، وظفر السلطان شاهرخ سنة ولادته بتسخير ممالك العراق وفارس.

* * *

ذكر اشتغال حضرة مولانا الجامي بتحصيل العلوم في مبادي حاله، وتردُّده إلى أهل الفضل والكمال في عنفوان شبابه

لما قدم هراة مع والده في صغر سنه، أقام في المدرسة النظامية وحضر درس مولانا جنيد الأصولي. وكان مولانا المذكور ماهراً في العلوم العربية وكانت له شهرة تامة في هذا الفن، ورغب في مطالعة «مختصر التخليص». وكان جماعة من الطلبة يشتغلون بقراءة «شرح المفتاح» و«المطول» في ذلك الوقت، فاستشعر في نفسه استعداداً لفهم الكتابين المذكورين مع عدم وصوله إلى حد البلوغ الشرعي، فصرف عنان همته إلى مطالعة «المطول» وحاشيته. ثم حضر درس مولانا خواجة علي السمرقندي من أعظم مدققي الزمان وأكمل تلامذة السيد الشريف الجرجاني قدّس سرّه.

قال مولانا الجامي: كان مولانا خواجة علي السمرقندي عديم النظير في طريق المطالعة، ولكن كان يمكن أن يستغني عنه في مدة أربعين يوماً. ثم حضر درس مولانا شهاب الدين الحاجرمي، كان من أفاضل مباحثي الزمان، ومن سلسلة تلامذة مولانا سعد الدين التفتازاني رحمه الله.

قال مولانا الجامي: حضرت درسه أياماً، فسمعت منه كلمتين صالحتين أن يصغي إليهما:

إحديهما: في دفع بعض اعتراضات مولانا زادة الخطائي على التلويح. ولما مهد في اليوم الأول مقدمات لدفع هذا الاعتراض أبطلتها. وبين في المجلس الثاني صورة جواب بعد تأمل كثير، وكان له وجه في الجملة.

وثانيتهما: في فن مطول التخليص، قد ناقش فيه قليلاً وإن لم تكن لكلامه هذا زيادة نفع لكونه متعلقاً بعبارة الكتاب. لكن كان في توجهيه استقامة.

ثم قدم سمرقند وحضر درس قاضي زادة الرومي الذي هو محقق عصره على الإطلاق، ووقعت بينهما مباحثة في أول ملاقاتهما وامتدت إلى مدة طويلة. ثم رجع

قاضي زادة إلى كلامه في الآخر.

وحكى مولانا فتح الله التبريزي الذي كان من العلماء المتبحرين، وكانت له مرتبة الصدارة عند السلطان مرزا ألغ بك: أنه لما جلس المرزا ألغ بك قاضي زادة الرومي في مدرسة بسمرقند، حضر في هذا المجلس جميع الأكابر والأفاضل فذكر قاضي زادة بتقريب الأذكياء المستعدين، وقال في وصف مولانا عبد الرحمٰن الجامي: لم يتعد أحد من نهر جيحون إلى هذا الطرف منذ بنى سمرقند إلى يومنا هذا مثل الشاب الجامي في جودة الطبع وقوة التصرف.

ونقل مولانا أبو يوسف السمرقندي الذي هو من أرشد تلامذة قاضي زادة الرومي: لما جاء مولانا عبد الرحمٰن الجامي سمرقند كان مشغولاً بمطالعة شرح التذكرة في فن الهيئة اتفاقاً، وكان قاضي زادة الرومي قد أثبت في حواشي «التذكرة» أشياء من تصرفاته الجيدة وبقيت على ذلك سنين فصار يعرض كل يوم وكل مجلس كلمة أو كلمتين منها على مقام الإيضاح والإصلاح. فكان قاضي زادة ممنوناً منه فوق الغاية وعرض في ذلك الأثناء على أصحابه شرحه على ملخص الجغميني الذي هو نتيجة أفكاره وتصرف فيه مولانا الجامي بتصرفات لم تخطر على خاطر قاضي زادة أبداً.

جاء يوماً مولانا علي القوشجي إلى مجلس مولانا الجامي قدّس سرّه بهراة في هيئة الأتراك ورسمهم، وقد شد همياناً عجيباً في وسطه وطرح عليه بالتقريب شبهات كثيرة من أشكل دقائق فن الهيئة، فأجاب عن كل واحد منها جواباً شافياً على البديهة حتى بهت مولانا علي القوشجي وبقي متحيراً فقال له مولانا الجامي في معرض المطايبة: يا مولانا أظن أنه ليس في هميانك شيء أفضل وأنفس من هذا، فقال مولانا علي القوشجي لتلامذته: قد صار معلوماً لي من هذا اليوم أن النفس القدسية موجودة في العالم.

قال بعض الأكابر: إن حصول تلك القوة له إنما هو بسبب اشتغاله بطريقة خواجكان قدّس الله أرواحهم، فإن الاشتغال بطريقتهم ممد للعقل ومقو للقوة المدركة. وكانت كيفية مطالعته وقوة مباحثته وغلبته على شركائه بل على أساتذته أمراً مشهوراً ومقرراً عند الكل. وكان أيام تعطيله تمر بفراغ البال وجمعية الحال، وكان يصرف عنان فكرته الدراكة إلى مهم آخر. وكثيراً ما كان يكتفي بمطالعة جزء

من درسه لحظة وقت ذهابه إلى حضور المدرس أخذاً له من بعض شركائه، ومع ذلك كان يغلب على الكل عند الحضور للدرس.

قال مولانا معين التوني: لما حضر مولانا الجامي درس مولانا خواجة علي، كان يدفع كل شبهة وقعت بين المحصلين من نتائج طبع المستعدين على البديهة، وكان يطرح في مجلس الدرس كل يوم شبهتين وأكثر واعتراضاً خاصاً من آثار مطالعته ويروح.

والحاصل: أنه إنما كان يحضر درس بعض أكابر الوقت لكون بعض العلوم الرسمية متوقفة على السماع ومنوطة بالاستماع، وإلا لم يكن له في نفس الأمر احتياج التلميذ لأحد بل كان غالباً على جميع المدرسين في تلك النواحي. جرى يوماً كلام في ذكر أساتيذه ومعلميه فقال: ما قرأت عند أحد درساً على وجه تكون لهم الغلبة عليَّ بل كنت غالباً على كل واحد منهم في الأبحاث، أو كانوا مساوين لي في بعض الأحيان وليس لأحد حقوق الأستاذية في ذمتي وأنا في الحقيقة تلميذ والدي الماجد حيث تعلمت منه اللسان. فتبين من ذلك أنه قرأ الصرف والنحو على والده ولم يحتج بعد ذلك إلى أحد في العلوم العقلية والمعارف اليقينية كثير احتياج.

اتفق يوماً مولانا الشيخ حسين ومولانا داود ومولانا معين، وكانوا مشاركين في الدرس والبحث، أن يذهبوا عند بعض أكابر أمراء مرزا ألغ بك لتحصيل الوظيفة في أوائل أحوال مولانا الجامي رأخذوه معهم على كره منه، فكانوا منتظرين عند باب الأمير زماناً. ولما خرجوا بعد ملاقاته قال لهم مولانا الجامي: هذا آخر موافقتي لكم واتفاقي معكم، ولا يمكن صدور مثل تلك الصورة عني ثانياً. فلم يتردد بعد ذلك إلى باب أحد من أصحاب الجاه وأرباب الدنيا، وكان دائماً قاعداً في زاوية الفقر والفاقة، جاعلاً قدم همته في ذيل الصبر والقناعة وقد ظهر فيه مضمون كلام الشيخ نظامي قدّس سرّه حيث قال: [شعر]

قد كنت عندك من زمان شبابي ... ما رحت عنك لسائر الأبواب
ما كنت أطلب ذرة متأدباً ... بل كنت ترسل كلها في بابي

قال قدّس سرّه: ما جعلت نفسي معرضاً للمذلة والمذمة أصلاً من عهد شبابي مثل ما كان يفعل أكثر الفضلاء والمستعدين في سمرقند وهراة كسعيهم في ركاب قاضي زادة الرومي ومولانا خواجة علي راجلين، وما وافقتهم في ذلك أصلاً، بل

لم أكن راغباً في ملازمة بابهم كما هو ديدن أرباب الدرس، ولذلك تطرق نقص تام في وصول الوظائف إليّ.

* * *

ذكر وصول حضرة مولانا الجامي إلى صحبة مولانا سعد الدين قدّس سرّه

بعد تحصيل العلوم وترك الاختلاط مع علماء الرسوم، كان قدّس سرّه في مبادي حاله مبتلى بمحبة واحد من مظاهر الحسن والجمال ومشغوفاً به. فوقع انحراف الخاطر عنه يوماً فسافر من هراة إلى سمرقند واشتغل هناك بكسب الفضائل والكمالات أياماً، فتألم خاطره الشريف ليلة من ألم المفارقة الصورية والمهاجرة الضرورية فرأى في ليلته تلك في المنام مولانا سعد الدين قدّس سرّه قائلاً له ما مضمونه:

إخلع محبة فائت واختر لنفـ ـسك يا فتى عشق الجمال الباقي

فتأثر من تلك الواقعة تأثراً بليغاً ووقعت على خاطره دغدغة عظيمة، فتوجه إلى جانب خراسان مسرعاً وتشرّف بشرف صحبة مولانا واستسعد بسعادة قبوله، فظهر له في صحبته شوق عظيم وجذب قوي في مدة يسيرة، كما قال بعض الأكابر من إخوانه ورفقائه في الطريقة متحيراً فيه ومتعجباً منه: إن طريقة خواجكان جذبته سريعاً.

وكان مولانا سعد الدين يقعد كل يوم مع أصحابه للصحبة في باب جامع هراة قبل الصلاة وبعدها، وكان مولانا الجامي كثيراً ما يمر بهذا المحل، وكلما مر كان مولانا سعد الدين يقول: إن لهذا الشاب قابلية عجيبة وأحبه من تلك الحيثية وما أدري بأي حيلة أصطاده. ولما حضر صحبته الشريفة في أول يوم وجذبته جذبة محبته قال مولانا سعد الدين: وقع اليوم باز في شبكتنا. وقال أيضاً في ذلك الأثناء: إن الله قد منّ علينا بصحبة هذا الغلام الجامي.

قال مولانا شهاب الدين الحاجرمي بعد وصوله إلى صحبة مولانا سعد الدين قدّس سرّه وانجذابه إليها: إنه قد ظهر في أرض خراسان بين العلماء رجل صاحب كمال لم يظهر مثله منذ خمسمائة سنة، فقطع مولانا سعد الدين طريقه.

وقال مولانا عبد الرحيم الكاشغري الذي كان من مشاهير العلماء في هراة: ما

دام مولانا عبد الرحمٰن الجامي لم يترك المطالعة ولم يقبل على الطريقة لم يكن فينا يقين بكون شيء أفضل من المطالعة وتحصيل العلوم الرسمية، وبكون مرتبة أعلى من مرتبة المولوية.

ولما أقبل على الطريقة اختار في ابتداء أمره الرياضة الكثيرة والمجاهدة الشاقة بأمر مولانا سعد الدين قدّس سرّه. وكان مجتنباً عن الخلق ومتحرزاً ومتجنباً عنهم، ومتوحشاً منهم، ومتلذذاً بالوحدة، ومألوفاً بالخلوة. ولما رجع إلى الاختلاط بالخلق بعد تمام أمره وجد طريق المحاورة وأسلوب المكالمة ممحواً عن خاطره حتى صارت الألفاظ المأنوسة وحشية إلى أن جاءت إلى خاطره وصارت ملكة له بالتدريج، فحصلت له في آخر تلك الأوقات جذبة قوية وكيفية عجيبة حتى توجه إلى مكة المكرمة بلا شعور منه. ولما وصل إلى كوسو حصل له فيه إفاقة وشعور وغلبته إرادة صحبة مولانا سعد الدين وشوق لقائه فعطف عنان عزيمته بلا اختيار وحضر صحبته بكمال الاضطرار.

خرج مرة في أثناء صحبته مع مولانا سعد الدين إلى جانب قصبة أوبة للتنزه في فصل الربيع، فكتب مولانا سعد الدين هذه الرقعة وأرسلها إليه، نقلتها عن خطه المبارك:

رقعة

بسم الله الرحمن الرحيم

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. جعلنا الله سبحانه وتعالى معه ولا يتركنا مع غيره. والمرجو من الأخ العزيز نور البصر مولانا عبد الرحمٰن الجامي أن لا يبعد هذا الفقير الحقير مضيع العمر عن زاوية خاطره الشريف، وليعلم أن الاشتياق غالب، ولا أدري ماذا أكتب! فإن ذلك كله اسم ورسم ولا يجيء المقصود في العبارة. قال الشيخ أحمد الغزالي: إن تعريفي لهذه الطائفة لا لأجل احتياجي بل للتعطش الذي فيَّ والعز والشرف اللذان لهم لدي:

* أتـر مـتـى ورد أتـاركـا خـدي زاهـرا *

والسلام والتحية. الفقير الحقير سعد الكاشغري.

ولما وصلت هذه الرقعة إليه رجع من فوره ولم يفارقه بعد هذا ولم يذهب من صحبته.

قال قدّس سرّه: ظهر لي الأنوار في بداية الاشتغال بهذا الطريق فكنت مشغولاً بالطريق الذي علمنيه مولانا سعد الدين ـ يعني: لنفي الخواطر ـ، ونفيتها حتى اختفت وغابت، فإنه لا اعتماد لظهور الأنوار والكشوف والكرامات. لا كرامة أفضل من تأثر شخص وحصول جذبة قوية له والتخلص عن نفسه زماناً في صحبة واحد من أصحاب دولة أبدية وأرباب سعادة سرمدية.

قال حضرة أستاذي مولانا عبد الغفور عليه الرحمة والغفران: سألته مرة عن سر انكشاف العوالم لبعض هؤلاء الطائفة واستتارها عن الآخر، فقال: إن الطرين على نوعين، أحدهما: طريق سلسلة التربية، وهو أن يعود السالك إلى وطنه الأصلي من الطريق الذي نزل منه. والثاني: طريق وجه خاص، وهو طريق خواجكان قدّس الله أرواحهم. وقبلة توجه السالك في هذا الطريق ليست غير الذات الأحدية، وكشف العوالم ليس بضروري في هذا الطريق.

وقال مولانا عبد الغفور: إن خاطره الشريف كان أميل إلى مشاهدة الوحدة في الكثرة التي هي مشاهدة تفصيلية من المشاهدة بطريق الإجمال.

وقال: إذا جعلت نفسي في مرتبة الإجمال أكون غالباً فيها، لكن كان توجه مولانا من الإجمال إلى التفصيل قليلاً. وكان استغراقه غالباً فيه، وقال: قد غلب عليّ سر الوحدة ومعنى التوحيد بحيث لا أرى دفعه عن نفسي ممكناً ولا اختيار لي في ذلك أصلاً لا يغلب شيء على هذا الخاطر بل غلب هذا المعنى على الكل.

* * *

ذكر ملاقاته المشايخ الكبار من صغر سنه إلى نهاية أمره

لا يخفى أن أول من لقيه مولانا العارف الجامي من الأكابر، سوى مولانا سعد الدين قدّس سرّه، هو حضرة الخواجة محمد پارسا قدّس سرّه. وكتب في «النفحات»: أنه لما قدم حضرة الخواجة محمد پارسا قدّس سرّه ولاية جام في سفر الحج في أواخر جمادى الأولى أو أوائل جمادى الأخرى تخميناً سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة، خرج والد هذا الفقير مع جمع من المخلصين بقصد زيارته واستقباله، ولم يتم في هذا الوقت من عمري خمس سنين. وأمر واحداً من المتعلقين أن يحملني معهم وأن يوصلني أمام محفته المحفوفة بالأنوار، فالتفت إليّ هذا الفقير

وأعطاني رأساً واحداً من النبات الكرماني. وقد مضت الآن ستون سنة من ذلك وصفاء طلعته المنورة باق في بصري، ولذّة مشاهدته المباركة دائمة في قلبي، ورابطة إخلاص هذا الفقير واعتقاده وإرادته ومحبته لأكابر خواجكان قدّس الله أرواحهم، إنما هي ببركة نظره الشريف، وأرجو من يمن هذه الرابطة أن أكون محشوراً في زمرة محبيهم ومخلصيهم بهمّه وجوده تعالى اهـ.

والثاني: مولانا فخر الدين اللورستاني رحمه الله. كان من أكابر مشايخ الزمان. وكتب في «النفحات» أيضاً: أنه يخطر في البال أن مولانا فخر الدين اللورستاني نزل في خرجر دجام الخان المتعلق بوالد هذا الفقير، وكنت صغيراً في ذلك الوقت بحيث كان يقعدني على حجره ويكتب على الهواء الأسامي المشهورة مثل: عمر، وعلي، بأصبعه المباركة وكنت أقرؤه، فكان يتبسم تعجباً من ذلك. وشفقته هذه ولطفه صارت بذر المحبة والإرادة لهذه الطائفة في قلبي، وتزيد تلك المحبة وتنمو من ذلك الوقت إلى يومنا هذا كل يوم زيادة أخرى، وأرجو من الله تعالى أن أعيش على محبتهم وأن أموت على محبتهم، وأن أُحشر في زمرة محبيهم. اللهم إحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين.

والثالث: خواجه برهان الدين أبو نصر پارسا قدّس سرّه، وقد اتفق له معه صحبة كثيرة. وكتب في «النفحات»: أنه ذكر يوماً في مجلسه الشريف حضرة الشيخ محي الدين بن عربي ومصنفاته فقال نقلاً عن والده الماجد: إن «الفصوص» روح و«الفتوحات» قلب. وقال: من علم «الفصوص» علماً جيداً تتقوى داعية متابعته للنبي ﷺ.

والرابع: حضرة الشيخ بهاء الدين عمر قدّس سرّه. قال: كان لحضرة الشيخ استغراق واستهلاك عظيم وربما كان ينظر نحو الهواء تترى، ولعل ذلك من ملاحظة الملائكة المخلوقة من أنفاس الخلائق.

قال: قصدت قرية جغارة لصحبته وحضر عنده جماعة من أهل البلد، وكان من عادته أن يسأل كل من جاء من البلد عن خبر البلد. فسأل في تلك النوبة أيضاً على عادته كل واحد منهم على حدة، فقال كل واحد منهم شيئاً في جوابه. ثم سألني عن الخبر أخيراً، قلت: ما أدري، ما أدري ما الخبر ولا أعرف شيئاً. ثم قال: فما رأيت في الطريق؟ قلت: ما رأيت شيئاً. فقال: ينبغي لكل من يحضر عند

واحد من الفقراء أن يكون هكذا، لا يكون له خبر عن أحوال البلد ولا يرى شيئاً في الطريق. ثم أنشد هذا البيت: [شعر]

عَلِّقْ فؤادك بالحبيب موحداً   واغمض عيونك معرضاً عن غيره

والخامس: خواجة محمد شمس الدين الكوسوي قدّس سرّه. قال: كان حضرة الخواجة محمد الكوسوي مشغولاً بالوعظ، وكان شيخنا مولانا سعد الدين، ومولانا شمس الدين محمد أسد، ومولانا جلال الدين أبو يزيد البوراني وغيرهم من أكابر الوقت، يحضرون مجلسه ويستحسنون معارفه ولطائفه. وكان مولانا شرف الدين علي اليزدي يرغّبني أيضاً في مجلسه ووعظه.

وسمعت بعض الكبراء يقول: كلما حضر حضرة مولانا الجامي مجلس حضرة الخواجة محمد الكوسوي قدّس سرّه كان حضرة الخواجة يقول: قد أسرجوا اليوم في مجلسنا مصباحاً. وكانت المعارف والحقائق تجري على لسانه أزيد من سائر الأوقات.

قال مولانا الجامي: كان مولانا الخواجة محمد الكوسوي عليه الرحمة معتقداً لمصنفات حضرة الشيخ محي الدين بن عربي قدّس سرّه، وكان يقرر مسألة التوحيد الوجودي موافقاً لمشربه ويبيِّنها على رأس المنبر في حضور العلماء الظاهرية على وجه لم يكن لأحد مجال الإنكار عليها. وكان سريع الفهم في أسرار القرآن والحديث النبوي وكلمات المشايخ وحقائقها، وكان يفاض عليه معاني كثيرة بتوجه قليل في لمحة يسيرة ما لا يصل إلى خاطر غيره بعد طول التأمل والتفكر. وكان يحصل له وجد عظيم في أثناء الوعظ ومجلس السماع، ويصدر عنه صيحات كثيرة، وكان أثر صيحته يسري إلى جميع أهل المجلس، وكان يرى الناس في صور صفاتهم الغالبة على نفوسه في بعض الأوقات.

قال يوماً: إن أصحابي يخرجون أحياناً من الصورة الإنسانية ولكنهم يرجعون إليها سريعاً. وسمى أناساً وقال: كلما حضر هؤلاء عندي يظهرون في صورة كلب ذي عيون أربعة وربما كان يظهر ما يخطر على خاطر الناس في صحبته على وجه لا يعرفه غير صاحب الخاطر.

والسادس: مولانا جلال الدين أبو يزيد البوراني رحمه الله تعالى: كان يذهب كثيراً إلى قرية بوران لمحض صحْبته وخدمته، وكتب: إني صلّيت مرة في جنبه

فوجدته مغلوباً ومستهلكاً على رجه لم يكن له شعور عن نفسه أصلاً، وكان في القيام يضع يده اليمنى على يده اليسرى أحياناً وبعكسه أحياناً.

السابع: مولانا شمس الدين محمد أسد رحمه الله: صحبه كثيراً، وكتب في «النفحات»: ماشيته مرة في الطريق، فساق كلامه بالتقريب إلى أن قال: إنه وقع عليَّ أمر من منذ أيام ما كنت أظن حصوله لي ولم أكن أتوقعه. وأشار إليه إجمالاً على وجه فهمت منه تحققه بمقام الجمع.

* رشحة: قال بعض العارفين: إذا تجلى الله سبحانه للعبد بذاته يجد جميع ذوات الموجودات وصفاتهم وأفعالهم متلاشية في أشعة ذاته تعالى وصفاته وأفعاله، ويجد نفسه بالنسبة إلى جميع الموجودات كأنه مدبرها، ويجدها بالنسبة إليه كالأعضاء إلى البدن ولا يكون شيء من الموجودات قريباً إلى بعض آخر منها، إلا أنه يراه أقرب إليه من الكل ويرى ذاته وذات الحق سبحانه وتعالى وصفاته وصفات الحق وأفعاله مع أفعال الحق متحدة لكونه مستهلكاً في عين التوحيد، والاستهلاك فيه مستلزم لأن يجد ما نسب إلى الحق سبحانه منسوباً إلى نفسه. وليس للعارفين مقام في التوحيد أعلى من هذه المرتبة، فإذا انجذبت البصيرة بمشاهدة جمال الذات يختفي نور العقل الفارق بين الأشياء والمميز بين الواجب والممكن بغلبة نور الذات القديم، ويرتفع التمييز بين الحادث والقديم لكون الباطل لا شيئاً محضاً غير ظاهر عند ظهور الحق. ويقال لتلك الحالة عند هذه الطائفة: جمعاً.

والثامن: حضرة شيخنا ـ يعني: ناصر الملة والدين خواجة عبيد الله أحرار قدّس سرّه ـ. وقعت الملاقاة بينهما أربع مرات، مرتين بسمرقند، ومرة بهراة حين قدوم حضرة شيخنا خراسان في زمان السلطان أبي سعيد. ومرة في مرو وقت مجيء حضرة شيخنا هناك بالتماس السلطان أبي سعيد، فجاء مولانا الجامي من هراة إلى مرو لمجرد ملاقاته. ورأيت مكتوباً بخطه المبارك: أنه سأل حضرة الخواجة عبيد الله مد الله ظلال جلاله: هذا الفقير في نواحي مرو أنه كم مضى من سني عمرك؟ قلت: خمس وخمسون سنة تخميناً. فقال: إذاً يكون عمري أزيد من عمرك باثنتي عشرة سنة.

ولا يخفى أنه وقع بينهما مكاتبات كثيرة ومراسلات عديدة قبل تلك الملاقاة وبعدها. وكمال إرادته وإخلاصه لحضرة شيخنا ظاهر من مصنفاته المنظومة

والمنثورة للخواص والعوام، وواضح لدى جميع الأنام في العالم، ومصنفاته المنظومة والمنثورة أشهر من أن يحتاج إلى إيرادها. وخلوص عقيدته وصفاء محبته ظاهر وباطن من رقاعه ومكاتيبه المرسلة إلى حضرة شيخنا. ولنورد في هذه المجموعة من جملة تلك الرقاع والمكاتيب رقعتين على وجه الاستشهاد والتيمُّن والاسترشاد نقلاً من خطه المبارك:

الرقعة الأولى

بعد أداء العبودية عريضة من هذا العاجز المبتلى، إني أريد أحياناً أن أظهر لملازمي تلك العتبة العلية شيئاً من سوء أحوالي، ولو كان في ذلك إساءة الأدب، ولكن أخاف أن يكون لك الأحوال التي هي للفقير موجبة لملالة ذلك الجناب المتحمل للأثقال، فإن ذكر الوحشة وحشة، والرجاء على كل حال أن تنظروا بنظر العناية لسوء أحوال هذا العاجز ورعاية طريق الترحم الذي هو من أخلاق الكرام في حق هذا الضعيف، ولا أدري سبب أسر نفسي غير هذا. [شعر]

هر كراديواز كريمان وا برد بيكسش سازدسر شرا واخورد

والسلام والإكرام.

الرقعة الثانية

العريضة أن الاشتياق وتمني تقبيل العتبة العلية كثير وإن كنت أقول لنفسي:

* وتلك سعادات تكون نصيب من *

لكن تمني رؤية نفسي على تلك العتبة كثير، والمرجو من ألطاف الحق سبحانه التي لا نهاية لها أن يمنح هذا الفقير عديم القدرة قليل الهمة، ومكسور القدم بمحض عنايته قدماً ليكون متوجهاً لاستلام العتبة العلية تخلصاً عن مضيق حبس الأنانية بأي وجه كان، والسلام.

وقدم مولانا الجامي سمرقند ثلاث مرات، الأول: في زمان مرزا ألغ بك، كان يحضر فيه درس قاضي زاده الرومي كما ذكر نبذة منه. ثم قدمه ثانياً لمحض صحبة حضرة شيخنا وتاريخ سفره هذا على ما نقل عن خطه المبارك ليلة السبت الثامن من محرم سنة سبعين وثمانمائة. ثم جاء ثالثة لإدراك صحبة حضرة شيخنا أيضاً، واتفق دخوله سمرقند لوقت عزيمة حضرة شيخنا إلى طرف تركستان لإصلاح ما بين الشيخ مرزا عمرو بين السلطان مرزا أحمد ابني السلطان أبي سعيد. ولما

مضت ثلاثة أيام من ملاقاته حضرة شيخنا وصحبته معه، توجه حضرة شيخنا إلى طرف تركستان وأرسل مولانا الجامي مع سائر أصحابه إلى جانب فاراب. ثم قدم ولاية شاش بعد إصلاح ما بين السلاطين وطلبهم من فاراب، وانعقدت في تاشكند صحبات عظيمة ومجالس عالية. وكان مولانا أبو سعيد الأوبهي الآتي ذكره حاضراً في تلك المجالس. وقال حاكياً عن كيفيات هذه المجالس وخصوصياتها: كان أكثر أوقات حضرة شيخنا مع مولانا الجامي يمر على السكوت وربما كان حضرة شيخنا يتكلم أحياناً.

قال مولانا الجامي يوماً لحضرة شيخنا: أن عليّ في بعض مواضع «الفتوحات» إشكالات على وجه لا يتيسر لي حلها بالمطالعة والتأمل، فأمرني حضرة شيخنا بإحضار «الفتوحات» فأتيت بها إلى المجلس، فعرض مولانا الجامي منها ما هو أشد إشكالاً وقرأ عبارة «الفتوحات» فقال: ضع الكتاب لحظة حتى أمهد لك مقدمة. فمهّد مقدمات وأورد فيها كثيراً من الكلام العجيب والغريب ثم قال: نرجع الآن إلى الكتاب. فلما فتحوا الكتاب ولاحظوا مرة، ظهر المقصود وصار في غاية الوضوح. وكان إقامة مولانا الجامي في ملازمة حضرة شيخنا بتاشكند خمسة عشر يوماً وليلة، ثم طلب الإجازة. وقدم سمرقند ثم منه إلى خراسان من طريق قرشي. وتاريخ سفره هذا على ما نقل عن خطه المبارك على هذا الوجه: أن الخروج إلى سفر سمرقند في النوبة الثالثة يوم الاثنين غرة ربيع الأول سنة أربع وسبعين وثمانمائة ووصلنا يوم الاثنين الثاني إلى آردو وهو اسم محل قريب من تخت خاتون. ورحلنا منه يوم الخميس ووصلنا يوم الثلاثاء إلى أندخوند وعبرنا يوم الجمعة نهر آموية - يعني: جيحون -، ووصلنا يوم الخميس الثاني إلى قرية شادمان ولقينا فيها حضرة الخواجة - يعني: عبيد الله أحرار قدّس سرّه -. وتوجه هو يوم الأحد إلى طرف تركستان وأرسلنا إلى جانب فاراب. ووقع التوجه من فاراب إلى شاش في التاسع عشر من ربيع الأول، ودخلنا الشاش في الثاني والعشرين منه، ووقع التوجه من شاش إلى جانب خراسان في ثامن جمادى الأولى ووصلنا إلى سمرقند في الخامس عشر منه، ورحلنا منه يوم الاثنين الحادي والعشرين منه، وتوقفنا في شادمان يوم الخميس، ووصلنا إلى قرشي يوم الاثنين، ورأينا هلال جمادى الأخرى يوم الخميس في قرشي.

قال حضرة مولانا الجامي قدّس سرّه: إن حضرة الخواجة عبيد الله قدّس سرّه

كان كثير الاجتهاد في استمالة الخواطر وتطييب القلوب، فإن ثقل شيء على خاطره الشريف كان يدفعه بقوته القاهرة ولم أسمع كلمات هذه الطائفة من أحد بهذه اللذة التي كانت في بيان حضرة الخواجة. وسمعت بعض الأكابر يقول: إن حضرة شيخنا كان يحيل كثيراً من الطالبين على ملازمة حضرة مولانا الجامي ويحث كثيراً من المستعدين على صحبته. ولما وصلت إلى ساحل جيحون في سفري الأول إلى ما وراء النهر رأيت ليلة حضرة شيخنا في المنام يقول: عجباً من الناس كيف يسافرون إلى ما وراء النهر لاقتباس النور من المصباح والحال أن بحراً من النور يتموَّج في خراسان.

ولما تشرّفت بملازمة حضرة شيخنا في قرشي قال لي يوماً في ذلك الأثناء: مَن رأيت في هراة من مشائخ الوقت؟ قلت: مولانا عبد الرحمٰن الجامي، ومولانا محمد الروجي. فقال: إذا رأى شخص مولانا عبد الرحمٰن الجامي في خراسان فما الحاجة إلى أن يسافر إلى هذا الطرف من النهر! ثم قال: إني سمعت أن مولانا عبد الرحمٰن الجامي لا يأخذ مريداً ويأخذه مولانا محمد الروجي. قلت: نعم هكذا. فقال: إن من الكلمات القدسية المنسوبة إلى خواجة عبد الخالق الغجدواني قدّس سرّه: أغلق باب المشيخة وافتح باب الأحباب، وأغلق باب الخلوة وافتح باب الصحبة.

وكتب حضرة أستاذي مولانا رضي الدين عبد الغفور قدّس سرّه في تكملة «النفحات»: أن حضرة مولانا الجامي لم يلقن الذكر أحداً مع أنه كان مجازاً من مولانا سعد الدين ومأذوناً من جانب الغيب، ولكن إذا ظهر طالب صادق كان يدله خفية على هذا الطريق ويرشده إليه. وكان منشأ ذلك كمال لطافته، وكان يقول: لا أتحمل ثقل المشيخة. ولكن كان في آخر حياته طالباً لأرباب الطلب، وكان يقول: يا أسفي على عدم الطالب، نعم الطالب كثير لكنه طالب لحظ نفسه.

وأكثر والد راقم هذه الحروف من ملازمته، وكان مشرفاً بشغل الباطن المنسوب إلى هؤلاء الطائفة العلية ببركة إلتفاته ويمن إشارته.

قال: رأيت في المنام في مشهد الإمام علي الرضا قدّس سرّه المقدّس في ذي الحجة سنة ستين وثمانمائة كأني واضع قدمي خارج الروضة، فظهر واحد من الأكابر من تلقاء وجهي في غاية النورانية والهيبة وعليه جبة موشاة في غاية النظافة

وعمامة خفيفة، فاستقبلته وسلمت عليه وتواضعت له وتضرّعت إليه، فرد عليَّ السلام وقال: متى جئت هذا البلد؟ قلت: منذ يومين أو ثلاثة. فقال: أين نزلت؟ قلت: في المحل الفلاني. فقال: اذهب وَأتِ بأحمالك وأثقالك إلى منزلي فقد هيّأت لك منزلاً حسناً. فقلت له متواضعاً: أنا ما أعرفك ولا صحبتك! فقال: أنا سعد الدين الكاشغري، فأعجل وأوصل نفسك إلى منزلي. ثم مضى لسبيله. فلما قمت في الصبح سألت رجال المشهد: هل في هذا البلد شيخ يقال له سعد الدين الكاشغري؟ فقالوا: إن هنا شيخاً زاهداً مقتداً جماعة من الطالبين يقال له الشيخ سعد الدين المشهدي ولا نعرف سعد الدين الكاشغري. فحضرت عند الشيخ سعد الدين المشهدي، فلم يوافق شمائله من رأيته في المنام. ولما خرجت من عنده دخلت قافلة هراة المشهد وفيها بعض أحبابي فلما لقيتهم واستخبرتهم عن أحوال مشائخ هراة وشمائلهم صار معلوماً لي أن مولانا سعد الدين الكاشغري كان هو مقتدى الخلق في هراة ولكنه توفي تلك الأيام. ولما قدمت إلى هراة بعد مدة وصلت إلى صحبة مولانا الجامي عند مرقد مولانا سعد الدين قدّس سرّه وعرضت عليه تلك الواقعة في الخلوة فقال: ما خطر على قلبك في تعبيرها؟ قلت: خطر في قلبي أني أموت في هراة وأدفن في جنب مرقده الشريف الذي هو منزله المنيف. فقال: لم لا تعبرها بأنه دلّك على منزله المعنوي، أعني النسبة التي كان هو فيها فإن حملها على ذلك وتعبيرها به أفضل وأنسب!، فقلت له متواضعاً: إنه قد توفي الآن وأنت قائم مقامه، فإن أشرت إليَّ بطريق كان ذلك غاية الالتفات ونهاية الإرشاد. فاستبعد على عادته واستنزل نفسه عن منزلته ولكنه أشار في أثناء الكلام إلى شغل القوم بطريق الكناية.

ولما تيسر لراقم هذه الحروف نسبة المصاهرة إلى حضرة خواجة كلان ابن مولانا سعد الدين في شعبان سنة أربع وتسعمائة قال والدي عليه الرحمة: هذا تأويل رؤياي التي رأيتها قبل بأربعين سنة والله أعلم.

* * *

ذكر توجه مولانا الجامي إلى سفر الحجاز وبيان ما وقع له في هذا السفر بطريق الاختصار والإيجاز

توجه إلى سفر الحجاز في أواسط ربيع الأول سنة سبع وسبعين وثمانمائة. وننقل تاريخ ذهابه وإيابه من خطه المبارك بالتفصيل في آخر هذا الفصل. ولما شرع

في تهيئة أسباب السفر التمس منه جماعة من أعيان خراسان فسخ عزيمة هذا السفر وقالوا: إن يمن عنايتك العلية وبركة همتك السنية يقضي في كل يوم كثير من مهمات الفقراء وكل مهم يكتفى بيمن همتك من أبواب السلاطين يعدل حجة ماشياً. فقال لهم على سبيل المطايبة: قد تعبت الآن من الحج ماشياً ولم يبق فيه مجال فأريد أن أحج مرة راكباً. ولما خرج من هراة سلك طريق نيسابور وأروبسطام ودامغان وسمنان وقزوين وهمدان وأكرمه حاكم همدان منوجهر بكمال الإخلاص وتمام التواضع وأضافه مع سائر أهل القافلة إلى ثلاثة أيام بضيافة الملوك ثم رافق القافلة مع خدمه وحشمه للحفظ والحماية من بغاة الأكراد وأوصلهم إلى حدود بغداد، فدخل مولانا الجامي بغداد في غرة جمادي الأولى ونزل فيه ثم توجه منه بعد أيام إلى طرف حلة بنية زيارة مشهد أمير المؤمنين الإمام حسين رضي الله عنه، ولما وصل إلى كربلاء أنشد هذا الغزل:

كان ذا في مذهب العشاق حقاً فرض عين ... حق أن أسعى على عيني يا زور الحسين
حق من هذا لرأسي أن تفوق الفرقدين ... إن يطأ خدامه خداي بالأقدام قد
أيها الحجاج طوفوا أين تمشون أين أين ... قد تطوف الكعبة العلياء حول روضته
أيها المحتال عمياناً بها دع شين مين ... من كراماته من قاف إلى القاف امتلت
غير محتاج إلى شعر معار يوم زين ... والذي قد زانه جعدو جيد يا غبي
أن يعيد وأعذب وصل بالتلاقي مر بين ... والزمنّ ذا الباب يا جامي ولا تبرح إلى
عند أهل الجود إعطاء الأماني مثل دين ... ولتسل عيناك دمعاً واثقاً بالسجح إذ

ثم رجع إلى بغداد. ومن غرائب الأمور التي جاءت في أثناء تلك الأيام إلى عرصة الظهور: ازدحام الروافض واعتراضاتهم على بعض أبيات «سلسلة الذهب» التي هي من مصنفات مولانا الجامي قدّس سرّه. وصورة هذه الواقعة على سبيل الإجمال أنه كان واحد من المبتدئين من سكنة جام يقال له: فتحي، مقيماً في عتبة مولانا الجامي مدة سنين، وكان في هذا السفر أيضاً في ملازمته. نوقع مرة بينه وبين واحد من خدام مولانا قيل وقال، وانجر الحال إلى كدورة البال ونزاع قوي مفض إلى الجدال، فترك صحبة مولانا وملازمته الأنسية من غاية غلظة طبيعته الخسيسة وكثافة جبلته القبيحة واختلط بجمع من الروافض وارتبط بهم برابطة الجنسية ونقل رحل إقامته إلى منزلهم، وأبدآهم أبياتاً من «سلسلة الذهب» أوردها مولانا الجامي

في الجزء الأول منها في بيان حاصل عقيدتهم بالتمثيل نقلاً عن بعض كتب القاضي عضد عليه الرحمة من أن أكثر أهل العالم يتوجهون في عباداتهم إلى ما تتوهمه أنفسهم وتتخيله، وترك أول هذا التمثيل وآخره. وزاد عليه بعض غلاة الروافض أبياتاً أخرى من كمال تعصبه تأكيداً لهذه القضية وتحريكاً لتلك الفتنة، فطفقت جهلة الروافض القاطنين في هذه الأطراف والجوانب يقولون لأهل القافلة بطريق الرمز والإشارة والإيماء والكناية، كلمات منبئة عن الفتنة والتزوير حتى عقدوا يوماً مجلساً عالياً في أوسع مدارس بغداد وحضر فيه مولانا الجامي، وجلس قاضي الحنفية والشافعية عن يمينه وشماله وقعد مقصود بك ابن أخي حسن بك وخليل بك أخو زوجة حسن بك الذي هو حاكم بغداد من قبل حسن بك في مقابلتهم مع سائر أمراء تركمان، وازدحم الخاص والعام في باب المدرسة وسطوحها وأحضروا فيه كتاب «سلسلة الذهب»، ووقعت صورة المرافعة في مضمون هذه الحكاية مع ملاحظة سابقها ولاحقها في حضور هؤلاء الأكابر، فقال مولانا الجامي على وجه الانبساط: لما مدحت في نظم «سلسلة الذهب» أمير المؤمنين علياً كرَّم الله وجهه وأولاده الأمجاد رضوان الله عليهم أجمعين، كنت على وجل وخوف من سُنِّيي أهل خراسان من نسبة الرفض إليَّ، وما أدراني أني أكون مبتلى بجفاء روافض بغداد، ولما اطلع أهل المجلس على مضمون هذه الحكاية على ما ينبغي، عضوا كلهم أنامل الحيرة. واتفقت كلمتهم على أنه لم يمدح أحد من هذه الأمة أمير المؤمنين علياً كرَّم الله وجهه في هذا الحسن ولم يبالغ أحد بمثل تلك المبالغة في منقبته ومنقبة أولاده. فكتب أقضى قضاة الحنفية والشافعية مع سائر أكابر حضار المجلس محضراً على صحة هذه الحكاية، ثم قال مولانا الجامي رئيس الروافض نعمت حيدري في حضور القضاة والأعيان: إنك تتكلم معي بالشريعة أم بالطريقة؟ قال: بكلتيهما. فقال: فقم أولاً وقص شاربك الذي لم تقصه طول عمرك بحكم الشريعة. ولما قال ذلك قام جماعة من أهل شروان الذين حضروا هناك لحماية مولانا الجامي وأمسكوا ذلك الرافضي وقصوا نصف شاربه بالسكين فوق العصا قبل إحضار المقراض، ثم قصوا باقيه بالمقراض، فقال له مولانا بعد ذلك: قد وصلت إليك أيدي الناس وبان نقصانك في الشريعة فكنت مردوداً من عند أهل الطريقة بموجب الطريقة وحرمت عليك كسوة الفقر فلزم عليك الآن أن توصل نفسك إلى نظر شيخ الوقت بالضرورة حتى يقرأ لك الفاتحة ويكبر في أمرك. وكان لازماً عليه بموجب قاعدة أهل طريقته

الفاسدة أن يذهب إلى كربلاء ويقيم هناك مدة ويقبل التكبير من السادات حتى يستحق للمجادلة والمعارضة. فقدموه بعد ذلك عند الحكام وعاتبوه بأنواع العتاب لزيادته أبياتاً بعيدة عن الصواب وضمه إياها إلى «سلسلة الذهب» بهتاناً وافتراء، وشدة تعصبه وخشونته في الكلام، وسبقه فيها سائر الأنام فصار مظهراً لآثار قهر الحكام وسياسة حامي حوزة الإسلام، فألبسوا على رأسه قلنسوة من خشب في ذلك المجلس وأركبوه على حمار معكوساً وطافوا به مع سائر أقرانه أطراف البلد وأزقة بغداد وأسواقها تعزيراً عليه وتشهيراً ليعتبر به الباقون. فأنشأ مولانا الجامي هذه الأبيات بعد صدور هذه الواقعة وجفاء أهل الرفضة: [أشعار]

أساقِ أدر كأساً على شط أنهار ... أزل عن فؤادي كل غم وإكدار
وناولني أقداح الشمول فإنني ... فقدت سروري من جفا قوم أشرار
أترجو وفاء من لئام وصفوة ... ومن طبع أغوال سبحية أحرار
وما في طريق العشق أمن وصحة ... فطوبى لمعتاد الجفاء وإكدار
إذا عاشق في خلوة الوصل داخل ... فذ فارغ عن نبح كلب وغدار
وسيماء أهل العشق إسقاط كلفة ... فلست تجد عشقاً بذي الختل مكار
أجامي قم واقصد حجازاً فإن هـ ... ـذه الأرض لا فيها مقام لأبرار

وكانت مدة إقامته في بغداد أربعة أشهر ثم توجه إلى الحجاز بعد عيد الفطر من السنة المذكورة وأنشأ قصيدة في مدح النبي ﷺ حين توجهه إلى المدينة المنورة، وهذا مطلعها: [شعر]

محمل رحلت به بنداي ساربان كزشوق يار ... مي كشد هردم برويم قطرهاي خون قطار

ووصل في أواخر شوال إلى حرم النجف المحترم قبلة أهل العز والشرف والكرم، وأنشأ في هذا المقام المبارك والمنزل المتبرك هذا [الغزل]:

قد بدا مشهد مولاي أنيخوا جملي ... كان مشهوداً لعيني منه ذا النور الجلي
وجهه في طرز أصل الأصل صاف مظهره ... ظاهر فيه جلا عكس الجمال الأزلي
صار عيني مذ جلالي وجهه مجلوة ... حق أن يعمى من الخسران للمعتزلي
عاش بالعيش الذي لا ينقضي أهل الهوى ... ذا حياة لا يزالي كذا لم يزلي
ليس في الدنيا متاع لا له فيها بدل ... من خواص العشق وقت الفوت فقد البدل

لا تكن مدعياً للعشق يا من سيرته بغض أهل الحق طراً بالخنا والدغل
لم يفد نفعاً كثيراً نشر مسك في لبا س وأنت المحتشي فيه بروث البغل
إن فقدت ذوق شهد العشق فيك يا دني ليس يجدي فيك تلويث العبا بالعسل
حين تسأل عن أمير العشق جامي قل له إن في ركب الهوى صاح الأمير ذا علي

ونظم قصيدة غراء في منقبة سيدنا علي كرَّم الله وجهه بعد زيارة مشهده المقدس ومرقده المنور، ومطلعها هذا: [شعر]

أصبحت ضيفكم يا شحنة النجف بهر نثار مرقد تو نقدجان بكف

واستقبله النقيب السيد شرف الدين محمد الذي كان سيد السادات، ونقيب النقباء في تلك الديار في هذا الوقت، مع أولاده وأحفاده وسائر الأكابر بالتوقير والتعظيم، وأضافه ثلاثة أيام بضيافة عظيمة وخدمه بخدمات لائقة. ولما استهل هلال ذي القعدة دخل مولانا الجامي مع أهل القافلة البادية متوجهين إلى المدينة المنورة على صاحبها الصلاة والسلام، وأنشأ في أثناء الطريق قصيدة مشتملة على أكثر معجزات النبي ﷺ، ولها مطلعان، الأول:

بانك رحيل أزقافله برخاست خيزاي ساربان
رحتم بنه برراحله آهنك رحلت كن روان

والثاني:

يا رب مدينة إست أين حرم كزخاكش آيدبوي جان
يا ساحت باغ ارم يا عرصة روض الجنان

ووصل إلى المدينة بعد اثنين وعشرين يوماً، وتوجه إلى مكة المكرمة بعد فراغه من وظائف زيارة النبي ﷺ ووصل إليها بعد عشرة أيام في أوائل ذي الحجة. وكانت مدة إقامته في الحرم المحترم خمسة عشر يوماً. ولما فرغ من أداء مناسك حج الإسلام مع جميع شرائطه وآدابه اللازمة على الأنام، توجه ثانياً إلى مدينة النبي ﷺ وأنشأ هذا الغزل في أثناء الطريق: [غزل]

بكعبة رفتم وانجاهواي كوي توكردم جمال كعبه تماشا بياد روي توكردم
شعار كعبه چوديدم سياه دست تمني دراز جانب شعر سياه توكردم
بوحلقه در كعبه بصد نياز كرفتم دعاي حلقة كيسوي مشكبوي توكردم

نهاده خلق حرم سوى كعبة روى أرادت من أزميان همه روي دل بسوي توكردم
مرا بهيچ مقامي نبود غير تو كامي طواف وسعي كه كردم بجسب وجوي توكردم
بموقف عرافات إيستاده خلق دعا خوان من إزدغالب خود بسته كفت وكوي توكردم
فتاده أهل منى دربي منا ومقاصد وجامي إز همه فارغ من آرزوي توكردم

وتوجه نحو الشام بعد إقامته في روضة النبي ﷺ أياماً، وأقام في دمشق الشام خمساً وأربعين يوماً، وصحب فيه القاضي محمد الخضري أقضى قضاة تلك الديار وأكمل المحدثين في زمانه. وكانت له أسانيد عالية في الحديث، فسمع منه الحديث وأخذ السند فيه وقام القاضي بوظائف الخدمة ورسوم الضيافة على ما ينبغي مدة إقامة مولانا عنده. ثم توجه منه إلى حلب، ولما دخل فيه أتحفته السادات والأئمة والقضاة بأنواع التحف والهدايا. وكان سلطان الروم، السلطان محمد الغازي فاتح القسطنطينية المحمية، واسطة عقد السلطنة العثمانية السنية عليه الرحمة والرضوان، قد سمع توجه مولانا من ديار خراسان إلى ولاية الحجاز، فأرسل إليه بعض خواصه مع الخواجه عطاء الله الكرماني الذي كان ملازماً لمولانا الجامي مدة أزمان ومتردداً إلى بابه، والتمس منه تشريفه لمملكة الروم بقدومه المسعود الميمون، وأرسل معهم خمسة آلاف دينار لخرج السفر وعد مائة ألف دينار حين قدومه. فكان من جملة الاتفاقات الحسنة، توجه مولانا إلى جانب حلب قبل وصول رسل السلطان إلى دمشق وذلك بإلهام رباني وإعلام رحماني إياه. ولما دخل رسل السلطان الشام وأخبروا بسفر مولانا تأسفوا كثيراً. وسمع مولانا مجيء رسل السلطان لطلبه إلى الشام فتوجه جانب تبريز خوفاً من مجيئهم لطلبه إلى حلب فيلزم ارتكاب أحد المحذورين مشقة السفر البعيد في تقدير الامتثال ومخالفة أمر السلطان ذي الشأن وعدم إطاعته عند عدمه. ولما وصل إلى آمد صادف قدومه فيها اختلال أحوال الطرق واضطرابها بسبب الحرب والضرب بين عساكر الروم وأذربيجان، وكان الحاكم هناك محمد بك من أعيان التراكمة، وكانت له قرابة قريبة من حسن بك، فرافق قافلة مولانا لحسن عقيدته وكمال خلوصه له مع ثلاثمائة فارس من أقربائه وأتباعه وتعدى بهم من محل المخافة مع السلامة وأوصلهم إلى ولاية تبريز، فاستقبله هناك القاضي حسن ومولانا أبو بكر الطهراني ودرويش قاسم شغاول. وكان هؤلاء الثلاثة من أعاظم الصدور وأجلة ندماء حسن بك مع سائر الأمراء

والكبراء وأعيان تلك المملكة، وأنزلوه مع خدمه وحشمه بالإجلال والإكرام والإعزاز والإنعام في منزل مرغوب، وبلغوا خبره وأوصافه إلى حسن بك، فحضر عنده وأكرمه غاية الإكرام واحترمه نهاية الاحترام وأتحفه بتحف الملوك والتمس منه الإقامة هناك بالإلحام التام، فاعتذر إليه مولانا بعذر ملازمة والدته المسنة. وكان المرزا حسين وقت وصول مولانا إلى هراة في مرو، ولما بلغه قدومه الشريف أرسل إليه بعض معتقديه الخاص بالتحف اللائقة مع مكتوب مشتمل على بيان وفور إخلاصه وتواضعه له، وكتب في صدر المكتوب هذا البيت: [شعر]

أهلاً بمقدمك الشريف فإنه ... فرح القلوب ونزهة الأرواح

ووصلت رقعة الأمير نظام الدين علي شير مقارناً لهذا الحال مشتملاً على هذين البيتين: [شعر]

أنصف لي يا فلك زاو مصابيحه ... فأي هذين قد جمت تفاريحه

شمس بها عالم تمت مصالحه ... أم بدري الباد من شام لوائحه

ورأيت مكتوباً بخطه الشريف على ظهر كتاب: كان ابتداء سفر الحجاز من دار السلطنة هراة في السادس عشر من ربيع الأول سنة سبع وسبعين، ووصلنا إلى بغداد في أواسط جمادي الأخرى وإلى ساحل دجلة في منتصف شوال. ورحلت القافلة منه في العشرين منه، ودخلنا البادية من نجف أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه في غرة ذي القعدة، رتيسر الوصول إلى مدينة الرسول ﷺ في الثاني والعشرين أو الثالث والعشرين. ودخلنا مكة المكرمة في سادس ذي الحجة وارتحلنا منها متوجهين إلى المدينة المنورة في السابع والعشرين، ونزلنا دمشق في أواسط العشر الأخير من محرم، ووقع التوجه من دمشق إلى طرف خراسان راجعين في رابع ربيع الأول بعد صلاة الجمعة، ورصلنا إلى حلب بعد اثني عشر يوماً، وتوجهنا منه إلى قلعة بيرة يوم الاثنين والعشرين من ربيع الثاني، ووصلنا إلى تبريز في الرابع والعشرين من جمادى الأولى، ووقع التوجه إلى خراسان في سادس جمادى الأخرى، ورأينا هلال رجب قبل الوصول إلى دارمين ري بمرحلة واحدة، ونزلنا بلدة هراة يوم الجمعة الثامن عشر من شعبان، وكان ذلك في سنة ثمان وسبعين وثمانمائة.

ولنذكر نفائس أنفاسه المسموعة في ضمن عشرين رشحة:

* رشحة: قال يوماً بتقريب: ليست الأصالة عند أهل التحقيق أن يكون آباء

شخص وأجداده من جنس الأمراء والوزراء ولا أن يكونوا منتظمين في سلك الفسقة والظلمة، بل الأصالة عبارة عن حسن جوهر يكون في ذات الإنسان كالفطرة السليمة والسيرة السنية. والذي يظنه أكثر الناس من أصالة أفراد الناس فهو عين سوء الأصل.

• رشحة: قال: إذا أراد رجل خبيث الأصل أن يعد عيب إنسان يجري أولاً على لسانه عيوب نفسه التي هي مركوزة في طبيعته الخسيسة، فإنها أقرب إلى فمه من عيوب غيره.

• رشحة: قال: ينبغي إظهار الشفقة والمرحمة على جميع الفقراء والسائلين وأن لا يمنع اللقمة من الأخيار والأشرار نظراً إلى موجده مع قطع النظر عن ذات السائل ووصفه، وليس من اللوازم أن يكون المحسن إليه جنيداً أو شبلياً فإن عالي الهمة وصاحب الورع لا يتردد إلى أبواب الناس ولا يسأل عنهم شيئاً أصلاً، ولكن من أين يعرف أن لا يكون في هذا اللباس والخرقة صاحب دولة مجهول! بل الواقع في أكثر أولياء الله تعالى أن يستروا أحوالهم بصورة الفقر والفاقة.

• رشحة: سأل يوماً شخصاً: في أي شغل أنت؟ قال: إن لي حضوراً وقد قعدت في زاوية الفراغ وجعلت رجلي في ذيل العافية. فقال: ليس الحضور والعافية أن تلف رجلك بكرباس وتقعد في زاوية، بل العافية أن تتخلص من أسر نفسك، فإذا حصل لك ذلك إن شئت فاقعد في زاوية وإن شئت فاسكن بين الناس.

• رشحة: قال: إن من علامة الفتوة والمروة كون الإنسان محزوناً ومهموماً دائماً، فإن القعود على الفراغ في عالم الأسباب ليس بحسن والذي ليس له حزن وهم تفوح منه رائحة الغفلة والفتور، والذي فيه حزن وهم يفوح منه طيب الجمعية والحضور، ونسبة أكابر النقشبندية قدس الله أرواحهم تظهر في صورة الحزن والغم.

• رشحة: قال: إن المحبة الذاتية أن يحب إنسان إنساناً ولا يظهر سبب محبته له، وهذا كثير بين الناس. فإذا ظهرت لشخص محبة الله تعالى من هذا القسم يقال لها: محبة ذاتية، وهذا القسم أفضل أنواع المحبة وليس من المحبة أن يحبه وقت رؤية لطفه فإذا أحس منه عنفاً لا يبقى له ميل إليه.

• رشحة: قال عنده شخص: إن فلاناً يكثر من ذكر الجهر ولا أراه خالياً عن الرياء، فقال: يا هذا يكفيه يوم القيامة ذكره اللساني فإنه يظهر من ذكره اللساني نور

ينوّر جميع صحراء القيمة. ثم قال: قال الأكابر: إن لذكر الجهر خاصية ليست هي للذكر الخفي، فإن النفس إذا تحققت بتعقل مفهوم الذكر تتأثر القوة المتخيلة أولاً بتخيل لفظه، وتتأثر القوة الناطقة ثانياً بتكلمه، وتتأثر القوة السامعة ثالثاً بسماعه، وتتأثر القوة المتخيلة مرة أخرى رابعاً، يعني بتخيل مفهومه، وكذلك تتأثر النفس والقوة العقلية وهذه حركة دورية على وفق الحركة الدورية الوجودية والتشبث بتلك الحركة الصورية التي هي صورة الحركة المعنوية ممد لحصول ذلك التحقق.

• رشحة: قال شخص في مجلسه: إن الله سبحانه وتعالى قال: «أنا جليس من ذكرني»[1]. فإذا كان كذلك، كيف يختار ذكر الجهر؟ فقال: كما أن الحق سبحانه جليس من ذكره فكذلك هو حاضر عندي يباشر المعاصي وناظر إليه فإذا لم يكن حضوره تعالى ونظره ملحوظاً في أوقات المعاصي فكيف يكون ذلك ملحوظاً وقت الذكر الجهري. على أن الله تعالى محيط بكل شيء ظاهراً وباطناً، يعني: ينبغي أن يترك الذكر الخفي أيضاً إن لوحظ ذلك وذكر الجهر أيضاً حسن.

• رشحة: سئل مرة عن سبب تقليله الكلام في التصوُّف، فقال: اعلم أن أحداً إذا تكلَّم في التصوُّف فقد لعب مع صاحبه زماناً، يعني: أن التصوف من مقولة الحال غير حاصل بقيل وقال ولا يسعه نطاق المقال، وما قدره أحد حق قدره وما زاد بيانهم غير ستره، فإن الإعراب عنه لغير ذائقه ستر وتلبيس، والإظهار لغير واجده إخفاء وتدليس. فالتكلم فيه إذاً يكون كاللعب في كونه مما لا يعني، اللهم إلا أن يكون مع أهله لإعلام معالم الطريق وعقباته ليحترز عن الوقوع في آفاته. وقد أحسن من قال: [شعر]

علم التصوُّف عِلْمٌ ليس يعرفه ... إلاَّ أخو ثقة بالعلم معروف

وكيف يعرفه من ليس يبصره ... وكيف يبصر ضوء الشمس مكفوف

• رشحة: قال: إن كلمات أولياء الله تعالى مقتبسة من مشكاة الحقيقة المحمدية ﷺ. فكما أن تعظيم القرآن والحديث النبوي واجب على عامة الأمة، كذلك تعظيم كلام أولياء الله لازم أيضاً. فينبغي أن يعامل كلامهم بالأدب والحرمة،

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٣٩) الرجل يذكر الله وهو على الخلاء أو هو يجامع، حديث رقم (١٢٢٤) [١/١٠٨] ورواه البيهقي في شعب الإيمان، الفصل الثاني في ذكر آثار وأخبار وردت في ذكر الله عزَّ وجلَّ. . .، حديث رقم (٦٨٠) [١/ ٤٥١] ورواه غيرهما.

حتى يجد في نفسه التعظيم والاحترام.

• رشحة: كتب الشيخ عبد الرزاق الكاشي قدّس سرّه في بعض مصنفاته: بسم الله، أي بالإنسان الكامل. فأشكل ذلك على بعض علماء الوقت غاية الإشكال بأن تفسير تلك الكلمة بهذه العبارة كيف يستقيم؟ فعرض ذلك يوماً على مولانا الجامي واستكشف عنه منه فقال: إن هذه العبارة تفسير لفظ اسم لا تفسير لفظة الله جلّ جلاله.

• رشحة: قال مرة: خطر اليوم على خاطري ولم أره في محل إن المظهر في الحقيقة إنما هو الصورة المنطبعة في المرآة لا عين المرآة، فإن المظهر هو الحاكي عن حال الظاهر فيه، ويظهر أوصافه وأحكامه في ذلك المظهر، وليست تلك الحالة لجوهر المرآة. وكان غرضه من هذا الكلام شيء آخر ولكن طواه في نشر هذا التمثيل.

• رشحة: قال بعض الأعزة الذي كان له رجوع دائم إلى ملازمة مولانا الجامي: كتب يوماً في مجلس وعظ خواجة شمس الدين محمد الكوسوي فقال في راس المنبر: قد أشكل عليَّ مدة مديدة ما يقوله أهل الشرع من أن ضغطة القبر بالنسبة إلى جميع الناس من المؤمنين والكافرين حق، وقال: إنها تكون على وجه ينقلب الجانب الأيمن على الأيسر، والأيسر على الأيمن، فإنه لا تردد في كون تلك الصورة تعذيباً محضاً، فكيف يتصور ذلك في حق الأنبياء والأولياء، بل في حق صلحاء المؤمنين. ثم خطر في قلبي أن الغرض من انقلاب الأيمن على الأيسر وعكسه، هو جعل الروحاني جسماني، والجسماني روحانياً. ولما كان توجيه الخواجة إجمالياً، سألت يوماً مولانا الجامي عن معنى هذا الكلام فقال: إن الصوفية قدَّس الله أرواحهم يقولون للبرزخ: قبر، والبرزخ عبارة عن مرتبة تكون واسطة بين العالم الجسماني والروحاني. ومعنى: جعل الروحاني جسمانياً هو أن يجعل الروح مصورة بصورة مثالية، يعني تظهر لها صورة مقدارية يمكن أن تكون عبارة عن كم وكيف. ومعنى جعل الجسماني روحانياً ليس المراد بالجسم هنا البدن الكائن في حيطة القبر، فإن الروح المجردة قد تركته بالكلية. بل المراد منه أن طائر الروح الذي كان له تعلق بهذا الجسم الكثيف، وقيل له من حيثية ذلك التعلق جسمانياً مجازاً، يظهر له بعد مفارقته من هذا الجسم تعلق آخر في هواء الانقطاع في

غاية اللطافة، ويقال له من حيثية ذلك التعلق روحانياً.

ووجه آخر لهذا الكلام: أن الصفات الروحانية مخفية ومستترة في هذا العالم تحت حجاب الصفات الجسمانية، والصفات الجسمانية ظاهرة وغالبة. فكل فرد من أفراد الإنسان في هذا العالم، أعني عالم الكون والفساد، ظاهرة فيه الصفات الإنسانية والصفات السبعية والشهوية مخفية. وقد قيل: إن جميع المعاني يكون مصوراً في العالم الروحاني على وجه يظهر الشخص الذي كانت صفة من الصفات السبعية مبطنة فيه في صورة ذلك السبع، فحينئذ يكون الروحاني الذي هو صفة معنوية مستترة جسمانياً البتة، والجسماني الذي هو صفة ظاهرة الآن روحانياً، يعني مختفياً ومستتراً فلا يلزم التعذيب على هذين الوجهين.

* رشحة: سأله واحد من الأكابر عن معنى هذا الحديث: يؤجر ابن آدم في نفقته كلها الأشياء وضعه في الماء والطين، وقال: يلزم على هذا أن لا يؤجر في الآخرة لبناء المساجد والرباطات والمعابد وأمثالها. فقال: يخطر في قلبي في فهم هذا الحديث معنى آخر، وهو: يمكن أن يكون المراد من الماء والطين عالم الأجسام، فيكون المعنى: أن الإنسان يؤجر في نفقته كلها إلا في نفقة لا تتجاوز فيها همته ونيّته عن عالم الأجسام، بل ينفقها لفوائد جسمانية وحظوظ نفسانية ولوازمها وعوائدها.

* رشحة: قال: لو جمع شخص علوم الأولين والآخرين لا يكون شيء من تلك العلوم ممداً وأميناً له في النفس الأخير، بل يكون جميع معلوماته ممحواً عن لوح مدركته إلا ما حصله من ملكة الحضور والجمعية. وما ينفع في النفس الأخير ويكون ممداً ومعيناً إنما هو هذا الحضور والجمعية لا غير. فينبغي للعاقل أن يغتنم أيام الشباب بالتزام رياضة قليلة في مدة يسيرة، وأن يقعد على زاوية حتى تحصل له ملكة الحضور والجمعية ويتخلص الخاطر عن مزاحمة النفي والإثبات.

* رشحة: قال: ما رأيت في طريقة خواجكان قدَّس الله أرواحهم مَن ليس له ذوق وقبول إلا قليلاً، فإن بداية هؤلاء الأكابر نهاية الآخرين. فقلما يقبلون شخصاً ثم يتركونه ويطردونه فإن وقع في الساحل بغلبة أحكام النفس والهوى يجذبونه ويجرونه إلى الوسط.

* رشحة: قال: قد اعتاد بعض الناس أكل أشياء عجيبة وشربها، مثل البنج والخمر، لتحصيل الفرح والسرور والكيفية المطيبة للنفس. فمن شرب الخمر فقد

خرج من دائرة الإسلام وصار عفريتاً أو سبعاً ويكون خلق الله تعالى مشوشاً ومضطرباً منه. والذي يأكل البنج يكون حماراً أو بقراً لا يعرف شيئاً غير قضاء شهوته من الأكل والشرب. ومع ذلك يسمون هذه الحالة والكيفية حضوراً وكيفاً ولا كيفية أحسن وأطيب من التعقل الذي يكون به واقفاً وحاضراً بنفسه. ومن طلب الحضور والكيفية من هذه الأشياء فذانك الحضور والكيفية لائقان برأسه ولحيته وأثرهما ظاهر فيهما في هذا العالم، وقد ابتلي بذلك كثير من أناس طيبين.

* رشحة: قال: إن زمان الشيخوخة آخرة زمان الشباب، ويظهر في البشرة في زمان الشيخوخة ما كانوا عليه في عهد الشباب.

* رشحة: جاء يوماً مجلسه الشريف فضولي بارد، وكان يدَّعي الزهد والتقوى. فأحضروا طعاماً ولم يحضر الملح اتفاقاً، فقال الفضولي للخادم: هات الملح حتى نبدأ بالملح. فقال مولانا على سبيل المطايبة: إن في الخبز ملحاً. فشرعوا في الأكل، فرأى الفضولي شخصاً يكسر الخبز بيد واحدة فقال له متعرضاً: إن كسر الخبز بيد واحدة مكروه. فقال مولانا: والنظر إلى أيدي الناس وأفواههم أشد كراهة من كسر الخبز بيد واحدة. فسكت هنيهة ثم قال بعد برهة: إن الكلام وقت الطعام من سنَّة النبي عليه الصلاة والسلام. فقال مولانا: تكثير الكلام مكروه ومذموم عند الأنام. فسكت ولم يتكلم إلى انقراض المجلس.

* رشحة: التمس منه يوماً شخص أن يعلمه شيئاً يكون مشغولاً به إلى آخر عمره، فقال: التمس ذلك الشخص من حضرة مولانا سعد الدين قدّس سرّه فوضع يده المباركة على جنبه الأيسر وأشار إلى قلبه الصنوبري الشكل وقال: كن مشغولاً بهذا والأمر ليس إلا هذا. يعني: ينبغي أن يجعل الوقوف القلبي لازماً لنفسه، وقد تضمن هذا المعنى هذان البيتان: [شعر]

أخي كن لأرباب القلوب ملازماً ... وفي قربهم حصل لك القلب سالما
فإن رمت من خل قديم جماله ... فتقلبك مرآة فقابله دائما

* * *

ذكر بعض خوارقه للعادات قدّس سرّه

قال واحد من أكابر العلماء المتقين وكان في رفاقته في سفر الحجاز من هراة: كنت مريضاً في بغداد وامتد مرضي ذلك، واشتد وتأخر مولانا الجامي في عيادتي

وسؤاله عن أحوالي، فصرت ملولاً من هذه الحيثية غاية الملالة. فجاء يوماً واحد من أحبابي وقال: هذا مولانا الجامي قد جاء لعيادتك. فحصلت لي كيفية من هذه البشارة وظهرت قوة في طبيعتي، فرفعت رأسي من المخدة وقعدت على فراشي، فدخل مولانا وجلس قريباً مني وسأل عن حالي وقال: قد امتد مرضك هذا. فأنشدته هذا البيت المشهور: [شعر]

فإن جئت في مصوى عبيدك عائداً   فقد طاب لي سقم الدهور لذلكا

فقال على سبيل الانبساط: أعَلَيَّ تنشد بيتاً! ثم جلس لحظة مراقباً على السكوت، فظهر العرق مني في تلك الأثناء. فلما رفع رأسه ورأى في جبيني قطرات العرق قال: استرح لعل مرضك يخقق بسبب هذا العرق. فاضطجعت على فراشي وقام مولانا وخرج ولفني رفقائي بالأثواب فسال عني عرق كثير وزال الحمى في هذا اليوم، وقمت عن فراشي بعد ثلاثة أيام، وجئت حضوره.

وحكى واحد من العلماء الصالحين الذي كان معه أيضاً في سفر الحجاز: أنه لما دخلنا حلب وقت المراجعة من الحجاز، نزل كل من الأصحاب في منزل على حدة ونزلت أنا الخان، فمرضت هناك واستولى عليَّ الضعف بحيث قطعت طمعي في الحياة واستيأس الرفقاء أيضاً من حياتي، وكان ذلك الوقت وقت الحر. ولما كان يوماً من الأيام رأيت من شق الباب خيال شخص قد فتح الباب قليلاً بحيث يرى منه طرف عمامته، ولكن لم أعرف أنه من هو، فقلت في نفسي: لعله واحد من رفقائي جاء للاستخبار عن أحوالي. وتوقف ظنّاً منه أني نائم، فانتبه بدخوله فقلت: ليدخل البيت مَن في الباب كائناً من كان. وقد كنت أعرف أن لمولانا خبراً عن مرضي ولكن ما كنت أظن أنه يعودني. فلما فتح الباب فإذا هو مولانا الجامي وقد امتلأت الحجرة من نور وجهه الشريف، فعرضت لي كيفية عجيبة حتى أردت القيام ووجدت في نفسي قوة للقيام مع أنه لم يكن فيَّ مجال للحركة في هذا الحال. فقال: اقعد ولا تتحرك. فاستقررت على حالي وجاء مولانا وقعد قريباً مني وسئلني عن حالي، فخطر في بالي من خفة أثقالي برؤية وجهه المتلألىء بيته هذا، فأنشدته: [شعر]

غدا عبدك الجامي بفكرك طيباً   ولكنه من وصلك الآن أطيب

فأخذ بيدي اليمنى وشمر كمّي إلى مرفقي ومسحها بيده الكريمة مرات مثل ما

يتوضأ المريض فغاب عن نفسه في تلك الحالة، نغمضت عيني موافقة له وتوجهت إليه ثم فتحت عيني بعد زمان طويل لأنظر أنه جاء إلى نفسه من استغراقه أم لا؟ فرأيته في الاستغراق على حاله فغمضت عيني ثانياً فرفع رأسه بعد ساعة ووضع يدي على صدري وقرأ الفاتحة وقال: بماذا أمرك الأطباء أن تشرب؟ قلت: أمروني بشرب شراب السفرجل ولم يكن شراب السفرجل موجوداً في هذا الوقت بحلب، فقال: أنا أرسل لك شراب السفرجل. وقام وراح وأرسل شراب السفرجل، ولما شربته وجدت خفة في نفسي من ساعة وزال المرض عني بالتمام بعد ثلاثة أيام ولم يبق منه أثر أصلاً.

قال مولانا رضي الدين عبد الغفور عليه الرحمة والغفران: جئت يوماً عنده في خلوته ولم يكن وقته مقتضياً لمجيئي. فلما فطنت بذلك استولى عليّ همّ عظيم وظهر في جميع أعضائي ثقل قوي حتى لم يبق لي طاقة الجلوس. فقمت وخرجت فأفضت تلك الحالة إلى مرض قوي وانجر الأمر إلى الصعوبة والمشقة حتى يئس الأطباء من العلاج، وزاد القلق والاضطراب في اليوم السابع وتغيّر الحال على وجه تيقنت الموت، فتمنيت رؤيته المباركة، فجاء في الحال، وكنت بحيث لم يكن في عضو من أعضائي مجال للحركة، فعرضت عليه حالي بتمام التشويش وطلبت منه تلقين شغلي. فشرعت فيه بمقتضى إشارته وأحضرت في قلبي صورته المباركة بأمره، وكان هو أيضاً متوجهاً إليّ، فأخذت تلك الكيفية بعد لحظة في النزول وتبدلت إلى حالة طيبة ووصلت لذة تلك الحالة إلى جميع قواي وأعضائي حتى قمت وقعدت على ركبتي. فلما رفع رأسه ورآني قاعداً قال: يزول التشويش إن شاء الله. وقرأ الفاتحة وراح. ومشيت لمشايعته إلى باب الحجرة فزال عني ذلك المرض في هذا اليوم بالتمام ومضى بالخير والسلام.

ولما مضى من هذه القضية سنون، حكى واحد من أصحاب حضرة شيخنا قدّس سرّه من تصرفاته. فقصصت عليه هذه القصة، فجاء عند مولانا الجامي واستدعى منه تفصيل تلك القصة فقال: لما سمعت شدة حاله وغلبة مرضه حضرت عنده لعيادته وكنت مشغولاً بدفع مرضه، فرأيت المرض قد قام منه وتوجه إليّ، فتضرعت إلى الله تعالى وقلت: يا رب ليس لي طاقة لتحمل هذا المرض، فاندفع عني أيضاً.

مَرِضَ واحد من أكابر كيلان أياماً وأشرف على الموت أخيراً، فجزع أولاده وأصحابه وعشائره وأقرباؤه وشقوا جيوبهم وصاحوا وناحوا، واشتغلوا بترتيب التجهيز والتكفين، فظهر فيه أثر الحس والحركة في هذا الحال دفعة، وأفاق من سكرات الموت وغمراته شيئاً فشيئاً، وقام من فراشه في هذا اليوم بكمال الصحة وتمام العافية، وتعجب الحاضرون من هذه الحالة وتحيّروا غاية الحيرة ولم يطلع أحد على حقيقة ذلك الحال. فقال ذلك الشخص بعد زمان لبعض محارمه وخواص ندمائه: إنه لما اشتد بي المرض وقرب مفارقة روحي عن بدني، ظهر حضرة مولانا عبد الرحمٰن الجامي قدّس سرّه وتوجه إليَّ فزال المرض عني، فأرسل إليَّ مولانا الجامي بعد هذه الواقعة أجناساً نفيسة من صوف وكتان وغيرهما ما يبلغ قيمتها عشرين ألف ذهبية بطريق الهدية، والتمس منه بتمام التضرع تعليم الطريقة العلية. نكتب مولانا الجامي رسالة مختصرة مفيدة في الطريقة النقشبندية قدّس الله أسرار أهلها وأرسلها إليه، وكتب في آخرها: أن التكلم بأمثال هذه الكلمات وكتابتها، وإن لم يكن من وظيفة هذا الفقير وطريقته، ولكن لما وصل إلى مشام الذوق رائحة الإخلاص من ذلك الجانب، كان باعثاً على تحرير تلك المباني وتقرير تيك المعاني. [شعر]

وإني وإن كنت لذا غير قابل ولست لما نال الكرام بنائل
ولكنني أبرزت من ذا علامة لعلك أن تحظى به إن تحاول

ووقع مثل هذه الواقعة لشخص آخر من أكابر بلخ، حكتها جماعة رأوه وسمعوا منه تلك القصة.

وكان له في طريق الحجاز جمل خاص بنفسه، فطمع فيه الجمّال الأعرابي واشتراه منه بعد إلحاح وإبرام بمبلغ ما أراده مولانا الجامي وشدّ عليه حمله، فمرض الجمل بعد عشرة أيام في الصحراء ومات تحت كثيب. فجاء الأعرابي لديه وبدأ بالخشونة والغلظة عليه وقال: إنه كان معيوباً ومعلولاً وقت بيعك لي ولم تبين عيبه وعلّته. وبسط لسانه بكلام فاحش واسترد ثمنه بشدة وتعنيف وتخويف، فقال مولانا: أن هذا الإعرابي قد تغيّر والظاهر أن حتفه قد قَرُب. ولما وصلوا إلى هذا الكثيب حين رجوعهم من مكة سقط الأعرابي ومات، فدفنوه في هذا الكثيب.

قال جمع من أصحابه الذين كانوا معه في سفر الحج: إن ذلك المبتدي

المسمى بالفتحي الذي التحق بالروافض في بغداد وأثار الفتنة وصار مردوداً ومطروداً عن نظر عنايته ورجع من بغداد إلى تبريز من غير أداء الحج، علق مخلاة الشعير على رأس فرسه وقت مغرب بتبريز ثم جاء بعد ساعة وأدخل يده في المخلاة ليجس الشعير الباقي، فعض الفرس سبابته وأقلعها عن أصلها، فمات من شدة ألمها على الإدبار وسلَّم نفسه إلى يد الخزي والبوار.

قال مولانا شمس الدين محمد الروجي الآتي ذكره: كنت يوماً قاعداً على ساحل نهر وقت طغيان الماء مع مولانا عبد الرحمٰن الجامي، فظهر من فوق الماء قنفذة ميتة فأخذها مولانا من الماء ومسحها بيده الكريمة، فظهرت الحركة فيها بعد لحظة بعد أن لم يكن أثر الحياة ظاهراً فيها، وجاءت جنب مولانا على خلاف مقتضى طبيعتها، واستقرت على ذيله إلى أن توجهنا إلى البلد، فوضعها على الأرض ونام ومضى، فأخذت تمشي من خلفه بالدهشة والحيرة وجاءت مسافة كبيرة إلى أن وصلنا محل ازدحام الناس واختفينا عن نظرها واختفت هي أيضاً عنا.

كان غلام صاحب حُسن وجمال منظوراً بنظر مولانا الجامي قدِّس سرّه أوقاتاً، فحكى لي مرة: كنت يوماً في ملازمته فرحنا معه إلى قرية سياوشان برسم التنزه والتفرُّج وكان معنا جمع عظيم من الأصحاب. ولما جاء الليل نام كل من الأصحاب في زاوية واختار مولانا زاوية وسيعة واستراح فيها، وأسرجوا هناك شمعاً كبير إلى الصباح، ونمت أيضاً في أبعد زوايا هذا البيت عن مولانا. ولما مضت ساعتان من الليل انتبهت من غير سبب، ووجدتني قاعداً على ركبتي، ورأيت مولانا أيضاً قاعداً كذلك في مجلسه، مراقباً، فاضطجعت ثانياً ونمت زماناً، ثم انتبهت كذلك بلا سبب ووجدتني جالساً على ركبتي مثل الأول، فزاد تحيري وتكررت هذه الحالة في تلك الليلة. فعلمت أخيراً أن هذا إنما هو بواسطة توجه خاطره الشريف إليَّ، فقمت وتوضأت وجئت عنده وقعدت على ركبتي إلى الصباح.

نقل واحد من أكابر مخلصيه: أنه وقع في قلبي داعية الانتقال من البلد إلى رأس المزار، وأن أكون مقيماً هناك. فجئت عند مولانا الجامي وعرضت عليه داعيتي فقال: مناسب غاية المناسبة، فاخرج من البلد سريعاً ولا تهمل فيه فإن الفرصة غنيمة وفي الكمين حوادث. وأظهر في ذلك اهتماماً تاماً حتى طلب الخادم وأمره بتعيين المنزل وبالغ ثانياً في التوصية بالإسراع والاستعجال. ولما جئت البلد

وقع الفتور في تلك الداعية بسبب بعض العوارض المانعة حتى رجعت عنها، فدخل اللصوص بعد جمعة بيتي وكان لي ألف دينار شاهرخية فأخذوها مع سائر الأمتعة في البيت وتركوني عرياناً مفلساً.

جاء يوماً مولانا سيف الدين أحمد، شيخ الإسلام الهروي، مع سائر أرباب التدريس مجلسه الشريف. فبعد تقديم رسوم الضيافات أمر المغنيين والزمارين والدقاقين ليغنوا في هذا المجلس ويضربوا بالدف والأعواد، ففعلوا. ثم خرج حضرة مولانا بعد ثلاثة أيام إلى جانب المقبرة للتفرج، فلقي فيه اتفاقاً الشيخ شاه، وكان من المشايخ المتورعين، وقد بلغه قبل ملاقاتهما ما وقع في المجلس السابق. فقال له الشيخ شاه في أثناء الصحبة: كيف يستعملون في مجلسك أسباب الطرب ويلعبون بما لا يليق لذوي الأدب وأنت مقتدى علماء العالم ورئيس عرفاء العرب والعجم! فجعل مولانا فاه في أذنه وكلّمه في ستر السر والإخفاء بحيث لم يطلع عليه أحد من أهل المجلس، فصاح الشيخ صيحة وخرّ مغشياً عليه. ولما أفاق تضرّع إليه ولم يطلق لسانه بأمثال تلك الكلمات ثانياً لديه.

قال والد هذا الفقير عليه الرحمة: طالعت يوماً بعض التفاسير ونظرت في معنى هذه الآية: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: الآية ٣٧] الآية، وتأملت فيها، فخطر في قلبي بأنه يمكن أن يحمل النهار في هذه الآية بحسب التأويل على نور الوجود، والليل على ظلمة العدم. فعزمت أن أعرض ذلك على مولانا الجامي، فحضرت عنده في اليوم الثاني. ولما قعدت هنيهة قال: متى خطر على قلبك وقت مطالعة التفاسير معنى مناسب لمشرب هذه الطائفة في بعض الآيات القرآنية قرره لي! فشرحت له ما في بالي فاستحسنه.

قال عالم فاضل من كبار تلامذة مولانا الجامي: خرجت يوماً من البلد بقصد زيارته وملازمته، وكان في رأس المزار، فأقبل في الطريق غلام صبيح الوجه في قرب رباط مولانا محيي، فنظرت إلى جانبه مرة أو مرتين بلا اختيار، فمر بي شخص مقارناً لهذا الحال وعلى كتفه أثواب من اللبلد الملوّن، فصك طرف لبد عيني اليمنى صكاً شديداً بحيث ظننت أنه سهم رموني به، فقعدت مدة على باب الرباط وسال من عيني دموع كثيرة. ولما جئت عنده لقيته قاعداً على باب المسجد مع جمع من الأكابر، فقعدت معهم، فرفع رأسه بعد لحظة وقال: إن واحداً من الفقراء أوقع نظره

على غلام صاحب حسن وجمال في الطواف فظهرت يد في الهواء ولطمت وجهه على وجه فاضت إحدى عينيه من الدمع وهتف هاتف نظره بلطمة: إن زدت زدناك. ثم توجه إلى الفقير وقال: ينبغي أن يحفظ العين حتى يحفظوا أيديهم.

قال واحد من أهل العلم والصلاح، وكان له إخلاص تام لحضرة مولانا وتردد لديه: جئت يوماً منزله على رأس المزار بنية ملازمته وكان هو في داخل حرمه. وكان واحد من صوفية الوقت قاعداً في الباب منتظراً لخروجه، فجرى بيننا كلام من كل باب، فنقل في أثناء الكلام عن الشيخ محي الدين بن عربي قدّس سرّه أنه قال: ورد فرضية الصوم على شهر من الشهور الإثني عشر في كل سنة، أي شهر كان من غير تخصيص وتعيين بشهر رمضان ولا بغيره من الشهور، فصرت متأثراً من استماع هذا الكلام غاية التأثر، فإني كنت معتقداً في الشيخ محي الدين اعتقاداً تاماً ولم أرض بصدور أمثال هذا الكلام عنه. فقمت من هذا المجلس وجئت البلد من غير ملازمته، وجاء صاحبي أيضاً من ورائي بلا ملازمته. فجئته في اليوم الثاني لتحقيق هذا الكلام، فبدأ بإلقاء أنواع المقدمات قبل عرض ما في البال حتى انجرّ الكلام إلى أن قال: ينبغي لنا الرضى بطور فقهاء زماننا وطريقتهم، وقد كتب الشيخ محي الدين بن عربي قدّس سرّه في «الفتوحات المكيّة» في ذم بعض فقهاء الزمان أنه: كتب واحد من زمرة فقهاء مصر في الوقت الفلاني، فتوى في باب الصوم الفرض بناء على مصلحة رأي سلطان الوقت ما صورته كذا وكذا، وقرر ما نقله صاحبي بالأمس.

جاء واحد من أولاد مولانا جلال الدين الرومي قدّس سرّه من الروم إلى خراسان، وكان شيخاً عالماً عارفاً، وكان مدة في ملازمة مولانا الجامي. وكان مولانا ينظر إليه بنظر الالتفات، وعيّن له منزلاً على حدة في المزار. قال هو يوماً: جاء مولانا الجامي منزلي ليلة في ذلك الأثناء فصلّينا العشاء ثم جلسنا للصحبة إلى الصبح على السكوت، ومضت تلك الليلة عليّ كنفس واحد. وقال: إن في طريقة خواجكان قدّس الله أرواحهم: لا يحصل لأحد شيء ما دام لم يكن منهم التفات إلى حاله.

وحكى هو أيضاً: كنت ليلة في الطريق وكانت مُظلمة ومَطيرة، فتوجهت إلى طرفه في حال الاضطرار، فاستنار الطريق وتخلصت من تشويش الظلمة.

* * *

ذكر تاريخ وفاته قدّس سرّه وبيان ثمرات شجرة ولايته

وقد أورد أستاذي مولانا رضي الدين عبد الغفور عليه الرحمة والغفران كيفية ارتحاله وانتقاله من الدنيا بطريق التفصيل في تكملة حاشية «نفحات الأنس» التي هي مشتملة على ذكر فضائله، وهو كتاب مشهور ومضمونه على الألسنة مذكور، فلا علينا أن نوردها هنا بطريق الإجمال.

اعلم أن ابتداء مرضه كان يوم الأحد الثالث عشر من محرم الحرام سنة ثمان وتسعين وثمانمائة، وضعف نبضه في صباح يوم الجمعة سادس أيام مرضه. ولما أذّن المؤذن أول أذاني الجمعة انقطع نفسه المبارك وتوجه طير روحه من مضيق دار الفناء إلى فضاء دار البقاء. وقد أنشد فضلاء الوقت وشعراء الزمان مرثيات كثيرة وتواريخ لوفاته، ونظموا القصائد والمقطعات والرباعيات. ونورد هنا منها هذه الأبيات: [شعر]

غوث آفاق حضرة جامي   كان في مقلة الورى نورا
چون عنان تافت ازدارفنا   كرد بركعبه يقاورورا
كردبر كعبة يقاورورا   سال وماه وفات روزش بود
هشر دهم روزماه عاشورا

قطعة أخرى:

جامي كه بود بلبل جنت قرار يافت   في روضة مخلدة عرضها السماء
كلكه قضا نوشت روان برد بهشت   تاريخه ومن دخله كان آمنا

لا يخفى أنه كان لحضرة الخواجة كلان ابن مولانا سعد الدين الكاشغري قدّس سرّه صبيتان، كانت إحداهما في حالة عقد مولانا الجامي قدّس سرّه والأخرى كانت نصيبة لراقم هذه الحروف. وقد قلت في هذا المعنى: [شعر]

ولقد بدت من برج سعد كوكبا   شرف فنوّرتا عيون الناظر
إحداهما حلّت ببيت العارف الـ   ـجامي وأخراها ثوت في ناظري

وكان لمولانا الجامي من هذه الصبية أربعة أولاد، عاش الأول يوماً واحداً فقط ومات قبل التسمية. والثاني: الخواجة صفي الدين محمد مات بعد سنة من

ولادته، فتأثر مولانا من موته غاية التأثر ونظم مرثية لأجله وهي مسطورة في ديوانه الأول، فليراجع. ومن الاتفاقات العجيبة أنه جعل لقبه الذي هو صفي بعد وفاته تخلصاً لهذا الفقير، وقد جعل لقب هذا الفقير الذي هو فخرنا تاريخاً لولادته كما نظمه في هذا الرباعي، وقد نقلته عن خطه المبارك: [شعر]

فرزند صفي الدين محمد كه جهان   شد زنده باو چنانچه تن زنده بجان

چون شد بوجودا وجهان فخر كنان   شد سال ولادت وي إز فخر عيان

وأرسل الأمير نظام الدين علي شير بعد موته هذه الفقرة المشتملة على أربعة كلمات متضمنة لتاريخ وفاته إلى مولانا الجامي قدّس سرّه وهي:

بقاي حيات شما باد

والثالث: الخواجة ضياء الدين يوسف. وتاريخ ولادته على ما رأيته بخطه المبارك: ولادة الولد الأمجد ضياء الدين يوسف أنبته الله نباتاً حسناً، في النصف الأخير من ليلة الأربعاء التاسعة من شوال سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة. وكان مولانا يوماً قاعداً على جنب الحوض الواقع في شمال المسجد القديم، فجاء واحد من الخدمة من طرف الحرم حاملاً لخواجة ضياء الدين على كتفه، وكان في ذلك الوقت ابن خمس سنين تخميناً. ولما جاءه قال: يا أبت إني لم أر الشيخ خواجة عبيد الله قدّس سرّه. فتبسّم وقال: إنك رأيت الخواجة عبيد الله لكن لم يبق في خاطرك. ثم قال: رأيت في المنام في هذه الأيام أن حضرة الخواجة عبيد الله حضر في هذا الموضع، وأشار إلى رواق في شمال المسجد، وجئته حاملاً لضياء الدين على يدي، والتمست منه أن ينظر إليه بنظر العناية وأن يشرّفه بشرف التفاته. فأخذه من يدي ووضع فاه في فِيهِ وصبَّ مِن فِيهِ شيئاً لي في غاية البياض في فِيهِ حتى امتلأ فَوه وزاد ثم أعطانيه، فانتبهت من نومي. ونظم هذه الواقعة في ديباجة خردنامة إسكندري في أثناء ذكر منقبة حضرة شيخنا قدّس سرّه.

والرابع: الخواجة ظهير الدين عيسى. ولد بعد تسع سنين من ولادة الخواجة ضياء الدين. وتاريخ ولادته على ما رأيته بخطه المبارك: ولادة الولد الأرشد، ظهير الدين عيسى، وسط وقت الظهر من يوم الخميس خامس محرم سنة إحدى وتسعين وثمانمائة أنبته الله نباتاً حسناً ورزقه سعادة الدارين بمحمد وآله الطيبين الطاهرين. وتوفي بعد أربعين يوماً. ونظم في تاريخ ولادته ووفاته هاتين القطعتين: [شعر]

لخمس من محرم وقت ظهر | أتى مستبشر بوجود عيسى
فطالعت اسمه من بين الأسماء | فما قالوا سوى ذلك عيسى
فعد ملحوظ عيسى دون خطه | يكون تاريخه ذلك عيسى

والأخرى:

نور ديده ظهير الدين كه فتاد | دادن وبردنش بهم نزديك
بود برقي زآسمان كرم | زادن ومردنش بهم نزديك

* * *

• **مولانا عبد الغفور رحمة الله عليه**: لقبه: رضي الدين. وأصله: من بلدة لارو من أعيان تلك الديار. وسمعت أنه من نسل سعد بن عبادة رضي الله عنه الذي هو من كبار الأنصار وسيد قبيلة الخزرج. كان رحمه الله من أجلّة تلامذة مولانا الجامي قدّس سرّه وأعزّ أصحابه. وكان وحيد عصره وفريد دهره في جميع أصناف العلوم العقلية والنقلية. وقرأ على مولانا الجامي أكثر مصنفاته، وكتب مولانا الجامي بعد مقابلة «شرح فصوص الحكم» في آخر كتاب مولانا المرقوم هذه الكلمات القدسية: تمّت مقابلة هذا الكتاب بيني وبين صاحبه، وهو الأخ الفاضل، والمولى الكامل، ذو الرأي الصائب، والفكر الثاقب، رضي الملّة والدين، عبد الغفور، استخلصه الله سبحانه لنفسه، ويكون له عوضاً عن كل شيء في أواسط شهر جمادى الأولى المنتظمة في سلك شهور سنة ست وتسعين وثمانمائة. وأنا الفقير عبد الرحمٰن الجامي عفي عنه وعبر مولانا عبد الغفور عن حاله في تكملة حاشية «النفحات» هكذا: وقع في قلب واحد من الفقراء إرادة الاشتغال بالطريقة، فجاء لديه واستدعى منه تعليم الطريقة، فلقّنه ذكر لا إله إلا الله محمد رسول الله مشروطاً بحفظ صورته. فاشتغل المذكور في تلك الصحبة بموجب أمره. فظهر فيه الأثر المعهود عند هؤلاء الطائفة في الحال، ورأى نفسه في فضاء النور، وحصلت له لذة نوية وشوق عظيم وبهجة وسرور، وظهرت علامة ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: الآية ٤٨] فعرضه عليه، فقال: هذا سر من الأسرار، لازم الستر والإخفاء عن الأحباء والأخلاء فضلاً عن الأغيار. ثم زادت فيه كيفية عدم الشعور بسبب تكرار الشغل وكثرة العمل.

وشكى إليه هذا الشخص يوماً بعض الأشغال الذي يكون سبباً لفتور هذه النسبة فقال: لا بد من أن تجمع هذه النسبة بشيء من الأشغال الظاهرية وأن تلازم صحبة شيخ أخذت هذه النسبة عنه، فإنها ملك الغير ظهرت فيك بطريق الانعكاس، وينبغي أن تجتهد في السعي حتى تكون ملكك، وذلك إنما يتيسر بدوام الصحبة.

وقال: إن الاشتغال بأمر ظاهري ضروري للسالك لئلا يمتاز عن سائر الخلق فيكون معلوماً ومشتهراً بينهم، أما سمعت أن شخصاً حضر عند واحد من الأكابر والتمس منه تعليم الطريقة فقال: هل عندك شيء من الصناعة؟ فقال: لا، فقال: اذهب وتعلّم الحصافة. فإن معنى سيرة هذه الطائفة لا حصول له من غير صورة شغل ما. وقال: إن حصول هذه الحالة وتحقق هذه النسبة آني، فإنها من مقولة الإدراك والانفعال وحقيقة الحال إعراض وإقبال. يعني: إعراض عن الخلق وإقبال على الحق سبحانه. وهذا ممكن الحصول في آن واحد، فإن نفس الإنسان بمنزلة مرآة وجهها إلى طرف آخر، فينبغي أن يقلبها إلى طرف الحق تعالى.

وقال: إن واحداً من الأكابر صاح في صحبة واحد من المشائخ وسقط مغشياً عليه، فلما قام قال: إن بعد حصول ربط القلب بحضرة الحق تعالى وتحقق نسبة الحضور تكون تلك النسبة أحياناً مذهلة لما سواه تعالى، ويقال لهذه الكيفية: حالاً، وأحياناً غير مذهلة ويقال لها: علماً. ويجعلون العلم مندرجاً في الحال ومحسوباً منه. وهذا التفات إنما هو على حسب تفاوت استعداد الشخص في الصفاء والكدورة.

وقال: إذا حصلت الغيبة المعهودة زمان الشغل بالذكر ينبغي أن يفرضها خطاً مستقيماً. ولما كان تخيل هذا المعنى واشتغال الخيال بأمر واحد ممداً للجمعية، أمر النبي ﷺ علياً كرَّم الله وجهه بهذا. وقال: ينبغي أن تفرض الطريق مثل الخط المستقيم. وقال: إن من محاسن طريقة أكابرنا: النقشبندية، التي ليست لغيرها من الطرق حصول الاشتغال بتحصيل تلك النسبة في كل مكان مع كل شخص وفي كل حال.

وينبغي أن يجعل تحصيل هذه النسبة أصلاً أصيلاً، وأن يقتصر الاشتغال بغيرها على قدر الضرورة. وهذه النسبة الشريفة لطيفة غاية اللطافة وليس لها حد يضبطها ووقت يختص بها وربما تزول وتستتر بأمر جزئي وتظهر أحياناً من غير

ترقّب. ومتى وقع الفتور فيها ينبغي أن يرجع إلى سببه وأن يلاحظ فيما أفضى إليه، وأن يبادر إلى دفعه.

وقال: إن كثيراً من الملاحظة في الأمور الحسية يكون ممداً للنسبة والحالة ومقوياً للجمعية وذلك أمر غير مضبوط ومختلف باختلاف الأحوال والأوقات. ومن جملة ذلك أن الصحراء التي في صورة الإطلاق معينة لملاحظة معنى الإطلاق، ومشاهدة الجبال مورثة لمعنى الهيبة والعظمة، وصوت الماء بطريق الامتداد والاتصال وقت المراقبة مقو للمراقبة وملاحظة تبعية الظل لذي الظل مورثة للخروج عن حول نفسه وقوته، وملاحظة عيون الحيوانات الوحشية، وملاحظة توحشها مورثة لنسبة الحيرة، وملاحظة الجنازة مقوية لنسبة الفناء، وصوت البكاء يذكر المحبوب المعقود.

وقال: كنت يوماً أمشي في ملازمة مولانا سعد الدين قدّس سرّه فوقع اتفاقاً مرورنا على حمار ميت قد فتحت عيناه، فقال مولانا: إن له استهلاكاً عجيباً. وقويت نسبته في حينه غاية القوة وقال: عرض لي يوماً قبض عظيم فخرجت إلى الصحراء ولما وصلت إلى قرب بستان آهو رأيت أشجار الصنوبر، فخطر في قلبي أن هذه الأشجار يأخذن الفيض من المبدأ القابض على حسب استعدادهن ويطمئن به. فزال القبض في الحال واستولت نسبة عظيمة. وكثيراً ما كان يرتفع القبض الحادث في ليلة مقمرة بملاحظة الظل وتبعيته.

قال مولانا عبد الغفور: جئته يوماً وشكوت إليه من ضرر اختلاط الناس، فقال: لا يمكن إخراج خلق الله تعالى من العالم، ينبغي للسالك أن يكون على وجه لا يكون للخلق تصرف فيه. وكان في تلك الأيام مشغولاً بتأليف كتاب «نفحات الأنس» وقال: أكتب صفحة وصفحتين وما لي شعور بالكتابة، بل يجري القلم بطريق العادة. وقال: قال بعض الأكابر: إن التكلم لا يجتمع مع الشغل الباطني وهذا الكلام في غاية الغرابة منه.

* * *

ذكر فوائد أنفاسه المسموعة

ونوردها في ضمن أربع رشحات:

• رشحة: جرى يوماً كلام في تحقيق أحوال الجن، فقال حضرة المولوي عبد

الغفور: أورد الشيخ محي الدين بن عربي قدّس سرّه في بعض رسائله: أنه قد وقع الاختلاف في أن أبا الجن هل هو إبليس أم غيره؟ والتحقيق أنه غير إبليس، بل إبليس واحد منهم. وكان أبو الجن خنثى على إحدى فخذيه ذكر وعلى الأخرى فرج، ويتولد أولاده من سحق إحدى فخذيه على الأخرى. ولما كان تركيبهم من النار والهواء اللتين هما ركنان خفيفان فلا جرم غلبت عليهم السخافة والخفة وخصوصاً إذا انضم إليهما الروح، فهم في غاية الخفة ونهاية سرعة السيرة وكثرة الحركة، وتركيبهم ضعيف غاية الضعف يهلكون بوصول أذية يسيرة أو ثقل من بني آدم، ويكون أعمارهم قصيرة من تلك الحيثية. فإذا ظهر واحد منهم لشخص بصورة مثالية يهرب عنه مسرعاً ويكون غائباً عن نظره.

وقال حضرة الشيخ قدّس سرّه: وطريق حبسهم عن الهرب والفرار عن النظر أن ينصب العين عليهم من غير التفات إلى يمين وشمال، وما دام النظر منصوباً عليهم لا يقدرون الغيبة عن النظر بوجه من الوجوه، ويبقون على مكانهم مثل المحبوس. ولهذا يظهرون أنواع الحركات وأصناف الحالات والتخييلات والتسويلات ليصرف الناظر نظره إلى طرف آخر فيتمكنون من الفرار.

قال حضرة الشيخ: إن تعليم حبسهم بهذا الوجه إنما هو بتعليم الله تعالى إياي بطريق الإلهام.

وقال: إن العلم والعرفان قليلان فيما بينهم، وإدراكاتهم قاصرة في الأمور المعنوية غاية القصور، وخصوصاً في معرفة الله تعالى. ويكون أكثرهم سفهاء وأغبياء وليس في اختلاطهم فائدة كثيرة، بل في صحبتهم ضرر كثير. فإنه تحصل من صحبتهم صفة الكبر في باطن الإنسان لكون تركيبهم من النار والهواء والجزء الناري غالب في تركيبهم، والكبر والترفع من خواص النار، ولهذا قال إبليس في أول ما أظهر الكبر: خلقتني من نار.

وقال: إن بعض الإعصار الكائن في الصحراء إنما يحصل من أثر مضاربتهم ومحاربتهم وهم فيما بين ذلك الإعصار يحارب بعضهم بعضاً وتكون الفتنة والمجادلة والمحاربة كثيرة فيما بينهم وذلك بسبب تجبرهم وتكبرهم اللذين هما لازمان لذاتهم، فإذا مات أحدهم ينتقل إلى البرزخ ولا يمكنه الرجوع إلى النشأة الدنياوية ثانياً، ويكون في البرزخ إلى الحشر. ثم إذا استحق واحد منهم عذاب

جهنم يعاقب بالزمهرير لقلة تأثره من عذاب النار. وإن أمكن تعذيبه بالنار فإن حرارة نار جهنم زائدة على حرارة النار العنصرية بمراتب كثيرة وشديدة في الغاية.

* **رشحة**: قال في بيان الخواطر الشيطانية والخواطر النفسانية: أورد الشيخ في «الفتوحات»: أن الشيطان على نوعين: شيطان صوري، وشيطان معنوي. فالشيطان الصوري هو إبليس وهو يلقي في خاطر الناس أحياناً أمراً حقانياً فيتصرف فيه الشيطان المعنوي الذي هو النفس ويجعله أمراً باطلاً. وقد يفعل أموراً يعجز عنه الشيطان الصوري مثلاً: يلقي الشيطان الصوري في قلب شخص فعل سنَّة من السنن الحسنة وهو من الأمور الحقة، فإنه قد ورد في الحديث: **«من سنَّ سنَّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة»**[1]، فيتصرف فيها الشيطان المعنوي حتى يحثه على وضع الأحاديث وأن يسندها إلى النبي ﷺ ويسميها: سنَّة حسنة، ليعمل بها الناس فيكون له أجر منها وهو غافل عن الحديث الصحيح المتفق على صحته البالغ حد التواتر، وهو قوله ﷺ: **«من كذَّب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»**[2].

والمثال الثاني الذي أورده حضرة الشيخ أيضاً: أن الشيطان الصوري يلقي في القلب مثلاً تلاوة القرآن جهراً، وهي أمر حقاني، فيضم إليه الشيطان المعنوي إرادة إسماع الغير ليقولوا: إنه قارىء، فأبطله بإدخال الرياء والسمعة فيها، وأمثال ذلك كثيرة.

* **رشحة**: قال صاحب كتاب «حق اليقين» في بيان العبادة الاضطرارية والاختيارية: كما أن نفس الإدراك الذي هو المعرفة موجب للعبادة الاضطرارية ورحمة عامة، كذلك إدراك الإدراك الذي هو العلم مستلزم للعبادة الاختيارية والسير والسلوك ورحمة خاصة.

قال مولانا عبد الغفور في شرح معنى هذا الكلام: إن إطلاق المعرفة على نفس الإدراك مبني على اصطلاح، والمراد من هذا الإدراك إدراك بسيط، فإن الحق

---

(١) روى نحوه مسلم في صحيحه، باب من سن سنة حسنة...، حديث رقم (١٠١٧) [٤/ ٢٠٥٩] ورواه ابن خزيمة في الصحيح، باب من سن سنة...، حديث رقم (٢٠٣) [١/ ٧٤] وروى نحوه غيرهما.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، باب ما يكره من النياحة...، حديث رقم (١٢٢٩) [١/ ٤٣٤]، ورواه مسلم في صحيحه، باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ، حديث رقم (٣) [١/ ١٠].

سبحانه خلق القوة المدركة على وجه تكون واجدة لوجود الحق سبحانه بحسب الفطرة من غير شعور لوجدانها، وهذا الوجدان حاصل لها بحسب الفطرة، فإنه ما من شيء من الموجودات أدركته القوة المدركة إلا وقد وجدت الوجود قبله ثم أدرك ذلك الشيء، فالوجود بمثابة النور يدرك أولاً بإدراك البصر ثم يدرك به الأشياء المحسوسة. فإذا كانت المدركة واجدة لوجود الحق سبحانه بحسب الفطرة كانت متأثرة من آثار الوجود ولوازمه على وجه الاضطرار. فهذا التأثر الذي هو انقياد وتذلُّل حاصل لها بالنسبة إلى وجود الحق تعالى، أرادت ذلك أو لا، فإذا تأثرت بقول آثار الوجود الخارجي ولوازمه فقد حصل له نفس الانقياد والتذلُّل اللذين هما حقيقة العبادة بحسب الحال. فتلك عبادة حاصلة للعبد اضطراراً بحسب الحال، وذلك الإدراك البسيط موجب لظهور الرحمة العامة التي هي عبارة عن فيض الوجود المنبسط على المدركة وسائر الموجودات وملقّبة بنفس الرحمٰن.

وإطلاق العلم على إدراك الإدراك مبني على اصطلاح، يعني: أن العبد إذا أدرك أن مدركته راجدة لموجود الحق سبحانه ومنقادة ومستسلمة له بحسب الواقع وبحسب الحال، فحينئذ يريد أن تكون صفته الإرادية مطابقة لصفته الواقعية والحالية، فاختار عبادة الحق سبحانه وقبول أوامره ونواهيه بحسب الظاهر ليكون ظاهره مطابقاً لباطنه وحاله الإرادي والاختياري موافقاً لحاله الواقعي والاضطراري. وذلك الإدراك المركب مستلزم للعروج إلى مراتب عالية ومنازل سامية، وموجب للسير والسلوك والرحمة الخاصة التي هي مظهر صفة الرحيم، فقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: الآية ٥٦] قد وقع تطبيقه للواقع في هذا المقام صحيحاً باعتبار العبادة الاضطرارية وباعتبار العادة الاختيارية.

قال الأكابر: إن السر في العبادة أن تكون هذه العبادة الاختيارية مطابقة لتلك العبادة الاضطرارية التي هي حاصلة للمدركة بحسب الانقياد والتذلُّل دائماً، وتكون إرادته مطابقة لحاله الواقعي.

* رشحة: قال في حكمة تأبيد تعذيب الكفار بالنار واختلاف الأكابر فيه، قال: سأل البعض: إن مقتضى العدل والحكمة أن يكون العذاب على الذنب المتناهي متناهياً، فما السبب في كون العذاب غير متناه على الكفر المتناهي؟ قال الإمام الغزالي في جوابه: إن علم قدر جزاء الأعمال مختص بالله تعالى، وإدراك

هذا المعنى فوق إدراك العقول الناقصة. والجزاء المماثل للكفر إنما يكون في النشأة الأبدية وليس لغير الحق سبحانه اطلاع على حقيقة جزاء الأعمال وسرّه.

وقال بعض آخر: لما كانت نيّة الكفار وقصدهم المداومة على الكفر، كان جزاؤهم أيضاً في الآخرة دائماً. فأما الذين لا يقولون بالعذاب الأبدي ولا يقرون به، قالوا: إن الكفر جهل عارضي وليس بملائم لمزاج الروح، بل المناسب لمزاجه وإدراكاته أمور حقة، وصفة الجهل تكون مرتفعة في الأخير، انتهى.

وقد كان في بعض الكلمات القدسيَّة المنسوبة إلى حضرة شيخنا، التي جمعها بعض الأعزَّة شبهة، فعرضته على حضرة أستاذي مولانا عبد الغفور عليه الرحمة، وسمعت منه الجواب. فأحببت أن أورد بعضاً منها في ضمن ست رشحات:

• رشحة: قال حضرة شيخنا: إن ما يصدر من الناس من سؤال لم يكن في مقابلته حد وتعزير شرعي ينبغي أن لا يتأذى منه، فإنه صدر عنهم بإقدار الله تعالى إياهم لهذا الفعل وتمكينهم فيه وخلقه.

قال مولانا عبد الغفور في توجيه هذا الكلام: إن الأفعال وإن كانت كلها من هذا القبيل، سواء توجه إليه حد شرعي أم لا، لكن المراد في القسم المذكور ينبغي أن ينظر إلى القضاء والقدر لئلا تثور الفتنة والجدال. وفي الصورة الأخرى ينبغي أن ينظر إلى الأحكام الشرعية لتبقى سلسلة أمور العالم على أحسن النظام، ولئلا تطرق الإهانة إلى شريعة نبينا عليه الصلاة والسلام. فالتأذي في تلك الصورة والإيذاء والفتنة والجدال موجبة لرضاء الحق سبحانه ومسرة رسوله ﷺ. وفي ضمن الجدال والإيذاء فيها ألوف من الفائدة صورة ومعنى، والإهمال فيها والإمهال ليسا غير زندقة وإلحاد في الشريعة.

• رشحة: قال في معنى قول حضرة شيخنا هذا: ينبغي أن ينظر بعين القضاء والقدر، وأن يرى كل أحد تمثيلاً للأمر التكويني حتى لا يقع أمر بلا واسطة. يعني لا يحتاج في حصول موجبه إلى وسائط كثيرة وامتداد زمن.

• رشحة: وقال في معنى قول حضرة شيخنا هذا: إن إرادة الوجه الباقي مسخرة. يعني إرادة الحصة الوجودية التي هي حاصلة لكل الموجودات ومرآة للوجود المطلق والمسخرة إنما هي تلك الحصة، بمعنى إمكان غلبة السالك عليها وجعلها مرآة للجمال المطلق. وقال: يخطر هنا في الخاطر معنى، وهو يمكن أن

يراد بإرادة الوجه الباقي التوجه بوجه خاص. ولما كان نتيجة هذا التوجه إفناء الغير وإثبات الحق سبحانه، فلا جرم يكون الأشياء كلها مسخرة وقت كون الحق سبحانه مثبتاً ويكون الحق سبحانه في هذا الحال مسخراً لأشياء من باطن صاحب تلك الإرادة.

* رشحة: قال في معنى قول شيخنا هذا نقلاً عن «الفتوحات»: إن سر ظهور العالم لا يكون معلوم شخص إلا بالمجاهدات الكثيرة والرياضات الشديدة يصحبها الهمم العالية. والمراد من: يصحبها الهمم: أن يكون مرمى قصده وهمّته ومطمح نظره ذات الحق سبحانه، فإذا كانت تلك الهمّة موجودة لكن ليست لصاحبها مجاهدات كثيرة ورياضات شديدة لا ينكشف له سر ظهور العالم الذي هو من الأسرار الغامضة ومجرد وجود الهمَّة من غير أن يلابس بالمجاهدة والرياضة وكذلك مجرد حصول المجاهدة والرياضة من غير تحصيل هذه الهمة لا يعطيان نتيجة ولا يجديان نفعاً أصلاً.

* رشحة: وقال في معنى قول حضرة شيخنا هذا: قد أعطي بعض العارفين قدرة على خلق كل ما أرادوا خلقه، والفرق بين مخلوق الحق ومخلوق العارف: أن مخلوق العارف يكون باقياً ما دام أثبته العارف في حضرة من الحضرات. يعني: لا يلزم في بقائه أن يكون العارف متوجهاً إليه بالتوجه الحسي الشهادي بل يكفي لإبقاء وجود ذلك الموجود الشهادي الخارجي توجهه إلى صورته المثالية في حضرة المثال، وما بقي التوجه من العارف في حضرة المثال أو حضرة الشهادة إلى هذا الموجود الشهادي يكون ذلك الموجود باقياً، ومتى انقطع التوجه في جميع الحضرات يكون معدوماً صرفاً.

* رشحة: قال في معنى قول حضرة شيخنا هذا: كان حضرة الشيخ بهاء الدين عمر يركب فرساً أبيض في أكثر الأوقات، فسأل عن سببه بعض خواصه، فقال: إن اختياره للفرس الأبيض لكون بعض التجليات الصورية مشهوداً له كذلك. يعني: أن خصوصية كل صورة بالنسبة إلى أرباب المكاشفات والمجاهدات مبنية على اختلاف الاستعدادات واختلافات المعاني والحقائق اللتان تنكشفان لهم في صور الأشياء، مثلاً: وقع التجلي الصوري لموسى عليه السلام في لباس شجرة في الوادي المقدس، ووقع لسيدنا محمد ﷺ في صورة شاب مخطط الوجه، كما نطق به بعض

الأحاديث. انتهى كلامه.

ولا يخفى أنه كتب الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي قدّس سرّه في بعض مؤلفاته: رأيت ربي على صورة الفرس.

وقال الشيخ ركن الدين علاء الدولة في شرح هذا الكلام في بعض مصنفاته: إن السالكين يرون الحق سبحانه بالتجليات الصورية وهي مناسبة للآثار، ويرونه بالتجليات النورية وهي مناسبة للأفعال، وقد يرونه بالتجليات الذوقية وهي مناسبة للذات. ويتجلى الحق سبحانه للعبد في التجليات الصورية التي هي مناسبة للآثار في صورة جميع الأشياء من مفردات العنصريات والمعادن والنباتات والحيوانات وأفراد الإنسان، فإذا تجلى في واحد من المواليد الثلاثة ثم أراد أن يتجلى في مرتبة أعلى منه يتجلى أولاً في أفق ذلك المولود ثم يبتدىء بمولود آخر فوق ذلك. كما أنه إذا تجلى من المعادن ثم أراد أن يتجلى من النبات يتجلى في صورة المرجان الذي هو أفق المعادن، فإنه أقرب المعادن إلى مرتبة النبات لنموه مثل النباتات. وإذا أراد أن يترقى من النبات إلى الحيوان يتجلى في صورة النخل لكونها أفق النباتات وأقربها إلى مرتبة الحيوان لوجود بعض خواص الحيوانات فيها، فإنها تصير يابسة بقطاع رأسها ولا تثمر من غير تلقيح، وذلك من خواص الحيوان، حيث لا يحمل أناثه حتى تجتمع مع ذكوره. ومتى أراد الترقي من سائر الحيوانات إلى مرتبة الإنسان يتجلى في صورة الفرس لكونه أفق سائر الحيوانات بالنسبة إلى الإنسان لكونه أقرب الحيوانات إليه حيث إن فيه شعوراً وفطنة. وليس فوق الإنسان صورة في التجليات الصورية، وغاية التجلي الصوري في مرتبة الإنسان أن يتجلى الحق سبحانه للسالك في صورة صاحب التجلي، يعني: المتجلى له. وليس للسالك مزلة قدم أصعب من أن يتجلى له الحق سبحانه في صورة بحيث لا يرى السالك أحداً غير نفسه، وكلما نظر يرى الكل نفسه، ويجد الموجودات كلها محاطة بنفسه.

ومنشأ ظهور قول: «سبحاني ما أعظم شأني»، و«أنا الحق»، و«ما في جبتي سوى الله» و«هل في الدارين غيري» وأمثالها كلها، إنما هو التجلي. وأكثر زلّة القدم وقعت لأهل الكشف في هذا التجلي الصوري حتى اجترؤوا على التفوه بمثل هذه الكلمات، ووقع أكثر مزلة الأقدام للحكماء في التجلي المعنوي حيث أعرضوا عن متابعة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام اغتراراً بمدركاتهم المعنوية فهلكوا في بادية

البعد والضلال. ولما كانت الأولياء محفوظين بيمن متابعتهم للأنبياء عليهم السلام، وإن وقع منهم سهو في بعض أوقات غلبة السكر عليهم، لكنهم رجعوا عنه في حال الصحو وتابوا، فلا جرم رقاهم الله سبحانه من منازل التجليات الصورية والنورية والمعنوية إلى مدارج التجليات الذاتية وخلّصهم من مزلة الأقدام، وأوصل سرهم إلى النعيم المقيم، أعني: التجلي الذاتي رفيع الدرجات ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾ [الجُمُعَة: الآية ٤].

* رشحة: قال حضرة أستاذي المولوي عبد الغفور عليه الرحمة والغفران في بيان وجوده تعالى ونسبة معيته بالأشياء: أن وجود الممكن غير حقيقته، بل هو عارض لحقيقته. مثلاً: زيد المصور في الذهن حقيقة من الحقائق والوجود الخارجي عارض لتلك الحقيقة ومنضم إليها، وصارت تلك الحقيقة بواسطة هذه الضميمة مبدأ للآثار، فمبدأ الآثار في الحقيقة هو هذا الوجود العارضي، فإنه يعبر عن الوجود بشيء يكون مبدأ للآثار. ووجود الواجب عين حقيقته على خلاف وجود الممكن، فحقيقة الواجب مبدأ للآثار بنفسها من غير انضمام شيء آخر إليها.

واختلف الحكماء والصوفية في أن الوجود الذي كان مبدأ للموجودات، أي وجود هو؟ فذهب الشيخ ركن الدين علاء الدولة قدّس سرّه وقليل من الصوفية وأكثر الحكماء والمتكلمين إلى أنه: صفة من صفات الله تعالى أفاضت الوجود على الموجودات، وتسمى بـ: الفيض الوجودي، والوجود العام، ونفس الرحمان، وغيرها.

وذهب الشيخ محي الدين بن عربي وأتباعه وأكثر الصوفية المحققين من المتقدمين والمتأخرين، وقليل من الحكماء والمتكلمين: إلى أنه وجود الحق سبحانه الذي هو عين حقيقته لا غير. فتكون الممكنات عندهم موجودة بوجود الواجب تعالى. يعني: أن للذات مع الأشياء علاقة المعية المجهولة الكيفية، ولم يطلع أحد من الأنبياء والأولياء والحكماء على سر تلك المعية بكماله. وغاية ما في الباب اطلع عليه جمع من أفراد الإنسان على قدر استعداداتهم وقابلياتهم. والتمثيل الذي بمثابة تلك العلاقة له مناسبة لها في الجملة وإن لم يكن في الواقع كذلك، هو نسبة العارض للمعروض.

رأى واحد من الفقراء مولانا عبد الغفور عليه الرحمة والغفران بعد وفاته في

المنام، وخطر على خاطره إذ ذاك رحلته عن الدنيا، فجاء عنده وسلّم فرد عليه السلام ثم قال: الرأي ما انكشف لك بعدما ارتحلت إلى دار الآخرة من سر توحيد الوجود ونسبة معية الحق سبحانه بالأشياء التي تكلم فيها الشيخ محي الدين بن عربي وغال! قال: لما جئت إلى هذا العالم وقعت الملاقاة مع الشيخ محي الدين وسألته عن سر هذه المسألة فقال: الكلام هو الذي كتبته. ثم سأله هذا الفقير أيضاً أنه: هل في ذلك العالم العشق والتعشق وتعلُّق الخاطر بالمظاهر الجميلة؟ فقال: ما تقول إن التعشق والشوق إنما هو في ذلك العالم فإن حسن عالم الأجسام الذي حصل من تركب الأجزاء المختلفة يتغيّر سريعاً ويتبدل بسبب تضاد بعض الأجزاء بعضاً، فيزول العشق بهذا السبب ولا يبقى تعلق الخاطر. وأما حسن ذلك العالم فهو حاصل من جميع البسائط غير قابل للفناء والزوال، ولا يتغير ولا يتبدل أبداً لعدم الضدية والمخالفة بين أجزائه، فلا جرم يكون فيه العشق والتعشق دائماً البتة. غاية ما في الباب يتطرق التشويش على جوهر الروح إلى مدة بعد مفارقتها من البدن بسبب علاقتها له وأنسها معه، فإذا صفا جوهرها عن الكدورات الجسمانية وتزكى عن القاذورات الدنياوية تكون مقبلة على مذاق العاشقية. ولما قال هذا الكلام قال له ذلك الفقير: الرأي أن الذي بيَّنته الآن كله من أسرار الآخرة وقد قالوا: إن الأموات غير مأذونين بإفشاء أسرار الآخرة، فكيف التوفيق والتطبيق! قال: هذا كلام تفوه به العوام وليس له أصل، وقد رأى النبي ﷺ وكبراء هذه الأمة كثير من الناس في المنام وتعلَّموا منهم عجائب عالم الآخرة وغرائبه، فلو لم يجز إفشاء سر عالم الآخرة لما نطق به القرآن والأحاديث النبويَّة.

ثم رآه هذا الفقير في تلك الأيام مرة ثانية في المنام مريضاً، فخطر في قلبه: أنه ما سر كون أولياء الله تعالى مبتلى بالآفات والبليات في أكثر الأوقات؟ فقال: يعني مجرد خطور ذلك في قلبه أن الأمراض والرياضات موجبات لتنقية الدماغ وتصفية قواه، فإذا حصلت التنقية للدماغ يتعلق به النور المطلق البسيط المحيط بكل الموجودات الذي هو مقصود جميع الممكنات، وظهور هذا المعنى ليس مختصاً ببعض دون بعض بل يتعلق ذلك النور المطلق بقوة دماغي ودماغك ودماغ كل فرد من أفراد الإنسان إذا حصلت التصفية والتنقية.

وكانت وفاته غداة يوم الأحد الخامس من شعبان سنة اثنتي عشرة وسبعمائة بعد طلوع الشمس.

ونظّم بعض أكابر الزمان هذه القطعة في تاريخ وفاته: [شعر]

مضى عبد الغفور حبر عصره لدار الخلد مأوى أهل إيمان
فمذ ولّى تولّى بدر فضل وغابت شمس علم قل وعرفان
فخذ تاريخ شهر عام فوته وقل يكشنبه بنجم زشعبان[١]

* * *

(١) كذا بالأصل.

مولانا شهاب الدين
أحمد البرجندي رحمه الله تعالى

كان من كبار أصحاب مولانا سعد الدين قدّس سرّه. وكان عالماً في العلوم الظاهرية والباطنية، ومن جملة العلماء الكُمَّل في هراة. مولده: قصبة برجند في ولاية قائن.

حكى والده: رأيت ليلة في المنام كأني واقف بطور سيناء فظهر شيخ الإسلام أحمد الجامي قدّس سرّه فجئته وسلّمت عليه، فرد عليَّ السلام وقال: إن الحق سبحانه سيعطيك ولداً صالحاً فسمه باسمي فإنه منا. يعني: يكون من جنسنا. فولد شهاب الدين بعد ذلك بزمان يسير فسمّيته أحمد راجياً من خير هذا الاسم وبركته.

قالوا: إن آثار الزهد والتقوى كانت ظاهرة فيه من صغر سنه حتى لم يفت منه صلاة التهجد وسائر النوافل المأثورة في صغره. ولما بلغ سن الشباب اختار الإقامة في المدرسة واشتغل بتحصيل العلوم، وحاز قصب السبق في مضمار الفنون من بين أقرانه في مدة قليلة. وحضر زماناً درس مولانا نور الله الخوارزمي، ومولانا شمس الدين محمد الحاجرمي، ومولانا خواجة علي السمرقندي وغيرهم من العلماء المحققين والعظماء المدققين. وكان في هذه الدروس فائقاً على أكثر المستفيدين، وحضر أيضاً مجلس خواجة برهان الدين أبي نصر پارسا قدّس سرّه وقرأ عليه كتب الأحاديث كـ«المصابيح» و«المشارق» وصحيحي البخاري ومسلم، وكتب له حضرة خواجة بهجة إجازة رواية الحديث.

ولما فرغ من تحصيل العلوم العقلية والنقلية، توجه إلى صحبة مشايخ الطريقة وأقبل على ملازمة الصوفية الصافية أهل الحقيقة، ووصل إلى صحبة الشيخ زين الدين الخافي، والشيخ بهاء الدين عمر، وخواجة شمس الدين محمد الكوسوي وغيرهم من المشايخ العظام قدّس الله أسرارهم. ثم وصل آخر الأمر إلى صحبة مولانا سعد الدين قدّس سرّه فانقطع عن مخالطة الأغيار وملازمة هذا وذاك من الأشرار والأخيار.

وقال حكاية عن حاله: كنت في بداية الحال كثير التردد والتطواف حول مولانا سعد الدين، لكن لم أجد في باطني أثراً من نسبة الأكابر. وكنت ملولاً ومحزوناً من تلك الحيثية، فخرجت يوماً للتفرج بعد صلاة الجمعة أمام مقصورة هراة فيما بين كثرة الأنام وازدحام العوام، فرأيته فيما بين تلك الكثرة، فاستقبلته وتضرّعت لديه تضرُّعاً لا مزيد عليه، فقال: يا أخي ما دامت هذه العلوم في صدرك ولم تتقيأها لا فائدة لك. وصيّرني منجذباً إليه بحسب الباطن بكلامه هذا. ثم توجه إلى خارج المسجد فمشيت من خلفه بلا اختيار وكنت أرمقه من بعيد، فتوجه نحو سوق الخوش خارجاً من باب فيروز آباد، فخرجت أيضاً من خلفه فأقبل على دكان بياع الأخشاب واشترى منه خشبتين كبيرتين كل منهما في طول خمسة أذرع فطبق جبته ووضعها على كتفه المبارك وأراد أن يحملهما فأدركته واستدعيت منه حمل إحديهما، فقال: هو لك إن لم يكن ناموس المولوية مانعاً. فحملت إحديهما على كتفي بالضرورة وتبعت أثره بكمال الانفعال، وتقاطر عرق الخجالة عن جبيني وسال وطفقت أفتح عيني أحياناً وأغمض أحياناً ومولانا يمشي من أمامي مع تمام فراغ البال وبسط الحال، قائلاً: ظهرك ظهرك، من غير تحاشٍ ولا مبال، حتى دخل من باب سور البلد فقلت في نفسي: يا ليته يتوجه من محلة پاي پاره لأنها خالية بالنسبة إلى السوق. فتوجه على خلاف تمني نحو السوق. فلما وصلنا قرب السوق قلت في نفسي: يا ليته يذهب من سوق الخوش فإنه لا يمكن لنا المشي من سوق الملك لكثرة الخلق فيه خصوصاً مع هذه الخشبة الطويلة. فتوجه إلى سوق الملك فتبعته ضرورة بحالة عجيبة وخجالة غريبة، فإني كنت مملؤاً من عجب المولوية. ثم دخل من سوق الملك إلى زقاق نافذ إلى تحت المسجد، ولما وصلنا إلى باب منزله ووضعت الخشبة على الأرض ظهرت لي في هذا المحل كيفية عظيمة بيمن عنايته وبركة التفاته حتى حصلت لي نسبة الأكابر، فتشبثت بعد ذلك بذيل متابعته والتزمت صحبته وملازمته.

قال: كان الباعث على فراغي من التدريس والإفادة أني جئت يوماً إلى ملازمة مولانا حين كوني مدّرساً في مدرسة خواجة علي فخر الدين خارج باب الخوش وانتظرته في باب قصره، فخرج بكيفية عظيمة ما رأيته بهذه الكيفية أبداً. فتضرّعت إليه ظاهراً وباطناً والتمست منه التفات الخاطر، فقال: إن القلوب تقسوا من

المباحثة في العلوم الرسمية والمجادلة فيها، ولهذا قال الشيخ خواجة علاء الدين العطار قدّس سرّه: ينبغي لطالب العلم أن يستغفر عشرين مرة بعد كل مباحثة في العلم. والتفت إليّ مقارناً لهذا الكلام، فظهر شمع منور في باطني فنوره بحيث استنار بنوره جميع قواي وجوارحي وسرى أثره في جميع أجزاء أعضائي، وحصلت لي منه حلاوة عظيمة. فقال مولانا: في هذا المحل ينبغي أن يحفظ الشمع المنور من الريح المخالفة له لئلا ينطفيء. فأذن لي بعد ذلك بالانصراف ودخل بيته، فكنت مراقباً لهذا الشمع المنور ومحافظاً عليه بمقتضى إشارته. وكنت حاضراً للوقت في المطالعة والمذاكرة إلى أن وقعت المباحثة يوماً بيني وبين واحد من طلبة العلوم في مسألة وتكلم فيها بكلام غير موجه وطال الكلام وانجر الأمر إلى الإعراض والإلزام، فرأيت بعد الفراغ من إلزام الخصم أن ذلك النور قد تبدل بالظلمة وانطفىء ذلك الشمع، فصرت ملولاً ومحزوناً غاية الحزن والملالة، وتركت الدرس في وسطه من غير إتمام وجئت بابه بنهاية الملالة والخجالة فخرج بعد لحظة. ولما وقع نظره عليّ قال: يا أخي الاجتماع لتلك النسبة مع استعمال الغضب! أما تعلم أن الغضب يأكل النسبة كما تأكل النار الحطب، ويجعل ظرف الباطن خالياً عن نور المعنى. فأطرقت رأسي وتضرعت إليه بحسب الباطن تضرعاً تاماً وأجريت الدموع من عيني، فترحّم لي والتفت إليّ ثانياً فتنوّر الشمع المذكور، فتركت بعد ذلك الاشتغال بالتدريس والإفادة وصرفت جميع همتي لحفظ هذه النسبة، وكل شيء كان مانعاً عن ظهورها تركته بالتمام. ولما بلغ عمره خمساً وخمسين سنة توفي إلى رحمة الله وذلك في شهور سنة ست وخمسين أو خمس وخمسين وثمانمائة، وقبره المبارك تحت مرقد مولانا سعد الدين قدّس سرّه.

* * *

• **مولانا علاء الدين الآبيزي قدّس سرّه**: اسمه: محمد بن مؤمن. مولده: قرية آبيز، وهي قرية في ولاية قوهستان. كان من كبار أصحاب مولانا سعد الدين قدّس سرّه، ولازم مولانا الجامي قدّس سرّه بعد وفاته ملازمة تامة. وكان لمولانا الجامي التفاتات كثيرة في حقه حتى قال يوماً في سياق الكلام: إن طينة مولانا علاء الدين وولده مولانا غياث الدين عجنت من تراب طاهر. وكان كسبه وطريق معيشته تعليم الصبيان، وجعل ذلك ستراً لأشغاله القلبية وإخفاء لأحواله الباطنية.

قال: لما قدم الشيخ خواجة عبيد الله أحرار قدّس سرّه إلى هراة في زمن السلطان أبي سعيد، وجئت حضوره لملازمته، وسألني في أول مرة عن اسمي وكسبي وصنعتي، قلت: أنا فقير من فقراء مولانا سعد الدين الكاشغري وأشتغل بتعليم الصبيان في مكيتب. فقال: لا تقل مكيتباً ولا تصغر اسمه فإنه أمر عظيم ويترتب عليه فوائد كثيرة وعوائد جزيلة. ثم حكى عن مولانا سعد الدين حكايات كثيرة ونقل أشياء من الخصوصيات الواقعة بينهما، وأظهر لي التفاتات كثيرة.

وقال: كنت في مبادي الحال مشتغلاً بتحصيل العلوم في هراة، ولما اخترت صحبة مولانا سعد الدين وقع الفتور في المطالعة وصرت متردداً بين ترك التحصيل بالتمام وبين الاشتغال به في بعض الأيام. فخرجت يوماً من البلد وأنا في هذا الفكر، ولما وصلت إلى باب مدرسة فيروز شاه دخلت مسجدها وأغلقت بابه عليَّ وقعدت مسنداً ظهري إلى المحراب وكنت أتفكر في ترك التحصيل والاشتغال به. فسمعت من زاوية المحراب قائلاً يقول: اطرح واسترح. فتغيّر عليَّ الحال، فخرجت من المسجد وتوجهت إلى طرف خيابان، ولما وصلت إلى تل الأقطاب، وكان هناك مجذوب يسمى بنجم الدين عمر، يسكن بمقبرة فيه، ظهر هو لي من بعيد وله زمزمة في نفسه فقلت: أذهب عنده وأسمع ما يقول في هذا الباب. ولما وصلت إليه قال: ألم أقل لك في مسجد فيروز شاه اطرح واسترح. فتحيّرت من كلامه وتعجبت، ورجعت من عنده وقد غلبت داعية الترك والتجريد عليَّ. فجئت في الحال عند مولانا سعد الدين قدّس سرّه فرأيته قاعداً في محل خال في المسجد، مراقباً، فجئت عنده وقعدت، فرفع رأسه وقال: اطرح وافرح مثل مشهور.

والحاصل: عليك بترك التحصيل الذي ليس له حاصل ولا يحتوي على طائل والتوجه إلى هذه النسبة بالكلية. ولما سمعت منه هذا الكلام تخلص الخاطر من التردد بالتمام وأقبلت بجميع همّتي على طريق خواجكان قدّس الله أرواحهم.

وقال: حضرت يوماً في ملازمة مولانا سعد الدين مجلس وعظ خواجة محمد شمس الدين الكوسوي قدّس سرّه فقال: اجلس خلفي. وكان من عادتي الصيحة في مجالس الوعظ وصحبات السماع أحياناً. ولما طلع الخواجة إلى المنبر وبدأ بالتكلم في المعارف والحقائق بل الأمر في ذلك الأثناء مرتبة ظهر في حال مقتضٍ للصيحة لم يظهر مني صوت، ثم ظهرت حالة أخرى مقتضية للصيحة فلم يظهر مني صوت

كذلك، ووقع ذلك ثلاث مرات، فعلمت أنه كان محافظاً عليَّ ولم يتركني أن أصيح. ثم رأيته في ذلك الأثناء قد وقعت عليه الغيبة والذهول واستولى عليه الاستغراق والاستهلاك، فعرضت لي حالة ظهر فيها مني ثلاث صيحات متصلة. ولما قمنا بعد تمام المجلس قال مولانا: يوشك أن تقعدك تلك الصيحات على زاوية، يعني: تظهر فيك واردات وأحوال تحصل الصحة حين استيلائها بلا اختيار. فمرضت في تلك الأيام وبلغ الضعف مرتبة لم تبق لي قوة الحركة وجزم الأحباب بموتي في واحدة من الليالي. فصرت أتفكر في هذا الوقت قول مولانا وأقول: إن قوله حق وصدق ولم يظهر لي هذا المعنى إلى الآن وأنا في حالة النزع. فغلبني النوم في الحال، فرأيت مولانا في المنام جاء عندي وقال: بسم الله، حسبي الله، توكلت على الله واعتصمت بالله، فوّضت أمري إلى الله، ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلاّ بالله. فلما استيقظت كانت تلك الكلمات جارية على لساني، فحصلت لي في الصباح قوة التوضيء والصلاة قاعداً.

وقال: لما أمرني مولانا سعد الدين بالنفي والإثبات قال في أثناء ذلك: ينبغي أن تعتقد أن الله سبحانه محيط بالأشياء كلها بالذات، وهذه الآية، أعني: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾ [النساء: الآية ١٢٦] شاهدة لهذا المعنى إن لم يؤولها علماء الظاهر. فوقع عليَّ خوف من هذا الكلام فحدس ذلك بالفراسة. وقال: قال علماء الظاهر: إن علمه تعالى محيط بجميع الأشياء بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: الآية ١٢] ينبغي أن يعتقد هذا، فإنه لا بد من هذا القدر، فطاب قلبي من هذا الكلام. ولما جئت صحبته في اليوم الثاني قال: يا مولانا علاء الدين لا فائدة في ذلك، بل ينبغي أن تعتقد أن الإحاطة والمعية بحسب الذات وهذا هو معتقد أهل التحقيق. انتهى كلامه قدّس سرّه.

لا يخفى أن إحاطة الحق بالأشياء ومعيته بها على وجهين على ما حققه بعض كبراء المحققين: ذاتية، وصفاتية. والذاتية على قسمين، الأول: معية الذات بجميع ذرات الموجودات من غير كم ولا كيف على سبيل العموم كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾ [النساء: الآية ١٢٦]. والثاني: معية ذاتية اختصاصية، وهي خاصة بالمقربين كما قال تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: الآية ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: الآية ٦٩]. وأما المعية الصفاتية فهي معية بحسب العلم والقدرة وسائر صفات حضرة الألوهية

كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: الآية ١٢]، و﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠٦]. وكان مقصود مولانا سعد الدين هو القسم الأول من قسمي المعية الذاتية، والله أعلم.

* * *

ذكر ملاقات مولانا علاء الدين الشيخ عبد الكبير الحضرمي باليمن قدّس سرّهما ونقلياته عنه

لا يخفى أن مولد حضرة الشيخ: في حضرموت، وهو بلد من بلاد اليمن، وساح في مبادي حاله وأوان طلبه أكثر ديار العجم وبلاد العرب. ثم جاور الحرم الشريف المكي بعد عشرين سنة، وكان في وقته شيخ الحرم ومرجع الطالبين. ولما كان مولانا علاء الدين مقيماً في الحرم المحترم زاده الله شرفاً وكرامة ومجاورة، كان يتردد كثيراً إلى حضرة الشيخ، وكان منظوراً بنظر عنايته. وسمع منه المعارف واللطائف، ولنورد هنا بعضاً منها:

قال مولانا علاء الدين: سألني الشيخ يوماً عن الظلم! قلت: هو وضع الشيء في غير موضعه، فقال: القلب محل ذكر الله تعالى فمن وضع فيه غير الحق تعالى فقد ظلم.

وقال: سألني الشيخ أيضاً عن الذكر، قلت: لا إله إلاّ الله، قال: ما هذا الذكر هذا عبارة. قلت: فما هو عندك؟ قال: الذكر أن تعرف بأنك لا تقدر أن تعرفه.

وقال: قال الشيخ: ينبغي أن يقبل ويتوجه إلى الجهل، وأن ينوي الصلاة هكذا عبد الله الذي لا أعرفه الله أكبر.

وقال: ظهرت فيَّ مرة حالة وتيسر لي شهود أمر منزّه عن الكم والكيف لا يمكن التعبير عنه بعبارة، فظهر في تلك الحالة مولانا سعد الدين قدّس سرّه وقال: يا أخي احفظ هذه الحالة حفظاً قوياً، فإن هذه الحالة هي معنى كلام الشيخ عبيد الكبير حيث قال: ينبغي أن يقبل ويتوجه إلى الجهل.

قال: قويت فيَّ علاقة المحبة بالكعبة المعظمة حين مجاورتي في مكة المكرمة

بحيث لم يكن لي صبر ولا قرار في محل آخر. وبينا أنا يوماً في الطواف إذ هبت الريح وحركت أستار الكعبة وانكشف بعض جدرانها، فحصل لي منه كيفية وظهرت مني صيحة وسقطت مغشياً عليَّ. فلما أفقت قمت بالخجالة والانفعال وتوجهت نحو حضرة الشيخ، فلما قعدت عنده وأردت أن أشكو إليه بعض ما بي من هذه العلاقة، قال قبل ابتدائي بالكلام: يا عجمي إيش لك مع البيت؟ فبكيت وتوسلت به بحسب الباطن، فقال: ما ترى في البيت فهو غير محدود بل هو في الجبال وفي الجدار وفي السماء وفي الأرض وفي الحجر وفي المدر موجود ومشهود، بل كل ذلك هو، ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الحشر: الآية ٢٢] وكنت أنظر في هذا المحل إلى كل ما يشير إليه الشيخ بكمه فلوح لي منه ما كان موجباً لعلاقتي بالبيت المعظم وشوهد لي ذلك المعنى في كل الأشياء وتساوت نسبة حبي إلى البيت وغيره ببركة تصرف الشيخ ويمن التفاته، وتخلّصت عن قيد الجهة بحسب الباطن.

وقال: حضرت يوماً عند الشيخ عبد الكبير وقد حضر في مجلسه جمع كثير من السادات ومشايخ الحرم والعلماء والفقراء وهو يتكلم في المعارف الإلٰهية، فاعترض على كلامه من بين العلماء متقشف غليظ الطبع، منكر أهل الله ومنكر كلامهم، فناداه واحد من أعيان المجلس: أن اسكت، فقال: إن تكلمت بما يخالف الشرع أو العقل فامنعوني وإلا فليش تمنعوني! . فلما قال هو هذا الكلام توجه الشيخ إلى الفقير وقال: يا عجمي خلصني منه، فقال المنكر: أظلمتك أم جفوتك حتى تطلب الخلاص! تكلمت بكلام فحصلت لي منه شبهة فينبغي لك أن تجيب فما هذه المبالغة كلها؟!، فرأيت حضرة الشيخ قد توجه إليه بالغضب وقال: قل لي ما شبهتك؟ فأراد أن يتكلم فلم يقدر وخر على وجهه مغشياً عليه وقام الشيخ ودخل خلوته وتفرق أهل المجلس وبقي المنكر مغشياً عليه، فوضعوه أخيراً في بساط وحملوه فقبض روحه قبل إخراجه من منزل الشيخ. ولما جئت صحبة الشيخ ثاني اليوم وقع على خاطري أن الأولياء أهل الكرم والمروة وكان ذلك الفقيه رجلاً جاهلاً غافلاً عن أحوال باطن أولياء الله، فما كان على الشيخ لو عفى عنه؟ فقال الشيخ: يا عجمي إن سيفاً صارماً ذا وجهين قد نصبوه على الأرض وأحكموه فيها وجعلوا رأسه في جهة الفوق فجاء جاهل أبله عرياناً وجعل صدره في رأس السيف وضرب عليه نفسه بتمام قوته وهلك، فما ذنب السيف فيه.

وقال: سألني الشيخ يوماً أنه: ما يقول شيخكم وقت غضبه عليكم؟ قلت:

كان يقول أنا رجل فقير فإذا حضرتم عندي تكونون على حذر ووقوف على أنفسكم وحضور بالله، وإذا خرجتم من عندي تنسون الله سبحانه ولا تعرفونه أبداً. قال الشيخ: فما تقولون في مقابلته؟ قلت: نسكت ولا نرد شيئاً، قال: يا عجباً ليس لكم همة! ينبغي أن تقولوا في مقابلة كلام الشيخ: نحن لا نعرف الله بل نعرفك أنت. انتهى كلامه.

قال راقم هذه الحروف: قال بعض الأكابر: إن الشيخ يرى نفسه في مرآة المريد والمريد لا يرى نفسه في مرآة الشيخ. وسمعت حضرة شيخنا يقول بسمرقند: إن أنتم لا ترون الله سبحانه وأنا في قيد الحياة فمتى ترونه.

* * *

ذكر أنفاسه النفيسة قدّس سرّه

وهي على قسمين، **الأول**: ما نقله عن مولانا سعد الدين قدّس سرّه. **والثاني**: ما نقله عن قبل نفسه. ولنورد القسم الأول في ضمن سبع رشحات:

● **رشحة**: قال: قال شيخنا: كان الله ولم نكن نحن، ويكون الله ولا نكون نحن، والآن نحن معدومون أيضاً والله موجود. فانظروا من تفارقونه بعد مائة سنة ومن تصاحبونه فكونوا من الآن مصاحبيه واصرفوا قلوبكم عن كل ما يبقى في منزلكم.

● **رشحة**: وقال: قال شيخنا: إن ما قاله الشيخ الهروي قدّس سرّه من أن التصوف كأنه تربية مليئة قد رشت عليها مويهة فلا يصل إلى كف الرجل منها ألم ولا يقع منها غبار على ظهر القدم ليس هو حقيقة التصوف، بل هو صفة التصوف ورسمه، وحقيقة التصوف الكون مع الله.

● **رشحة**: قال: كان يوماً جمع من الأصحاب قاعدين على باب قصر مولانا فوقعت المباحثة بين شخصين منهم، قال أحدهما: الذكر أفضل من تلاوة القرآن. وقال الآخر: بل التلاوة أفضل من الذكر. فخرج شيخنا في ذلك الأثناء وقال: في ماذا كنتم تتكلمون؟ فعرضوا عليه المباحثة، فقال: الكون مع الله أفضل من الكل.

● **رشحة**: قال: قال شيخنا: مَن كان حاضراً بالله فهو الآن في جنة صرفة، ومن كان غافلاً عنه فهو الآن في جهنم صرفة.

● **رشحة**: قال: جاء يوماً واحد من ثقلاء الزهاد مجلس مولانا وفي يده عصا

وعلى منكبيه رداء وقد ربط عليه مشطاً ومسواكاً وسبحة، فحصلت لي من رؤيته نفرة عظيمة وإن اجتهدت في إبعادها عن نفسي لم يجد نفعاً. فلما انصرف قال مولانا: يا فلاناً كما أن أهل الآخرة يتنفرون عن أهل الدنيا فكذلك أهل الله يتنفرون عن أهل الآخرة.

• رشحة: قال: امتد يوماً سكوت حضرة شيخنا ثم رفع رأسه وقال: أيها الأحباب كونوا حاضرين إن الحبيب عين بعين.

• رشحة: قال: قال شيخنا: والله إن الحبيب آخذ بيدكم ودائر معكم على الأبواب في طلب نفسه. ثم أنشد هذين البيتين: [شعر]

أنكه نـي نـام بـدسـتـسـت مـرازونـه نـشـان دست بكر فتست مرادر عقب خويش كشان
أوسـت دسـت مـن وپـانـير بـهـر جـاكـه رود پـاي كـوبـان زبـرش مـيـروم ودسـت فـشـان

وأما القسم الثاني فلنورد بعضاً منها في ضمن أربع وعشرين رشحة:

• رشحة: قال: ثلاثة أشياء لازمة على الطالب ولا بد له منهن: دوام الوضوء، وحفظ النسبة، والاحتياط في اللقمة.

• رشحة: قال: قال الأكابر في معنى: لا إلٰه إلا الله، إن الذاكر يقول في مرتبة سلوكه أحياناً: لا معبود إلاّ الله، وأحياناً: لا مقصود إلاّ الله، وأحياناً: لا موجود إلاّ الله، فما دام لم يشرع في السير إلى الله يلاحظ وقت الذكر لا معبود إلا الله، وبعد شروعه فيه يلاحظ لا مقصود إلا الله، وما لم ينته السير إلى الله ولم يضع قدمه إلى السير في الله فملاحظة لا موجود إلا الله كفر.

• رشحة: قال: كل طالب لا يعد السنة فرضاً على نفسه فهو من نقصان الدين. وقد كان بعض السنن فرضاً على النبي ﷺ. وفي قوله تعالى: ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسرَاء: الآية ٧٩] إشارة إلى هذا، فلا بد من التزام السنة وآداب الشريعة كما ينبغي وكل سعادة ظاهرية وباطنية موقوفة عليها.

• رشحة: قال: إن هذا المهم يعني نسبة الأكابر لا تحصل باشتغال بها ولا بغير اشتغال بها، معناه: لا تحصل باشتغال إن كانت له قابلية ولا تحصل بغير اشتغال إن لم تكن له قابلية.

• رشحة: قال: إذا عمل كل طالب مبتدىء عملاً صالحاً واستحسنه شخص

فاستأنست به نفسه وطابت، فليس ذلك الاستئناس على الطالب أقل من زنا مع ذي رحم محرم.

* رشحة: قال: إن هذا الأمر الذي وقع على الناس ما وقع على شيء من الموجودات لا يفتح الأمر من الطاعات الرسمية والعبادات العادية بل ينبغي أن يتحزم في العبودية بالمبادرة وأن يحتاط في التكلم والنظر والأكل احتياطاً بليغاً.

* رشحة: قال: ينبغي في هذا الطريق أن لا يكون شيء ملحوظاً للطالب لا الدنيا ولا الآخرة، فإن لم تكن نفس السالك بهذه المثابة فهو علامة على أنه خلق لمعرفة نفسه وإلا فهو مخلوق للجنة أو النار.

* رشحة: قال: من لم يتخلص في هذا العالم عن قيد نفسه فروحه باقية بعد خراب البدن تحت فلك القمر.

* هر كرادر خاك غربت پاي دركل ماندماند *

وهذا كلام الشيخ ابن عربي قدّس سرّه حيث قال: كل من يبقى تحت فلك القمر فهو باق فيه. فعرضت هذا الكلام على مولانا الجامي قدّس سرّه السامي وطلبت منه تحقيقه، فإن هذه القضية كانت مشكلة عندي لأن أكثر المؤمنين يموتون قبل التخلص عن أنفسهم، فقال: كل من آمن بالله فقد حصل نقبة في الفلك فيعرج من تلك النقبة أخيراً.

* رشحة: قال: إن كمال الإسلام في التسليم والتفويض، فإن ألقى طوق اللعنة على عنق صاحب التسليم مثل إبليس ينبغي أن يرضى بفعل الله تعالى كما يرضى المؤمن بإيمانه. فإن العبد الصادق مَن يرضى بقضاء الله تعالى لا بفعل نفسه.

* رشحة: قال: إذا عرض لشخص شيء مكروه فإن كان عبد نفسه يغيره ذلك الشيء، وإن كان عبد الله تعالى لا يغيّره. [شعر]

إذا كنت من نفع وضر مؤثراً فلست بعبد الله بل عبدا هواكا

* رشحة: قال: الأصل أن كل من لم يكن له عشق فهذا الأمر حرام عليه، وقد أجاد من قال: [شعر]

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فأنت وعير في الفلاة سواء

* رشحة: قال: إن هوش دردم أصل أعظم في طريقة خواجكان قدس الله

أرواحهم، فإن مر النفس على غفلة يعدون ذلك من الكبائر حتى عدّه بعضهم من الكفر. وشعر الشيخ فريد الدين العطار قدّس سرّه مؤيد لهذا القول حيث قال: [شعر]

هرآنكه غافل أز حق يك زمانست ... درآ ندم كافرست أسانها نست

إكر آن غافلي يپوسته بودي ... در إسلام بروي بسته بودي

أقول: وشعر ابن الفارض قدّس سرّه أوضح من هذا وأبلغ، حيث قال: [شعر]

ولو خطرت لي في سواك إرادة ... على خاطري سهواً حكمت بردتي

* رشحة: قال: قال مولانا أبو يزيد البوراني عليه الرحمة والغفران: كما أن الاجتناب عن المعاصي واجب على العامة كذلك الاحتراز عن الغفلة لازم على الخواص، كما أن العامة يؤاخذون على المعصية كذلك الخواص يعاتبون على الغفلة. [قطعة]

يا مكن بافيل بانان دوستي ... يا بنا كن خانة درخور دفيل

كم نشين بايار أزرق پيرهن ... يابكش برخان ومان انكشت نيل

* رشحة: قال: إذا جالس جمع من الناس فمن كان منهم أشد رسوخاً في طوره وسيرته وطريقته يجذب الباقين إلى نفسه، فإن الحكم للغالب. ألا ترى كفتي الميزان فإن الأثقل منهما يجذب الأخرى إلى نفسه، فينبغي أن تكون همة شخص بحيث إذا اقتدى به كل العالم يجذب الكل إلى نفسه ويصبغهم بصبغه، ويجعلهم في لونه. انتهى كلامه.

ورأى راقم هذه الحروف مكتوباً على ظهر كتابه بخطه ما يؤيد ذلك، وهو هذه الكلمات القدسية: إن كمال السلطان أن يلبس كسوة نفسه بتمام تصرفه جميع رعاياه وخواصه بحيث إذا وقع نظره على كل واحد منهم لا يرى غير نفسه وكمال رعاياه وعبيده أن يتخلصوا عن قيد أنفسهم بأسرها وأن لا يطالعوا ولا يعلموا في أنفسهم غير ما فيهم من عطايا السلطان، بل ينبغي أن يتخلصوا عن عدم العلم أيضاً إذا تمّ نقرهم فلا هم إلا أنا.

* رشحة: قال: إن الصياح من علامة الغفلة لأنه يحصل عند الحضور

بالمعنى. فإن كان السالك حاضراً دائماً لا تظهر صيحة منه أصلاً فإن الحضور والشهود موجبان للفناء والذهول، ولا صياح في مقام الفناء. وحكم صاحب صيحة كحكم حطب رطب فإنه إذا ألقي في النار يظهر منه صوت ما دام رطباً. [شعر]
كف مكن وبسر مروسر مكشاي ديك را نبك بجوش وصبركن زانكه همي پرازنمت

[شعر]

الوجد يطرب مَن في الوجد راحته والوجد عند وجود الحق مفقود
قد كان يطربني وجدي فأذهلني عن رؤية الوجد مَن بالوجد مقصود

• رشحة: قال: قال الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه في معنى: الكاسب حبيب الله، أن المراد من الكسب هنا هو كسب الرضا، ومعنى هذا الكلام أنه ينبغي للعبد أن يكسب ملكة الرضا بكل ما يفعله الحق سبحانه. وفي الحقيقة يتيسر حصول هذا المعنى إذا تحقق العبد بالفناء الحقيقي.

• رشحة: قال: إن العوام يعرفون الحق سبحانه بالخلق والخواص يعرفون الخلق بالحق، فإنه قد يفتح نحو الخواص باب من ذلك الطرف فيشاهدون منه شيئاً فيعلمون ويرون أن الخلق كلهم متوجهون إليه.

• رشحة: قرأ يوماً هذا الحديث: أفضل إيمان المرء أن الله معه حيث كان، وقال: إن هذا التعليم كاف لمن كان له إدراك. [قطعة]

ياربا تست هر كجا هستي جاء ديكرچه خوامي أي أوباش
باتودر زير هر كليمست أو بس بروواي حريف أو راباش

• رشحة: قال: وقعت يوماً في فكران الإيمان الشهودي، هل هو من الأحوال الظاهرية أم من الأحوال الباطنية؟ فسمعت من وارد أنه بالنسبة إلى العبد من أحوال الباطن، وبالنسبة إلى الحق من أحوال الظاهر. فإن العبد يبلغ في هذا الحال حقيقة باطنه ويتجلى له الحق سبحانه باسم الظاهر وصفة الظاهر.

• رشحة: أنشد يوماً هذا الرباعي لخواجة أبي الوفاء الخوارزمي قدّس سرّه: [شعر]

چون بعض ظهورات حق آمد باطل بس منكر باطل نشود جز جاهل
دركل وجود هركه جز حق بيند باشدر حقيقة الحقائق غافل

ثم قال: قد آمنت بمضمون هذا الرباعي من منذ أربعين سنة، فإني خرجت ليلة من بيتي في أيام شبابي بداعية فساد، وكان في قريتنا عسس شرير سيء الخلق لا أعرف أحداً مثله في الشر والغلظة، وكان أهل القرية كلهم خائفين منه، فرأيته في نصف تلك الليلة مختفياً في كمين فوقع عليَّ الخوف من رؤيته وتركت الفساد المضمر في قلبي، فعلمت في هذا المحل أن السوء لازم أيضاً في هذه الدنيا. وقد قال بعض الأكابر تحقيقاً لهذا المعنى: [شعر]

لا تنكر الباطل في طوره ... فإنه بعض ظهوراته

وهذا البيت للشيخ أبي مدين المغربي قدّس سرّه، وهذا بعض أبياته:

وأعطه منك بمقداره ... حتى توفي حق إثباته

فالحق قد يظهر في صورة ... ينكرها الجاهل في ذاته

* رشحة: قال: إن فرّقت بين من يضع الحلواء في فمك وبين مَن يضرب بيده على قفاك فهو علامة النقصان في التوحيد.

* رشحة: قال: سألت يوماً مولانا الجامي قدّس سرّه: أنه قد ورد في الدعوات المأثورة هذا الدعاء: اللهم اشغلنا بك عمن سواك، فإذا لم يكن غير وسوى فما معنى هذا الدعاء؟ قال: إن كاف الخطاب إشارة إلى نفس الذات. يعني: اجعلنا مشغولين بنفس الذات عن غير الذات من الأفعال والصفات، يعني: خلصنا بالشهود الذاتي عن التجليات الأسمائية والصفاتية والأفعالية.

* رشحة: قال: لما قال الحسين بن منصور: أنا الحق، أراد به حقيقة نفسه. وحيث قال فرعون: أنا ربكم، أراد به صورة نفسه. فلو عرف فرعون أيضاً حقيقة نفسه لكان قوله: أنا، مقبولاً.

* رشحة: غلبني ليلة أمر بحيث كنت أمسح وجهي بالجدران والأبواب والأحجار والمدر وأبكي بكاء شديداً، ثم قال: إن كل ذرة من ذرات الوجود خال في وجه المحبوب موجب لزيادة حسنه. [شعر]

هر كرازذرة وجود بود ... پيش هرذره رد سجود بود

* * *

من خوارقه للعادات

اعلم أنه كان لمولانا علاء الدين لطافة وإشراف على الخواطر وتصرف تام، ولما قدم راقم الحروف من ما وراء النهر، جئت لزيارته من غير تأخير وعنده اثنان من طلبة العلوم يقرآن عليه «المصابيح» وبيده الكتاب المذكور وهو ناظر فيه، فصار معلوماً للفقير أن بصره ناظر إلى صورة الكتاب وقلبه مشغول بشيء آخر. فخطر في قلبي أنه كيف هذا التدريس والتعليم! يقرأ عند جماعة وهو غير حاضر للدرس. فأشرف على هذا الخاطر وقال متبسماً: وكثيراً ما قلت للأصحاب: إنه ليس لي أهلية للتدريس ولكنهم لا يصدقونني. فقل أنت ذلك لعلهم يقبلونه منك.

قال ولده الأعز الأرشد مولانا غياث الدين أحمد، وكان من العلماء المتقين وتشرّف بشرف صحبة مولانا سعد الدين الكاشغري قدّس سرّه واستسعد بسعادة قبوله: صعدت ليلة في أيام الحر على سطح البيت للمنام بعد العشاء، وكان بيتنا في محلة شمع ريزان، وكان الوقت أوائل الشهر اتفاقاً فظهر نور القمر ظهوراً يسيراً وكان في اتصال منزلنا قصر لبعض أهل القرى، وكانوا يتركونه خالياً في أكثر الأوقات خصوصاً في أيام الحر. فوصل إلى سمعي صوت شخص من هذا البيت فتقربت إلى جنب السطح متعجباً منه ونظرت إلى جانب القصر، فرأيت فيه رجلاً مع امرأة يتكلمان قاعدين متقابلين، فتأخرت في الحال وجئت إلى فراشي. فلما صلّيت الصبح حضرت صحبة والدي في محلة استربانان، ولما قعدت لديه قال: لا يجوز الصعود على سطح دار الجيران والنظر إلى قصرهم، ما يصنع الإنسان بالصوت الواصل من بيت الجيران إلى سمعه! ينبغي للإنسان أن يشتغل بحال نفسه وأن يجتنب عن الفضول. قال مولانا غياث الدين: فحصل لي من هذا اليوم يقين تام على أن لهذه الطائفة نظراً آخر وراء القوة الباصرة يرون به الأشياء في ليلة مظلمة من مواضع بعيدة، ولا يكون البعد المكاني مانعاً عن هذا النظر.

وقال أيضاً: ذهبت يوماً في أيام شبابي مع جمع من الطلبة إلى نزهة كازركاه،

وكان معهم غلام صاحب حسن وجمال، فنام وقت النوم في طرف رجلي ولما انطفىء السراج رقع على قلبي وسوسة: أن أمد رجلي إلى طرفه، وزاحم هذا الخاطر مرتين أو أكثر، فقلت في نفسي أخيراً: إن الوالد واقف على حالي وحاضر معي في أكثر الأوقات، فيضرب بذلك الأمر على وجهي وقت حضوري عنده غداً. فقبضت رجلي ونمت، ولما جئت في الصبح البلد وحضرت صحبته قال: إذا استحييت من مد رجلك بتوهم اطلاع مخلوق عليه فالاستحياء من اطلاع الخالق المطلع على أحوال الخلائق الحاضر معهم أزلاً وأبداً في جميع مواطن الدنيا والآخرة وترك ارتكاب سوء الأدب أولى في ذلك.

نقل واحد من أصحابه: أنه كان يوماً قاعداً في المكتب في بداية اتصالي بصحبته، فجئت عنده وفي يده ورقة صغيرة يطويها مرة وينشرها أخرى، ولما رآني قال: يا فلان تقدم وخذ هذه الورقة. فبادرت إليه ومددت يدي لأن آخذها فقبضها فبقيت متحيراً ثم مد يده وقال: خذها، ولما أردت أن آخذها قبض يده ثانياً ثم أعطانيها في الثالثة. ولما وصلت الورقة إلى يدي ظهرت منها نار كالبرق الخاطف ودخلت في يدي وجرت من طرق العروق بغاية السرعة حتى اتصلت بقلبي فاحترق قلبي بها بحيث ظننت أنه صار رماداً، فوضعتها على الأرض خوفاً من الهلاك. فنادى عليَّ بهيبة أن: ارفعها، ولما رفعتها ظهرت فيَّ كيفية حتى سقطت مغشياً عليَّ وبقيت في تلك الحالة مدة، وظهر مِن فِي زبد أبيض في هذا الحال فصار صبيان المكتب حين رؤيتهم إياي يقول بعضهم لبعض: جاء الجمل السكران إلى ثلاثة أشهر. ولما أفقت من تلك الغيبة استولى عليَّ بكاء عظيم ولم أدر سببه وموجبه، فخرجت من عنده وبكيت كثيراً. ولما حضرت صحبته في اليوم الثاني قلت في نفسي: لا أقعد في قربه، فإنه يحتمل أن يحترق قلبي ثانياً. فدخلت من باب المكتب ورأيته قاعداً مراقباً، فقعدت في صف النعال فرفع رأسه وقال: يا فلان، قلت: لبيك، ورأيته ينظر إليَّ متتابعاً، فوقعت تلك النار على قلبي بغتة وسقطت على الأرض في الحال وبقيت مدهوشاً مدة. ولما حضرت من الغيبة ما استولى البكاء عليَّ في تلك النوبة. وقد امتدت مدة مرضه الذي مات فيه إلى خمسة أشهر تقريباً. ولما جئت لعيادته في ابتداء مرضه وقعدت عنده قال: يا فلان قد قطعوا ماءنا عن رأس النهر. وأخبر بموته قبل ارتحاله بمائة وخمسين يوماً، فسكت ساعة ثم قال: الله موجود. وصاح مقارناً لهذا الكلام صيحة عظيمة وقال في صيحته: الله. ثم

قال: اسعوا واجتهدوا أن تعبدوا إلٰهاً موجوداً لا إلٰهاً موهوماً. وتوفي يوم السبت من أواسط جمادى الأخرى سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة ودفن تحت مرقد شيخه مولانا سعد الدين قدّس سرّه.

وقيل في تاريخ وفاته: [شعر]

مرشد الخلق العلا إذ قد مضى ... وترقّى روحه العرش المنير
خاض فكري في حساب رحلته ... قال عقلي ها هو ذا رفت پير

* * *

مولانا شمس الدين

محمد الروجي قدّس سرّه

كان من أجّلة أصحاب مولانا سعد الدين قدّس سرّه، وكان بعد وفاته مشغولاً بدعوة الطالبين في جامع هراة سنين. مولده قرية زوج، وهي قرية على تسعة فراسخ من هراة على طرف القبلة منها. ولادته في ليلة البراءة من شعبان سنة عشرين وثمانمائة. وكان قد توفي لوالدته ولد مقبول ابن خمس سنين فصارت من تلك الحيثية متأثرة ومجروحة القلب، فرأت النبي ﷺ في تلك الليلة في المنام قائلاً لها: «لا تحزني وليطب قلبك فإن الله سبحانه يعطيك ولداً يكون صاحب دولة وعمر طويل». فولد مولانا محمد بعد زمان، وكانت والدته تقول دائماً: أنت ذلك الولد الذي بشروني به. وكان مائلاً إلى الانزواء والانقطاع عن الخلق دائماً من صغر سنه ومجتنباً ومتجنباً عن أبناء جنسه. واتخذ من بيت والده خلوة لنفسه وكان يخلو فيها في أكثر الأوقات، وكانت صنعة آبائه وأجداده التجارة، وكانوا أصحاب إبل فما كانت له رغبة في طريق آبائه.

قال: كنت دائماً في تمني رؤية النبي ﷺ في المنام، فدخلت يوماً البيت ورأيت والدتي قاعدة مع طائفة من نسوان الأقرباء وفي يدها كتاب تقرأه عليهن، فدخلت فيما بينهن على خلاف العادة فسمعت الوالدة تقرأ منه دعاء وتقول: من قرأ هذا الدعاء في ليلة الجمعة مرات يرى النبي ﷺ في المنام. فلما سمعت منها ذلك زاد تمني. وكانت الليلة المستقبلة ليلة الجمعة اتفاقاً، فقلت للوالدة: أنا أقرأ هذا الدعاء في تلك الليلة فعسى أن يحصل المقصود. فقالت: اذهب واقرأ وأنا أيضاً أقرؤه. فقمت بعد ذلك وجئت الخلوة واشتغلت بقراءة الدعاء برعاية شرائطه المذكورة، وقد كنت سمعت أيضاً أن من صلّى على النبي ﷺ ثلاثة آلاف صلاة في كل ليلة جمعة يرى النبي ﷺ في المنام. ففعلت ذلك أيضاً حتى قرب نصف الليل، ثم وضعت رأسي ونمت. فرأيت نفسي في المنام خارجاً من بيتي ورأيت والدتي نائمة على جنب الصفة الشتوية، فلما رأتني قالت: يا ولدي لم أبطأت فإني أنتظرك

هنا وهذا رسول الله ﷺ قد نزل في قصرنا تقدم أذهب بك عند رسول الله ﷺ. فأخذت بيدي وذهبت بي إلى طرف الصفة الصيفية فرأيت رسول الله ﷺ قاعداً على جنب الصفة جاعلاً ظهره إلى القبلة وحوله جمع كثير ما بين قاعد وقائم متحلقين، وهو ﷺ يرسل الرسائل والمكاتيب إلى أطراف العالم، وبين يديه رجل قاعد يكتب ما يمليه ﷺ، وأحسبه مولانا شرف الدين عثمان زيارتكاهي، وكان من العلماء الربانيين وكُمّل المتقين في زمانه. ولما جاءت الوالدة بي لم تتوقف مقدار ما يفرغ رسول الله ﷺ من مهماته بل تقدمت وقالت: يا رسول الله إنك قد وعدتني بولد صاحب دولة وعمر طويل، هل هذا هو أم لا؟ فنظر رسول الله ﷺ إلى جانبي وقال مبتسماً: نعم هو هذا الولد. ثم توجه إلى مولانا شرف الدين عثمان وقال: اكتب له كتاباً. فكتب مولانا في ورقة ثلاثة أسطر وأنا أنظر إليه، وكتب تحت السطور أسامي كثيرة متفرقة مثل شهادة جماعة في الحجج، ثم طوى الورقة وأعطانيها. فلما انصرفت قلت في نفسي: إني ما أعرف مضمون هذا الكتاب فالأولى أن أرجع وأريه النبي ﷺ فيطلعني على مضمونه. فرجعت وجئت عنده ﷺ وقلت: يا رسول الله إني ما أعرف ما كتبوا في هذه الورقة. فأخذها النبي ﷺ من يدي وقرأها فحفظتها بقراءة واحدة ثم طواها ﷺ وأعطانيها. ثم أردت أن أسأله ﷺ عن شيء آخر فسمعت صرير الباب واستيقظت فرأيت الوالدة قد دخلت من الباب وفي يدها سراج، فقمت من فراشي فقالت: يا محمد هل رأيت شيئاً في المنام؟ قلت: نعم، فقالت: أنا أيضاً رأيت. فشرعت في قصة رؤياها وقصت جميع ما رأيته من أوله إلى آخره بلا تفاوت بين الواقعتين.

قال: ظهرت فيَّ داعية هذه الطريقة في ابتداء شبابي وكنت وقتئذ في قرية روج، فسألت بعض الناس عن أحوال أكابر هراة ومشايخ الطريقة لأصحب واحداً منهم، فدلني على الشيخ صدر الدين الرواسي وقال: هو من خلفاء مولانا الشيخ زين الدين الحافي والآن مشغول بإرشاد الطالبين وتعليم السالكين. فتوجهت في الحال إلى جانب هراة وملت عن الطريق إلى مرقد الشيخ زين الدين الحافي. وكان الشيخ صدر الدين هناك، وصادف قدومي وقت اشتغاله بالذكر مع أصحابه اتفاقاً، فتوقفت زماناً في جنب حلقة ذكره وشاهدت صياحهم ورفع أصواتهم بالذكر فلم يناسبني أحوالهم فتوجهت منه نحو البلد فلقيت في الطريق الحافظ إسماعيل، وكان رجلاً عزيزاً من قرية روج وصحب مولانا سعد الدين قبل وصول مولانا محمد إلى

صحبته، وتشرّف بشرف قبوله وحج بعد وفاته في ملازمة مولانا نور الدين عبد الرحمٰن الجامي قدّس سرّه، وكان له حظ أوفر من هذا الطريق.

قال مولانا محمد: قال لي الحافظ إسماعيل: من أين تجيء، وما مطلوبك؟ فقصصت عليه القصة، فقال: اذهب إلى باب المسجد الجامع فإن هناك شيخاً جليلاً يجلس أحياناً في دهليز الجامع مع جمع من أصحابه فلعل صحبته تناسبك. فتوجهت في الحال إلى باب الجامع ورأيت مولانا قاعداً في مقصورة الجامع مع جمع من أصحابه الأكابر على السكوت، فتوقفت خارج الباب وكنت أنظر إليهم متكئين على الجدار. ولما رأيت سكونتهم وسكينتهم تفكرت في أحوال حلقة الشيخ صدر الدين وصياح أصحابه وقلت في نفسي: ما ذاك الصياح والاضطراب وما هذا السكوت والاطمئنان؟ فرفع مولانا سعد الدين رأسه وقال: يا أخي تعال عندي، فجئته بلا اختيار فأجلسني بجنبه وقال: إذا كان واحد من عبيد السلطان شاهرخ أو عساكره عنده وقال بصوت عال: شاهرخ شاهرخ، فذلك نهاية سوء الأدب وغاية الحماقة، فإن أدب العبيد والعساكر أن يكونوا عند السلطان والسيد ساكتين حاضرين واقفين من غير صياح ونياح. ثم أنشد هذا البيت: [شعر]

ومن عادة الجهال من سوء فكرة   نداهم على مَن في حذاهم مصاحب

ثم نظر إلى يدي ورأى فيها خاتماً من قرن فقال: الأولى لمن يمد يد الحاجة أن تكون يده خالية. فأخرجته من أصبعي في الحال، فقام ودخل المسجد فأشار إليّ بعض الحاضرين أن أدخل من خلفه، فدخلت فقعد في محل وأقعدني بين يديه ولقنني الطريقة وقال: إن المسجد الجامع مكان حسن فأقم فيه واشتغل بما أمرت به. فاشتغلت بمقتضى إشارته فأحست الوالدة أيضاً هذا المعنى، فجاءت حضور مولانا من روج وأخذت الطريقة.

وقعدت ليلة مراقباً بعد صلاة التهجد في قبة المسجد الجامع التي يصلّى فيها الصلوات الخمس بعد مرور زمان من ذلك، فظهر نور كسراج واستنار به تمام القبة مثل النهار حتى شاهدت به تمام القبة. وشرع في التزايد آناً فآناً حتى صار مثل المنار العظيم وبقي على ذلك مدة، فحصل لي من ذلك نوع غرور وعجب. ولما أصبحت جئت مجلسه فنظر إليّ بنظر غضب وقال: أراك مملوءاً من رائحة الغرور، وهل ينبغي لإنسان أن يكون مغروراً هكذا برؤية هذا القدر من نور الوضوء وقد كان حين ملازمتي مولانا نظام الدين خاموش يشتغل عن يميني وعن شمالي عشر أو اثنا

عشرة مشعلة من نور وقت مشيي في الليالي المظلمة على الطريق وتذهب معي أينما توجهت، ولم يكن لي التفات إليها أصلاً ولم أحسبها شيئاً. ثم قال بعد ذلك بالغلظة: قم عني ولا تحضر عندي بتلك الصفة ثانياً. وطردني عن مجلسه، فخرجت من عنده مكسور الخاطر وبكيت واستغفرت من تلك الحالة واجتهدت في تطهير ساحة الخاطر عن رجس هذا الغرور، فارتفع عني ذلك بيمن التفاته وظهر مثل هذا النور لوالدتي أيضاً لكنها لم تقدر أن تتخلص عنه بل حصل لها من ذلك النور حظ تام وأنس عظيم.

• رشحة: قال: إن في تلك الأيام التي ظهر فيها ذلك النور أكثر شخص من إظهار التواضع والمسكنة لي وجاوز الحد في التملّق والتضرُّع إليَّ، فقلت له: ما شأنك وما سبب هذا التواضع والتضرع إليّ؟ قال: كنت مرة قاعداً في زاوية المسجد الجامع في ليلة مظلمة، فدخل فيه شخص من باب السقاية فاستنارت السقاية في نصف تلك الليلة المظلمة، فلما نظرت إليه كنته ولم يكن معك سراج، ولما خرجت صارت السقاية مظلمة أيضاً. فعرفت أنه صادق في تواضعه.

• رشحة: قال: لما وصلت إلى صحبة مولانا حصل لي اضطراب قوي لعدم حصول نسبة خواجكان قدّس الله أرواحهم، وكنت أضرب رأسي على الأرض في الليالي المظلمة في المسجد الجامع وأخرج في النهار إلى الصحراء أبكي فيها وأتضرع، وكنت على ذلك الحال وعلى هذا المنوال مقدار ثمانية أشهر تقريباً، فرآني حضرة مولانا في ذلك الأثناء مرة باكياً فقال: إبكي وتضرع كثيراً حتى تكون محلاً للرحمة، فإن للبكاء والتضرع أثراً عظيماً وقد كان لي أيضاً بكاء في أيام الشباب كبكائك. ثم نظر إليّ في أثناء هذا الكلام بنظر إلتفات فظهر أثر من نسبة هذه الطائفة العلية في الجملة.

وكنت بعد ذلك قاعداً ليلة في الجامع تحت پيل پايه مراقباً، فغلب عليَّ النوم قريباً من نصف الليل فقمت لدفع النوم فرأيت مولانا قاعداً وراء ظهري مراقباً وأنا غافل عن ذلك غير واقف على تشريفه وغير حاضر به، فصرت منفعلاً من ذلك وأردت أن أقعد خلفه فرفع رأسه وقال: يا فلان لِم قمت؟ قلت: غلب عليَّ النوم فأردت دفعه عني. فأظهر لي اللطف في تكلمه هذا حتى حصل لي طريق الأكابر بالتمام.

قال مولانا شهاب الدين البرجندي: حضرت غداة يوم صحبة مولانا سعد الدين فقال: قد حصل اليوم فتح عظيم ونسبة قوية لولد راعي الإبل حتى غبطته ملائكة السماوات السبع. قال مولانا شهاب الدين: كان مراده بولد راعي الإبل هو: مولانا محمد الروجي، فإنه كان لأبيه إبل خاصة.

* رشحة: قال: كان لمولانا الشيخ قوة إعطاء النسبة وقدرته لمن شاء أي وقت شاء، وكان يوصل من يشاء إيصاله إلى كيفية الذهول والغيبة. وصلت مرة إلى باب مسجد في ملازمته فأذن للمغرب، فدخلنا فيه وصلّينا المغرب. فاتفقنا فيه الختم وقد حضر فيه الحفاظ والقراء وأسرجوا مصابيح كثيرة، واجتمع فيه أناس كثيرون، فتوقف مولانا أيضاً وقعد في زاوية منه مستقبل القبلة وقعدت خلفه مكاناً أبعد عنه قليلاً، وكنت متوجهاً إليه، فرفع رأسه وأشار إليّ: أن أقعد بجنبه، فقمت من مكاني وجئته وأردت أن أقعد عنده، ولما كنت بين القيام والقعود إلتفت إليّ التفاتاً أخذني به عني بالتمام فلم أدر بأي كيفية جلست. وامتدت تلك الغيبة إلى أن أقام المؤذن للعشاء ولم أشعر في تلك المدة بتلاوة القرآن وإنشاد الأشعار وازدحام الناس.

* رشحة: قال: كنت وقتاً في مبدء الحال في سقاية المسجد الجامع وفي يدي كتاب «المثنوي»، فجاء حضرة مولانا السقاية وقال: ما هذا الكتاب الذي في يدك؟ قلت: «مثنوي»، قال: لا يفتح الأمر من قراءة «المثنوي» بل اللازم السعي والاجتهاد حتى تترشح معانيه من قلوبكم.

* رشحة: قال: جاء مولانا يوماً حجرتي ورأى مصحفاً في الرف فقال: ما هذا الكتاب؟ قلت: هو مصحف، قال: إن ذلك من علامة البطالة. يعني: أن وظيفة المبتدىء في بداية سلوكه الاشتغال بالنفي والإثبات. وقال: إن تلاوة القرآن وظيفة المتوسطين والصلاة شغل المنتهيين، وأهم المهمات للمبتدئين الاشتغال بالنفي والإثبات، وترك الأهم والاشتغال بغيره بطالة كمن يقرأ الفاتحة في القعود زعماً منه أنها أم القرآن.

* رشحة: قال: كان لي اشتغال قوي حين ملازمتي لمولانا سعد الدين، وقد كنت سلّمت نفسي بالكلية إلى نسبة الكبراء بالسعي البليغ. وكنت أقعد في الليل إلى طلوع الفجر وما كان لي مجال القعود من رجل إلى أخرى، فإن وقع حصى مقدار جوز ولوز تحت ركبتي لم يكن لي التفات إليه أصلاً ولم أجد فرصة لرفعه. يعني:

ن كمال حرصه في شغله وشوقه وذوقه.

* رشحة: قال: كنت يوماً في ابتداء الحال قاعداً مربعاً مراقباً في صحن المسجد الجامع، فسمعت قائلاً يقول: يا عديم الأدب هكذا يقعد العبد عند السلطان!، فوثبت من مكاني بلا اختيار وقعدت على ركبتي حتى توجع ركبتي توجعاً شديداً من شدة قعودي على الآجر، ولم يتفق لي تربع ثانياً من هذا الوقت مدة أربعين سنة وإن لم يكن الآن تفاوت عندي بين أنواع القعود، لكن لما تعودت القعود على ركبتي لا يحسن لي التربع.

* رشحة: قال: توجه مرة حضرة مولانا إلى قرية جغارة لزيارة الشيخ بهاء الدين عمر، وكان راكب الحمار وأنا ماش على رجلي أسوق الحمار. وقد كان اتفق لي أكل طعام بالليل، فغلب عليَّ العطش ولم يكن في مجال شرب الماء، فقال مولانا: خيراً، أبِكَ عطش؟ قلت: نعم، قال: إني أجد عطشاً في نفسي منذ خرجت من البلد وأعلم أنه ليس مني فاذهب واشرب الماء فإنه عطشك قد أثر فيَّ. فشربت الماء، ولما وصلنا إلى منزل الشيخ أخذت عصاه ونعليه وقعدت في محل بعيد عنهما وشرع الشيخ في التكلم مع مولانا وما كنت أسمع كلامهما لبعد المسافة بيني وبينهما، فقلت في نفسي: لا ينبغي أن أقعد معطلاً بل أتوجه إلى الشيخ. فاستقبلت نحو الشيخ، فلما حاذى قلبي قلبه صاح وتوجه إليَّ وقال: ما فعل هذا؟ ثم تبسم وتبسم حضرة مولانا أيضاً وترتب على ذلك التوجه أثر عظيم مع قلة زمنه وعدم زيادته عليَّ لحظة وظهرت فيَّ كيفية عظيمة وتواتر فيضان أثر قوي موجب لروح عظيم مثل وابل الغيث إلى أربعة أو خمسة أيام آناً فآناً. ثم سألت مولانا بعد ذلك: أنه ما وجه عدم طاقة الأكابر حين توجه إليهم واحد من الفقراء على وجه الإخلاص؟ قال: إن لهم دوام اتصال بجناب الحق سبحانه وتعالى فإذا توجه إليهم طالب يحصل لهم حجاب حائل بينهم وبين الله تعالى في مقدار ذلك التوجه، يعني فلا يطيقون ذلك.

* رشحة: قال: كنت مرة في البداية قاعداً في صحن المسجد الجامع قريباً من صفة شرقية مستقبل القبلة، وكان لي اشتغال بالطريقة في ذلك الوقت. فرأيت شبحاً قد ظهر أمام تخت المقرئين أسود اللون نحيف البدن، طويل القامة بحيث يصل رأسه سقف المقصورة، صغير الرأس مثل الجوز الهندي، مفتوح الفم مملوء بأسنان بيض ورقبته رقيقة طويلة، صغير الجسم، طويل الرجلين ورقيقهما، فرأيته قد توجه

إليّ وهو يضحك ويمشي إلى جانبي رويداً رويداً، يعوج مرة ويستقيم أخرى، ويتحرك بأنواع الحركات. فقلت في نفسي: إنه شويطان يريد أن يمنعني من نسبة الأكابر وأن يضيع شغلي. فأحكمت نفسي في الطريقة وصرت مشغولاً بالجد ويجتهد هو أيضاً في إشغالي عن إشغالي بما يمكن له من الحركات العجيبة والأمور الغريبة لكنه لم يتيسر له ذلك. وكلما قرب مني كنت مشغولاً بحالي أزيد من الأول، ولما وصل إلى غاية القرب مني ورآني غير ممتنع عن شغلي وثب وركب على رقبتي ولوى رجليه على خاصرتي مثل الجلود وكنت متمكناً في شغلي مثل الأول وما أظهرت اضطراباً أصلاً، فأخذ رجليه عن خاصرتي بعد زمان وصعد إلى هواء كهيئة دخان واختفى عني فلم يظهر لي بعد ذلك شيء مثله.

* رشحة: قال: كنت ليلة في مبادىء الحال متكئاً على تخت المقرئين في المسجد الجامع، فنظرت نحو السماء فرأيت النجوم كلها متوجهات إلى الأرض وشرعن في النزول مثل قطر المطر واستقبلن إليّ وقربنّ مني بحيث إن مددت يدي تصل إليهن. فظهرت فيّ كيفية عظيمة من مشاهدة ذلك الحال وحصل لي غيبة تامة وامتدت تلك الحالة إلى قريب الصبح.

* رشحة: قال: كنت يوماً في مبادىء الحال قاعداً عند والدتي، فتوجه إليّ وارد في غاية القوة فتيقنت أنه يسلب عني الشعور، فقلت لوالدتي: كونوا واقفين عليّ واحصوا الصلوات التي تفوتني. ولما قلت ذلك غلبت تلك الكيفية عليّ وغبت عن الحس وسقطت مغشياً عليّ. ولما فتحت عيني رأيت والدتي باكية عندي فقلت لها: ما بالك ولم تبكين؟ قالت: كيف لا أبكي، قد صرت ميتاً منذ ثلاثة أيام وكلما صببت المرقة والماء في فِيك لم يتجاوز حلقك فقطعت طمعي عن حياتك. ثم حسبت الفوائت فبلغت خمس عشرة صلاة فقمت وقضيت.

* رشحة: قال: صلّيت يوماً سنّة الظهر في المسجد الجامع ثم شرعت في اشتغالي، فاستولى عليّ في ذلك الحال كيفية الذهول وبقيت إلى مدة ثم صارت تلك الكيفية تظهر في كل يومين أو ثلاثة أيام ثم ترقّت شيئاً فشيئاً إلى أن كانت تظهر في كل يوم مرة، وزادت إلى أن صارت تغلب عليّ في كل يوم مرتين أو ثلاث مرات. وكانت في الزيادة آناً فآناً حتى كانت متعاقبة ومتواترة، ثم غلبت الغيبة والذهول على الحضور والشعور واستمرت على ذلك مدة، ثم أخذت في النقصان شيئاً فشيئاً حتى

خفت عن فتورها وزوالها بالكلية فعرضته على حضرة مولانا قال: لا تخف فإن كثرة الغيبة من ضعف الباطن وقد قوي باطنك الآن قليلاً وما زالت تلك الكيفية المعهودة بالكلية والآن الشعور في حكم عدم الشعور، وكان أولاً حالاً وصار الآن مقاماً.

* رشحة: لا يخفى أن الحال عبارة في اصطلاح الصوفية قدّس الله أسرارهم عن وارد ينزل على القلب بمحض موهبة الحق سبحانه، وليس لصاحب الحال اختيار وصنع في وروده وزواله مثل الحزن والسرور والقبض والبسط. ومن جملة شرائط الحال أن يزول البتة، وأن يرد عقبه مثله. ومتى كان حال السالكين ثابتاً فيهم وملكاً لهم يقال له حينئذ: مقاماً. والمقام عبارة في اصطلاحهم عن مرتبة من المراتب والمنازل تدخل تحت قدم السالك وتصير محل إقامته واستقامته ولا يتطرق إليها زوال. فالحال الذي له تعلق وتعوق لا يدخل تحت تصرف السالك بل يكون وجود السالك محلاً لتصرفه. والمقام الذي هو تحت قدم السالك يكون محلاً لتصرفه وتملكه، ولذا قال الصوفية: إن الحال من قبيل المواهب، والمقام من قبيل المكاسب.

قال: كنت في مبادي الحال في المسجد الجامع دائماً بأمر مولانا، وكان لي اشتغال تام حتى كنت أقعد في المسجد طول الليالي وأبكي بالتضرع وأضرب رأسي على عمود المسجد أسفاً على فقدان النسبة بحيث كان يظهر على رأسي في النهار قروح ودمامل مثل الجوز واللوز ولم أخرج من المسجد أصلاً إلا لضرورة حاجة الإنسان. ووقعت المحاصرة مرة وأغلقت أبواب البلد مقدار أربعين يوماً، وكان الناس يزدحمون في الجامع في تلك الأيام وما كنت أسأل أحداً عن سبب تلك الكثرة في غير الجمعة حتى سمعت قائلاً يقول بعد مضي هذه البلية: كان وقت المحاصرة كذا وكذا، فسألته أنه أي محاصرة هي؟ قال: أظن أنك لم تكن حاضراً في هذا البلد! فلم أقل شيئاً.

* رشحة: قال: كنت في مبادي الحال معتكفاً في المسجد الجامع فمضت ثلاثة أيام ولم يصل إليَّ شيء من الطعام، فقمت مضطراً وأردت الخروج من المسجد لطلب القوت. ولما وضعت رجلي اليسرى خارج المسجد واليمنى في داخله ألقي في قلبي إلهام رباني: أن بعت صحبتنا على خبز! فرفعت رجلي ودخلت المسجد ثانياً ولطمت وجهي بيدي حتى بقي أثر الضرب فيه إلى جمعة. وتقدمت إلى

صدر المسجد وقعدت في زاوية طاوياً رجلي في ذيلي وقلت في نفسي: لا أخرج لطلب القوت أصلاً ولو مت من الجوع. فحصلت لي نسبة قوية في ذلك الحال حتى لم يبق فيّ ميل إلى الطعام، فجاءني شخص لم أره قبل قط ووضع بين يدي قطعة من سكر أبيض يزيد على رطلين وانصرف من غير تكلم، فوالله لقد سرني رجوعه بلا كلام ومن غير إشغالي بنفسه أزيد من إتيانه بالسكر.

* رشحة: قال: وقع لي تعلق الخاطر بغلام صاحب جمال حين اشتغالي في صحبة مولانا وقويت رابطة المحبة له حتى أخط خيال جماله بمجامع قلبي ولم يبق فيّ علاقة بغيره، وبلغ الأمر بالتدريج حداً لم يبق التوجه الظاهري أيضاً إلى الشيخ، بل كنت مأنوساً ومألوفاً بنفس حرقة القلب بمحبته. فتركت ملازمة مولانا في تلك الأيام بالكلية استحياء منه أن أجلس في حضوره بهذه الصفة وبلغت الدهشة والوحشة من مولانا مرتبة إذا رأيته كنت أفر منه وأختفي في زاوية، وكنت منه في غاية الخجالة والانفعال، لكن لم يكن لي من عشق ذلك الغلام صبر ولا قرار ولا مجال. وكنت مرة أمشي في بعض الأزقة فرأيت حضرة مولانا قد ظهر مقبلاً عليّ اتفاقاً ولم أجد مفراً منه ومهرباً، فتوقفت بغاية الخجالة ونهاية الانكسار مطرقاً رأس الخجالة نحو الأرض ومجرياً عرق الحيرة من جبيني في الطول والعرض. فجاء عندي ووضع يده المباركة على صدري وأنشد هذا البيت: [شعر]

إلى كم يكون الصد عن صادق الود فهل لك مني دائم الدهر من بد

والتفت إليّ في هذا المحل بحسب الباطن فانمحى عشق الغلام عن خاطري بالتمام وانقطعت رابطة المحبة عنه، وانتقلت إلى حضرة مولانا.

* رشحة: قال: كان في ملازمة مولانا شاب رياضي من أهل تاشكند، وحصلت له أيضاً علاقة المحبة بغلام، واستولى العشق المفرط على باطنه وكان بحيث إذا حصّل شيئاً من النقود أو غيرها مما يتحف به بكمال المذلة وغاية المسكنة، كان يرميه على ممره ويقعد في الكمين لئلا يأخذه غيره إلى أن يمر به هذا الغلام ويأخذه. ولم يكن يظهر له نفسه في هذا المحل ولا يعمل شيئاً يكون سبباً لاطلاعه على تلك القضية. ولما وقفت على هذا الحال، قلت له: يا هذا تحصّل شيئاً يسيراً بمحنة كثيرة وترميه على ممر هذا الغلام وهو غير مطلع على ذلك، فأي فائدة لك فيما هنالك! فهلا أظهرت له نفسك وأطلعته على ما نثرته من نقدك حتى لا

تضيع محنتك؟ فلما سمع ذلك مني أجرى الدموع من عينيه وتأوه بحرقة قلبه وقال: لا أحب أن يصل إلى خاطره ثقل من جانبي. قال مولانا شمس الدين محمد: تيقنت أن محبته له كانت ذاتية.

• رشحة: قال: قال لي يوماً مولانا سعد الدين: هل تعرف شيئاً من أحوال فلان؟ وسمى طالب علم غريباً كان قد جاء هراة من بلده لتحصيل العلم ثم اختار ملازمة مولانا وترك التحصيل. وكان ساكناً في مدرسة مولانا جلال الدين القائني، وكان على كمال الترك والتجريد، وكان قليل الاختلاط بأصحاب مولانا أيضاً، وكان دائم السكوت والحزن. قلت: لا علم لي بحاله، غير أني أعرف أن له شغلاً دائماً. فقال: استخبر عن حاله وحققه ولا تتركه حتى يخبرك عن حاله. فجئت عنده امتثالاً لأمر مولانا وقلت له: كيف حالك وما بالك لا تخالط أصحاب مولانا، وما سبب جلوسك في زاوية الحجرة منفرداً دائماً مغلقاً باب الدخول والخروج على الأصحاب والأحباب؟ قال: أنا رجل فقير غريب ولا أرى في نفسي أهلية الاختلاط مع الأصحاب، فلا جرم أني لا أحب أن أكون مزاحماً لهم ومضيّعاً لأوقاتهم. فألححت عليه وقلت: إن لك لشأناً البتة وهو الذي يمنعك من الصحبة، فلا بد لك من أن تظهره لي. فقال: ما هذه المبالغة؟ قلت: أنا مأمور بذلك من حضرة مولانا ولا أتركك حتى تطلعني على حالك. ولما أيقن أن هذه المبالغة من محل آخر تأوه وقال: يا فلان قد وقع لي حال عجيب وشأن غريب، فأقول لك نبذة منه وذلك أني أصلّي العشاء مع الجماعة ثم أدخل حجرتي وأقعد مراقباً لحظة وأشتغل بطريقة معهودة ساعة، فيفاض عليَّ نور بلا نهاية ويحيط بي من جميع الجهات فأغيب عن نفسي عند ظهوره وتمتد تلك الغيبة إلى الصبح، وأكون في النهار مستغرقاً في لذته، وذلك حالي لا يزال في الليل والنهار. ولما صار طريقه معلوماً لي كدت أن أحترق من الغيرة والغبطة حتى جرى الدمع من عيني بلا اختيار وأثر كلامه هذا في باطني، فخرجت من عنده، فسألني حضرة مولانا في اليوم الثاني: ماذا علمت؟ وكان مقصوده من ذلك الإعلام لي بأن في أطرافه مثل هذا من الرجال وأن في أصحابه من يشتغل بمثل هذا الاشتغال.

قال مولانا خواجة كلان ابن مولانا سعد الدين: كنت أحمل الطعام إلى هذا الطالب أحياناً بأمر والدي الماجد، وكان يفطر في كل ثلاثة أو أربعة أيام مرة، وكان يمد يده إلى الطعام كالممتلىء منه. ووقف الخواجة قطب الدين الحصاري

على حال هذا الطالب وكان هو من المنعمين والمعتقدين في هذه الطائفة، فعيَّن غلاماً ليحمل إليه كل يوم قدحاً من الطعام اللذيذ وقرصاً من الخبز الخاص من سفرة الخواجة. ولما جاء الغلام بالطعام أول مرة أجلسه بين يديه وأمره بأكل الطعام بالتمام، فأكله ورجع إلى بيت سيده بالقدح الخالي وقال لسيده: أنه أكل طعامك كله بكمال الرغبة ودعا لك بالخير والبركة. فطاب منه قلب الخواجة. وكان الغلام يحمل إليه كل يوم قدحاً من الطعام ويأكله بنفسه بأمر هذا الطالب ولا يخبر بذلك أحداً حتى ظهرت حقيقة تلك القضية بعد عام فضرب الخواجة الغلام ولم يرسل بعد ذلك إلى المدرسة الطعام.

قال مولانا محمد: كان والد هذا الفقير يوماً قاعداً عند مولانا، فقال لي: يا محمد افعل شيئاً كذا. فقال بهاء الدين قدِّس سرّه: فعيَّن حضرة الخواجة اثنين من أصحابه لخدمته وتعهده فصار والده يغضب عليهما ويسيء الخلق إليهما على ما هو عادة المرضى. فاطلع حضرة الخواجة على ذلك الحال وجاء عند والده وقال: يا أبت إن هؤلاء الدراويش الذين يجيئون صحبتنا إنما يجيئون لله وطلباً للحق سبحانه، فالخدمة لهم واجبة علينا وحرمتهم لازمة في ذمتنا، فلِمَ تغضب عليهم، ولِمَ تسيء الخلق إليهم! فقال له والده: أتعلمني وتعظني أنت يا بهاء الدين وأنا والدك! قال له حضرة الخواجة: نعم أنت والدي بحسب الصورة، وأنا ولدك بحسب المعنى. يعني: أنت ربيتني بحسب الصورة وأنا ربيتك بالمعنى. فسكت والده وترك سيرته الأولى، فتأثر والدي من هذا الكلام تأثراً قوياً ولم يأمرني بعد ذلك بشيء وصار يعظمني ويقدمني دائماً كلما أظهرت له التواضع والانكسار. وازدادت رعايته للحرمة والأدب حتى بلغ احترامه حداً كان لا يضع قدمه قدام قدمي، بل كان يقدمني في المشي، فإن أبيت عن ذلك كان يبالغ في الإبرام حتى أكون عاجزاً عن المخالفة، ولم يبق لي مجال لعدم الامتثال.

قال: جاء يوماً الشيخ مظفر الكدكني، وكان من أكابر سلسلة الخلوتية، مع واحد من مريديه لعيادة مولانا في مرض موته. فقال بعد لحظة: أريد أن أشتغل بمقدار من الذكر على طريقتي إن أذن به مولانا! فقال له مولانا: يكون حسناً. فاشتغل الشيخ مع مريده بمقدار من الذكر بطريق الجهر ثم سكت وشرع في المراقبة ثم رفع رأسه بعد زمان وقال لمولانا: أنت من السادات. قال له مولانا: نعم، قال الشيخ: فما وجه إخفاء ذلك مدة عمرك والحال أن إخفاء هذا النسب غير جائز. قال

مولانا: لما توفي والدي بقيت شجرة وكتاب نسب فاستحييت أن أقعد بهما في دكان وأتجر بالسيادة، أو أن أذهب بهما إلى الأطراف والجوانب وأريهما للأحباب والأجانب. فوضعتهما في شق جدار وأحكمت فيه بطين وأحجار وقررت في نفسي أن لا أخفي نسبي عمن يسألني عنه. ولما لم يسألني عنه أحد في مدة عمري لم أظهره أيضاً لأحد، ولما سألتني عنه الآن ما أخفينه عنك بل قلت ما هو الواقع. ثم قال للشيخ: ما سبب استفسارك عن سيادتي؟ قال: شاهدت في تلك المراقبة أن النبي ﷺ قد حضر وقال: إن ولدي سعد الدين قد أوصل إليَّ اثنين من أصحابه وبلغهما مرتبة الواصلين. فقال حضرة مولانا مبتسماً: ينبغي أن يقول النبي ﷺ أزيد من ذلك! فقال مريد الشيخ: إن في أذن شيخنا صمماً يسيراً، بل قال النبي ﷺ اثنين وثلاثين، فسمعه الشيخ اثنين. فقال له مولانا: الواقع ما قلته واستحسن فطنته وحدة سمعه ثم قال: قد وصل من أصحابي اثنان وثلاثون إلى درجة الولاية بعنايته تعالى.

قال مولانا محمد: لما قال مولانا هذا الكلام وقع على خاطري أنه هل أنا داخل في أولائك الاثنين والثلاثين أم لا! فأشرف حضرة مولانا على هذا الخاطر ونظر إليَّ مبتسماً لكن لم يقل لا ولا نعم.

* * *

ذكر صحبة مولانا

شمس الدين محمد مع الشيخ عبد الكبير اليمني قدّس سرّهما وبعض كلماته المسموعة من الشيخ

اعلم أنه صحب الشيخ عبد الكبير اليمني حين مجاورته بمكة المكرمة زادها الله شرفاً، قال: كان الشيخ عالي المشرب، عظيم القدر، وكان قبلة مشائخ الحرم في وقته. وسمعت كثيراً من الثقات في تلك الديار يقولون: إنه لما قدم مكة من طرف اليمن لم يأكل طعاماً ولم يشرب ماء أصلاً إلى سنة ولم يفرغ من الطواف لحظة، ولم يقعد في تلك المدة إلا في التشهد.

* رشحة: قال: لما وصلت إلى صحبة الشيخ أول مرة كان في مجلسه كثير من الأكابر، فقعدت على عتبة الباب، فرفع رأسه بعد لحظة ونظر إلى جانبي وقال: من هو؟ قال البعض الذي كان يعرفني: هو واحد من سلسلة النقشبندية. فقال: مليح هم المخلصون هم الصدّيقون. وكان في غاية البخل في تعريف الناس حتى إذا نقل عنده شيء عن الجنيد أو الشبلي ولم يكن مناسباً لمشربه كان يقول: قاله فلان البارد، أو ما أشبه ذلك.

قال: قال الشيخ يوماً: كان لي أب كان يمشي في الماء، ويضع قدمه على الهواء. ولكن لم يكن له رائحة من التوحيد. قال: حضر في مجلسه يوماً كثير من الأكابر والعلماء والعرفاء والفقراء، فقال الشيخ في سياق الكلام: إن الله سبحانه ليس بعالم الغيب. فانفجع أكثر الحاضرين من هذا الكلام وارتعدت فرائصهم حتى تغطى البعض بثوبه من الخوف لكونه خلاف نص التنزيل بحسب الظاهر. ففطن الشيخ أن هذا الكلام لا تسعه حوصلة فهم البعض، فتنزل من قصته وقال: إن الأشياء كلها شهادة بالنسبة إلى علم الله تعالى فإنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء حتى يقال له غيباً. وأما المعدوم فلا يتعلق به العلم حتى يشكل به فلا جرم أن ما وقع في القرآن من قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: الآية ٧٣] إنما هو بالنسبة إلينا لا بالنسبة إلى الحق سبحانه. فسألت مولانا في الخلوة في اليوم

الثاني: أنه إذا لم يتنزل الشيخ عن قصته كيف يوجه كلامه وعلى ما يحمل؟ قال: إن جميع النسب والإضافات ساقطة في مرتبة الذات البحت والهوية الصرفة، فإذا لم تكن في تلك المرتبة إضافة النسبة العلمية لا يطلق عليه تعالى فيها عالم الغيب.

* رشحة: قال: كان الشيخ لا يأكل الطعام الحاصل من الحيوانات، وكان يحترز عن أكل اللحم، وكان يقول: أنا أتعجب من الناس كيف يضعون السكين على حلق ما له عينان ينظر بهما إليهم ويقتلونه ثم يطبخون لحمه ويأكلون. ويفهم من كلام الشيخ هذا: أنه كان في ذلك الوقت متحققاً بمقام الأبدال فإن تلك الخصلة مخصوصة بطبقة الأبدال، فإنهم لا يقتلون شيئاً من الحيوانات ولا يؤذونه ولا يأكلون لحمه لغلبة شهود سريان الحياة الحقيقية في الأشياء عليهم في هذا المقام.

* رشحة: قال: كان الشيخ صائم الدهر، وكانت له خريطة فيها مقدار من سويق وقدح من خشب، فإذا جاء وقت الإفطار كان يخرج القدح من الخريطة ويصب فيه مقداراً من ماء زمزم ويخرج قدراً يسيراً من السويق بإصبعه ويخلطه بماء زمزم ويأكل. وكان ذلك غدائه وشرابه إلى ليله ثانية.

* رشحة: قال: لما دخلت مصر بعد مفارقتي صحبة الشيخ سمعت فيه أن واحداً من كبار مشائخ مصر رأى في المنام أن واحداً من عظماء الأولياء يصير أعمى، ثم يصير بعد ذلك قطب زمانه وغوث أوانه، ويتمكن في مرتبة الغوثية سنتين ثم يتوفى. فبلغ الخبر مصر بعد أيام أن عين الشيخ عبد الكبير اليمنى قد كفت. ثم كان في قيد الحياة بعد ذلك سنتين ثم توفي إلى رحمة الله تعالى في مكة المكرمة وقبره المبارك هناك معروف مشهور يزار ويتبرك به.

* * *

ذكر فوائد أنفاسه النفيسة المسموعة

ولنوردها في ضمن إحدى عشرة رشحة:

* رشحة: قال: سمعت الحافظ الكاشغري، وكان كثير الملازمة لمجلس الخواجة محمد پارسا قدّس سرّه أنه قال: كنت يوماً قاعداً عند حضرة الخواجة محمد پارسا وكان هو ساكتاً فامتد سكوته امتداداً كثيراً فقلت له أخيراً: يا خواجة كلمنا كلمة ننتفع بها. فقال: مَن لم يجد فائدة من سكوتنا لا يكون محتظياً ومنتفعاً بكلامنا.

* رشحة: ونقل أيضاً عن الحافظ المذكور أنه قال: أنشد حضرة الخواجة يوماً هذا البيت: [شعر]

واجـهـد بـكـل حـالـة مـتـيـسـرة   في جبر نفسك في حمى المحبوب

ثم أعاده وأبدل لفظ: جبر، بـ: قتل، أيضاً.

* رشحة: قال: قال يوماً مولانا محمد الكوسوي: ينبغي للسالك أن يكون مثل الباز، فإنه يطير مرة فإن التقى صيداً فبها وإلا فيستقر ويسترح. وأنا أقول: ينبغي أن يكون مثلهما فإنه لا يطير أصلاً بل يستريح دائماً ويقنع بكسرة عظم.

* رشحة: قال: يقول الناس من غاية الكسالة: نفعل غداً أمراً، ولا يتفكرون أن يومهم هذا غدا أمسهم، فماذا يفعلون في هذا اليوم حتى يسوفوا الأمر إلى غد. وهذه القطعة مبينة لمضمون هذا: [قطعة]

وما الدهر إلا ما مضى وهو فائت   وما سوف يأتي فهو غير محصل[١]

وعيشك فيما أنت فيه فإنه   زمان الفتى من مجمل ومفصل[٢]

* رشحة: قال: قال مولانا سعد الدين: ضاق قلبي مرة في سمرقند وحصل لي ضجر هناك وسآمة، فسافرت إلى حصار، فحصل لي هناك أيضاً ملالة وكلالة لأني لم أجد في نفسي نيّة صحيحة دينية في هذا السفر. فلقيني شخص يوماً في أثناء الطريق فأنشدني هذا البيت: [شعر]

عش عاشقاً واقعد مع العشاق   لا تقربنَّ من ليس ذا أشواق[٣]

وقال: يا هذا خذ عني هذا البيت واحفظه واعمل بمضمونه حتى لا يكون سفرك ضائعاً. فقلت: الحمد لله اغتنمت في هذا السفر غنيمة كلية. فحفظت هذا البيت ورجعت. وكان يقول: من عمل بمضمون هذا البيت يصل إلى سعادة لا تصيبه

---

(١) وفي نسخة الموسوعة الشعرية [مُفَصَّل] بدل [محصل]. (الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي - أبو ظبي).

(٢) هذان البيتان هما للشاعر أبو الفتح البستي: علي بن عبد العزيز البستي المتوفى سنة ٤٠٠ هجرية. والبيتان من البحر الطويل وتفعيلته:

طويل له دون البحور فضائل   فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن

(الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي - أبو ظبي).

(٣) لم أقف على قائل هذا البيت.

بعد ذلك شقاوة أبداً.

* رشحة: قال: جاء يوماً مولانا محيي الواعظ مجلس مولانا وقد بلغ عمره وقتئذ تسعين، وقال بتضرع كثير: أرجو بذل الهمة منك ليشرّفني الله سبحانه بتوجه صدق إلى جانبه. فاعترضت عليه في هذا المجلس من قلبي لسؤاله توجه صدق بتضرع وانكسار بعدما بلغ عمره تسعين سنة. ولما صرت الآن شيخاً مسناً كان معلوماً لي أن الحق في جانب ذلك الشيخ، فإن التوجه الصدق أن تكون قبلة توجه السالك الذات البحت وأن يتخلص عن التوجه إلى الأسماء والصفات وذلك في غاية العسرة.

* رشحة: قال في آخر حياته: ما بقيت القدرة على غفلة منذ ثلاثين سنة فإن أردت أن أجعل نفسي غافلاً لحظة لا أقدر عليه. ثم أنشد بيتاً منسوباً إلى خسرو ومضمونه: [شعر]

خيالك في عيني وذكرك في فمي وشوقك في قلبي فأين تغيب[1]

* رشحة: تكلم يوماً في معنى الخلوة في الجلوة وفي الكون مع الحق بالباطن ومع الخلق بالظاهر، ثم أنشد ما مضمونه: [شعر]

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحت جسمي من أراد جلوسي[2]

* رشحة: قال: إن مثلي مثل طير مائي قاعد على وجه البحر، إن شاء يدخل رأسه في الماء وإن شاء يمشي على وجه البحر. وبيّن في هذا الكلام تحققه بمقام جمع الجمع وهو مقام شهود الحق والخلق معاً.

* رشحة: قال يوماً: قال الشيخ محيي الدين بن عربي قدّس سرّه: ينكشف لبعض الأولياء سر ظهور العالم بعد رياضات كثيرة، فطلبت أمس هذا المعنى من

---

(١) ينسب هذا البيت في الموسوعة الشعرية إصدار المجمع الثقافي ـ أبو ظبي، إلى العارف بالله أبو بكر الشبلي: دلف بن جحدر المولود سنة ٢٤٧ هجرية والمتوفى سنة ٣٣٤ هجرية. وورد عجز البيت فيها على النحو التالي:

* ومثواك في قلبي فأين تغيب *

(٢) أحد بيتين للصوفية الكبيرة رابعة العدوية المتوفية سنة ١٣٥ هجرية. والبيت الثاني هو:

فالجسم مني للجليس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

(الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي ـ أبو ظبي).

الحق سبحانه فظهر أمر لم تطق قوتي البشرية لتحمل ثقله وكاد أن يفارقني الوجود العنصري ويتلاشى وقَرُبَ أن تخرج روحي من بدني، فناجيت الله سبحانه متضرّعاً ليدفعه عني فأخفاه عني وأثره باق إلى الآن. وكلامي اليوم من قبيل: كلميني يا حميراء[1]، وتكلم في ذلك اليوم بكلام كثير على خلاف عادته. وقال يوماً: لو تركوني على اختياري ما كنت أفتح فمي بكلمة أبداً وإنما أتكلم بالضرورة. ثم أنشد مضمون هذين البيتين: [شعر]

ولقد أحدثكم بأسرار الهوى عمداً ليستر سرّه إعلانه
ولربما كتم الهوى إظهاره ولربما فضح الهوى كتمانه[2]

* * *

ذكر خوارقه للعادات قدِّس سرّه

حكى بعض الأكابر من قرية روج، وكان له إخلاص تام لمولانا محمد وصحبه كثيراً: كان لوالده جمَّال غليظ الطبع، كان يتعهد إبله، فركب مولانا محمد في صغر سنه على جمل من جمال أبيه وأخذ يسوق الإبل إلى الأطراف والجوانب ولم يكن ذلك الجمَّال حاضراً في ذلك الوقت. ولما حضر ورآه راكباً على جمل وسائقه إلى الأطراف والجوانب بالسرور والفرح شرع في الخشونة والسفاهة بمقتضى طبعه الغليظ الخبيث وأناخ الجمل ورماه من فوق الجمل على الأرض بشدة حتى صار بعض أعضائه مجروحاً. فجاء بيته باكياً، فاطلعت والدته على ذلك وعاتبت الراعي ولامته على ما فعله هنالك. ولما جاء الليل نام مولانا بالملالة والكلالة ونام الجمَّال في قرب معاطن الإبل على عادته المعهودة، ولما مضى زمان من الليل قام ذلك الجمل الذي ركب عليه مولانا محمد من مكانه وجاء عند الراعي وأخذه تحت صدره وطفق يدوسه ويدقه، فانتبه الجمَّال وصاح صيحة عظيمة استيقظ بسماعها كلٌ من حواليه وبادروا إليه، ولما رأوه على تلك الحالة اضطربوا وشرعوا في دفعه لكنه لا يقوم بل يستمر على دوسه بصدره حتى تركه مغموراً بالتراب. وكانت مشاهدة تلك القضية موجبة لزيادة عقيدة والديه وأقربائه فيه.

---

(١) السيدة عائشة رضي الله عنها، وكانت بيضاء، والعرب تقول عنها حمراء، وتصغيرها: حُمَيْراء.

(٢) لم أقف على قائل هذين البيتين.

كان غلام من البنّائين منسوباً إلى مولانا، وكان جيد الطبع، وتام القابلية. ولكن كان مبتلى بأنواع الفسق، فبينا هو قاعد يوماً على خشبة مربوطة بين مدرسة السلطان مرزا حسين وخانقاهه مرخياً رجليه حين اشتغاله ببنائها والناس يمرون من تحتها ركباناً ومشاة، إذ قدم مولانا محمد من مرقد مولانا سعد الدين في ذلك اليوم. واتفق مروره من تحت تلك الخشبة، ولما قرب إليه قبض الغلام رجليه وقام تعظيماً له ورعاية للأدب لديه بناء على حسن ظنه به وأظهر له التواضع والانكسار، فكان رعاية ذلك الأدب منه في هذا المحل في محل القبول عند مولانا، فتوجه إليه وأمعن النظر وكأن ذلك النظر كان سهماً صاده به. ولما مر مولانا من تحت الخشبة ظهر فيه اضطراب عظيم حتى رمى نفسه من الخشبة إلى الأرض بلا اختيار، وتوجه من ورائه ملطخ اليد والرجل بطين نوره ولحقه في باب المسجد الجامع، فدخل مولانا منزله وذهب الغلام إلى سقاية المسجد وغسل يده ورجليه واغتسل طاهراً وخرج من السقاية، وخرج مولانا أيضاً من منزله مقارناً لهذا الحال وأظهر له التفاتاً كثيراً ودخل المسجد ودخل الغلام أيضاً من خلفه، فعلّمه الطريقة في حينه وأمره بالنفي والإثبات فصار من جملة المقبولين وترك الاختلاط مع ندمائه القدماء بالكلية وجعل صحبته منحصرة في ملازمته وخدمته. وتحيّر ندماؤه من حاله وأمره، وكانوا يقولون متعجبين: ما وقع عليه حتى انقلع عن الفسوق والمعاصي بالكلية وترك إدمان الخمر وصار يجتنبها غاية الاجتناب ويحترز عنها نهاية الاحتراز؟ وأغلق باب المعاشرة مع الأحباب ولم يشاهد منه أحد بعد ذلك إساءة أدب ما دام في قيد الحياة. ثم توفي بعد ثلاث سنين من ابتداء إنابته وتوبته رحمه الله تعالى.

وحكى واحد من طلبة العلوم وقد ترك التحصيل الذي لا طائل فيه وتشرّف بشرف ملازمته: كان مولانا يوماً قاعداً في المسجد الجامع مع جمع من أصحابه متحلقين، وكان كل واحد منهم مشغولاً بما أمر به. فقعدت أيضاً معهم مغمضاً عيني موافقة لهم ونفيت الخواطر، فوقع في ذلك الأثناء على خاطري أن أكابر هذه السلسلة العلّية قدّس الله أرواحهم، كان لهم صرف الخاطر والتوجه إلى الناس والتصرف في بواطنهم وما شاهدت من هذه الأمور شيئاً من مولانا، وليس هو ممن لا تصرّف لهم، فلا جرم أن في استعدادي قصوراً ونقصاناً وفتوراً وليس فيَّ قابلية للتصرف. وتكرر ذلك الخاطر ومنعني عن شغل الباطن، فأحسست في ذلك الأثناء

ارتعاداً وخفقاناً في قلبي وظهر في باطني تغير عظيم، فرفعت رأسي فرأيته ينظر إليَّ متواتراً ومتعاقباً، فتغيّر عليَّ الحال وزاد القلق والاضطراب في باطني، وحصلت لي كيفية عظيمة من مشاهدة صورته ونظره إليَّ بالحدة حتى ظهرت مني صيحة بلا اختيار وسقطت مغشياً عليَّ، وبقيت على ذلك مدة. ولما انجلى عني ورجعت إلى الشعور رأيته مراقباً مع أصحابه وشاهدت في باطني كيفية عظيمة لم أشاهد مثلها قط، وامتد أثرها إلى عشرة أيام ووصلت إليَّ منها لذة عظيمة.

يقول راقم هذه الحروف: كنت أذهب إلى المسجد الجامع في كل يوم لصحبة مولانا محمد في مبادي الحال، فصلّيت يوماً خلفه، فرأيته قائماً على رجله اليمنى فقط في القيام فوقع في قلبي أن من آداب الصلاة أن يقوم المصلي على رجليه من غير استراحة من رجل إلى أخرى إلا أن يكون له مانع شرعي من الأوجاع والآلام ولا يظهر في رجله أثر عارض، فكيف يجوز له ترك الأدب! وغلب عليَّ ذلك الخاطر. ولما فرغنا من الصلاة وقعدنا للصحبة، سكت لحظة ثم قال خطاباً للفقير: توجه والدي يوماً إلى زيارة الشيخ بهاء الدين عمر قدّس سرّه وأخذني معه، وكان الشيخ وقتئذ في زيارتكاه، وكان الهواء في غاية البرودة من فصل الشتاء حتى جمد المياه وأركبوني على حمار وغطوا رجلي بالثوب والملحفة. ولما خرجنا من البلد انكشفت رجلي اليسرى ولم أخبره بذلك حياء منه ورعاية للأدب، ولا قدرة لي في ذلك الوقت على تغطيتها، وهبت الريح الباردة وأثّر البرد في رجلي وبطلت عن العمل. ولما وصلنا إلى منزل الشيخ وأنزلوني عن المركب ظهر فيها الحس والحركة اليسيرة بعد مرور وقت كثير، فتطرق إليها النقصان من ذلك اليوم حتى لا أقدر أن أقوم عليها في الصلاة.

رأيت مرة في المنام كأني قائم في صحن جامع هراة، فظهر مولانا محمد، فتقدمت إليه استقبالاً فرأيته قد عميت عيناه، فكنت متألماً ومتوحشاً من مشاهدة تلك الصورة. ولما أصبحت جئت عنده مغموماً ومهموماً، وكنت أتأمل في عرض هذه الرؤيا عليه وتحقيق تعبيره منه، فقلت أخيراً في نفسي: لا أعرضها عليه بل أصبر وأسكت وأنتظر ولعله يقول شيئاً ينحل به هذا المشكل. فامتد زمان الصحبة على السكوت ولم تزل تلك الدغدغة عن الخاطر، فبدأ بالكلام بعد انتظار كثير وتوجه إلى الفقير وقال: إن للإنسان بصرين أحدهما ناظر إلى عالم الملك، والآخر إلى عالم الملكوت. فمن رأى في المنام شخصاً قد كف بصره الأيمن فتعبيره أن نظر

ذلك الشخص مكفوف عن عالم الملكوت وتوجهه منحصر في عالم الملك وذلك حال أهل الحجاب ومرتبة العوام، وإن رآه مكفوف البصر الأيسر فتعبيره أن نظره مكفوف ومنقطع عن عالم الملك وتوجهه منحصر في عالم الملكوت، وذلك حال أهل الكشف ومرتبة الخواص، ومن رأى شخصاً من هذه الطائفة مكفوف البصرين فتعبيره أن نظره منقطع عن عالم الملك والملكوت والناسوت بالتمام وناظر إلى عالم الجبروت واللاهوت وهذا حال الأخص. انتهى كلامه.

لا يخفى أن عالم الملك عبارة في اصطلاح الصوفية قدَّس الله أسرارهم عن عالم الشهادة، ويقال له: عالم الخلق أيضاً، يعني عالم الأجسام والجسمانيات، وهو من محدب فلك الأفلاك المسمى بالعرش الأعظم في لسان الشرع إلى مركز كرة الأرض، وهو عالم يتوقف وجوده على مدة ومادة. وعالم الملكوت عبارة عن عالم الأرواح والروحانيات من الملائكة وغيرهم ويقال له: عالم الأمر أيضاً. وهذا عالم لا يتوقف وجوده على مدة ومادة بل هو موجود بمجرد أمره تعالى بلا واسطة ولا سبب.

قال الشيخ عبد الرزاق الكاشي قدّس سرّه في اصطلاحاته: إنما قيل لهذا العالم: عالم الأمر، لكونه موجوداً بمجرد أمره تعالى. وقال الشيخ محيي الدين بن عربي قدّس سرّه: إنما قيل لهذا العالم عالم الأمر لعدم النهي فيه بل فيه أمر محض، فإن استعداد أهل ذلك العالم ـ وهم الملائكة الكرام ـ على وجه لا يتطرق إليهم اسم المخالفة حتى يترتب عليه النهي. وعالم الجبروت عبارة عن عالم أسماء الله تعالى وصفاته، وعالم اللاهوت عبارة عن مرتبة الذات من غير اعتبار الأسماء والصفات. وعالم الناسوت عبارة عن عالم الأجسام والجسمانيات، وهذان اللفظان ـ أعني اللاهوت والناسوت ـ متقابلان ومأخوذان من عبارة النصارى واصطلاحاتهم. ويطلقونهما الصوفية أحياناً على مرتبة الغيب والشهادة، والله أعلم.

* * *

ذكر كيفية انتقاله من عالم الفناء إلى عالم البقاء

وفاته ضحى يوم السبت السادس عشر من رمضان سنة أربع وتسعمائة، وقد سعى سعياً جميلاً في أوائل شعبان من تلك السنة في إيقاع نسبة المصاهرة لهذا الفقير مع حضرة مولانا خواجة كلان ابن مولانا سعد الدين قدّس سرّهما. وحضر

مجلس العقد بنفسه مع أستاذي مولانا عبد الغفور عليه الرحمة، ووقع العقد في حضورهما. ثم عرض له المرض بعد أربعين يوماً من ذلك، وكان ابتداء مرضه يوم السبت التاسع من رمضان، وجئت عنده للعيادة آخر يوم الجمعة الخامس عشر منه فأظهر لي التفاتاً كثيراً وقال: قد انتظمت الآن في سلك أولاد حضرة شيخنا قدّس سرّه فلا غلبة لأحد عليك بعد ذلك، فكن في ظل حمايته مرتجياً لعنايته وليطب قلبك فإن أمورك حاصلة على وفق المراد، وأكثر من الالتفات والاستحسان. وسئله بعض أصحابه في ذلك الأثناء بأن: خدامك وأصحابك إلى مَن يرجعون بعدك؟ فقال: إلى من كان اعتقادهم أكثر وأزيد له. فقيل: ما تقول إن كانوا حولك وتوجهوا إليك! قال: ليس ببعيد. ثم قال: إن المتعينين ينتقلون من حال إلى حال ومن صفة إلى صفة. فوقع على خاطر هذا الفقير في ذلك المجلس من معنى هذه العبارة: أن المتعينين لمرتبة الولاية والإرشاد ينتقلون من الدنيا إلى الآخرة ويرتحلون من حال إلى حال ومن صفة إلى صفة كما قيل: «أولياء الله لا يموتون ولكن سينقلون عن دار إلى دار» وليس ذلك الانتقال والارتحال موجباً لانقطاع إفاضتهم وانفصام إفادتهم، بل يمكن أن يقع الفتور أحياناً في إفاضتهم حين كونهم في قيد الوجود البشري بواسطة ظهور بعض العوارض البشرية، فإذا تخلصوا عن ذلك القيد بالتمام وتخطوا في عالم البرزخ بالأقدام فلا جرم يكون حينئذ إفاضتهم وإفادتهم أكمل وأتم كما قال سلطان ولد ابن مولانا الرومي قدّس سرّهما حين وفاته لمريديه: لا تغتموا لمفارقة روحي من بدني، ولا تيأسوا فإن السيف لا يعمل شيئاً ما دام في غمده.

ولما قال مولانا محمد ما قال، سأله شخص عن طريق المراقبة، فقال: إن طريق المراقبة الذي اخترته نادر جداً ومستحسن غاية الاستحسان، ولكن حفظه عسير فينبغي لكم أن تشتغلوا بالنفي والإثبات وأن تتصلوا بحقيقة قد اعتقدتم أنها حق، وأن تطلبوا تلك الحقيقة من أنفسكم دائماً. ثم قال: إن جميع ورد قلبي الآن: الله الله، فعرضت كلامه هذا على حضرة مولانا عبد الغفور عليه الرحمة فقال: ما أحسن لو كنت صحبته قبل ذلك وتأسف على فوت صحبته.

ولما كانت صبيحة يوم السبت السادس عشر من رمضان طلب تراباً طاهراً وتيمم وصلّى بالإشارة وشرع نفسه في التواتر والتعاقب حين طلوع الشمس، وامتد ذلك إلى الضحوة الصغرى. وكان له شعور تام في ذلك الأثناء، وكان يفهم منه أنه فوّض نفسه بتمام الجد إلى نسبة خواجكان قدّس الله أرواحهم، وكان ينفهم من أنفاسه كلمة: الله الله. فقال في ذلك الأثناء واحد من الصلحاء والزهاد الذين ليس

لهم كثير مناسبة بهذا الطريق كلمة: لا إله إلا الله بصوت عال قاعداً بجنبه، فأشار إلى فم القائل بيده المباركة أن لا تقل لا إله إلا الله. وكان أستاذي مولانا عبد الغفور حاضراً فيه، فقال للقائل: قل الله الله، فقال: الله الله. فأشار بوجهه المبارك أن قل هكذا، يعني أن هذا المقام ليس مقام النفي والإثبات بل هذا مقام الإثبات الصرف. فانقطع نفسه المبارك قائلاً: الله الله. فحملوا نعشه يوم الأحد السابع عشر من رمضان إلى خيابان وصلّى عليه الخاص والعام من أهل هراة ونواحيه في الجبانة ودفنوه تحت المزار خلف مرقد مولانا سعد الدين. ثم وقعت بعد أربعة أشهر قضية مقتضية لنقله إلى محل آخر فحملوه منه بإبرام بعض أصحابه إلى قرب مرقد شيخ الإسلام عبد الله الأنصاري قدّس سرّه بكازركاه ودفنوه في حظيرة كان حضرة مولانا هيأها لنفسه. وقال بعض الأكابر في تاريخ وفاته هذه القطعة: [شعر]

شيخ روج كان حقاً بارعاً ... في كمالاته كل العارفين
من حضيض الأرض طارت روحه ... بالهناء جانب أوج العليين
كان دهراً مرشد عصر لذا ... كان هذا تاريخ الموت اليقين

تمت المقالة المشتملة على ذكر طبقة أكابر السلسلة النقشبندية قدّس الله تعالى أرواحهم. ونشرع بعد ذلك في المقاصد الثلاثة والخاتمة الموعودات اللاتي يشتملن على ذكر آباء حضرة شيخنا الكرام، وأولاده، وأصحابه العظام، وأحواله، وأطواره، وشمائله، وفضائله، ومعارفه، ولطائفه، وكراماته، وخوارقه للعادات، وكيفية انتقاله وارتحاله.

ولا يخفى أن الحكايات والأمثال والحقائق والدقائق التي سمعتها من حضرة شيخنا في خلال الأحوال بلا واسطة، نوردها في المقصد الثاني، إن شاء الله، من جملة ما يذكر فيه ما أورده حضرة المير عبد الأول، وحضرة مولانا القاضي محمد رحمهما الله في مسموعاتهما. وكما أن هذا الفقير سمع من حضرة شيخنا كلمات بلا واسطة، ولم يجوز أن يتركها سدى بلا إيرادها في هذه المجموعة، فكذلك لم يجوز أن يهمل ما أورده هؤلاء الأعزّة في مسموعاتهما. فلا جرم نورد شيئاً من مسموعاتهما أيضاً بالعبارة التي أوردها هؤلاء الأعزّة لأخرج عن عهدة أداء الأمانة من غير شائبة الخيانة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: الآية ٥٨] وبالله التوفيق.

* * *

المقصد الأول

في ذكر آباء حضرة شيخنا

واجداده واقربائه إلخ

وهو مشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في ذكر آبائه واجداده واقربائه.

الفصل الثاني: في ذكر تاريخ ولادته واحواله في ايام صباه، ونبذة من شمائله وأطواره.

الفصل الثالث: في ابتداء سفره ورؤيته مشايخ زمنه.

الفصل الأول

في ذكر آبائه وأجداده وأقربائه

لا يخفى أن أكثر آبائه من طرف أبيه كانوا أرباب علوم وعرفان، وأصحاب ذوق ووجدان. ونذكر في هذه الأوراق بعض أحوالهم وأحوال أصحابهم وخلفائهم على وجه الإجمال، وبالله التوفيق.

الخواجة محمد النامي قدّس الله سرّه السامي: هو جد حضرة شيخنا الأعلى. كان في الأصل من بغداد، وقيل: من خوارزم. وكان من جملة أصحاب الشيخ العالم العامل، الإمام الرباني، أبي بكر محمد بن إسماعيل القفال الشاشي عليه الرحمة، الذي هو من عظماء علماء الشافعية. وذكر في مقامات الشيخ أبي بكر القفال المذكور: أنه كان يقسم سني عمره إلى ثلاثة أقسام: سنة يغزو الكفار في جانب الروم، وسنة يحج، وسنة يقعد في ولايته لإفادة العلوم الشرعية والطريقة العلية.

ولما حج سنة من السنين، ودخل وقت رجعته بغداد، جاء الخواجة محمد النامي الذي كان من أعيان ذلك البلد ومشاهيرهم لزيارته وصحبته، ودخل في قيد إرادته، وقدم في رفاقته إلى شاش مع أحماله وأثقاله وعياله وأطفاله وترك وطنه المألوف وأقام بشاش إلى آخر حياته. وكان في خدمة الشيخ وصحبته إلى حين مماته. وكان حضرة شيخنا يداوم على زيارة مرقد الشيخ في مبادي أحواله مدة كونه في شاش، وكان يقول: إن الشيخ ممد ومعاون بحسب الروحانية غاية الإمداد والمعاونة.

ونقل أنه مر يوماً إسماعيل آتا، المار ذكره في بيان سلسلة خواجة أحمد اليسوي، بجنب قبر الشيخ وسأل بعض الرجال هناك: أنه كم سنة مضت من وفاة الشيخ؟ فقيل له: وقت كثير، وذكروا له تاريخاً، فقال إسماعيل آتا: أن التبن البالي لا يصلح لشيء، فوقعت في الحال كسرة تبنة من الهواء على عينه ولم يقدر على

إخراجه وإن اجتهد، بل ذهب إلى داخل عينه وقعرها حتى آل الأمر إلى أن ضاعت عينه هذه.

* * *

* **الشيخ عمر الباغستاني قدّس سرّه**: كان من قرية باغستان، وهي قرية في شعب جبال تاشكند. وهو جد حضرة شيخنا الأعلى من طرف أمه، ويتصل نسبه بعبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما بست عشرة واسطة. وكان من كبار أصحاب قطب الواصلين الشيخ المجذوب المحبوب حسن البلغاري قدّس سرّه. وهو مريد الشيخ الشمس الدين محمد الرازي، وهو مريد الشيخ حسن السقا، وهو مريد الشيخ أحمد الغزالي، وهو مريد الشيخ أبي بكر النساج، وهو مريد الشيخ أبي القاسم الجرجاني قدّس الله أرواحهم، ونسبة الشيخ أبي القاسم قد ذكرت إلى النبي ﷺ في أول الكتاب.

وكان الشيخ حسن هذا في الأصل من بخجوان، وهي قصبة معروفة في أذربيجان. وكان والده خواجة عمر من أعيان التجار. ووقع الشيخ حسن بيد كفار صحراء قبجاق في سن ثلاث وعشرين أخذوه أسيراً وبقي بينهم سبع سنين. ثم تشرّف بجذبة قوية في سن الثلاثين، فتاب وأناب وساح في أطراف العالم وجوانبه ولقي كثيراً من الأولياء والمشايخ الكبار. وأقام تسع سنين في بلدة بلغار، وثلاث سنين في بخارى، وسبعاً وعشرين سنة في كرمان، وسنة في مراغة تبريز. وبلغ سنه الشريف ثلاثاً وتسعين سنة كما يفهم من كلماته القدسية حيث قال: تشرّفت في سن ثلاثين بجذبة إلٰهية وأنا قطب واقع على قلب محمد رسول الله ﷺ ولا شك لي في ذلك، وكما أن عمره ﷺ كان ثلاثاً وستين سنة كذلك يكون سِني عمري ثلاثاً وستين سنة من ابتداء الجذبة. وكان وفاته ليلة الاثنين الثانية والعشرين من ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وستمائة. وقبره المبارك في سرخاب تبريز. وكان الشيخ عمر الباغستاني في صحبته وملازمته مشغولاً باكتساب الكمالات ثلاث سنين مدة إقامته ببخارى.

قال حضرة شيخنا: لما وصلت إلى صحبة مولانا يعقوب الكرخي عليه الرحمة، سأل عن أحوالي وقال: من أين أنت؟ قلت: من ولاية شاش. قال: فهل

لك قرابة للشيخ عمر الباغستاني؟ فلم يحسن لي إظهار قرابتي للشيخ فرويت ذلك وقلت: إن آبائي كانوا من مريديه ومعتقديه، فقال: إن شيخنا خواجة بهاء الدين قدّس سرّه كان معتقداً في طريقه ومستحسنه، وكان يقول: إن الجذبة مجتمعة في طريقهم مع الاستقامة. ثم قال: وذلك تعريف له منه بالحسن فإن الاستقامة على الشريعة بعد ظهور الجذبة واستيلائها التي هي عبارة عن نسبة ذوقية عسيرة جداً ولهذا لا تكون الاستقامة في أكثر أهل الجذبة لكن الأقوياء يقتدرون على ذلك بإذن الله، فيكون كلام حضرة الخواجة في حق الشيخ عمر تعريفاً له بكمال القوة.

وقال حضرة شيخنا: قال الشيخ عمر لولده الأرشد الشيخ خاوند طهور: يا طهور لا تكن عالماً ولا صوفياً بل كن مسلماً. وقال: جاء شخص عند الشيخ عمر من قطر بعيد لأخذ الطريقة فقال له الشيخ: هل في المحل الذي أنت تسكن فيه مسجد؟ قال: نعم، قال: وهل تعرف أحكام الإسلام؟ قال: نعم، فقال الشيخ: فمجيئك هنا عبث لا فائدة فيه، فإن أحكام العبادة معلومة ومحل العبادة موجود، ارجع إلى وطنك وكن مشغولاً بالعبادة هناك. وقال حضرة شيخنا: قال الشيخ عمر: أنا قادر على أن أجعل قلب المريد خالياً عن الأغيار وناظراً إلى جانب الأحدية، ونفعل كل ذلك، لكن ما نحن نفعله.

* * *

• **الشيخ خاوند طهور قدّس سرّه**: ابن الشيخ عمر. كان عالماً في العلوم الظاهرية والباطنية، ووصل إلى أعلى درجات الولاية في ظل تربية والده الماجد وحسن عنايته، ومع ذلك اكتسب فوائد جمة من بعض مشائخ الترك. ونقل حضرة شيخنا عن عمه خواجة محمد أنه قال: سافر الشيخ خاوند طهور إلى تركستان وصحب هناك الشيخ تنكز من كبار مشائخ سلسلة خواجة أحمد اليسوي وأخذ عنه فوائد جمة. ولما نزل منزله أول مرة كان الشيخ تنكز يباشر الطبخ بنفسه وكانت له امرأة سليطة اللسان سيئة الخلق لا تعمل الأعمال المتعلقة بالنسوان كالطبخ والتخبيز. ولما شرع الشيخ في الطبخ كان الحطب رطباً لم تمسسه النار بسهولة فصار الشيخ يقرب رأسه إلى كانون وينفخ في النار ويهتم لإيقادها اهتماماً تاماً، فجاءت امرأته المذكورة وضربت رأس الشيخ ضربة قوية حتى تلوث وجهه ولحيته بالرماد، فصبر الشيخ على جفائها ولم يقل لها شيئاً. ولما تم الطبخ وأكلوا الطعام

حل الشيخ تنكز جميع مشكلات الشيخ خاوند طهور وبيتها في الخلوة حتى انحل جميع عقدته. وكان في ملازمة الشيخ خاوند طهور شخص يسمى بالشيخ محمد الخلوتي، ولم تكن طريقته وسيرته مقبولة للشيخ خاوند طهور. وكان أكثر الأوقات في مقام دفعه وإبعاده عن نفسه ولكن كان المذكور لا يذهب عن صحبته بسبب لجاجته وإلحاحه. وكان في رفاقته في سفره إلى تركستان. ولما انعقدت صحبات كثيرة بين الشيخ تنكز وبين الشيخ خاوند طهور أياماً واستفاد الشيخ خاوند طهور منه واستفاض. قال له الشيخ تنكز في أواخر تلك الأيام: إن هذا الرجل الخلوتي لا يناسب صحبتك. وقال: أنا أريد أن أعطيه وقت الوداع غداً هدية تفهم مرتبته من تلك الهدية. ولما عزم الشيخ خاوند طهور على الذهاب، أعطى الشيخ تنكز للشيخ محمد الخلوتي دفاً كبيراً، فتردد في قبوله ورده، فقال له الشيخ خاوند طهور: إن هدية الشيخ مبروكة ولا تخلو عن حكمة فلا بد لك من قبوله، فقبله امتثالاً لأمره. فتوجه الشيخ خاوند طهور إلى طرف بخارى وهو في معيته، ولما بلغا مفرق الطريق إلى طرف بخارى وطرف خوارزم قال له الشيخ خاوند طهور: هذا أوان فراق بيني وبينك ولا صحبة بيننا بعد ذلك فينبغي لك أن تتوجه إلى طرف خوارزم. فوجهه هناك وتوجه بنفسه إلى طرف بخارى، وقال له: إن هدية الشيخ تنكز إشارة إلى أنه يجتمع عندك أرباب العقول الناقصة كما أنه يجتمع على صوت الدف الصبيان والجواري ومن لا عقل له، فكان كذلك. فإنه لما دخل خوارزم اجتمع عنده الجهال والعوام كالأنعام وصاروا من مريديه. وسمعت بعض أكابر هذه السلسلة العلية قدّس الله أرواحهم يقول: إنه لما بيّن الشيخ تنكز وقائع الشيخ خاوند طهور وحلها ورفع الإشكال عنها في الخلوة، قال له الشيخ خاوند طهور: إن عليَّ مشكلاً آخر وأرجو منك حله وبيانه وهو أنه مع وجود تلك الكمالات المعنوية والعلوم الوهبية ما وجه التحمل على جفاء امرأتك وترك الزجر على ارتكابها إساءة الأدب؟ فقال له الشيخ: إن ظهور تلك العلوم والأحوال إنما هو نتيجة الصبر على جفاء العوام وثمرة تحمل جور العالم.

* رشحة: قال حضرة شيخنا: إن للشيخ خاوند طهور مصنفات في طريقة الصوفية، وكتب في واحد من رسائله: أن التوحيد تفريد البدن وحفظه عن الشهوات للعبادة، وتفريد القلب وصونه عن الخطرات للعبودية، وإلا فالحق سبحانه وتعالى واحد في نفسه وتوحيد الواحد محال كما قيل:

[شعر]

مـــا وحّـــد الـــواحـــد مـــن واحـــد   إذ كـــل مَـــن وحَّـــد، جـــاحـــد(١)

* رشحة: قال: إن التوحيد في الشريعة أن يعلم الإنسان ويقول ويقر بأن الله تعالى واحد، وأما في الطريقة فتزكية القلب وتطهيره عن غير الحق سبحانه.

* رشحة: قال: اذهب وقلّب وجه قلبك عن العدو، فما الحاجة إلى طلب الحبيب؟!. وله أشعار كثيرة في المعارف، وكان حضرة شيخنا ينشد أشياء كثيرة من أشعاره في أثناء أداء المعارف واللطائف أحياناً، ومن جملتها هذه الأشعار:

[أشعار]

لعينيك من عيني حبيبك راقب   فكن حافظاً عينيك عن كل أنظار
ولا تلقه يا صاح عينيك ناظراً   وأنت بها ترنو إلى حُسن أغيار
وأين أمين السر في كل عالم يبث   له العشاق من كل أسرار

غيره:

ولا تختـرن العشق صاح فإنه   يشينك إلا للجمال الحجب

غيره:

شيره زاد باشه عيشقم قوي دركار خود   كو حريف من بيات زورباز وبنكرد

* * *

* الخواجة داود قدّس سرّه: ابن الشيخ خاوند طهور، ووالدة حضرة شيخنا بنت بنته، ووالدة خواجة داود كانت من بنات السادات من طرف آبائها الكرام. وكانت والدة الشيخ خاوند طهور أيضاً من بنات طبقة السادات، وكان خواجة دارد صاحب آيات وكرامات وخوارق وعادات.

---

(١) قال الشيخ أحمد بن عجيبة في كتابه «إيقاظ الهمم في شرح الحِكَم» [ج ١، ص ١٢٣]، متحدّثاً عن التوحيد الخاص: «فإذا كمل تطهير الروح من الأغيار وأشرقت عليها شموس الأنوار كوشفت بأسرار الذات وأنوار الصفات فغرقت في بحر التوحيد الذي تكل عنه العبارة ولا تلحقه الإشارة، وهو التوحيد الخاص الذي أشار إليه الهروي بقوله:

مـــا وحّـــد الـــواحـــد مـــن واحـــد   إذ كـــل مـــن وحّـــده جـــاحـــد
تـــوحـــيـــد مـــن يـــنـــطـــق عـــن نـــعـــتـــه   عـــاريـــة أبـــطـــلـــهـــا الـــواحـــد»

نقل أنه لما توجه الخواجة محمد پارسا من ولاية أندجان إلى طرف سمرقند أرسل واحداً من خواص أصحابه إلى خواجة داود بتاشكند للاستشارة وطلب الاستخارة لسفر الحجاز. فأعطى خواجة داود لهذا القاصد فروة ثعلب وقت رجعته وأرسل لخواجة محمد پارسا فأساً، وكان الهواء في غاية الحرارة في ذلك الوقت، فخطر على خاطر القاصد: أن هذا الوقت ليس وقت إنعام الفروة، ثم وقع على قلبه: أن أمور أولياء الله لا تخلو عن حكمة. ولما وقع نظر خواجة محمد پارسا على الفأس قال: احفظوا هذا حفظاً جيداً فإنه سيظهر في ضمنه سر.

قيل: إنه لما توفي خواجة محمد پارسا قدّس سرّه في المدينة المنورة، لم تحضر آلة الحفر، فحفروا قبره الشريف بذلك الفأس، واتفق لذلك القاصد برد عظيم في الطريق بحيث لو لم تكن تلك الفروة لهلك، فظهر له في ذلك اليوم سر إعطاء الفروة.

وكتب السيد عبد الأول في مسموعاته: كان حضرة شيخنا في العشر الأخير من ذي القعدة سنة ثمان وثمانين وثمانمائة في مرقد الشيخ خاوند طهور بتاشكند، فسئل: أنه كم سنة مضت من انتقال حضرة الشيخ؟ فقال: قد مضت ستون سنة من وفاة خواجة داود وكان عمره حين وفاة الشيخ سبع سنين، وكانت مدة عمره خمساً وسبعين سنة، فعلى هذا يكون من وفاته إلى هذه السنة ـ يعني سنة ثمان وثمانين وثمانمائة ـ سبع وعشرون ومائة سنة.

* * *

* **باباي آبريز قدّس سرّه العزيز:** هو من كبار أصحاب الشيخ عمر الباغستاني. كان صاحب جذبة قوية، وسئل أنه لِمَ قيل لك آبريز؟ قال: لما عجن الله تعالى في الأزل طينة آدم عليه السلام كنت أصب فيها الماء فلقبوني بآبريز من ذلك اليوم. فإن معنى آبريز: صابّ الماء. وكان في مبادي جذباته ووقت غلباتها يقعد أحياناً على قارعة الطريق ويعمل قوساً وسهماً من قصب وخشب مثل الأطفال فكل من يرمي إلى جانبه يقع في الحال ويموت.

قيل: كانت له بقرة كان يحمل عليها أحياناً أشياء، ويوجهها وحدها نحو الشيخ عمر الباغستاني برسم الهدية، وكانت بينهما مسافة فراسخ فمن قصدها بسوء

في الطريق كان يعرض له وجع البطن في الحال فلا يقدر عليه أحد، فصارت تذهب وحدها وترجع بلا سوق أحد.

* * *

* **الشيخ برهان الدين آبريز قدّس سرّه:** هو من أولاد باباي آبريز وأحفاده، وكانت له جذبة قوية أيضاً، وهو مريد بابا ماجين الذي هو من أكابر زمانه. وكان من ماجين، ثم قَدِمَ ولاية شاش وأقام بتاشكند.

قال حضرة شيخنا: لما قدم السيد قاسم التبريزي قدّس سرّه سمرقند أول مرة، جاء الشيخ برهان الدين لزيارته ورؤيته، وكان السيد قاعداً مربعاً اتفاقاً، وكان أصحابه كلهم حاضرين مجتمعين فلم يستحسن الشيخ برهان الدين جلوس السيد على تلك الصفة وقال: لو قعدت مربعاً مع كونك شيخاً يلزم للمريدين الاضطجاع، لا يناسبك هذا النوع من الجلوس. وبالغ في هذا الباب، فكان أصحاب الشيخ في مقام المنع والخشونة عليه وهو لا يترك المبالغة حتى قعد الشيخ على ركبتيه ثم قام السيد بعد زمان ودخل بيت الخلاء، فشرع أصحابه مثل المير مخدوم، والحافظ سعد سياف وغيرهما من كل طرف في التعرض للشيخ برهان الدين وسألوه عن مشكلات التوحيد، فقال: أنا لا أعرف هذه ولكن مقدار معرفتي أن قيّم بستان السيد يموت بعد ثلاثة أيام، ويعرض للسيد بعد ذلك الفالج. ثم قام من المجلس وخرج، ولما خرج السيد من المتوضأ قال: أين ذلك الشيخ؟ فقصّ الأصحاب عليه القصة فلامهم السيد على ذلك. ولما مضت ثلاثة أيام من تلك القضية مات قيم البستان، وكان الهواء في تلك الأيام حاراً فدخل السيد سرداباً لدفع الحرارة ونام هناك، ولما قام من نومه عرض له الفالج في فوره، فكان السيد في مقام التواضع وحسن العقيدة للشيخ برهان بهذا السبب، وكان يرسل إليه في كل ثلاثة أيام رؤوساً من النبات الكرماني ومناديل بيضاً.

قال حضرة شيخنا: لما قدم السيد سمرقند ثانياً جئت عنده بالشيخ برهان، فلم يعرفه في أول وهلة، فقلت: قد وقعت الملاقاة والملازمة بينك وبينه وهو من سكنة محلة كفشير، واسمه الشيخ برهان الدين. فعرفه بعد ذلك فصافحه ثانياً وبكى وقال: كنت مستخبراً عن أحوالك من قاضي زادة الرومي كثيراً ولكن لم يكتب هو شيئاً في الجواب، فلم أعرف شيئاً من أحوالك، الحمد لله وجدتك الآن في قيد الحياة.

قال حضرة شيخنا: إن السيد لقي ضربة من الشيخ برهان الدين، وكان يقول: سمعت الشيخ برهان الدين يقول: كتبوا في بيان آداب أكل الطعام: ينبغي أن لا يدق أولاد الغنم في السفرة البتة، يعني: ينبغي أن لا يضرب العظام على طبق أو خبز بعنف.

* * *

* **الشيخ أبو سعيد آبريز قدّس سرّه**: هو أيضاً من أحفاد باباي آبريز. وكان الشيخ برهان الدين جده لأمه، وكان مشهوراً بالشيخ أبي سعيد شيخان، وكان مقيماً في محلة كفشير. وكان محتشماً ومجذوباً ومستقيم الأحوال، وكان حضرة شيخنا معتقداً فيه اعتقاداً كاملاً، وكان هو أيضاً على غاية الإخلاص والإرادة لحضرة شيخنا، وكان كثير الملازمة والصحبة معه. وكتب مولانا القاضي محمد في كتابه المسمى بـ«سلسلة العارفين» الذي هو كتاب مشتمل على ذِكر شمائل شيخنا ومناقبه: أنه وقع مرة وباء عظيم في سمرقند فتحول منه حضرة شيخنا إلى صحراء عباس وقعد في ساحل نهر عباس أياماً. وكانت تلك الأراضي كلها مزارع الشيخ أبي سعيد وقد قارب الزرع الإدراك، وكان الشيخ يحضر صحبة شيخنا دائماً ولا يتقيّد أصلاً بأمور الزرع ولا يلتفت إلى جانب زراعته أصلاً ولا يترك أحداً من متعلقاته أن يذهب إلى طرف الزرع وأن يهتم بضبطه وجمعه وإن قال له حضرة الشيخ: اشتغل بأمر الزرع ولا تمتنع عنه بالمجيء عندنا، لكنه لم يتيسر ذلك ولم يلتفت أصلاً إلى الزرع. فحصدها أخيراً جمع من أصحاب حضرة شيخنا بأمره وداسوه وأرسلوه إلى الشيخ وقال حضرة شيخنا: إن الشيخ أبا سعيد ليس من الغنى والتمول بمثابة لا يحصل له تفاوت بفوت هذا المحصول، ولكن لما كانت عادته كمال رعاية الأدب ونهاية حفظ الحرمة امتنع عن الاشتغال بأمور الزرع.

وكتب أيضاً في الكتاب المذكور: قال حضرة شيخنا وقت وفاة الشيخ أبي سعيد: إن الخواجة أبا نصر پارسا قدّس سرّه وعظ الناس يوم وفاة الشيخ خواجة علاء الدين الغجدواني عليه الرحمة وقال في وعظه: إن الخواجة علاء الدين كان في جوارنا وكنا أيضاً في ظل حمايته وعنايته وبركته وهمّته، والآن قد رحل إلى جوار رحمة الله تعالى، فحق علينا الآن الخوف. وكان الشيخ أبو سعيد أيضاً في جوارنا وكان من المستغفرين، وما دام الاستغفار موجوداً بين جماعة فالبلاء والعذاب مندفع

عنهم، وليس الاستغفار أن يقول الإنسان بمجرد اللسان: أستغفر الله، أستغفر الله. بل الاستغفار هو أن يكون جميع أعمال الإنسان وأقواله موجباً للمغفرة، وكان ذلك الشيخ الذي ارتحل من بيننا من هذا القبيل. ووفاته في شهور سنة أربع وتسعين وثمانمائة، وقبره في محلة الخواجة كفشير في محوطة حضرة شيخنا.

* * *

* **الشيخ بخشش عليه الرحمة والرضوان**: كان من المنتسبين إلى طائفة الشيخ عمر الباغستاني، وكان صاحب جذبات وأحوال مقبولة.

قال حضرة شيخنا: لما عزمت في سمرقند على سفر هراة في أول مرة وكان مولانا سعد الدين الكاشغري قدّس سرّه لا يريد مفارقتي، وكان في سمرقند واحد من أكابر النقشبندية قدَّس الله أرواحهم، ومن جملة أصحاب الشيخ بخشش عليه الرحمة، وكان معمور الباطن، وكان فكره غالباً في أنه: ماذا ينبغي أن يعمل في هذا العالم، وعلى أي كيفية ينبغي أن يكون!. فأرسله مولانا سعد الدين إليَّ للشفاعة، ورجاء فسخ عزم السفر، فاستقبلني في السوق وقال: أرجو منك أن لا تذهب إلى هراة، فإن مولانا سعد الدين في غاية الملالة والتألم من ذهابك هناك. وبالغ في باب المنع مبالغة كثيرة، فقلت له أخيراً: إن دغدغة السفر إلى تلك الولاية في غاية القوة والقصد مصمم البتة وما بقي لي إمكان الإقامة هنا. فقال: فاقبل مني إذاً وصية واحدة تجد منها فتوحات كثيرة. فإنك تتوجه إلى غربة عظيمة وفيك طلب قوي، فينبغي لك أن تعد التوجه إلى طائفة الشيخ عمر الباغستاني لازماً على نفسك وأن لا تغفل عنه، فإني رأيت الشيخ بخشش من طبقة هؤلاء الطائفة وأخذت عنه النسبة وكان له استقامة في الشريعة مع كمال الجذبة، وهذا مقام عال جداً. ومن جملة النوادر، بل لا توجد تلك المرتبة إلا في الأقوياء من الأولياء، وأنشدني بعد ذلك هذين البيتين: [شعر]

ولقد جرى مجرى دمي جيش الهواء فأزالني عني وعمر بالمنا
أخذ الحبيب جميع ما استملكته كلي له والاسم لي يا من دنا

* * *

* **مولانا تاج الدين الدرغمي قدّس سرّه**: كان من أجداد حضرة شيخنا الأمجاد. وكانت والدته من بنات أحفاده، وكان من أكابر زمانه وعالماً بالعلوم

الظاهرية والباطنية. وكان معروفاً بكمال التقوى والورع والفقر، وموصوفاً بأحوال عالية وكرامات ظاهرة. وكتب الخواجة محمد پارسا قدّس سرّه في حاشية أحوال تفسيره لسورة (يس): قال مولانا تاج الدين الدرغمي رحمه الله في باب تلاوة القرآن: إن تلاوة القرآن حق تلاوته أن يتلوه بحضور القلب والخشية والائتمار بأوامره، والانتهاء في نواهيه، والاعتبار من قصصه، وأمثاله، والفرح والسرور بوعده، والحزن والبكاء من وعيده.

* * *

* **مولانا محمد البشاغري قدّس سرّه**: هو من قرية بشاغر، وهي قرية كبيرة في ولاية سمرقند ما بين المشرق والشمال، ومنها إلى البلد اثنا عشر فرسخاً. كان من أكابر وقته، وعالماً بالعلوم الظاهرية والباطنية. وكان أويسياً في الحقيقة قد فتحت له أبواب العلوم الباطنية بواسطة شدة تمسكه بعروة الشريعة النبوية ومتابعته للسنّة المصطفوية. وحصلت له أحوال أرباب الولاية ومقاماتهم العالية. وهو من أقرباء تاج الدين الدرغمي، ورآه الخواجة محمد پارسا قدّس سرّه. قال حضرة شيخنا: إن لنا قرابة لمولانا محمد البشاغري بواسطة مولانا تاج الدين الدرغمي رحمه الله.

* * *

* **خواجة إبراهيم الشاشي قدّس سرّه**: هو خال شيخنا. وكان عالماً عارفاً، وفاضلاً كاملاً. وكان له نصيب تام من أذواق هذه الطائفة ومواجيدهم. وقد صحب السيد الشريف الجرجاني عليه الرحمة في مبادي حاله بسمرقند واستفاد منه العلوم المتداولة في مدرسة تيمور الأعرج. وكان في ملازمة الخواجة علاء الدين العطار قدّس سرّه مع السيد الشريف، كما مر، واستفاض في صحبته العلية هذه النسبة الشريفة. قال حضرة شيخنا: كتب خالي خواجة إبراهيم هذا البيت على لوح تعليمي: [شعر]

وحال رجال الله في المهد ظاهر ولكن كتم السر للحر أحزم

قال: عرضت لخالي يوماً كيفية عجيبة فأخذ يطوف حول مقبرة جاكرويزه ويتغنى بهذا البيت بحرقة القلب: [شعر]

ولا تستقل هجر الحبيب وإن غدا قليلاً ونصف الشعر في العين ضائر

قال: حفظت هذين البيتين عن خالي حين ينشدهما: [شعر]

العبد ما لم يفن في خلاقه لم يتصف بحقيقة التوحيد
ليس الفناء سوى استتار وجوده فعليك في الأقوال بالتسديد

* * *

* **خواجة عماد الملك قدّس سرّه**: كان شيخاً كاملاً فاضلاً، وقد تشرّف بزيارة الحرمين الشريفين، وكان منبسط الحال. وكانت أخت حضرة شيخنا في عقد نكاحه، قال حضرة شيخنا: قدم خواجة عماد الملك تاشكند لرؤية والدي الأكبر، فبات هناك، ولما مضى أكثر الليل تفرق الخدام كلهم وناموا وبقيت أنا عندهم مع ولد غيري وكنت وقتئذ صغيراً بحيث لا يتوقع مني وجود قدرة على هذا المقدار من الجلوس في الليل، فتعجبوا من قعودي وجرت بينهم حكايات كثيرة وكنت أستمعها، ومن جملتها ما قال الخواجة عماد الملك: إن الاستقامة أفضل وأحب من جميع الأحوال والمواجيد، كما قيل: [شعر]

سألتك سيدي ملك استقامة وقد فاقت ألوفاً من كرامة[1]

وكان مولانا مسافر من أعزّة سلسلة مشائخ الترك، صحبه حضرة شيخنا في مبادي أسفاره وأوائل أحواله، وقال: كنت مع مولانا مسافر في حجرة واحدة في شاهرخية شتاء واحداً، وكان قد قدم مرة إلى شاش وقال حاكياً عما رأى في سفره هذا: جاء عندي عماد الملك حين إقامتي بفركت والتمس مني تعليم الطريقة، فقلت له: حصل أولاً وجوداً معنوياً ثم أعلمك الطريقة وأمهلتك إلى ثلاثة أيام. ولما مضت ثلاثة أيام لم يقل خواجة عماد الملك شيئاً وأنا أيضاً لم أقل له شيئاً. قال حضرة شيخنا: قلت لمولانا مسافر: والعجب من خواجة عماد الملك لِمَ لَم يقل إن الوجود المعنوي حاصل لي! فقال مولانا مسافر: ما الوجود المعنوي! وأنا كنت أعلم أن الوجود المعنوي الذي يقوله مولانا مسافر ليس هو الوجود المعنوي المصطلح، فقلت: الوجود المعنوي أن يكون طالباً للوجود المعنوي. فتعجب مولانا مسافر من ذلك وقال: انظر قد حصلت لك لطافة وتنبه لأمثال هذا الكلام بواسطة صحبتي. قال حضرة شيخنا: ولم يدر مولانا مسافر أني أعرف هذا قبل

(١) لم أقف على قائل هذا البيت.

ملاقاته ومصاحبته، انتهى كلامه قدّس سرّه.

لا يخفى أن الوجود المعنوي عبارة في اصطلاح الصوفية قدّس الله أسرارهم عن الولادة الثانية، وهي خروج السالك من ظلمة الطبيعة والتخلص عن أحكامها، كما قال سيدنا عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام: «لن يلج ملكوت السماوات مَن لم يولد مرتين». فمن تشرّف وتحقق بالوجود المعنوي بهذا المعنى المذكور لا يحتاج أن يأخذ الطريقة عن شخص آخر البتة. فيكون الوجود المعنوي في كلام مولانا مسافر بمعنى طلب الوجود الثاني، وإنما يكون طالباً لهذا الوجود من أشرق له أثر من أشعته فيمكن أن يقال: إن الوجود المعنوي حاصل لهذا الطالب مجازاً لحصول أثره فيه، والله أعلم.

وقد قدم شيخ محتشم من بني أعمام حضرة شيخنا في تلك الأيام من تاشكند، فجرت عنده هذه الحكاية، فقال: إن مولانا مسافر لقّن الطريقة لخواجة عماد الملك وكان هو من مريديه. ووقع الاستماع من بعض أكابر تلك السلسلة أنه قال: رأيت شيخاً من خلفاء مولانا مسافر في بخارى وكان يقول: كان شيخنا مولانا مسافر يحتاط في تنظيف اللباس وتطهيره احتياطاً بليغاً، ويهتم في سائر آداب الشريعة والطريقة اهتماماً تاماً. وكنت يوماً قاعداً عنده، فجاء صبّاغ بثوبين من بز خشن قد صبغهما لأجله، فقال له بعد لحظة: إرمهما في الماء ثانياً وأدلكهما كثيراً حتى يطهرا فإن في قلبي تردداً في طهارتهما. فقال له الصبّاغ: يا مخدوم إذاً يزول لونهما وطراوتهما وتضيع محنتي وخدمتي. فبالغ في ذلك ثانياً حتى اضطر الصباغ وقام وذهب بهما لغسلهما. ثم شرع مولانا في المراقبة، فوقع في قلبي اعتراض بأن فقيراً التزم المحنة على نفسه وصبغهما صبغاً جيداً وجاء بهما إليه وليس فيهما نجاسة ظاهرة، فما وجه هذه المبالغة من مولانا! فنفيت هذا الخاطر في الآخر وشرعت في المراقبة مغمضاً عيني، فوقعت عليَّ في ذلك الأثناء غيبة فرأيت نفسي كأني أمشي في طريق ويمشي مولانا أمامي، فظهر جبل عظيم في غاية الارتفاع والطريق في غاية الخفاء والظلمة وغير مسلوك، فرأيت مولانا يصعد في الجبل من هذا الطريق بسهولة كأنه طير سريع الطيران وأنا أصعد بمحنة شديدة ومشقة كثيرة كالنملة الضعيفة مكسورة الرجل، أقع مرة وأقوم أخرى وأخاف من السقوط في كل خطوة أخطوها، فحضرت عن الغيبة في ذلك الأثناء ورفع مولانا رأسه من المراقبة مقارناً لهذا الحال وقال: يا فلان لو لم أبالغ في تطهير اللباس وتنظيفه وسائر الأمور لم أقدر على

الصعود في مثل هذا الجبل العالي بسهولة مثل ما شاهدته.

* * *

* **مولانا شهاب الدين الشاشي قدّس سرّه:** هو جد حضرة شيخنا لأبيه. كان صاحب آيات وكرامات وأحوال ومواجيد، وكان كثيراً ما يصاحب المجانين والمجاذيب، وكان في أكثر الأوقات مشغولاً بالزراعة. وكان يشتغل أحياناً بالتجارة، وكان في الأغلب لا يرافق أحداً في سفره بل كان يسافر وحده، فمتى تعرض له قطّاع الطريق كان ينادي المجاذيب بأسمائهم واحداً بعد واحد ويستمد بهم، فكانوا يحضرون في الحال ويخلصونه منهم. وكان له ابنان أحدهما: خواجة محمد، والثاني: خواجة محمود، وهو والد حضرة شيخنا.

نقل أنه لما قرب الوفاة لخواجة شهاب الدين قال لولده الأكبر خواجة محمد: ائتني بأولادك لأودعهم. وكان لخواجة محمد ابنان: خواجة إسحاق، وخواجة مسعود. فجاء بكليهما عنده، فودعهما واستمال خاطرهما ثم قال: يا محمد يوشك أن يقع أولادك في ضيق الحال وتشتت البال خصوصاً خواجة مسعود فإنه يكون سبباً لابتلاء خواجة إسحاق بالمحنة والمشقة. وبيَّن بعض أحوالهما غير المرضية.

ثم قال لخواجة محمود والد حضرة شيخنا: إئتني أنت أيضاً بولدك، وكان حضرة شيخنا في هذا الوقت صغيراً جداً، فجاء به ملفوفاً بخرقة، فلما وقع نظره عليه اضطرب وقال: أقيموني. فأقاموه فوضعه في حجره ومسح وجهه بجميع أعضائه وقال: إن الولد الذي كنت طلبته من الله هو هذا، يا أسفاً عليَّ أني لا أكون وقت ظهوره ولا أرى تصرفاته في العالم، يوشك أن يكون هذا الولد عالماً كبيراً يروِّج الشريعة ويشيِّد أركان الطريقة، ويضع سلاطين الزمان رؤوسهم على خط إطاعته، ويفوّضون أبدانهم إلى أمره ونهيه وطاعته، وتظهر منه أمور لم تظهر قبل قط من المشايخ الكبار.

والحاصل: أنه بيَّن كل ما ظهر من حضرة شيخنا من ابتداء أمره إلى انتهائه واحداً واحداً على سبيل الإجمال. ومسح وجهه ثانياً بجميع أعضائه، ثم أعطاه الخواجة محموداً ووصاه بحفظه وتربيته على ما ينبغي. ثم توجه إلى خواجة محمد وقال: لا يقع في قلبك إن والدي لم يفعل بأولادي ما فعل بولد خواجة محمود، فما أصنع! فإن الله سبحانه قد خلق أولادك على هذه الصفة وخلق ولد خواجة

محمود على هذا الوجه ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: الآية ٩٦] وليس الأمر في يدي.

* * *

* **خواجة محمد الشاشي قدّس سرّه**: أخو الخواجة شهاب الدين لأبيه. قال حضرة شيخنا: كان لخواجة محمد أخي الخواجة شهاب الدين أيضاً حظ وافر من ذوق طور الولاية. قال خواجة شهاب الدين: ما دام أخي محمد لم يقبل جائزة خدادا الحسني حاكم تلك الديار لم نحتج إلى وساطة أحد بيني وبينه بل كنا نعلم مقاصدنا من غير كتابة وإرسال قاصد، ولما قبل منه شيئاً واختلط به فقد عنا ذلك المعنى بشؤم ذلك الاختلاط، ومست الحاجة إلى الواسطة من الكتابة وإرسال قاصد.

* * *

* **خواجة محمود الشاشي قدّس سرّه**: ابن خواجة شهاب الدين الأصغر، ووالد حضرة شيخنا. وكان له شرب تام، وحظ وافر من مذاق هؤلاء الطائفة. وألّف حضرة شيخنا رسالة نافعة في الطريقة النقشبندية باستدعاء حضرة والده، وهي مشهورة بين الطالبين. وقال في أول تلك الرسالة: إن سبب تأليف هذا المختصر أن حضرة والد هذا الفقير رزقه الله تعالى وإيانا العمل بما فيه أمر الفقير بناء على حسن ظنه بهذا الفقير، أن أكتب لأجله شيئاً من كلام أهل الله ليكون العمل به سبباً للوصول إلى المقامات العلية وحصول العلوم الحقيقية التي هي خارجة عن طور النظر والاستدلال، كما قال النبي ﷺ: «**من عمل بما علم ورثه الله تعالى علم ما لم يعلم**»(١). وكان امتثال أمره واجباً على هذا الفقير، فإن الأدب مع حضرة الربوبية يقتضي هذا لأن وصول أثر ربوبية الحق سبحانه إنما هو بواسطته.

وقال بعضهم في تحقيقه: إن من جملة آداب حضرة الربوبية أن يرى وجوب تعظيم المظاهر التي كانت قابلة لأثر الربوبية من حيث كونها مظاهر، فإن هذا التعظيم راجع أيضاً إلى حضرة الربوبية بحكم ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: الآية ١٢٣].

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء، عن عبد الواحد بن زيد [٦/ ١٦٣].

نقل أنه وردت جذبة قوية لحضرة خواجة محمود قبل انتقال حضرة شيخنا من صلبه إلى رحم أمه، واشتغل في تلك الأيام بالمجاهدات والرياضات الشاقة؛ وتقليل الطعام والمنام، والسكوت على الدوام، وترك الاختلاط مع الخواص والعوام. وامتدت تلك الجذبة إلى أربعة أشهر، وانتقل حضرة شيخنا من صلبه إلى رحم أمه، فسكنت بعد ذلك جذبته أيضاً.

* * *

الفصل الثاني من المقصد الأول

في ذكر ولادة حضرة شيخنا وأحواله في أيام صباه وذكر نبذة من شمائله وأخلاقه

لا يخفى أن ولادة حضرة شيخنا كانت في رمضان سنة ست وثمانمائة، قال بعض الأعزة الذي كانت له قرابة قريبة لحضرة شيخنا، وكان من بني أعمامه: أنه لما ولد حضرة شيخنا لم يقبل ثدي أمه حتى تطهر من النفاس وتغتسل، ولم يرضع من لبنها مدة أربعين يوماً.

قال حضرة شيخنا: لما كنت ابن سنة وأرادوا حلق رأسي وأولموا، وقع خبر موت تيمور الأعرج بين الناس، فاضطرب الناس اضطراباً شديداً حتى لم يبق لهم مجال أكل الطعام الحاضر، فأفرغوا القدور وهربوا إلى رؤوس الجبال. وكان آباؤه الكرام في تلك الأيام في قرية باغستان. وكان آثار الرشد وسيماء السعادة، وأنوار القبول والعناية من الله تعالى ظاهرة وباهرة في جبينه من زمان صباه وصغر سنه. وكان على وجه إذا وقع نظر شخص على جماله المبارك كان يثني عليه ويدعو له بلا اختيار: [شعر]

فإذا رأى ملك السماء جبينه   أثنى عليه جميعهم وكواكبه

وكانت نسبة الحضور بالله حاصلة له في صغر سنه. قال: كنت أحضر في المكتب في طفوليتي وكان قلبي حاضراً بالحق سبحانه في جميع الأوقات، وكان اعتقادي في ذلك الوقت: أن كل من في الدنيا من الصغار والكبار على هذا الوجه. ودخلت رجلي مرة في طين وسقط نعلي وبقي فيه وكان الوقت فصل الشتاء والهواء كان بارداً، وأنا وقتئذ في الصحراء، فعرضت لي غفلة مانعة عن نسبة الحضور، فلمت نفسي في الحال وكنت مكسور الخاطر متأثر البال حتى غلب عليَّ البكاء من غير إمهال. وكان في تلك النواحي غلام يزرع، قلت في نفسي: أنظر إلى هذا الغلام كيف لا يغفل عن نسبة الحضور بالله مع أنه مشغول بسوق البقر وشق الأرض، وأنت غفلت عن النسبة بهذا القدر اليسير من الشغل! وكان ظني في ذلك الوقت أن هذه

النسبة حاصلة لكل أشخاص في كل أوقات. وقال: ما لم أبلغ ببلوغ شرعي ما كنت أعلم أن للناس غفلة.

وقال مولانا جعفر، الآتي ذكره: قال حضرة شيخنا: لما كنت ابن اثنتي عشرة سنة ما كنت أظن أن أحداً يكون غافلاً عن الحق سبحانه، وكان ظني أن الله تعالى خلق الخلق كلهم على وجه لا يغفلون عنه لحظة. ثم صار معلوماً لي أن هذا الحضور إنما هو عناية من الله تعالى يختص بها البعض ويتيسر لبعض آخر برياضات شاقة واجتهاد كثير، ولا يتيسر لبعض آخر بذلك أيضاً.

نقل عن حضرة خواجة إسحٰق ابن عم حضرة شيخنا أنه قال: كلما أردنا مع الأطفال في صغر السن أن نشغله ببعض الأفعال واللعب بمقتضى عادة الصبيان، لم يتيسر أصلاً، وكان يرى نفسه أولاً كأنه سيشتغل فإذا جاء وقت اللعب كان يهرب وكان يشاهد فيه معنى العصمة دائماً.

قال حضرة شيخنا: رأيت سيدنا عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام في المنام في صغر سني قائماً على باب مرقد الشيخ أبي بكر القفال الشاشي رحمه الله، فرميت نفسي على قدمه فرفع رأسي عن التراب وقال: لا تحزن فإني أريد أن أربيك. فوقع على خاطري نوع من تعبير هذه الرؤيا، فقصصتها على بعض أصحابي، فعبرها بالطب ـ يعني قال: يكون لك نصيب من علم الطب ـ، فلم أرض بهذا وقلت: إن تعبيرك هذا ليس بمرضي عندي وأنا عبرتها بوجه آخر وهو: أن سيدنا عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام كان مظهراً للإحياء، فكل مَن ظهر مِن الأولياء بصفة الإحياء يقال: إنه في هذا الزمان عيسوي المشهد. ولما التزم سيدنا عيسى تربية هذا الفقير فلا جرم تحصل لهذا الفقير صفة إحياء القلوب الميتة.

وقال: فشرّفني الله سبحانه بعد مدة يسيرة بموجب هذا التعبير بحالة وقوة حتى ظهر هذا المعنى في عرصة الوجود ووصل كثير من الرجال عن مضيق الغفلة إلى فضاء الحضور والشهود، يعني بواسطة صحبته.

وقال: رأيت النبي ﷺ في المنام في مبادي الحال واقفاً تحت جبل عال ومعه جمع عظيم من الصحابة وغيرهم من الرجال، فأشار إلى الفقير وقال: تعالى ارفعني واصعد بي على رأس هذا الجبل. فحملته ﷺ على رقبتي وصعدت به على قمة الجبل، فاستحسن النبي ﷺ مني ذلك وقال: أنا كنت أعلم أن لك قوة على هذا وأن

هذا الأمر يحصل منك، لكن أردت إعلام ذلك للناس.

وقال: رأيت مرة في مبادي الحال حضرة الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه في المنام قد جاء وتصرف في باطني حتى أعيت رجلي، ثم مضى لسبيله. وأوصلت إليه نفسي بكل وجه ممكن، فأقبل إليّ وقال: الله يبارك فيك. قال: ثم رأيت بعد ذلك خواجة محمد پارسا قدّس سرّه في المنام فأراد أن يتصرف في باطني لكنه لم يقدر عليه. وقال: كان شيخ من مشائخ الوقت جاورشاً على باب مرزا ألغ بك وكان يجلد الناس أحياناً ويضربهم سياسة وتأديباً، فأرسل يوماً قاصداً إلى تاشكند وقال: ليجتمع أولاد الشيوخ في المزار فإني أجيء لرؤيتهم. فاجتمع كلهم هناك وكانوا سبعة عشر نفراً وكنت أصغر من كلهم، ولما جاء ذلك الجاووش شرع في المصافحة، فكل من صافحه ظهرت فيه كيفية عجيبة حتى وقع على الأرض. ولما انتهت النوبة إليّ وصافحني ظهرت فيّ أيضاً تلك الكيفية لكني بادرت وتعلقت به ولم أقع، فأعجبته هذه المبادرة مني غاية التعجب، فقدّمني على الكل مع كوني أصغر من الكل. وكان في الكلام يتوجه إليّ، فوقع على خاطري في تلك الأثناء: أنه كيف اختار هذا الأمر الذي هو فيه مع وجود هذا التصرف والاستيلاء على الباطن! فأشرف على هذا الخاطر وقال: إني كنت مريد الخواجة حسن العطار وكنت في ملازمته مشغولاً بذكر القلب بالجد والجهد، لكن لم يفتح لي شيء بوجه من الوجوه، فعرضت ألم قلبي على الخواجة حسن فقال: عليك باختيار خدمة في باب السلاطين فيمكن أن يصل منك مدد إلى المظلومين. فأشار إليّ بهذا الشغل وكتب ترصية إلى الأمير سعيد، وكان من أمراء مرزا ألغ بك، وأوصاني بأن أكون في كفاية مهمات المسلمين وإمداد الفقراء والمساكين بسعي بليغ دائماً وقال: إذا وقع مهم على مسلم وعجزت عن كفايته ينبغي لك أن تكون مغموماً منه ومحزوناً به، وأن تنام على ملالة، فيرجى أن تكون تلك المعاملة مفضية إلى الفتح[1]. فكنت مشغولاً

---

(١) الفتح أو الفتوح أو الفتوحات: هو في الاصطلاح الصوفي عند الشيخ ابن عطاء الأدمي: النجاة من السجن، والبشرى بلقاء الله تعالى.
وعند الشيخ كمال الدين القاشاني هو: كل ما يُفتح على العبد من الله تعالى بعدما كان مغلقاً عليه من النعم الظاهرة والباطنة، كالأرزاق والعبادة والعلوم والمعارف والمكاشفات وغير ذلك.
وعند الشريف الجرجاني هو: عبارة عن حصول شيء عما لم يتوقع ذلك منه. =

بموجب أمره، فتيسر لي في أثناء ذلك شغل فتح عظيم وانحلت العقد.

قال حضرة شيخنا: استولى التواضع والانكسار على باطني وقتاً في مبادي الحال على وجه إذا استقبل إليَّ أحد من عبيد وأحرار وصغار وكبار وأسود وأبيض، كنت أضع رأسي في قدمه وأطلب منه بذل الهمة والتفات الخاطر بكمال التضرع وتمام الانكسار.

قال: كانت لوالدي زراعة في كلس في مبادي الحال، فأرسل مرة عندي غلة مع واحد من الأتراك لأضعها في الأنبار، فكنت مشغولاً بضبط الغلة وانصرف التركي في تلك الأثناء. ولما أخبرت بانصرافه ظهر في باطني اضطراب عظيم ولمت نفسي على فوت التماس بذل الهمة منه وعدم تضرعي إليه ووجدت في نفسي حزناً قوياً على هذا التقصير، فتركت الغلة على ما هي عليه وتوجهت من خلفه بتمام السرعة، فلحقته في نصف طريق البلد وقمت على ممره بالتواضع والتضرع والتمست منه توجه الخاطر والنظر في أحوالي بنظر الالتفات وقلت: عسى الله أن يرحمني ببركتك وتنحل عقدتي، فقال التركي متعجباً ومتحيراً: أظنك تعمل بقول مشايخ الترك حيث قالوا:

هركيم كورسك خضر بيل هرتون كورسك قدر بيل

يعني: كل من رأيته اعتقده خضراً، وكل ليال أدركتها اعتقدها قدراً. وإلا فأنا

= وعند الشيخ جمال الدين الخلوتي هو: ظهور الذات المطلقة.
وعند الشيخ عبد الوهاب الشعراني هو: عبارة عن فتح عين الفهم لما جاء به رسول الله ﷺ من الآيات والأخبار، فلا يحتاج معه إلى نظر في كتاب من شرح أهل السنَّة، إذ الولي لا يأتي قط بشرع جديد، وإنما يأتي بالفهم الجديد في الكتاب والسنَّة.
وعند الشيخ قطب الدين البكري الدمشقي هو: باب... فيه إشارة لمبدأ الدخول.
وعند الشيخ أبو العباس التجاني هو: عبارة عن زوال الحجاب.
وعند الشيخ عمر بن سعيد الفوتي هو: مشاهدة أسرار الحق التي حجب عنها أهل الظلام.
وعند الشيخ عبد العزيز الدباغ هو: المشاهدة، أي مشاهدته تعالى.
وعند الشيخ عبد القادر الجزائري هو: إن يكشف تعالى للعبد أنه هو من غير حلول ولا اتحاد، وأن الرب رب والعبد عبد ولا يصير الرب عبداً ولا العبد ربّاً، فإن قَلْب الحقائق محال.
وعند الشيخ علي حرازم ابن العربي هو: كشف حجاب النفس أو القلب أو الروح أو السر لما جاء به رسول الله ﷺ من الكتاب العزيز والأحاديث الشريفة.
[انظر: الموسوعة الكسنزانية، مادة: الفتح].

رجل من الأتراك أسكن البادية ليس لي حاصل حتى لا أغسل وجهي إلا عن ضرورة، وليس لي خبر من المعاني التي أنت طالبها. ولما كثر تضرعي وانكساري ظهر في التركي أثر وكيفية فرفع يديه للدعاء ودعا إليَّ بأدعية، فشاهدت في باطني من أثر دعائه فتوحات كثيرة. قال: كان الوهم غالباً عليَّ في صغري بحيث ما كنت قادراً على الخروج من البيت وحدي، فعرض ليلة أمر لقلبي وغلب عليَّ وقوي وبلغ الأمر إلى أن لم يبق لي صبر ولا قرار، وخرج من يدي الاختيار. فخرجت من البيت بلا اختيار ووقع في قلبي شوق زيارة مرقد الشيخ أبي بكر القَفَّال الشاشي، فذهبت هناك وقعدت مقابل القبر ساعة ولم يقع خوف على قلبي أصلاً. ثم وقعت لي داعية زيارة الشيخ خاوند طهور، فتوجهت من هناك نحو مرقده وما حصل لي وهم أصلاً، ثم ذهبت منه إلى مرقد الشيخ إبراهيم كيمياكر، ثم منه إلى مرقد الشيخ زين الدين كوي عارفان ولم أجد في نفسي خوفاً أصلاً، فلم يعرض لي بعد ذلك شيء من الخوف والوهم أبداً في المقابر والمواضع المستوحشة بمدد روحانية الأكابر مع صغر سني.

وقال: كنت أطوف في مقابر تاشكند طول الليالي وقت غلبات الأحوال في مبادي الحال، وكانت المقابر بعيدة بعضها عن بعض. وكنت أحياناً أزور كلها في ليلة واحدة، وكنت في ذلك الوقت بلغت حد البلوغ الشرعي، فوقع عليَّ خاطر المتعلقات توهم كوني مشغولاً بعمل غير مرضي. وكان لي أخ من الرضاع فصاروا يرسلونه من خلفي لتفحص أحوالي. وكنت ليلة قاعداً في مقابلة مرقد الشيخ خاوند طهور، فجاء أخي ذلك عندي، ولما وصل إليَّ تعلق بي وصار يرتعد، فقلت: ما لك؟ قال: رأيت أشياء عجيبة فكدت أهلك. فأتيت به إلى البيت فقال للمتعلقات: لا تخافوا منه شيئاً ولا تظنوا به سوءاً وليطمئن قلوبكم من طرفه فإن له أمراً آخر وشأناً عظيماً حيث ذهب إلى تلك المقبرة التي لا يقدر أن يذهب فيها في هذه الليلة المظلمة عشرة من رجال أقوياء، وقعد في مقابلة مرقد الشيخ خاوند طهور. فتيقن الأقرباء بعد ذلك أنه قد وقع عليَّ ابتلاء.

وقال: كنت مرة وقت السحر قاعداً عند مرقد الشيخ أبي بكر القفال، وكان مرقده في محل مهول بحيث كان الناس يخاف أن يذهب فيه وحده في النهار. وكان بتاشكند سفيه كان في مقام العناد وغاية الإنكار علينا، وكان ينتظر الفرصة ويترصد الوقت لإيصال الإيذاء والجفاء إليَّ. وكان في هذا السحر في الكمين اتفاقاً، ولما

قعدت عند المرقد على هيئة المراقبة زماناً قام من كمينه وله صيحة وعربدة للتخويف وتوجه إليّ يشتد، ولست أنا ممن يخاف من صيحته وعربدته، وما كنت بحيث تستولي الهيبة والهول على قلبي من حركاته وسفاهته، فكنت مستمراً في شغلي وعلى قعودي مراقباً غير ملتفت إليه أصلاً. ولما شاهد ذلك الحال عني صار خجلاً ومنفعلاً وجاء عندي باكياً ووضع خده على الأرض وقبّلها، فصار من جملة الأصحاب والأحباب.

وقال: كنت في ليلة أخرى قاعداً عند قبر الشيخ زين الدين كوي عارفان، وكان قبره في ناحية من البلد، وكان الناس يسكنون فيه قليلاً. وكان بتاشكند مجنون طويل القامة، قوي الهيكل، وكان الناس في خوف منه في النهار وسط السوق. وكان قد قتل شخصاً في تلك الأيام، فظهر في تلك الليلة من بين المقابر وأقام القيامة على رأسي وكان يصيح ويقول: أخرج من هنا. فلم ألتفت إليه أصلاً ولم أمتنع عن حفظ نسبتي، ولم أترك توجهي الذي كنت فيه. واستمر هو على إبرامه ومبالغته ثم شرع أخيراً في كسر أغصان أشجار المقبرة وجاء بحزمة كبيرة ودخل المسجد الذي هناك، وكان فيه مصباح، فأخرجه من المسجد وكان غرضه أن يوقد تلك الحزمة ويرميها فوق رأسي، فبينا هو في هذا الشغل إذ هبت الريح وانطفىء السراج فاشتعلت نار غضبه وأخذ يصيح وزاد جنونه وطغيانه، وكان يعربد مثل الرعد ويمشي في أطرافي، ويقول في نفسه كلمات وأنا لا ألتفت إليه أصلاً ولا أترك شغلي ولا أجعل للتذبذب والتزلزل سبيلاً في قلبي، واستمرت معاملته هذه معي إلى الصباح. ولما طلع الفجر جاء إلى سوق تاشكند وقتل هناك شخصاً آخر، فهجم عليه الناس وقتلوه.

وقال: لم يقع لي أصلاً ما اشتهر بين الناس من مشاهدة الأشياء الغريبة عند القبور، غير أني كنت ليلة قاعداً أمام إيوان مرقد الشيخ خاوند طهور، فوقع من فوق الإيوان شيء أسود إلى الأرض وتحرك فظهر في قلبي شيء من التشويش، فقمت وخرجت منه.

وكنت مرة أخرى قاعداً في الليل هناك فسمعت صوت سعال من تحت شجر السرو الذي هو أمام الإيوان، فقمت من مكاني وقعدت أمام الإيوان ولم يقع لي غير ذلك شيء أصلاً مع كثرة تطوافي في المقابر.

وقال: إن منتسبي طريقة خواجة عبد الخالق الغجدواني روَّح الله روحه، يسمعون الذِكر من كل أصوات حين يمشون في الأسواق ولا يسمعون شيئاً غير الذِكر أصلاً. وقد غلب الذِكر عليَّ في مبادي الأحوال بحيث كان يخيل لي الأصوات كلها ذكراً، أي صوت كان.

أولم مرة رجل من أهل تاشكند يقال له: محمد جهانكير، وكان رجلاً غنياً وصاحب جاه، وأرسل قاصداً إلى سمرقند ليجيء بالعواد والزمار والدفاف من تلك الولاية، وكنت نازلاً في محل قريب منه بضرورة موافقة شخص في ليلة كانت لهم فيها جمعية عظيمة، فصار يصل إلى أذني صوت ذكر من جميع أصوات المغنيين والأعواد والمزامير والدفوف في ذلك المجلس وما كنت أسمع شيئاً غير الذكر، وكنت في ذلك الوقت ابن ثماني عشرة سنة.

* * *

ذكر فقر حضرة شيخنا وتجرّده في مبادي أحواله

قال: لما كنت في هراة في زمن السلطان شاهرخ لم أكن مالكاً لفلس، وكانت لي عمامة خلقة ذات خروق كثيرة بحيث إذا ربطت شقة منها تنسدل الأخرى. وكنت يوماً ماراً من سوق الملك، فسألني سائل شيئاً لله ولم يكن عندي شيء أعطيه، فأخذت تلك العمامة من رأسي ورميتها إلى طباخ وقلت: إنها طاهرة فخذها تمسح بها القدور والأواني وأعط في مقابلتها شيئاً لهذا المسكين. فأعطى الطباخ شيئاً للمسكين وأرضاه وردّ العمامة عليَّ بتمام الأدب، فلم أقبلها ومضيت لسبيلي.

قال: خدمت رجالاً كثيرين وما كان لي وقتئذ فرس ولا حمار، لبست سنة قباء قد خرج قطنها من خروقها، ولبست فروة ثلاث سنين، وكنت ألبس في كل ثلاث سنين خفاً منعلاً. قال: كنت مرة في أوائل سفري مع مولانا مسافر في شاهرخية شتاء واحداً، وكان أرض البيت الذي نحن فيه أسفل من أرض الزقاق بحيث كان يدخل فيه الماء والطين أيام المطر، فأذهب إلى المسجد في الأسحار وأصلّي فيه. وكانت أثوابي ضيقة في ذلك الشتاء، وكان النصف الأسفل من بدني لا يدفأ أبداً.

قال: قد هيّأت أسباب الجمعية ولكنها تبغي إنساناً يفعل الأمور على ما ينبغي. فإذا جعلوا تلك الأسباب سبباً للتفرقة والبطالة يكون غبناً عظيماً البتة، وإني

لم أجد إبريقين من ماء حار بلا تشويش في الغربة التي وقعت فيها لطلب هذا الأمر أصلاً. وكنت أذهب إلى البلد من منزل الشيخ بهاء الدين عمر قدّس سرّه أحياناً للتوضيء وكان يخطر في بالي في بعض الأحيان أنه ما كان على الشيخ لو هيّأ الماء الحار للفقراء وقت البرد وجمود الماء ولم يتيسر، وأني قد هيّأت الحجر والمصابيح وماء الطهارة والمتوضأ والحمام وكل ما يحتاج إليه من الأكل والشرب والألبسة لأجل الأصحاب، فينبغي أن يغتنم الوقت قبل هجوم المشاغل.

قال: أقمت في هرة خمس سنين وكنت أذهب إلى منزل الشيخ في كل أسبوع مرتين وأكثر، وأكلت عنده شيئاً مرتين في تلك المدة. وكان سبب ذلك أن الأمير محمود شاه أخا الأمير فيروز شاه جاء منزل الشيخ فذبحوا شاة لأجله وطبخوا لحمها، وكنت قاعداً في خارج البيت مع مولانا سعد الدين، فجاؤا إلينا بطعام منها. والآخر: أفطر الشيخ مرة بتفاح وكانت أسنانه سالمة فأكل منه كثيراً، وكان في أسناني وجع في تلك الأيام، فأكلت منه شيئاً يسيراً لموافقة الشيخ.

قال: حضرت مرة صحبة الشيخ مع مولانا سعد الدين الكاشغري، وكان الهواء صافياً في ذلك اليوم. فأراد الشيخ الانبساط معنا وقال: اذهبوا عند الشيخ مولانا جلال الدين فإنه يجعل لكما طعاماً. وكان مولانا جلال الدين هذا أخا الشيخ بهاء الدين عمر في الطريقة، وكان شيخاً ومتولياً لمزار خواجة سرمه، وما كنت آكل طعام المتولين أصلاً. فجئنا عنده امتثالاً لأمر الشيخ، فاتفق أن مولانا جلال الدين اصطاد سمكة من نهر جار أمام المزار وزنها عشرون مثقالاً تقريباً، فجعل منها كباباً وجاء به إلينا، ثم دخل في المراقبة وبقي فيها مدة، فأشرت إلى مولانا سعد الدين أن نخرج، فقمنا وخرجنا.

قال: كان الأستاذ فرج التبريزي رجلاً صاحب عيار، ورئيس الصيارفة والصياغين في زمن السلطان شاهرخ. وكان له محبة تامة لأكابر النقشبندية، وقد تشرّف بأخذ الطريقة والتفات خاص من حضرة الخواجة محمد پارسا قدّس سرّه. وأنا ما كنت آكل طعام أحد في هراة، ففطن هو لذلك، فحلف في غرة شهر رمضان بالطلاق البائن أن آكل من طعامه وقت الإفطار. فكنت أذهب إلى بيته في ليالي شهر رمضان للضرورة، فرأيت منه شفقات كثيرة وخدمات سنية، وما كان لي في ذلك الوقت استعداد لمكافأته بالخدمة. ولما حصلت لي قدرة المكافأة توفي إلى رحمة

الله، فأرسلت إلى ولده مقدار عشرة آلاف دينار كبكي وخدمته بخدمات غير ذلك.

اعلم: أن حضرة شيخنا لم يقبل هدية أحد من ابتداء عمره إلى انتهائه.

وكان مولانا أحمد الكاريزي من جملة الأكابر، وقد تشرّف بأخذ الطريقة عن مولانا سعد الدين. وكان له اشتغال تام بالطريقة، فغزل من شعر الحملان البيض ونسجه بيده وخاط منه قباء بيده واحتاط فيه غاية الاحتياط، ثم أرسلها من كاريز إلى سمرقند لحضرة شيخنا برسم الهدية ليلبسه بنفسه. ولما وقع نظر حضرة شيخنا عليها قال: يمكن أن نلبس هذه القباء وتفوح منها رائحة الصدق، ولكن ما قبلت من أحد شيئاً في عمري كله، فاعتذروا لمولانا من أجلي. وأرسلها إلى كاريز لمولانا أحمد مع رزمات قرطاس برسم الهدية.

مر يوماً حضرة شيخنا من صحراء بعيدة من البلد بفراسخ، ومشى جمع كثير من أصحابه في أطراف محفته، رجالاً وركباناً، وكان الهواء في غاية الحرارة. فظهر بيوت سود من بعيد وتوجه منها ثلاثة أنفار إلى هذا الجانب، وكان معهم أشياء. وجاؤوا ممر حضرة شيخنا بسرعة وأخذوا طريقه وكانوا من رؤساء أصحاب تلك البيوت السود وقد حمل أحدهم ثنياً[1] سميناً على كتفه، والآخر لبناً بطبق كبير من خشب، فجثى كبيرهم على الأرض أمام محفة حضرة شيخنا وأوقف الخدام خيول المحفة فقال القادم متواضعاً: يا خواجة إن هذا الثني[1] حلال وقد نذرته لملازميك، وهذا اللبن طاهر جئت به ليشربه خدمك! فقال حضرة شيخنا: أنا لا أقبل هدية أحد ونذره، فارسل الثني إلى جمعه وآخذ اللبن بقيمته. فقال التركي: إن اللبن لا قيمة له في الصحراء ولا قدر له هنا. فقال: أنا لا آخذ من أحد من شيء مجاناً. ثم قال للخادم: أعطه ديناراً شاهرخياً. فأعطاه الخادم إياه، فطلب اللبن وذاقه ثم شرب منه الأصحاب كلهم ومضوا لسبيلهم.

* * *

ذكر غنى حضرة شيخنا وتموله في نهاية كماله

قال حضرة شيخنا: لما كنت في مبادي الحال بهرة، وصلت إلى صحبة السيد

---

(١) الثني: من الإبل الذي يُلقي ثَنِيَّتَهُ، وذلك في السادسة، ومن الغنم الداخل في السنة الثالثة، تيساً كان أو كبشاً. والثنيَّة واحدة الثنايا من السِّن.

قاسم التبريزي قدّس سرّه فأعطاني مرة نصف كأس من بقية طعامه وقال: يا شيخ زادة التركستاني كما أن هؤلاء الخبثاء كانوا قباباً لي كذلك يوشك أن تكون دنياك قبة لك. وما كان لي شيء من الدنيا في ذلك الوقت، بل كنت على تمام الترك والتجريد. ولما بلغ عمر حضرة شيخنا اثنتين وعشرين سنة جاء به خاله خواجة إبراهيم من وطنه المألوف إلى سمرقند بنية تحصيل العلوم، ولكن كان غلبة شغله الباطني مانعة له عن التحصيل الظاهري، فلهذا مال إلى صحبة أعزّة هذه السلسلة وملاقاتهم قدّس الله أرواحهم، وأقبل إلى طلب هذا الأمر على ما يرد في الفصل الثالث من هذا المقصد، وطاف حول أكابر هذه الطائفة في ما وراء النهر مدة سنتين، ثم توجه إلى هراة في سن أربع وعشرين سنة وصحب مشايخ الوقت فيها مدة خمس سنين، ثم رجع إلى وطنه المألوف وقد بلغ من العمر تسعاً وعشرين سنة واختار هناك أمر الزراعة وصار شريكاً لشخص، وأعمل باتفاقه زوجاً واحداً من العوامل، فرزق الله سبحانه بركة كثيرة في زراعته.

لا يخفى أن أموال حضرة شيخنا من الضياع والعقار والسوائم والمواشي والأسباب والأملاك كانت غير قابلة للقياس والحد، وخارجة عن دائرة الحساب والعد. ولما تشرّفت بشرف استلام عتبته العلية سمعت بعض وكلائه يقول: إن مزرعته قد جاوزت ألفاً وثلاثمائة مزرعة. وقد أخبرت أنه اشترى في هذه الأوقات مزارع كثيرة.

وأشار حضرة مولانا الجامي قدّس سرّه إلى هذا المعنى في بيان منقبته في كتابه المسمى بـ«يوسف زليخا» حيث قال: [شعر]

هزارش مزرعة درزير كشتست ... كه زادرفتن راه بهشتست

وحين وصل هذا الفقير إلى قرشي وقت توجهي لاستلام عتبته العلية، بت ليلة في بيت واحد من وكلائه فقال: أنا صاحب إصلاح نهر قرشي الذي هو واحد من ثلاثمائة وألف مزرعة. فسألته أنه: كم زوج من العوامل يعمل في هذا النهر؟ قال: يخرج في كل سنة لكل زوج رجل لإصلاح الشرع ويجتمع ثلاثة آلاف رجل فيكون ثلاثة آلاف زوج. قال حضرة شيخنا مرة في تقريب الكلام: أعرض على ديوان السلطان أحمد في كل سنة ثمانين ألف من يمن سمرقند من عشر محصول ضياعي في أراضي سمرقند خاصة. وقال: إن الله قد أنزل البركة في أموالي بحيث إذا حزر

الحازرون صاحبوا الوقوف كل كوم ألف مَنٍّ[1] مثلاً يبلغ وقت الأخذ أربعمائة أو خمسمائة مَنٍّ وألف منّ.

قال واحد من ملازمي حضرة شيخنا، وكان بعض أنبار غلبته في تصرفه: إن خرج الغلة يزيد أحياناً على دخلها ثم نرى في آخر السنة تبقى غلة كثيرة في الأنبار فتكون مشاهدة هذا الحال سبباً لزيادة يقيننا لحضرة الشيخ، فسألت حضرة شيخنا يوماً عن سبب هذا المعنى فقال: إن أموالنا مهيأة للفقراء وزيادة البركة من خواص الأموال الموصوفة بتلك الصفة.

* رشحة: قال حضرة شيخنا يوماً في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝﴾ [الكوثر: الآية ١] قال المحققون في تفسير هذه الآية: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝﴾ [الكوثر: الآية ١] يعني: إنا أعطيناك شهود الأحدية في الكثرة، فمن كان مقامه هذا المشهد لا جرم يكون له كل ذرة من ذرات الكائنات مرآة يشاهد فيها جمال الوجه الباقي ويكون المسمى بالسوى لمثل هذا الشخص سبباً لمزيد الشهود وباعثاً على تجلي الوجود. فكيف تكون الأسباب الدنيوية حجباً بالجمال المقصود وكيف يتصور المحجوبية والاحتجاب لجمال المحبوب المحمود. وأشار مولانا نور الدين عبد الرحمٰن الجامي قدّس سرّه السامي إلى هذا المعنى في كتابه «تحفة الأحرار» عند ذكر حضرة شيخنا حيث قال: [أشعار]

زدبجهان نوبة شاهنشاه كوكبة فقر عبيد الله
آنكه زحرية فقرآگاه ست خواجة أحرار عبيد الله أست
روى زمن كش نه سرونه بن ست در نظر أوسريك ناخن ست
يكسر ناخن كبدست آيدش كي بره فقر شكست آيدش
صورت كثرت صدف ساحلش لجه بحر أحدية دلش
هست درين لجة ناقعر ياب قبه نه طوى فلك يك حباب

* * *

(١) المَنُّ: شيء كالعسل الجامد ولغة في المَنَا الذي يوزن به، وجمعه: أمنان.
والمَنّ: يساوي رطلان، والرطل يساوي تسعون مثقالاً وهي مائة درهم وثمانية وعشرون درهماً (المحيط في اللغة للصاحب بن عباد).

ذكر خدمة حضرة شيخنا لكافة الأنام وشفقته على الخواص والعوام

اعلم: أن حضرة شيخنا كان حريصاً ومولعاً بخدمة الأحباب والأجانب، ومبادراً إلى شفقتهم وإعانتهم ورعايتهم في ابتداء حاله وانتهاء مراتب كماله. وكان يسبق الجميع بالخدمة في المجالس والمحافل.

قال: حين كنت في مدرسة مولانا قطب الدين الصدر بسمرقند كنت أتعهد اثنين أو ثلاثة أشخاص كانوا مبتلين بمرض الحصبة، ولم يكن لهم شعور لشدة مرضهم، فيتلوث ثيابهم وفراشهم بنجاستهم وكنت أغسلها وأدفع عنهم الأذى. وكان يقع ذلك مراراً ومتعاقباً حتى ابتليت أيضاً بمرض الحصبة بسبب تمريضهم ولوازمه، وكنت محموماً في ليلة، وجئت بأربعة كيزان من الماء في تلك الليلة وغسلت أثوابهم.

قال: كنت أذهب في الأسحار إلى حمام شيخ الإسلام خواجة عبد الله الأنصاري الهروي قدّس سرّه حين إقامتي بهراة وأخدم فيها الناس، وكان يتفق لي أحياناً خدمة خمسة عشر أو ستة عشر رجلاً، وما كنت أفرق في تلك الخدمة بين الصالح والطالح، والأبيض والأسود، والأحرار والعبيد. وكنت أحياناً أخدم في البيت الحار من الحمام خمسة أو ستة من الناس، وكنت أهرب منهم عقب الخدمة خوفاً من إعطاء الأجرة في مقابلة الخدمة.

وكان في آخر حياته يقول: ولصدور أمثال تلك الخدمات في الحمام ظهرت فيّ نفرة طبيعية من حرارة الحمام ولم تبق الرغبة فيه، وقلما كان يدخل في الحمام وكان يعتذر في تقليله منه بهذا.

قال: ينبغي أن يبذل الهمة وأن يصرف الخاطر في الطريقة النقشبندية إلى مقتضى الوقت، فوقت الذكر والمراقبة عند عدم الخدمة تحصل منها راحة للمسلم، فإن الخدمة التي تكون سبباً لقبول القلوب مقدمة على الذكر والمراقبة. وزعم البعض أن الاشتغال بعبادة النوافل أفضل من الخدمة وليس كذلك، فإن ثمرة الخدمة المحبة والتمكين في القلوب، وما قيل: جبلت القلوب على حب من أحسن إليها مبين لهذا ولا مساواة بين ثمرات النوافل وبين ثمرات الخدمة التي هي محبة المؤمنين أصلاً.

قال: إن سبب عدم قبول حضرة خواجة بهاء الدين وأتباعه قدّس سرّهم خدمة

الناس بسهولة لكون الخدمة والتواضع من جملة الإحسان، وحب المحسن ضروري. والعلاقة إنما هي على قدر المحبة، ولما كان اشتغالهم بنفي الخلق بتمام الهمة وقطع العلاقة عنهم يجتهدون بالضرورة في الخدمة ويهتمون في ذلك بقدر الوسع والطاقة ويمتنعون عن قبول الخدمة. وإنما يقبلونها من شخص يتفرسون فيه استعداد الاحتظاظ بطريقتهم وطورهم يوماً فيوماً لتنقيص علائقه بالعالم بسبب قبولهم والتفات قلوبهم، فيكون العالم منوراً ومعموراً من جمعية باطنه.

وقال: ما أخذت هذه الطريقة عن كتب الصوفية، وإنما أخذتها عن خدمة رجال، لا أني أخذتها عنهم بالتعلم، بل لخدمة تلك الخاصية. وقال: قد أدخلوا كل شخص من باب وأدخلوني من باب الخدمة، ولذلك كانت الخدمة مرضية ومحبوبة ومختارة لدي. وكل من أتوسم فيه الخير آمره بالخدمة. ثم أنشد هذا البيت: [شعر]

وترقى على أوج المعالي بهمة   فليس له شيء سوى ذاك سلما

وقال: أنا أقول هكذا:

* وترقى على أوج المعالي بخدمة *

* * *

ذكر مراعاة حضرة شيخنا للآداب مع كافة الخلق وخدمته لهم

كان قدّس سرّه متصفاً بكمال الأدب ظاهراً وباطناً، في خلاء وملاء، وكان يراعي الآداب الظاهرية والباطنية في جلوة وخلوة. وقد داوم راقم هذه الحروف على ملازمته وخدمته مدة إقامتي في عتبته العلية أربعة أشهر في أول مرة، وثمانية أشهر في الثانية، فلم أر تثاؤبه في تلك المدة أصلاً ولم أر منه إخراج بلغم أو ريق من فمه المبارك بسبب سعال أو غيره. ولم أره يتمخط ولم أره متربعاً في جلوسه في خلاء ولا ملاء في وقت من الأوقات.

وقال مولانا أبو سعيد الأوبهي عليه الرحمة الذي هو من ملازمي عتبته العلية مدة خمس وثلاثين سنة: لم أر من حضرة شيخنا مدة كوني في خدمته وملازمته إخراج جلد العنب، أو بزره، أو قشر التفاح والسفرجل وأمثالها من فمه المبارك. وما رأيت منه التمخط ولا إخراج بلغم مع عروض زكام ونزلة له أحياناً. وما

شاهدت منه أصلاً ما يكون موجباً لكراهة الطبيعة ونفرتها، ولم تصدر حركة غير مقبولة عن عضو من أعضائه. وكان متحققاً بكمال الأدب، ومتخلقاً بحسن المعاملة دائماً في خلاء وملاء.

ولما قَدِمَ السيف النقيب عبد القادر المشهد، مدّ ظله، سمرقند في عهد السلطان مرزا أبي سعيد، حضر صحبة حضرة شيخنا. وكان يحكي أنه جاء ليلة الأمير مزيد آرغون محلة خواجة كفشير لملازمته وأراد أن يحيي تلك الليلة في صحبته، وكان الفقير - يعني السيد عبد القادر نفسه - حاضراً في هذا المجلس. ولما صلّينا صلاة العشاء قال حضرة الشيخ: إن للأمير مزيداً ضيفنا يريد إحياء تلك الليلة معنا، ورعاية جانب الضيف لازم. فأريد أن أقعد مع بعض الأصحاب وأنت شاب، يعني لا تطيق القعود، فاذهب ونم وإن أردت أن تقعد معنا تحضر وقت السحر. قلت: إن أذنت أنا أيضاً أقعد معكم. فقال: إن وجدت في نفسك قوة على القعود فلا مانع. فقعدت في ذلك المجلس مع ثلاثة أشخاص أخر من أصحابه وكنت مترقباً من أول الليل إلى طلوع الفجر لأحواله، فلم يغير جلوسه على ركبتيه أصلاً وقطعاً ولم تصدر من عضو من أعضائه حركة مطلقاً إلى أن قام للتهجد. ولما فرغ من التهجد قعد أيضاً على الوضع الأول وعلى قرار واحد بالتمكن والوقار من غير أن يظهر منه أثر نوم ونعاس إلى أن طلع الفجر. وكنت أتقلب في الجلوس من رِجل إلى أخرى في كل ساعة أو ساعتين مع وجود قوة الشبابة فيَّ وأتكلف في دفع النوم عني وإبعاده عن عيني، وقلّ تحرك الأمير مزيد أيضاً ببركة التفاته مع كونه مرطوباً ولم تظهر منه أيضاً مقدمات النوم، وكانوا مراقبين إلى طلوع الفجر. ثم قاموا بعد طلوعه وصلّوا الصبح بوضوء العشاء فصارت مشاهدة تلك الحالة موجبة لتحيُّر هذا الفقير وتعجبه وسبباً لزيادة إخلاصه.

* * *

ذكر إيثاره وشفقته ومرحمته لأصحابه وسائر الفقراء

اعلم: أنه لم يكن لكرم حضرة شيخنا ولطفه حد ونهاية، وكان يختار المحنة والمشقة على نفسه دائماً، ويؤثر خدمه وأصحابه بفراغ وراحة على نفسه دائماً.

وكتب المير عبد الأول في مسموعاته: توجه حضرة شيخنا مرة إلى ولاية كش

ومعه جمع من أصحابه وخدمه، وكان الوقت حينئذ أوائل الربيع، فأدركهم الليل، فنزلوا على شعب الجبال بالضرورة ونصبوا خيمة، فجاء المطر بعد صلاة المغرب، فقال حضرة شيخنا: إن لي تردداً في طهارة تلك الخيمة فلا أقعد أنا فيها بل يقعد الأصحاب. وبالغ في هذا الباب، ولم تكن معهم خيمة أخرى. فقعد الأصحاب والفقراء في تلك الخيمة بموجب أمره وحضرة الشيخ خارجها، واستمر المطر إلى الصبح وجرت السيول. ولما طلع الفجر وصلّينا صلاة الصبح قال حضرة شيخنا لطفاً وعناية لبعض أصحابه: استحييت آن أقعد أنا في الخيمة والأصحاب في المطر. فعلم أن ما قاله في حق الخيمة كان سراً ولطفاً منه ليقعد فيها الأصحاب بلا تشويش وانقباض.

ونقل بعض الأصحاب: أنه توجه حضرة شيخنا مرة إلى طرف مزرعة بزاورد في غاية شدة الحرارة من فصل الصيف، ورافقه جمع من أصحابه وملازميه. وكان لحارثي تلك المزرعة بيت صغير مصنوع من لبد، فنصبوه لحضرة شيخنا، فثقل على الأصحاب قعودهم معه في ذلك البيت الصغير ولم يكن مظلة غيره. ولما شرعت الحرارة في الاشتداد طلب حضرة شيخنا فرسه وقال: أريد أن أتفرج بعض مواضع الصيد. فركب وذهب إلى الصحراء وطاف في حرارة الشمس، ولما بلغت حرارة الهواء غايتها انحدر إلى بعض مسيل الماء ومجرى السيول واستراح جاعلاً رأسه المبارك في ظل جانب ذلك المسيل وطرف المجاري، فإن ظله لم يكن بحيث يستر تمام بدنه. ولما اعتدل الهواء جاء البيت عند الأصحاب، وكان ذلك شغله ومعاملته في كل يوم مدة إقامته في تلك المزرعة، فتيقن الأصحاب أخيراً أنه إنما يختار ذلك لراحة الأصحاب وفراغهم.

* * *

الفصل الثالث

في ابتداء سفره ورؤيته المشائخ الكرام قدّس الله أسرارهم

قال: اجتهد خالي خواجة إبراهيم اجتهاداً كثيراً لأشتغل بتحصيل العلوم، وجاء بي من تاشكند إلى سمرقند لهذا، واهتم في هذا الباب كثيراً. ولكن كلما اجتهد في إقرائي كان يعرض لي مرض يكون مانعاً عن التحصيل، حتى عرض لي أخيراً مرض الحصبة وقوى واشتد، فقلت لخالي: إن لي حالاً لا أقدر معه على التحصيل وأنت لا تتركني فإن زدت في المبالغة أخاف من الهلاك. فتأثر من هذا الكلام غاية التأثر وقال: ما كنت عالماً بحالك، فسأتركك بعد ذلك فاشتغل بأي طريق يريد قلبك. ولما قصدت التحصيل مرة أخرى عرض لي وجع العين وامتد إلى خمسة وأربعين يوماً، فتركت التحصيل في الآخر وقال: لم يزد مجموع تحصيلي على ورقتين من «مصباح البحر».

وقال مولانا فضل الله أبو الليثي، من علماء سمرقند: لا علم لي بكمالات حضرة الشيخ الباطنية ولكن مقدار معرفتي أنه ما قرأ بحسب الظاهر من علوم الرسوم الظاهرية إلا شيئاً يسيراً ومع ذلك قلما يمر بنا يوم لا يورد هو علينا فيه شبهة من «تفسير القاضي» نعجز كلنا عن جوابه. وكان مولانا علي الطوسي المشتهر بمولانا علي عظام من عظماء علماء زمانه، وكانت له عقيدة راسخة في حضرة شيخنا. وكان يحضر مجلسه الشريف في أكثر الأوقات ولكن كان قليل الكلام، فقال له حضرة شيخنا يوماً: إن تكلمنا عندك من غاية عدم الحياء بل ينبغي أن تتكلم ونحن نسمع. فقال له مولانا في جوابه: إن تكلمنا في محل يصل فيه الكلام من المبدأ الفياض بلا واسطة من غاية عدم الحياء.

● رشحة: قال حضرة شيخنا: لما جئت من تاشكند إلى سمرقند لأجل صحبة مولانا نظام الدين، أرسل والدي قاصداً إليه يطلبني وقال: قد خطبت بنت أخي لأجله فإن لم يرجع الآن ولم يقبل تلك النسبة يتأذى أخي. وأكثر الإلحاح في هذا

اباب، فنصحني مولانا نظام الدين كثيراً ثم قال أخيراً: إنه لا أدري فإن كان العجز والاضطراب فيك بحيث لا تقدر أن تستقر في محل ولا يطمئن قلبك بشيء فأنت إذاً معذور. وكثيراً ما كان يحكي هذه الحكاية في تقريب ترك تحصيل الموالي.

اعلم: أن حضرة شيخنا لما سافر من تاشكند في مبادي الحال لقي في بخارى وسمرقند وغيرهما كثيراً من كبار أصحاب خواجة بهاء الدين وغيرهم من طبقة خواجكان قدَّس الله أرواحهم، في مواضع متعددة وأمكنة شتى، وصحبهم كما ذكرنا بعضاً من ذلك فيما مر عند ذكر سلسلة خواجكان قدِّس سرّهم في غير موضع، وتشرّف بصحبة مولانا السيد قاسم التبريزي قدِّس سرّه بسمرقند قبل قدومه خراسان، ثم تشرّف بصحبته ثانياً، وغيره من مشايخ هراة بعدما قدم إليها وداوم على صحبتهم كما سيذكر بعد ذلك.

* **رشحة**: وكان حضرة شيخنا يداوم على ملازمة مولانا نظام الدين الجاموش مع مولانا سعد الدين الكاشغري حين إقامته بسمرقند في أول قدومه فيه كما تقدم.

قال واحد من كبار أصحاب حضرة شيخنا: سمعت واحداً من الأكابر يقول: كنت يوماً عند مولانا نظام الدين، فدخل عليه شاب نوراني غاية النورانية، ومهيب نهاية المهابة، وجلس زماناً وقام. ولما خرج سألت مولانا: من هذا الشاب؟ قال: هو خواجة عبيد الله، يوشك أن يكون سلاطين الزمان مبتلى به - يعني: مطيعة له -. ونقل مولانا درويش محمد السرپيلي، من قدماء أصحاب حضرة شيخنا، وكان يسكن في سرپل، وهو موضع مشهور بسمرقند، عن مولانا عبد الله أنه قال: كان والدي من معتقدي مولانا نظام الدين ومخلصيه، وكان مولانا يقيم في منزلنا وكنت صغيراً في ذلك الوقت. وكان مولانا يوماً قاعداً مطرقاً مراقباً ووالدي كان مشغولاً عنده بشيء، فرفع مولانا رأسه بغتة وصاح صيحة عظيمة فترك والدي شغله وسأله عن سبب صيحته فقال: قد ظهر شخص من جانب الشرق يسمى بخواجة عبيد الله وأخذ تمام وجه الأرض، فما أعظمه شيخاً. فسمعت اسم حضرة شيخنا عن مولانا نظام الدين - يعني: أول مرة - وحفظته، وكنت منتظراً لقدومه الشريف ومترقباً لظهور أحواله، ومتسلياً بطيف خياله إلى أن دار الزمان على دور السلطان مرزا أبي سيد فحمله من تاشكند إلى سمرقند مع أتباعه وأولاده، فكنت أول مَن بادر إلى صحبته، وأقدم من تشمر لملازمته، وأسبق من استسعد بسعادة خدمته.

ولما أقام حضرة شيخنا في مبادي أحواله زماناً بسمرقند مال قلبه أن يسافر منه إلى بخارى وصادف في أثناء الطريق قرية الشيخ سراج الدين البيرمسي وصحبه هناك أسبوعاً، كما تقدم في ترجمة الشيخ المذكور في المقالة، ثم توجه منه إلى بخارى ولقي فيه مولانا حسام الدين ابن مولانا حميد الدين الشاشي. وصحب الشيخ علاء الدين الغجدواني هناك مدة، كما ذكر في مقالة الكتاب. ثم توجه منه إلى خراسان وقدم هراة من طريق مرو وأقام فيها مدة أربع سنين متواليات. وحضر في تلك المدة صحبة السيد قاسم التبريزي، والشيخ بهاء الدين عمر قدّس سرّهما في أكثر الأوقات. وكان يحضر صحبة الشيخ زين الحافي قدّس سرّه أحياناً.

وتوجه بعد تمام أربع سنين إلى ولاية حصار من طريق بلخ وشبرغان بنية نيل شرف صحبة مولانا يعقوب الكرخي قدّس سرّه ووصل في بلخ إلى صحبة مولانا حسام الدين پارسا، كما مر في المقالة عند ذكر مولانا المذكور. وتوجه منه إلى صغانيان لزيارة مرقد خواجة علاء الدين العطار قدّس سرّه، ثم توجه منه إلى هلفتو ولقي هناك مولانا يعقوب الكرخي وبايعه وأخذ عنه الطريقة كما سيذكر إن شاء الله.

وبقي في سفره ذلك مدة ثلاثة أشهر ثم رجع ثانياً إلى هراة وأقام بها مدة سنة تقريباً، وداوم على صحبة أكابر الوقت، ثم عاد إلى وطنه المألوف بعد إقامته في هراة خمس سنين واختار أمر الزراعة بتاشكند.

قال: كنت في بلاد الغربة إلى أن بلغت من العمر تسعاً وعشرين سنة، وجئت تاشكند قبل الوباء لخمس سنين. وكان وقوع الوباء سنة أربعين وثمانمائة. وكان مولانا نظام الدين مقيماً بتاشكند حين عوده هناك فصحبه كثيراً ووقعت فيما بينهما أمور عجيبة، كما مرت نبذة منها عند ذكر مولانا نظام الدين.

* * *

ذكر صحبته مع السيد قاسم قدّس سرّه في سمرقند وخراسان

قال: ما رأيت في جميع عمري أعظم من السيد قاسم قدّس سرّه، وكل شيخ من مشايخ الزمان وصلت إلى صحبتهم كان يظهر لي فيها نسبة ونحصّل كيفية، لكنها كانت تزول أخيراً ولا تستقر، بخلاف صحبة السيد قاسم قدّس سرّه فإنه كان يظهر لي صحبته نسبة حَرية بأن تحفظ. وقال: كلما جئت عند السيد قاسم كان يشاهد لي

كأن جميع الممكنات يطوفون حوله ويضمحلون فيه.

وقال: لقي السيد قاسم حضرة الخواجة بهاء الدين في مبادي حاله في خوالي باور، وصحبه وانتسب بعد ذلك إلى طريقته ونسبته، وربما كان يفهم انتسابه إلى طريقة خواجكان قدَّس الله أرواحهم من بعض كلماته في أثناء المجالس وأوقات الصحبة.

وقال: كان للسيد قاسم حاجباً لا يترك أحداً يدخل على السيد من غير إجازته، وقال له حضرة السيد: كلما جاء هذا الغلام التركستاني لا تكن مانعاً عن دخوله بل اتركه يدخل عليَّ أي وقت كان.

وقال: كنت أذهب إلى باب السيد في كل يوم، ولكن ما كنت أدخل عنده إلا في كل يومين أو ثلاثة أيام مع وجود إذنه بالدخول. وكان أصحابه يتعجبون مني ويقولون: قد أذن لك بالدخول في جميع الأوقات فلم لا تدخل عليه في كل يوم وليس هذا الإذن للآخرين وإلا لما يقومون من عنده أبداً، فإنه لا يطيب قلب أحد للقيام عن مجلسه بلا ضرورة ولكنه كان يأذن للناس بالقيام من عنده سريعاً، ولم يكن يشير إليَّ بالقيام أصلاً.

وقال: سألني مرة في ابتداء لقائي إياه: يا بابو ما اسمك! وكان من عادته أن يخاطب الناس بـ: بابو. قلت: عبيد الله، فقال: ينبغي لك أن تحقق اسمك. فكتب مولانا القاضي محمد في شرح هذا الكلام، يعني: ينبغي أن تسعى بكمال السعي حتى تكون في عبديته تعالى على الوجه الأكمل.

والذي يظهر لراقم هذه الحروف في معنى هذا الكلام: ينبغي أن تحقق اسمك، يعني: أن هذا لاسم مربيك ومبدأ فيضك، وفي الحقيقة حقيقتك مظهر ذلك الاسم وهو ربك الذي ترجع إليه آخر الأمر، والتحقق به هو كون حقيقة السالك مرآة يتجلى فيها ذلك الاسم بجميع لوازمه بالتمام ويظهر من مظهرها على وجه الكمال ويكون السالك مستغرقاً ومستهلكاً في ظهور آثار ذلك الاسم وأحكامه. انتهى.

قال حضرة شيخنا: كان نظر السيد قاسم إلى عواقب الأمور وما كان هذا النظر للشيخ بهاء الدين عمر. جئت مرة عند الشيخ عمر وكان عنده جمع من الفقراء اتفاقاً يشكون إليه عن الظلمة، وكثر عنده القيل والقال، وأكثر الشيخ من النظر إلى جانبي وقال: أين كنت في هذه الليلة! ففهمت مقصوده من هذا الكلام، يعني:

حصلت مناسبة لأن تجيء في مثل هذا المحل، فلو كان نظر الشيخ لي الاستعداد والعاقبة لما يقول هذا الكلام.

ونقل عن مولانا فتح الله التبريزي أنه قال: كنت في صحبة السيد قاسم كثيراً، وكان لي ميل كلي وشغف تام بمسائل التصوف حتى كنت أصبح في أكثر الليالي في تعقل مسألة واحدة من دقائق هذه الطائفة بلا غلبة النوم. وكنت مرة قاعداً عند السيد قاسم، فجاء حضرة الشيخ، يعني: خواجة عبيد الله أحرار قدّس سرّه، فتلقاه حضرة السيد بالقبول وأقبل عليه بالإقبال التام وتكلم بمعارف غريبة ودقائق عجيبة. وكلما جاء حضرة شيخنا عنده كان يشرع في الحكايات وبث الأسرار الغامضة بلا اختيار، ويظهر منه من حقائق الدقائق وعجائب اللطائف ما لا يظهر أمثالها في أوقات أخر.

ولما قام خواجة عبيد الله وخرج من عنده قال السيد متوجهاً إلى الفقير: يا مولانا فتح الله إن كلمات هذه الطائفة وإن كانت من اللذة في الغاية لكن لا يحصل شيء بمجرد القول والسماع، فإن أردت أن تصل إلى سعادة هي متمنى أرباب الهمة فعليك بالتشبث بذيل هذا الغلام التركستاني، فإنه أعجوبة الزمان وسيظهر منه أمور كثيرة، ويوشك أن ينور العالم بنور ولايته وتحيى القلوب الميتة ببركة صحبته الشريفة. فكان لي تمني ملازمته بموجب إشارة السيد دائماً حتى قدم سمرقند في زمن السلطان أبي سعيد، فكنت في خدمته وملازمته في أكثر الأوقات. وشاهدت منه أزيد مما قال السيد في حقه. وعلم من هذا النقل أيضاً أن نظر السيد كان في عواقب الأمور واستعدادات الرجال. ويؤيد ذلك ما قاله في بيان تمول حضرة شيخنا وغناه على ما تقدم حيث قال: كما أن هؤلاء الخبثاء كانوا قباباً عليّ، يوشك أن تكون دنياك قبة عليك.

قال حضرة شيخنا: ما كان في صحبة السيد قاسم شيء مما لا يلائم غير جمع من مريديه وما تفوه به الناس في حقه إنما كان من جهتهم وأجلهم. وأما اختياره لهم فلا يخلو عن أحد الوجهين:

أحدهما: يحتمل أنه قد اطلع على سر القضاء والقدر بإعلام الله تعالى وإلهام له منه، وعلم أنه يكون على وجه يجتمع حوله أمثال هؤلاء الخبثاء فلا يجد بداً من تركهم عنده على ما هم فيه لكونه على وفق القضاء والقدر.

وثانيهما: كما أنه يوضع الشوك فوق جدران بساتين ذات أثمار ليكون مانعاً

عن دخول اللصوص والأنعام، كذلك ترك السيد حوله أمثال هذه الطعام لستر حاله وحقيقة نفسه عن نظر الأغيار والعوام كالهوام.

وقال: كنت يوماً قاعداً عند السيد، فدخل عليه واحد من مريديه يقال له: بيركل، وكان يتكلم بحقائق عالية ومعارف سامية علانية عند الناس من غير تحاش، وكان يحسن ذلك ويبالغ فيه. ولما وقع بصره على السيد تغيّر لونه وصار يتلون في كل لحظة بلون آخر من قوة تعظيمه للسيد وشدة توقيره وتبجيله له في الباطن. وكان يضع رأسه في كل خطوة على الأرض وكان السيد يقول: يا درويش دم على طريق أنت مشغول به واجتهد لئلا تبقى في الأواسط. ثم خرج بيركل ماشياً تهقرى على الوجه الذي جاء به. ولما خرج من الباب قال السيد: ماذا أصنع؟ إن استعداده لا يتحمل شيئاً غير هذا الطور ولا يسع سواه، فلا جرم أمرته بإكمال طوره بالضرورة لأن كمال كل شيء خير من نقصانه.

وقال: قال السيد: يا بابو هل تعرف ما وجه قلة ظهور المعارف والحقائق، يعني في زماننا، وذلك أن بناء الأمر على تصفية الباطن وبناء تصفية الباطن على الاحتياط في اللقمة. ولما قلت: اللقمة الحلال في زماننا لم تحصل التصفية في الباطن البتة، فكيف تظهر منه المعارف والأسرار الإلٰهية. وقال مرة في سياق الكلام: وما دامت يدي صحيحة تمسك كنت أخيط قلنسوة منقوشة وأبيع وآكل من ثمنها، ولما تعطلت يدي بسبب الفالج بعت خزانة كتب بقيت من آبائي وأجدادي وجعلت ثمنه رأس مال التجارة، فأنا آكل الآن من ذلك. وهكذا كان احتياط السيد في الأكل.

وكان اعتقاد الناس في حقه نوعاً آخر، وكان زوراً وبهتاناً غير مطابق للواقع، وكان سبب ارتكابهم سوء الاعتقاد في حقه، جمع من مريديه الذين كانوا حوله، فكان الناس يستدلون بهم وليس استدلالهم ذلك بصحيح وإنما هم كانوا قباباً عليه كما مر. وقال: كان السيد في غاية علو الهمة ونهاية المروة والفتوة، وكان أصحابه يشتغلون بطرق المكاسب فما وجدوه كان يصرف بموجب الكرم ومقتضى المروة. وكان كثير الشفقة والمرحمة، فإذا سمع أن أحداً من طلبة العلوم أو شخصاً آخر مريضاً كان يتألم منه كثيراً ويرسل أصحابه لعيادته ويتعهد بمقدار من الخرج، ويتفقد أحواله.

وقال: عرض لي بسمرقند مرض الحصبة، ولما عوفيت قليلاً جاء عندي مولانا سعد الدين الكاشغري في أيام النقاهة، وكنت وقتئذ في مدرسة مولانا قطب الدين الصدر. وقال: أبشر فقد جاء السيد قاسم. وما كانت لي قوة حضور صحبته في ذلك الوقت، قلت له: اذهب أنت فإنه ليس لي الآن قوة المشي إلى ملازمته. ولما أحسست قوة في نفسي في الجملة بعد أيام، سمعت أن السيد قد جاء إلى حمام خانقاه الشيخ أبي الليث، فتوجهت هناك، فخرج السيد من الحمام وقعد في تخت روان، وكان يحمل ذلك التخت أربعة أشخاص، ففقد واحد منهم اتفاقاً، فحملت واحدة من قوائمه، فوقع عليّ ثقل عظيم وصرت منحنياً حتى كاد أن يصل أنفي إلى الأرض وتسقط قائمة التخت من يدي. فتفكرت في نفسي الأفكار الحسنة الموجبة للسرور والبهجة والنور، فكانت تلك الأفكار مورثة للجمعية والحضور ووجدت في نفسي قوة عظيمة حتى حملت التخت إلى باب مدرسة الملك أمير شاه. فقال لي مريدوا السيد بعد ذلك: قد انسلكت الآن في سلك الإنسان بحملك حمل الأمانة. انتهى كلامه قدّس سرّه. قال ذلك في سياق قوله: ينبغي للإنسان أن يسر نفسه بأفكار حسنة.

ويخطر في البال أن كيفية جعل الإنسان نفسه مسروراً بأفكار حسنة أن يخيل نفسه أنه جسم مسوى في نفس الأمر كان مظهراً لأسمائه تعالى وصفاته، ومصدراً لأفعاله وشؤوناته، وكل فعل يصدر عنه يرى أنه ليس منه بل من محل آخر. فإن عرف ذلك حق له أن يكون مسروراً دائماً. [شعر]

وحصل سروراً من حبيبك دائماً وكن مثل ورد لا تسعه الكمائم

وقال: قال السيد: رأيت اثنين من جنس الموالي كان لهما مذاق الصوفية، أحدهما: مولانا جاني الرومي. وثانيهما: مولانا ناصر البخاري. وكثيراً ما كان يطوف السيد حول المجاذيب والمجانين. وقال: كنت في الروم فسألت واحداً عن أحوال المجاذيب، فقال: إن في المحل الفلاني مجذوباً قوي الحال. فذهبت هناك ولما رأيته عرفته، كان هو مولانا جاني، وقد كنت معه في التبريز في أوان التحصيل، فقلت له بالتركية: مولانا جاني بني تانرسن. يعني: أتعرفني؟ فقال: تاتروم مولانا سيدسن. يعني: أعرف أنت مولانا السيد. فقلت: ماذا وقع عليك حتى صرت على هذا الحال؟ فقال: كنت أولاً متفرق الحال ومشتت البال ومتردداً

بين الرجال مثلك، وكان يجرني هذا إلى طرف وذاك إلى طرف، فبينا أنا على ذلك الحال إذ شوهد لي شيء فأخذني عني وعن كل شيء. ثم قال بالتركية: دكلندم دكلندم. يعني: استرحت استرحت. قال حضرة شيخنا: كلما حكى السيد هذه الحكاية كان الدمع يسيل من عينيه فعلم من ذلك أن كلام هذا المجذوب قد أثّر في باطنه أثراً عظيماً.

وقال حضرة شيخنا: قال السيد: كان في سبزوار مجذوب، فذهبت لرؤيته فمر على خاطري: أنه هل بابا محمود أفضل أم هذا؟ فتوجه إليّ في الحال، وقال: أصب من الماء ما يذهب ببابا محمود.

وقال والد راقم هذه الحروف: سمعت بعض الأكابر يقول: إنه لما لقي السيد هذا المجذوب السبزواري المشهور بمير ديوانه، وقبره معروف في تلك الديار، مر على خاطره: أنه هل بابا محمود أفضل أم هذا المجذوب؟ فقال له المجذوب ما مر آنفاً نقلاً عن حضرة شيخنا عن السيد. ثم قال: إن بابا محمود سهم واحد من كنانتي. ثم لما ذهب السيد من سبزوار إلى طوس وجاء عند بابا محمود أخطر بقلبه ما قاله ذلك المجذوب في حق بابا محمود، فأخرج بابا محمود رأسه من ردن لبده وقال: بلا ريش ونصل.

وقال حضرة شيخنا: رأيت ليلة في المنام كأني واقف على طريق كبير واسع ينشعب منها طرق كثيرة صغار إلى أطراف شتى، فرأيت الشيخ زين الدين الخافي واقفاً على رأس طريق منبهاً، فأمسكني وقال: قال النبي ﷺ: السماع أهل لأهل الله. ثم أشار إليّ وقال: تعال أوصلك إلى قريتي من هذا الطريق. فلم يطب قلبي أن أترك الطريق الأعظم وأدخل في الطريق الأصغر، فرأيت السيد قاسم قد جاء راكباً من هذا الطريق الأعظم، وقال: هذا الطريق يذهب إلى البلد، تعال أذهب بك إلى البلد. فأردفني على فرسه وجاء بي البلد من هذا الطريق الأعظم.

قال بعض الأكابر: إن ما قاله السيد في بعض أشعاره، وهو قوله:

من أزان شهر كلانم نه أزان ده كه توي   باهمه خلق جهان دار ومدارا دارم

إشارة إلى هذا المعنى، يعني: أني من ذاك المصر العظيم لا من القرية التي أنت منها، ولذلك أداري جميع الخلق في العالم وأواسيهم.

* * *

ذكر صحبة حضرة شيخنا
مع الشيخ بهاء الدين عمر قدّس سرّه

قال حضرة شيخنا: كان أطوار الشيخ بهاء الدين عمر من بين مشائخ خراسان يستحسن لي، كان يقعد في بيته دائماً فإذا حضر لديه أحد لزيارته وصحبته كان يعامل معه بما يناسبه، ولم يكن يميز نفسه عن غيره بوجه من الوجوه، غير أنه كان يقعد الأربعين أحياناً لكونه طريق مشايخه.

قال: كنت أحضر صحبته في كل جمعة مرتين أو ثلاث مرات حين إقامتي بهراة، وهي مدة خمس سنين، وما حصلت من صحبته كبيرة فائدة. بيد أني كنت أجد نسبتي أنور في صحبته، وكتب المير عبد الأول في «مسموعاته» أنه قال حضرة شيخنا: رأيت في المنام حين إقامتي بهراة كأني أمر بمنزل متعلق بملك الشيخ زين الدين الحافي. فأشار مريدوه إليّ بأن أكون في هذا المنزل، فلم يطب قلبي بأن أكون هناك، فجاوزته ووصلت إلى محل له حسن ونزاهة ثم صار معلوماً لي أنه منزل الشيخ بهاء الدين عمر، ورأيت فيه حوضاً ملآن من الماء في غاية الصفاء، والحوض بميدان في غاية الوسعة، والشيخ قاعد في جنب الحوض ويريد أن يصلي صلاة الجمعة، فاستحسنت ذلك المكان. ولما استيقظت ازداد ميلي إلى ملاقاة الشيخ، فكنت أحضر صحبته كثيراً. وقال: رأيت كثيراً من كبراء أصحاب خواجة بهاء الدين قدّس سرّه ولم أر طريقة الشيخ زين الدين الحافي مستحسنة مثل طريقتهم بخلاف طريقة الشيخ بهاء الدين عمر، فإنها كانت مستحسنة لدي. كان يقعد يومه كله فإذا جاءه أحد كان يحكي له من الحكايات ما يناسبه. وكان يقعد الأربعين أحياناً وكنت أمر على طريق يوصل إلى منزل الشيخ زين الدين الحافي وقت ذهابي إلى صحبة الشيخ بهاء الدين عمر، فإذا وصلت إلى رأس هذا الطريق كنت أخلي نفسي عن جميع النسب وأترك عنان التوجه على حاله، فما كان يحصل لي ميل الذهاب إلى منزل الشيخ زين الدين بل كان قلبي ينجذب إلى منزل الشيخ بهاء الدين عمر.

وقال: جئت يوماً منزل الشيخ زين الدين وكان له وقتئذ استغراق تام، وكان مولانا محمود الحصاري الذي كان يعد نفسه من خلفائه حاضراً فيه مع جمع من أصحاب الشيخ. وكان معلوماً لي أنهم يريدون قراءة كتاب من مصنفات الشيخ عليه، فأخذوا يضربون الأرض بأرجلهم ويتنحنحون ويتحركون تحركاً غير ملائم ليحضر الشيخ عن مراقبته واستغراقه حتى لا يفوت وقتهم. فلم يحضر الشيخ، فقالوا أخيراً: لم يحضر الشيخ بهذه، فالأولى أن نكون مشغولين بباطن الشيخ حتى يحضر من استغراقه. فقعدوا وتوجهوا بخواطرهم إلى الشيخ، فحضر وقال: جئتم للدرس، تعالوا. فقعد الشيخ وأصحابه واشتغلوا بالإفادة والاستفادة، قال حضرة شيخنا: كان هذا الشغل الخارج عن طور الأدب من مولانا محمود وسائر أصحاب الشيخ في غاية البشاعة والشناعة عندي، كيف يمنع واحد من الكبراء عن مثل هذا الحال؟ يعني: حال الاستغراق لأجل الدرس. وقال: لا فرق بين التوجه إلى شخص بالخاطر وبين الضرب على عنقه، ولهذا كنت أذهب إلى منزل الشيخ زين الدين قليلاً.

وقال: أعطى الشيخ زين الدين يوماً إجازة الإرشاد لمولانا محمود الحصاري والد درويش عبد الرحمٰن الرومي، وأرسل كلاً منهما إلى بلدهما، وكنت حاضراً في ذلك المجلس. ونقل بعض الأكابر عن حضرة شيخنا أنه قال: جئت يوماً منزل الشيخ بهاء الدين، فسألني عن أخبار البلد على عادته، قلت: في البلد خبران، فقال: ما هما؟ قلت: قال الشيخ زين الدين وأتباعه الكل منه. وقال السيد قاسم وأتباعه: الكل هو هو، فما قولكم فيه؟ فقال: الصواب في طرف الشيخ زين الدين وأتباعه. وشرع في إقامة الدليل على تقوية كلام الشيخ زين الدين وأتباعه. فلما أصغيت إلى كلامه رأيت أن دلائله كلها مقوية لكلام السيد وأتباعه، فقلت: إن هذه الدلائل كلها مقوية لكلام السيد وأتباعه، فشرع الشيخ في إقامة دلائل أقوى من الأولى كلها مقوية لكلام السيد وأتباعه. فوقع في قلبي في هذا المحل أنه ينبغي أن يعتقد بحسب الباطن قول السيد وأتباعه. وأما بحسب الظاهر، فينبغي أن يكون على اعتقاد الشيخ زين الدين الحافي وأصحابه.

قال حضرة شيخنا: كنت أمرخ الشيخ بهاء الدين عمر كثيراً وأدلكه، وما كان يقول: يكفي، ولا أنا كنت أترك التمريخ والدلك. وكان له استغراق مثل ما ينام

الناس ويكون له غطيط فيه، وكان يحضر أحياناً ويقول: أظن هذا رسم بلادكم؟ فأقول: نعم، فيقول: نعم البلد لو ذهب الناس إليه. وقال: كان الشيخ بهاء الدين عمر يقول كثيراً: تعال يا شيخ زاده ومرخ كتفي. فكنت أمرخ كتفه وكنت أنزع خفيه من رجليه أحياناً فما شممت شيئاً أطيب من رائحة الخرقة التي كان يلف بها رجليه.

* * *

ذكر ملاقاة حضرة شيخنا مولانا يعقوب الكرخي قدّس سرّهما

قال حضرة شيخنا: لما وصلت إلى جل دختران حين ذهابي إلى هراة أول مرة، رأيت فيه تاجراً في غاية الحسن والجمال قاعداً على باب رباط. وفهمت أنه مشتغل بطريقة خواجكان قدَّس الله أرواحهم، فسألته أنه: ممن وصل إليك هذا الطريق؟ فأظهر الحال في الحال على ما هو عادة السوقي وديدن التجار. وقال: وصلت إلى هذه النسبة عن شيخ في هلفتو من خلفاء خواجة بهاء الدين النقشبند قدِّس سرّه يقال له: مولانا يعقوب الكرخي. وبيَّن لي فضائله وشمائله وبالغ في هذا الباب مبالغة كثيرة، فأردت أن أرجع من هذا المحل ثم أبادر بعد ذلك إلى صحبة مولانا يعقوب، لكن ذهبت إلى هراة، فاتفق لي هناك لبث أربع سنين بسبب اهتمام الشيخ بهاء الدين عمر في محافظتي، فتوجهت إلى طرف هلفتو بعد أربع سنين. ولما وصلت إلى ولاية صغانيان لم أقدر أن أخرج منها بسرعة بسبب عروض المرض وابتلائي بحمى باردة مدة عشرين يوماً، وخاض بعض الناس بنواحي صغانيان في غيبة مولانا يعقوب الكرخي فوقع فتور عظيم في قصد الملاقاة له بسبب استماع كلماتهم البعيدة عن الصواب وقت المرض. فقلت في نفسي: قد قطعت هذه المسافة البعيدة فلا يحسن الرجوع من غير ملاقاته. فتوجهت نحوه، ولما وصلت إليه ولقيته، أظهر لي التفاتات كثيرة وكلمني من كل باب. ولما جئته في اليوم الثاني أبرز لي غضباً كثيراً وتلقاني بخشونة وغلظة فوقع على قلبي: أن حكمة غضبه إنما هي لاستماع تلك الغيبة والفتور الواقع بسبب ذلك الاستماع، وإن لم يصرح لها، ولكن قال: أيسهل أن لا يرى شخصاً قبل شهرين. قال حضرة شيخنا: فتيقنت منه أن سبب غضبه كان استماع هذه الغيبة والفتور. ثم أظهر اللطف في تلك الصحبة بعد ساعة وأكثر من العناية والالتفات، وبيَّن كيفية ملاقاته حضرة الخواجة بهاء الدين قدِّس سرّه ثم مد يده للبيعة بعد ذلك وقال: تعال وبايع. فلم تقبل طبيعتي أن آخذ

يده لبياض كان في جبهته يشبه برصاً موجباً لنفرة طبيعية، فتفرس ذلك ورد يده بسرعة وبدّل صورته بطريق الخلع، وظهر في صورة حسنة بطريق اللبس، فخرج الاختيار عن يدي حتى كدت أن أتعلق به من غير شعور. ثم مد يده ثانياً وقال: إن الخواجة بهاء الدين قد أخذ بيدي وقال: إن يدك يدي فمن أخذ بيدك فقد أخذ بيدي، فخذ بيد خواجة بهاء الدين. فأخذت بيده بلا توقف، ثم قال لي بعد تعليم طريقة خواجكان قدَّس الله أسرارهم بطريق النفي والإثبات الذي يقال له: الوقوف العددي: إن هذا الطريق هو الذي وصل إليَّ من خواجة بهاء الدين قدِّس سرّه، فإن بدا لك أن تربي الطالبين بطريق الجذبة فلك الخيار في ذلك.

قيل: قال بعض أصحاب مولانا يعقوب الكرخي له: لقنت الطريقة طالباً في هذا الوقت ثم قلت له عقب ذلك: فإن بدا لك أن تربي إلخ. فكيف يمكن الإجازة في هذه المدة اليسيرة؟ فقال له مولانا يعقوب: ينبغي للطالب أن يحضر هكذا قد هيأ جميع أموره وإنما كان موقوفاً على الإجازة فقط وله قوة لكل ما قيل.

وكتب مولانا نور الدين عبد الرحمٰن الجامي قدّس سرّه السامي في «النفحات»: ووقع الاستماع لي هكذا: أن مولانا يعقوب قال: ينبغي لطالب يحضر عند مرشد أن يحضر مثل خواجة عبيد الله، قد هيّأ المصباح وملأه بالزيت، وأصلح فتيلته، وإنما هو محتاج للتسريج.

قال حضرة شيخنا: قد أنصف مولانا يعقوب في قوله: إن ما وصل إلينا من خواجة بهاء الدين إنما هو طريق الذكر، فمن قدر على تربية بطريق الجذبة فهو حسن ينبغي أن يفعل. وقال: لما استأذنت مولانا يعقوب بيّن لي طرق النقشبندية كلها، ولما بلغ طريق الرابطة قال: لا تخف من تعليم هذا الطريق ولا تدهش منه بل بلغه المستعدين.

* * *

المقصد الثاني

في ذكر بعض الحقائق والمعارف والدقائق واللطائف والحكايات والأمثال التي سمعتها من حضرة شيخنا من غير واسطة في خلال الأحوال

وهو مشتمل على: ثلاثة فصول.

الفصل الأول: في ذكر المعارف واللطائف المتعلقة بمعاني الآيات والأحاديث، وكلمات الأولياء.

الفصل الثاني: في ذكر الحقائق والدقائق والحكايات التي نقلها عن المشايخ المتقدمين والمتأخرين.

الفصل الثالث: في كلماته الخاصة به التي جرت على لسانه المبارك من كل باب، ومخاطباته التي تتعلق بأحوال أهل البداية والنهاية، صدرت عنه في أثناء الصحبة في معرض الخطاب.

الفصل الأول

في ذكر المعارف واللطائف المتعلقة بمعاني الآيات والأحاديث وكلمات أولياء الله تعالى

ولنورد ما يتعلق بمعاني الآيات فقط في ضمن ست عشرة رشحة:

• رشحة: قال في معنى: الحمد لله: إن للحمد بداية ونهاية. فبداية الحمد أن يحمد العبد في مقابلة النعمة التي وردت إليه لعلمه أن الحمد يزيد النعمة. ونهاية الحمد: أن يحمد العبد في مقابلة النعمة التي كانت سبباً لقرب الحق سبحانه ورضاه، مثل القوة التي يقوم بها بحق العبودية من الصلاة والصوم والزكاة والحج وأمثالها. بل نهاية الحمد: أن يعلم العبد أن ليس في مظهره غير الحق سبحانه ولا كمال للعبد غير أن يعلم أنه معدوم صرف؛ لا ذات له ولا صفات ولا أفعال، ويسر نفسه بهذا الفكر؛ أعني: أنه تعالى قد جعله مظهراً لصفاته.

• رشحة: قال في معنى قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: الآية ١٣]: إن الشكور في الحقيقة هو من يشاهد المنعم في النعمة. وقال: قال الإمام الغزالي: إن التلذذ بالنعمة لا ينافي الشكر لو كان التلذذ من جهة كونها سبباً للوصول.

• رشحة: قال في معنى قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ [النجم: الآية ٢٩]: إن هذه الآية متضمنة لمعنيين، أحدهما: ما يفهم من ظاهر الآية، يعني: أعرض عن طائفة يعرضون عن ذكرنا، وهم أهل الجحود والغفلة. وثانيهما: وهو المعنى الباطني: أنه تعالى أمر رسوله ﷺ بالإعراض عن طائفة ارتفع عنهم وصف الذكر بكمال استغراقهم واستهلاكهم في شهود المذكور، فإن كلفوا بالذكر مثلاً يكون الذكر مانعاً إياهم عن شهود المذكور. فأمر النبي ﷺ بالإعراض عنهم بمعنى: الانتهاء عن تكليفهم بالذكر.

• رشحة: قال في معنى قوله تعالى: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: الآية ١١٩]: إن للكينونة معهم معنيين: كينونة بحسب الصورة وهي: التزام مجالسة أهل الصدق ومصاحبتهم حتى ينور باطنه بأنوار صفاتهم وأخلاقهم بسبب دوام الصحبة

معهم. وكينونة بحسب المعنى، وهو: أن يلتزم طريق الرابطة بحسب الباطن بطائفة يستحقون الوساطة. ولا تنحصر الصحبة في المجالسة الصورية والنظر بالعين، بل ينبغي أن يجعل الصحبة دائمة وأن يتجاوز عن الصورة إلى المعنى حتى تكون الواسطة في نظره دائماً، فإن روعي هذا المعنى على الدوام تحصل لسر الطالب مناسبة واتحاد بسر المرشد، ويكون المقصود الأصلي الحاصل حقيقته بتلك الواسطة.

* رشحة: قال في معنى هذه الآية أيضاً: وما يفهم من هذا الأمر الواجب الامتثال لزوم كون القلب مرتبطاً بواحد من الصادقين وهم طائفة قد ارتفع المسمى بالغير عن عيون بصيرتهم، فإنه يقال: رمح صدوق لرمح يوجد فيه جميع ما يلزم الرمح من الاستقامة وأصالة الجوهر وغيرهما، والذي يلزم الإنسان أن يتحلى به حتى يبلغ درجة الكمال ليس هو غير التوجه الصادق الخالص إلى الله تعالى على الدوام.

* رشحة: وأنشد في معنى هذه الآية أيضاً: [شعر]

عش عاشقاً واقعد مع العشاق لا تقربن من ليس ذا أشواق

غيره:

إن من يصحب شيخاً نحو يا يكن في فن نحو ماهرا

والذي مع شيخ محو جالس كان منه سر محو ظاهرا

ولما كان للإنسان استعداد تام للتأثر ممن يصحبه ويجالسه، كان مأموراً بهذا الأمر. وأي عمل يعدل ويقابل جذبة واردة من طرف الحق سبحانه ببركة صحبة الصادقين، وجذبة من جذبات الحق توازي عمل الثقلين مؤيد لهذا.

* رشحة: قال في معنى كلمة لا إله إلا الله: قال بعض الأكابر: إن ذكر لا إله إلا الله ذكر عام، وذكر الله ذكر خاص. وذكر هو ذكر خاص الخاص، مع أنه يمكن أن يكون ذكر لا إله إلا الله ذكر خاص الخاص، فإنه لا نهاية لتجليات الحق، فلا يتصور التكرار في هذه الصورة أصلاً بل يكون في كل آن نافياً لصفة ومثبتاً لصفة، فلا يتخلص عن النفي والإثبات أبد الآبدين.

* رشحة: قال في معنى لا إله إلا الله: إن لفظة الله اسم عند البعض للذات من

حيث هي، فيحتمل أن يكون المعنى: لا إله، ليس إله، عبارة عن مرتبة الألوهية. يعني الذات مع الصفات بموجود إلا الله، يعني: الذات البحت المعراة عن الكل. ولا ينبغي أن يستبعد هذا المعنى، فإنه لا شهود للسر غير الذات المقدسة في زمان خلو القلب عن الأغيار. وهذا المعنى يحصل للمبتدئين في سلسلة خواجة عبد الخالق الغجدواني قدّس سرّه فهم من فهم.

[شعر]

ناديت غير مرة إن كان في الأحياء حي

وقال في بيان هذا المعنى: إنه يحصل لمبتدىء طريقة خواجة بهاء الدين النقشبند قدّس سرّه ذوق من غيب الهوية في أول الإقدام.

* رشحة: قال في معنى قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: الآية ٩١]: إن المراد: كن متوجهاً إلى نفس الذات دون الصفات.

* رشحة: قال في معنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ [النساء: الآية ١٣٦]: إن هذا إشارة إلى تكرار العقود، يعني: أن الإيمان عبارة عند هذه الطائفة عن عقد القلب وربطه بالله، فأمر الله تعالى بتكرار هذا العقد يعني: اجتهدوا في السعي حتى تعلموا أن تلك الصفة ليست منكم.

* رشحة: قال في معنى قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ [فاطر: الآية ٣٢] الآية: يحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ إشارة إلى طائفة ظلموا أنفسهم بمعنى أنهم جعلوا أنفسهم محرومة عن كل ما يريدونه من اللذات والشهوات والتزموا مخالفتها في جميع الأحوال والأوقات حتى تكون مستعدة لقبول مواهب الحق سبحانه. فعلى هذا التحقيق تكون هذه الطائفة مقدمة على المقتصدين وهم على السابقين بالخيرات.

* رشحة: قال في معنى قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ [البقرة: الآية ٦] الآية: يحتمل أن تكون هذه إشارة إلى طائفة من بني آدم على قلب المهيمين، وهم طائفة من الملائكة ليس لهم شعور بوجود غير الحق سبحانه لغاية استغراقهم في شهود الذات. ولما لم يكن لهذه الطائفة شعور بشيء أصلاً لا يكون لهم إيمان بشيء أصلاً بالضرورة، فلا جرم يكون وصفهم لا يؤمنون.

* رشحة: قال في معنى قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: الآية ١٦]: يحتمل أن يكون المراد من الملك قلب السالك. يعني: لما تجلى الحق سبحانه للقلب بقهر الأحدية لا يترك فيه شيئاً غيره فيلقي إليه صدى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: الآية ١٦]. فإذا لم ير في تلك المملكة غيره يجيب تعالى بنفسه بالضرورة بقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: الآية ١٦]، وصدى: «سبحاني ما أعظم شأني»، و«أنا الحق» و«هل في الدارين غيري» وأمثالها كلها من هذا المقام.

* رشحة: قال في معنى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: الآية ١٥]: إن الإنسان محتاج إلى الحق سبحانه. ولما علم الله سبحانه بعلمه الأزلي أن الإنسان يكون محتاجاً إلى خبز وماء وغيرهما من الأسباب الدنيوية بمقتضى الطبيعة البشرية، لا جرم أظهر جمال قيوميته من مظاهر الأشياء، فالذي هو محتاج إلى شيء من الأشياء فهو في الحقيقة محتاج إلى الحق من جهة قيوميته تعالى.

* رشحة: لام يوماً بعضاً من أصحاب المجلس في معرض السياسة، وقال في ذلك الأثناء: لا تطوفوا في الأزقة بل افعلوا شيئاً حتى ينتفع بكم الناس وامحوا أنفسكم بكل وجه ممكن، واجتهدوا في السعي حتى يحصل لكم شهود الأحدية في الكثرة. وقد فسروا قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ [الكوثر: الآية ١] يعني: إنا أعطيناك شهود الأحدية في الكثرة.

* رشحة: أورد في معنى قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: الآية ٢٩]: كلمات. وقال في سياق الكلام: إن للبقاء بعد الفناء معنيين، **أحدهما**: كون السالك مظهراً لتجليات الأسماء الفعلية وأن يجد في نفسه آثار الأسماء الكونية وأن يميز بين كل واحد من الأسماء، وأن يأخذ حظاً وافراً من كل اسم بعد ما تحقق بشهود الذات والرسوخ التام فيه، والرجوع عن الاستغراق والغيبة إلى الحضور والشعور. **وثانيهما**: أن يشاهد السالك في نفسه في كل جزء لا يتجزء من الزمان أثراً من آثار الأسماء الذاتية التي ليست لها مظاهر في الخارج ويجد في باطنه آناً فآناً تلك الآثار المتنوعة والمتلونة، ويمزج بين كل من الأسماء باعتبار اختلاف الآثار في أقصر زمان من الأزمنة، وذلك في غاية الندرة وعال جداً ويحصل على سبيل الندرة لأكمل فرد من أرباب الولاية الخاصة. وقوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: الآية ٢٩]

مبين لهذا المعنى. [شعر]

واعجب ببستان ترى في ثماره بكل أوان من بديع المطاعم

ولنورد ما يتعلق بمعاني بعض الأحاديث في ضمن ثماني رشحات:

• رشحة: قال في حديث: «القناعة كنز لا يفنى»(١): إن القناعة عندنا أن لا يميز الإنسان بين خبز شعير ناضج وبين خبز غير ناضج حين وجوده، وأن يأكل منه أيضاً ما يقدر به أن يحرك يديه ورجليه للصلاة. قال: ينبغي أن يعيش على وجه يتيسر ذلك العيش دائماً، وأن يقنع في الأكل واللبس بما لا شيء أدنى منه. ثم فتح يده المباركة وقال: إذا جاع شخص يكفيه كفة من الأرز أو الدقيق، فمن اعتاد هذا فقد استراح. وقال: من وقع في صحراء لا ماء فيها ولا عمران ولا يرجى فيها وجود طعام بوجه من الوجوه ومع ذلك لا يكون فيه توجه الخاطر إلى طعام ولا في باطنه استطلاع واستشراف عليه يمكن أن يقال في حقه: إن القناعة حاصلة فيه على الحقيقة.

• رشحة: وقال في خبر: «التكبر على المتكبر صدقة»(٢): إن التكبر على نوعين، **أحدهما**: مذموم، **والآخر**: محبوب. فالمذموم هو التعظم على خلق الله تعالى والنظر إليهم بعين الحقارة، وأن يرى نفسه فوق الناس. والمحبوب عدم الالتفات إلى ما سوى الله تعالى والتعظم على غير الحق بمعنى أن يرى غير الحق سبحانه حقيراً عديم المقدار وقطع العلاقة عنهم. وهذا التكبر أصل موصل إلى مرتبة الفناء.

• رشحة: قال: قد ورد في الحديث: «شيبتني هود»(٣) وذلك لورود الأمر فيها بالاستقامة كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: الآية ١١٢]. والاستقامة أمر في غاية الصعوبة، فإنها استقرار في حد أوسط في جميع الأفعال والأقوال والأخلاق والأحوال على وجه لا يقع التجاوز عما هو ضروري في جميع الأفعال، ويكون

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير، حديث رقم (١٠٤) [٢/ ٨٨] ورواه الطبراني في الأوسط بلفظ: «القناعة مال لا ينفد» حديث رقم (٦٩٢٢) [٧/ ٨٤].

(٢) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (١٠١١) [١/ ٣٧٤].

(٣) رواه الحاكم في المستدرك، تفسير سورة هود، حديث رقم (٣٣١٤) [٢/ ٣٧٤] ورواه الترمذي في سننه، باب ومن سورة الواقعة، حديث رقم (٣٢٩٧) [٥/ ٤٠٢] ورواه غيرهما.

محفوظاً ومصوناً عن طرفي التفريط والإفراط. ولهذا قيل: العبرة بالاستقامة ولا اعتبار لظهور الكرامات وخوارق العادات.

* رشحة: قال: قال بعض كبراء الطريقة قدّس الله أرواحهم في معنى حديث: «لي مع الله وقت»[١] أي: وقت مستمر شامل لجميع أوقاته، يعني: كان لسر النبي ﷺ اتصال وارتباط بالحق سبحانه على سبيل الدوام على وجه كان لا يسع شيئاً غيره أصلاً، ولكن كانت مدركته ﷺ المسماة بالقلب تسع كل شيء في وقت واحد من مصالح الدنيا ومحاربة الأعداء، ومباشرة الأزواج الطاهرات وغيرها. وقال البعض في معنى هذا الحديث: يعني وقت عزيز نادر. قال: كان ميل الخواجة علاء الدين الغجدواني عليه الرحمة إلى القول الثاني. وقال: يحصل هذا الحال للكاملين على سبيل الندرة.

* رشحة: قال: قد ورد في حديث المعراج حكاية عن جبريل حين تخلّف عن النبي عليهما الصلاة والسلام عند سدرة المنتهى: «لو دنوت أنملة لاحترقت»[٢]، قال أهل التحقيق في معناه يعني: إن دنوت وجاوزت مقامي الذي هو من مقام شهود الذات مع الصفات مقدار أنملة لاحترقت، يعني: لما بقيت أنا بل صرت شيئاً آخر.

* رشحة: قال في معنى هذا الحديث: «أدّبني ربي فأحسن تأديبي»[٣]: أي بأن أعطاني الجامعة لجميع خصائص النعوت المرضية والخصال الحميدة التي تقتضي ما يلائم حضرة المحبوب، كيف لا يكون مقهوراً ومدفوعاً ما لا يكون ملائماً ومرضياً لحضرة المحبوب عند ظهور سطوة سلطنة المحبة التي هي قطب دائرة التوحيد، أم كيف لا تحصل الخصال الحميدة والأخلاق المرضية بعد حصول المحبة، بل لا يستعمل المحب نفسه إلا في مرضيات حضرة المحبوب وملائماته لكونه مطلعاً على جميع دقائق مرادات حضرة المحبوب. [شعر]

إذا ما وصلت العشق ناهيك قدوة يريك جميع المكرمات بحاله

* رشحة: قال في معنى هذا الحديث: «اليوم تسد كل فرجة» الحديث: كان

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٢١٥٩) [٢/ ٢٢٦] والهروي في المصنوع [١/ ٢٥٨].

(٢) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٣) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (١٦٤) [١/ ٧٢].

لمسجد النبي ﷺ أبواب صغيرة من كل جانب، فأمر النبي ﷺ في مرضه الأخير بسدها كلها غير خوخة أبي بكر رضي الله عنه، وقال: «اليوم تُسد كل فرجة إلا فرجة أبي بكر»[١] ففعلوا. ولأرباب التحقيق كلام في هذا الباب، وهو أنه كان لسيدنا أبي بكر رضي الله عنه كمال النسبة الحبية برسول الله ﷺ فأشار النبي ﷺ في هذا الحديث إلى أن جميع النسب والطرق مسدودة في جنب النسبة الحبية وما هو موصل إلى المقصود ليس إلا هذه النسبة الحبية، والرابطة عبارة عن هذه النسبة الحبية إلى صاحب دولة وسعادة لائق للوساطة بين العبد وبين الله تعالى. وانتساب طريقة أكابر النقشبندية قدَّس الله أرواحهم إلى حضرة الصدِّيق رضي الله عنه إنما هو من حيثية هذه النسبة وطريقة هؤلاء الأكابر في الحقيقة هي المحافظة عليها.

وأنشد هذين البيتين في بيان تحصيل هذه النسبة في وقت آخر: [شعر]

هين دريجه سوي يوسف بازكن وازشكافش فرجة آغازكن
عشقبازي آن دريجه كردنست كز جمال دوست ديده روشنست

* رشحة: قال: قال عليٌّ كرَّم الله وجهه: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً»، لم يخطر في هذا المقام في قلب أحد ما هو ملائم لمعنى حرف: لو، الذي هو امتناع الثاني لامتناع الأول. فعلى هذا يكون المعنى: أن اليقين في التزايد دائماً لأن كشف الغطاء غير ممكن أصلاً لما تقرر عند أهل التحقيق: أن الذات من حيث هي لا ظهور لها أصلاً إلا في حجب الصفات. ولما كانت الذات في حجاب الكمون والاستتار دائماً لا يمكن كشف الغطاء عنها أصلاً، فيكون اليقين لا يزال يتزايد.

وما يتعلق بمعاني كلمات الأولياء نورده في ثماني رشحات:

* رشحة: قال في معنى كلامهم هذا: صاحبوا الله فإن لم تطيقوا فصاحبوا من

---

(١) رواه البخاري في صحيحه بلفظ: عن عكرمة عن ابن عباس قال: خرج رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه عاصباً رأسه بخرقة، فقعد على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إنه ليس من الناس أحد أمَنَّ عليَّ في نفسه وماله من أبي بكر بن أبي قحافة، ولو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن خلة الإسلام أفضل، سدوا عني كل خوخة في هذا المسجد غير خوخة أبي بكر». باب الخوخة والممر. . .، حديث رقم (٤٥٥) [١/١٧٨]، ورواه مسلم في صحيحه، باب من فضائل أبي بكر. . .، حديث رقم (٢٣٨٢) [٤/ ١٨٥٤] ورواه غيرهما.

يصاحب الله. أن المراد هنا الحضور والشعور اللذان هما لازمان للصحبة، فإن كون أحد المصاحبين حاضراً بالآخر وشعوره به من لوازم الصحبة، وقد ورد في التوجه الإيجادي للإنسان: خلقت بيدي، أي بالأوصاف المتقابلة، يعني فيه من جميع الأوصاف. ومن جملتها الحضور الذاتي، فإن الله تعالى حاضر لذاته بذاته أبداً وأزلاً فظهر من هذا أن الحضور والشعور في أفراد الإنسان ليسا منهم بل هما من أشعة شمس الحضور الذاتي التي انعكست في جدران المظاهر ونوّرتها، ولا كمال للإنسان غير تحقيق حاله وعلمه بأن ما حصل فيه من الحضور وغيره ليس منه بل من الحق سبحانه، ولا حق له في ذلك. وما قاله الشيخ الهروي قدّس سرّه: أن التحقيق تلخيص مصحوبك، إشارة إلى هذا المعنى.

* رشحة: قال في تحقيق ما قاله بعض المحققين: لو أقبل صديق على الله تعالى ألف ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة فما فاته أكثر مما ناله: أن تلك الطائفة قد يصلون إلى مقام يكتسبون فيه في نفس واحد جميع كمالات اكتسبوها فيما قبل. وقد ورد في حكاية مشهورة أن بعض الأشقياء سعى إلى خليفة الوقت بنميمة هؤلاء الطائفة العلية بأنهم زنادقة رديئة يضلون الخلق عن طريقة سوية والأصلح أن تأمر بقتلهم حتى يتلاشى مذهبهم ويزول عن العالم بالكلية، فيترتب على ذلك فوائد جزيلة وعوائد جليلة، فجاؤا بهم دار الخلافة وأوردوهم في ميدان السياسة وأمر بقتلهم. فلما أراد السياف أن يقتل واحداً منهم جاءه الآخر والتمس أن يقتله أولاً، فقصده السياف فجاءه الثالث والتمس قتله قبل صاحبه، فبقي السياف متحيّراً وقال لهم متعجباً: ما بالكم تشتاقون إلى القتل بحيث يتبادر إليه أحدكم قبل صاحبه ويسبقه فيه؟ فقالوا: نحن من أهل الإيثار وقد وصلنا إلى مقام نكتسب فيه في كل نفس جميع الكمالات السابقة فيؤثر كل منا صاحبه بحياته على نفسه ليتنفس في تلك الفرصة أنفاساً فيكتسب فيها الكمالات. فبلغ هذا الكلام سمع الخليفة فتنبه وبحث عن أحوالهم بالتحقيق، ولما اطلع على كمالاتهم قال: لو كان هؤلاء زنادقة ليس في العالم صديق. ثم اعتذر إليهم وخلى سبيلهم وأعادهم إلى مكانهم بتمام الإعزاز.

وقال حضرة شيخنا: إن لهذا تمثيلاً وهو: أنه لو كان لشخص مائة دينار فاتجر به وسعى واجتهد حتى بلغ ربحه مائة ألف دينار فما يحصل له في هذا الوقت من ربح مائة ألف دينار يكون أزيد البتة مما حصل له قبل هذا من مائة دينار. فلو امتنع عن الكسب والتجارة في هذا الحال يكون ما فاته أزيد مما ناله لا محالة.

* رشحة: قال: قال بعض الأكابر: من غمّض عينيه عن الله طرفة عين لم يهتد طول عمره. ومعناه: أنه لا يهتدي لتدارك زمان فات وقت الإغماض. يعني: لا يمكن تداركه لكونه فائتاً لا على عوض.

* رشحة: قال بعض العرفاء: أرباب الأحوال يتبرؤون من الأحوال. قال حضرة شيخنا في معنى هذا الكلام: إن الاستغراق والاستهلاك ليسا بموجبين للترقي، فإنه قد تحقق وعلم باليقين أن الترقي منوط ومربوط بدوام العمل، ولا شك أن زمان الاستغراق والاستهلاك زمان الامتناع والتعطل عن العمل في الحقيقة، بل هما من أحكام موطن الآخرة. وإنما ظهرا في هذا الموطن بطريق الاستعمال فإن لم يظهرا في موطن الدنيا يظهران في موطن الآخرة البتة بالطريق الأكمل، فلا جرم يتبرأ أرباب الأحوال من الأحوال بناء على هذا التحقيق.

* رشحة: قال: كتب الخواجة محمد پارسا قدّس سرّه: أن حقيقة الذكر عبارة عن تجلي الحق سبحانه لذاته بذاته في عين العبد من حيثية اسمه: المتكلم. وقال: لا يتيسر هذا المقام من غير أن يشتغل الطالب بالذكر مدة مديدة حتى يحصل في قلبه دوام الحضور، فإن كر في ميدان الاجتهاد ثانياً وسلب هذه النسبة عن نفسه فهو عناية له من الحق سبحانه.

ثم أنشد هذا البيت: [شعر]

حملت كمرء طالب الثأر مرة ... فجزت بها علماً إلى عين معلوم

* رشحة: قال: قال بعض الأكابر: سبحان من لم يجعل للخلق إليه سبيلاً إلا بالعجز عن معرفته. ومعناه: أن المراد من العجز عن المعرفة أن يظهر للسالك سر قولهم: لا يعرف الله إلاّ الله. يعني: أن يعرف السالك أن المعرفة ليست من مقتضيات التركيب الإنساني وما ظهر فيه من المعرفة ليس منه، بل هو مرآة له انعكست فيه الصور العلمية الإلهية. ومثل هذا العجز لا ينافي معرفة الإنسان. وزعم البعض أن العجز عن المعرفة جهل وذلك باطل.

* رشحة: قال: قال الشيخ أبو بكر الواسطي قدّس سرّه: إن كنت قائماً بغيرك فأنت فانٍ بلا جمع ولا تفرقة. قال: الجمع هنا كناية عن رؤية التوفيق في العمل، والتفرقة عبارة عن أداء وظائف العبودية بوصف نفسه. وقال: من عرف مضمون هذا الكلام وأدركه بذوقه فقد تخلص ونجى عن تفرقة الأغيار

* **رشحة**: قال: قال الأكابر في معنى: الجمع وجمع الجمع: إن الجمع ما له عليك وما لك عليك، وجمع الجمع: ما لك وما له عليه. وقال: وما قاله مولانا الرومي قدّس سرّه في «المثنوي»: [شعر]

ونحن في دار الغرور يا أخي كالألف الخالية عن كل شيء

هو هذا المقام، يعني: مرتبة جمع الجمع.

* * *

الفصل الثاني

في بيان الحقائق والدقائق والحكايات التي نقلها عن المشائخ المتقدمين والمتأخرين قدّس الله أرواحهم

ولنوردها في ضمن اثنتين وخمسين رشحة:

* رشحة: قال: إن أهل الإرادة في غاية القلة والندرة. وقال في تأييد ذلك الكلام: كتب واحد من المشائخ إلى آخر من أكابر عصره: أن المريدين قليلون هنا جداً فإن أحسست علامة من المريد الصادق أرسله إليّ. فكتب في جوابه: أن المريدين قليلون هنا أيضاً فإن أردت شيوخاً أرسل لك مقدار ما تريد.

* رشحة: قال: كان مولانا ركن الدين الخافي صاحب فضائل كثيرة وكمالات جليلة، وكانت له إرادة صادقة وعقيدة راسخة في هذه الطائفة العلية. وكان يقول: لا أرجو من عملي شيئاً غير أني راجٍ من عمل واحد غاية الرجاء وهو: أن حضرة الشيخ علي كان من أكابر مشايخ شيراز قضى حاجته يوماً في صحراء فمسحت مدر استنجائه[1] بوجهي حتى أستنجي به.

* رشحة: ونقل عنه أيضاً أنه قال: لو نقشوا صورة درويش على جدار ينبغي أن يمر من تحت ذلك الجدار بالأدب.

* رشحة: قال: لما وقعت للشبلي إرادة طريقة هذه الطائفة، جاء عند الشيخ محمد خير وكان والد الشبلي حاكماً في واسط في تلك المدة، فأرسله الشيخ محمد خير إلى الجنيد. قال صاحب كتاب «كشف المحجوب»[2]: إن إرساله إليه ليس لكونه عاجزاً عن تربيته بل لحفظ الأدب مع الجنيد. وكان الشبلي من أقرباء الجنيد،

---

(١) المَدَر: قطع طين يابس، الواحدة: مَدَرَة. (العين للفراهيدي: مدر).

(٢) كتاب كشف المحجوب لأرباب القلوب في التصوّف للشيخ أبي الحسن: علي بن عثمان الغزنوي المتوفى سنة ٤٦٥ هجرية.

فأمره الجنيد بالكسب إلى سبع سنين وبرد المظالم التي صدرت عنه في أيام حكومته بما حصل من كسبه. ثم أمره بعد ذلك بخدمة بيت الخلاء والمتوضأ وبقي فيها سبع سنين. وكان في تلك المدة يهيىء لأصحاب الجنيد أحجار الاستنجاء ومياه الطهارة ثم علّمه الطريقة بعد أربع عشرة سنة وأمره بالرياضة.

* رشحة: قال: اشتغل سهل بن عبد الله التستري قدّس سرّه بالرياضات الشاقة ودوام الذكر مدة مديدة حتى تقاطر يوماً دم من دماغه، وكان يكتب نقش لفظة: الله، من كل قطرة قطرت في الأرض. ثم أمره شيخه بالمحافظة على نسبة الحضور بعد تلك الاشتغالات.

* رشحة: سمعت حضرت شيخنا مرتين يقول من كلام خواجة عبد الخالق الغجدواني قدّس سرّه: أغلق باب المشيخة وافتح باب المودة، واغلق باب الخلوة وافتح باب الصحبة. وأنشد في الثانية هذين البيتين من «المثنوي»: [شعر]

يكون بفعل وجه تعليم حرفة كما طرق تحصيل العلوم التكلم
فإن رمت فقراً فالتمسه بصحبة فلا وجهه فعل وليس التعلم

* رشحة: قال: قال بعض الأكابر: أن بعد صلاة العصر لساعة ينبغي أن يشتغل فيها بأفضل الأعمال. قال البعض: إن أفضل الأعمال في تلك الساعة المحاسبة، وهي أن يحاسب الطالب ساعات ليله ونهاره كم ساعات منها مرت على الطاعات وكم ساعة كانت مصروفة في المعاصي والسيئات. فما كانت مصروفة في وجوه البر والطاعات فيشكر، وما كانت مبذولة في طرق المعاصي والسيئات فيستغفر.

وقال الآخر: إن أفضل الأعمال في تلك الساعة كون الطالب في صحبة شخص يعرض فيها عن ما سوى الله ويميل وينجذب إلى الله. وقال أهل الحق: إن أفضل الأعمال ما يكون الطالب بسبب الاشتغال به معرضاً عن غير الحق سبحانه وتعالى.

* رشحة: قال في بيان كون الصحبة مع الأجانب والأغيار موجبة لفتور النسبة: وقع يوماً فتوراً على وقت الشيخ أبي يزيد البسطامي قدّس سرّه فقال لأصحابه: قد دخل في مجلسنا هذا أجنبي قد طرأ عليّ فتور بسببه فالتمسوه. فقال الأصحاب بعد تفتيش بليغ: ليس في المجلس أجنبي. فقال: التمسوه من بيت

العصا. فالتمسوا منه فوجدوا عصا أجنبية فرموها بعيداً. فكان الشيخ واجداً لوقته في الحال وتبدّلت تفرقته بجمعية وانشراح البال وقال: وقع الفتور أيضاً يوماً على خواجة أحمد اليسوي قدّس سرّه فقال: إن في صحبتنا هذه أجنبياً قد انفلت حبل النسبة بواسطته. فوجدوا بعد تفحص كثير في صف النعال نعلاً أجنبية فرموها خارج الباب، فحصلت له الجمعية وصفاء الوقت في الحال وارتفعت عنه التفرقة وكدورة البال.

يقول المؤلف: قال بعض الأصحاب: لبس واحد من الأصحاب ثوباً أجنبياً وحضر في مجلس حضرة شيخنا وقت انعقاد الصحبة في السحر، فقال حضرة شيخنا بعد لحظة: إنه تجيء في هذا المجلس رائحة الأجنبي. ثم قال لصاحب ذلك الثوب: إن هذه الرائحة تجيء منك ولعلك لبست ثوباً أجنبياً!، فقام من المجلس وخرج ونزع ثوبه ثم عاد إلى المجلس.

* رشحة: قال: إن تأثر الجمادات من أعمال الناس وأخلاقهم أمر مقرر عند أرباب التحقيق، وللشيخ محيي الدين بن عربي قدّس سرّه تحقيقات كثيرة في هذا الباب. ويبلغ تأثر الجمادات حدّاً وغاية إن أدّى شخص مثلاً الصلاة التي هي أفضل العبادات في محل تأثر من قبائح أعمال الفسّاق وأخلاقهم الغير المرضية لا تساوي قيمتها وحالها حال عمل وقيمته كان أدون منها رتبة لكونه مؤدى في موضع متأثر من جمعية أرباب الجمعية، ولهذا تساوي الركعتان اللتان أديتا في حرم مكة شرّفها الله مائة ألف ركعة أديت في غيره.

* رشحة: قال: إن العمل بمضمون هذين البيتين المنسوبين لحضرة عزيزان من اللوازم لطالب هذه النسبة: [شعر]

إذا لم تجد جمعية من مصاحب ... ولم تك تنجو من هموم المصائب
فإن أنت لم تترك لقاءه تبرّياً ... فأنت إذاً يا صاح لست بصائب

* رشحة: قال: قال الشيخ أبو طالب المكي قدّس سرّه: اجتهد حتى لا يبقى فيك مقتضى ومتمنى غير الحق سبحانه، فإن كنت كذلك فقد تم أمرك. فإن لم يظهر فيك شيء من الأحوال والمواجيد والكرامات فلا غم ولا ضير.

* رشحة: قال: صار التوحيد في هذا الزمان أن يذهب الإنسان إلى الأسواق وينظر إلى وجوه المردان ويقول: أنا أشاهد جمال الحق وحسنه تعالى، نعوذ بالله

من تلك المشاهدة. ثم قال: لما قدم السيد قاسم التبريزي قدّس سرّه هذه الولاية طفق جمع من مريديه يطوفون في الأزقة والأسواق ويحصلون المردان ويتعلقون بهم ويقولون: نحن نشاهد جمال الحق سبحانه في الصورة الجميلة. وكان حضرة السيد يقول أحياناً: إن خنازيرنا هذه أين ذهبوا؟ فظهر من كلامه هذا أن تلك الطائفة كانوا يظهرون في نظر بصيرته في صورة الخنازير.

* **رشحة**: قال: كثيراً ما يورد مشايخ الطريقة قدّس الله أرواحهم في اصطلاحاتهم لفظ: الشاهد والمفتون بالشاهد، فخبط فيه بعضهم بحله على معنى غير صحيح وأخطأ خطأ بيّناً حيث قال: إن المراد بالشاهد: الصورة الجميلة، وبالمفتون بالشاهد: طائفة يحافظون على رابطة العشق والمحبة لمظاهر جميلة.

ثم قال: إن هذه النسبة مذمومة غاية الذم وفيها خطر عظيم ومدخل للنفس.

قال واحد من الأكابر: سلمنا أنه لا مدخل للنفس في مشاهدة الشاهد الصوري أصلاً، لكن لا نسلم أنه لم يبق فيه حظ روحاني ولا مجال للإنكار في بقائه، فكما أن تجاوز اللذات النفسانية التي هي حجب ظلمانية واجب على السالك كذلك تجاوز الحظوظ الروحانية التي هي حجب نورانية لازم وواجب.

* **رشحة**: قال: قال أكابر الطريقة قدّس الله أرواحهم: أن كل مذمة ومسبة وقعت عليك من شخص ينبغي لك أن تعرف على الحقيقة بأنك موصوف بها ومستحق لإطلاق ذلك، مثلاً إذا قيل لك: يا كلب أو يا خنزير أو أمثالهما، فأيقن أن فيك حصة من صفات الكلب أو الخنزير أو غيرهما مما يطلقون عليك. وذلك فإن الإنسان نسخة جامعة، وكما أن فيه صفات ملكية كذلك هو غير خال عن الصفات السبعية والبهيمية.

كان واحد من الأكابر قاعداً عند سيد الطائفة الجنيد قدّس سرّه، فدخل عليه الشبلي، فمدحه هذا الشيخ في حضور الجنيد بمدائح كثيرة، فقال له الجنيد بعد إتمام كلامه: أكل هذه التعريفات والمدائح لهذا الخنزير؟! فصار الشيخ منفعلاً غاية الانفعال لإطلاق الجنيد لفظ الخنزير على الشبلي بسبب تعريفه ومدحه إياه، ولكن لم تحصل كراهة للشبلي أصلاً لا ظاهراً ولا باطناً ولم يطرأ عليه تغير أبداً.

* **رشحة**: قال: إن التصوّف ما قاله الشيخ الهروي قدّس سرّه: من أن التصوّف تربية مليّنة قد رشت عليها مويهة يسيرة فلا يقعد منها غبار على ظهر القدم

ولا يحصل منها في أخمص الرجل ألم. وخلاصة التصوُّف: تحمُّل الأثقال من الناس وكف ثقله عنهم صورة ومعنى.

* رشحة: قال: ينبغي للسالك أن يصبر على بلاء الله تعالى، بل ينبغي أن يشكر عليها. فإن لله تعالى بليات كثيرة بعضها أشد وأصعب من بعض. ثم قال: قال مولانا نظام الدين: كان بتاشكند أخوان توأمان، وكان ظهر كل منهما ملاصقاً لظهر الآخر من حين ولادتهما. ولما كبرا كان لسانهما جارياً بشكر الله تعالى، فسألهما واحد بأن هذا الحال الذي أنتما فيه ليس بحال الشكر فلأي شيء شكرتما؟ فقالا: نحن نعلم أن لله تعالى بليات كثيرة شديدة صعبة فنشكر على هذا الحال خوفاً من الابتلاء بأعظم منه. فمات أحدهما فقال الآخر: هذا هو البلاء الأكبر قد ظهر فإنه إن فصلوا هذا الميت عني يلزم أن أموت، وإن لم يفصلوه يلزمني حمل الميت إلى أن يتفسخ بدنه ويسقط.

قال: قال الشيخ أبو يزيد قدّس سرّه: تكلّمت مع الحق سبحانه مدة ثلاثين سنة وسمعت منه الكلام، وظن الخلق أني أكلمهم وأسمع منهم. ومعنى هذا الكلام: أن ما ظهر في المظهر ليس من المظهر.

* رشحة: قال: قال الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه: رأيت في مكة اثنين، أحدهما في غاية علو الهمة، والآخر في نهاية الخسة. أما خسيس الهمة: فقد رأيته في الطواف قد تعلّق بحلقة باب الكعبة يسأل الله سبحانه شيئاً غيره في مثل هذا المحل الشريف والوقت العزيز. وأما عالي الهمَّة: فرأيته في سوق منى، كان شاباً اتّجر فيه وحصل مقدار خمسين ألف دينار تقريباً ولم يغفل قلبه لحظة في تلك الفرصة عن الحق سبحانه حتى جاء الدم من باطني من الغيرة من هذا الغلام.

* رشحة: قال: كان الشيخ أبو يزيد يمشي مرة على طريق، فأقبل عليه كلب قد ابتلّت أعضاؤه فطوى ذيله تحفظاً منه، فقال له الكلب بلسان فصيح: يا أبا يزيد إن تنجس ذيلك لكان يطهر بالماء ولكن لما طويته تحفظاً مني واعتقدت نفسك أطهر مني فبأي ماء تقدر أن تغسله.

* رشحة: أطرق شخص رأسه مثل أهل المراقبة في مجلس حضرة شيخنا وأظهر نفسه مراقباً، فقال له حضرة شيخنا مغاضباً: قد أطرق شخص رأسه في صحبة مولانا نظام الدين عليه الرحمة، فقال له مولانا: ارفع رأسك قد أرى فيك

دخاناً يرتفع، أية مناسبة لك بالمراقبة؟ بل ينبغي لك أن تهيىء أحجار الاستنجاء سنين وأن تنظف بيت الخلاء من النجاسة حتى تكون أهلاً لأن يتكلم معك بكلام هذا الطريق، وأين المراقبة بعد؟!.

* **رشحة**: لما أذِنَ حضرة الشيخ للفقير بالرجوع إلى خراسان، قال: لما فارقت صحبة الخواجة علاء الدين الغجدواني عليه الرحمة قال لي: قدر في نفسك موضعاً لئلا تغفل عن نسبتك إلى هذا الموضع، مثلاً: إذا بلغت هذا الموضع المقدر قدر موضعاً آخر واثبت نفسك في النسبة إلى أن تصل فيه، وهذا من موضع إلى موضع، ومنزل إلى منزل حتى تحصل لك الملكة فيها.

* **رشحة**: قال: نقل عن سيد الطائفة الجنيد قدّس سرّه أنه قال: المريد الصادق من لا يكتب كاتب شماله شيئاً مدة عشرين سنة. وليس معنى هذا الكلام أن المريد الصادق يكون معصوماً لا تصدر عنه جريمة أصلاً في تلك المدة، بل المقصود أنه وإن صدرت عنه جريمة لكنه يتداركها قبل أن يكتب كاتب شماله ويدفعها عن نفسه بوجه من الوجوه.

* **رشحة**: قال: قال الخواجة عبد الخالق الغجدواني قدّس سرّه: ينبغي أن يتحمل الثقل عن الناس، وذلك لا يحصل إلا بكسب الحلال: اليد في الشغل، والقلب مع المحبوب، كلام مقرر في طريقة خواجكان قدّس الله أرواحهم.

* **رشحة**: قال: قال الخواجة محمد بن علي الحكيم الترمذي قدّس سرّه: إن لحياة القلب درجات، ولا تحصل حياة القلب إلا بالاقتصاد. والاقتصاد هو دوام الذكر في النوم واليقظة، والذكر في النوم: أن يرى السالك نفسه في المنام ذاكراً. وهذا الذكر الذي يراه في المنام لا يوجب الترقي عند الشيخ محيي الدين بن عربي وبعض آخر من المشايخ، فإن الترقي منوط بعمل ناشىء عن علم، وما يراه في النوم ليس من هذا القبيل.

* **رشحة**: قال: قال الخواجة محمد پارسا قدّس سرّه: إن المداومة على الذكر تبلغ مرتبة تتحد حقيقة الذكر مع جوهر القلب، ويحتمل أن يكون معنى هذا الكلام: أن حقيقة الذكر أمر منزّه عن الحروف والأصوات، وجوهر القلب عبارة عن لطيفة مدركة منزهة عن شائبة كم وكيف. فيحصل الاتحاد لهذه اللطيفة بهذا الأمر المنزّه عن الحروف والأصوات بواسطة كمال الاشتغال، ويظهر وصف الوحدة والواحدية

فلا يقدر الذاكر في هذا الحال أن يفرق ويميز بين جوهر القلب وحقيقة الذكر بسبب استيلاء المذكور وغلبته على مملكة القلب وارتباط القلب بالمذكور على وجه لم يبق فيه فكر غير المذكور ولا يسعه أصلاً.

• رشحة: قال: حضرت يوماً عند مولانا نظام الدين، وكانت له مباحثة علمية في ذلك الوقت مع جمع من الموالي اتفاقاً. فقعدت ساكتاً حتى فرغوا من المباحثة، ثم توجه مولانا إليّ وقال: هل الأفضل السكوت والاستماع أم الحديث والكلام؟ ثم قال: ننظر فإن كان ممن تخلص عن قيد الوجود فلا مانع له عن شيء يفعله ويختار، وإن كان ممن هو أسير في يد نفسه ومقيد بغل أنانيته فكل شيء يفعله فهو عيب وشين عليه. قال حضرة شيخنا: ما سمعت من مولانا نظام الدين كلاماً أحسن من هذا.

• رشحة: قال: سمعت مولانا نظام الدين عليه الرحمة يقول: يمكن لنا أن نبين الشريعة والطريقة والحقيقة في جميع الأشياء، فإن الكذب مثلاً منهي عنه، فمن حفظ لسانه منه بالمجاهدة والسعي على طريق الاستقامة بحيث لا يصدر عن لسانه باختياره وغير اختياره، فهذه شريعة. ولكن يمكن مع ذلك أن تكون في باطنه داعية الكذب، فالسعي والمجاهدة في دفع هذه الداعية عن باطنه طريقة، فإن كان بحيث لا يصدر عنه الكذب باختياره وبغير اختياره لا من قلبه ولا من لسانه فهذه حقيقة. وكان حضرة شيخنا ينقل عنه هذا الكلام في أكثر الأوقات ويستحسنه.

• رشحة: قال: قال حضرة الخواجة بهاء الدين النقشبند قدّس سرّه: قيل لي في بداية الجذبة: بأي وجه تدخل من هذا الباب؟ قلت: بشرط أن يحصل كل ما أريده. فبلغ سمعي: بل يحصل كل ما تريده، فقلت: لا طاقة لي بذلك. فتركوني بنفسي مدة خمسة عشر يوماً فصارت أحوالي كلها خراباً وصرت يابساً بالتمام. ولما بلغ الأمر حد اليأس، جاء الخطاب بأن: نعم يحصل كل ما تريده ويكون الأمر على وفق مرادك. قال حضرة شيخنا: إن المكتوب في مقامات خواجة بهاء الدين قدّس سرّه هو هذا القدر، لكن نقل مولانا يعقوب الكرخي عن حضرة الخواجة قدّس سرّهما: أنه لما وصل خطاب: نعم يحصل كل ما تريد، اخترت طريقة تكون موصلة البتة.

• رشحة: قال حضرة شيخنا يوماً غَضِباً على جمع من الأصحاب: أنتم لا

تقدرون على حمل هذا الثقل، فإن هذه الطريقة في غاية الدقة. فإن ترك مراد النفس والقيام بمراد الغير أمر عظيم لا يحصل منكم هذا الأمر. فإن قلت لكم مثلاً: اذهبوا وارعوا الخنازير واعبدوا الأصنام لتحكمون عليّ بالكفر في الحال، وليس هذا الأمر مناسباً لشأنكم، أين أنتم وأين هذه الطريقة؟. ثم قال: تكلم يوماً اثنان من الموالي الكائنين في خدمة خواجة بهاء الدين النقشبند في منزله المهيّأ للمسافرين في مسألة الإيمان وأكثرا فيها من القيل والقال، فسمع حضرة الخواجة مكالمتهما وخرج إليهما وقال: إن أردتما صحبتنا ينبغي لكما أن لا تشتغلا بالإيمان. فاضطربا من هذا الكلام غاية الاضطراب، وكانا على ذلك الاضطراب مدة ثم ظهر لهما معنى هذا الكلام.

* رشحة: قال حضرة شيخنا يوماً خطاباً لواحد من الأصحاب: إذا حصلت لك نسبة في صحبة خواجة بهاء الدين مثلاً، ثم وقعت في صحبة شيخ آخر ووجدت منه هذه النسبة أيضاً، فماذا تصنع؟ أتترك صحبة خواجة بهاء الدين أم لا؟! ثم قال: إذا وجدت هذه النسبة من كل مكان ينبغي لك أن تعتقد أنها أيضاً من خواجة بهاء الدين.

* رشحة: قال: وقع واحد من مريدي قطب الدين حيدر في رباط الشيخ شهاب الدين السهروردي، وكان جائعاً، فقلب وجهه نحو قرية شيخه وقال: شيئاً لله يا قطب الدين حيدر. فاطلع الشيخ شهاب الدين على حاله وأمر خادمه أن يحمل الطعام إليه. ولما فرغ الدرويش من الطعام جعل وجهه أيضاً إلى جانب قرية شيخه وقال: شيئاً لله يا قطب الدين حيدر لا تحرمنا من بركاتك أصلاً ولا تنسانا حيث ما كنا. ولما جاء الخادم عند الشيخ سأله الشيخ: كيف وجدت هذا الدرويش؟ قال: أبله يأكل طعامك ويشكر قطب الدين حيدر. فقال: ينبغي أن تتعلم المريدية منه حيث يعتقد كل فائدة حصلت أنها من شيخه ظاهراً أو باطناً من أي مكان جاءت تلك الفائدة.

* رشحة: وقال في سياق هذا الكلام: إذا وجد المريد الصادق شيخاً أكمل من شيخه يجوز له أن ينقطع عن الشيخ الكامل ويتصل بالشيخ الأكمل. وقال: قال الشيخ أبو عثمان الحيري قدّس سرّه: كنت متمنياً من قلبي الاحتظاظ بمواجيد هذه الطائفة وأذواقهم في مبادي الحال دائماً، فوصلت إلى مجلس وعظ يحيى بن معاذ

الرازي اتفاقاً، فاطمئن قلبي هناك، فكنت في ملازمته مدة. ثم وقعت بعد ذلك في صحبة شاه شجاع الكرماني، ولما حضرت عنده طردني عن مجلسه وقال: إنه صاحب أمل لا يجيء منه شيء. فقلت في نفسي: هذا رأسي وهذه عتبة فلا أرفع رأسي عنها أبداً. فأذن لي بحضور صحبته بعد مدة، فكنت في ملازمته زماناً. ثم توجه الشيخ في تلك الأثناء لزيارة الشيخ أبي حفص الحداد قدّس سرّه ورافقته فيه، ولما وصلت إلى صحبته أخذني عني بالتمام ولكن لم أقدر أن أقول لشاه شجاع: أنا أكون هنا. ولما تهيّأنا للرجوع قال الشيخ أبو حفص لشاه شجاع: أن لي مع هذا الغلام الحيري لأمراً فاتركه عندي. فتركني عنده وذهب، فتمَّ أمري في صحبة أبي حفص وخدمته.

• رشحة: قال: وصل واحد من الأكابر إلى باب مسجد ورأى الشيطان خارجاً من هذا المسجد متحيّراً، فنظر الشيخ إلى داخل المسجد فرأى فيه رجلاً يصلي ورجلاً ينام في قربه. ثم قال للشيطان: ما جاء بك هنا يا ملعون؟ فقال اللعين: أردت أن أفسد صلاة هذا المصلي ولكن لم تتركني هيبة هذا النائم وجلالته لأن أوسوس فيه، فخفت منه ووليت هارباً.

• رشحة: قال: قال السيد قاسم التبريزي قدّس سرّه: كنت يوماً في مجلس مولانا زين الدين أبي بكر التايبادي عليه الرحمة، وكان في مجلسه شخص من مريدي بعض المشايخ. فسأله مولانا: أيهما أحب عندك، شيخك أو الإمام الأعظم أبو حنيفة رضي الله عنه؟ فقال المريد: شيخي أحب إليَّ من الإمام أبي حنيفة. فغضب عليه مولانا غاية الغضب حتى قال له: يا كلب، وقام من المجلس ودخل بيته. وبقيت قاعداً في المجلس، ثم خرج بعد لحظة وقال: غضبت على ذلك الرجل وسببته في وجهه! قم نذهب عنده ونعتذر إليه. فذهبت معه فأقبل هذا الرجل علينا في الطريق وقال: جئت للاعتذار وأريد أن أعرض عليكم عذري، وهو أني كنت على مذهب الإمام الأعظم سنين كثيرة ولم تنقص مني في تلك المدة صفة من الصفات المذمومة، وكنت في صحبة شيخي أياماً يسيرة فتخلصت من جميع الصفات المذمومة، فما المانع إن أحببت مثل هذا الشخص أشد من الإمام الأعظم! فإن ذكروا في الكتب أن هذه المحبة مذمومة ومنهي عنها فقد رجعت عنها. فاعتذر إليه مولانا اعتذاراً كثيراً واستحسن جوابه.

• رشحة: قال: ذهبنا مرة مع مولانا سعد الدين الكاشغري إلى ملازمة الشيخ بهاء الدين عمر قدّس سرّهما، فقال مولانا سعد الدين في أثناء الطريق: أتمنى أن ألقى قطباً يتصرف في باطننا ويخلصنا عن أسر نفوسنا. وصدر كلمات كثيرة أمثال هذا. ولما وصلنا إلى صحبة الشيخ بهاء الدين عمر وجلست عنده، توجه مولانا سعد الدين وقال: ما تبتغي من تصرف القطب! فإن تصرفات هؤلاء الطائفة لا تزيد على رفع بعض الحجب والموانع التي عرضت لاستعداد طالب ببركة صحبتهم وتأثيرها، فيكون ذلك الاستعداد قابلاً لكيفية بعد ارتفاع الموانع عنه ويجد السالك الأمر الذي هو مقصوده من استعداد نفسه. قال حضرة شيخنا: لم يفهم الشيخ عمر قدّس سرّه من هذا الكلام مقصود مولانا سعد الدين، فإن مقصوده كان شيئاً آخر وهو: أن في طريقة أكابر النقشبندية تصرفاً بأن يتوجه المرشد بقلبه إلى باطن الطالب ويحصل لباطن الطالب ارتباط واتصال بقلب المرشد من طريق هذا التوجه، ويقع اتحاد بين قلبه وبين باطن هذا الطالب بواسطة ذلك الارتباط والاتصال، وتشرق في قلب الطالب أشعة من شمس قلبه بطريق الانعكاس. وتلك الصفة ناشئة عن استعداد المشائخ، ظهرت في مرآة استعداد الطالب بطريق الانعكاس. فلا ينبغي أن يبتغي مثل هذا الأمر عن استعداد نفسه ولكن إن كان هذا الاتصال والارتباط متصلاً ومستداماً تحصل صفة الدوام لما كان حاصلاً بطريق الانعكاس. وكان مطلوب مولانا سعد الدين مثل هذا الأمر الذي يحصل من خارج استعداد نفسه لا ظهور ما في استعداده.

• رشحة: يقول راقم هذه الحروف: قال بعض المحققين: إن كل واحد من الأعيان الثابتة التي صارت موجودة خارجية كان مظهر الاسم خاص، خصوصاً الملائكة الذين مرجعهم هذا الاسم الذي كانوا مظاهراً له، ويكون حضورهم ولذاتهم من هذا الاسم، ولا يجاوزون هذا الاسم أبداً إلى اسم آخر. وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۝﴾ [الصافات: الآية ١٦٤] ينبيء عن هذا المعنى بخلاف الإنسان، فإنه لما كانت له ظلمة الظلم والجهل تباعد عن الخصوصية الإنسانية وتجاوز خصوصيته وتشخصه وتعينه وتوجه بكليته إلى أمر آخر وراء خصوصيته وتعينه، فصار من هذه الحيثية حاملاً لثقل أمانة الحقيقة ونائلاً لأمر لا نهاية له، خارجاً عن دائرة الاستعداد البشري والتعين الإنساني.

• رشحة: قال: قال الشيخ نجم الدين داية عليه الرحمة صاحب «بحر الحقائق»: يا أسفاً لم يعرف أحد قدر صحبة أولياء الله وكذلك لا يعرفون.

• رشحة: قال: قال الشيخ أبو القاسم الجرجاني قدّس سرّه: ينبغي أن تجالس شخصاً تكون بكليتك إياه أو يكون بكليته إياك، أو تكونان فانيين وممحوين في الله بحيث لا تبقى أنت ولا يبقى هو.

• رشحة: وقع مرة على خاطر شخص في مجلس حضرة شيخنا: أن ليت حضرة شيخنا يتصرف في باطني. فأشرف شيخنا على خاطره، وقال: إن كمال التصرف يقع في وقت أكون أنا إياك، أو تكون أنت إياي. ثم قال ما قاله الشيخ الهروي: إن عبد الله كان رجلاً بدوياً، فذهب لطلب ماء الحياة، فوصل إلى الخرقاني فوجد فيه عين ماء الحياة فشرب منه حتى لم يبق هو ولا الخرقاني.

• رشحة: قال: نقل عن الشيخ أبي سعيد أبي الخير أنه قال: تكلم في ماهية التصرف سبعمائة شخص من مشائخ الطريقة قدّس الله أرواحهم، وأتم الأقوال وأحسنها في هذا الباب هو: أن التصوّف صرف الوقت لما هو أولى به.

• رشحة: قال: كان الشيخ أبو سعيد يقول لأصحابه: لا تجيئوا عندي بلحم قديد بل بلحم جديد. قال الشيخ محيي الدين بن عربي قدّس سرّه: إن مقصود الشيخ أبي سعيد من هذا الكلام تعليم الهمة لأصحابه، يعني: لا تجيئوا عندي بأسرار الناس وحقائقهم ومعارفهم، بل احضروا عندي بشيء خاص بكم ظاهر من منصة قلوبكم.

• رشحة: قال: كان سيد الطائفة الجنيد قدّس سرّه يتكلم في الحقائق والمعارف بالاحتياط، فصدر عنه يوماً معارف عالية وحقائق سامية بلا اختيار منه، وقد علم أن ليس لأهل المجلس استعداد لإدراك هذه المعارف. فقال لأصحابه: التمسوا لعل في قرب هذا المجلس شخص جذب استعداده وقابليته هذه الحقائق!. فوجدوا بعد تفحص بليغ الحسين بن منصور الحلاج قاعداً على زاوية، جاعلاً رأسه في جيبه. وكان الجنيد لا يتكلم عنده بحقائق عالية لما ظهر له أنه سيفشي هذه الأسرار يوماً، فأمر بإخراجه عن هذا المجلس.

• رشحة: قال: قال مولانا نظام الدين: المشيخة هي أن يقدر الإنسان أن

يجمل نفسه بجمال في نظر المريدين، فإنه متى لم يوجد الجمال لا تتقوى رابطة المريد بمراد وجه المحبة التي هي موجبة للجذبة والتصرف. وقد علمت ذلك بتدبير العقل وتجربته ولكن لا وقت لي لأن أتكلف دائماً وأظهر نفسي بالجمال حتى لا يقع فتور على عقائد الناس وعلاقتهم، ولهذا سن تسريح اللحية وتحسين تكوير العمامة وتنظيف الثياب وغيرها مما يترتب عليه تحسين الظاهر.

* رشحة: قال: قال مولانا يعقوب الكرخي قدّس سرّه: رأيت في ترمذ شيخاً كانت له مبالغة وغلو في القول بلزوم الشيخ، وكان يقول: لا يتجاوز المريد عن مقام بلا شيخ. فقلت له: إن المفهوم من قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: الآية ٣] كفاية العمل بموجب الكتاب والسنّة في الترقّي وعدم لزوم شيخ مقتداً في الظاهر. فحصر الشيخ عن الجواب، فعرضت ذلك على حضرة الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه فاستحسنه وتلقاه بالقبول.

* رشحة: قال يوماً بالتقريب في بيان تعظيم السادات وتوقيرهم: لا يطيب قلبي لأن أكون في ديار فيها سادات فإن حرمتهم وشرافتهم كثيراً جداً ولا أقدر أن أقوم بحق تعظيمهم. ثم قال: قام الإمام الأعظم رضي الله عنه يوماً في أثناء مجلس درسه على قدميه مرات ولم يعلم أحد سبب قيامه، فسأله عن ذلك واحد من تلامذته، فقال: إن طفلاً من السادات العلوية يلعب في صحن المدرسة مع الأطفال وكلما يجيء في مقابلة الباب ويقع عليه نظري أقوم تعظيماً له.

* رشحة: قال: قلت يوماً لواحد من أكابر سمرقند: إنه إذا رأى شخص في المنام أن الحق سبحانه قد مات فما يكون تعبيره؟ قال: قال الأكابر: إنه إذا رأى أحد موت النبي ﷺ في المنام فتعبيره وقوع القصور والفتور في تشرع صاحب الواقعة، وكأنه رأى في منامه موت صورة الشريعة، وهذه الرؤيا أيضاً مشابهة لتلك. قال حضرة شيخنا: يمكن أن يكون تعبيره على وجه آخر وهو: أنه قد يكون لصاحب الرؤيا حضور بالله فيزول هذا الحضور ويتطرق إليه الغفلة والفتور، فيكون تعبير هذه الرؤيا انعدام نسبة هذا الحضور والشهود.

يقول راقم هذه الحروف: قد عبّر مولانا عبد الرحمٰن الجامي قدّس سرّه هذه الرؤيا بتعبير آخر وقال: يحتمل أن يكون قد زال من قلب صاحب هذه الواقعة وانعدم شيء من أهوائه التي كان يتخذها إلٰهاً بموجب قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ

إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: الآية ٤٣] فتكون رؤية موته تعالى انعدام ذلك الهوى واضمحلاله، فعلى هذا تكون تلك الواقعة دليلاً على زيادة حضوره.

* رشحة: قال: إن كشف القبور عبارة عن تمثل روح صاحب القبر بصورة مناسبة لصورته المثالية، فيراه صاحب الكشف في تلك الصورة بعين بصيرته. لكن لما كانت في الشياطين قوة التمثل والتشكل بصور مختلفة وأشكال متنوعة لم تعتبر أكابر النقشبندية قدّس الله أسرارهم هذا الكشف، وطريقتهم في زيارة أصحاب القبور، واطلاع أحوالهم أنهم إذا وصلوا إلى قبر واحد من الأكابر يخلون أنفسهم عن جميع النسب والكيفيات، ويجلسون منتظرين لظهور نسبة، فيعلمون من تلك النسبة حال صاحب القبر وطريقتهم في صحبة شخص أجنبي أيضاً، كذلك فإذا جاء عندهم شخص ينظرون إلى بواطنهم فما ظهر فيها بعد مجيء هذا الشخص يرون أنه منه وليس لهم دخل فيه فيتعاملون معه بمقتضى ذلك من اللطف والقهر. وقال الشيخ محيي الدين بن عربي قدّس سرّه لمثل هذا الظهور: تجلي المقابلة، وظهور هذا المعنى إنما هو بواسطة صفاء بواطنهم المنورة وجلائها، ولطهارة مرآة نفوس حقائقهم عن النقوش الكونية، بحيث لم يبق فيها غير التجلي الذاتي بسبب كمال محاذاتها للذات المنزهة عن الكم والكيف. فمتى خليت قلوبهم وطبعها لا يظهر فيها غير الأمر المنزه عن الكم والكيف، فما يظهر في بواطنهم غير ذلك لا يكون منهم بل من انعكاسه في مرآة قلوبهم بواسطة تقابل شخص هو له.

وقال مؤيداً لهذا المعنى: قال مولانا نظام الدين خاموش عليه الرحمة يوماً: قم بنا نزور اليوم مقابر شاش. فذهبت في خدمته، فقعد عند قبر زماناً ثم قام بكيفية عظيمة وقال: قد كانت نسبة الجذبة غالبة على صاحب هذا القبر، وكان هذا القبر قبر الخواجة إبراهيم كيماكرو، كان من مجاذيب زمانه. ثم جاء عند قبر آخر وتوقف فيه لحظة ثم خرج منه وقال: كانت النسبة العلمية غالبة على صاحب هذا القبر، وكان ذلك قبر الشيخ زين الدين كوي عارفان، وكان من العلماء الربانيين.

* رشحة: قال: قد تقرر عند أهل التحقيق أن الترقي واقع بعد الموت، وكلام الشيخ محيي الدين بن عربي ناظر لهذا حيث قال: اجتمعت مرة في تجل من التجليات مع أبي الحسن النوري فقبلني وصار رياناً مني، فقلت له: ألم تقل إن عطشان التوحيد لا يروى من الغير؟ فخجل، فقلت: من أخذ عن العالي لا يقال إنه

أخذ عن الغير. ولأرباب التحقيق كلام كثير غير هذا يدل على الترقّي بعد الموت.

يقول راقم الحروف: قال الشيخ محيي الدين بن عربي قدّس سرّه في بعض مواضع «الفتوحات»: إن أحد نفاة الترقي بعد الموت الشيخ أبو الحسن النوري، ولا يخلو حاله بعد الموت عن أحد الأمرين: إما أن يعلم يقيناً أن الترقي واقع أو يعلم أنه غير واقع. فإن كان الأول ثبت المدعي، وإن كان الثاني فهذا علم آخر حصل له بعد الموت. فالترقي بعد الموت حاصل على كل حال.

* رشحة: قال يوماً في صفحة الفقر: خاطب الحق سبحانه الغوث الأعظم بهذا الخطاب: يا غوث الأعظم، مر أصحابك باختيار الفقر ثم بالفقر عن الفقر، فإذا تم فقرهم فلا هم إلا أنا.

* رشحة: قال: قال بعض أكابر الطريقة قدّس الله أسرارهم: اجتهد في أن لا تحمل عملك إلى القبر. ولعل معنى هذا الكلام: أنه ينبغي أن يعلم أن شيئاً من عملك ليس بمسند إليك، بل هو قائم بتوفيق الله تعالى.

* رشحة: قال: ومن كلام بعض الأكابر: أن الله تعالى يميز نفسه في مرتبة الواحدية إن أراد. ومعنى هذا الكلام: أنه تعالى يعطي الإنسان علماً واستعداداً خاصاً من عنده في مرتبة حقائق المجردات الإنسانية التي هي عبارة عن مرتبة الواحدية عند البعض، فيعرفه الإنسان بذلك العلم والاستعداد الخاص. ولما لم يمكن معرفته تعالى بغير علمه تعالى، فلا يكون العارف به تعالى غيره تعالى.

* رشحة: قال: عرض ليلة لخواجة باقي ألم فلم ينم في تلك الليلة ولم أنم أيضاً من ألمه. ثم قال: ينبغي لمن له علاقة بشخص أن يتألم ويتأثر من ألمه، بل ينبغي للإنسان أن يتأثر من كل ألم واقع على كل شيء. وقد ضربوا يوماً حماراً في محضر من أبي يزيد بعصا حتى سال الدم من ضلوعه، فسال الدم من ضلع أبي يزيد. وفي هذا الكلام الذي قاله حضرة شيخنا إشارة إلى التحقق بمقام الجمع، وقد ذكر هذا المقام عند ذكر مولانا نور الدين عبد الرحمٰن الجامي قدّس سرّه في بيان ملاقاته بمولانا شمس الدين محمد أسد في ضمن رشحة.

* رشحة: قال: كنت مرة في مجلس الشيخ بهاء الدين عمر قدّس سرّه فقال له شخص: إنه قال بعض المحققين في أوائل حاله: إن الممكن عين الواجب، ثم رجع عن هذا الكلام أخيراً، وقال: بل الواجب عين الممكن، فما وجه ذلك؟ قال الشيخ

في جوابه: إنه قال كلامه الأول في حال عدم استقامته، وقال كلامه الآخر في حال استقامته. ثم قال حضرة شيخنا خطاباً لحضَّار المجلس: إنه ما الفرق بين الكلامين؟ فلم يتجاسر أحد في الجواب ولم يقولوا شيئاً، ولم يقل حضرة شيخنا أيضاً فيه شيئاً لحضور جمع من الأمراء الترخانية عنده.

* * *

الفصل الثالث

في بيان كلماته الخاصة التي جرت على لسانه من كل باب وما صدر عنه في اثناء الصحبة من المخاطبات لأهل البداية والنهاية

ونوردها في ضمن مائة وعشرين رشحة:

* **رشحة:** قال: سألني الشيخ بهاء الدين عمر قدّس سرّه: إنه هل الأفضل في حق المبتدىء السفر أم الإقامة؟ قلت: لا يحصل للمبتدىء شيء من السفر غير تفرقة القلب. ثم قال حضرة شيخنا: إن السفر يجوز لمن حصلت له صفة التمكين، ولا يناسب للمبتدىء في اعتقادنا، بل اللائق بحاله واللازم له أن يكتسب صفة التمكين قاعداً في زاوية، بل اللازم لمن يشتغل بهذه الطريقة كونه في بلده، فإن خوف تشنيع أقربائه وأحبائه والحياء عن الناس يمنعه عن العمل بخلاف الشريعة، وارتكاب الأفعال الغير المرضية. وذهب بعض المشائخ إلى خلاف ذلك، وقال: ينبغي للمبتدىء أن يسافر ليتخلص عن بعض العادات والرسوم والمألوفات الطبيعية بسبب مهاجرة الأوطان ومفارقة الإخوان، وليحصل له بعض التزكية والتصفية بواسطة الرياضات والمجاهدات التي هي من لوازم السفر. أما معتقد أكابر النقشبندية قدّس سرّهم في باب الإقامة والسفر: لزوم السفر للمبتدىء إلى أن يوصل نفسه إلى صحبة واحد من هذه الطائفة، ثم يلزمه بعد ذلك الإقامة عنده والتزام صحبته، والمداومة على خدمته، والاشتغال بكمال الاجتهاد إلى أن تحصل له ملكة نسبة هذه الأكابر. وتكون تلك النسبة ملكه، فإن وجد في بلده شخص من هذه الطائفة فلا يفارق صحبته ولا يسافر إلى طرف ما البتة. فإن فعل شيئاً خلاف ذلك فهو مضيع لوقته.

* رشحة: قال: سافر الشيخ أبو يزيد قدّس سرّه في بداية أمره من بسطام إلى بلد آخر لصحبة واحد من أكابر وقته، فقال له ذلك الشيخ: ارجع إلى بلدك، فقد تركت المقصود فيه. فرجع وكانت له أم مسنّة ضعيفة، فقام بخدمتها وطلب رضاها، فحصل مقصوده منها. وأوّل الشيخ محيي الدين بن عربي قدّس سرّه هذا الكلام

وقال: كانت إشارة هذا الشيخ إليَّ أن ما هو المقصود الحقيقي محيط بجميع الأزمنة والأمكنة لا تختص إحاطته بمكان دون مكان. فنبّه أبا يزيد على هذا السر وأن لا حاجة إلى قطع المسافة في طلبه أصلاً.

* رشحة: قال: ينبغي للسالك أن يلتزم طريق المذلة والمسكنة لتحصيل الفناء والاضمحلال حتى يرى جمال الشاهد اللاهوتي في مرآة انعدامه.

* رشحة: قال: كل طالب لا يطيب قلبه من شماتة الناس وشتمهم لا تصل إلى مشام روحه رائحة من معاني الرجال، فإنه قد تقرر عند أهل التحقيق أن لا فاعل في الوجود إلا الله، فكل ما وصل من المحبوب من شماتة ومذلّة ينبغي للمحب أن يعده من رأس مال سروره ومستوجباً لحضوره.

* رشحة: قال: كل من تكلم في حق شخص بكلام في تنقيصه لا يلائم ذلك في قلب المقول عليه البتة، فإن الإنسان مجبول على التأثر والتنافر عن نسبة النقصان إليه، والحق إبعاد ذلك التأثر والتنافر. وذلك لا يتيسر بدون الرجوع إلى الحق سبحانه لا بالذكر ولا بالمراقبة، والسلوك عند أرباب الطريقة معتبر بهذا.

* رشحة: قال: يقول أصحابنا دائماً: يا سبُّوح يا قدُّوس، فإن تكلم فيهم أحد بما يلائم طبعهم يتغيّرون ويتأثرون منه، فإن أبعدوا عن أنفسهم هذا التغير والتأثر لكان أولى وأفضل من قولهم: يا سبُّوح يا قدُّوس.

* رشحة: قال: لا شيء في تصفية الحقيقة الإنسانية وتطهيرها مثل البلاء والمحنة، وهما رافعتان للحجب الظلمانية الكثيفة بالخاصية. ومضمون قوله ﷺ: «إن أشد البلاء على الأنبياء ثم على الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل»[(1)] ناظر إلى هذا المعنى، وأنا معتقد لذلك ولا أحد يعتقده من أصحابي.

* رشحة: قال: إذا مشى صاحب وجد وحال في طريق وفيه كلب نائم فأقامه عن الطريق ليمر منه بسهولة ثم نظر إلى نفسه ووجد الوجد والحال باقيين على

(١) لفظه عند الحاكم في المستدرك: عن مصعب بن سعد، عن أبيه، قال: سأل النبي ﷺ أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فإذا كان الرجل صلب الدين يُبتلى الرجل على قدر دينه فمن ثخن دينه ثخن بلاؤه، ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه». كتاب الإيمان، حديث رقم (١٢٠) [١/ ٩٩] وورد بألفاظ أخرى متقاربة، وعند الحاكم وعند غيره.

حالهما، فليعلم أنه مكر من الحق سبحانه عليه واستدراج منه إليه، حيث لم يأخذ منه الوجد والحال مع ارتكابه لهذا الفعل الشنيع.

* **رشحة**: قال: إن المكر الإلٰهي على نوعين: نوع بالنسبة إلى العوام. ونوع بالنسبة إلى الخواص. فأما الذي هو بالنسبة إلى العوام: فهو إرداف النعمة مع التقصير في الخدمة. وأما الذي هو بالنسبة إلى الخواص فهو: إبقاء الحال مع ترك الأدب في الأفعال.

* **رشحة**: قال: ينبغي لمن يجتهد في تحصيل النسبة النقشبندية أن يكون شغله على وجه إذا نازع وجادل شركاءه لسقي الزرع مثلاً، وبلغ جدالهم حد المضاربة، وشج رأسه وسال دمه على وجهه مثلاً، لا تكون في قلبه كدورة وكراهة أصلاً بل يظهر منه النزاع حين يظهر بحسب الظاهر فقط، ويكون من باطنه مسروراً ومنشرح الصدر من أذى الناس وجفائهم، ويعذرهم في ذلك، ولا يذهل عن نسبته بما صدر عنهم ولا ينقطع قلبه عن الله سبحانه.

* **رشحة**: قال: إن الله تعالى متوجه إلى جميع الموجودات بدوام التجلي الاتحادي، فالذي يقعد في زاوية باختياره ويسميه خلوة وعزلة ليس له عذر أصلاً، فإن عد مثل هذا التجلي العظيم الشأن باطلاً فهو جاهل غاية الجهل. وإن اعتقد أنه حق فلم لا يقوم بحقه ولا يشتغل بشيء من طرقه. فأما الذين تشرفوا بشرف الاستغراق في لجة بحر الجمع وصاروا بحيث لا يقدرون على الاشتغال بشواغل كونية، فهو أمر آخر.

* **رشحة**: قال: إن السر في ظهور النسبة النقشبندية في ملاء ومواطن تفرقة أكثر من ظهورها في خلوة ومواضع جمعية، هو أن هذه النسبة محبوبة ومن عادة المحبوب الاحتجاب حين دعي إلى الخلوة.

* **رشحة**: قال: إن لطافة هذه النسبة على وجه يكون نفس التوجه إليها مانعاً عن ظهورها، كما أن هذا المعنى ظاهر في المظاهر الجميلة، فإنهم إذا توجه المحبون إليهم بإمعان النظر يحتجبون في حينه.

* **رشحة**: قال: إن لطافة هذه النسبة على وجه إذا قال صاحبها لكلب: هي من غير ضرورة تغيب في الحال.

* رشحة: قال: الأشياء تتبين بضدها، والشغل بالحق غير الشغل بالخلق. ولما كان في كل شيء استكراه من ضده ينجذب مما يكره إلى ما يحب، ولهذا ترى أهل هذه السلسلة ربما يمشون في الأسواق ومواضع ازدحام الخلق ويقعدون فيها لتنجذب قلوبهم إلى الحق سبحانه بواسطة ضدية الخلق والاستكراه من شغلهم.

* رشحة: قال: إن صحبة أهل هذه النسبة بغير هؤلاء الطائفة الذين غلبت عليهم هذه النسبة في بداية حالهم سبب لفتور عظيم في النسبة، ولو كان من أهل الزهد والتقوى - وهذا الكلام ليس بإنكار للزهد والتقوى - فإنهما في غاية الصفاء والنورانية، ولكن لما كان الغالب على أهلهما نسبتهما تحصل تلك النسبة في صحبتهم لأهل نسبة هؤلاء الطائفة أيضاً فيبقى خالياً عن نسبة هؤلاء الطائفة التي هي فوق جميع النسب. فإن الحكم للغالب، فإن كان حال صحبة أهل الزهد والتقوى كذلك، فما ظنك في تأثير صحبة الأشقياء والأجانب وفيما يحصل منهم من النسب الظلمانية.

* رشحة: قال: جالسوا جماعة لا يغلبون عليكم ولا يأكلونكم، يعني: لا يكونون أقوى منكم بحسب النفس والهوى، ولا يضيعون أوقاتكم ولا يفوتونها، فإن من ضاع وقته وفات فقد ضاع هو بنفسه ومات.

* رشحة: قال: من وقعت في قلبه دغدغة هذه الطريقة وشوّش خاطره في ذلك الأثناء دغدغة التأهل، ينبغي له أن يستكثر من الاستغفار، فإن لم تندفع بذلك فليختر مكاناً بعيداً عن طائفة النسوان، فإن لم ترتفع بذلك فليداوم مدة على الصيام وتقليل الطعام وليعالج نفسه لتسكين قوته الشهوية، فإن لم تندفع بذلك فليطف في أطراف المقابر وليعتبر بالأموات وليستمد من أرواح الأكابر، فإن لم يتخلص عنها بذلك فليطف فيما بين الأحياء، وليستعن من بواطن أرباب القلوب، وليخدمهم فلعلهم يدفعون ثقلها ويرفعونها عنه ولا يضيعونه تحت أثقالها.

* رشحة: قال: إن التزوج مناسب للأنبياء والأولياء، فإنهم لا يحتجبون عن الحق سبحانه مع وجود ذلك. وأيضاً هو مناسب للعوام كالأنعام، فإنهم يكملون به المرتبة الحيوانية. وأما المتوسطون بين مرتبة الأولياء والعوام، وفيهم تمني الطريقة، فلا يناسب لهم التزوج أصلاً. فإن خروج نفس واحد مع الحضور بالله أفضل من ألف نفس من الأولاد فإن فيه ألوفاً من الفائدة والنفع وفي الأولاد ألوف من الفتنة والضرر.

* رشحة: قال: إن أعطيت خمسمائة سنة من العمر فرضاً وأصرف جميع ذلك

في الاستغفار لا أقدر بذلك على تدارك ذنب صدر عني، وذلك الذنب هو التزوج.

* رشحة: قال المؤلف رحمه الله: فإن خطر على قلب شخص أن التزوج سنة محمودة وردت في مدحه آيات قرآنية وأحاديث نبوية صحيحة، فكيف يصح نفيه ذلك؟ فالجواب: إن النفي هنا ليس على إطلاقه، بل هو بالنسبة إلى بعض الأشخاص اللائق بحالهم التجرد الظاهري والباطني. ولا يخفى أن ما هو مناسب لحال الطالبين وشأن المريدين بالنسبة إلى كل زمان يجري على لسان الأولياء أهل الإرشاد لكونهم من ورثة العلوم الخاصة المحمدية على مصدرها الصلاة والسلام والتحية. ولما كان المناسب لمبتدئي الطريق في هذا الزمان طريقة التجرد وشيمة التفرد، فلا جرم أشار حضرة شيخنا الذي هو الحكيم الإلٰهي وجامع الحكم الغير المتناهي، إلى التجرُّد وأمر بالاجتناب عن التأهل. فتأمل ولا تتأهل.

* رشحة: قال حضرة شيخنا يوماً خطاباً لواحد من حضّار المجلس في معرض منعه عن التعلُّق والتعشُّق لمظاهر جميلة: شاهدت هذه النسبة - يعني نسبة التعشُّق - في أوز كان له تعلُّق بصاحب جمال، وكان يذهب إلى أين يذهب محبوبه. وسمعت أن الأسد فيه تلك الحالة أيضاً، فالتعلُّق أمر غير ضروري تشترك فيه الحيوانات وصرف العمر فيه ليس من مقتضى الهمة. ولكن لو كان استعداد شخص على وجه يكون أسير النسبة الحبيَّة بلا اختيار فهو أمر آخر. ثم قال هذه العبارة: لا سبيل لنصيحة الناصحين في قلوب المضطرين.

* رشحة: قال: إذا حصل الحضور بالله للقلب في صحبة أرباب الجمعية واطمأن بها، لا يحتاج فيها إلى الذكر. فإن الغرض من الذكر حصول تلك النسبة، وإنما يحتاج إليه لظهور المحبة المكنونة في القلب.

* رشحة: أنشد حضرة شيخنا يوماً هذه الأبيات: [أشعار]

تا بسهاء هو إشارت ميكني ... يا بحرف ها عبارت ميكني

هاز باطن واو إز ظاهر بود ... معنى هو أول وآخر بود

بنده حر في نيايداز توكار ... جهد كن تا أزرهت خير دغبار

ها بسيفكن واورا آز دكن ... بنده شوبي هاي هويش يا دكن

ثم قال: إن هذه الأبيات إشارة إلى نسبة تحصل في صحبة، وهي نتيجة

الصحبة لا تحصل بتوسط: ها، وهو.

* رشحة: قال: إذا أخذتم حظاً وافراً من الكيفية في صحبة شخص، فطريق حفظ آدابه أن تتعاملوا معه على وجه لا تحصل لكم كراهة منه. ولهذا قيل: ينبغي للشيخ أن يرى نفسه محبوباً في نظر المريدين، فإنه هو الذي كان منشأ المحبة التي هي سبب لظهور تلك النسبة. فإذا حصلت منه الكراهة التي هي ضد المحبة تزول المحبة فتزول النسبة لزوال سببها.

* رشحة: قال: حاصل الطريقة النقشبندية دوام الإقبال على الحق سبحانه على وجه لا تكون الكلفة في ذلك الإقبال.

* رشحة: قال: المقصود الكلي أن يحصل الإقبال على الحق سبحانه للطيفة المدركة على الدوام ولا بد لك من هذا الإقبال حتى تكون مقبلاً.

* رشحة: قال: لا تقاس أكابر هذه السلسلة العلية على كل زمار ورقاص، فإن نسبتهم عالية جداً. وقد جلس خواجة أوليا من كبار أصحاب خواجة عبد الخالق قدّس سرّهما الأربعين لأجل مراقبة الخواطر في باب مسجد من مساجد بخاري. وهذا أمر خارج عن طور العقل ودائرة الإدراك، وسألوه عن الخلوة في الجلوة، قال: هي أن تمشي في الأسواق ولا تسمع أصوات أهلها. وكان لهؤلاء الأكابر أمثال هذه المشغولية والمفاخر، ولا ينبغي أن يعد هذا الطريق أمراً سهلاً.

* رشحة: قال: لا تعتقدوا طريقة خواجكان شيئاً سهلاً. وكان خواجة محمد پارسا قدّس سرّه مع كونه في نهاية الكمالات الصورية والمعنوية، لا يفارق رسائل خواجكان أبداً خصوصاً «الرسالة القدسيّة» منها، فإنه كان لا يتركها أصلاً بل كان يطالعها دائماً لكونها مما لا بد منه.

* رشحة: قال: إن معرفة الخواطر على وجه الكمال منحصرة في طريقة خواجة عبد الخالق الغجدواني قدّس سرّه لكمال احتياط أهلها في حفظ الأنفاس.

* رشحة: قال: إن المقصود من هذا الطريق في اعتقادي: كون القلب حاضراً بالله تعالى على سبيل الذوق واللذة دائماً، ويكتسب هذا المعنى بأعمال مناسبة وأشغال لائقة به، وذلك في البداية. وأما في النهاية، فلا مدخل للكسب فيه أصلاً بل يكون هذا المعنى فيها ملكة النفس وملكها.

* رشحة: قال: ينبغي أن يحصل يقيناً لا يذهبه ماء ولا يحرقه نار، مثلاً إذا حصل لشخص يقين بوجود قمح لا يقدر شيء أن يذهب بهذا اليقين بخلاف استحضار وجود قمح في الذهن، فإنه قد يقع عنه ذهول بسبب تعارض أنواع الاشتغالات.

* رشحة: قال: قد استحسن هذا البيت لي: [شعر]

بر آستان أرادت كه سرنها دشبي كه لطف دوست برويش دريچه بكشود

ترجمة:

من بات في باب الإرادة ليلة يفتح له لطف الحبيب خوخة

ثم قال: إذا ظهرت نسبة الإرادة في باطن أحد ينبغي أن يعدها نعمة عظيمة من الله، وأن يتبادر إلى القيام بحقها. والقيام بحقها ليس إلا التوجه إلى الله تعالى بكليته، وأن يصرف وجوده في الله. وقد ثبت عند المحققين أن الوجدان مقدم على الطلب. وفسروا قوله ﷺ: «مَن طلب شيئاً وَجَدَ وَجَدَ»[1] أي: من وجد شيئاً طلبه فإنه ما لم يتجل الحق سبحانه لقلب شخص بصفة الإرادة لا يحصل فيه استعداد الإرادة وطلب الحق سبحانه. ونتيجة ذلك التجلي الميل والانجذاب إلى الله تعالى، فيكون قلب العبد أولاً واجداً للتجلي الإرادي، ثم يكون ثانياً طالباً ومريداً له. ولهذا تمثيل في الظاهر وهو: لو أن شخصاً مر بجنب منظر فظهر له منه صاحب حسن وجمال وجذب بتجلّيه قلبه إليه، فظهر في قلبه ميل وانجذاب نحوه، فيكون الوجدان في تلك الصورة مقدماً على الطلب والإرادة. وسئل البعض: إنه إذا كان الوجدان مقدماً على الطلب، فما فائدة الطلب؟ بل هو محال، لكونه تحصيل الحاصل. فأجيب: إن الطلب لاستيفاء الحظ، وأن الوجدان الذي هو مقدم على الطلب وجدان إجمالي، وفائدة الطلب حصوله على سبيل التفصيل، فلا يلزم تحصيل الحاصل.

* رشحة: قال: إن قيمة شخص بقدر حركة مدركته بحق حقائق هذه الطائفة.

* رشحة: قال: ليس الأمر التوجه والمراقبة فقط، بل الأمر جعل جميع الأمور تابعاً لمقصود واحد وتحصيل إدراك خاص في جميع الأشياء.

---

(١) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

* رشحة: قال: ينبغي أن يرى العمل محبوباً دون الحضور والجمعية، فإنهما من المواهب وعزيزيّ الوجود، وليسا تحت الاختيار. وفقدانهما موجب للكسل والفتور، بخلاف العمل، فإنه من المكاسب وتحت الاختيار والمواظبة عليه موجبة للجمعية والحضور. فإن الفتور متطرق إلى الجمعية والحضور، وذلك واقع بالخاصية. ثم أنشد هذين البيتين: [شعر]

خالقانا أين سكم درباطن ست　　راه جانم سوى تونا إيمنست
يا بحكم شرع دركارش فكن　　يابكلي درنمكسارش فكن

ترجمة:

ما دام هذا الكلب في قلبي سكن　　هيهات أمن طريق روحي للوطن
فبحكم شرع انصفن لي منه أو　　ادفعه عن ملك الفؤاد والبدن

* رشحة: قال يوماً سياسة لبعض الحاضرين: إذا حصلت لكم نسبة في صحبتي تحضرونها ثانياً، وإن ظهرت لكم فيها كلفة تهربون منها للعنان ثانياً. ولقد هان عليكم حضوركم عند فقير لأجل ذوق وحال فقط وهذا من علامة المحبة العارضية لا الذاتية. [شعر]

إذا ما ملئت القلب من خمر شوقنا　　فلا ينبغي منك القلا عن خماره

* رشحة: تكلم حضرة شيخنا يوماً بمعارف جاذبة للقلوب، ولطائف جالبة للنفوس، وحقائق باعثة على الأشواق، ودقائق مورثة للأذواق. فأقبل واحد من الحاضرين على هذا الكلام بجملته، وتوجه إليه برمته، فقال له حضرة شيخنا: قد أراك كثير الميل إلى استماع الكلام، بل ينبغي أن تسلّم نفسك إلى مضمون ما سمعته بالتمام. فإن الكلام مع كثرته بحسب الأقسام واحد بالنسبة إلى المرام ولا يحصل شيء من القيل والقال وسماعه من الأنام.

* رشحة: قال: إن للكلام جمالاً يظهره الله سبحانه لمن يكرّمه بعنايته، ولهذا أرسل الله سبحانه الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين بالكلام لا بالجذبة والتصرف.

* رشحة: قال: اللسان مرآة الجنان، والجنان مرآة الروح، والروح مرآة الحقيقة الإنسانية، وهي مرآة الحق سبحانه وتعالى، فتصل الحقائق الغيبية من غيب الذات إلى اللسان بقطع هذه المسافة البعيدة، ثم تصل من اللسان إلى مسامع حقائق

المستعدين متلبسة بصورة الألفاظ.

* رشحة: قال: جمال الكلام أن يأخذ المستمع ويجذبه عن نفسه، ولا جمال لكلام غير الأولياء. ثم أنشد هذه الأبيات: [أشعار]

وثلاثة للأولياء علامة ... خذها أخي كي لا تكون معطلا
فإذا رأيت وجوههم بين الورى ... سترى فؤادك نحوهم متمايلا
وإذا تكلّم واحد منهم ترى ... كل الورى عن نفسه متغافلا
وأخصها بالأولياء بأسرهم ... أن لا يرى من فعلهم ما يبطلا

* رشحة: قال: صحبت بعض الأكابر فمنحني بعطائين، أحدهما: أن يكون كل ما أكتب جديداً لا قديداً. والثاني: أن يكون كل ما أقوله مقبولاً لا مردوداً.

* رشحة: ولما تشرَّفت بشرف تقبيل عتبة حضرة شيخنا مرة ثانية، نظمت قصيدة مشتملة على مناقب حضرة شيخنا مصدرة بذكر طرف من معارف الصوفية، ومن جملتها هذه الأبيات: [أشعار]

يا برداشت پرده إز رخسار ... أين تمشون يا أولي الأبصار
لمعه* آفتاب طلعت أو ... طلعت من مشارق الإظهار
همه أشيا هلاك أين إشراق ... همه ذرات محو أين أنوار
همه راصاف ساخته أين نور ... همه راپاك سوخته أين نار
لمعه* أوست درمكين ومكان ... جلوه أوست پريمين ويسار
نيست تكر أردر تجلي أو ... كرجه باشد بيرون زحد شمار
ليك آن رتجدد أمثال ... مي نمايد بصورت تكرار
جمله ذرات كوني آينهاست ... كه دران جلوه مي كندرخ يار
درهر آينه بآيني ... مي نمايد بعاشقان ديدار
كاه مستور دربس پرده* ... كاه مشهور برسر بازار
كاه در پرده مي نواز دساز ... كاه بي پرده مي در أندتار
پرده كي أوست ما همه پرده* ... پرده ساز أوست ما همه أوتار
بهر أغيار نقشبندا زل ... پر دها بسته پرزنقش نكار

تاشو دنقش بروي شان حائل أزتما شاي نور آن رخسار
أي زپندار غير در پرده* خسير وبر دار پرده* پندار
كردرين پرده يار ميخوا هي روي دل سوى نقشبندان آر
آن مقيمان بار كاه الست وان نديمان صدر صفه* يار
همه دربزم شوق شاه نشان همه در رزم عشق شاه سوار
همه عالي وزان ميان أعلى شاه أبرار وخواجة أحرار

وأوصلها أخي في الطريقة مولانا موسى الذي هو من أخص خدمة عتبة حضرة شيخنا ومحرم أسراره إلى نظره المبارك في الخلوة، فقال حضرة شيخنا في اليوم الثاني خطاباً للفقير في أثناء الصحبة: إنه لما كنت في هراة في زمن السلطان مرزا شاهرج، اشتهر فيه أشعار السيد قاسم التبريزي، فصار بعض شبان الشعراء ينظم أمثال تلك الأشعار المشعرة بالتوحيد. وتلك الأشعار في الحقيقة إنما هي من الحقائق المنتشرة من باطن السيد، ظهرت من هؤلاء الشبان بلا اختيار منهم لكون استعداداتهم قابلة لمظهرية تلك الحقائق والمعارف، وإن لم تكن تلك الأشعار موافقة ومناسبة لحسب حالهم لكنهم امتازوا بها من أبناء جنسهم امتيازاً كلياً.

* رشحة: قال: كان في هراة شيخ يخيط القلانس خارج باب الملك، فسمعت منه كلمتين نافعتين تفوح منهما رائحة مذاق هذه الطائفة. فكنت أراعي معه الآداب بعد ذلك بحيث ما كنت أتقدمه وقت المشي في الطريق أصلاً لأجل إعزاز هاتين الكلمتين.

* رشحة: قال: لو سمعت أو علمت أن في أقصى بلاد الصين كافراً يتكلم بكلام هذه الطائفة على أصوله لسافرت إليه ولازمته وقبلت منه المنة.

* رشحة: إن أول كلمة سمعتها من حضرة شيخنا ما قالها في قرشي في سفري الأول خطاباً للفقير، أنه قال بعض الأكابر: إن النحو علم يمكن ضبط أصوله في جمعة واحدة. فتمنيت بعد ذلك أن: ليت التصوُّف كتب أيضاً في كتاب حتى يمكن تعلمه في جمعة ويحصل ما هو المقصود بسهولة. ولكن قال شخص من أهل التصوُّف: إن التصوُّف أمر يسير وهو: إن القلب مرآة ووجهه إلى عالم الملك، والتصوُّف هو قلب وجه مرآة القلب إلى عالم الملكوت.

• **رشحة**: قال لفقير في خلوة خاصة: إن خلاصة العلوم المتداولة: التفسير والحديث والفقه. وخلاصة تلك العلوم الثلاثة: التصوُّف. وموضوع علم التصوُّف بحث الوجود. وقد قالوا: ليس في جميع المراتب الإلٰهية والكونية إلا وجود واحد ظاهر بصورة العلمية، وهذا المبحث في غاية الإشكال ونهاية الدقة، والخوض فيه بالتعقل والتخيل موجب للضلالة والزندقة. فإن في هذا العالم كلاباً وخنازير وأمثالهما مما لا يحصى من الحيوانات الخسيسة، وأنواع النجاسات والقاذورات، وإطلاق الوجود عليها في غاية القباحة والشناعة، واستثنائها من الوجود موجب لإبطال القاعدة الكلية ومخالف لاصطلاح هذه الطائفة العلية. فالواجب على الأذكياء الاشتغال بتصفية مرايا حقائقهم عن النقوش الكونية، وعدم الميل عنه إلى أمر آخر حتى تشرق أشعة أنوار الوجود في اللطيفة المدركة بواسطة تصفية محالها وتزكيتها، فيظهر لهم ذلك المعنى على ما ينبغي.

• **رشحة**: ولما وصلت إلى صحبته الشريفة في السفر الثاني في قرية كاشان ولاية قرشي على طرف بخارى منها، أنشد هذه الأبيات خطاباً لفقير في خلوة خاصة: [أشعار]

لا تكن أصلاً إذا رمت الكمال ... وامح فيه النفس إن رمت الوصال

غيره:

أي كمان وتيرها پرساخته ... صيد نزديك وتودور آند أخته

نحن أقرب كفت من حبل الوريد ... تو فكنده سهم فكرت را بعيد

يعني:

يا مَن تصدَّى لرمي الصيد إن الصيد ... قريب ولكن أنت أبعدت المرمى

كذلك قال تعالى في محكم كتابه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: الآية ١٦]، ولكن أنت أبعدت مرمى سهم الفكر. ثم تكلم بكلمات كثيرة التفاتاً إلى ذلك الفقير، ولنورد بعضاً منها:

قال: ما كنت مشغولاً بحالك منذ جئت عندنا، ولكن ينبغي لك أن تعلم أن كثيراً من الأوصاف الغير المرضية قد زال عنك وجاءت مكانه أوصاف مرضية لازمة ولكن لا علم لك بذلك ولا خير لك عما هنالك.

وقال على سبيل التمثيل: إن البطيخ إذا خرج من الأرض وقصد مرتبة الإدراك والبلوغ، يزول عنه في كل آن شيء مما ينافي بلوغه ويجيء مكانه شيء مما به كماله، ولا خبر للبطيخ عن ذلك، ولا يقدر إدراك ذلك المعنى بالحس مثلاً. فإن قال له الدهقان: قد زال عنك كثير مما ينافي نضجك، وقعد مكانه كثير مما به كمالك، لا يصدق منه ذلك. ولكن إذا بلغ وأدرك مرتبة النضج ونظر إلى نفسه يرى نفسه كاملاً ناضجاً من الفرق إلى القدم، ويعلم حينئذ أن الدهقان صادق فيما قال.

وغلب على حضرة شيخنا بكاء عظيم في أثناء هذا الكلام وفاضت قطرات الدموع من عينه المباركة، والظاهر أنه كان بكاء المخاطب ورقته ظهر منه بطريق الانعكاس، والله أعلم.

• رشحة: لما وصلت إلى صحبة حضرة شيخنا أول مرة سألني عن وطني، قلت: مولدي سبزوار ولكن منشأي هراة. فتبسم وقال على سبيل الانبساط والمطايبة: إن سنياً وصل إلى سبزوار فاستراح هناك في ظل جدار، ولما رفع رأسه بعد لحظة رأى رافضياً قاعداً فوق ذلك الجدار مدلياً رجليه، وقد كتب تحتها أسامي أبي بكر وعمر رضي الله عنهما إهانة واستخفافاً، فتحرك برؤيته عرق غيرته الدينية فأخذ السكين وضرب به تحت رجله حتى خرج من ظهرها، فصاح إلى أصحابه وأعوانه إخوان الشياطين أن: ألحقوا بي قد ضربني خارجي بسكين. فهجم عليه الروافض من أطراف وجوانب وأحاطوا به وقالوا له: لم ضربت صاحبنا بالسكين؟ فرأى السني نفسه أنه على شرف التلف فيما بين غلبتهم وهجومهم، فقال: أمهلوني لحظة حتى أقص عليكم قصتي: إني واحد من جنسكم غريب في بلادكم، وقد أردت أن أستريح في ظل ذلك الجدار لأدفع عن نفسي تعب الأسفار، ولما رفعت رأسي بعد استراحة لحظة رأيت هذا الحمار مدلياً رجله من فوق الجدار، ولما رأيت فيها هذه الأسامي التي لا أقدر أن أراها أبداً فوق رأسي، اضطرب قلبي اضطراباً شديداً حتى لم أملك نفسي، فضربته بالسكين ليبعدها عن حذاء رأسي. ولما سمع الروافض منه هذا الكلام صاروا يلحسون يديه ورجليه مثل الأنعام. فتخلص عنهم بتلك الحيلة، ثم قال متبسماً: أنت من مثل هذا البلد.

ثم قال: دخل واحد من المشائخ أرض الروافض، فجاء جمع من غلاة الروافض وسفهائهم إلى أطراف قافلته وطفقوا يسبون أصحاب رسول الله ﷺ ورضوان الله عليهم أجمعين، فأراد أصحاب الشيخ منعهم وزجرهم عن ذلك، فقال

لهم الشيخ: خلوهم ولا تؤذوهم فإنهم لا يسبون أبا بكر الذي نحبه ونعتقد فيه، وإنما يسب هؤلاء أبا بكر الموهوم الذي ادعى الخلافة من غير استحقاق وأضمر للنبي ﷺ وأهل بيته رضوان الله عليهم أجمعين النفاق وسلك سبيل الشقاق، ونحن أيضاً نسب مثل أبي بكر هذا، فإنه غير ما نحبه ونعتقد فيه. ولما سمعت الروافض هذا الكلام من الشيخ تأثروا وتنبهوا ورجعوا عن الطريق الباطل وتابوا وأنابوا على يد الشيخ. ثم سألني عن اسم والدي وشغله، قلت: يقال له مولانا حسين، ويشتغل بالوعظ. فقال: قد سمعت أوصافه، يقولون إنه صاحب فضائل كثيرة وكمالات عزيزة، ووعظه مقبول عند الخواص والعوام.

ثم قال: كان مولانا شهاب الدين السيرامي أستاذ الشيخ زين الدين الحافي ومولانا يعقوب الكرخي عليهما الرحمة، ولما قدم سمرقند أراد أن يعقد مجلس وعظ في المسجد الجامع هناك، وكان مولانا محمد العطار الذي هو من كبار طبقة خواجكان قدّس الله أسرارهم حاضراً في ذلك المجلس، وكان موصوفاً بكمال العلم والورع والزهد والتقوى، وكانت له نسبة قوية ولطافة تامة. ولما أراد مولانا شهاب الدين أن يصعد المنبر قبّل قائمته وصعد، فقام مولانا محمد من هذا المجلس في الحال وخرج من المسجد. فنزل مولانا شهاب من المنبر من غير تكلم وخرج من خلفه وأدركه وسأله: إنه ماذا صدر عني مما ينافي الأدب يوجب نفرتك وخروجك عن المجلس؟ فقال له مولانا محمد: نحن نشتغل برفع البدعة بالجد على الدوام ونجتهد في هذا الباب ونسعى بكمال الاهتمام حتى لا تبقى بدعة واحدة بين الأنام، فمن أين جئت بهذه البدعة ـ أعني: تقبيل قائمة المنبر وقت صعودك إليه ـ وفي أي كتاب أو أية سنّة ذكر ذلك، ومن فعله من أئمة السلف؟ فإذا صدر ذلك من أمثالك من العلماء لا ينبغي لنا أن نقعد هنالك.

قال حضرة شيخنا: كان مولانا محمد العطار السمرقندي مبالغاً في رفع البدع واتباع السنن في جميع الأوقات، وكان بالغاً في ذلك حد الكمال. وكان لابنه مولانا حسن أيضاً ملاحظة حسنة في أمور الدين والملّة مثل والده الشريف. ولما قدمت خراسان بعد ملازمة حضرة شيخنا، وحضرت مجلس وعظ والدي، رأيته يقبّل قائمة المنبر حين صعوده إليه، فعرضت عليه حكاية مولانا شهاب الدين مع مولانا محمد العطار بعدما جاء البيت كما سمعتها من حضرة شيخنا، فبكى وقال: إن هذه نصيحة من حضرة الشيخ لي أرسلها بواسطة لسانك. فألزم بعد ذلك على نفسه الملاحظة والاحتياط البليغ في مثل هذه الأمور وامتنع من الحركات الزائدة على

رأس المنبر مثل الضرب بيده ورجله.

وكان حضرة شيخنا ينقل ما شاهد من أكابر الوعاظ لهذا الفقير أحياناً، بسبب كون والدي واعظاً، وحسن التفاته إلى هذا الفقير. وقد ذكرنا بعض ذلك في مقالة الكتاب عند ذكر مولانا درويش أحمد السمرقندي. ولنذكر الآن البعض الباقي منها:

* رشحة: قال: كان يستحسن لي وعظ اثنين في سمرقند، أحدهما: السيد عاشق. والثاني: مولانا أبو سعيد التاشكندي. وقال: كان السيد عاشق رجلاً مرتاضاً، وكان أثر الجوع والعطش ظاهراً فيه دائماً، وكان يحسن الوعظ. وكثيراً ما كنت قائماً على رجلي في حاشية مجلس وعظه وكانت آثار الرياضات والمجاهدات واضحة فيه وأنوار الطاعات والعبادات لائحة في بشرته، وقال: رأى واحد من الأكابر في منامه جمعاً عظيماً ينتظرون مجيء موسى عليه الصلاة والسلام. قال صاحب الرؤيا: فجئت عندهم لأرى سيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، فلما جاء كان السيد عاشق قال حضرة شيخنا: كان السيد عاشق مستحقاً لأن يرى كذلك.

* رشحة: قال: لما قدمت هراة أول مرة خرجت منها إلى زيارتكاه وبقيت فيه يومين أو ثلاثة أيام، ودخلت وقت الرجوع قرية مولانا شمس الدين محمد السنوكردي، وكان من العلماء المتقين ومن مريدي الشيخ شاه فرهي رحمهما الله. فاجتمع في مسجده وقت المغرب خمسمائة شخص وعقد في الصبح مجلس الوعظ، فاستحسنت ذلك المكان غاية الاستحسان، ولكن كان في رفاقتي اثنان من أهل تاشكند ولم أرد توقفهما هناك لأجلي، فجئت البلد ثم خرجت إلى القرية المذكورة بعد يومين وبقيت فيه جمعة. وكان يجتمع في ذلك المسجد في أكثر الأوقات أصحاب الطاعات وأرباب العبادات، وعقد مولانا يوماً مجلس وعظ، وبكى كثيراً في أثناء وعظه، فأردت أن أعرف سبب بكائه فسمعته يقول: إن الناس يقولون: إن المرزا شاهرخ سلطان مسلم، وقد سمعت أنه أمر برمي صاحب الديوان كهرشاه من رأس المنارة بسبب كونه متهماً بجارية، فرموه، وهذا لا يخلو إما أن تثبت جريمته بموجب الشريعة الشريفة أو لا، فإن ثبتت يلزمه الجلد أو الرجم وإلا فلم قتل مسلماً من غير سبب شرعي بهذا النوع من القتل!، والرمي من المنارة ليس بمشروع ولو بعد الإثبات. فكان مولانا متألماً لعدم صدور هذا الحكم عن المرزا شاهرخ موافقاً

للشريعة حتى بكى عليه بلا اختيار. وكان أحوال أكابر الدين هكذا، قد غلب فيهم فكر أمور الدين والملة على جميع الأفكار.

* رشحة: قال: استأذن الشيخ أبو عثمان الحيري شيخه أبا حفص الحداد للوعظ، فقال له شيخه: ما الباعث على هذه الداعية؟ قال: الشفقة على خلق الله. قال: فما حد شفقتك ومقداره؟ قال: شفقتي عليهم على حد لو أدخلوني جهنم عوضاً عن جميع عصاة أمة محمد ﷺ لكنت راضياً بذلك لخلاصهم عن جهنم. فقال الشيخ: يليق النصيحة والتذكير بمثل هذا الشخص ويستحق هو الوعظ. فأذن له بذلك، وجلس عند قائمة منبره، وافتتح هو بالوعظ. فقام سائل في ذلك الأثناء وطلب ثوباً من الناس، فنزع الشيخ أبو عثمان جبته وأعطاه إياها، فصاح عليه الشيخ أبو حفص وقال: انزل يا كذاب، فنزل عن المنبر قبل إتمام كلامه وجاء عند شيخه وقال: ما صدر عني من الكذب؟ فقال: ألم تقل أن الباعث على الوعظ والنصيحة الشفقة على الخلق! فلو كانت لك شفقة على إخوانك المؤمنين لتوقفت في إعطاء السائل جبتك حتى يكون ثواب الإحسان وفضيلته لواحد منهم، وكان عليك أن تصبر، فإن لم يصدر الإحسان عن أحد من الإخوان وكان السائل معرضاً للحرمان فعند ذلك كنت تفعل ما تفعله من الإحسان.

* رشحة: خطر يوماً على خاطري: إنه إن قدر لي الوعظ في وقت من الأوقات فليجري على لسان حضرة شيخنا شيء مما يناسب هذا الباب. فجئت مجلسه بتلك النية، فقال بعد لحظة: جاء شخص عند واحد من الأكابر وقال: إني أريد أن أشتغل بالوعظ فبأي نية أشتغل به؟ فقال له ذلك الشيخ جواباً عجيباً: إن النيّة ليست بنافعة في المعصية. وهذا الجواب صحيح، فإن الوعظ والنصيحة قبل أوانهما معصية. ثم قال بعد هذا: فيعلم من ذلك أن درجة الكلام عالية جداً. ثم قال: ننقل الكلام الآن ونقول: متى يكون وقت الكلام. ولأكابر الطريقة كلام كثير في باب وقت الوعظ والتذكير، فقال بعضهم: يجوز الكلام والتكلم في وقت بلغ المتكلِّم فيه درجة كأن لسانه نائب عن قلبه وقلبه عن الحق سبحانه.

* رشحة: قال: إذا أزيل صدى النقوش الكونية عن وجه مرآة القوة المدركة لا يبقى في محاذاتها شيء سوى الذات البحت.

* رشحة: قال: من أخذ عملاً عن كامل مكمِّل فالمواظبة والمداومة عليه

موجبة للوصول إلى درجات عالية.

* رشحة: قال: إن الاشتغال بدفع الأخلاق الرديئة مشكل جداً، فالأولى أن يلتزم شيئاً من الأعمال الباطنية أو ينتظر ظهور أمر يخلصه عن الكل.

* رشحة: قال: ينبغي لأصحابنا اختيار أحد الأمرين: إما قبول شيء من الوجه الحلال والاشتغال بالزراعة بحفظ أنفسهم في جميع أوقات الاشتغال كما هو طريقة فقراء أكابر خواجكان قدّس الله أسرارهم. وأما تفويض أنفسهم إلى القضاء والقدر بالكلية من غير صرف القوة الفكرية فيما يحصل وما لا يحصل، والسعي والاجتهاد في إهلاك مقتضياتهم وإفنائها في مقتضى الآخر فيتشرّفون بالسعادة العظمى التي هي الفناء في الله. ثم أنشد هذا البيت: [شعر]

اسقط عن المحبوب قسمك راضياً واقنع بما يأتيك منه تقاضيا

* رشحة: قال: يلتزم رجال الغيب في كل زمان صحبة شخص من الصلحاء، يعمل بعزيمة، ويجتنب عن رخصة، ويفرون من أرباب الرخصة، فإن العمل بالرخصة شغل الضعفاء، وطريقة أكابر النقشبندية عزيمة.

* رشحة: قال حين أمر بالعزيمة والاحتياط: إن الاحتياط في اللقمة من اللوازم حتى ينبغي كون من يطبخ الطعام على طهارة كاملة، وأن يوقد النار بالحضور والشعور.

وكان حضرة الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه لا يأكل من طعام صدر عند طبخه غضب أو كلام فاحش، وكان يقول: إن لهذا الطعام ظلمة لا يجوز لنا أكله.

وخرج حضرة شيخنا مرة وقت السحر للتوضأ في قرية تل كلاغان، وهي قرية واقعة على فرسخين من سمرقند، وكان في غاية وقت البرد من فصل الشتاء وقد وقع ثلج عظيم، ومر بباب المطبخ ورأى فيه غلامين قد ملآ القدور الكبار بالماء وسخّناها لطهارة الأصحاب، ويتكلمان في ذلك الأثناء بالهزل، فوقف ودعاهما وغضب عليهما وطلب العصا ليضربهما، وعاتبهما كثيراً وقال: ألم تعرفا هذا القدر، أنه ينبغي أن يحضر على القلب وقت تسخين الماء وطبخ الطعام وأن يحفظ اللسان عما لا يعني من فضول الكلام حتى يظهر نور الحضور في قلب من توضأ بهذا الماء أو أكل من ذلك الطعام، فإن الماء المسخّن بالغفلة والطعام المطبوخ بالفترة تحصل منهما ظلمة في الباطن وغفلة. فشفع لهما مولانا لطف الله الذي كان من مقربي

الأصحاب ومقبولي الأحباب، فعفى عنهما ومضى لسبيله.

* رشحة: قال: إن سر اختيار بعض الصوفية استماع أصوات المزامير هو: أنَّ نظر هؤلاء الأكابر كان إلى أصل المقصود ووجدوا بصفاء الفطرة أن المقصود الأصلي تخلص الحقيقة الإنسانية عن قيود البشرية، وحصل لهم هذا المعنى في استماع أصوات المزامير، فاختاروه لذلك. وحكمة عدم تجويز بعض الأئمة ذلك يحتمل أن تكون لاختيار أرباب الهوى وأصحاب البدع ذلك وجعلهم إياه شعارهم ودثارهم. فامتنع هؤلاء الأئمة عن استماعه ومنعوا عنه العامة لدفع عار المشاركة بهم عنهم وقطعوا نظرهم عن المقصود، وتمسكوا في تحصيل نسبة الجمعية بأسباب أخرى.

* رشحة: أظهر يوماً شخص نفسه في نسبة الغيبة وكيفية الاستغراق بتعمُّل وتكلُّف في مجلس حضرة شيخنا، فتوجه نحوه وأنشد هذا البيت: [شعر]

لا تمشي كالسكران معوجاً بزور ان لي لعلامة من ساق

* رشحة: قال: ما دامت نسبة المريد ضعيفة غير قوية ولم تتمكن فيه ليعمل معه بالمداراة والمواساة ويترك من غير مواخذة على ما يصدر عنه من الأفعال الغير المرضية، وتحمل أخلاقه الرديئة. وأما إذا قويت نسبته وحصل يقين بهذا الطريق، فالأمر يقع بعد ذلك على المريد، ويلزمه حينئذ المحافظة على أحواله لئلا يصدر عنه شيء موجب لكراهة الخاطر ونفرته، فإن صدر عنه شيء مناف للأدب يؤاخذونه بذلك ويؤدبونه على ما هنالك.

* رشحة: قال: قال بعض الأكابر: ينبغي للشيخ أن يكون قادراً على أكل المريد، فإن لم يكن كذلك فهو لا يستحق المشيخة. ومعنى أكل المريد: كون الشيخ بحيث يقدر أن يتصرف في باطن المريد ويأكل أخلاقه الذميمة. يعني: يقدر على إزالتها عنه ويثبِّت مكانها الأخلاق الحميدة، ويوصله إلى درجة الحضور والشعور.

* رشحة: قال يوماً للأصحاب: أيكم لم يقع تصرف في نسبته عشرين مرة أو أزيد، وكلما يقع التصرف في نسبتكم تذهبون إلى محل آخر وتضيّعونها. ينبغي لمن كان نائلاً لحبة نور من مجلس القرب أن يرى به جميع مصالحه وأن يشاهد به ظلمة نفسه، وأن يرفع أنانيته من البين.

* رشحة: قال: ما لكم لا تسعون أياماً يسيرة في مدة حياتي ولا تكونون من

مشاهدي الحق سبحانه! فمتى تكونون كذلك! فاغتنموا هذه الفرصة فإنكم ستندمون على ما فات.

* رشحة: لما أشار إلى فقير بطريق الرابطة، أنشد هذا البيت: [شعر]

كن مقيماً في قلوب الأولياء واترك الأفكار كلاً والعناء

ثم قال: يعني كن ساكناً في قلوب الرجال، يعني: كن متوجهاً بكليتك لأن تجعل منزلاً لنفسك في قلوب الرجال وهم مشائخ الطريقة وينبغي المحافظة على كل نفس كما هو طريقة خواجكان قدّس الله أرواحهم حتى لا يصدر عنك ما يكون سبباً لكراهة خاطر المشائخ إلى أن تبلغ مرتبة تكون جميع مرادك مراد الشيخ، ومراد الشيخ مرادك، وتتشرف بسبب تلك المحافظة بسعادة لا تتصور فوقها سعادة، وهي الفناء في الله.

* رشحة: قال: كان فقير من الفقراء يكثر النظر إلى وجه حضرة شيخنا في المجالس وأثناء الصحبة، فقال يوماً خطاباً له: كان شخص يكثر النظر إلى وجه خواجة بهاء الدين قدّس سرّه فقال له: لا تكثر النظر إلى وجهي فتُهلك قلبك. ثم أنشد حضرة شيخنا هذا [المصراع]:

* ومَن يرنو إلى وجهي يهيم *

ثم قال: ينبغي أن يكون توجه المريد إلى ما بين حاجبي الشيخ، وأن يعتقده حاضراً معه ومطلعاً على أحواله في جميع أوقاته وأطواره حتى تتصرف فيه أبهة الشيخ وعظمته ويزول عن باطنه كل ما لا يلائم الحضور، ويبلغ من دعاية ذلك المعنى مرتبة يرتفع الحجاب من بين الشيخ والمريد، ويكون جميع مرادات الشيخ ومقاصده بل جميع أحواله ومواجيده، معايناً ومشاهداً للمريد: [مصراع]

* وتلك سعادات تكون نصيب من *

* رشحة: قال: إن طريق النجاة من أسر الخواطر الرديئة ومقتضيات الطبيعة البشرية، يمكن حصوله بأحد ثلاثة أمور: أحدها: أن يلتزم على نفسه عملاً من أعمال الخير مما اختارته هذه الطائفة وقرروه، وأن يختار طريق الرياضة. **والثاني**: أن يتبرأ من حوله وقوته، وأن يعلم أنه ليس بحيث يقدر على إنجاء نفسه من تلك البلية إلا بالرجوع إلى الله تعالى على سبيل العجز والافتقار ودوام التضرع

والانكسار، فعسى الله أن ينجيه من تلك البلية. **والثالث**: أن يكون مستمداً من باطن الشيخ وهمته، وأن يجعله قبلة لتوجهه. ثم سأل الحاضرين بعد هذا التقرير: أي طريق أفضل من هذه الطرق الثلاثة؟ فأجاب بنفسه: إن الاستمداد من همة الشيخ والتوجه إليه أفضل، فإن الطالب قد اعتقد نفسه عاجزاً عن التوجه إلى الله تعالى في هذه الصورة. وجعل الشيخ وسيلة لتوجهه ووصوله إلى الحق سبحانه، وهذا أقرب إلى حصول النتيجة. ويتفرع على ذلك ما هو مقصود الطالب بسهولة لكونه مستمداً من همة الشيخ دائماً.

* **رشحة**: قال: إذا قعدتم مع واحد من هذه الطائفة اجتهدوا في معرفة حقيقته. ثم أنشد هذه الأبيات المثنويات: [أشعار]

كنت مشغوفاً بكل الاجتماع ... صرت في صحب الخيار والرعاع

كان كل الناس أصحابي على ... ظنهم والقلب بالسر اختلى

لم يكن سرّي بعيداً من أنيـ ... ـني ولكن أين فهم للدني

* **رشحة**: قال يوماً في تعليم أهل الصحبة: إن الجوع الكثير والسهر الطويل موجبان لانحراف الدماغ وضعفه، ومانعان عن إدراك الحقائق والدقائق، ولهذا وقعت أغلاط كثيرة في كشف بعض أهل الرياضات. وإنما لا يضر السهر من له فيه فرح وسرور، فإنهما يعملان في الدماغ عمل النوم ويحفظانه عن اليبوسة.

ثم قال: قال الخواجة علاء الدين الغجدواني عليه الرحمة: قدم الخواجة بهاء الدين النقشبند إلى طوايس، وكنا نحن وجمع من الأصحاب في غجدوان، فطلبنا عنده، فحضرنا. ولما قرب الليل طلب حضرة الخواجة الشيخ محمد الدرزي وكان من جملة المخلصين والخادمين، وقال: اذهب منزلك بالأصحاب واخدمهم. فذهبنا إلى منزل الشيخ محمد، وجاء حضرة الخواجة أيضاً بعد المغرب وقعد في جنب الصفة مرخياً رجله المباركة، ودعى الشيخ محمداً وقال: ماذا تريد أن تطبخ للأصحاب؟ قال الشيخ محمد: خطر على قلبي أن أطبخ دجيجات مع الأرز. فقال حضرة الخواجة: هات الدجيجات حتى أنظر أنها سمينة أم مهزولة! فجاء بها الشيخ محمد فتفقد حضرة الخواجة كل واحد منها بيده الكريمة وجسها وقال: حسن. ثم قال للأصحاب: كلوا الطعام وناموا في الليل واحضروا عندي في الصبح. ثم قام وانصرف. فكنا في الليل هناك وأكلنا الطعام ونمنا ليلتنا هذه. ولما أصبحنا جئنا

ملازمة حضرة الخواجة باتفاق من الأصحاب.

* رشحة: قال: إن الذكر بمثابة الفأس، يقطع به شوك الخواطر من طريق القلب.

* رشحة: قال: الأمر أن يكون السالك مستغرقاً في الذكر على وجه لا يبقى له شوق الجنة ولا خوف النار، ويكون النوم والسهر عنده متساويين. فكيف يدنو الشيطان من أطراف هذا الشخص العظيم الشأن؟!.

* رشحة: قال: إن كان السكوت في الصحبة لأجل حفظ الحضور بالله وملاحظة الامتناع عن اللغو، فتلك الصحبة جنة، وفي قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ [مريَم: الآية ٦٢] إشارة إلى مثل هذه الصحبة، فمن كان قلبه في أسر محبة المحبوب الحقيقي فهو في مقام المكالمة والمناجات مع محبوبه في كل حال.

* رشحة: قال: إن الحق سبحانه لا يكون مدركاً ومفهوماً بوجه من الوجوه عند المحققين، ويكون طريق إدراكه مسدوداً. والعقل الكامل لا يستريح من طلب إدراكه أصلاً، فالسكوت والاطمئنان ليسا من مقتضيات العقل على هذا التقدير.

[شعر]

قصد الحبيبة أن تضحي بها ولها فالسعي في عبث أولى من الوسن

* رشحة: قال: كانت الأرواح الإنسانية في جوار القدس في المشاهدة دائماً، فلما أوردوهم في هذا العالم وحبسوهم في قفص البدن الناسوتي، كانوا مشغولين بما تحتاج إليه الأبدان من المسكن والملبس والمطعم وغيرها بواسطة تعلقهم بها. ومع ذلك غلب على بعض منهم اضطراب وميل الوصول إلى مقره الأصلي، ولم تكن التمتعات البهيمية والمستلذات الطبيعية مانعة له عن التوجه إلى مقره الأصلي. فمن أين يعلم عدم كون المقصود من الوجود الإنساني حصول هذا الاضطراب، وإن بيَّنوا في تحقيق المقصود أمراً آخر.

* رشحة: قال: العبادة عبارة عن العمل بالأوامر والاجتناب عن المناهي. والعبودة عبارة عن دوام التوجه والإقبال على الله. وقال: قد فرقوا بين العبادة والعبودة في بعض الكتب هكذا: إن العبادة هي أداء وظائف العبودية بموجب الشريعة الشريفة، والعبودة: حضور القلب وشعوره على جهة التعظيم.

• رشحة: قال: المقصود من الخلقة الإنسانية التعبد، وخلاصة التعبُّد وزبدته: الحضور بالله في جميع الأحوال على وجه التضرع والخضوع والابتهال.

• رشحة: قال في بيان الشريعة والطريقة والحقيقة: إن الشريعة: إجراء الأحكام على ظاهرها. والطريقة: تعمُّل وتكلُّف في جمعية الباطن. والحقيقة: رسوخ تلك الجمعية.

• رشحة: قال: إن المعراج على نوعين: صوري ومعنوي. والمعنوي أيضاً على نوعين، أحدهما: الانتقال من الصفات الذميمة إلى الخصال الحميدة. وثانيتهما: الانتقال إلى الله عما سوى الله.

• رشحة: قال: إن السير على نوعين: سير مستطيل، وسير مستدير. فالسير المستطيل بُعد على بُعد. والسير المستدير: قُرب في قُرب. فإن السير المستطيل هو طلب المقصود من خارج دائرة نفسه. والسير المستدير هو الدوران حول نفسه، وطلب المقصود من نفسه.

• رشحة: قال: العلم علمان: علم الوراثة، والعلم اللدني. فعلم الوراثة: ما يكون مسبوقاً بالعمل كما قال النبي ﷺ: «من عمل بما علم ورثه الله تعالى عِلم ما لم يعلم»[(١)]. والعلم اللدني: ما لا يكون كذلك، بل يشرِّف الله سبحانه من يشاء من عباده بعلم خاص من عنده بمحض عنايته له من غير سبق عمل منه، كما قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: الآية ٦٥]. وقال: الأجر أيضاً على نوعين: أجر ممنون، وأجر غير ممنون. فالأجر الممنون: ما لا يكون في مقابلة شيء من العمل بل يكون محض موهبة من الله تعالى. والأجر الغير الممنون: ما يكون في مقابلة شيء من العمل.

• رشحة: قال: إن بين العالم والعارف فرقاً، مثلاً: مَن كان عالماً بمسائل النحو التي هي عبارة عن القواعد الكلية مثل: الفاعل مرفوع، والمفعول منصوب، يقال له: عالم بعلم النحو، ولا يقال له: عارف به. وإنما يقال له: عارف بعلم النحو إذا أعمل جميع مسائل النحو في محلها من غير شائبة تكلف وتوقف في شيء

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

من تلك المسائل. وكذلك يقال: عالم بعلم التوحيد لمن كان توحيده بحسب العلم، يعني: إذا اعتقد توحيد الأفعال والصفات والذات وتقرر في قلبه أن لا فاعل في الوجود إلا الله، فيقال لمثل هذا الشخص: إنه عالم بعلم التوحيد. وأما من رأى وقت ظهور كل واحد من الأفعال والأوصاف في مظهر نفسه أو غيره: إن فاعل ذلك هو الله فقط من غير تعمل وتكلف وتوقف، يقال له: عارف، فإن علم ذلك المعنى بالتعمل يعني بقوة الإيمان يقال له: متعرف.

* رشحة: قال يوماً على سبيل التمثيل: اجتمعت الطيور للسفر إلى العنقاء، فبقي كل واحد منهن بعذر من الأعذار في الطريق إلا ما كان عنده شيء من العنقاء، فإنه لم يبق في الطريق بل وصل إلى العنقاء.

* رشحة: قال: قد تصور الناس أن الكمال في أن يقول: أنا الحق، فحسب. وإنما الكمال في رفع: أنا، من البين، وأن لا يقول: أنا، أصلاً.

* رشحة: قال: أصل الأمر قطع التعلق برمته، ليس عندي شعر أحسن من هذين البيتين لبهلوان محمود بوريا عليه الرحمة: [شعر]

جانا بقمار خانه رندي چندند بأمر دم كم عيار كم پيوندند

رندي جندندكس نداند چندند برنسيئة نقد هر دو عالم خندند

ثم قال: من علم حقيقة معنى: لا إله إلا الله، يعلم من هذا الكلام: إنه ليس في حقيقة بهلوان محمود تعلق بشيء أصلاً، وأنه مشرف بالتجلي الذاتي.

* رشحة: قال يوماً خطاباً لبعض الخدام والأصحاب كلمات، وقال في أثناء الكلام: والحاصل أنه ينبغي أن يجتهد حتى يحصل للقلب توجه دائمي إلى الحق سبحانه، فيمكن بعد ذلك حصول التنبه لصاحب هذا التوجه: إن التوجه من الله تعالى إلى ذاته، وليس للمتوجه دخل في البين أصلاً.

* رشحة: قال: ليس معنى الفناء المطلق: إن لا يكون لصاحب الفناء شعور بأوصافه وأفعاله أصلاً، بل معناه: نفي إسناد الأوصاف والأفعال إلى نفسه بطريق الذوق وإثباته للفاعل الحقيقي جلَّ ذكره. وما قاله الصوفية: إن النفي لا ينافي الإثبات، إنما هو بهذا المعنى. وقال: إن هذه الجبة التي أنا لابسها الآن عارية مثلاً، ولا علم لي بأنها عارية بل أعتقد أنها ملكي لعدم علمي بأنها عارية، ولي

تعلق به من تلك الحيثية، فإذا حصل لي علم بأنها عارية ينقطع تعلقي بها في الحال مع أني متلبس بها الآن بالفعل. وقس على ذلك جميع الصفات في أنها عاريات حتى ينقطع القلب عما سوى الله تعالى ويحصل له التصفية والتزكية.

• رشحة: قال: الوصل عندي حصول نسبة الحضور بالله للقلب على سبيل الذوق، والذهول عما سواه تعالى. فإن كانت تلك النسبة متصلة فقد تشرَّف صاحبها بدوام الوصل، وهذه عقيدتي من صغر سني.

• رشحة: قال: الوصل في الحقيقة: اجتماع القلب بالله تعالى على سبيل الذوق، فإن كان حصول هذا المعنى على سبيل الدوام يقال له: وصل دائمي. وهذا هو النهاية. وما قاله حضرة الخواجة بهاء الدين قدِّس سرّه: نحن ندرج النهاية في البداية، فالمراد به هو ذلك الوصل. وما قاله: إنما نحن واسطة في الوصول لا غير، فينبغي الانقطاع عنا والاتصال بالمقصود، هو ذلك الوصل. وقال: لو كان لهذه النسبة قدر ما عندكم لحملتم الأحجار فوق رؤوسكم، يعني: لتحصيلها وحفظها.

وقال: إذا حضرتم صحبتي فما الفائدة منه لي وأي فائدة منه لله!.

وقال: أنا كثيراً ما أكون في غم الخلق، والخلق في فرح وسرور بواسطتي. ولو كان جعل شخص نفسه عظيماً بحيث يلزم من خرابه خراب العالم شركاً لكن ماذا أصنع! ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمٰن: الآية ٢٩]. وقد جعلوني عظيماً بلا صنع مني ولا اختيار.

• رشحة: قال: إذا كان الذكر ملكة على وجه يكون القلب حاضراً دائماً، ويكون الذاكر متلذذاً به، فهو من الأبرار. ويمكن أن يقال له: إنه حاضر بالله، ولا يطلق عليه: واصل إلى الله، فإن الواصل مَن ينتفي عنه سبناد الحضور إليه، ويعتقد أن الحاضر إنما هو الحق بذاته.

• رشحة: قال: إن النهاية التي يصل إليها الأولياء ما لا تكون المشاهدة غائبة عنهم فيها، فلئن غابت المشاهدة عنهم فإنما تغيب لغاية استغراقهم في الشاهد الحقيقي.

• رشحة: قال: التجلي هو الكشف، ويمكن أن يكون. ظهور هذا المعنى

على نوعين، **أحدهما**: كشف عياني، وهو مشاهدة جمال المقصود بعين الرأس، وهي في دار الجزاء. **وثانيهما**: كون الغائب كالمحسوس بسبب كثرة إحضاره أو غلبة محبته، فإن من خواص العشق والمحبة جعل الغائب كالحاضر المحسوس، وهذا نهاية إقدام أرباب الكمال في الدنيا.

* **رشحة**: قال: إن نهاية هذا الطريق هل هي حضور ومشاهدة أم فناء وغيبة؟ وما يفهم من كلام بعض الأكابر: أنها حضور ومشاهدة، ولكن الأشبه أن تكون النهاية في الواقع هي الفناء والغيبة. فإن التعلق بالحضور والمشاهدة نوع تعلق بالغير أيضاً.

* **رشحة**: قال: إن للشهود معنيين، **أحدهما**: شهود الذات المقدسة المبرّأة عن الظهور في لباس المظاهر. **وثانيهما**: شهود الذات المقدسة من لباس المظاهر من غير وصف الكثرة، بل بنعت الوحدة. ويقال لهذا الشهود عند الصوفية: شهود الأحدية في الكثرة. وكان النبي ﷺ على هذا الشهود بعد البعثة.

* **رشحة**: قال: والعجب ممن يقول: لا تنظر إلى مَن قال وانظر إلى ما قال، بل كان ينبغي له أن يقول: لا تنظر إلى ما قال وانظر من قال. يعني: إن القائل والمتكلم إنما هو الحق سبحانه من لباس المظاهر.

* **رشحة**: قال: قد نسب الله سبحانه بعنايته عدة من الأوصاف إلى عبيده وفرع عليها كثيراً من وعده ووعيده، ولا كمال للعبد سوى أن يسعى ويجتهد بكليته في سلوك الطريقة المستقيمة، وأن يوصل نفسه بكثرة الاجتهاد إلى مرتبة يتيقن أن ما نسب الله سبحانه إليه ليس منه. وهذا هو التصوف، ولكن أطال الناس مسافته واستبعدوه.

* **رشحة**: قال بعض الأكابر لشيخنا في مجلس من المجالس: قال أكابر الصوفية: لا وجود غير وجود الحق سبحانه الذي هو الوجود المطلق، وأن الظاهر في لباس المظاهر واحد. فعلى هذا التحقيق ما معنى مخالفة أهل الإسلام أهل الكفر ومنازعتهم إياهم؟ فأجابه حضرة شيخنا بهذين البيتين من المثنوي: [شعر]

جونكه بيرنكى أسير رنك شد　　موسى با موسى درجنك شد
جون به بيرنكي رسى كان داشتى　　موسى وفرعون دارند آشتى

يعني: لما كان الحق سبحانه الذي هو الوجود المطلق الذي لا وجود غيره

عند محققي الصوفية مقترناً بالتعينات والنسب والاعتبارات ونحوها من النعوت التي تلحقه بواسطة تعلقه بالمظاهر جرى كل واحد من أفراد الممكنات بمقتضى مبدأ تعينه الذي هو حقيقته، فأفضى ذلك إلى نزاع موسى عليه السلام موسى السامري لاختلاف مبدأ تعينهما، فإذا ارتفعت تلك النسب والاعتبارات بحكم ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود: الآية ١٢٣] يرجع موسى إلى الاتفاق بموسى، كما كانا على ذلك قبل عروض التعين. والمراد بموسى الثاني هو السامري، فإن اسمه موسى أيضاً، فإن أمه رمته بين الجبال فربّاه جبريل عليه السلام كما قيل.

[شعر]

إذا الطفل لم يكتب نجيباً تخلفت ... ظنون مربيه وخاب المؤمل

فموسى الذي ربّاه جبريل كافر ... وموسى الذي ربّاه فرعون مُرْسَل

* رشحة: قال: إن الواقفين على سر القضاء مستريحون. يعني: إنه لما حصل لهم علم بأن الكل معدوم، وأن الظاهر في صور المظاهر ليس إلا هو، استراحوا كمياه الجداول المنشعبة من البحار. فإنها لما حصل لها علم بأنها من انبساطات البحر المحيط وامتداداته حصل لها انبساط وطرب لاتصالها بالبحر المحيط الذي هو أصلها، وهذا كما قيل: [شعر]

البحر بحر على ما كان في القِدَم ... إن الحوادث أمواج وأنهار

وغيره:

إذا كنت ذا علم بأنك ظلّ مَن ... لاخترت راحات النفوس على العنا

لا يخفى أني قد سمعت من حضرة شيخنا كثيراً من حقائق المعارف العالية، ودقائق اللطائف السامية غير ما ذكرنا فيما قبل. ولكن لم يتيسر لي ضبط عباراتها وحفظ إشاراتها لقصور القوة الحافظة ولظهور الأمور المانعة. فلنذكر الآن شيئاً مما جرى على لسانه من الأبيات في أثناء أداء المعارف واللطائف، ما انتقش في لوح الخاطر وارتسم في مرآة الضمير الفاتر. فمنها:

* رشحة: لما حثَّ ولده الخواجة يحيى عليه الرحمة على علوّ الهمَّة، أنشد هذا المصراع بصوت عال وكمال هيبة:

* جون پلنكان سوى بالاخيز كن *

يعني :

* قـم وثـب نـحـو الـعـلـى مـثـل الـنـمـر *

* رشحة : أنشد هذا حين أمر بترك الأنانية والعجب :

* يكقدم برفرق خودنه وآن ذكر در كوى دوست *

وهذا مثل قول القائل : [شعر]

إذا كـنـت تـهـوى فـاجـعـل الـذلّ جـنـة فإني رأيت الكِبر من ذي الهوى عجزا[١]

لما بيَّن سر المعية ومنع عن ذكر الجهر، أنشد هذا المصراع :

* إلـى كـم تـنـادي مـن لـديـه تـنـاجـي *

* رشحة : أنشد هذا في بيان تفاوت القابليات :

يـضـوء بـضـوء الـبـدر بـيـت بـقـدر مـا يـكـون بـه مـن كـوة والـمـنـافـذ

* رشحة : أنشد في بيان : إن العشق والمحبة موجبان لظهور الحقائق والمعارف ما مضمونه : [شعر]

فـمـا لـي لا أهـوى الـهـوى وألـذه وفـيـه إذا أنـصـفـت كـل الـفـضـائـل

يـلـطـفـنـي لـطـفـاً وظـرفـاً ورقـة ويـورثـنـي الإقـدام عـنـد الـنـوازل

* رشحة : قال في بيان أن دوام الحضور منوط بترك المألوفات وهجر المأنوسات : رأيت في رسالة من رسائل الشيخ خاوند طهور ما معناه : [شعر]

وأتـرك مـا أهـوى لـمـن قـد هـويـتـه وأرضى بما يرضى وإن هلكت نفسي

* رشحة : لما أشار إلى طريق توجه بتوجه خاص أنشد : [شعر]

آن دار دآن نـكـاركـه آنـسـت هـرچـه هـسـت آنـر أطـلـب كـنـيـد حريفان كه آن كـجـاسـت

* رشحة : أنشد في بيان أن البعد الصوري ليس بمانع عن القرب المعنوي لأهل الرابطة : [شعر]

أتـزعـم أنـي نـاسـي الـعـهـد بـعـدمـا تـنـاءيـت عـنـي لا وتـرب نـعـالـكـا

---

(١) لم أقف على قائل هذا البيت.

* رشحة: أنشد في بيان غنى الحق سبحانه الذاتي، وعجز الخلق عن إدراك حقيقته وكنهه تعالى: [شعر]

ولـمـا رأى الـدلال رغـبـة بـاذلـيـ ـن أرواحـهـم نـادى الألـوف بـعـشـرة

* رشحة: أنشد في بيان أن أهل الظاهر ليس لهم خبر عن حقيقة العشق: [شعر]

وما فـي الـعـشـق مـن نـعـمـان قـول ولا لـلـشـافـعـي فـيـه فـتـوى

* رشحة: أنشد في بيان ضعف إرادة الطالبين وقلّة الراغبين: [شعر]

مكو أرباب دل فتندو شهر عشق خالي ماند جهان پرشمس تبريزست كومردي همجو مولانا

* رشحة: أنشد في بيان: إن الذوق يحصل لكثير من الطالبين بواسطة التفات شخص من هؤلاء الطائفة ويزول بسبب ترك أدب يسير: [شعر]

بـــرده بـــودي وداوت آمـــده بـــود جـون تـوكـج بـاختـي كـسـى جـه كـنـد

* رشحة: أنشد في معرض الترغيب في الصحبة والمنع عن العزلة: [شعر]

لا تـأكـلـنَّ سـكـراً فـرداً وخـالـط بـور دان فـي الـخـلـط نـفـعـاً غـيـر مـنـحـصـر

* رشحة: أنشد في بيان: إن الصفات البشرية والمقتضيات الطبيعية لا تكون مانعة عن التوجه إلى المطلوب وشهود ما هو المقصود، ومزاحمة إياه بالنسبة إلى أرباب الكمال وأصحاب النفوس القدسيَّة: [شعر]

ولـمـا بـدت نـار الـكـلـيـم بـدوحـة غـدا حـسـنـهـا مـن تـلـكـمو الـنـار زاهـرا

كـذا حـرص أربـاب الـقـلـوب ومـقـتـضـى نـفـوسـهـم فـي أنـه لـيـس مـنـكـرا

* رشحة: قال في بيان الشكاية عن القيود البشرية: رأيت هذه القطعة مكتوبة على باب قبة الإمام الشيخ أبي بكر القفال الشاشي عليه الرحمة: [شعر]

داني توجه حكمنست كه فرزنداز پدر مـنـت نـدار دار دهـدش روزوشـب عـطـا

يعني درين جهانكه محل حوادثست در مـحـنـت وجـود تـو آورده مـرا

* رشحة: أنشد هذه الأبيات المثنويات في بيان طريق الرابطة: [أبيات]

آن يـكـي راروي أرشـد سـوى دوسـت وان يـكـي راروى أوخـو دروى أوسـت

روى هـريـك مـيـنـكـرومـي دار پـاس بـوكـه كـردى تـوز خـدمـت روشـنـاس

درميان جان إيشان خانه كير   در فلك خانه كند بد رمنير

* رشحة: أنشد في بيان أن الحكم للغالب: [شعر]

وما الإنسان غير الفكر شيئاً   ولا عظما ولا لحما وجلدا
فروض أنت إن فكرت ورداً   وتنور إذا فكرت عودا

* رشحة: أنشد في التنبيه على حدّة النظر والفراسة: [شعر]

آدمي ديدست وباقي پوسنست   ديدآن باشدكه ديد دوستست

* رشحة: لما بيّن سر المعيَّة أنشد ما مضمونه: [شعر]

فلسوف تعلم أن سيرك لم يكن   إلاَّ إليك إذا بلغت المنزلا

* رشحة: وأنشد أيضاً في بيان سر المعيّة والمنع عن ذكر الجهر: [شعر]

ومن عادة الجهّال من سوء فكرة   نداهم على مَن في حذاهم مصاحب

* رشحة: أنشد في بيان كسب الوله والشوق والاضطراب: [شعر]

آب كم جوتشنكي أوربدست   تابجو شد آبت أزبا لاوپست

وأنشد أيضاً في بيان هذا المعنى: [شعر]

تشنه نخفتيد مكر أندكي   تشنه كجاو خواب كران كجا
جونكه بخفتيد آب ديد   يا لب جوياكه سبو ياسقا

* رشحة: أنشد في بيان غلبات شوق هذه الطائفة ومحبتهم: [شعر]

ما هم قوم بشرب الماء من عطش   إلا رأوا ما هو المقصود في قدح

* رشحة: ولما بيّن أن الظاهر في لباس المظاهر إنما هو حقيقة واحدة، أنشد هذه الأبيات: [أشعار]

إن كتبنا شرح هذا في الكتاب   قد يطول البحث فيه والجواب
أو يزيل العشق عنا نكتته   إذ ينافي ذوق هذا لذّته
أكتفي إذ هذا حسب الأذكياء   صححت مرات لمن أصغى الندا

* * *

المقصد الثالث

في بيان

بعض تصرفات حضرة شيخنا قدّس سرّه

ولنذكر ما ثبتت صحته منها بنقل الثقات والعدول في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في تصرفاته بتسلُّط قوّته القاهرة على السلاطين والحكام وغيرهم من أهل زمانه من جبابرة الأنام.

الفصل الثاني: في بيان خوارقه للعادات التي نقلها بعض الأكابر من أهل زمانه غير أولاده وكُمّل أصحابه.

الفصل الثالث: في ذكر كراماته ومقاماته التي شاهدها منه أولاده الأمجاد وكُمّل أصحابه، ونقلوها مثل ما شاهدوها.

ونذكر عند إيراد كل نقل شيئاً من أحوال الناقل على سبيل الإجمال.

الفصل الأول

في ذكر تصرفاته الغالبة على السلاطين والحكام وغيرهم من جبابرة الأنام بتسلُّط قوّته القاهرة

* رشحة: قال: إن الهمّة عبارة عن جمعية الخاطر على حصول أمر واحد على وجه لا يخطر في البال خلافه، وقلما يتخلّف المراد من مثل تلك الهمّة. وينبغي لأصحاب التجريد أن يمتحنوا هممهم في بعض الأحيان، وأن يعلموا أن مناسبتهم بحضرة الأسماء إلى أي مرتبة وصلت، وكم تأثير هممهم!.

* رشحة: قال: لما كنت في هراة مع مولانا سعد الدين الكاشغري في أوائل شبابي، كنا نمشي متفقين ونتفرج. وكنا نصادف أحياناً معركة المصارعين ونمتحن هناك قوة توجهنا ونصرف الهمة إلى أحد المصارعين مرة حتى يكون غالباً، ثم نصرفها إلى طرف الآخر أخرى. فيكون الأول مغلوباً بعد أن كان غالباً. ومقصودنا من ذلك: امتحان الهمّة أنها إلى أي مرتبة بلغت، وهل يمكن الاعتماد عليها أم لا!.

ونقل مولانا خواجة كلان ابن مولانا سعد الدين، عن حضرة شيخنا أنه قال: كثيراً ما كنت أمشي مع والدك مولانا سعد الدين، وكنا ندور حول المعارك. فإذا مشينا في سوق الملك ومواضع الكثرة والازدحام كان كل منا يأخذ بيد صاحبه وكنا نشبك أصابعنا لئلا يمر الناس من بيننا. فوصلنا يوماً إلى معركة المصارعين، وكان اثنان يصارعان وسط المعركة. كان أحدهما جسيماً وقوي الهيكل، والآخر نحيفاً وضعيف البدن. فغلب الجسيم عليه، فرقّ قلبنا له، فقلت لمولانا سعد الدين: اصرف الهمّة ونوجه الخاطر ليكون هذا الضعيف غالباً على القوي. فقال: بل اشتغل أنت وأنا أيضاً أمدك. فتوجه الخاطر إلى طرف هذا الضعيف فظهرت فيه بعد لحظة كيفية عظيمة، فمد يده ورفع خصمه من الأرض فوق رأسه بسهولة ورماه إلى الأرض، فقام الصياح من الحاضرين وتحيروا من وقوع تلك الصورة وتعجبوا من ظهور القوة فيه، ولم يطلع أحد على هذا السر. ورأيت مولانا سعد الدين قد غمض

عينيه في هذا الوقت، فأخذت بكمه وقلت: استرح قد كفى الأمر. ثم مضينا.

قال حضرة شيخنا: قال الأكابر: كما أن معارضة القرآن غير ممكنة كذلك معارضة أهل الهمة غير ممكنة. فإن همَّة العارف فعَّالة لا يتخلَّف المراد عنها، فمن عارض مثل تلك الهمَّة يصير مغلوباً البتة حتى قيل: إن الكافر إذا توجه بخاطره إلى أمر وصرف همَّته إليه يحصل له ذلك الأمر البتة. وليس الإيمان والعمل الصالح شرطاً فيه، فكما أن للقلوب الصافية تأثيراً، كذلك للنفوس الشريرة أيضاً تأثير.

ونقل مولانا ناصر الدين الإتراري أخو مولانا زادة الإتراري، وسيجيء ذكرهما في الفصل الثالث من هذا المقصد ـ: إن حضرة شيخنا رأى في منامه: إن الشريعة إنما تحيا وتقوى بمدده. فخطر على قلبه: إن هذا الأمر الجسيم والخطب العظيم لا يتيسر إلا بإعانة السلاطين. فقدم سمرقند لهذا الأمر ليواجه سلطان الوقت، وكان الوالي هناك وقتئذ المرزا عبد الله بن المرزا إبراهيم بن المرزا شاهرخ، وكنت في هذا السفر في رفاقته. ولما دخلنا سمرقند، جاء لملازمة حضرة شيخنا أحد أمراء المرزا عبد الله، فقال له: إن غرضنا من المجيء في هذه الولاية ملاقاة أميركم، فإن كنت باعثاً على هذا الأمر يترتب عليه خير كثير إن شاء الله. فقال: إن أميرنا شاب حديث السن غير مبال في أموره وملاقاته متعذرة ومع قطع النظر عن ذلك، ماذا يفعل الدراويش بمثل هذه الدواعي؟ فغضب عليه حضرة شيخنا وقال: قد أمرونا باختلاط السلاطين، وما جئت هنا من قِبَل نفسي، فإن كان أميركم غير مبالٍ سيجيئون بآخر يبالي. ولما خرج من عند حضرة شيخنا كتب اسمه في جدار ذلك المنزل ومحاه بريقه المبارك وقال: إن مهمنا لا يكفي من هذا الأمير ووزرائه. وتوجه من يومه إلى تاشكند، فمات ذلك الحاكم الذي أساء الأدب مع حضرة شيخنا بعد جمعة، وظهر السلطان أبو سعيد بعد شهر من أقصى تركستان، وسار إلى الأمير عبد الله وقتله.

* * *

ذكر غلبة السلطان أبي سعيد على المرزا عبد الله بالتفات حضرة شيخنا

نقل بعض أجلَّة الأصحاب: كنت مع حضرة شيخنا في مبادي الأحوال بفركت، فطلب يوماً القلم والدواة وكتب أسامي رجال في ورق، وكتب في ذلك

الأثناء اسم السلطان أبي سعيد ووضعه على عمامته فوق رأسه. وما كانت علامة السلطان أبي سعيد ظاهرة في ذلك الوقت، حتى لم يسمع له اسم. فسأله بعض المقربين عن مسمّى هذا الاسم، وسبب كتابته إياه ووضعه على عمامته؟ فقال: هو اسم شخص نكون نحن وإياكم وأهل تاشكند وسمرقند وخراسان كلنا من رعاياه. نظهرت زمزمة السلطان أبي سعيد بعد أيام من طرف تركستان وقد رأى السلطان المذكور في منامه: إن حضرة شيخنا يقرأ له الفاتحة بإشارة الخواجة أحمد اليسوي قدّس سرّه. وسأله السلطان عن اسمه في منامه ذلك، وحفظه وحفظ صورته في قلبه. ولما انتبه سأل رجاله أنه: هل يعرف أحدكم شيخاً في هذا الاسم وفي هذه الصفات في هذه الولاية؟ فقال بعض من كان يعرف حضرة شيخنا في الجملة: نعم، إن في ولاية تاشكند شيخاً في هذه الأوصاف والاسم. فركب السلطان في الحال وتوجه نحو تاشكند. ولما سمع حضرة شيخنا مجيئه توجه إلى فركت، ولما دخل السلطان تاشكند لم يجده هناك، فقيل له بعد التفحص: إنه ذهب إلى فركت. فتوجه السلطان إلى فركت، ولما قرب هناك استقبله حضرة شيخنا، ولما وقع نظر السلطان عليه اضطرب وقال: والله إن الشيخ الذي رأيت في المنام هو هذا. ورمى نفسه إلى قدمه وأظهر له التواضع والانكسار، فانعقدت بينه وبين حضرة شيخنا صحبة عالية وجعل شيخنا خاطره منجذباً إليه. فالتمس السلطان في آخر تلك الصحبة فاتحة من حضرة شيخنا، فقال: إن الفاتحة تكون واحدة. يعني: أشار بذلك إلى ما رآه في واقعته. ثم اجتمع عنده عساكر كثيرة ووقعت في قلبه داعية أخذ سمرقند، فجاء عند حضرة شيخنا وقال: إني أقصد سمرقند وأرجو منك التفات الخاطر. فقال حضرة شيخنا: بأي نيّة تقصده، فإن كان قصدك تقوية الشريعة والشفقة على الرعية، فالقصد مبروك والفتح والظفر لك مملوك. فقبل السلطان تقوية الشريعة ببذل روحه والسعي البليغ في الشفقة على الرعية، فقال حضرة شيخنا: توجه إذاً في ظل الشريعة والمراد حاصل.

نقل بعض الأصحاب: إن حضرة شيخنا قال للسلطان أبي سعيد: إذا صرتم في مقابلة العدو لا تحملوا عليهم حتى يجيء من ورائكم طائفة من الغراب. ولما صار عسكر السلطان أبي سعيد في مقابلة عسكر الأمير عبد الله هجم عسكر الأمير على ميمنة عسكر السلطان وهزموهم وأرادوا أن يحملوا على الميسرة فظهرت في ذلك الوقت طائفة من الغراب من خلف عسكر السلطان، ولما رأوا تلك العلامة

تفرّقت قلوبهم، فحملوا عليهم حملة رجل واحد، فانهزم عسكر المرزا عبد الله في أول حملة ودخلت قوائم فرس المرزا في الطين ولم يقدر أن يخرج، فأمسكوه في الحال وحزّوا رأسه بلا إمهال.

ونقل الحسن الشجيع من أعيان أهل ممن، وهي قبيلة عظيمة في تركستان: كنت في عسكر السلطان أبي سعيد الذي أتي به من تاشكند إلى سمرقند، وتقابل العسكران في ساحل نهر بلو تغور وتصافا، وكنت قريباً من السلطان أبي سعيد. وكان مجموع العسكر زهاء سبعة آلاف تقريباً، وكان عسكر المرزا عبد الله في غاية الكمال من التعبية والسلاح. وهرب في ذلك الأثناء طائفة من عسكرنا إلى عسكر المرزا، فحصل للسلطان أبي سعيد اضطراب قوي وغلب عليه الخوف وقال لي متعجباً ومتحيّراً: ها حسن، ماذا ترى؟ قلت: يا سيدنا أرى حضرة الخواجة عبيد الله يمشي أمامنا. فقال: والله أنا أيضاً أراه كذلك. فقلت: قوي قلبك إذن قد ظفرنا على العدو. فجرى على لساني في تلك الحالة: يا غي قجدي، يعني: هرب العدو. وقال جميع العسكر هذه العبارة جملة، وحملنا عليهم حملة، فانهزم عسكر المرزا عبد الله بعد نصف ساعة وأخذ المرزا وقتل وتيسر فتح سمرقند في هذا اليوم.

قال حضرة شيخنا: كنت حين أسر المرزا عبد الله متوجهاً ومراقباً في تاشكند، فرأيت شيئاً أبيض مثل الأوز قد سقط إلى الأرض، فأخذوه وقتلوه، فعلمت أنه الأمير عبد الله في أسره في هذا الوقت وقتله. ثم التمس السلطان أبو سعيد من حضرة شيخنا أن يجيء بأتباعه إلى سمرقند ونقله هناك.

* * *

ذكر مجيء المرزا بابر

لمحاصرة سمرقند ورجوعه خائباً بالتفات حضرة شيخنا قدّس سرّه

اعلم: أنه لما توجه المرزا بابر بن المرزا بايقرا بن مرزا شاخرج من خراسان إلى سمرقند بمائة ألف عسكر من شجعان الرجال، جاء السلطان أبو سعيد عند حضرة شيخنا وقال: لا طاقة لنا بمقاومته، فماذا نصنع؟ فأمره حضرة شيخنا بالصبر والسكونة. ولما عبر المرزا بابر نهر جيحون اتفق جمع من أمراء السلطان أبي سعيد أن يذهبوا به إلى طرف تركستان فيتحصنوا هناك. وتجهزوا وشدوا حمولتهم على الرواحل، فوقف حضرة شيخنا على هذا الحال، وجاء عندهم وأغلظ على أصحاب الرواحل وأمر بإنزال الحمول. ودخل على المرزا أبي سعيد وقال: إلى أين تذهب؟ لا حاجة إلى الذهاب إلى محل آخر، فإن الأمر مكفي هنا، وأخذت كفاية مهماتكم في ذمتي، لا تخف وليطب قلبك فإن انكسار المرزا بابر عليّ. فاضطرب الأمراء غاية الاضطراب حتى ضرب بعضهم بعمامته على الأرض وقالوا: إن حضرة الشيخ يريد أن يسلمنا إلى الموت، ولكن لما كانت عقيدة المرزا في حضرة شيخنا صادقة راسخة لم يقل شيئاً ولم يصغ إلى قول أحد منهم، وترك السفر. وكان اعتقاد أمراء المرزا بابر أن لبست للسلطان أبي سعيد طاقة المقاومة والمقابلة معنا، فلا جرم يخلي البلد ويهرب. فشرع السلطان أبو سعيد في تعمير السور والحصون وتجهيز العسكر. ولما وصل المرزا بابر إلى أطراف سور سمرقند نزل مقدمة جيشه في الجبانة، وكان أمير المقدمة خليل هندوكه، فخرج من البلد قليل من الناس وحاربوهم، فأسروا خليلاً وما كان في عسكر المرزا بابر أكمل سلاحاً منه، ونزل المرزا بابر على باب السور القديم وتفرّق عسكره للميرة إلى الأطراف والجوانب، فأخذهم أهل سمرقند وجدعوا أنوفهم وآذانهم فصار أكثر عسكر المرزا مجدوعين، فتضيّقوا من هذه الحيثية غاية المضايقة. ثم وقع على خيولهم وباء عظيم فتلفت بها كثير من خيولهم فصاروا مضطربين من عفونة جيب الخيول، فأرسل المرزا بابر مولانا محمد المعمائي إلى حضرة شيخنا لطلب الصلح. ولما تمثل بين يديه واستقر

لديه، شرع في التكلم من كل باب وقال في أثناء الكلام: إن سلطاننا مرزا بابر غيور وعالي الهمّة، إذا توجه إلى بلد وقصده لا يرجع عنه من غير أخذه. فقال له حضرة شيخنا: لولا حقوق جده المرزا شاهرخ في ذمتي، إذ قد كنت في زمنه بهراة وحصلت أنواع الفراغة والجمعية ببركة عدالته لكان معلوماً إلى أين يبلغ أمر المرزا بابر. فاتفقوا بالأخرى على الصلح واستدعى المرزا بابر خروج حضرة الشيخ للصلح عنده. ولما بلغ ذلك السلطان أبا سعيد لم يقبله واستبعده، فأرسل حضرة شيخنا عنده مولانا قاسم عليه الرحمة، الذي هو من كبار أصحابه للمصالحة، قال حضرة شيخنا: سألت السلطان أبا سعيد عن سبب عدم إجازته بالخروج عنده للصلح؟ فقال: إن المرزا بابر غلام ظريف فصيح ذكي، جاذب للقلوب، فخفت من ميلان قلبك إليه، فتضيع أمورنا كلها، فإن جميع أمورنا الدنيوية والأخروية منوطة بعنايتكم وموقوفة على التفاتكم.

وقال حضرة شيخنا: سمعت أن المرزا بابر جاء إلى باب سمرقند مع جمع من الملاحدة مثل الشيخ زادة بيرقيام وأضرابه، وقال لبعض أهل سمرقند: نحن إنما جئنا هنا لأجل أولادكم وبناتكم. فرقَّ قلبي لأهل سمرقند من سماع هذا الكلام، فإن الأكابر والصلحاء كثيرون فيما بينهم، فكنت مشغول الخاطر يومين أو ثلاثة أيام لرفع شرور هذه الطائفة الباغية اللئام عنهم. وقال: إن صرف الخواطر لرفع الموانع ودفع الأعداء ليس بعيب، وكانت همم الأنبياء عليهم السلام مصروفة إلى أمثال تلك الأمور مع استغراقهم في بحر التوحيد.

وقال: كان لمرزا بابر دعوى في علم التصوُّف، وكان يذكر في مجلسه كثيراً من مقدمات هذا العلم. وكان الشيخ زاده بيرقيام في رفاقته، وكان رجلاً متصوِّفاً. وكان لمرزا بابر عقيدة صادقة في هؤلاء الطائفة العلية حتى صاح يوماً من أيام المحاربة بصوت عال مضطجعاً إلى جنبه على السور القديم أن: لا همَّة للعارف، لا همَّة للعارف، ونحن وإن لم نأخذ سمرقند لكن كان معلوماً لنا أن حضرة الشيخ خواجة عبيد الله ليس بعارف حيث أخربنا بهمَّته.

• رشحة: قال حضرة شيخنا: إن المرزا بابر لم يعلم معنى هذا الكلام، فإن معناه: إن العارف إذا تشرَّف بالفناء وصار بحيث انطمس هو وجميع صفاته وذهب إلى إقليم العدم، ولم يبق منه اسم ولا رسم، لا ينسب إليه حينئذ ما صدر عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: الآية ١٧]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ١٧] منبىء عن هذا المعنى. فلو لم يكن الأمر كذلك لأشكل نسبة تخريب العالم إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بتسليط قوتهم القاهرة مثل نوح وهود عليهما السلام حيث أهلكا قومهما بالطوفان والريح.

• رشحة: وقال: إن ما قاله الشيخ محيي الدين بن عربي قدّس سرّه في «الفتوحات» من: إن العارف لا همّة له، فمعناه: إن الممكن لا ينظر إلى حقيقة نفسه أصلاً، فلو كان نظره إلى حقيقته لعلم أن ما فيه من أوصاف الكمال كالعلم والقدرة كلها عاريات وملك لله سبحانه وتعالى. فلا جرم إذا علم العارف حد نفسه يكون في مقام الفقر الحقيقي الذي هو الفناء المطلق دائماً على ما هو مقتضى ذاته، ولا يظهر بالأوصاف المستعارة ولكن ينبغي لطائفة قد بخوا عن الهواجس النفسانية والوساوس الشيطانية بكمال العناية الإلٰهية ومحض المواهب الرحمانية، أن يجعلوا بواطنهم تابعة لإرادة الحق سبحانه ومشيئته. يعني: متى ألهموا من طرف الحق بتسليط الهمّة على دفع الظالمين وهلاكهم وإنجاء المسلمين من الأشرار ينبغي أن يصرفوا هممهم وخواطرهم إلى دفع الأعداء ورفعهم.

* * *

ذكر مجيء السلطان محمود لمحاصرة سمرقند ورجوعه مقهوراً ومغلوباً

ولما بلغ خبر توجه السلطان محمود لمحاربة أخيه السلطان أحمد ـ ابني السلطان أبي سعيد، وقصده محاصرة سمرقند ـ سمع حضرة شيخنا كتب هذه الرقعة إلى السلطان محمود:

رقعة: بعد إظهار التواضع عريضة من هذا الفقير إلى حضرة مخدومنا، قيل: إن سمرقند بلدة محفوظة بالأكابر وكتبوا هذا في كتبهم، فقصد سمرقند لا يناسبكم فإن الحق سبحانه لم يأمر بذلك ولم يرد في شريعة النبي ﷺ إذن بما قصدت هنالك. وكيف يناسبك سلّ سيفك على وجه أخيك وقد التمس منكم هذا الفقير ترك هذا القصد التماساً كثيراً لأداء وظائف الخدمة من غاية محبتي لكم، ولكن كل ذلك لم يقع في معرض القبول، وقصدكم هذه بإغواء أوغاد الناس وعدم قبولكم خدمة الفقير ونصيحته في غاية العجب، فإني أريد أن أخدمكم بهذا والناس تابعون لهواهم. وفي

سمرقند أكابر لا يحصون، ومساكين لا تستقصون، فلا يناسب تضييقهم وتزعيجهم لئلا تتألم القلوب. وصنيع القلوب المنكسرة معلوم، بل ينبغي أن يخاف من تفجيع قلوب صلحاء المؤمنين. فاقبل التماس هذا الفقير الذي هو خالص لوجه الله الخبير، لا غرض له فيه غيره، وأتمُّوا الأمور التي هي في مقام النقص بمدد بعضكم بعضاً، وكونوا على قلب واحد وجهة واحدة وفي ذلك رضا الحق سبحانه، وإن لله تعالى عباداً جعل الله سبحانه قصدهم قصده ومحاربتهم محاربته وجفاهم جفاه من كمال عنايته لهم، وهذا وارد في صحاح الأحاديث. [شعر]

لا تدخلن بصري مثل الرماد وخف ... فإن في قعره ناراً وأنهارا

قال حضرة شيخنا: كان الأمير مزيد آرغون من أعظم أمراء السلطان أبي سعيد، والتحق بعد كسر عسكر العراق بالسلطان محمود. فأرسلت إليه قاصداً بأن: ارجعوا من طريق المعاندة والمخالفة، ألم تعلموا أن مائة ألف رجل لا يقدرون على معارضة نسَّاج من سلسلة خواجة عبد الخالق قدِّس سرّه! فإن عارضوه يغلبوا وينهزموا، فإن في أكابر سلسلتنا تصرفات يحصل كلما يريده خواطرهم وهم لا يتبعون أحداً. ومع وصول هذه الرقعة الشريفة توجه السلطان محمود وأمراؤه لمحاصرة سمرقند ولم يرضوا بالتقاعد.

نقل واحد من أكابر خدَّام حضرة شيخنا، وكان أولاً في الخدمة العسكرية، وحضر محاربة سمرقند ومحاصرته: إنه لما توجه السلطان محمود من ولاية حصار لحرب السلطان أحمد إلى سمرقند بعساكر كثيرة وأسلحة غزيرة وانضم إليه أربعة آلاف من التراكمة غير عساكر جغتاي، وما كانت للسلطان أحمد طاقة بمقاومتهم، فأراد أن يهرب وجاء عند حضرة شيخنا بتمام الاضطراب للاستئذان. وكان حضرة شيخنا في مدرسته بسمرقند، فقال: لو هربت يصير جميع أهل سمرقند أسيراً فاثبت مكانك وقوي قلبك وأنا ضامن لأمرك، فإن لم ينهزم الخصم فأنا أكون مواخذاً بذلك. ثم أدخل السلطان أحمد حجرة من حجرات المدرسة التي لها باب واحد فقط وقعد بنفسه على عتبة الحجرة وأمر بإحضار راحلة سريع السير، وأسباب السفر، وشدوا عليه زاد أيام وأناخوه في مقابلة باب الحجرة. وقال تسلية للسلطان أحمد: لو فرضنا دخول السلطان محمود من باب إلى سمرقند تركب على هذه الراحلة وتخرج من باب آخر مع خواصك. فسكن السلطان بهذا التدبير.

ثم طلب مولانا السيد حسناً ومولانا القاسم، ومولانا المير عبد الأول، ومولانا جعفر، الذين هم من عظماء أصحابه - وسيجيء ذكرهم في الفصل الثالث - وقال: بادروا واذهبوا إلى الباب الذي فيه السلطان محمود واصعدوا على شرفاته ولا تبرحوا مكانكم ولا تحضروا عندي حتى ينهزم عسكر السلطان محمود ويهربوا، فإن لم ينكسر عسكره فرضاً فلا سبيل لكم إلى صحبتي. فذهب هؤلاء الأكابر بأمر حضرة شيخنا وصعدوا على شرفات الباب وقعدوا مراقبين. قال مولانا قاسم عليه الرحمة: لما قعدنا على شرفة الباب لم نر أنفسنا وصرنا معدومين، بل كان الكل حضرة شيخنا، وشوهد في تلك المشاهدة أن جميع العالم مملوء من وجود حضرة شيخنا. قال ناقل هذه الحكاية: لما كنا مشغولين مع جمع من العسكر بمحاربة السلطان محمود ومقاتلتهم عند جسر النهر، وكانت الغلبة في طرفهم علينا، كنت الاحظ هؤلاء الأكابر المراقبين فوق الباب آناً فآناً وأراهم قاعدين مطرقين رؤسهم منتظرين. وامتدت تلك المحاربة إلى الضحوة الصغرى وكاد أن يغلب المخالف، وغابت حواس أهل البلد. فجاءت في ذلك الأثناء بأمر الله ريح عاصفة من طرف صحراء قبجاق بغاية العنف والشدة، والتأمت في معسكر السلطان محمود، وقام الغبار بحيث لم يبق لأحد مجال فتح العين، وذهبت بالرجال والخيول ورمت المشاة والركبان وضربتهم على الأرض، وقوّضت الخيام عن مكانها ورفعتها إلى الهواء. وبالجملة: قد ظهرت شدائد كأهوال يوم القيامة، فاستتر السلطان محمود مع جمع من أمراء التراكمة راكبين في جانب وادٍ واسع، فسقطت قطعة كبيرة من جانب الوادي وظهر منه صوت هائل في غاية الهيبة ودفن تحتها مقدار عشرين رجلاً مع خيولهم وهلكوا، وشرد خيول التراكمة من خوف صوت تلك القطعة، ولم يقدر الأقوياء والشجعان على ردها ومنعها، فانكسر ذلك العسكر المكمّل جملة واحدة وانهزموا طائفة طائفة، واستولى الخوف والرعب على قلب السلطان محمود. فركب فرسه مع سائر أمرائه وانكشفوا عن باب البلد وهربوا بتمام السرعة والنكد خائبين خاسرين، فخرج عسكر السلطان أحمد مع أيتام البلد وأوباشه وسائر عوامه وأسروا أناساً كثيرة وخيولاً وافرة وربطوهم وأعقبوهم إلى خمسة فراسخ شرعية، وغنموا أسلحة لا تحصى وأقمشة لا تستقصى. قال الناقل: فرأيت بعد ذلك أن هؤلاء الأكابر قد نزلوا من شرفة الباب وتوجهوا إلى ملازمة حضرة شيخنا، ثم أخرج السلطان أحمد من حجرة المدرسة وأرسله إلى سرير سلطنته

وتوجه بنفسه إلى محلة خوجة كفشير.

* * *

ذكر إصلاح حضرة شيخنا ما بين السلاطين الثلاثة المخالفين في معركة واحدة

اعلم: أنه كانت آثار تسخير نفوس السلاطين في غاية الظهور من حضرة شيخنا، وقال في بيان تصرفاته: لو كنت مشغولاً بوظائف المشيخة ولوازمها لما وجد شيخ مريداً واحداً في هذا الوقت، ولكن أمرنا بشيء آخر - يعني: تخليص المسلمين من شرور الظلمة - ولهذا لم أجد بدّاً من اختلاط السلاطين وتسخير نفوسهم، وكفاية مهمات المسلمين بواسطة ذلك. وقال: إن الحق سبحانه قد أعطاني بمحض عنايته قوة بحيث لو أردت أن أحضر خاقان الصين الذي يدّعي الألوهية لنفسه في خدمتي بترك سلطنته برقعة واحدة لأتاني حافياً ماشياً على شوك، ولكن مع هذه القوة أنتظر أمر الله سبحانه وما شاءه الحق سبحانه وصدر به أمره، يوجد البتة والأدب لازم في هذا المقام. وأدب هذا المقام أن يجعل العارف نفسه تابعاً لإرادة الحق سبحانه دون أن يجعل الحق تابعاً لإرادته. وقد شاهدت يوماً في قرية ماتريد أن السلطان أحمد جاء لملازمة حضرة شيخنا وجلس عنده على ركبتيه بعيداً عنه بتمام الأدب، وحضرة شيخنا جالس قرفصاء، وكان يتكلم معه بالالتفات والملاطفة ومع ذلك كان كتفه يرتعد من هيبة مجلسه الشريف ويقطر من جبينه قطرات العرق، وكانت آثار التسخير واضحة ولائحة من هذا التأثير والتأثر. ومصداق هذا المقال، ومصدق هذا القيل والقال: قصة إصلاح حضرة شيخنا ما بين السلطان أحمد، والشيخ مرزا عمر، والسلطان محمود خان المعروف بخانبك، في معركة واحدة.

وصورة هذه الواقعة: على سبيل الإجمال، على ما كتبه مولانا محمد القاضي، الآتي ذكره في الفصل الثالث من هذا الكتاب في كتابه «سلسلة العارفين»: إنه ورد الخبر إلى سمرقند أن الشيخ مرزا عمر استمد من السلطان محمود الذي هو من سلاطين دشت قيجاق لمحاربة أخيه السلطان أحمد. واجتمعوا في شاهرخية وتهيّأ السلطان أحمد أيضاً للحرب، وتوجه إلى شاهرخية مع عسكر عظيم، واستدعى من حضرة شيخنا خروجه معه إلى هذا السفر وزعم الناس أن السلطان

أحمد إنما أخذه معه لأجل المصالحة مع الخصم.

وكان حضرة شيخنا في عسكر السلطان أحمد مدة أربعين يوماً، وأقام العسكر في آق قورغان من مضافات شاهرخية. وكان دأب السلطان أن ينزل حضرة شيخنا في المعسكر قريباً من نفسه لئلا يصدر سوء أدب في حقه من أحد في المجمع العظيم، فغضب حضرة شيخنا يوماً على السلطان وقال: لم جئت بي هنا! فإني لست عسكرياً، فإن أردت الحرب فما الحاجة إليَّ، وإن جنحت للصلح فما سبب التأخير والتأني ولم يبق لي مجال القعود بين العسكر؟ فقال له السلطان أحمد: ليس لي اختيار، وجميع الأمور مفوَّض إلى رأيكم الصائب وما استصوبتموه لا بد لنا من امتثاله. فركب حضرة شيخنا ورافقه جمع من الأصحاب بإشارته، وكنت أيضاً في ملازمته. وبقي سائر الموالي في الخيمة، وتوجه نحو الشيخ مرزا عمر والسلطان محمود خان وبلّغهم خبر توجه حضرة شيخنا نحوهم، فاستقبلوه من نصف الطريق وجاؤا شاهرخية مع الجمعية، وأظهر حضرة شيخنا التفاتاً كثيراً للسلطان محمود في تلك الملاقاة، وكان يتوجه إليه في أكثر خطاباته، فقرر أمر الصلح وبيَّن كيفيته بأن يقوم العسكران متصافين متقابلين وتنصب الخيمة السلطانية في وسطهما، ويجيء السلاطين مع رجال معدودة الخيمة ويجلسون فيها فيصالحهم حضرة شيخنا ويأخذ منهم العهود والشروط. ثم رجع إلى مقره آخر اليوم وشوهد آثار تصرفه في السلطان محمود خان، فركب عساكر السلطان أحمد على الصباح بالتمام مسلحين لكن لم يلبسوا الإدراع بالشرط، وقاموا متصافين في موضع يقال له: تل قهقهة، ثم جاء حضرة شيخنا شاهرخية ثانياً ليجيء بالسلطان محمود والشيخ مرزا عمر، فخرج السلطان محمود مسرعاً ولكن تأخر الشيخ عمر في الخروج واستثقل، فأرسل حضرة شيخنا هذا الفقير إلى السلطان أحمد لإخباره بأن الشيخ مرزا عمر قد تأخر في الخروج فليستعد له أيضاً ولا يجيء من غير احتياط اعتماداً عليَّ، كما قال النبي ﷺ: «**إعقل وتوكل**»[1].

---

(١) رواه الترمذي في سننه، (باب ٦٠) حديث رقم (٢٥١٧) [٤/٦٦٨]، ورواه ابن حبان في صحيحه، ذكر الإخبار بأن المرء يجب عليه مع توكل القلب. . .، حديث رقم (٧٣١) [٢/٥١٠]، ورواه غيرهما، ونصه: عن أنس بن مالك قال: قال رجل: يا رسول الله اعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل؟ قال: «اعقلها وتوكل».

[مصراع]

* إعـــقـــل جِـــمـــالـــك أولاً فـــتـــوكـــل *

فجئت عند السلطان أحمد وعرضت عليه ما أمر به حضرة شيخنا، فتوجه نحو حضرة شيخنا بعد ضبط عسكره. فتصاف العسكران بالتمام بعد مدة مديدة متقابلين متسلحين من غير لبس الدروع وأقام حضرة شيخنا مع سائر الأصحاب والموالي بين العسكرين، وكثر القيل والقال في تعيين موضع الخيمة. وكان كلا الفريقين يقول: إنه أقرب إلى جانب الآخر. وامتد ذلك النزاع حتى قام حضرة شيخنا للتوضأ لصلاة الظهر بين العسكرين، فأرسلني إلى السلطان أحمد وقال: قل له من لساني: أنا واحد من الرجال وشيخ ضعيف الحال، وقد حملت على ظهري جميع آلات حربكم هذا لئلا يقع بعضكم على بعض، وهذا نهاية القوة وغاية الفتوة، وما لي طاقة وراء هذا. فإن كان معتقداً فيَّ فليتركهم ينصبوا الخيمة أين شاؤا. ولما بلغت رسالته السلطان أحمد قال لرجاله: أتركوهم ينصبوا الخيمة أين شاؤوا ولا اعتماد لنا على غير حضرة شيخنا. فنصبوا الخيمة على مكان معين. فجاء السلطان أحمد مع مقدار معين من خواصه وقعدوا على جنب الخيمة، وذهب حضرة شيخنا عند السلطان محمود والشيخ مرزا عمر وجاء بهما إلى الخيمة مع مقدار معين من خواصهم. ولما قاربوا الخيمة استقبلهم السلطان أحمد مع خواصه، فقدم حضرة شيخنا أولاً السلطان محموداً، فتعانق مع السلطان أحمد، ثم جاء بالشيخ مرزا عمر فأخذ بيد أخيه الأكبر السلطان أحمد وبكى وقبَّل السلطان أحمد أيضاً رقبة أخيه الأصغر الشيخ عمر وبكى كلاهما واستولى البكاء على الكل من مشاهدة هذا الحال، وقام الصياح والنياح من هذا الجمع، ثم قعدوا في الخيمة وكانت هيئة المجلس على وجه بسطت السفرة معكوسة من استيلاء الدهشة والحيرة. وكان العسكران منتظرين فوق خيولهم على نوع لو ظهرت صورة المخالفة والمنافرة ليقع بعضهم على بعض ويقتتلون عن آخرهم. ثم أحضروا الطعام وأكلوا. ولما فرغوا تعاهدوا وتمَّ أمر الصلح بينهم، واستدعى حضرة شيخنا بلدة الناشكند من السلطان أحمد لأجل السلطان محمود، وكتب كتاب العهد هذا الفقير ـ يعني: مولانا القاضي محمد ـ ثم قرأوا الفاتحة وقاموا.

يقول راقم هذه الحروف: سمعت بعض الأعزَّة يقول: لما أدخل حضرة شيخنا

السلاطين الثلاثة في الخيمة، وقعت غيبة على واحد من أصحاب حضرة شيخنا في تلك المعركة وكشف له فيها ميدان واسع، وفيه ثلاثة أجمال سكارى، يقصد كل منها صاحبه فاتحاً فاه ويريد أن يقلع رأس الآخر بأسنانه، وحضرة شيخنا قائم وسطهن آخذاً بزمامهن ولا يترك أحداً منهن أن يقع على الآخر. وكتب مولانا القاضي محمد: قد تحيّر الخاص والعام وجميع الأنام المطالعين على هذا الحال في ذلك اليوم وتعجبوا من تصرف حضرة شيخنا وقالوا من قلب واحد ولسان واحد: إن كمال التصرف وقوة الولاية لا تتجاوز هذا الذي ظهر منه حيث كان مائة ألف مقاتل على وجه لو وقع بعض على بعض لهلكوا عن آخرهم. فارتفعت الخصومات والنزاع والكدورات عن قلوبهم بالتمام في مجلس واحد بيمن قدومه الشريف ونفسه المبارك بحيث لم يبق أثر الغبار في قلب أحد، بل صار الكل بنعمة الله إخواناً. فكانت مشاهدة هذا الأمر العظيم سبباً لمزيد يقين العامة لحضرة شيخنا.

ثم قال حضرة شيخنا بعد تمام المصالحة للسلطان محمود: اذهب إلى تاشكند وأنا أيضاً أذهب إن شاء الله تعالى من طريق آخر. ثم خرج من بين العسكر مع أصحابه وخدمه وتوجه إلى المملكة. وقال في أثناء الطريق متوجهاً إلى الفقير: ما تقول في أمرنا هذا وهذه الواقعة حرية بأن تكتب اهـ.

وكان مولانا نجم الدين رجلاً محتشماً، وكان من جملة خدمة حضرة شيخنا القائمين بمصالح أموره، وكان في أكثر الأوقات يشتغل بأمر التجارة. وكان في يده أموال عظيمة لحضرة شيخنا، وحكى هو لي: أني كنت مرة متوجهاً إلى ديار طرفان من حدود الصين فصادف ممرنا طائفة قلماق فأخذ منهم جمع عظيم، زهاء مائة شجعان، طريقنا راكبين متسلحين متدرعين، ولما رآهم أهل القافلة يئسوا من الحياة وسلموا أنفسهم إلى العجز ورضوا بالقتل والأسر. فخطر على قلبي أن التقاعد عن المحاربة وتسليم أموال حضرة الشيخ إلى قطّاع الطريق بعيد عن شيمة الإخلاص والإرادة، ومناف لسمّة المروءة والفتوة، ولا رأي أفضل وأصوب من أن أقتل دون أموال حضرة الشيخ ليكون سبباً لبياض وجهي في الدنيا والآخرة. ثم توجهت نحو حضرة شيخنا بالقلب بعد هذا الخاطر توجهاً تاماً وسللت السيف، فلم أر نفسي بعد ذلك، بل رأيت أن الكل حضرة شيخنا ولكني عرفت هذا القدر أن فيّ وفي فرسي كيفية عجيبة وقوة عظيمة، فسقت فرسي على وجه تلك الطائفة الباغية بلا شعور وهززت سيفي ورميت الرؤس والأيدي حتى تركت تلك الطائفة أهل القافلة وهربوا

بأسرهم نحو البادية. فتعجَّب أهل القافلة من جراءتي وجسارتي، وكان تعجُّبي وتحيُّري من نفسي أزيد من الكل، فإن أمثال تلك الصورة لم تقع عني أصلاً ولم أتجرأ قبل بمثل هذا قطعاً، ولم أشهد المعركة، فتيقنت أنه كان من تصرفات حضرة شيخنا صدر عني بلا حول ولا قوَّة مني. ولما رجعت من هذا السفر إلى ملازمة حضرة شيخنا كان أول كلامه: إذا وقع لكل ضعيف أمر مع عدو قوي وتبرأ من حوله وقوته بصدق ويقين يكون مؤيد البتة بحول وقوة من عند المؤيد القوي فيغلب بذلك الحال والقوة على أعداء الدين.

كان خواجة مصطفى الرومي تاجراً من وكلاء حضرة شيخنا. توجه هو يوماً من بخارى إلى سمرقند من طريق شهر سبز، فلقي هناك الميرك حسن، وكان هو أمير ديوان السلطان أحمد، فقال له الميرك حسن: يا خواجة مصطفى إنك رجل سليم الصدر وغير متكلف، ولي كلام، هل تقدر أن تبلِّغه حضرة الخواجة؟ فقال: بل أقدر، هاته. قال واحد من أعزَّة الأصحاب: كنت في مجلس حضرة شيخنا، فجاء خواجة مصطفى الرومي من طرف شهر سبز وعرض على حضرة الشيخ: إن الميرك حسن فوَّض إليَّ كلاماً أن أبلغكه، وبالغ في هذا الباب. فقال حضرة شيخنا: هاته، فقال: إنه يقول: قد بقي للسلطان أحمد محل قليل فليأخذه حضرة الشيخ منه وليرحنا من التعب. فبمجرد سماع هذا الكلام ظهر في حضرة شيخنا تغيُّر عظيم حتى قامت شعرات لحيته الشريفة وقبضها بيده الكريمة وقال: أيريد هذا الكلب أن يجعلني سلّاخاً؟ وقام من شدة غضبه وغاية تغيُّره ودخل حرمه، فلام بعض الأصحاب الحاضرين خواجة مصطفى لتبليغه هذا الكلام، فوقعت على ميرك حسن بعد أربعة عشر يوماً واقعة، فغضب عليه السلطان أحمد وأمر بسلخه حياً.

توجه حضرة شيخنا يوماً إلى قرشي، فلقيه قرا أحمد العربي في الطريق، وكان وكيل إبل حضرة شيخنا، وأظهر التظلُّم من السيد أحمد سارد، وكان شيخ العرب هناك، وبكى كثيراً وقال: إنه يؤذيني كثيراً ويظلمني. فتأثر من تألُّم قلبه وتغيّر ولكن لم يرد له شيئاً. ولما وصل إلى زقاق الملك راجعاً إلى سمرقند، استقبله السيد أحمد مع جمع من الأمراء، فبدأ حضرة شيخنا بعد ملاقاته بالحكاية واستولى عليه الغضب باكياً وقال متوجهاً إلى السيد أحمد: إنك قد ضربت خادمنا فأيقن أننا أيضاً نعلم طريق الضرب على ما ينبغي وخف من يوم نستقبلك فيه من هذا الطريق. وأذن له بالغضب بالانصراف، وكان ذلك وقت العصر، فصلى العصر ثم قعد ساكتاً مدة

مديدة ولم يكن لأحد مجال التكلم معه، فمرض السيد أحمد سارد في تلك الجمعة واشتد مرضه فأرسل قاصداً عند السلطان أحمد وقال: إن مرضي هذا عرض لي من طرف حضرة الشيخ، فإنه غضب عليَّ لصدور إساءة الأدب عني لبعض خدامه، فأرجو من حضرة السلطان أن يشفع لي باسترضاء حضرة الشيخ وطلب العفو منه لجريمتي. فأرسل السلطان إلى حضرة الشيخ الأمير درويش أمين الذي هو من مقربي السلطان ومن مخلصي حضرة شيخنا بالرسالة لطلب العفو عن جريمة السيد أحمد والتفات الخاطر إليه، ووقع ذلك مرات.

وكان حضرة شيخنا يتغافل عنه في كل مرة ولا يلتفت إليه أصلاً، فكثر إلحاح السلطان وإبرامه وقال: إن السيد أحمد من أرباب المصالح العظيمة فأرجو من حضرة الشيخ عفوه عنه البتة. ولما جاوزت مبالغته الحد قال حضرة شيخنا: إن هذا أمر عجيب، كيف يستدعي السلطان السيد أحمد الميت عني ولست أنا بعيسى عليه السلام حتى أحيي الموتى! ثم قال: لكن لما طلب السلطان ذلك مني نعوده. فركب فرسه، ولما بلغ باب القصر استقبلت جنازة السيد أحمد، فرجع إلى منزله.

ونقل: أن السلطان أحمد أبطل الرسومات الموضوعة على أموال التجار في سمرقند باستدعاء حضرة شيخنا، فاتفق جمع من المكاسين الذين كانوا يستفيدون من طرق الرسومات فوائد كثيرة وأموالاً جسيمة على وضع الرسومات ثانياً بعد مدة، وكانوا إثني عشر رجلاً، وحثُّوا السلطان على ذلك وأغروه بأنواع الحيل والمكر وإعطاء الرشوة لظلمة باب السلطان حتى رضي هو أيضاً بذلك. فبلغ هذا الخبر حضرة شيخنا فقال: إن حضرة الخواجة بهاء الدين النقشبند قدّس سرّه كان مدة جلاداً ونحن من تلامذته، فننظر على مَن تكون الغلبة؟. فبلغ بعض مقربي السلطان الحاضر في مجلس حضرة شيخنا هذا الكلام سمع السلطان فاستولى الخوف عليه وأخرج تلك الداعية من قلبه وأبعدها، وبلغ هذا الخبر أيضاً واحداً من هؤلاء المكاسين، وكان أذكاهم، فرجع عن تلك النيّة في الحال وتاب من هذا الفعل بالاستعجال وتوجه إلى الله الكبير المتعال. ومات الباقون، أحد عشر رجلاً، في تلك الليلة. فأخرجوا في الصبح إحدى عشرة جنازة من البلدة.

قال الشيخ أبو سعيد الأبريزي المار ذكره في الفصل الأول من المقصد الأول: جاء حضرة شيخنا يوماً في مبادي حاله وعنفوان شبابه منزلنا، وكنا مع جميع

المتعلقين مشغولين بخدمته. وكنا نشاهد منه آثار الجذبات العالية والأحوال السامية، وكانت ملاحظة تلك الأحوال ومشاهدة ما فيه من الآثار موجبة لازدياد عقيدتنا ورسوخها في حقه، فجاء أخي الكبير في ذلك الأثناء ودخل من الباب باكياً وقال: إن ابن أسد رئيس الأنهر والترع قد آذاني وتجاوز الحد في الظلم والجور. فاستدعت الوالدة توجه الخاطر من حضرة شيخنا بكمال الاضطراب وتمام التضرع والابتهال رقة لولدها، وقال: إن هذا الرجل ظالم وفاسق وقد تضرر منه كثير من الفقراء، فتبيَّن لي في ذلك الوقت أن حضرة الشيخ قد تأثر من اضطراب والدتي واضطرارها، وكان ذلك في وقت العصر، فقام للصلاة في الحال. ولما فرغ من الصلاة قال: قد دخل هذا الكلب في الصلاة فكفيت أمره، فوقع بينه وبين آخر نزاع بعد مدة يسيرة فأدبوه أدباً بليغاً.

وكان حضرة شيخنا يجيء منزلنا كثيراً لكوننا من مريديه ومخلصيه ومريدي آبائه الكرام أباً عن جد. ولما جاء مرة أخرى عرضت عليه الوالدة: إن خصمنا قد جُوزِيَ بفعله بيُمن همَّتك العالية. فقال حضرة الشيخ: ليس هذا أردت، والذي قلته: إن قد كفيت أمره، لم يقع بعد. ولما مضت مدة يسيرة أهلكوه بحكم سلطان الوقت بأن ربطوه على ذنب فرس وعدوا به ثم أحرقوا جسده الممزق بالنار.

قال شخص من أكابر المخلصين لحضرة شيخنا: حملني واحد من أرباب الثروة الذي كان بيني وبينه حقوق سابقة إلى بيته، وخاض في غيبة شيخنا في أثناء الطريق وبالغ فيها. وكنت من هذا الوجه في غاية التأثر والتألم، ولكن ما أمكن لي الرجوع، فإنه كان يجرني بالإلحاح والإبرام. ولما دخلنا منزله وحضر الطعام، مددت إليه يدي بكراهة فظهر في حلقه ورم في الحال حتى لم يقدر على أكل الطعام الحاضر وكان يئن آناً فآناً من تألمه حتى آل الأمر إلى أن كان لا يمر شيء من حلقه. فهلك بعد جمعة على هذا الحال.

كان الشيخ زادة إلياس العشقي حفيد الشيخ خداقلي ابن الشيخ أبي الحسن العشقي الذي هو رئيس حلقة سلسلته في زمن خواجة بهاء الدين النقشبند قدّس سرّه مقتداً جمع بسمرقند في ابتداء ظهور حضرة شيخنا، وكان له رباط في جبل النور من جبال سمرقند. وكان يشتغل بذكر الجهر، فمر حضرة شيخنا يوماً من صحراء فرأى فيها جماعة من الحارثين يميزون القمح عن عصفه، فسألهم حضرة شيخنا: إنه زرع

مَن هذا؟ فقيل: إنه للشيخ زاده إلياس. فنزل عن فرسه وقبض مقداراً من السنابل وفرّق الحب عن عصفه ثم ركب ومضى. فبلغ هذا الخبر الشيخ زادة فتأثر غاية التأثر وقال: قد أهلك الخواجة زرعنا. ثم صدرت عنه في ذلك الأثناء إساءة أدب فتفرّقت سلسلته بسببها وانقرضت.

وكتب مولانا القاضي محمد: إن مولانا الشيخ محمد الكشي كان يتعرض للشيخ زادة إلياس لاشتغاله بذكر الجهر. وطال الكلام والجدال بينهما، وكان جمع من أتراك كش من مريدي الشيخ زادة إلياس يخاصمون الشيخ محمداً حتى اتفقوا على إتلافه. وكان حضرة شيخنا يظهر الميل في الجملة إلى جانب الشيخ محمد خوفاً من وصول الضرر إليه من أولئك الأتراك ولم يكن له غرض غير دفع الضرر عن الشيخ محمد. فبلغ جماعة هذا المعنى الشيخ زادة بنوع آخر بحيث يفهم منه أن لحضرة شيخنا نفرة الخاطر من الشيخ زادة. فكتب الشيخ زادة إلى الأمير درويش محمد ترخان كتاباً يتعرض فيه لحضرة شيخنا وقال: يا أسفاً على ما طرأ على الدين والملة من الضعف والذلة حيث أن شيخاً ليس بيعه وشراؤه وزراعته ومعاملته كلها مطابقة لقانون الشريعة، ومع ذلك له توقير كثير في خاطركم وجميع كلامه نافذ فيكم. ولما كانت للأمير درويش عقيدة راسخة في حق حضرة شيخنا لم يقدر أن يكتم هذا الكتاب عنه، فجاء به عنده. ولما حضرت صحبته يوماً قال: هل رأيت ما كتب الشيخ إلياس في حقنا؟ وقرر ما كتبه وظهر فيه الغضب في أثناء التقرير وقال: يا شيخ زادة إن من أول يوم ظهوري إلى هذا الوقت قد وطئت بقدمي هذه من الشيوخ والموالي مثل النمل لا يعلم حسابهم إلا الله، ما يقول هذا المسكين؟ هل هو يعلم الشريعة فقط ونحن لا نعلمها؟. فبعد مدة يسيرة وقع وباء على رباط الشيخ زاده ومات بعض أولاده ومريديه ومات الشيخ أيضاً عقبهم.

ونقل عن القاضي أبي منصور التاشكندي أنه قال: كان في مبادي ظهور حضرة الشيخ مشائخ كثيرة في تاشكند قاعدين في مقام إرشاد الخلق إلى الحق، فضعف كلهم بالتدريج وتلاشوا بسبب الحسد والبغي والعناد لحضرة شيخنا. ولما قدم من باغستان إلى تاشكند بنيّة الإقامة فيه، وشرع في التصوُّف، وكان في تاشكند في هذا الوقت شيخ مقتدى تلك الديار، وكان عالماً بالعلوم الظاهرية وعلوم الصوفية، وكان له ما لا يحصى من المريدين حتى أجاز خمسين من أصحابه للإرشاد، فرأى أن حضرة شيخنا شرع في جذب المستعدين وجلبهم إليه، غار عليه، فجاء يوماً مجلسه

ليتعرض إليه وليتصرف فيه بزعمه ويظهر قوته وغلبته لديه، فقعد متوجهاً إلى حضرة شيخنا ناصباً عينيه إليه، وصرف جميع همّته ليرمي ثقلاً على حضرة الشيخ، فصار حضرة شيخنا أيضاً في مقام دفع تصرفه ثم رفع رأسه المبارك بعد لحظة وأخرج يده من كمه، وكان بين يديه منديل فأخذه وضرب به على وجه الشيخ وقال: كيف أقعد مع مجنون مسلوب العقل؟ ولم يبق في خاطره شيء من معلوماته، ثم قام ومضى. ولما صدر عن حضرة الشيخ هذا الحال وقال ما قال، وقام عن المجلس، صاح الشيخ صيحة عظيمة وسقط مغشياً عليه. ولما أفاق قام بسرعة وخرج من منزل حضرة شيخنا، فظهر في دماغه تشويش سوداوي حتى نسي جميع معلوماته في اليوم الثاني وصار يطوف في الأزقة والأسواق عرياناً ولم يهتد بعد ذلك إلى حفظ بدنه وستره. فإذا رأى حضرة الشيخ في الطريق أحياناً كان يعدو من خلفه مسافة، ولكن لم يفز بالتفات منه أصلاً.

وكان خواجة مولانا ابن خواجة عصام الدين، شيخ الإسلام بسمرقند، وكان يخوض في غيبة حضرة شيخنا دائماً، وكان في مقام الاتهام والإهانة. وصدر عنه يوماً في خلوة عند خواصه كلام فاحش في حق حضرة شيخنا فقال واحد منهم: إن الخواجة عبيد الله وإن لم يكن ولياً فرضاً فلا أقل من أن يكون صاحب دولة نفسه، فما وجه هذه المبالغة والتشنيع في حقه؟ فقال: نعم صدقت، وأنا أيضاً أعلم ذلك، ولكن ماذا أصنع؟! لا تتركني نفسي، ولا اختيار لي في هذا، وإنما يصدر عني ما يصدر بمقتضى طلب الجاه والرياسة. وكتب مولانا القاضي محمد: قال حضرة شيخنا: لما بلغ خبر موت السلطان أبي سعيد لقيني خواجة مولانا في الطريق فقال معرضاً عني بوجهه كالمستهزىء: خواجة، سلام عليك. ولم يتوقف أصلاً بل ساق فرسه بسرعة مع أنه كان رجع عن طريقه لمشايعتي حين لقيني قبل وصول هذا الخبر بيوم وشايعني إلى نصف فرسخ شرعي حتى صرفته إلى سبيله بإلحاح كثير. فتيقنت من فعله هذا في هذا اليوم أنه في فكر، ثم تبين بعد أيام أنه اتفق مع الأمراء أن لا يحضروا منزلي ولا يسمعوا كلامي ولا يعتبروني. وقال للأمراء: أنا أفتي بأنه يحل أخذ جميع أموال خواجة عبيد الله، ولم يحضر الأمير عبد العلي ترخان في هذا الاتفاق، بل حضر في آخر مجلسهم، فقال له الأمير درويش محمد ترخان: نحن قد اتفقنا على أمر ولم تحضر أنت، فينبغي لك أن تدخل معنا في هذا الاتفاق. فقال له الأمير عبد العلي: أنا تابع لكم في جميع الأمور وأنت أخ كبير، وما أنتم عليه أنا

عليه. ثم سأله عما اتفقوا عليه، فشرح له الأمير درويش قصة تدبير خواجة مولانا واتفاق الأمراء عليه. فأطرق الأمير عبد العلي ملياً ثم رفع رأسه وقال: بئس ما صنعتم، قد أخطأتم في هذا الأمر، فإن حضرة الشيخ لم يكن معتبراً باعتبارنا بل كان معتبراً باعتبار المعتبر الحقيقي وسيصيبنا غداً ضعف وهوان بضربة منه ولا يحصل لنا شيء غير الخجالة والرذالة، فاعلموا أني لا أدخل في اتفاقكم هذا وأني راضٍ بكل كراهة تحصل لي من تلك المخالفة.

قال الملا علي عران: جئت لرؤية خواجة مولانا بعد اتفاقه مع الأمراء، فقال لي مرحباً: تعال نذهب لرؤية هذا الشيخ المداح فانظروا ماذا أفعل به اليوم؟ قال مولانا علي عران: قد كانت لي عقيدة راسخة في حق حضرة الشيخ، فتألم قلبي من هذا الكلام، فاستأذنته بالإلحاح والإبرام، فلم يأذن لي وقال: إن كل ما أفعله في حضورك. فكدت أن يغمى عليَّ من ملاحظة قبح هذا الكلام ولكن لم تكن لي مندوحة من أن أرافقه. وكان حضرة الشيخ في هذا الوقت بقرية ماتريد، فتوجهنا هناك وسألت الله سبحانه بالتضرع والابتهال أن لا يريني شيئاً من إساءته للأدب الموجبة للانفعال. ولما وصلنا إلى ماتريد كان حضرة الشيخ قاعداً في القبة فاستقبلنا، ولما جلسنا جاء حضرة الشيخ بطعام من منزله ووضعه بيده الكريمة أمام خواجة مولانا. ولما شرعنا في الأكل وأراد أن يتكلم بشيء في حق حضرة الشيخ وملا أشداقه، جاء شخص مسرعاً وقال: جاء مرزا أحمد مع سائر الأمراء. فحصلت لخواجة مولانا من هذا الكلام غاية التشويش لأنه كان عاهدهم أن لا يحضروا مجلس حضرة الشيخ ولا خبر لهم أنه لأي شيء حضر عنده. ولما خرج حضرة الشيخ لاستقبالهم رمينا أنفسنا من الجدار إلى طرف آخر هرباً من الأمراء، فحمدت الله سبحانه في تلك الحالة على أني لم أسمع خرافاته. وقد تلوثت أثوابنا ولحيتنا بالتراب، فقعدنا بتلك الهيئة تحت الجدار إلى أن جاؤا بخيولنا من طرف آخر فركبنا وانصرفنا خائبين خاسرين. وذهب هو إلى جانب وأنا إلى جانب آخر. فصار المرزا والأمراء يحضرون مجلس حضرة الشيخ مثل الأول بل أزيد، وترجح رأي الأمير عبد العلي ترخان.

ذكر يوماً حضرة الشيخ في مجلس خواجة مولانا، فقال إساءة للأدب: اتركوا هذا الجعل الذي لا همَّة له غير جمع الدنيا. فبلغوا هذا الكلام حضرة الشيخ فقال: ويموت الجعل يموت. قال مولانا معروف ابن مولانا محمد الجراح: كنت في هراة

فجاءها خواجة مولانا لأنه لم يقدر أن يقعد بسمرقند أخيراً، فحضر أكابر هراة عنده لرؤيته مرة أو مرتين، فرأوه في غاية التشويش والهذيان ثم لم يحضر عنده أحد إلا قليل، فأقام في مدرسة الأمير جقمق وكان يقول لكل من حضر عنده: لا تعتقدوا أن ذلّتي ورذالتي هذه من كرامة ذلك الشيخ! فقال له يوماً شخص: يا خواجة، كنت شيخ الإسلام بسمرقند وحاكماً على الكل، وصاحب اختيار، ومرجع أهل الإسلام ومقتداهم، ومعزّزاً ومكرّماً عندهم أباً عن جد، وكان عامة ولاية ما وراء النهر وخواصها خدّامكم، فما بقي لك في آخر الأمر ملك ولا مال وصرت تجوب في البلاد وتطوف بين العباد بالرذالة والمذلة، ولم يبق لخاطر أحد إقبال عليك، فإن لم تكن هذه من كرامة الشيخ المكرَّم فما هي؟.

ثم عرض له مرض في آخر عمره واستعمل المسهلات في ذلك المرض. وكنت أحضر عنده أحياناً في أيام مرضه وأراه قاعداً في ما بين النجاسات والقاذورات، وكان يدخل يده في النجاسة ويجعلها في أنفه ويستطيبه ويقول: يا مولانا معروف نِعم الشيء المسهل. ويعمل من نجاسته الغليظة أحياناً بنادق ويلعب بها. وكان في مرضه هذا محترزاً عن الروائح العطرية غاية الاحتراز، فخطر على قلبي في ذلك الأثناء كلام حضرة الشيخ: إنه يموت بموت الجعل. والحق أنه كان كذلك، فإن إسهاله انجر إلى السحج وتقطعت أمعاؤه وأحشاؤه وصارت قطعاً قطعاً، ومات بين النجاسة. وكتب مولانا القاضي محمد: قال مولانا محمد المعمائي: حضرت عند خواجة مولانا يوم وفاته ففتح عينيه وقال: يا مولانا محمد ألتمس منك إن لقيت حضرة الخواجة يوماً أن تطلب منه العفو عن جميع تقصيراتي وإعذاره إياي فإني معترف بأن كل ما فعلته إنما فعلته بمقتضى الطبيعة وهوى النفس ورجعت الآن عن كله، فليعفو عني بمحض عنايته وكرمه. وفاضت نفسه في ذلك الأثناء، فبلغ هذا الكلام حضرة الشيخ وقت انشراح صدره وطيب قلبه، فتأثر غاية التأثر. وعلمت أنه عفا عنه جميع جريمته في حقه بالتمام وإن لم يقل شيئاً من الكلام اهـ.

يقول الفقير المعرب ستر الله عجزه: ومن أعظم تصرفاته ما أورده في «الشقائق» و«مرآة الكائنات» وغيرهما من المؤلفات في بيان الفتوحات العثمانية وعلماء زمنهم، وملخصه: إنه لما صلى حضرة الخواجة عبيد الله أحرار قدّس سرّه صلاة الظهر يوماً، وكان يوم الخميس، طلب فرسه الأبيض وركبه وخرج من بلد سمرقند مسرعاً وتبعه جمع من أصحابه. ولما انفصل عن البلد أمر الأصحاب

بالتوقف وتوجه وحده نحو صحراء عباس وتبعه واحد من مريديه خفية يقال له: مولانا شيخ. ولما وصل إلى الصحراء المذكورة أعدى فرسه إلى الأطراف والجوانب، وربما كان يغيب عن بصر الشيخ المذكور. ولما رجع إلى منزله سأله عن سبب ذلك، فقال: إن سلطان الروم كان مشغولاً بمحاربة الكفار فاستمد بي فذهبت لإعانته والحمد لله قد حصل الظفر بإذن الله.

ونقل صاحب «الشقائق» عن الخواجة محمد قاسم ابن الخواجة عبد الهادي، حفيد الخواجة عبيد الله أحرار قدّس سرّهم عن أبيه خواجة عبد الهادي أنه قال: لما قدمت بلاد الروم سألني السلطان بايزيد ابن السلطان محمد الفاتح عن زي جدي وقال: هل تعرف له فرسا أبيض؟ قلت: نعم كان يركبه في بعض الأوقات. فقال: قال لي والدي السلطان محمد أنه لما اشتد الحرب مع الكفار يوم فتح القسطنطينية استمددت من الشيخ خواجة عبيد الله أحرار السمرقندي قدّس سرّه فظهر شيخ صفته كذا وكذا راكباً على فرس أبيض، وقال: لا تخف. فقلت: كيف لا أخاف وعسكر الكفار كثيراً؟ فأراني كمه فإذا فيه عساكر لا تحصى وقال: جئت بهذه العساكر كلها لإعانتك، اذهب إلى التل الفلاني واضرب الطبل ثلاث مرات وامُر جيشك بالكر. ففعلت كل ما أمر به وذهب هو يحمل مع عساكره على الكفار فانهزموا وتيسر الفتح، وقد زعم الوزراء الحاضرون عندي كلامي لخواجة عبيد الله: كيف لا أخاف وعسكر الكفار كثير، أنه صدر عني من الحيرة والدهشة فإنهم لا يرونه. انتهى.

* * *

الفصل الثاني

في بيان خوارقه للعادات التي نقلها بعض الأعزّة والأكابر وأهل زمانه غير اولاده واصحابه

سمعت بعض الأكابر يقول: إن مولانا سعد الدين الكاشغري قدّس سرّه أظهر التحسر لحضرة شيخنا في مبادي أحواله وأوقات مصاحبته معه ليلاً ونهاراً وقال: يا أسفاً على عمر يفوت بلا حاصل ولم نفز بصحبة قطب الزمان وكبار أولياء هذه الأمة، فاللازم أن نسعى ونجتهد حتى نظفر بصحبة هذه الطائفة فعسى أن يحصل لنا حضور القلب وجمعية الباطن بيمن همّتهم وبركة صحبتهم ويتيسر لنا الاستراحة بالتخلص من شرور الأعداء الباطنية، أعني: النفس. وأطال الكلام في باب هذا التمني وبالغ فيه مبالغة كثيرة، وقد كشف لحضرة شيخنا بنور الكرامة أنه تفكر في نفسه قبل هذا بليلة: بأن لا حاجة لي إلى أحد بعد، فإن الطريق واضح بل اللائق أن أعمل وفق ما أعلم بلا تشويش نفسي بالتردد إلى صحبة الناس. فقال له بعد صدور هذا الكلام عنه: ألم تقل البارحة: إن لا حاجة لي إلى أحد فاللائق أن لا أشوش نفسي بالتردد إلى صحبة الناس، فكلامك هذا مناقض لفكرك ذاك؟ فتغير الحال على مولانا سعد الدين من إشرافه على خاطره وتيقن على التحقيق أن له اطلاعاً كاملاً وإشرافاً تاماً، فكان بعد ذلك يقول لحضرة شيخنا: علمت أنك قادر على الصحبة معنا على هذا الوجه وتحصل لنا جمعية الخاطر بيمن التفاتك فلم تؤخر هذا الأمر وتتوقف فيه؟ قال حضرة شيخنا: كنت أخالط مولانا سعد الدين على وجه كان يظن أكثر الناس أني مريده، ولكن كان بحسب الباطن يستمد مني دائماً ويقول هذا الكلام ـ يعني: التماس التفات الخاطر كثيراً ـ.

وروي أن قاضي أندجان كثيراً ما كان يحوم حول حضرة شيخنا وكان مقصوده دائماً أن يتشرف بتعلّم الطريقة من حضرة شيخنا. وكان حضرة شيخنا لا يلتفت إليه أصلاً، بل كان يتغافل عنه دائماً، وكان المذكور متألماً ومتوجعاً من تلك الحيثية غاية التألّم والتوجُّع. ولما كان بعض المخلصين في صحبة حضرة شيخنا الخاصة

وشاهد فيه بسطاً تاماً في ذلك الوقت، قال له: إن فلاناً يتوقع نظر العناية منكم منذ أوقات كثيرة، وأن يتشرّف بأخذ الطريقة، فقال له حضرة شيخنا: كل مَن كان في باطنه طلب الرياسة وأتفرس فيه تمني الجاه وإن كان بحيث يظهر أثره بعد عشر سنين لا يطيب قلبي أن أتكلم معه من طريقة خواجكان قدّس الله أرواحهم. قال ذلك المخلص: فحفظت تاريخ صدور هذا الكلام عن حضرة الشيخ، فصار هذا الشخص قاضياً في ولاية أندجان بعد عشر سنين، وقد توفي حضرة شيخنا في ذلك الوقت، وكان رئيس القوم في تلك الديار ومشاراً إليه بين الكبار والصغار، ومرجعاً للخواص والعوام، ولكن لم يكن له حظ من طريقة كبراء النقشبندية قدّس الله أرواحهم.

وكان في سمرقند طالب علم كان يعد نفسه من طبقة السالكين، وكان حول حضرة شيخنا أوقاتاً كثيرة. ولكن لم يكن مُشَرَّفاً بالتفات خاص من حضرة الشيخ ظاهراً، حتى قال هذا الفقير ليلة: أدور حول حضرة الشيخ منذ ثمان وعشرين سنة وأتوسل بوسائل كثيرة لأكون مظهراً لعنايته ومشرفاً بتعليم طريقته، فلم يترحم لي في تلك المدة أصلاً ولم يتيسر لي الفوز بحصول المقصود قطعاً حتى يخطر أحياناً في بالي من غاية الاضطراب أن أضرب حضرة الشيخ بالسكين أو أقتل نفسي فإنه لا طاقة لي بذلك ولا يظهر أثر المرحمة من حضرة الشيخ أصلاً. ثم كان بعد ذلك أيضاً في صحبة حضرة شيخنا إلى آخر حياته قدّس سرّه بذلك الرجاء ولم يظفر ببغيته، وتحيَّر الأصحاب كلهم من هذا المعنى وتعجبوا غاية التعجب. ولما استولى سلطان الأوزبك على سمرقند بعد سنين من وفاة حضرة شيخنا، وقد حصل لهذا الطالب جاه في ذلك الوقت، سمعت بعض الأكابر يقول: إنه سعى في قتل خواجة يحيى وأولاده العظام سعياً بليغاً فظهر بعد تلك الواقعة العظمى سر عدم التفات حضرة شيخنا إليه وانحراف باطنه عنه، وقد كشف له هذا المعنى قبل أربعين سنة.

قال واحد من المخلصين: إنه وقعت مني مرة هفوة، فبقيت في حجاب الخجالة ولم أقدر أن أحضر صحبته، ومضت على ذلك مدة أيام فقلت في نفسي أخيراً: إن الاحتجاب بسبب الجرائم وترك صحبة الأولياء من غاية الخسران؛ فاللازم أن أحضر صحبته على كل حال. فتوجهت نحوه بغاية الخجالة والانفعال وقرأت الفاتحة والإخلاص لروح خواجة بهاء الدين النقشبند قدّس سرّه لقبول عذري وتوسلت بروحه الشريفة ليتجاوز حضرة شيخنا عن جريمتي ويعفو هفوتي. ولما وصلت إلى صحبته الشريفة نظر إليَّ وقال: إن تيسرت قراءة الفاتحة والإخلاص

لروح خواجة بهاء الدين النقشبند والتوسل به على الدوام فيها، ولكن لا يحصل المقصود بذلك، بل ينبغي للسالك أن يكون مراقباً ومحافظاً على نفسه دائماً حتى لا يصدر عنه أمر غير مرضي. فتغيّر عليَّ الحال من كمال إشرافه على ما في البال وما ابتليت ثانياً بأمثال تلك الهفوة الموجبة للانفعال ببركة التفاته الشريف.

لما كان حضرة شيخنا في هراة في زمن السلطان شاهرخ، كان مولانا الشيخ المعظم أبو سعيد المجلد الهروي شاباً صاحب جمال وعيشة طيبة، وكان له من حضرة شيخنا التفات وتوجه الخاطر. وحكى لي هو أنه وقعت لي الملاقاة اتفاقاً مع امرأة حسناء في أوان التفات حضرة الشيخ إليَّ بمقتضى الشباب، وجاءت منزلي، ولما أردت المصاحبة بها في الخلوة سمعت صوت حضرة الشيخ يقول: ما تفعل يا أبا سعيد؟ فتغيّر حالي واستولت عليَّ الهيبة العظيمة والخوف الكثير والرعب القوي وارتعدت فرائصي، فقمت من مكاني وأخرجت المرأة من منزلي في الحال. ولما جاء حضرة الشيخ منزلي بعد زمان ووقع نظره الشريف عليَّ قال: لئن لم يدركك توفيق الله فقد أخرج الشيطان دخاناً من باطنك.

وحكى لي هو أيضاً: وقع على قلبي مرة هوس شرب الشراب، فقلت للخادم: إذا مضى زمان من الليل جئني بكوز من الشراب. فجاء به في نصف الليل فأدليت حزاماً من سطح البيت فربط الكوز به فجررته إليَّ، فصادم جداراً فانكسر طرف منه. ولما قرب إلى السطح انفك الحزام وسقط الكوز إلى الأرض وانكسر، فصرت ملول الخاطر من مشاهدة تلك الصورة ونمت. ولما قمت في الصبح نزلت ورميت كسرات الكوز إلى محل بعيد وجئت بماء وغسلت مكان الشراب. ولما جاء حضرة الشيخ بعد الصبح، كان أول كلامه: قد وصل صوت الكوز الذي جررته إلى السطح إلى قلبي وسط الليل، فلو لم ينكسر الكوز لانكسر قلبي ولم تتصور الملاقاة بيننا أصلاً. فخجلت منه غاية الخجالة ونهاية الانفعال فرجعت عن هذا الفعل بقلبي وتوجهت إلى الشيخ بكليتي.

ونقل واحد من أكابر مخلصيه: إنه لما رجع حضرة شيخنا من سفر حصار بعد ملاقاته وملازمته مولانا يعقوب الكرخي قدّس سرّه إلى هراة ثانياً، ونزل في منزل واحد من مخلصيه متلوثاً بغبار الطريق، وكان صاحب المنزل يشتغل بكسب الحلال خارج باب الملك، وكان له خلوص تام لأكابر النقشبندية، خصوصاً لحضرة شيخنا.

وقد نزل في منزله في ذلك الوقت اتفاقاً جمع من أحبابه وكان معهم غلام مشهور في البلد بغاية الحسن والجمال مع أبيه، وقد أكلوا الطعام ورفعوا السفرة قبل قدوم حضرة الشيخ. وكانت فيهم داعية تفرج خيابان، ولما رأى المخلص المذكور حضرة الشيخ وقع على قدمه وأظهر له التواضع فوق الحد والغاية حتى تحير منه الضيوف وتعجبوا. فإنهم كانوا لا يعرفون حضرة الشيخ ولكن كان كلهم متوجهين إليه موافقة لصاحب المنزل، إلا هذا الغلام، فإنه لم يقم من مقامه ولم يلتفت إليه أصلاً.

قال ذلك المخلص: ولما استقر حضرة شيخنا جالساً جئت عنده وقعدت على ركبتي وقلت: قد فرغ الأصحاب من الطعام حالاً والنار في الكانون فكل طعام لم يرغب فيه خاطرك وتشتهيه نطبخه. ولما كان في هذا الغلام هوس التفرج والتنزه وكان مقصودي أن أرافقهم قال منخلعاً عن الأدب قبل أن يقول حضرة الشيخ: لا، ونعم: قدم إلى هذا الرجل الغريب ما حضر من الطعام فإنه قد فات وقته ولا مجال لأحد الآن للطبخ. ولما شاهد حضرة الشيخ تكبره وتيهه أولاً، ثم سمع منه هذا الكلام ثانياً، قال خفية بحيث أسمعه: يا غلام ما غرك بحسنك؟ فإن لم أسود وجهك في هذه الصحبة فوباله عليّ. ثم قال بصوت عال: جئت من قطر بعيد جائعاً وأرغب في مرقة حارة. فقمت في الحال وهيأت مقداراً من اللحم والأرز والحمص وسائر مصالح الطبخ، وسكت حضرة شيخنا في ذلك الأثناء لحظة وجعل قلب هذا الغلام منجذباً إلى جانبه. فرأيته قد قام من مكانه بكمال الاضطراب وجاء عند حضرة الشيخ واستأذن للطبخ، فقال له حضرة الشيخ: لا مانع من ذلك. فجاء الكانون ورفع كميه وتشمر وأقامني من جنب الكانون وقعد واشتغل بإيقاد النار وسال العرق من جبينه ووجهه من حرارة النار، ومسح وجهه بيده مراراً وقد اسودت يده بسواد الفحم، فاسود وجهه وجبينه منها، ولما رآه أبوه وأصحابه نبهوه بذلك وقالوا: اغسل وجهك، فقال لهم على وجه الظرافة: النور في السواد. وحلف أن لا يغسلها حتى يضع الطعام أمام حضرة الشيخ. ولما جاء به عنده وتناول منه حضرة الشيخ، قام وذهب وغسل يديه ووجهه وتوضأ وضوءاً كاملاً ثم جاء عند حضرة الشيخ وجلس بالأدب التام وأكل معه من ذلك الطعام، وظهرت فيه محبة عظيمة لحضرة الشيخ. وما دام في هراة لم يفارقه ولم يترك ملازمته وكان له نظر العناية من حضرة الشيخ أيضاً.

قال واحد من محبي حضرة شيخنا: إن سبب اتصالي بحضرة الشيخ أني كنت

عاشقاً لواحدة من البنات، وبلغت محبتي لها غايتها ولم يبق فيَّ عنها صبر وقرار، ولم يزوجونيها. ولما عجزت عن حصول المراد فكرت في نفسي حيلة بأن حصلت شهود الزور على نكاحها إياي. وتوجهت إلى فركت لأدَّعي ذلك عند القاضي وأحضر الشهود عنده ليشهدوا بالنكاح، فاتفق أن القاضي ذهب إلى منزل حضرة الشيخ، فتوجهت أنا أيضاً عنده ولقيت القاضي هناك وقصصت القصة على حضرة الشيخ أولاً فقال لي: أريد منك أن تترك هذه الدعوى فإني لا أشم منك رائحة الصدق فيها. فوقع في قلبي شيء من كلامه وتغير عليَّ الحال، فتركت تلك الداعية في الحال وقطعت الخصومة مع هذه الجماعة. فعزم حضرة الشيخ أن يذهب إلى طرف تاشكند ونظر وقت ركوبه نظرة إليَّ وقع منها نار في قلبي بحيث لم أقدر أن أتوقف هناك، واستولى البكاء عليَّ بلا اختيار، ونسيت تعلقي الأول ووقع التعلق المحرق للقلب هنا. وكان أيام البرد وقد وقع ثلج عظيم، ومع ذلك نزعت خفي من غاية حرارة المحبة وتوجهت عقب حضرة شيخنا مسرعاً حافياً ماشياً فوق الثلج ولحقته بعد دخوله تاشكند وقد دخل حجرته وأوقد فيها ناراً، فلما رآني قال: تعال اصطلي بالنار. ثم خرج فاطمأن بعد ذلك قلبي إلى ملازمته ولم تقع عليَّ دغدغة تعلق الخاطر بأحد، وتخلصت عنها بالكلية.

قال واحد من محبيه: كان قلبي مائلاً إلى الصور الحسنة دائماً قبل لحوني بصحبة حضرة الشيخ وملازمته، وكانت علاقة المحبة بغلام صاحب جمال قوية ومؤكدة. ولما تشرفت بشرف صحبته زالت تلك العلاقة عن ساحة الصدر بالكلية وتبدل ميلان القلب إلى جانب حضرة الشيخ. وكنت مرة قاعداً عنده بتاشكند فوقعت في قلبي صورة ذلك الغلام، فنظر إليَّ نظرة وسمى ذلك الغلام وقال: قد كفيت عنك أمره وقطعت عنك علاقته، فماذا تفعل به؟ ولم يكن أحد مطلعاً على ذلك، فصارت مشاهدة هذا الحال سبباً لمزيد يقيني لحضرة شيخنا وموجبة لرسوخ محبته في البال.

وحكى واحد من محبيه: ذهبت مرة يوم الجمعة إلى المسجد الجامع ولحقت حين خروجي منه جمعاً من خدمة حضرة الشيخ، فدعاهم واحد منهم لأكل طعام في السوق. فدخلنا دكان طباخ، فاتفق لنا هناك دخول جمع من غلمان قصر السلطان في غاية الحسن والجمال ونهاية غرابة الشمائل وعجائب الخصال. فقلت للأصحاب: ألم تنظروا إلى جانب هؤلاء الغلمان؟ فقالوا: إن هذا غير مشروع، فكيف تدلنا عليه؟ فقلت لهم: إن كان النظر على وجه الشهوة فهو غير مشروع ولكن

إذا خلا عن الشهوة فلا ضرر فيه. فوقعت منا عليهم نظرات، ولما حضرنا مجلس حضرة الشيخ قال: من أين جئتم؟ قلنا: من المسجد الجامع. فقال: تقولون قولاً لا معنى له، فإن الباعث على الذهاب إلى المسجد الجامع والمقصود منه شيء آخر. ثم ظهر فيه أثر الغضب وقال: تدخلون دكان طباخ وتنظرون إلى الغلمان المرد ويقول بعضكم: إن النظر إليهم غير مشروع، ويؤوله بعضكم ويقول: لا ضرر فيه إن لم يكن عن شهوة. ثم توجه إليَّ وقال: أنا لا أقدر أن أنظر من غير شهوة، فمن أين لك النظر بلا شهوة؟.

وقال بعض أعزَّة الأصحاب: إن حضرة شيخنا كان مرة قاعداً بتاشكند مراقباً، وكان في ذلك المجلس جمع من الأصحاب قاعدين مراقبين. فرفع حضرة شيخنا رأسه وكانت في بشرته آثار التنفر والتوحش وقال: قد ظهر لي الآن أن جاءت مجلسي كلبة مملوءة الثدي من اللبن ومعها تسعة جرو. وبينما كان حضرة الشيخ في هذا الكلام إذ ظهر من بعيد عشرة أشخاص وكان هو مولانا علي القوشجي مع تسعة من تلامذته، جاؤا لرؤية حضرة شيخنا. ولما استقر بهم المجلس، قام حضرة الشيخ مسرعاً بعذر إحضار الطعام ودخل حرمه وأرسل إليهم الطعام ولم يخرج من منزله إلى أن أكلوا الطعام وذهبوا.

جاء يوماً إلى مجلس حضرة شيخنا شخص من خراسان يقال له: قطب المبتدئين. وكان فاسقاً ومدمناً للخمر ومتصفاً بالعقيدة الفاسدة ولم يحضر مجلس حضرة شيخنا قبل ذلك. ولما جلس عنده طرده من مجلسه بالعنف والزجر. وكان المير عبد الأول حاضراً في ذلك المجلس، فخطر على قلبه أن رجلاً غريباً جاء من مسافة بعيدة بالخلوص والتواضع لملازمته فماذا عليه إن لم يطرده بهذه الخشونة والعنف؟ فأشرف حضرة شيخنا على خاطره وقال متوجهاً إليه: إن طردي إياه إنما هو لظهوره في عيني بصورة جرو الكلب، ولا أقدر أن أعامل جرو الكلب أحسن من هذا. فحقق المير عبد الأول حاله بعد ذلك واطلع على حقيقة أفعاله من فسقه وفجوره وإدمانه للخمر وإباحة المحارم وسوء العقيدة، وتيقن أن طرد حضرة شيخنا إنما هو لظهوره في صورة صفاته الخبيثة.

قال حضرة شيخنا: ارتفع عن هذه الأمة مسخ الصورة، ولكن مسخ الباطن واقع. وعلامة مسخ الباطن عدم تألم باطن صاحب الكبيرة من ارتكاب الكبائر ويبلغ

من غاية إصراره على الفسق والمعاصي مرتبة لو صدرت عنه كبيرة لا تظهر عقبه في باطنه ندامة وملامة لنفسه، وتكون قساوة قلبه على وجه لو نبهوه بذلك لا يتنبه عليه ولا يتأثر أصلاً.

وقال: المير عبد الباسط بن النقيب السيد تقي الدين محمد الكرماني: لما أراد حضرة الشيخ من كمال التفاته أن يزوج كريمته لأخي المير عبد الله، كانت لأمه تردد وتذبذب في ذلك العقد، فقال لها السيد: ليس هذا محل التردد والتذبذب فاغتنمي هذه السعادة. فأرادت الوالدة أن تمتحن حضرة الشيخ لاطمئنان قلبها، فجعلت في عشرة خوان فطيراً معجوناً بالسمن واللبن مع عشرة حقاق كبيرة مملوءة من حلواء الترنجبين، وجعلت الكل في عشرة أسماط مصرية كلها في لون واحد ونقش واحد وأرسلتها إلى حضرة الشيخ وأعملت واحداً من السماط وواحدة من الحقاق وأخفت ذلك من الخادمين وأخطرت بقلبها: إن حضرة الشيخ لو كان ولياً فليأكل من هذا السماط المعلّم مقداراً من الفطير ومن هذه الحقة المعلّمة مقداراً من الحلواء ثم ليرسلهما إليّ ويقسم البواقي على الحاضرين. ولما جاء الخدام ووضعوا الأسمطة في مجلس حضرة شيخنا. وكان اتفاقاً في تفرج عمارة، وكان أناس كثيرون مشغولين بأمر الطين والعمارة. ولما وقع نظره على الأسمطة طلب اثنين منها وكسر فطيراً من السماط المعلّم وأكل لقيمات منه، ثم أخذ الحقة المعلّمة وفتحها وتناول قدراً من الحلواء ثم وضعها فوق السماط المعلّم وأشار أن يلفهما بسفرة وأعطاها على يد خادم خاص وأرسلها إلى الوالدة وقسّم البواقي على الحاضرين في حضور الخادمين. ولما شاهدت الوالدة تلك الحالة من حضرة الشيخ بادرت إلى إيقاع تلك النسبة بتمام الاهتمام حتى أتمتها في ذلك اليوم.

لا يخفى أنه ولد للأمير نظام الدين عبد الله من صبية حضرة شيخنا هذه خمسة أولاد وثلاث بنات. وأسماء أولاده: خواجة عبد السميع، كان مشهوراً بميرزا خاوند استشهد بهراة في أيام السلطان حسين ودفن عند قبر مولانا سعد الدين الكاشغري قدّس سرّه. وخواجة عبد البديع اشتهر بدوست خاوند، والأمير عبد الولي اشتهر بخواجة شاه، والأمير ظهير الدين، والأمير طاهر الدين محمد.

قال مولانا برهان الدين محمد ابن مولانا كلان الزيارتكاهي عليه الرحمة: جاء حضرة الشيخ مرة إلى زيارتكاه لرؤية الشيخ شاه، ولما خرج من منزل الشيخ

استقبله أخواي الأكبران مولانا عبد الرحمٰن، ومولانا أبو المكارم، والتمس كلاهما من حضرة الشيخ نزوله منزله. فقال لي حضرة الشيخ: أنت لم لا تقول شيئاً، ولم لا تريد أن تذهب بي إلى منزلك؟ قلت: إن هذا التمني قوي في قلبي لكن لا أقدر أن أجترىء مع وجود الأخوين الأكبرين على الإقدام. فقال: أنا أنزل في بيتك. ولما جئت به بيتي وجلس قال: أعجن منين من الدقيق لتجعله في المرقة ولا تزد عليهما. ففعلت كذلك امتثالاً لأمره، ولما سمع علماء القرية وصلحاؤها نزول حضرة الشيخ في بيتي اجتمع كلهم في منزلي حتى امتلأ الصفتان الكبيرتان من الأكابر، وفرشت الفرش في القصر، فامتلأ من الناس ولم يسعهم حتى قعد الباقون في سطح البيت والمبيت. فخطر في قلبي: إنه قد اجتمع هؤلاء الأكابر وأمر حضرة الشيخ أن أعجن منين من الدقيق، وصرح بعدم الزيادة، فما أصنع الآن ولا أقدر أن أخالف أمره ولا أن أسأله في الزيادة وتكثيره بسبب كثرة الزوار حتى لا يطرأ الانفعال؟ فبينما أنا في هذا الفكر وتردد الخاطر إذ رفع حضرة الشيخ رأسه المبارك وقال: الكلام هو الذي قلته، فافعل ما أمرتك ولا تتفكر في الزيادة. فقمت وطبخت ما أمر به وغرفته أولاً في طبق كبير ثم ملأت الكؤوس والأقداح والصحون وأرسلتها إلى جماعة حاضرين حتى امتلأت الصفتان وصحن القصر وجاؤا من بيوت الجيران بكؤوس وأقداح، فأكل منه الحاضرون كلهم في داخل القصر وخارجه حتى شبعوا. ثم أرسلت الباقي إلى بيوت الجيران أصحاب الكؤوس والأقداح. وكان ذلك كرامة ظاهرة من حضرة الشيخ واطلع عليه أكثر الناس، فزاد به حسن عقيدتهم فيه قدّس سرّه.

ولما توجه حضرة شيخنا إلى تاشكند ـ يعني: من هراة ـ في أول فصل الربيع، وصل في آخر نهار إلى ساحل نهر ونزل منزل واحد من مخلصيه، وكان بيته قريباً من ساحل النهر. فحكى لي هذا المخلص: إنه لما أظلم الليل وجاء وقت النوم قال لي حضرة الشيخ: بت أنت معي في هذا البيت. فبت معه في محل أبعد عنه، ونام هو أيضاً. ولما كان نصف الليل ناداني وقال: يا فلان أنائم أنت أم يقظان؟ قلت: بل يقظان، فقال: احمل المتاع الموجود هنا واخرج مسرعاً. وخرج بنفسه بتمام العجلة وأيقظ كل من كان في تلك النواحي وأمرهم بحمل متاعهم على المراكب واللحوق به. ثم تنحى إلى مسافة رمية سهم واستقر في محل عال، فلحقته بجميع أمتعتي مع المراكب والخدمة بتمام العجلة بناء على حسن ظني به، وحصل لبعض الأشخاص الذين كان لهم تردد الخاطر الحيرة والتعجب من إيقاظه إياهم وقالوا: ما السبب

والعلة في تضييعه نوم الأصحاب في نصف الليل؟ وأهملوا في القيام والخروج، فبينا هم في حيرتهم إذ جاء سيل عظيم لم ير أحد من أهل هذه الديار مثله ولم يسمع، فغرق بيتي الذي نام فيه حضرة الشيخ وغرقت الأمتعة والمراكب التي أهملوا في إخراجها كلها، ونجى الناس من الغرق والموت بمشقة كبيرة، وأخرب هذا السيل أمكنة كثيرة في تلك النواحي. فصارت مشاهدة تلك الصورة موجبة ليقين الحاضرين بولاية حضرة الشيخ.

كان الشيخ عيان ابن الشيخ بيان من طبقة خطباء كازرون، وكان متصفاً بالتقوى من بين طلبة العلوم. وجاء من العراق إلى خراسان، وأقام مدة في هراة، ثم قدم سمرقند وتشرّف بشرف استلام العتبة العلية والملازمة هناك مدة سنة وبضعة أشهر. وقال هو: توجه حضرة شيخنا مرة في فصل الربيع إلى تاشكند وأذن لي أيضاً أن أذهب في ملازمته. ولما وصلنا إلى نهر برك، وكان وقت طغيان الماء، ربط الأصحاب معابر من القصب وعبروا النهر واحداً بعد واحد، واختار حضرة الشيخ أيضاً معبرة واحدة منها وركب عليها وأخذني معه ومشينا. ولما توسطنا النهر ضعفت ربطات المعبرة وانحلّت حتى انفلتت القصبات منها فاستولى عليَّ وهم عظيم من خوف الغرق وصرت مضطرباً، فإني لم أكن أعرف السباحة والماء في غاية الجريان ونهاية الطغيان، وبعد الساحل مسافة رمية سهم، وحضرة الشيخ قاعد بفراغ البال وبسط الحال. ولما رأى اضطراري واضطرابي قال بصوت عال: الله، حتى ارتعدت من هيبته جميع أعضائي، فرأيت بعد ذلك أن القصبات التأم بعضها إلى بعض وتلاصق، وصارت المعبرة أقوى وأضبط من الأول. ولما وصلنا إلى الساحل قال لي: قم واخرج. فوثبت وخرجت إلى الشط مسرعاً فنظرت إلى حضرة الشيخ فرأيته قد قام فوق المعبرة بتمام التمكين، ولما وضع قدمه في الشط تفرقت القصبات دفعة واحدة مع رفع حضرة الشيخ قدمه الأخرى عنها.

كان مولانا محمد ابن مولانا سيف الدين من أعزّة العلماء المتقين، وكانت له قرابة لمولانا نظام الدين الشهيد، وكنت في هراة في جواره، وكنت أستفيد منه العلوم أحياناً. فمرض مرة في شهر رمضان وطرأ عليه ضعف كلي وصار بحيث لا يقدر أن ينقلب من جنبه إلى جنبه، ويئس أولاده وأصحابه وتلامذته عن حياته حتى اشتغلوا بإحضار الكفن والنعش وبلغ ضعفه الغاية، واشتداد مرضه النهاية في واحد من يوم الجمعة. وذهب بعض أولاده إلى المسجد واشتغل بعضهم بالتجهيز

والتكفين، وكان كل واحد من متعلقاته في شغل من الأشغال. ولما كان وقت الاستواء وقرب الزوال، دق شخص باب القصر ولم يكن في البيت أحد من الرجال، فجاءت جارية له عند الباب، فرأت شاباً أشقر طويل القامة في صورة جندي مغبر الرأس والوجه وقد نزل عن فرسه، فقال: جئت لعيادة مولانا من مسافة بعيدة، فأدخلته الجارية القصر وبقيت بنفسها عند فرسه. ولما فتح مولانا عينيه رأى عنده شاباً عليه أثر السفر، فسأله بالإشارة: من أنت ومن أين جئت؟ فقال: أنا من ملازمي حضرة شيخنا خواجة عبيد الله، أرسلني لعيادتك والبشارة بصحتك وقد خرجت اليوم من سمرقند بعدما صلّيت صلاة الصبح مع حضرة شيخنا فيه، وأمرني أن أحضر صلاة المغرب هناك وأفطر معه. فوجد مولانا قوّة في نفسه بعد سماعه منه هذا الكلام حتى رفع رأسه وقعد في فراشه من غير إعانة أحد، وأخذ الشاب شربة من رف وصبها في كأس وأشربها لمولانا ثم ودعه وخرج من عنده وركب فرسه وساقه بسرعة وغاب عن الأعين في حينه. وكانت زوجة مولانا وقت مكالمته مع الشاب في بيت متصل بالبيت الذي فيه مولانا، فسمعت صوتهما، فجاءته بعدما خرج الغلام ورأته قاعداً على فراشه بصحة وقوة تامة ورأت في الأرض شربة وقدحاً، فسألته متعجبة ومتحيرة عن صورة الحال، فقص عليها القصة وصلّى صلاة العصر في ذلك اليوم قائماً ثم قام عن فراشه بكمال الصحة وتمام العافية بعد ثلاثة أيام واشتغل بالتدريس.

قال واحد من أكابر أصحاب حضرة شيخنا في هراة حين سمع هذه القصة من الفقير: إني رأيت بهذه العلامات التي حكاها مولانا محمد شخصاً فيما بين وكلاء حضرة شيخنا، ولكنه كان مشغولاً بأمور دنيوية ولا يظن أحد صدور مثل هذا الأمر عنه.

ولما تشرّف هذا الفقير بشرف استلام أقدام حضرة شيخنا بقرشي مع مولانا خواجة كلان ابن مولانا سعد الدين الكاشغري قدّس سرّه أول مرة، واستسعدت بسعادة خدمته السنية، وملازمة صحبته العلية مرات كثيرة، كان يقول أحياناً في أثناء الصحبة وخلال المجلس خطاباً للفقير: لم لا ترجع إلى خراسان، ارجع، فقد سلب أبوك وأمك راحتي. وكنت من هذا الكلام في غاية الخجالة ونهاية الانفعال حتى أجاز مولانا خواجة كلان بالرجوع إلى خراسان وأمرني أيضاً أن أرجع معه إلى خدمة الوالدين، وقال: إلحقهما مسرعاً فإنهما قد سلبا عني راحتي. وكرر هذا

الكلام. ولما وصلت إلى خدمتهما عرضت عليهما كلام حضرة الشيخ، فنظر بعضهم إلى بعض وبكيا وقالا: علامة صحيحة، فإنّا كنا نتوجه إلى حضرة الشيخ بعد كل صلاة ونطلبك منه بالتضرع والبكاء ونقول: يا حضرة الخواجة أرسل إلينا ولدنا.

ولما أردت التوجه إلى ملازمة حضرة شيخنا ثانياً التمست منهما بالبكاء والتضرع أن لا يطلباني من حضرة الشيخ وأن يتركاني على اختياري. ولما تشرّفت بتقبيل عتبته وشرف صحبته لم يصدر عنه أمثال تلك العبارة أصلاً ولم يشر إليّ بالرجوع إلى خراسان قطعاً.

قال واحد من محبيه ومخلصيه: غاب عني غلام في سمرقند وما كان لي شيء من الدنيا غيره، ومضت على ذلك مدة أربعة أشهر ولم تبق ناحية من نواحي سمرقند وحواليها إلا ذهبت إليها وطلبته منها غير مرة، ولم أترك جبلاً ولا صحراء إلا طفت فيها لطلبه فلم أجد منه خبراً ولا أثراً وصرت عاجزاً ومتحيراً، فإنه كان قوة ظهري وساعدي وعضدي وكنت محتاجاً إليه غاية الاحتياج، فطفقت أطوف كالهائم، فلقيت حضرة الشيخ في تلك الأثناء حين يمر من صحراء ومعه جمع كثير من أصحابه، فجئته وأخذت بعنان فرسه من غاية الاضطرار والاضطراب وعرضت عليه قصة الحال بالتضرع والانكسار وقلت: لا تنحل عقدة أمري إلا بنظر عنايتك. فقال: أنا رجل دهقان لا أعلم هذا، ينبغي لك أن تطلبه حتى تجده. فألححت له وبكيت بالتضرع لديه وطلبت منه غلامي لعدم الطاقة على آلامي. فإني كنت سمعت أنّ للأولياء تصرفات يخبرون عن الغائب ويحضرونه، وإن استبعد حضرة الشيخ عن نفسه هذا المعنى، لكني لم أترك عنان فرسه. ولما رأى أني قد جعلته غاية ملجئي لم يجد بدأ من قضاء حاجتي. فسكت لحظة ثم قال: هل طلبته في هذه القرية؟ وأشار إلى قرية قريبة، قلت له: نعم طلبته منها مرات كثيرة ورجعت محروماً. فقال: اطلبه ثانياً تجده إن شاء الله. ثم ساق فرسه بسرعة، فتوجهت تلقاء تلك القرية، ولما وصلت إلى فنائها رأيت غلامي قاعداً على أرض يابسة متحيراً أو متفكراً وبين يديه كوز مملوء ماء. ولما وقع بصري عليه صحت بلا اختيار وقلت: أين كنت يا غلام في تلك المدة؟ قال: لما خرجت من بيتك غرّني شخص وذهب بي إلى خوارزم وباعني من شخص فيه فكنت في خدمته إلى هذا اليوم ونزل عنده اليوم ضيوف فأمرني أن آتي بالماء بهذا الكوز وأن أطبخ الطعام، فأخذت الكوز وجئت النهر وملأت الكوز، ولما رفعت الكوز رأيت نفسي هنا في أرض يابسة فبقيت متحيراً ومدهوشاً وما أدري أن هذه الصورة هل هي في اليقظة أم في المنام. فتيقنت أن هذا

تصرف من حضرة الشيخ، فتغيّر عليّ الحال من مشاهدة تلك الصورة، فأعتقت الغلام في الحال ووجهت وجهي نحو حضرة الشيخ وصارت مشاهدة تلك الصورة باعثة على دوام اتصالي بحضرة الشيخ.

اعلم أن حضرة شيخنا، وإن كان بحسب الظاهر ممنوعاً عن سفر الحجاز وزيارة الحرمين الشريفين من طرف السلاطين بفتوى أئمة الدين، ولكن قال الشيخ عبد الوهاب شيخ الإسلام العراقي غير مرة: لما وصلت إلى صحبة الشيخ عبد المعطي بمكة وكان مقتدى أهل الحرم ومرجع الطالبين في علم الشريعة والطريقة من العرب والعجم بعد وفاة الشيخ قطب العارفين عبد الكبير اليمني قدّس سرّه، ذكرت عنده يوماً بالتقريب نبذة من شمائل حضرة شيخنا فقال: لا حاجة إلى تعريفه وتوصيفه فإني كنت هنا في صحبته وملازمته مراراً. وبيَّن من شمائله وخصائصه ما لا يحصى كأنه كان في صحبته سنين.

ونقل بعض العدول والثقات عن مولانا زادة الفركتي، الذي هو من مريدي مولانا نظام الدين الخاموش عليه الرحمة، وصحب حضرة شيخنا أيضاً كثيراً بعد وفاة مولانا أنه قال: ذهبت مرة في ملازمة حضرة الشيخ من قرية إلى قرية في أقصر أيام الشتاء، وصلّينا العصر في الطريق وقد حان غروب الشمس وتغيّر قرصها، وبقيت إلى المنزل مسافة فرسخين وليس في تلك المسافة محل استراحة، فخطر في قلبي: إن الغروب قريب والطريق مخوف والهواء بارد والمنزل بعيد، فكيف يكون الحال وحضرة الشيخ يسوق فرسه بسرعة. ولما تكرر ذلك الخاطر وغلب عليَّ الخوف، توجه إليَّ وقال: لا تخف ولا تشوش قلبك، وسق فرسك، نصل إلى المقصد إن شاء الله قبل غروب الشمس. وضرب فرسه بسوط بعد ذلك وأخذ يسوقه بسرعة وأنا أيضاً أسوق من خلفه وأنظر إلى جرم الشمس آناً فآناً فأراها واقفة في الأفق لا ميل لها إلى الغروب والأفول أصلاً، بل تخيَّل لي كأنها سُمرت في أفقها. ولما وصلنا إلى عمران القرية غابت دفعة واحدة بحيث لم يبق منها أثر ولا من بقية حمرة الشفق خبر، بل صارت الآفاق مظلمة على وجه لا يمكن رؤية الألوان والأشكال، وفرق النسوان من الرجال. فاستولت عليَّ الحيرة والهيبة وتيقّنت أنه كان تصرفاً منه بلا ريبة، فلم أملك نفسي حتى سقت فرسي وأدركته فقلت: يا خواجة قل لي حسبة لله: ما هذا الذي رأيته؟ فقال: هذا واحد من شعابذة الطريقة.

* * *

الفصل الثالث

في ذكر كراماته ومقاماته التي شاهدها منه أولاده الكرام أو كُمّل أصحابه العظام، ونقلوها عنه

ونذكر نبذة من أحوال الناقلين عند النقل عنه على سبيل الإجمال:

محمد عبد الله، المشتهر بحضرة خواجكا قدّس سرّه: هو ولده الأكبر. كان موصوفاً بأنواع العلوم الظاهرية وأصناف الحقائق الباطنية. وكان عالماً متبحراً في العلوم النقلية والفنون العقلية. وكان في حقائق علوم الكتاب والسنة حديد البصر دقيق النظر على وجه لا تخفى على نظر حقيقته دقيقة. ومع تبحره في العلوم الظاهرية كان محتظياً من كمالات النسبة الباطنية، وكان يجتهد ويداوم على تحصيلها، وكان يحكي أشياء كثيرة من تصرفات حضرة شيخنا وخوارقه العادات. وكان حضرة شيخنا يعظُمه ويوقره أكثر وأزيد مما يعظم الوالد ولده. ورأيت حضرة شيخنا مرة قاعداً في حجرته في محلة خواجة كفشير في محوطة العلماء من غير تكلف متعمماً بمنديل وفي ملازمته بعض الأصحاب والخدمة. فأخبره شخص بمجيء خواجكا، وكان يسكن في تلك الأيام بقرية ورسين التي هي قرية خاصة به على فرسخين من البلد، وكان يجيء لملازمة حضرة شيخنا في كل شهرين أو ثلاثة أشهر مرة لوقوع الكدورة ونفرة الخاطر بينه وبين أخيه الأصغر خواجة محمد يحيى عليه الرحمة. ولما سمع حضرة شيخنا مجيئه طلب عمامته وجبته وخفيه ورمى المنديل وتعمم بعمامته ولبس جبته وخفيه وقام واستقبله وأدخله الحجرة وأجلسه بجنبه فوق جميع الأصحاب، وجاء معه جمع من علماء سمرقند ومواليه. فأمره حضرة شيخنا بعد سكوت لحظة بالتكلم وإفادة العلوم للحاضرين، فسكت خواجكا إظهاراً للتواضع، فأخذ حضرة شيخنا «تفسير القاضي» وفتحه وشرع في التكلم في آية من الآيات. فأورد خواجكا في تفسير تلك الآية كثيراً من أقوال علماء الظاهر وحقائق أهل الباطن حتى تحيّر العلماء الحاضرون من تبحره وسرعة استحضاره. ثم جاءوا بطعام وشربة ثم قام

حضرة خواجكا بعد الفراغ من الطعام ومشى حضرة شيخنا لمشابهته أقداماً، ثم جاء حجرته وقعد ونزع خفيه وعمامته وتعمم بمنديل مثل الأول.

توجه حضرة شيخنا يوماً من محلة خواجة كفشر إلى قرية ورسين لاستفسار أحوال خواجكا، وتوجهت أنا أيضاً من خلفه وحدي ماشياً. فأخطأت الطريق وبت تلك الليلة في الطريق عاجزاً متحيراً. ولما وصلت في اليوم الثاني إلى ورسين كان حضرة شيخنا قد توجه منها إلى قرية أخرى بدعوة، ولكن تشرّفت هناك بصحبة خواجكا وقد سمع أولاً اسم الفقير ورأى بعض مصنفات والدي عليه الرحمة. ولما عرف الفقير أظهر التفاتاً كثيراً وسأل عن أحوال الوالد فقال: قد سمعت أن لكلامه تأثيراً تاماً في نفوس الخواص والعوام، وأنه لا نظير له ولا عديل في دقائق التفسير وحقائق التأويل. وجرى بيننا أقوال كثيرة بالتقريب، وشرع في بيان معنى قوله تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٩]. ونقل كثيراً من أقوال علماء الظاهر والباطن، ورد أقوال الفلاسفة القائلين بأن المراد بالنار غضب نمرود، وبردها: إطفاء ثائرة غضبه. وأثبت كونها ناراً عنصرية وأن البرودة عارضة لماهيتها بمقدمات عقلية. وبيَّن في إثبات هذا المعنى من كلام أرباب التدقيق وأحوال أصحاب التحقيق ما يكون رسالة مستقلة حين تحريره، وأضاف الفقير ثلاثة أيام ولم يفارقني في تلك المدة غير وقت النوم. وشاهدت منه ألطافاً كثيرة وعناية جزيلة في تلك الأيام ظاهراً وباطناً. وأشار في الخلوة إلى شرائط ملازمة حضرة شيخنا وآداب صحبته، وبيَّن نبذة من دقائق نكات هذه الطريقة العلية، ثم أذن لي بعد ثلاثة أيام وأرسلني إلى محلة خواجة كفشير بالفرس.

هرب هو من سمرقند وقت ظهور شاه بك خان واستيلاء طائفة أوزبك على سمرقند إلى طرف أندجان، وارتحل من الدنيا هناك رحمة الله عليه، وقبره هناك.

قال: لما كنا بتاشكند في مبادي أحوال حضرة شيخنا، استأذنته عمة الفقير أن تعود مريضة من الأقرباء في الجيران، فمنعها من ذلك. ولما سافر إلى فركت عزمت العمة أن تعودها بعد ثلاثة أيام من سفره قائلة في نفسها: إنه ذهب إلى فركت فأذهب عندها وأعودها فأخرج بذلك عن عهدة صلة الرحم. ولما رضعت قدمها خارج الباب رأت حضرة الشيخ قد ظهر راكباً فقال: أتذهبين لعيادة المريضة؟ ارجعي، ألم تخافي أن تكوني مريضة فيلزم عيادتك أيضاً! فرجعت، ولما دخلت البيت عرض لها

المرض ووقعت في الفراش محمومة. ولما رجع حضرة الشيخ بعد أيام من فركت جاء لعيادتها فقال: ما لك وللعيادة حتى تكوني مريضة.

وقال: إن عمتي كانت من النساء العارفات، وبلغت بالتفات حضرة الشيخ الدرجات العاليات. وكانت تنقل من حضرة الشيخ أحياناً أشياء. قالت: إذا عرض لحضرة الشيخ قبض حين إقامته بتاشكند في أيام شبابه، كان يخرج من البيت ويدخله، وكان يفعل كذلك مرات. وكلما دخل البيت كان يظهر في غير الصورة الأولى بطريق الخلع واللبس، فإن دخل مثلاً مائة مرة كان يظهر في كل مرة بصورة أخرى حتى كانت النسوان في الحرم يصحن من مشاهدتهن إياه في صورة أجنبي. وكان حضرة الشيخ يخلع تلك الصورة ويظهر في صورته ويتبسم، فيرتفع عنه القبض بذلك، وكثيراً ما كان يظهر منه الخلع وقت القبض.

ومن جملة خلعه ولبسه قدّس سرّه ما كتبه حضرة مولانا العارف عبد الرحمٰن الجامي قدّس سرّه السامي في «نفحات الأنس» حيث قال: قال جناب قطب الإرشاد خواجة ناصر الدين عبيد الله أدام الله إرشاده على مفارق الطالبين: لما وصلت إلى صحبة مولانا يعقوب الكرخي قدّس سرّه وكان في جبهته بياض يسير موجب لنفرة الطبيعة، ومع ذلك ظهر لي في لباس السياسة والخشونة في الكلام حتى كاد باطني ينقطع عنه بالكلية. وحصل لي يأس كلي من غاية سياسته ونهاية تغليظه، فصرت محزوناً ومغموماً من ذلك. ولما جئت مجلسه ثانياً ظهر في صورة محبوب ما رأيت أحداً محبوباً مثله، وأظهر ألطافاً كثيرة. قال مولانا الجامي: ولما نقل حضرة الخواجة عبيد الله هذا الكلام ظهر لي في صورة واحد من الأكابر الذين كانت لي رابطة الإرادة وعلاقة المحبة به، وقد ارتحل من الدنيا من مدة أزمان، ثم خلع تلك الصورة في الحال وظهر في صورته، فتوهمت أن تلك الصورة لما كانت مرتسمة في لوح الخيال أريتها في الخيال فقط دون الواقع. ثم سمعت من بعض رفقائي في ذلك المجلس: إنه قد شاهد أيضاً مثل ما شاهدته. وعقيدة الفقير أن هذا الخلع واللبس كان بشعور واختيار منه لإثبات ما نقله عن حضرة مولانا يعقوب الكرخي قدّس سرّه.

يقول راقم هذه الحروف: قد سمعت تلك القصة من الحاج المزاري والحافظ إسماعيل الروجي اللذان هما من أصحاب مولانا سعد الدين الكاشغري قدّس سرّه

وقالا: كنا في ذلك اليوم مع مولانا عبد الرحمٰن الجامي قدّس سرّه السامي، وشاهدنا الخلع واللبس من حضرة الخواجة عبيد الله قدّس سرّه، ظهر في صورة مولانا سعد الدين الكاشغري قدّس سرّه ووقع ذلك في هراة بساحل نهر إنجير في منزل ميرقتاد في زمن السلطان أبي سعيد.

وقال مولانا خواجكان: ذهب واحد من خدام حضرة الشيخ من تاشكند إلى سمرقند قبل ارتحاله إلى سمرقند، فأمره حضرة الشيخ أن يجيء بظروف من العسل منه، فملأ ظروفاً من العسل وربط فمها وختمها وحملها معه وتوجه إلى تاشكند. فاتفق أن قعد في دكان بزاز بسمرقند لمهم من مهماته ووضع الظروف في حجره، فظهرت في ذلك الأثناء امرأة جميلة سكرانة، وكانت محبوبة ذلك البزاز، فجلست بجنب دكانه فسبقت من الخادم نحوها لحظات ثم صرف نظره عنها وأخذ الظروف وتوجه إلى تاشكند. ولما وصل إلى منزل حضرة الشيخ لم يجده في المنزل، فإنه كان ذهب إلى الصحراء فوضع الظروف في محل محفوظ وأراد أن يذهب خلفه إلى الصحراء. فبينما هو في هذا الفكر إذ قدم حضرة الشيخ فأحضر عنده الظروف، ولما وقع نظر حضرة الشيخ عليها غضب عليه وقال: تفوح من هذه الظروف رائحة الشراب. واشتد غضبه عليه وقال: يا بعيداً عن السعادة أطلب منك العسل تجيئني الشراب!، فقال الخادم: أنا ما جئت بالشراب بل جئت بالعسل. ففتحوا أفواه الظروف فوجدوا كلّا منها مملوءاً بالشراب.

لا يخفى أن مولانا خواجكا تزوج ابنة السيد تقي الدين محمد الكرماني عليه الرحمة، فولد له منها ثلاثة أولاد وبنتان، وأسماء أولاده: خواجة نظام الدين عبد الهادي، وخواجة خواند محمود، وخواجة عبد الحق أدام الله تعالى ظلال أفضالهم. ثم تزوج بعد وفاة كريمة السيد بنت الخواجة محمد نظام الدين من أولاد صاحب الهداية، فولد له منها أيضاً ثلاثة أولاد وبنتان. وأسماء أولاده: خواجة عبد العليم، وخواجة عبد الشهيد، وخواجة أبو الفيض. وله أيضاً ولد آخر من سريته التركية يسمى بـ: خواجة محمد يوسف.

* * *

* مولانا خواجة محمد يحيى عليه الرحمة: هو ولده الأصغر. كان محبوباً إليه ومقبولاً لديه في الغاية حتى جعله قائماً مقامه في آخر حياته وفوّض تولية ضريحه

المنوّر إليه بعد مماته. قيل: كلما حضر خواجة يحيى مجلس حضرة شيخنا كان يظهر منه الحقائق والمعارف أكثر من سائر الأوقات، وكان المخاطب وقت التكلم بتلك الحقائق والمعارف خواجة يحيى مع حضور أصحابه الكبار من العلماء والصلحاء. وكان مولانا العارف عبد الرحمٰن الجامي قدّس سرّه معتقداً فيه غاية الاعتقاد. وكان يمدحه ويصفه بأوصاف حسنة كثيراً. وقال يوماً بالتقريب: إن لخواجة محمد يحيى مناسبة تامة لطريقة أكابر النقشبندية قدّس الله أرواحهم، والغالب على مولانا خواجكا هي النسبة العلمية، وعلى خواجة يحيى نسبة الجذبة.

ولما قدم خواجة يحيى هراة قال لي يوماً: أريد أن أذهب عند مولانا محمد الروجي، فكن أنت أيضاً معي. ولما جئنا عنده خرج مولانا من منزله المتصل بالمسجد الجامع بكمال الأدب وغاية الاحترام وتمام التعظيم للاستقبال وأدخله منزله بعد المصافحة، فانعقدت صحبة عالية ومرت الصحبة من أولها إلى آخرها على السكوت. ولما جئت عند مولانا محمد في اليوم الثاني قال لي: يا فلان، ما ألطف نسبة خواجة محمد يحيى وما أحسن استعداده! قد كنت أمس وقت جلوسه في الصحبة مشغوفاً بلطافة نسبته حتى كادت أن تظهر الصيحة من باطني. فعرضت كلامه هذا على خواجة يحيى ففرح بذلك وقال: إني نفيت نفسي أمس في الصحبة وأثبت حضرة مولانا، فكلما شاهد مني إنما شاهد ما في نفسه. ولما توفي حضرة شيخنا اشتغل مولانا خواجة يحيى بطريقة خواجكان في مرقد حضرة شيخنا اشتغالاً تاماً واجتهد في تحصيل نسبتهم الجمعية. وكانت وظيفته وكيفية اشتغاله على وجه كان يتحزم بعد صلاة العشاء بحزام طويل ويجلس قبالة قبره الشريف جاثياً مراقباً مع حفظ جوارحه من الحركات الزائدة، ولا يقوم إلى الصبح أصلاً إلاّ للتهجد. فلا جرم كان الأصحاب ينالون في صحبته ما كان يحصل لهم من الجمعية وآثار النسبة في صحبة حضرة شيخنا، وكانوا يتأثرون غاية التأثر.

ذهب واحد من أهل خراسان إلى سمرقند بعد وفاة حضرة شيخنا، وكان له إرادة صادقة وعقيدة راسخة في أكابر النقشبندية. فحكى لي بعد رجوعه منه: كنت أذهب إلى محلة خواجة كفشير لصحبة خواجة محمد يحيى كثيراً، وكنت أجد في صحبته حضوراً وافراً. ولما ذهبت يوماً إلى بابه اتفق أن كان في داخل حرمه فجلست في صفة الدهليز منتظراً لقدومه فخطر في ذلك الأثناء على خاطري: إن

حضرة شيخنا كان يتصرف في بواطن المستعدين ويوصلهم إلى مرتبة الغيبة والذهول، أليس لخواجة محمد يحيى تصرف؟ أم ليس في هذا الوقت طالب قابل حتى يصرف الخاطر لجمعيته؟ وغلب هذا الخاطر عليَّ. وبينا أنا في هذا الفكر إذ خرج خواجة يحيى وجلس قريباً مني على السكوت، ثم قال: إن أرباب التصرف على أصناف شتى، فبعضهم مأذون ومختار يتصرف في باطن من شاء متى شاء باختياره بإذن الله ويوصله إلى مقام الفناء والغيبة. والبعض الآخر مع وجود قوة التصرف فيه لا يتصرف بلا أمر غيبي وإيماء لا ريبي ولا يتوجه إلى أحد بلا إذن له من المبدأ الفياض. وبعضهم يكون على وجه تغلب عليه صفة وحالة فيتصرف في بواطن المريدين حين غلبتها عليه ويجعله متأثراً من أحواله ومنصبغاً بصبغه. وأما من لم يكن مأذوناً ومختاراً ولا مغلوب الحال، فكيف يتوقع منه التصرف؟. ثم التفت إليَّ في أثناء هذا الكلام فحصلت فيَّ كيفية عجيبة حتى غبت عن نفسي وسقطت على الأرض من غير شعور وذهلت عن نفسي وعن غيري وبقيت على ذلك مدة. ولما أفقت وفتحت عيني وجدت نفسي مائلاً إلى جنبي في الصفة وخواجة يحيى قاعداً مراقباً مغمضاً عينيه، فجلست في الحال مثل الأول وتيقنت أن خواجة يحيى من أرباب التصرف.

* رشحة: اعلم أن مولانا خواجة يحيى كان غيوراً وضيق الصدر، وكانت له غيرة عظيمة من غاية محبته لحضرة شيخنا. وكان الأصحاب يتركون صحبة حضرة شيخنا وقت حضوره فيها في بعض الأحيان خوفاً منه، فإن بعضهم قد نال منه ضرباً باطنياً. وترك خواجة محمد يحيى صحبة حضرة شيخنا ثلاث مرات من كمال غيرته على حضرة شيخنا من الأصحاب وتوجه في كل مرة إلى طرف الحجاز ووصل في المرة الأولى إلى بخارى، وفي الثانية إلى هراة، وفي الثالثة إلى يزد. ولكن كلما توجه كان حضرة شيخنا يرده من الطريق بقوته الجاذبة وتوجهه الباطني.

كان مولانا خواجة يحيى مرة قاعداً عند حضرة شيخنا بعد الظهر في قرشي في خلوة خاصة، وكان يعرض عليه أحواله الباطنية. ونال من حضرة شيخنا التفاتاً كثيراً، ومرت الصحبة على غاية من اللطافة وكان الأصحاب كلهم في خارج الخلوة، فدخل وقت العصر فأذن المؤذن أذان العصر في أول وقته وما كان له خبر عن تلك الصحبة، فقام حضرة شيخنا لتجديد الوضوء وبقي بعض الكلام غير تام، فزعم خواجة يحيى أن ذلك الأذان إنما كان من طرف الأصحاب لغيرتهم على

شيخنا وحسدهم لخواجة يحيى. فخرج بتمام الغضب وقال: اعلموا أني ذهبت الآن وتركت حضرة الشيخ لكم فاصحبوه بفراغ البال من غير مزاحمة مني. ثم ركب فرسه وتوجه إلى طرف خراسان قاصداً للحجاز بلا استئذان من حضرة الشيخ وبلا تدارك أسباب السفر. فوقف خدامه على سفره بعد مدة فرتبوا أسباب السفر وحملوها على الجمال والبغال وتوجهوا من خلفه بغاية الاستعجال وأدركوه في ساحل جيحون.

ولما توجه هو على هذا الحال وقع الاضطراب والانزعاج فيما بين الأصحاب، فعرضوا القصة على حضرة شيخنا، فتأثر من ذلك وأرسل قاصداً إلى خراسان لمولانا نور الدين عبد الرحمٰن الجامي قدّس سرّه السامي بالتعجيل لإرجاع خواجة يحيى إن أمكن.

ولما وصل مولانا خواجة يحيى إلى هراة نزل في جوار مرقد مولانا سعد الدين الكاشغري قدّس سرّه في منزل خواجة أبي البركة. فجاء مولانا الجامي عنده وأورد في أثناء الكلام مقدمات الرجوع بحسن العبارة ولطف الاستعارة، فقال له خواجة يحيى بالأدب والتواضع: إن عزيمة هذا السفر مصممة في الخاطر على وجه لا قدرة لي على دفعها. فلم يقل له مولانا الجامي بعد ذلك شيئاً ورجع القاصد مأيوساً. ثم توجه مولانا خواجة يحيى بعد جمعة إلى طرف يزد، ولما وصل هناك وأراد أن يتوجه منه إلى مقصده، عرضت له الحمى المحرقة، ولما فسخ عزيمته زالت الحمى. وتكرر ذلك، فعلم أن حضرة شيخنا لا يتركه أن يذهب. ثم رأى رؤيا في ليلة من تلك الأوقات، ولما استيقظ قام من فراشه في نصف تلك الليلة بكمال الاضطراب من غير شعور ولبس نعليه بلا خف وجاء الاصطبل وركب على فرس خاص به عري لعدم اصطباره على لبس خفيه وإسراج فرسه، فقام خدامه وأصحابه وجاؤا عنده، فقال لهم: أدركوني من خلفي بخفي وفرسي مسرجاً فإنه قد طلبني حضرة الشيخ ولا مجال لي في المكث. ثم ساق فرسه وتوجه نحو خراسان بتمام العجلة، فشد الخدام أحماله وأثقاله مسرعين وأدركوه في المنزل الثاني. ولما وصل إلى خراسان لم يكن له فيها مجال القرار وتوجهت أنا أيضاً معه إلى سمرقند، وكان ابتداء هذا السفر في أواخر ربيع الأخير سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة.

ولما وصلنا إلى جل دختران قال لي: أنا أرجع بتمام العجلة وربما يحصل لك الضجر في رفاقتي، فالأنسب أن تذهب مع متعلقاتي بمشي الإبل مع فراغ البال.

وكثيراً ما كان يخطر في البال من مشيه بسرعة وسوق دابته بالاستعجال أن أعرض عليه أنه: ما معنى رسوخ عزيمة سفر الحجاز أولاً، وما معنى هذا الرجوع على هذا المنوال؟ لكن كنت أعرضت عن هذا العرض رعاية لجانب الأدب وظناً مني أنه سيظهر ذلك المعنى بنفسه. فقال لي في هذا المحل: ولعل يخطر في بالك أنه ما معنى رسوخ عزيمة سفر الحجاز أولاً وما هذا الرجوع على هذا المنوال؟ وذلك أني رأيت حضرة الشيخ ليلة في المنام حين إقامتي بيزد أنه جاؤا دار نعلي إلى طرف سمرقند فلما انتبهت وجدت في باطني قلقاً واضطراباً وشوقٌ إلى حضرة الشيخ وانجذاباً حتى ما بقيت لي طاقة ولا استراحة، ولم يكن لي مجال التوقف والمكث، فقمت من مكاني في وسط الليل ولبست نعلي وجئت الاصطبل وركبت على فرس عري وتوجهت إلى سمرقند على ما تشاهده منذ رافقتني. وقد علق حضرة الشيخ حبل الجذب في عنقي ويجرني إلى جانبه جراً قوياً بلا اختيار مني. وأيقنت أن هذا القلق والاضطراب لا يسكن بدون الوصول إلى ملازمته، ثم ساق فرسه وتوجه مسرعاً ووصلت أنا إلى سمرقند بعد شهر مع ملازميه وخدامه.

قال مولانا خواجة يحيى: وقعت في قلبي داعية سفر الحجاز بعد أيام من رجوعي من يزد وقويت تلك الداعية، فتوسلت بمولانا السيد حسن لتحصيل الإذن من حضرة الشيخ، فعرضه مولانا عليه في وقت الفرصة، فقال له: ما غرضه من هذا السفر؟ فسألني مولانا عن الغرض، قلت: الباعث على السفر هذا الحديث: «مَن زارني ميتاً فكأنما زارني حيّاً»[(١)]. فقال حضرة الشيخ: أمهلني في الجواب ثلاثة أيام حتى نرى ماذا تكون المصلحة. فرأيت في الليلة الثالثة أن رسول الله ﷺ قد ظهر، فوضعت رأسي على قدمه ﷺ فقال لي: ادع والدك فنجالسه. فبادرت ودعوت الوالد الماجد فجاء مسرعاً، فأجلسه النبي ﷺ على يمينه وجلست أنا في مقابلتهم مطرقاً رأسي ومغمضاً عيني، ثم رفعت رأسي بعد لحظة فرأيت رسول الله ﷺ شخصين ولم أر الوالد، وكلما أمعنت النظر لم أقدر أن أميِّز بينه ﷺ وبين حضرة الوالد بوجه من الوجوه، ولم أدر أيهما رسول الله ﷺ وأيهما حضرة الوالد. فانتبهت في أثناء تلك

---

(١) لم أجده بلفظه، وورد بلفظ: «من حج فزار قبري بعد موتي كان كمن زارني في حياتي». رواه البيهقي في السنن الكبرى، باب زيارة قبر النبي ﷺ...، حديث رقم (١٠٠٥٤) [٥/ ٢٤٦]، ورواه الدارقطني في السنن، باب المواقيت، حديث رقم (٢ـ ١٩٣) [٢/ ٢٧٨].

الحيرة والدهشة وكان وقت السحر، فتوضأت في الحال وجئت لملازمة حضرة الشيخ، فرأيته قد صلى التهجد وجلس في المراقبة، فجئت عنده بالهيئة وجلست بجنبه، فرفع رأسه وقال: يا خواجة قد حصل غرضك ونلت مطلوبك، فلا تشوشني بعد ذلك فإني قد كبرت الآن، والوصال غنيمة. فوضعت رأسي على قدمه ثم لم أخطر أمثال تلك الدواعي بعد ذلك ببالي.

وقال: قد أشار حضرة الشيخ إليَّ بطريق الرابطة، ولما كنت يوماً عنده في مبادي ذلك الشغل مع جمع من الأصحاب، وقع في طلبي: إنه إلى أي محل منه ينبغي أن يتوجه؟ هل إلى وجهه أم إلى عينه؟! ونظرت في ذلك الأثناء إلى جانبه فوضع مسبحته بين حاجبيه، فعلمت أنه ينبغي أن يتوجه إلى ما بين حاجبيه. ثم صرح بذلك بعد انصراف الأصحاب من عنده.

وقال: وقع مرة قلق في باطني، فجئت عنده بخواطر شتى. فصادفت عنده جمعاً من وكلائه يأخذ منهم الحساب وطال بينهم القيل والقال، فصرت ملولاً وضاق قلبي من غلبة الحال. ثم ظهرت فيَّ كيفية عجيبة حتى تخلص باطني عن جميع الخواطر دفعة واحدة وحصل اطمئنان القلب كما أنه لو كان على شجرة عصافير كثيرة فيرمبها شخص بحجر فتطير كلها دفعة واحدة، فنظرت إلى جانبه في ذلك الحال فرأيته يرمقني بعينه متعاقباً ثم قال خفية بحيث أسمعه أنا فقط: هذا موجود، وذاك موجود، وهذا أيضاً موجود. ثم قال للوكلاء: قوموا عني فإن لي معه شغلاً. ولما خرجوا غضب عليَّ وقال: هل ينبغي لأحد أن يترك شغله لأجل خاطر من وقع في باطنه تشويش؟ بل اللازم أن لا يخطر بالبال أمثال تلك الأشغال، فمن أين تدري أنه لا يكون وقت لا يسع الأبوة والبنوة ينبغي أن يسعى ويجتهد حتى لا يتضيق صدر ولا يتشوش الحال بوقوع أمثال تلك الأشغال في البال.

اعلم أن حضرة شيخنا كان يكثر ذكر الإمام الهمام سبط النبي عليه الصلاة والسلام أبي عبد الله الحسين رضي الله عنه وأرضاه، لخواجة يحيى في الخلوة، وكان يورد له عنه حكايات وأقوالاً ويقول: إن لاستعدادك مناسبة تامة لروحانية الإمام حسين رضي الله عنه وعساك تكون محتظياً من شربه بحظ أوفر. وكان كذلك، فإنه لما استولى الشاه بخت خان بعد وفاة حضرة شيخنا على ولاية سمرقند في أوائل محرم سنة ست وتسعمائة، أخذ مولانا خواجة يحيى وعاقبه وأخذ جميع جهاته

وأمواله وأملاكه وأسبابه وتصرف فيها. وقال خواجة يحيى في تلك الأيام: إني لأرجو ظهور أثر تلك المناسبة التي بشّرني بها حضرة الشيخ مراراً في تلك الأيام. يعني: أيام عاشوراء. فأجازه الشاه في ذلك الأثناء أن يسافر إلى خراسان، ولم يستصوب هذا الرأي من الشاه جمع من أمراء أرزبك، برأيهم الضعيف وعقلهم السخيف، وعرضوا على الشاه: إن ترك خواجة يحيى ليتوجه إلى خراسان ليس بصواب لاحتمال إثارة فتنة وإحداث ضرر هناك، بل الأصلح أن نقتلهم هنا. فلم يرض الشاه بذلك ولم يصغ إليه، فجاوز الحد في المبالغة والإلحاح في هذا الباب حتى عجز الشاه عن ردهم، فقال: افعلوا إذاً ما فيه صلاح الملك والدين. ثم سلم فرساً جرياً قوياً من أفراسه الخاصة إلى محرم من محارمه وأنفذه إلى خواجة يحيى بتمام العجلة وقال: قل له مني أنه قد قصد جمع من الأمراء قتلك ولم يمتنعوا بمنعي، وقد أرسلت إليك فرساً جرياً قوياً ولي عليه اعتماد تام يمشي كل ليلة ثلاثين فرسخاً ولا يعرف الإعياء أصلاً، فينبغي لك أن تركبه وتتوجه إلى طرف خراسان وحدك وليطمئن قلبك من طرف الأولاد والأزواج وسائر متعلقاتك فإني حاميهم وحافظهم هنا، ولا أرضى بوصول الضرر والإهانة إليهم. ولما بلّغ القاصد الرسالة والفرس إليه لم يستصوب أن يترك أولاده وأزواجه ومتعلقاته دونه بناء على الغيرة والحمية فقال للقاصد: قد بشرني حضرة الشيخ ببشارة في الخلوة غير مرة، وأشار إليّ بإشارة كرة بعد كرة، وأنا منتظر لظهورها وأرجو من فضل الله سبحانه أن يستقبلني ما هو خير لي. فقل للشاه: إنه قد أظهر العناية والإكرام واللطف والإحسان على ما هو اللائق به، فجزاه الله عنا خيراً. ورد فرسه وتوجه من طريق كرمينة إلى خراسان ووصل إلى قصبة تاتكند الواقعة على تسعة فراسخ من سمرقند. وكان في أثناء الطريق يقول متعجباً: أنا متحير من هذا الأمر، فإني على يقين بحقية بشارة حضرة الشيخ وصدق إشارته ولم يظهر منها أثر إلى الآن، فما الحكمة فيه؟. ولما وصل إلى قرية كبرآب من أعمال تاتكند في الخامس عشر من محرم من السنة المذكورة أدركه في البادية جمع كثير من طائفة أوزبك زهاء ثلاثمائة فارس وأذاقوه شربة الشهادة مع ولديه الأمجد بن خواجة محمد زكريا، وخواجة عبد الباقي، وردوا سائر أولاده إلى سمرقند، وحمل جمع من المخلصين والمحبين نعشهم إلى محلة خواجة كفشير. وفي ذلك اليوم قامت القيامة بسمرقند من كثرة الخواص وازدحام العوام للصلاة على خواجة يحيى وابنيه رحمهم الله، ودفنوهم بعد الصلاة عليهم في

محوطة العلماء قريباً من مرقد حضرة شيخنا قدّس سرّه. لا يخفى أن حضرة شيخنا كان قد تزوج مخدرة من أقربائه بعد وفاة أم مولانا خواجكا، فولد له منها مولانا خواجة يحيى. وكان لخواجة يحيى ثلاثة بنين وصبيتين، أسماء أولاده: خواجة محمد زكريا، خواجة عبد الباقي، خواجة محمد أمين.

* * *

* **مولانا السيد حسن رحمه الله**: كان من أعاظم أصحاب حضرة شيخنا ومن السابقين وملازميه القدماء. قال بعض الأكابر: إن والده لما جاء به مجلس حضرة شيخنا بتاشكند في صغره كان عنده ظرف مملوء من العسل اتفاقاً. فتوجه مولانا إلى العسل بكليته وشغف به، فسأله حضرة شيخنا عن اسمه، فقال: عسل، فتبسم حضرة شيخنا وقال: إن لهذا الولد قابلية تامة حيث أفنى اسمه في اسم العسل حتى صار لا يجري على لسانه غير اسم العسل لشغفه به بمجرد وصول لذته إلى فمه، فإن وصل إلى مذاق روحه شيء ألذ من العسل فلا جرم يكون توجهه إليه وشغفه به في غاية القوة. فقبله من والده وجعله في حجر تربيته، وأرسله أولاً إلى المكتب حتى تعلّم القرآن وما يلزم المبتدئين من مبادىء العلوم. ثم اشتغل بتحصيل العلوم بأمر حضرة شيخنا حتى برع في العلوم وصار من العلماء المتبحرين ونال تربية من حضرة شيخنا في ذلك الأثناء بتصرفاته الباطنية، وبلغ مرتبة الكمال والتكميل.

وسمعت بعض الأكابر يقول: إنه كان لمولانا السيد حسن قوة تامة في تصرفات باطن المستعدين، ولكن كان لا يتصرف في أحد أصلاً رعاية للأدب مع حضرة شيخنا، ولم يكن يرى نفسه أهلاً لهذا المقام.

قال بعض الأعزة: إن مولانا السيد حسن مرض أياماً في محلة خواجة كفشير، فقال شيخنا في تلك الأثناء لمولانا قاسم: هل ذهبت لعيادة مولانا السيد حسن؟ قال: لا، فغضب عليه وقال: ما تظن فيه! فإنه أجلّ وأعلى مما تظن فيه، بل هو حقيق بأن تلازمه وتصحبه خمسين سنة مع كونك مولانا قاسم.

وسمعت بعض الأعزة يقول: إن حضرة الشيخ قال يوماً في حقه: إن مولانا السيد حسن ليس بأدون في الكمالات المعنوية من الشيخ ركن الدين علاء الدولة، وإنما الفرق بينهما أن الشيخ ركن الدين علاء الدولة كان شيخاً دون مولانا السيد حسن.

قال حضرة شيخنا: قال مولانا ركن الدين الخافي: بداية الشيخ بهاء الدين عمر نهاية الشيخ ركن الدين علاء الدولة. فنقلت عنه هذا الكلام عند الشيخ خواجة فضل الله أبي الليثي، فغضب كثيراً واستبعد ذلك ولا دليل له على استحالة ذلك، بل قوله ﷺ: «مثل أمّتي مثل المطر»[1] الحديث، دليل لجواز ذلك.

وقد نقل عن الخواجة بهاء الدين النقشبند قدّس سرّه أنه قال: بداية بهاء الدين نهاية أبي يزيد البسطامي. ولا شك أن كلام حضرة الخواجة لا يكون بلا وجه وبلا دليل، وإنما الباعث على استبعاد بعض الناس ذلك المعنى هو حسن العقيدة في حق السلف لا غير، فإنه بالنظر إلى الحديث المذكور ومشاهدة ظهور الكمالات من أكابر المتأخرين لا وجه للاستبعاد، وليس جميع السلف والمتقدمين مفضل على جميع الخلف والمتأخرين.

وكان راقم هذه الحروف يتشرّف بشرف صحبة مولانا السيد حسن أحياناً وقت كون حضرة شيخنا في محلة خواجة كفشير، ويستسعد بالتفاتات كثيرة منه.

قدم حضرة شيخنا مرة من سفر ونزل في محلة خواجة كفشير فحضر لزيارته السلطان والأمراء وأعيان سمرقند إلى ثلاثة أيام، وحرم الفقراء والأصحاب من بركة صحبته في تلك المدة. فخطر على قلبي في ذلك الأثناء غير مرة: إن ليت حضرة الشيخ لا يختلط بالسلاطين والأمراء والحكام، وليته يقعد في زاوية مشغولاً بتربية الطالبين أحسن من هذا. وحضرت عند مولانا السيد حسن مرة وأنا في هذا الخيال مملوءاً من الملال، فرأيته قاعداً مع جماعة من الأعزة من موالي سمرقند وبين أيديهم عدة نسخ من «إحياء العلوم» يقابلونها ويصححونها. ولما رآني ترك المقابلة وسكت زماناً ثم قال متوجهاً إلى الفقير: قال واحد من العلماء: جئت يوماً عند حضرة الشيخ فخطر في بالي أنه لم لا يقعد حضرة الشيخ في شعب الجبال حتى يتخلص عن هذه التفرقة الحاصلة من مخالطة الناس وتشويش المجالسة مع السلاطين والحكام، فإنه لا مجال له للتوجه إلى الطالبين في هذا الحال ولا فرصة له لصرف الخاطر لجمعية باطن المستعدين. وتكرر ذلك الخاطر وتمكّن. ولما

---

(١) رواه الترمذي في سننه (باب ٦) حديث رقم (٢٨٦٩) [٥/ ١٥٢] ورواه أبو يعلى في المسند، عن أنس، حديث رقم (٣٧١٧) [٦/ ٣٨٠] ورواه غيرهما.

قعدت عند حضرة الشيخ توجه إليَّ في الحال وقال: أشكلت عليَّ مسألة فأطلب منك جوابها، وهي: إن شخصاً ينفذ كلامه إلى السلاطين والحكام والظلمة وهم يصغون إليه ويحصل للمسلمين نجاة من ظلم الظالمين وجورهم بسبب استدعائه ويضمحل رسوم الجبابرة وعاداتهم بسببه وسعيه، فهل يجوز له أن يترك المظلومين في أيدي الظلمة ويهرب إلى شعب الجبال ويشتغل هناك بالعبادة وتربية أهل الإرادة أم لا؟ وأيهما أهم له وأولى؟، فقلت: إن ترك العزلة واختلاط الظلمة فرض عليه متعين على هذا التقدير، بل لا يبعد أن يأثم بتركه المسلمين في أيدي الظلمة واشتغاله بالعبادة. فتبسَّم حضرة الشيخ بعد هذا الكلام وقال: أنت تفتي بهذا، فلم تعترض عليَّ! فدفع مولانا السيد حسن ألم الفقير بهذا النقل.

* * *

• **مولانا قاسم عليه الرحمة**: كان من أجلَّة أصحاب حضرة شيخنا وأقدم خدامه، وكان مقبولاً لديه ومحبوباً إليه. وكان أعزَّة تلك الديار يقولون في حقه: إنه ظل حضرة الشيخ لكونه فانياً عن نفسه مثل الظل في متابعة حضرة الشيخ واتباع أثره وباقياً به.

أمره حضرة شيخنا في مبادي أحواله بخدمة البستان، فصار يذهب إلى البستان في كل صباح والفأس في عنقه، وكانت زوجته تضع قرصاً أو قرصين من الخبز في جيبه ليتغذى به. فيشتغل بتصليح البستان إلى المغرب، فإذا جاء بيته وفك حزامه كان الخبز يسقط من جيبه لذهوله عنه من غاية اشتغاله بطريقة خواجكان قدَّس الله أرواحهم وروَّح أشباحهم، ولم يكن يحتاج إلى الطعام لغلبة نسبة هؤلاء الأكابر وكفايتهم. وأمثال تلك الحكاية من نسيان مهماته بسبب استيلاء نسبة الأكابر منقولة عنه كثيراً، وتفصيلها موجب للتطويل. وبالجملة: كانت نسبة الغيبة وكيفية الاستغراق وعدم الشعور غالبة عليه.

كان حضرة شيخنا يوماً جالساً في خيمة بقرية من القرى وحوله جمع من أجلَّة أصحابه وأعزَّة خدَّامه متحلقين. وكان شيخنا في غاية الانبساط بحيث كان وجهه المنور يشرق نهاية الإشراق. وكان يتكلم بمعارف عالية وحقائق سامية. وكان مولانا قاسم يغيب عن نفسه آناً فآناً، وكان حضرة الشيخ يحضره في كل مرة. ولما تكررت تلك الحالة غضب حضرة شيخنا وقال: يا مولانا قاسم ألم تدر أن كل من جلس في

دائرة ينبغي له أن يحوم حول تلك الدائرة؟ ووضع القدم خارج الدائرة ليس من طريق الأدب!.

وكان حضرة مولانا نور الدين عبد الرحمٰن الجامي لا يرى أحداً من أصحاب حضرة شيخنا مساوياً لمولانا قاسم، وكان يمدحه كثيراً ويقول: إن مولانا قاسم في نسبة الأكابر كفتيت الخبز في السمن. يعني: إن جميع مسامه مملوءة من نسبتهم.

ولما عزم راقم هذه الحروف على ملازمة حضرة شيخنا واستلام عتبته العلية أول مرة، استأذنت مولانا الجامي، فقال: إنك صغير السن وحضرة الخواجة في غاية العظمة وكبر السن. وكنت وقتئذ ابن اثنتين وعشرين سنة، وقال: إن اشتغال حضرة الخواجة بأحوال الطالبين قليل فأخاف أن تذهب وتمل سريعاً، فإن كان ولا بد من الذهاب فعليك أن تكثر من صحبة مولانا قاسم وأن تلازمه في أكثر الأوقات. فقلت: لو كتبت إليه توصية في حقي لكان باعثاً على التفاته إلى الفقير. فكتب إليه هذه الرقعة:

رقعة: المعروض بعد عرض العجز والانكسار أن لمولانا المولوي فخر الدين عليّ التفاتاً كثيراً إلى جانب الفقراء. وقد توجه نحو جنابكم بتمني تقبيل الأرض بين يدي ملازمي تلك العتبة العلية والسدة السنية، فلا جرم نرجو من فضلكم أن يكون ملحوظاً بعين العناية ومحظوظاً بإدراك هذه الأمنية والسلام والإكرام. الفقير عبد الرحمٰن الجامي.

ولما تشرّفت بشرف استلام عتبة حضرة شيخنا في قرشى، كما تقدم غير مرة، أعطيت الرقعة لمولانا قاسم فقبلها وقام من مكانه ووضعها على رأسه والتفت إلى الفقير التفاتاً كثيراً ظاهراً وباطناً مدة إقامتي هناك، وأظهر ألطافاً كثيرة، وزاد في الالتفات حين استسعدت بسعادة الملازمة مرة ثانية، ونقل أقوالاً كثيرة، وحكى من مبادي أحواله حكايات كثيرة.

وقال: كنت في مبادي محبتي لحضرة الشيخ في غاية اللوعة والغرام به على وجه كنت أجيء لملازمته من فركت إلى تاشكند عابراً من نهر الترك، وكان الجمد يتعلق برجلي ولا يكون لي منه خبر أصلاً.

نبهني يوماً في الخلوة على بعض دقائق الآداب وشرائط الصحبة وقال: ليس لي علم وتفنن فأعلّمك شيئاً من المسائل. ولكن لما جئت بتفويض من مولانا نور

الدين عبد الرحمٰن الجامي قدّس سرّه السامي وأنت غلام متواضع، فأخبرك بما هو اللازم في ذلك الجناب وأقول لك شيئاً من أحوال حضرة الشيخ لم أقله لأحد غيرك: فاعلم أن حضرة شيخنا مشرف على أحوال الخلائق ومطلع على الضمائر والحقائق، فوالله لقد كان حاضراً بي وناظراً إلى جميع أفعالي وأحوالي ظاهراً وباطناً مدة ستين سنة. وكان ينبهني بما سيقع عليَّ قبل وقوعه. وحصل لي عين اليقين بهذا المعنى فإذا علمت أن الحال على هذا المنوال ينبغي لك أن تكون حاضراً بقلبك في حضوره وناظراً إليه بعين قلبك وقت غيبته. وله في هذا الوقت اختلاط كثير مع السلاطين والحكام، وكثر أيضاً سائر إشغالاته الظاهرية حتى لم يبق له مجال أمر الطالبين بالنفي والإثبات والتوجهات والمراقبات، وإنما يأخذ نصيباً وحظاً من نسبته من اشتغل بطريق الرابطة. وقد قدم كثير من الطالبين والمستعدين من أقصى أطراف العالم، ولما لم يهتدوا إلى هذا الطريق انصرفوا مأيوسين ومحرومين.

كتب مولانا القاضي محمد في مسموعاته: إن حضرة شيخنا أرسلني إلى هراة في مرضه الأول لطلب الطبيب، وكان مولانا قاسم في ذلك الوقت صحيح الجسم ولم يكن له أثر من المرض. وأكد للفقير أن أجيء بالطبيب مسرعاً، وقال: لا طاقة لي أن أرى مرض حضرة شيخنا بعد ذلك. وشايعني إلى مسافة كبيرة. ولما جئت بالطبيب أنبئت أن مولانا قاسم قد توفي، وكان مجموع أيام المفارقة خمساً وثلاثين يوماً، فسألت حضرة شيخنا عن كيفية وفاته، فقال: دخل عليَّ يوماً وقال: أنا أجعل نفسي فداء لك، فقلت له: يا قاسم أنت رجل فقير ذو عيال كثير لا تفعل هكذا. فقال: أنا ما جئت للمشورة في هذا الأمر فإني قد فعلته وقبل الله سبحانه ذلك مني. وكلما منعته عن ذلك بالمبالغة لم يرد غير هذا الكلام. وقام من عندي مصراً على ذلك، فانتقل المرض إليه في اليوم الثاني وتوفي إلى رحمة الله. وعوفي حضرة شيخنا ولم يبق الاحتياج إلى الطبيب.

قال بعض الأكابر الذي كان حاضراً بحضرة الشيخ: ثم نصب عينيه إلى زاوية البيت وبقي على ذلك مدة مديدة، وكان ينظر نظراً متعاقباً بسرعة ثم يصرف نظره عن زاوية البيت. وتوجه إلى شيخنا وأطال النظر إلى وجهه حتى فاضت نفسه فقال حضرة شيخنا في هذا المحل: قد عرضوا الجنة مع ما فيها من الحور والقصور على نظر مولانا قاسم فأعرض عن الكل وتوجه إلينا، وخرجت روحه وهو ناظر إلينا. قال بعض الأكابر: إنه لما توفي مولانا قاسم أمر حضرة شيخنا بدفنه في محوطة

العلماء أمام قبر مولانا علي عران، وقال في ذلك الأثناء: ولعل بعض الناس يقول: إنه كيف يدفن هذا العامي أمام عالم؟ والحال أن أحوال مولانا قاسم تكون حملاً على أربعين شخصاً مثل مولانا علي عران. ثم بكى وقال: إن مولانا قاسم لم يعرفه أحد في هذه الدنيا وسيظهر قدره وقيمته وكماله في العقبى.

وكتب المير عبد الأول في مسموعاته: توفي مولانا قاسم عليه الرحمة يوم الاثنين السادس من ذي الحجة، سنة إحدى وتسعين وثمانمائة في آخر وقت العصر. فجئت بعد صلاة المغرب لملازمة حضرة شيخنا، فرق لمولانا قاسم وشرع في تعداد محاسنه وأعماله الصالحة وأخلاقه الحميدة وقال: لم يكن له مثل ونظير في الفناء وتجريد الباطن فمن بقي لنا الآن؟! فسكت لحظة ثم قال: إني أرى الاشتغال بالذكر أولى من التوجه، وقد قال الإمام الغزالي رحمه الله: إن السلوك ـ يعني: السير إلى الله ـ لا يتيسر بدون الإعراض والإقبال وكلمة لا إله إلاّ الله ترجمة لذلك.

وكتب المير المذكور في حاشية هذا الكلام، يعني: إن الاشتغال بالذكر لتحصيل الفناء وتجريد الباطن اللذين كان مولانا قاسم متصفاً بهما أولى من التوجه. ونظم بعض أهل الأدب في تاريخ وفاة مولانا قاسم عليه الرحمة هذين البيتين:

[شعر]

شمع جمع الفقراء قاسم أنوار الوجود   هالك في بحر جمع الجمع قاموس الشهود
إذ غدا تركيبه من رشحة فيض الوجود   جاء فياض لتاريخ وفاته السعود

* * *

* مولانا المير عبد الأول رحمه الله: كان من كبار أصحاب حضرة شيخنا قدّس سرّه، وتشرّف بشرف صهريته. قدم في مبادي حاله من نيسابور إلى ما وراء النهر لملازمة حضرة شيخنا، واختار طريق الرابطة واجتهد في تحصيل هذه النسبة الشريفة سبع سنين برعاية شرائطها. وكان معاملة حضرة شيخنا معه في أكثر الأوقات على وجه إذا وقع نظره عليه كان يطرده عن مجلسه ويغلظ عليه في الكلام. ثم زوّجه بعد سبع سنين صبيته، فولد له منها ثلاثة أولاد وبنتان. واشتهر بنوه بـ: أمير كلان، وأمير ميانه، وأمير خورد. يعني: الأمير الأكبر، والأمير الأوسط، والأمير الأصغر.

قال مولانا المير عبد الأول: كان حضرة شيخنا يذهب إلى المزارع والقرى في مبادي أحوالي، وكنت أنا أيضاً أذهب من خلفه ماشياً على رجلي وكنت أدركه في

أكثر الأوقات في نصف الليل، فإذا وقع بصره عليَّ كان يقول: ما أخس همَّة هذا السيد زادة وما أبعده عن الحمية حيث يجيء عندي لأكل الطعام ثم يركب فوره ويذهب إلى محل آخر فأجري عقبه باكياً. وتحملت هذا الحمل سبع سنين، وكان في بعض الأحيان يقع الضعف والفتور في النسبة بمقتضى الطبيعة البشرية، فيعامل حينئذ معي بنوع لطف فيكون لوعتي أزيد من الأول.

وقال: اضطجعت مرة في حجرتي وقلت لنفسي: يا عبد الأول كم من أناس حرموا من دولة الولاية فكن أنت أيضاً من جملتهم، وهذا الذي احتملته ليكن نهاية المشقة والمحنة ولا يتيسر غير هذا. ومر عليَّ هذا الخاطر لحظة ثم أحسست صوت قدم في حجرتي، فما التفت إليه، بل كنت مستمراً على ما أنا عليه. فسمعت حضرة الشيخ يقول: يا عبد الأول اضطجع بفراغ البال فإنه قد تمَّت أمورك كلها. فقمت من مكاني باضطراب فرأيت حضرة الشيخ يخرج من حجرتي، فعدت إلى اللوعة والغرام والقلق والاضطرار كالأول.

وقال: أنشد حضرة شيخنا يوماً هذا البيت في أثناء عتابه لي: [شعر]

صحرا فراخست أي پسر توكوشه˚ باكوشه˚ خجون ملخ إزكشت شه توخوشه˚ ماخوشه˚

ترجمة:

بزاوية الصحراء أنت وإنني بزاوية منها كمثل جراد

وسمعته يقول: وكتب أيضاً في «مسموعاته»: إنه كان فقير من الفقراء مشغولاً بطريق الرابطة وكان كثير التأثر بسبب دوام الاشتغال به ومشوشاً ومتألماً من لوازمه، فقال له حضرة الشيخ مرة على وجه التشريف بشرف نظره وخطابه ما معناه: [شعر]

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله لن تبلغ المجد ما لم تلعق الصبرا

وقال: قد حصلت لهذا الفقير نسبة من غير وساطة القول واللسان، بل بمحض التفات حضرة شيخنا. وكنت أحس التأييد والتقوية من حضرة الشيخ بحسب الباطن دائماً بلا واسطة قول ولسان. وحصل لي انشراح الصدر واطمئنان القلب بهذه النسبة. وكانت يوماً في التزايد، ومضت على ذلك مدة أيام ثم ترك التأييد والتقوية من غير سبب وشرع في العتاب وجاوز قهره وغضبه الحد حتى كادت نفسي تخرج عن ربقة الانقياد. فخطر مرة في قلبي بأني أعلم يقيناً أن حضرة الشيخ كان مطلعاً على ما حصل لي من مجلسه الشريف وسعى في تأييده وتقويته وأظهر لي الالتفات

والعناية. فإن كان ذلك من المهم هنالك فلم لا يتمشى الآن على ما كان، وإن لم يكن له دخل في الطريق الخاص الذي هو طريق الرابطة، فلم لم يمنع ولم يزجرني عنه أولاً، ولِم أيّده وقوّاه؟. ولما تكرر هذا الخاطر في قلبي وزاد قهر حضرة شيخنا وجفاه، قلت في نفسي: أسأل حضرة الشيخ يوم المحشر الأكبر في مجمع الرسل والأنبياء وخواص الأولياء أن هذا الفقير فوّض جميع أموره وزمام اختياره إليك وأظهرت له العناية والالتفات مدة مديدة، فإن كان هذا الأمر مهماً فلم تركته ولم تمش بموجبه؟ وإن لم يكن مهماً فلم لم تمنعه ولم تزجره، ولم أيدته وقوّيته؟. ولما اضطرني هذا الخاطر، رميت نفسي في حجرة حضرة الشيخ لأعرض عليه ما تمكن في بالي من غاية عدم التحمل والطاقة على سوء حالي. فاتفق أن كان عنده شخص فأرسله إلى مهم ثم توجه إليّ وقال: كيف تخاصمني وتجادلني في مجمع الرسل والأنبياء وخواص الأولياء؟! ألم ترض إن لم أختصمك في ذلك المجمع! ثم قال: مني أمرتك بما كان سبباً لألمك وتشويشك وإنما اخترته لنفسك وأنت تعلم تدبيره أيضاً. ثم تنزل عن تغليظه وقال على وجه العناية والالتفات: ينبغي أن يصبر على الأمور ويلزم أن يكون اعتقاد المريد في شيخه بأن جميع أحواله ظاهرة لديه غير خافية عليه، وإنما لا يظهر له بعض أحواله لعدم المصلحة في إظهاره، بل يجد المريد جواباً من غير وساطة القول واللسان. وقال: كيف يكون الشيخ شيخاً هو مثلاً في المشرق وله مريد في المغرب ولا يكون له خبر عن جميع أحوال مريده.

لا يخفى أن والد راقم هذه الحروف عليه الرحمة كان شريكاً في الدرس والحجرة لمولانا المير عبد الأول مدة سنين حين إقامتهما بنيسابور في مبادي أحوالهما. وقدم والدي من سبزوار إلى نيسابور لمحض تحصيل العلوم وتلمذ لمولانا المير عز الدين طاهر النيسابوري قدّس سرّه جد مولانا المير عبد الأول. وكان متصفاً بكمال الزهد والتقوى، ومتحلي بالعلوم الظاهرية والباطنية. وقرأ عليه الكتب المتداولة والتفاسير والأحاديث. ولما تشرّفت بشرف صحبة حضرة شيخنا بسمرقند كان مولانا المير، المشار إليه، يتفقد أحوالي كثيراً ويظهر لي أنواع ألطاف بناء على صحبته القديمة مع والدي الماجد ورعاية لحقوق سابقة بينهما. وكان ينبهني على آداب صحبة حضرة شيخنا ودقائق ملازمته، وكان يحكي لي أحياناً من مبادىء أحواله.

وقال: لما قدمت سمرقند بقصد ملازمة حضرة شيخنا، كنت مشغوفاً به في

أول رؤيتي واشتغلت بتحصيل طريقة الرابطة، وكان حضرة الشيخ في مقام الزجر والعناد والسياسة مدة سبع سنين. وكان يبرز لي في أكثر الأوقات بآثار القهر والتغليظ، فأحرقني في تلك المدة وأذابني حتى صرت كغبار الطريق والآن أنظر إلى نفسي فأراني كمن أكله الدود فأوهن، وصار لا يصلح لشيء. فعليك أن تخاف من التفات حضرة الشيخ وعنايته، فإن في ضمن كل التفات قهراً مخفياً، وتحت كل عناية مكراً مستوراً. وأن تكون راجياً من زجره وسياسته فإن في ضمنها لطفاً خفياً.

* **رشحة: اعلم** أن كلام مولانا المير عبد الأول هذا يشبه ما قاله حضرة شيخنا من: أن لله تعالى بالنسبة إلى أوليائه قهراً ظاهراً ولطفاً خفياً، وذلك فإنه تعالى يريد بهذا القهر تطهير حقائقهم من القيود البشرية ولوازمها. وأيضاً له سبحانه بالنسبة إلى أعدائه لطف ظاهر وقهر مخفي. وذلك فإنه تعالى يريد بذلك اللطف استحكام علائق بواطنهم بعالم الأجسام ليكونوا محرومين من شهود عالم الإطلاق واللذات الروحانية المعنوية بسبب ارتباطهم بقيود العالم الجسماني.

توفي المير عبد الأول، عليه الرحمة، في أوائل ذي الحجة سنة خمس وتسعمائة قبل أربعين يوماً من شهادة مولانا خواجة يحيى. وأولاده الكرام، رحمهم الله، تخميناً:

* * *

* **مولانا جعفر عليه الرحمة والرضوان:** كان من خُلَص أصحاب حضرة شيخنا، وكان عالماً فاضلاً وعارفاً كاملاً. وكانت كيفية الغيبة والاستغراق غالبة عليه. وكان يصلّي الصلاة بطول القنوت والركوع والسجود، وكان يرفع رأسه من السجود بتكلُّف. وكانت آثار غلبات الجذبة في غاية الظهور، وكثيراً ما كان يريد حضرة شيخنا أن يجمع نسبته الباطنية بشغل من الأشغال الظاهرية كالزراعة والتجارة، لكنه بسبب استيلاء نسبة الاستغراق وغلبة كيفية الغيبة لم يتيسر له ذلك أصلاً.

وكنت أذهب إلى صحبته حين إقامتي بمحلة خواجة كفشير في خدمة حضرة شيخنا، وكانت نسبة السكوت والذهول غالبة عليه، وكان قليل الكلام جداً. قال يوماً: مَلّ قلبي عن تحصيل العلوم الرسمية في مبادي أحوالي وانجذب إليَّ طريق الأولياء قدّس الله أرواحهم، فرأيت نفسي ليلة في المنام كأني حضرت صحبة حضرة

شيخنا وسألته: إن العبد متى يصل إلى الله؟ فقال: إذا كان فانياً عن نفسه. ولما انتبهت وجدت في نفسي تأثراً كثيراً من هذه الرؤيا فخرجت من المدرسة بعد الصبح قاصداً لملازمة حضرة شيخنا، وكنت قبل ذلك أراه من بعيد، ولكن ما كنت في صحبته أصلاً. فلما جئت عنده قال: يا مولانا جعفر، أتعرف أن العبد متى يصل إلى الله؟ ثم قال قبل أن أتكلم بشيء: إذا كان في عبوديته فانياً عن نفسه. ثم أنشد هذا البيت المنسوب لمولانا جلال الدين الرومي قدّس سرّه:

ما كان في الكون غير الحق قبلكم كذاك يفنى سواه حين تنعدموا

وما كان حضرة مولانا في محلة خواجة كفشير حين مرض مولانا جعفر، بل كان في بعض مزارعه. ولما بلغه خبر اشتداد مرضه، توجه إليه بتمام العجلة ولكن ما وصل إلا بعد موته. فصلّى عليه بعد تكفينه وتجهيزه مع جميع الأصحاب والموالي والأهالي وخواص أهل البلد وعوامهم في محوطة العلماء، وكان الهواء في غاية الحرارة، فجاء حضرة شيخنا مع نعشه عند قبره قبل تمام حفره، فجلس بجنب القبر ساعة، فنزعت جبتي وجعلتها ظلاً لحضرة شيخنا مع واحد من الخدام، فكان في الظل إلى أن تمّ دفن مولانا. ولما أتم الحفار حفر القبر وخرج أخذ حضرة شيخنا بطرف كفنه وأنزله من السرير إلى القبر بمعونة الأصحاب الكائنين في القبر. ثم وضعه بعض الأصحاب في اللحد وقام حضرة شيخنا من جنب القبر، وقرأ الحفّاظ القرآن. وكان ذلك في شهور ثلاث وتسعين وثمانمائة بعد ثمانية أيام من وفاة مولانا برهان الدين الختلاني، فعمل حضرة شيخنا دعوة كبيرة في هذه التعزية بعد ثلاثة أيام حتى ذبح ثمانين شاة للشواء فقط.

* * *

• **مولانا برهان الدين الختلاني عليه الرحمة**: كان من كبار أصحاب حضرة شيخنا، ومن العلماء المتبحرين. حصل العلوم المتداولة في صغر سنه، وكان أهل سمرقند يقولون في حق اثنين من العلماء: أنهما كانا عالمين حين ولادتهما، أحدهما مولانا زادة مولانا عثمان. وثانيهما: مولانا برهان الدين الختلاني. وكان مولانا المشار إليه في دولة ملازمة حضرة شيخنا وسعادة صحبته مدة أربعين سنة، وكان يقوم بخدمته في السفر والحضر.

قال: إن السلطان أحمد عزم مرة على أن يذهب إلى تركستان في فصل الشتاء

وبرودة الهواء، والتمس من حضرة شيخنا أن يذهب معه. فقبل حضرة الشيخ التماسه من غير توقف ورافقه وأخذ معه جمعاً من الموالي، وكنت أنا أيضاً فيهم. فحصلت لحضرة شيخنا وسائر ملازميه في هذا السفر محنة كثيرة من برودة الهواء، فوقع في قلبي مراراً أنه إن لم يختر حضرة الشيخ هذا السفر لنفسه ما كان للسلطان أحمد مجال المبالغة ويحصل له الآن تشويش كثير وكذلك يحصل لملازميه وخدامه أنواع المحنة والمشقة، وليس له في هذا السفر منفعة ظاهرة وفائدة وعائدة. وكلما نفيت هذا الخاطر عن نفسي لم ينتف أصلاً وكنت من قلبي متعرضاً للسلطان أحمد ومغضباً عليه لإيقاعه حضرة شيخنا وسائر أصحابه في المحنة والتشويش من غير فائدة. ولما نزلنا شاهرخية وقعدنا يومين، وقع الصياح والنياح في البلد، وكان سبب ذلك أن أربعة آلاف من كفار مغل وأربعة آلاف من كفار أوزبك قصدوا شاهرخية وأغاروا على تلك النواحي ونهبوا قصبات كثيرة منها وأخربوها، فالتجأ خواص تلك الولاية وعوامهم دفعة واحدة إلى حضرة شيخنا بالبكاء والتضرع وقالوا: إن السلطان أحمد ليس معه عساكر مستعدة للحرب حتى يقاوم هذه الكفار، فلا يمكن دفع ذلك البلاء من غير التفاتك. وجاءه السلطان أحمد أيضاً بكمال الاضطراب وتمام الاضطرار وتشبث بذيل عنايته وحبل حمايته، فخرج حضرة شيخنا مع جماعة من الموالي وجاء عسكر الكفار وجالس الخان وأعيان العساكر وانعقدت بينهم صحبة عالية، وسخر كلهم في أثناء الصحبة، وحصل لهم تأثر قوي حتى رمى كل من كان في هذا المجلس أصنامهم من أعناقهم إلى الصحراء وآمنوا عن آخرهم على يده. ودل كلهم قومهم على الإيمان، فتشرّف جميع من في أولئك العسكر والجمعية من الرجال والنسوان والكبار والصغار بشرف الإيمان والإسلام ووهبوا لحضرة شيخنا جميع من أسروه من تلك النواحي من الولدان والبنات والأحرار والعبيد، وكان كلهم زهاء ألفين، ووهبوا له أيضاً جميع ما نهبوه من الأموال والمواشي مقدار عشرة آلاف من الإبل والخيل والبقر والغنم. فأرسل الأسارى إلى أوطانهم مع أموالهم ومواشيهم وضم إلى هذا العسكر شخصين من خدامه، أحدهما قارىء لتعليم القرآن، والآخر فقيه لتعليم أحكام الشريعة ومعالم الإسلام. ثم رجع إلى شاهرخية واستأذن السلطان أحمد وتوجه إلى سمرقند.

قال مولانا برهان الدين راوي هذه الواقعة: لما سار حضرة شيخنا مرحلة من شاهرخية قال في أثناء الطريق متوجهاً إلى الفقير: يا مولانا برهان الدين نحن إنما

نختار مشقة السفر ومحنته لأنفسنا لأمثال هذه الأمور التي شاهدتها.

جاء حضرة شيخنا يوماً من محلة خواجة كفشير محوطة العلماء، في مرض موت مولانا برهان الدين لعيادته، وكنت أنا أيضاً في ملازمته مع خادمين غيري حاملين حضرة شيخنا، فجلس حذاء رأسه وقال: قال بهلوان محمود بوريا: [شعر]

لست أرضى فرقة المولى الإله   لا أبالي من بلايا غيرها

ثم قال: قد ورد في الحديث: «جددوا إيمانكم بقول لا إله إلا الله»[1] ومعنى تجديد الإيمان بهذه الكلمة: إن يحصل ميل جديد وانجذاب ومحبة إلى جناب الحق سبحانه كلما تكلم بهذه الكلمة، فمن لاحظ هذا المعنى عند تكرار هذه الكلمة فقد امتثل أمر: جددوا، وعمل بمضمونه. قال الخواجة محمد بن علي الحكيم الترمذي قدّس سرّه: يفهم من مضمون: «جددوا إيمانكم»: إن الإيمان يخلق، وعلامة كونه خلقاً أن لا يبقى لصاحبه ميل وانجذاب وشوق إلى المؤمَن به. فينبغي للطالب الصادق اكتساب الوله والشوق والانجذاب بتكرار هذه الكلمة المورثة لذلك. توفي مولانا برهان الدين بعد ثلاثة أيام من هذه الصحبة فصلى عليه حضرة شيخنا مع سائر الأصحاب وأعيان سمرقند وخواصه وعوامه ودفن في محوطة العلماء. ثم توفي مولانا جعفر بعد ثمانية أيام من وفاته، كما مر، وقد أخطأ في معالجتهما طبيب خراساني وخبط فيها. ولما حضر مجلس حضرة شيخنا في يوم من أيام التعزية غضب عليه حضرة شيخنا وأغلظ عليه، وقال: إنك قتلت شخصين من أصحابي ليس لهما ثالث في جميع وجه الأرض، فإن ملئت طبقات السماوات والأرضين من الذهب الأحمر فما وفيت قيمتهما.

* * *

• **مولانا لطف الله الختلاني رحمه الله:** هو ابن أخت مولانا برهان الدين الختلاني. كان من كبار أصحاب حضرة شيخنا ومن المقبولين لديه. وكان عالماً بعلوم الشريعة والطريقة وكانت صفة البسط غالبة عليه. وكان في أكثر الأوقات متبسماً ومبتهجاً وكان يضحك حضرة شيخنا بكلمات لذيذة دائماً، وكان حضرة

(١) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب التوبة والإنابة، حديث رقم (٧٦٥٧) [٤/ ٢٨٥] ورواه عبد بن حميد في المسند عن أبي هريرة، حديث رقم (١٤٢٤) [١/ ٤١٧] ورواه غيرهما.

شيخنا يمزح معه أحياناً وسأله يوماً على سبيل المطايبة: إنك أي نوع من النساء تختار حين تتزوج؟ قال: أختار امرأة خضراء ذات حلاوة، فقال له شيخنا: أخطأت، ألم تدر أن حلاوتها تزول بعد أيام وتبقى خضرتها فقط. ثم قال: إن التزوج غل على أقدام الطالبين. ثم أنشد هذا البيت: [شعر]

كد خداي كه مايه' هوس ست   كدرها كن تراخداي بس ست

ترجمة:

إن التزوج رأس مال تفلس   فاحذرنه وحسبك الرحمٰن

قال مولانا لطف الله: لما كنت في وطني في أيام الصبا رأيت رسول الله ﷺ ليلة في المنام في غاية الحسن والجمال وتلك الصورة كانت حاضرة في قلبي دائماً. ولما تشرّفت بشرف صحبة حضرة شيخنا قال يوماً في أثناء الكلام بالتقريب: إن بعض الناس يرى رسول الله ﷺ والحق أن مشاهدة هذه الصورة كانت موجبة لارتباطه بحضرة الشيخ.

قال: كنت مرة في ملازمة حضرة شيخنا في قرية دالج، وهي قرية في سغد سمرقند على أربعة فراسخ من البلد، وكان جمع من الموالي في رفاقته ومعهم شرح «منازل السائرين» للشيخ عبد الرزاق الكاشي. فطرح حضرة شيخنا كلاماً منه بين الموالي وطلب منهم توجيهه على ما هو دأبه الشريف. فخطر شيء في خاطري فعرضته عليه فقال: إن مذاق هذه الطائفة طور آخر، خل تأويلات علماء الظاهر. فسكت وأخطرت ببالي أن ما وقع في خاطري له وجه وجيه فلم لا يقبله حضرة الشيخ. فظهر في صورة الغضب وشرع في التكلم وزادت حرارته وغضبه في أثناء الكلام، فأحسست في نفسي ثقلاً عظيماً وظننت أنه وقع عليَّ مائة مَنٍ مِنَ الحمل، وصرت منحنياً من غاية الثقل وعدم الطاقة، وزالت القوة والحركة عني، فرأيت حضرة شيخنا في هذا الحال قد شرع وجهه المنور في التزايد والتعاظم وأرى شفتيه تتحركان لكن لا أسمع شيئاً ولا أفهم. فبلغ تزايده حداً قد ملأ جميع البيت ولم يفضل منه محل أصلاً، فوقعت في غاية المضايقة حتى كاد نفسي ينقطع وبقيت على تلك الحالة مدة مديدة. ثم رأيت وجهه المبارك قد شرع في النقصان قليلاً قليلاً حتى عاد إلى حاله الأول وصرت أيضاً خفيفاً ورجعت إلى سيرتي الأولى وزالت الثقلة عني بالتمام، ولم يكن لأهل المجلس خبر من ذلك أصلاً.

وقال: كنت مرة في ملازمة حضرة شيخنا بمحلة خواجة كفشير، وكان وقت الحرارة، فجاء حضرة شيخنا من طرف حرمه إلى جانب حجرته بقميص فقط بلا جبة وعمامة، وقعد في حجرته. فرأيت جثته المباركة في غاية الصغر، فخطر في قلبي: إن جميع آثار تلك التصرفات في الممالك يظهر من حضرة شيخنا مع هذه الجثة وليس ظهور هذه التصرفات إلاَّ بمحض عناية الله سبحانه وقدرته الكاملة. فبمجرد خطور ذلك في الخاطر شرع في التكلم إظهاراً للالتفات والعناية للفقير، وتعاظم وجهه المبارك حتى امتلأت منه الحجرة، فأخذت نفسي على زاوية ووقعت في غاية المضايقة وغبت عن الحس والحركة مثل الأول. فسمعت صوتاً ولكن لم أفهم مضمونه وامتدت تلك الحالة مدة مديدة ووقعت على الغيبة. ولما أفقت رأيت وجهه قد رجع إلى حاله الأصلي.

وقال: ذهبت في ملازمته إلى قرية كمانكران في مبادي أحوالي، وكان فرسي بطيء السير، فكنت أسوقه قدام حضرة شيخنا خوفاً من التخلّف عنه فلحقني حضرة شيخنا وضرب فرسي بسوطه، وقال: إن فرسك ما كان رهواناً، فصار فرسي رهواناً في الحال حتى كان يسبق فرس حضرة شيخنا مع سوقه إياه بسرعة، ولم يتخلّف عنه خطوة. وكنت أيضاً مستريحاً فوق ظهره، وتعجب الأصحاب الحاضرون بعدما اطلعوا على حقيقة الحال، وما دام ذلك الفرس حياً كان رهواناً، ولم يظهر منه البطء أصلاً وصارت مشاهدة هذا الحال سبباً لمزيد يقيني بولاية حضرة الشيخ.

* * *

■ **مولانا شيخ عليه الرحمة**: كان من كبار أصحابه، وكان تدبير أموره الدنيوية وتصرفها مفوضاً إليه مدة سنين. وسمعت بعض الأصحاب يقول: إن مولانا شيخ إذا رجع إلى منزله كان يجالس أهل بيته زماناً ويأكل معهم طعاماً، فإذا نام أصحابه وخدّامه كان يلبس لباس الليل ويجلس مستقبل القبلة إلى طلوع الفجر مشتغلاً بتحصيل النسبة التي أخذها من حضرة الشيخ بتمام الاهتمام.

وكان يفهم من كلامه أنه كان مأموراً بالنفي والإثبات إحدى وخمسين مرة في نفس واحد مع ملاحظة نفي الغير وإثبات المقصود، ورعاية كلمة: بازكشت، والوقوف القلبي، والوقوف العددي، من غير أن يضيق النفس ومن غير أن يحصل الخفقان في القلب، ومن غير أن يظهر أثر التعب في البشرة.

كان يوماً قاعداً في محوطة العلماء بمحلة خواجة كفشير مع جمع من خواص الأصحاب في حجرة واحد من الطلبة، وجرى الكلام في تصرفات شيخنا العجيبة وكراماته الغريبة، ونقل كل من الأصحاب شيئاً من هذا الباب، ومولانا شيخ ساكت لا يتكلم. فخطر في بالي: إنه ماذا عليه لو تكلم بشيء في هذا الباب؟ فقال بعد لحظة للأصحاب: أنتم إنما تكلمتم في تصرفاته الآفاقية وما بيَّنتم شيئاً من تصرفاته الأنفسية. فقال له الأصحاب: فتفضل علينا بنقل شيء من ذلك. فقال: لما وصلت إلى صحبته في مبادي الحال، وتلقنت عنه الذكر، أتعبت نفسي كثيراً برياضات شديدة حتى ظهر شيء يسير من نتائج الاشتغال وكثر التفاته يوماً فيوماً، فتيسر شيء من جمعية الباطن بعد مدة وحصلت نسبة الحضور في الجملة. فأمرني حضرة الشيخ بكفاية بعض مهمات الزراعة وغيرها، فشرعت النسبة في الضعف والانحطاط شيئاً فشيئاً لتطرق الفتور إلى الاشتغال الباطني بسبب الاشتغال بالشغل الظاهري المأمور به. فحصل لي من ذلك ألم عظيم وحزن كثير، فقلت في نفسي: أذهب عند حضرة الشيخ وأعرض عليه ألم قلبي. فجئت خلوته في وقت الفرصة وأردت أن أعرض عليه شيئاً من بعض أحوالي المتشتتة، فقال قبل أن أتكلم: يا مولانا شيخ إن الخلوة في الجلوة أصل كلي في طريقة خواجكان قدّس الله أرواحهم، وبناء جميع أمورهم على ذلك، وذلك الأصل مأخوذ من قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النّور: الآية ٣٧]. وأن نسبة هؤلاء الأكابر محبوبة، وغيرة المحبة تقتضي أن يكون المحبوب مستوراً. وكيف يريد المحب الغيور كون محبوبه من غير حجاب عن الأغيار؟ وتحصيل هذه النسبة من غير سترها بشيء ليس من دأب هؤلاء الطائفة العلية، بل لا بد من جمعها مع شغل من الأشغال الظاهرية. فتضرعت إليه بحسب الباطن لكوني عاجزاً عن الجمع بين أمرين، فقال: اجتهد بصرف الهمة فيه فعسى الله سبحانه يعطيك قوة تحصل بها أمور. والتفت إليَّ مقارناً لهذا الحال، فاستولى على باطني ما كان يتيسر لي أحياناً بالتعمل والتكلف وصار ثابتاً ومتمكناً في قلبي، وحصل له الاطمئنان وتخلص عن التردد والافتتان. ثم كان ذلك نصب العين في جميع الأشغال والأحوال والنوم واليقظة والسكون والانتقال والحمد لله على ذلك.

توفي مولانا شيخ بعد مضي أيام من إتمام «الرشحات» في أواخر سلطنة سلطان الأوزبك، ودفن في محوطة العلماء رحمه الله.

* * *

* **مولانا سلطان أحمد عليه الرحمة**: كان من جملة أصحاب حضرة شيخنا ومن العلماء المتبحرين في العلوم الظاهرية والباطنية. وسافر إلى الحجاز بإجازة حضرة شيخنا، وفاز بزيارة الحرمين الشريفين زادهما الله شرفاً وكرامة، ورجع إلى ملازمته ثانياً. قال: ذهبت يوماً في مبادي أحوالي إلى قرية ماتريد لملازمة حضرة شيخنا واجتهدت في الطريق في تحصيل جمعية الخاطر بطريق التوجه والمراقبة لأحضر عند حضرة شيخنا بالجمعية لكنها لم تتيسر، فاشتغلت بطريق النفي والإثبات وكررت كلمة التوحيد مرات بشرائطه اللازمة حتى حصل لي شيء يسير من نسبة الحضور، فحفظت تلك النسبة وجئت مجلس حضرة شيخنا. ولما قعدت عنده قال لي بعد لحظة: هل تشتغل بالنفي والإثبات؟ قلت: نعم أشتغل به أحياناً. فقال: لما حضرت ظهرت نسبة النفي والإثبات فصار من كلام حضرة الشيخ معلوماً لي أن الحضور بالله وإن كان في حد ذاته واحداً ولكن بالنظر إلى أسبابه من النفي والإثبات والتوجه والمراقبة له كيفية مختلفة، والفرق بين تلك الكيفيات وتميزها موقوف على فراسة أخص الخواص من الأولياء ذوي الاختصاص المؤيد بالعلم اللدني من عند الملك العلام.

* * *

* **مولانا أبو سعيد الأوبهي عليه الرحمة**: كان من جملة أصحابه المقبولين عنده، صحبه خمساً وثلاثين سنة. قال: إن سبب لحوقي بحضرة شيخنا ودرام ملازمتي له هو: أني قدمت في مبادي أحوالي سمرقند واشتغلت بتحصيل العلوم في مدرسة مرزا ألغ بك مدة، وصرفت الخاطر إلى المطالعة بالتمام. ثم تطرق الفتور إلى المطالعة من غير سبب وظهرت في باطني داعية طريق التصوف وخدمة الدراويش. فخرجت من المدرسة، فأقبل عليّ واحد من طلبة العلوم الذي كان بيني وبينه إلفة ومودة، فقلت له: أين كنت، وكيف حالك؟ فقال: كنت في جبل النور عند الشيخ إلياس والآن جئت من ملازمته. ووصفه بأوصاف حسنة جميلة حتى حصل لي ميل عظيم إلى صحبته، فتوجهت من ذلك المحل من غير أن أرجع إلى حجرتي نحو جبل النور، فصادف مجتازي مدرسة حضرة شيخنا ورأيته قد قدم هناك ونزل عند باب المدرسة. فقلت في نفسي: ما صحبت حضرة الشيخ أصلاً، فأجالسه أولاً ثم أذهب إلى جبل النور. فدخلت المدرسة من خلفه فرأيته قاعداً في صف

المدرسة مع جماعة من أصحابه، فجئت عنده وجلست في مقابلة حضرة شيخنا في صف الأصحاب، فرفع رأسه بعد سكوت لحظة وقال خطاباً لي: [شعر]

اقعد لديّ ولا تذهب إلى جبل فإنه لا معاذ اليوم في الجبل

فتغيّر حالي من سماع هذا البيت وقلت في نفسي: لو أنشد حضرة الشيخ هذا البيت من أجلي فلينشده ثانياً. فتوجه إليّ وقال: يا مولانا أبا سعيد إن هذا البيت من أشعار الشيخ كمال الخجندي قدّس سرّه. [شعر]

اقعد لديّ ولا تذهب إلى جبل فإنه لا معاذ اليوم في الجبل

ثم قام وخرج من المدرسة وركب فرسه ومضى لسبيله، وجعل باطني منجذباً إليه. فبقيت حيران مضطرباً وتفكّرت في نفسي: إن حضرة الشيخ لم يسمع اسمي أصلاً، فمن أين ما عرفه وما هذا البيت الذي أنشدنيه؟ فخرجت من المدرسة متحيّراً وأرسلت إلى الطلبة في مدرسة مرزا ألغ بك خبراً بإباحة ما في حجرتي لهم، ثم جئت عند حضرة الشيخ والتزمت ملازمة عتبته العلية فمضت سنة كاملة ولم يلتفت حضرة الشيخ إليّ في تلك المدة بوجه من الوجوه بحسب الظاهر، ولكن كان انجذابي إليه وعلاقتي به بحسب الباطن في التزايد يوماً فيوماً. وكان ثوبي في تلك المدة قباء خلقة مرقعة ليس تحتها قميص ولا سروال، ثم ظهر التفاته شيئاً فشيئاً بعد سنة. قال: وقع عليّ يوماً ثقل عظيم من طرف حضرة شيخنا وانقطع الالتفات الذي كنت أشاهده منه في باطني آناً فآناً، واستولت صفة هذا القبض عليّ حتى خفت من الهلاك. وامتد ذلك القبض إلى عشرين يوماً ولم يبق صبري وطاقتي. وقد كنت سمعت من بعض الأكابر أنه من قرأ سورة (يٰس) في التهجد ثم دعا بما شاء يستجاب له البتة، فدعوت ليلة بعد التهجد بتمام الاضطرار إلى الله تعالى وقلت: إلٰهي إن كان في طبيعتي ما هو مكروه عند حضرة الشيخ فأزله عني، وإن كان استعدادي على وجه أكون سبباً لتكدره فارفعني من بينهم أو باعدني من عتبته. وأوردت أمثال تلك الكلمات في مناجاتي وبكيت كثيراً. ولما حضرت مجلس حضرة شيخنا في الصبح، كان أول ما ظننت أني أعمل شيئاً والحال أنه لا يناسبك حتى تتمنى الموت والتباعد، فليكن ذلك مصروفاً عنك. فعلم من كلامه هذا أن ذلك القبض والثقل اللذان أحالهما إلى الفقير كانا منه لتربيتي، ثم ظهر بعد ذلك بسط وانشراح.

ومن فوائد كلماته النفيسة هذه الرشحات الثلاث:

• رشحة: قال: إن حاصل السير والسلوك وجدان الذوق والألم، فينبغي للطالب أن يلتذ بما وجده من الواردات والمواجيد، وأن يكون خالياً من هذا الذوق واللذة ثانياً، وأن يغتم ويتألم لما لم يجده ولم يصل إليه وفاته. فإن المقصود غير متناه ونسبة ما وجده إلى ما لم يجده كنسبة نصف قطرة إلى البحر المحيط، فإذا قنع بما وجده واطمأن به واستمر في ذوقه ولذته إلى أن خرج من هذا العالم فلا جرم يكون فيه محبوساً أبد الآبدين، ويكون من الأذواق والمواجيد الغير المتناهية محروماً. فإن السالك إذا رزق العمر الأبد وسار فيه وطار ونال ما نال، فهو كأنه لم يعمل شيئاً ولم يسلك طريقاً بالنظر إلى مراتب الأذواق الإلهية غير المتناهية، فما ظنك فيمن قنع بأدنى ذوق وبقي في أدون المراتب وأنزل الدرجات.

• رشحة: قال يوماً في أسرار آيات سورة الإخلاص: إن أول موجود وجد بإيجاد الله تعالى من غير واسطة هو الصادر الأول. ولما كان إظهار المبدأ الفياض له مشابهاً للتوليد فلا جرم نفى الله سبحانه تلك المشابهة بقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ [الإخلاص: الآية ٣]. ولما ظهر الحق سبحانه في المظاهر الإلهية والكونية بحسب الذات والصفات والأسماء والأفعال بعد إيجاد الموجودات وإظهار التعينات، تشابه ظهوره هذا التولد، فلا جرم نفى الله سبحانه وتعالى تلك المشابهة بقوله: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: الآية ٣]. ولما جعل الله سبحانه نوع الإنسان بعد إيجاد الموجودات نسخة جامعة ومظهراً لجميع الأسماء بحكم قوله عليه الصلاة والسلام: «**خلق الله آدم على صورة الرحمٰن**»(١) وجعله مرآة لذاته وصفاته وأفعاله التي لا نهاية لها، كان مظنة مشابهة نوع الإنسان من حيثيته الجامعية بالذات، المقدسة الموصوفة بقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: الآيات ١ ـ ٢]، وتوهم كونه كفوله تعالى. لا جرم نفى الله سبحانه تلك المظنة والتوهم بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: الآية ٤].

• رشحة: قال: ذهبت إلى مجلس وعظ خواجة شمس الدين محمد الكوسوي مع والدي الماجد، فشاهدت منه في ذلك المجلس خرق العادة، وسمعت تفسير آية، وكل منهما عجيب وغريب. أما خرق العادة فهو أنه كان يتكلم في المعارف

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

الإلهية واللطائف السبحانية بكلمات غامضة ونكات عالية، فغشي بعض الحاضرين نعاس بسبب دقة الكلام وبعده عن إدراك مضمونه، فقال الخواجة غضباً عليهم: ما لكم قد أراكم تتناعسون وتتثاءبون! فوالله لو كلّمت بهذه الكلمات سقف المسجد لتأثر البتة ولتزعزع عن مكانه، ثم أشار إلى سقف المسجد فظهرت فيه زلزلة وزمزمة من أخشابه، فوقع أهل المجلس بعضهم على بعض من الخوف، ومن كان في قرب الباب خرج هارباً إلى صحن المسجد، ومن كان في قرب المنبر تعلق بقائمته. ولما كنت في ذلك الوقت أصغر الحاضرين، قمت من مكاني مسرعاً وتعلقت بقائمة المنبر. فسكت الخواجة مدة مديدة فوق المنبر ثم شرع في الكلام واستمع له الحاضرون بحضور القلب، متوجهين إليه بكليتهم. وأما تفسير الآية، فقال: قال الله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: الآية ٧٧] وإحسان الله تعالى إلى العبد هو: إن الحق سبحانه كان ظاهراً في الأزل، والعبد مخفياً، فأحسن الله للعبد بأن جعله ظاهراً وجعل ذاته تعالى مخفية. ثم علّمه وأمره أن يُحسن كما أحسن إليه. يعني: اجعل نفسك محباً بنفي وجودك حتى يكون الحق سبحانه ظاهراً.

* * *

• **مولانا القاضي محمد قدّس سرّه وأدام الله بركات إفادته**: هو من أجلّة أصحاب حضرة شيخنا، ومن المقبولين عنده. وصنّف كتاباً في مناقب حضرة شيخنا وخصائصه وفضائله، وسماه «سلسلة العارفين وتذكرة الصدّيقين»، وذكر فيه: تشرّفت بإدراك صحبة حضرة شيخنا في سنة خمس وثمانين وثمانمائة، وكنت في ملازمته مدة اثنتي عشرة سنة والحمد لله على ذلك. ولما كان له طبع وقّاد وفهم نقّاد في إدراك لطائف الصوفية ومعارفهم قدّس الله أرواحهم، كان حضرة شيخنا يخاطبه وقت أداء حقائق هذه الطائفة ودقائقهم.

قال: سألني حضرة شيخنا يوماً: هل تجد نقصاناً في عقيدتك التي أخذتها وتلقيتها من أبيك وأمك وأستاذك في صغر سنك بسماع هذه الكلمات الدقيقة مني؟ قلت: لا، فقال: إذاً يمكن أن نكلمك بأمثال هذه الكلمات.

وكتب في «سلسلة العارفين»، وسمعته شفاهاً، يقول: إن سبب اتصالي بصحبة حضرة شيخنا وملازمته أني خرجت من سمرقند مع واحد من طلبة العلوم يسمى بـ:نعمة الله الكرماني، قاصدين هراة. ولما وصلنا إلى قرية شادمان، توقفنا هناك

بسبب حرارة الهواء. ولما دخل وقت العصر، قدم حضرة الشيخ هناك. فذهبنا إلى ملازمته فقال: من أين؟ قلت: من سمرقند. ثم شرع في التكلم بأنواع الحكايات وأظهر في أثنائها جميع ما في قلبي وكان من جملة ذلك كلام صار سبباً لحيرة الفقير وخروجي من تلك الولاية، فأظهره على وجه كان قلبي منجذباً إليه بسببه. وقال في أثناء الكلام: إن كان المقصود تحصيل العلوم فهو هنا أيضاً ميسر.

والحاصل: أنه تبيَّن لي في ذلك المحل: أن ليس شيء من مخفيات الفقير ومكنونات الضمير إلاّ وحضرة الشيخ مطّلع عليه، وتيقَّنت أن له إشراقاً تاماً على بواطن الخلق وضمائرهم. ومن العجائب: إنه مع حصول اليقين بهذا المعنى لم يزل عني ميل السفر لوفور شوق تفرج هراة، فقصدت قرشى، فمنعني عن ذلك وقال: بل اذهب إلى بخارى. ولما جئته في غد لاستئذانه قال لي شخص: إنه مشغول بالكتابة. ثم رأيته بعد لحظة قد قام من مكانه وجاء نحوي وقال: قل الصدق والحق، هل تذهب إلى هراة لتحصيل طريق التصوُّف أم لتحصيل العلوم؟ فسكت من غاية الدهشة فقال مولانا نعمة الله: إن ميله إلى جانب التصوُّف غالب، وإنما جعل التحصيل ستراً وحجاباً له. فتبسم وقال: إذا كان كذلك فحسن. ثم أخذ بيدي وتوجه إلى طرف من البستان ومشى حتى بعُدَ عن الناس، ثم وقف وقد حصل لي غيبة بمجرد وصول يده إلى يدي، وبقيت في الغيبة زماناً. ولما أفقت من الغيبة شرع في التكلم وقال: أظن أنك لا تقدر أن تقرأ خطي. فأخرج من جيبه رقعة وقرأ ما فيها، ثم لفها وأعطانيها وقال: احفظها ولا تضيّعها. وقد كتب فيها: إن حقيقة العبادة خشوع وخضوع وانكسار وتضرع، وطريق حصولها في القلب شهود عظمة الحق سبحانه وحصول تلك السعادة موقوف على محبته تعالى. وظهور المحبة موقوف على متابعة سيد المرسلين وسند الأولين والآخرين عليه من الصلوات أتمها ومن التحيات أكملها. والمتابعة موقوفة على العلم بطريق المتابعة، فيلزم ضرورة متابعة العلماء الذين هم ورثة علوم الدين للغرض المذكور، وينبغي أن يجتنب صحبة علماء السوء الذين جعلوا العلم وسيلة إلى معاش دنيوي وسبباً لحصول الجاه. وينبغي أيضاً الاجتناب عن صحبة المتصوفين اللذين يركنون إلى الرقص والسماع ويأخذون كل ما يتيسر لهم من غير تحاش، ويأكلون كل ما يجدونه بلا توقف. وينبغي أيضاًالاجتناب عن استماع كلمات توحيدية ومعارف تكون سبباً لنقصان عقيدة أهل السنة والجماعة. وأن يكون التحصيل لظهور المعارف الحقية التي تونف

ظهورها على متابعة سيد المرسلين ﷺ، والسلام. ثم جاء عند الأصحاب وأجاز الفقير لسفر هراة، وقرأ الفاتحة وركب فرسه ومضى. فتوجهت إلى بخارى بموجب إشارته. ولما مشينا قليلاً جاء واحد من خلفنا ماشياً وأعطانا كتاباً من حضرة الشيخ كتبه إلى مولانا خواجة كلان ابن مولانا سعد الدين الكاشغري قدّس سرّه وقد كتب فيه: أن كن واقفاً على حامل هذه الرقعة ولا تتركه أن يقعد من غير شغل وأن يختلط بكل من شاء. فأثر هذا الكتاب فيَّ تأثيراً عظيماً وكأنه كان سهماً أصاب قلباً مجروحاً، وكان قلبي بكليته مائلاً إلى ملازمته وشغوفاً به، ولكن كان قلبي متوجهاً إلى بخارى وصرت متفرق القلب، مستغرق الغم والهم، وكان يقع علي في كل منزل ما يوجب الرجوع.

ومن أعجب العجائب عدم زوال دغدغة السفر عن الخاطر مع وقوع أمثال تلك الموانع حتى بدلت إلى بخارى ستاً من الدواب لوقوع صورة مانعة عن الركوب في كل منزل على الدابة التي كنت راكبها. ولما دخلت بخارى عرض لي رمد قوي وتوقفت عن السفر أياماً بسببه. ثم كلما قصدت السفر منه ظهر شيء مانع عن السفر، ثم طرأت عليَّ الحمى الباردة فقلت في نفسي: إن أردت السفر بعد ذلك وسعيت له أخاف من الهلاك. فأخرجت داعية السفر عن قلبي بالكلية، فزال المرض عني، فعزمت أن أرجع إلى ملازمته.

ولما وصلت إلى تاتكند وقع في قلبي أن اذهب أولاً إلى رباط الشيخ إلياس لرؤيته، ونوع الاستئذان منه بحسب الباطن معللاً بأن جذب صحبة حضرة الشيخ غلب عليَّ وسلب عني راحتي. والباعث على ذلك فإني كنت في ربقة إرادته أولاً، فسلمت فرسي مع ما عليه من الكتب وغيرها إلى واحد من أحبابي ودخلت السوق بقصد ملاقاة واحد من مريدي الشيخ إلياس لأذهب معه إلى رباطه. فلقيت شخصاً منهم وقال: إئت بفرسك فنتوجه إلى الرباط راكبين. فجئت لآخذ فرسي فقال لي شخص: قد ضاع فرسك مع ما عليه من الكتب وذهب جماعة لطلبه. فقعدت في زاوية مطرقاً متفكراً، فوقع على قلبي: إن أكابر طبقات خواجكان قدّس الله أرواحهم في غاية من الغيرة، وقد قصدت زيارة غيرهم مع توجههم إليَّ بهذه الأنواع من الالتفات، والحمد لله على ما لم أكن مبتلى بأزيد من ذلك. فرجعت عن تلك العزيمة من قلبي واستغفرت منها ربي، فبلغ صوت شخص سمعي يقول: قد وُجِدَ فرسك مع ما عليه من غير ضياع شيء منه. فرفعت رأسي فرأيت فرسي قد جاؤا به،

وقال صاحبي الذي سلمت إليه فرسي: قد وقع عليَّ أمر عجيب وهو أني ربطت فرسك في مقابلتي، فلما نظرت لم أره في مكانه. فصرت متحيّراً ومتعجباً، فإن وجدان شيء بعد فقدانه في أسواق تاتكند عسير جداً لكثرة الناس وازدحام الخلق، وأغرب من هذا وجدانه من غير نقصان شيء منه. فظهرت فيَّ كيفية عجيبة من مشاهدة هذا الحال، فركبت الفرس في الفور وتوجهت إلى سمرقند من غير أن أذهب إلى رباط الشيخ إلياس. ولما وصلت إلى صحبة حضرة الشيخ نظر إليَّ وتبسم وقال: مرحباً. فتبين لي أنه كان خبيراً ومطلعاً على جميع ما جرى عليَّ، بل كانت الموانع كلها من طرفه.

وقال: وقع مرة على خاطري في مبادي ملازمتي لحضرة الشيخ حين كونه في رباط خواجة أن أذهب لزيارة خواجة زكريا الورق سري. ولما وصلت إلى باب قبة قبره وقعت عليَّ كيفية غريبة قبل أن أضع قدمي داخل القبة حتى سقطت على الأرض وأحسست في باطني ألماً عظيماً، وصرت منحنياً مثل الحلقة، وكاد أن يفارق روحي بدني، فوقع في قلبي: أني خرجت من صحبة حضرة الشيخ للزيارة بلا إجازة منه وهذا ليس بحسن. فاستغفرت في الحال ورجعت من غير وضع القدم في القبة. ولما جلست عند حضرة الشيخ كان أول كلامه: ألم تسمع قول الأكابر: إن الهر الحي أولى من الأسد الميت. فصارت مشاهدة ذلك الحال موجبة لزيادة يقين الفقير بولاية حضرة الشيخ.

قال بعض الأصحاب: إنه لما اشتد مرض حضرة شيخنا واجتمع عنده أولاده وأحفاده وأصحابه في قرية كماتكران، قال: ينبغي لأصحابنا أن يختاروا أحد الأمرين من الفقر والغنى. ثم توجه إلى مولانا القاضي محمد وقال: اختر أنت أولاً واحداً منهما. فقال مولانا محمد: إني اخترت ما هو مختار عندكم. فقال حضرة الشيخ: إن المختار عندنا هو الفقر، ثم أشار إلى واحد من وكلائه، أن يعطي مولانا محمداً أربعة آلاف من الذهب الشاهرخية لاختياره الفقر على الغنى ليجعله رأس ماله وقوت عياله، وليصرفه في فراغ الفقراء المجتمعين عنده، وإصلاح حاله وجمعية باله. فأخذ مولانا محمد المبلغ المذكور امتثالاً لأمره الشريف وجعله رأس مال معاشه ومعاش أصحابه.

* * *

• **مولانا خواجة علي التاشكندي رحمه الله**: هو من قدماء أصحاب حضرة شيخنا وأجلّة وكلائه، وتشرّف بشرف القبول في مبادي أحواله بتاشكند. ونقل عنه بعض الأكابر أنه قال: لما رجع حضرة شيخنا إلى وطنه الأصلي من خراسان في مبادي أحواله واشتغل بأمر الزراعة، وكنت وقتئذ شاباً ابن عشرين سنة، فالتزمت صحبته وأظهر لي التفاتاً كثيراً، فعزم في ذلك الأثناء جمع من طلبة العلوم على من يتوجهوا إلى سمرقند ووسوسوا عليّ وسوسة بليغة وقالوا: إنك إن قعدت في تاشكند تضيع أوقاتك وتبقى عامياً جاهلاً. وأكثروا من القيل والقال، وشوشوا عليّ الحال، حتى عزمت على السفر بالبال، فقلت في نفسي: إن استأذنت حضرة الشيخ للسفر مشافهة فغالب الظن أنه يكون مانعاً عنه، فالأولى أن أكتب في رقعة قضية ذوق التحصيل والسفر إلى سمرقند وأضعها على محل جلوسه حين غيبته عنه ثم أتوجه إلى مقصدي، فإذا اطلع على مضمونها وأنا لست بحاضر إذ ذاك لا يكون مانعاً البتة وأحصل نوع إجازة في ضمنها. فكتبت الرقعة ووضعتها على محل جلوسه وسافرت إلى سمرقند، ولم يدخل حضرة الشيخ هذا البيت الذي وضعت فيه الرقعة في ذلك اليوم إلى وقت المغرب اتفاقاً. ولما دخله وقت المغرب ورأى فيه الرقعة وقرأها، تغيّر من تلك الصورة وقال: أيتكلم هو معي بلسان القلم ويستأذنني بالحيلة؟! فلينظر كيف يذهب إلى سمرقند!. وقد كنا نزلنا مع جميع الأصحاب التاشكنديين وقت تغيره، وقوله الكلام المذكور، أول منزل من تاشكند ما بين المغرب والعشاء، فطرأ عليّ صداع قوي وحمى محرقة شديدة فلم تبق طاقتي ولا راحتي، فأخذت أبكي وأتأوه إلى أن كان وقت السحر، فقام الأصحاب وأسرجوا دوابهم وحملوا أحمالهم وأسرج دابتي أيضاً واحد من الأصحاب الذين كان باعثاً على سفري وأراد أن يحمل عليها حملي، فاشتد في ذلك الحال صداعي وزادت حرارتي حتى ظننت أنه قد تصدع رأسي ودخلت وسط النار الموقدة، وكدت أن أموت. فقلت للأصحاب: اتركوني واذهبوا أنتم فإني لا أطيق أن أتحرك وأركب. ولما بالغوا في التحريض على المشي منعتهم بالإشارة لعدم القدرة على الكلام. ولما يئسوا مني تركوني وذهبوا، فصرت أتفكر في نفسي: إن هذه العارضة إنما هي من طرف حضرة الشيخ لكونه غير راض بسفري، فنويت الرجوع في الحال. فشرع الصداع والحرارة في النقصان والزوال حتى حصلت لي قوة القيام، فقمت وحملت حملي على دابتي وركبت وتوجهت إلى تاشكند. فكان يخف مرضي في كل خطوة تخطوها دابتي حتى

لم يبق منه أثر حينما وصلت إلى بساتين تاشكند أصلاً. فجئت منزلي في الحال وربطت فرسي، ثم جئت منزل حضرة الشيخ مسرعاً وسلّمت عليه، فرد جواب السلام وتبسم وقال: لِم لَم تذهب إلى سمرقند؟ فاستولى عليَّ البكاء وقبّلت الأرض بين يديه واعتذرت من سوء أدبي إليه، فعفى عني بلطفه وعنايته وقال: اذهب وكن في الخدمة فإن لي معك أموراً كثيرة وكل الأمور قدامنا. ولما تحول حضرة الشيخ إلى سمرقند بالتماس السلطان أبي سعيد فوّض جميع مهماته الدنيوية إليه وسلّم زمام أموره إلى كف كفايته، وبلغ تصرفاته في مهماته مرتبة كان يكتب في يوم واحد عشرين رقعة من لسان حضرة الشيخ إلى سلاطين الزمان والأمراء وأرباب الديوان، ولم يكن لأحد قدرة على أن يتجاوز مضمون رقعته أو يتأنى في أمره.

* * *

• **الشيخ حبيب النجار التاشكندي رحمه الله تعالى**: كان من قدماء أصحاب حضرة شيخنا، ومن المقبولين عنده. وفوّض حضرة الشيخ ترتيب سفرة الأصحاب إليه في تاشكند. وحكى هو أنه تأذى حضرة الشيخ مرة من بعض الأصحاب حين كان بتاشكند، فتوجه إلى طرف فركت وذهب الأصحاب أيضاً من خلفه بالتضرع والمسكنة للاعتذار. ولما وصلوا إلى فركت أخبروا بأن حضرة الشيخ في قرية منار في حجرة مولانا إسماعيل الفركتي ابن مولانا سيف الدين المناري عند قبر أبيه مولانا المشار إليه، فتوجهوا إلى منار وجاؤا حجرة مولانا إسماعيل وقد ظهرت في ذلك الوقت في حضرة شيخنا صفة الهيبة والجلال، فكل من دخل الحجرة ووقعت عينه على عين حضرة الشيخ كان يغمى عليه ويسقط على الأرض، وكاد أثر الحياة يزول عن جميع الأصحاب. فقام مولانا إسماعيل مع جمع من مخلصي تلك الديار على أقدامهم حاسرين رؤوسهم للاعتذار فعفى حضرة الشيخ عن جرم الأصحاب بالتماسهم، وظهر فيه آثار اللطف والمرحمة، فرجع الأصحاب كلهم إلى سيرتهم الأولى وقاموا.

* * *

• **مولانا نور الدين التاشكندي رحمه الله تعالى**: كان من المنظورين والمقبولين لحضرة الشيخ. تكلم حضرة شيخنا يوماً في المحبة الذاتية وقال: إن المحبة الذاتية عبارة في اصطلاح الصوفية قدّس الله أرواحهم عن الارتباط بالحق

سبحانه أو بغيره، والتعشق له من غير سبب يعلمه أو موجب يعرفه، بل هي ميل وانجذاب لا قدرة على دفعه. وقال: شاهدت هذا المعنى من غلامين في نواحي تاشكند. كان أحدهما يطوف حول حلقة أصحابنا ويقعد في قرب الحلقة مطرقاً رأسه، ولما قمت مرة للتوضأ بادر إلى الإبريق وناولنيه، ولما توضأت سألته أنه: ما سبب مجيئك هنا ولم تطف حول الحلقة؟ فقال: أنا أيضاً ما أعرف سببه ولكن كلما جئت هنا أجد في باطني انجذاباً وميلاً إلى الحق سبحانه وأرى نفسي خالياً عن جميع المقتضيات الطبيعية وأدرك منه في قلبي لذة عظيمة، فإذا تباعدت عن هذا المحل أكون خالياً عن هذه النسبة. وكان الآخر حسن الصورة وكان يختلط بالأصحاب وقد عشقه كثير من الناس في تلك النواحي، واتهموا به أصحابنا أيضاً. فقلت لهم: اعتذروا إليه حتى يذهب من بينكم. فبالغوا في الاعتذار إليه ليخرج من بينهم ولكن لم تنفع مبالغتهم شيئاً حتى بكى أخيراً واضطرب اضطراباً كثيراً وقال: أي فائدة لكم من عدم مجيئي هنا ويشوشني الناس حين خرجت من عندكم ويقع قلبي في جذبات مقتضيات الطبيعة وأتباعد عن الحضور والجمعية التي أجدها في نفسي في هذه الحلقة. فأعذره الأصحاب وتركوه، نبلغ أمره مرتبة صار مغلوب هذه النسبة على وجه ضل عن طريق بيته مراراً، وكلما وقع عليَّ مهم متعلق به وأريد أن آمره به، وجدت هذا المهم مكفياً قبل أن آمره أو كان مشغولاً به، وكان هذا الغلام هو مولانا نور الدين التاشكندي.

وسمعت بعض أجلَّة الأصحاب يقول: إنه لما وصل مولانا إلى شرف ملازمة حضرة شيخنا في مبادي أحواله في تاشكند، أتي براسين من النبات الكرماني، ولم يكن من دأب حضرة الشيخ قبول شيء من الناس، فقبله منه وقسمه على الحاضرين وقال له في ذلك الأثناء: إن فائدة صحبة هذه الطائفة أنهم يذكرون من صحبهم ما ضاع منه مثلاً: إذا ضيّع شخص جوهراً ذا قيمة كثيرة ولا خبر له من ضياعه، فوقع في صحبة شخص له خبر عن إضاعته لجوهره ففائدة صحبته به أن يتذكر إضاعة جوهره أولاً ثم التأثر منه ثانياً، ثم حصول الخبر عن ذلك الجوهر المضيع ثالثاً. فأثّر فيه هذا الكلام والتزم صحبته، وإن طردوه بعد ذلك وأرادوا إبعاده عنهم لم يذهب ولم يترك صحبته. وقال: لا غرض لي في صحبة حضرة شيخنا سوى مشاهدة وجهه المبارك أحياناً. فتركوه من غير تعرض، فاختار طريق الرابطة واشتغل بتحصيل تلك النسبة بالجد والاهتمام وصار مغلوب تلك النسبة في مدة يسيرة.

اطّلع مولانا زادة الفركتي، المار ذكره في آخر الفصل الثاني من هذا المقصد، يوماً على شغله الباطني فقال له بطريق التغليظ: إن كنت في الصلاة مشتغلاً بهذا الطريق أيضاً يكن مؤدياً إلى الكفر، فلا بد من تخلية نفسك عن تلك النسبة من وقت تكبيرة الافتتاح إلى أن تخرج من الصلاة بالسلام وأن تحفظ قلبك عنها. فأنشده مولانا نور الدين في جوابه هذا البيت المنسوب إلى المير حسيني: [شعر]

من أجل كونك في البداية أحولا قد كان شيخك نصب عينك أولا

ولما بلغ خبر تعرض مولانا زادة وجواب مولانا نور الدين بهذا البيت حضرة شيخنا قال لمولانا زادة: إذا لم يكفر الإنسان بوقوع أملاكه وأسبابه وعبيده ومواشيه وسائر الأشياء الخسيسة على قلبه في الصلاة، فكيف يكون ارتباط قلب مؤمن بمؤمن مؤدياً إلى الكفر.

وسمعت بعض الأكابر يقول: إن مولانا نور الدين جعل نفسه فداء لحضرة شيخنا، وذلك أنه لما عرض مرض الطاعون لحضرة شيخنا في الوباء الأول وظهر في جنبه الأيسر ورم كبير أزرق اللون، وهو أشد أنواع أورام هذا المرض وأصعبه علاجاً وأعظمه خطراً خصوصاً مع كونه في قرب القلب الصنوبري الشكل الذي هو معدن الروح الحيواني ومنبع الحرارة الغريزية، جاء مولانا نور الدين إلى ملازمته وطلب منه بتمام التضرع رفع هذا المرض وتحمله عنه، وقال: ليس في الدنيا أمر موقوف على وجودي وحياتي وفي وجودك وحياتك أمور لا تحصى وفوائد لا تستقصى، فقال له حضرة شيخنا: أنت شاب قريب العهد بالبلوغ ولم تذق لذة الدنيا، وفيك من الرجاء والتمني ما لا يحصى. فبكى مولانا وقال: لا رجاء لي ولا تمني سوى أن اجعل نفسي فداء لحضرتك. فأذن له حضرة شيخنا بالضرورة، فصار مشغولاً برفع مرضه، فجذبه وتحمله فانتقل الورم من جنب حضرة شيخنا إلى جنبه، فقام حضرة شيخنا من فراشه بتمام الصحة والعافية، ووقع مولانا في الفراش وانتقل إلى جوار رحمة الله تعالى بعد ثلاثة أيام.

قال بعض الأصحاب الذي تحقق بكشف القبور وغيره من الكشوفات: مررت يوماً راكباً في ملازمة حضرة شيخنا من شرقي مقابر تاشكند بعد مضي أيام من وفاة مولانا نور الدين، فرأيته قد دار في لحده وتوجه إلى طرف حضرة شيخنا، فقال له حضرة شيخنا: يا مولانا نور الدين، انقلب إلى شقك الأيمن. فعاد إلى حاله الأول

وتوجه نحو القبلة. وكان وفاته في شهور أربعين وثمانمائة، التي هي تاريخ الوباء الأول.

* * *

* مولانا زادة الإتراري رحمه الله تعالى: هو من كبار أصحاب حضرة شيخنا، ومن المقبولين عنده. اسمه محمد عبد الله، واشتهر بمولانا زادة الإتراري. قال هو: لما تشرّفت بشرف قبول حضرة شيخنا وقع يوماً في مجلسه الشريف على خاطري: إنه لم لا يعلمني حضرة الشيخ ذكر القلب؟ وغلب ذلك على قلبي، فتوجه حضرة الشيخ إلى جانبي وقال: ليس كل أمر مناسباً لكل شخص، الذكر مناسب لغيرك، فإن استعدادك في غاية اللطافة فلا حاجة لك إلى الذكر.

وقال: لما وصلت إلى صحبة حضرة شيخنا في مبادي الأحوال، اختلج في صدري أني كنت أولاً في صحبة مشائخ طبقة العشقية، واشتغلت بطريقتهم مدة، وخرجت الآن من ربقة إرادتهم فلا آمن من وصول الضرر إليَّ من أرواحهم. وغلب هذا الخاطر عليَّ في سحر من الأسحار وزادت الوسوسة والاضطراب. ولما حضرت صحبة حضرة شيخنا في الغد قال لي: بأي طبقة من طبقات المشائخ كنت تختلط أولاً؟ قلت: كانت إنابتي أولاً على يد مشايخ العشقية واشتغلت مدة بطريقتهم. فقال حضرة شيخنا: شاهدت الليلة مشايخ الترك قد حضروا بأسلحة عظيمة وداروا حول دارنا وحوالينا ولم يقدروا على الدخول في دارنا والتصرف فيها بوجه من الوجوه وغالب الظن أن حضورهم هنا إنما هو لأجلك. فاطمأن قلبي بعد ذلك واسترحت من تلك الدغدغة والوسوسة بالكلية، وأيقنت أني في دائرة الأمن والأمان من جميع الآفات الظاهرية والباطنية في ظل عناية حضرة شيخنا وكنف حمايته.

وقال: جاء حضرة شيخنا مرة حجرتي وأمرني بطبخ طعام وقال: خذ أسباب الطبخ من مولانا خواجة علي. وكان هو في ذلك الوقت كافي مهماته ووكيله على الإطلاق. ولما تم أمر الطبخ وحضر الطعام في السفرة قال حضرة شيخنا: قد طبخ هذا الطعام من غير احتياط. فتأملنا في ذلك بالمبالغة، فبان بعد التحقيق أن القصور في الاحتياط كان في الحطب. فغضب حضرة الشيخ بعد ذلك غاية الغضب وقال: إن مداراة الأمر على الغذاء والاحتياط فيه من آكد الواجبات، فإن كل ما يرد إلى

البدن فلا بد من أن يظهر أثره في الظاهر وما تجدونه من التفرقة وعدم الذوق أكثره من أكل لقمة غير محتاط فيها.

قال بعض الأعزة: كان حضرة شيخنا مرة مع جمع من الأصحاب في حجرة واحدة من المخلصين، وكانت الصحبة في غاية التأثير بحيث كان أثر تصرفه ظاهراً في جميع الأصحاب وكل من دخل في هذا المجلس وجلس فيه كان تعرض له كيفية عجيبة لذيذة لا يريد أن يقوم عن المجلس من شدة لذّتها. فحضر الطعام في ذلك الأثناء وغشي مولانا زادة استغراق عظيم بحيث غاب عن نفسه وحسه ولم يحضر إلى نفسه بتحريكه، فوقع نظر حضرة شيخنا على طرفه، فرأى شخصاً يحرك مولانا زادة ويريد إحضاره من استغراقه، فغضب عليه وقال: لم تفعل هكذا، ولم تسيء الأدب! ألم تعلم أن كل أحد يأخذ منا شيئاً على حسب قابليته واستعداده؟!، وقد تشرّف مولانا في هذا الوقت بحال مناحتي ذهل عن الكونين في لذته، فلو اطلعت الآن على حاله لزالت عنك لذة الطعام ولملأت من غبطته. ثم أنشد هذين البيتين: [شعر]

وما العشق من شأن الغبي المفلس ... وما هو من وصف الدني المهوس

فسلّم لأرباب القلوب شؤونهم ... فما الكل مما لم تنل بمؤيس

وقد حصل مولانا زادة من حضرة شيخنا إجازة سفر الحجاز في حال حياته، وقدم الشام بعد زيارة الحرمين الشريفين زادهما الله شرفاً وكرامة. وأقام بدمشق وصار فيه مرجعاً للطالبين، وارتحل فيه من الدنيا.

ورأيت بخط مولانا عبد الرحمٰن نور الدين الجامي قدّس سرّه السامي هذه الكلمات مكتوبة على ظهر كتاب: كتب حضرة الخواجة عبيد الله، أدام بقاءه، إلى مولانا زادة الإتراري: مولانا محمد عبد الله حين إقامته بدمشق الالتماس بعد عرض التواضع أن تصرف الهمّة إلى ما تحصل به النجاة في آخر الحياة عن التلوثات التي التعبير عنها بالتلوث موجب للحياء، والسلام.

مولانا ناصر الدين الإتراري رحمه الله تعالى: هو من جملة خدّام حضرة شيخنا ومن المقبولين عنده. وهو أخو مولانا زادة الإتراري أصغر منه. قال: قدم سمرقند جماعة من طرف تاشكند قبل اشتهار صيت حضرة شيخنا فيه، فنقلوا جملة من شمائله وخصاله ونبذة من خوارقه للعادات، وذكروا في هذا الباب أموراً غريبة

وعجيبة. فبمجرد سماع تلك الحكايات التي تستحيل أن تكون علامة لغير أرباب الولاية، وقع على خاطري ميل وانجذاب إليه، ولكن وقع التوقف عن الوصول إلى ملازمته بسبب تعلق خاطري بواحد من المظاهر الجميلة. ولما تواترت تلك الأخبار عزمت على التوجه إلى تاشكند مع وجود التعلق المذكور، وقدمت تاشكند مع جماعة من مطالبي هذا الطريق. وكان حضرة شيخنا يسكن في ذلك الوقت بباغستان.

ولما وصلت إلى صحبته شاهدت منه بعيني أزيد مما سمعته بأذني، ثم غلب عليَّ خاطر الرجوع إلى سمرقند بعد أيام لاقتراب فصل الربيع. وسلب عشق الغلام المذكور راحة قلبي وكان مرادي أن أحضر الاجتماع والتفرج يوم النيروز في تل كوهك على ما هو عادة أهل سمرقند، فيتيسر لي فيه ملاقاة ذلك الغلام، فاستأذنت حضرة الشيخ فلم يأذن لي.

ولما كان غداة يوم النيروز استولى عليَّ الغم والحزن من تذكر المحبوب والتفرج في تل كوهك. فركب حضرة شيخنا مع جمع من الأصحاب وتوجه إلى قرية وأخذني معه عند ركابه، فلم يفرح قلبي بهذا التفرج في الصحراء، بل ازداد ميلي إلى جانب الغلام وتفرج نهر كوهك وكنت في غاية الخجالة والانفعال من حضرة الشيخ من تلك الصورة. ولما وصلنا في تلك الصحراء إلى محل ملآن من الشقائق مد حضرة شيخنا يده الكريمة من فوق الفرس وأخذ قبضة من الشقائق وناولنيها، وقال: ألم تستح يا مولانا ناصر الدين من أن تذكر الغلام وتفرج نهر كوهك في مثل هذه الصحبة ومثل هذه الصحراء المملوءة من الشقائق؟ ولما صدر هذا الكلام عن حضرة شيخنا صرت مستغرقاً في عرق الخجالة والانفعال من الفرق إلى القدم، فالتفت حضرة الشيخ إليَّ بعدما شاهد مني هذا الحال التفاتاً انقطعت به محبة ذلك الغلام وتمكَّنت مكانه محبة حضرة شيخنا. وقال لما تحول حضرة شيخنا من تاشكند إلى سمرقند باستدعاء السلطان أبي سعيد بعد الاستيلاء على سمرقند: تفرج يوماً محلات وبساتين في خارج سمرقند لتعيين محل النزول. وكنت في ملازمته، ولما انتهى به السير إلى محلة خواجة كفشير استحسنها ونزل فيها. ولما أدركنا الليل استراح حضرة الشيخ. فوقع على خاطري: إنه سار اليوم كثيراً ولحقه التعب ولا أقدر أن أجترىء على تمريخ بدنه وقدمه، فليت يصدر عنه الأمر بذلك. ثم كنت منتظراً للإشارة بعد خطور هذا المعنى في قلبي، فقال: يا مولانا ناصر الدين إنه قد

لحقك التعب أيضاً في هذا اليوم وإلا فالخدمة في محلها ولما وجدت هذا القدر من الإجازة، فقمت وبادرت إلى الخدمة.

وقال: لما ذهبت من سمرقند إلى تاشكند لملازمة حضرة شيخنا في مبادي الأحوال، كان فيه عالم متفرد في فن المنطق ومتبحر في سائر العلوم الرياضية، يسمى بمولانا مير جمال، وكان يرى نفسه في الكسوة القلندرية ويلبس اللباد ولا يصلي الصلوات، وكان في غاية الجراءة والجسارة في ارتكاب المحرمات. وكان منكر لمشايخ الطريقة وطائفة الأولياء، وكان يغتاب حضرة شيخنا ويذمه دائماً ويتكلم فيه بكلمات شنيعة بعيدة عن الأدب. فصادفت يوماً مجمعاً هو فيه، فشرع في السفاهة والخباثة في حق حضرة شيخنا، ولما رآني وعلم أني من جملة خدّامه تعرّض عليّ وقال: إنك معتقد في شخص لا علم له ولا عمل ولا ذكر ولا حال ولا خلوة، فأنا أذهب اليوم إلى مجلسه وآكل البنج بحيث لا يراني في ذلك المجلس وأحكم عليه أن يرتب لي طعاماً كذا وحلواء كذا حتى يتبين لكم أن ليس له حال ولا لأمره أصل وثمرة. فصرت من هزله وهذيانه مغموماً ومهموماً ولكن لم أر في مقابلته أصلح من السكوت. فقمت مسرعاً وخرجت من هذا المجلس ملولاً حزيناً وتوجهت إلى منزل حضرة الشيخ، ولحقني هو أيضاً من خلفي مع ثلاثة أنفار من طلبة العلوم المتفقين معه في الهزل والسفاهة والمقتدين به في الهتك والخباثة، وجئنا معاً مجلس حضرة شيخنا، وكنت مستغرقاً في الخوف من ارتكاب هذا السفيه الخبيث لهتك الحرمة وإساءة الأدب. ولما استقر به المجلس أخرج من كمه مقداراً من البنج قبل الشروع في الكلام ورماه في فمه حين لم يره حضرة الشيخ وسائر الأصحاب، وأراد أن يبلعه، فوقف في حلقه وانسدّ طريق نفسه، وكلما اجتهد في بلعه استصعب عليه الأمر وتغيّر حاله وآل إلى ظهور مذلّته مآله، فأمر حضرة الشيخ بضرب قفاه، فضربوه ضرباً قوياً فوقع البنج من فمه على وسط المجلس، فضحك منه الحاضرون وصار هو خجلاً ومنفعلاً خارجاً عن الوصف والبيان. فقام عن المجلس هذا السفيه وخرج مع طلبته بتلك الخجالة والانفعال واشتهرت هذه القصة في ولاية تاشكند، وافتضح هو في تلك الديار، ولم يقدر أن يقيم فيها، فهرب منها فلم يعلم أحد خبره بعد ذلك.

* * *

• **مولانا هندو خواجة التركستاني رحمه الله**: كان من المقبولين والمنظورين لحضرة الشيخ ومن قدماء الأصحاب وسباقهم. وكان غلاماً جندياً من أولاد مشايخ

تركستان، وكان مظهراً لالتفات حضرة شيخنا وعنايته ومأموراً منه بالشغل الباطني. وظهرت منه أحوال غريبة وآثار عجيبة حتى رآه حضرة شيخنا يوماً في الصحراء يطير في الهواء ويطوف كطير عالي الطيران، فلم يستحسن منه ذلك حضرة شيخنا، فغضب عليه وسلب عنه تلك الكيفية فوقع من الهواء على الأرض حتى اندقّت جميع أعضائه وبقي عارياً عن النسبة وصار كالأجانب والأغيار. فقام من مكانه واعتذر إلى حضرة شيخنا وتضرع لديه ووضع رأسه على قدميه ولكن كل ذلك لم يفد شيئاً ولم يجد نفعاً، ولم يلتفت حضرة شيخنا إليه أصلاً. فجزع جزعاً شديداً فبدأ بالتغليظ والخشونة والخروج عن طور الأدب، وقال لحضرة شيخنا: سلبت عني نسبتي وأخذتها، فإن رددتها إليّ فبها وإلا فأقتلك، فإن لم أقدر على قتلك أقتل نفسي. فلم يلتفت حضرة الشيخ إلى كلامه أصلاً. فصار هو يترقب الفرصة، فرأى حضرة الشيخ يوماً اتفاقاً في زقاق البستان ماشياً وحده فأخذ السكين وتوجه نحو حضرة الشيخ، ولم يكن هناك مفر ولا ملجأ، فتشكّل حضرة شيخنا بشكل شيبان الأتراك بطريق الخلع واللبس لابساً على رأسه قلنسوة من جلد ولد الغنم الأسود كثير الشعر، وقباء من صوف أبيض وفي يده عصا كبيرة بيضاء. فلما رآه في تلك الصورة وضع سكينه في غمده وبقي حيران متعجباً وسقط على الأرض وتعطلت يده ورجله عن الحركة من غاية الدهشة. فأخذ حضرة الشيخ سكينه من يده وعاد إلى صورته الأصلية وتبسم وقال: إيش تقول إن قتلتك بهذه السكين! فوضع خده على الأرض بين يديه وبكى بكاء عظيماً لديه وناح بحرقة القلب حتى ترحم حضرة الشيخ له ورده إلى حاله الأول وعاهد هو أيضاً حضرة الشيخ على أن لا يرتكب أمثال تلك الحركات ثانياً وأن يخفي الكرامات وخوارق العادات، وأن يجتهد في إخفائها حسب المقدور.

وأنا سمعت هذه الحكاية من شيخ كبير عظيم القدر من بني أعمام حضرة شيخنا بسمرقند، وقال: رأيت هندو خواجة وقت شبابي وصحبته، كان شاباً وجيهاً مهيباً وكانت آثار الجذبة ظاهرة فيه وحفظت منه هذين البيتين حين أنشدهما: [شعر]

وشاهد جمال الحق في كل صورة ... وأبصره في مرآة قلبك واثبت

وأين لك العينان يا أكمها وال ... لأنوار، كل العوالم عمت

* * *

* مولانا إسماعيل الفركتي رحمه الله: كان من جملة أصحاب حضرة شيخنا

السابقين ومن المقبولين لديه، وهو ابن مولانا سيف الدين المناري، المار ذكره في المقالة. وكان له ابنان، كان كل منهما عالماً عاملاً وفاضلاً كاملاً. أكبرهما مولانا سليمان الفركتي، كان من تلامذة خواجة محمد پارسا قدّس سرّه. ورأيت إجازته التي كتبها لأجل مولانا سليمان على ظهر جزء من كتب الحديث، ولننقلها عن خطه المبارك:

تيمناً بالله سبحانه وتعالى، صاحب هذا الجزء صفوة الأقران مولانا سليمان بن مولانا سيف الدين زيد توفيقه ورحم الله والده، في مجلس سمعوا على هذا الفقير من الأحاديث النبوية والمواريث المصطفوية ﷺ، وطلبوا الإجازة العامة. فأنشد هذا الفقير إيجاباً لمسؤولهم هذه الأبيات الأربعة مقتبساً من كلام أحد أكابر السلف رحمهم الله تعالى ورضي عنهم أجمعين: [أشعار]

أخلائي أجزت لكم سماعي ... وما صنّفت من كتب الحديث
أجزت لكل ذي دين وعقل ... يريد العلم بالطلب الحثيث
على شرط الإجازة فاحفظوه ... من التصحيف والغلط الخبيث
وأوصيكم بتقوى الله كيما ... تنالوا البر من ربٍّ مغيث

كتبه محمد بن محمود البخاري يوم السبت الثاني من ربيع الآخر سنة تسع عشرة وثمانمائة حامداً ومصلّياً ومسلماً، أولاً وآخراً وباطناً وظاهراً.

وأصغرهما: مولانا إسماعيل. من قدماء أصحاب حضرة شيخنا.

لا يخفى كما أنه كان فيما بين أصحاب خواجة بهاء الدين النقشبند قدّس سرّه أربعة أشخاص مسميين بـ: مولانا سيف الدين، كما ذكرناهم عند ذكر مولانا سيف الدين المناري، كذلك كان في سلك أصحاب حضرة شيخنا أربعة أشخاص مسميين بمولانا إسماعيل. فلنورد نبذة من أحوالهم في ضمن ذكر مولانا إسماعيل الفركتي.

الأول: مولانا إسماعيل الفركتي ابن مولانا سيف الدين المناري. تشرّف بشرف قبول النسبة من حضرة الشيخ في مبادي ظهوره بتاشكند. قال: جئت في مبادي أحوالي من فركت إلى تاشكند بنيّة ملازمة حضرة شيخنا، فتوجه بخاطره الشريف إلى جانب هذا الضعيف إما لملاحظة نسبة إرادة والدي إلى حضرة خواجة بهاء الدين قدّس سرّه، وإما لغير ذلك. وكان يتفقد أحوالي ويظهر العناية، وحصلت

لي نسبة عالية وجمعية قوية بيمن التفاته في أول مجلس، وصارت موجبة للسرور وانبساط الباطن. ولما نمت رأيت في المنام أن في يدي بازاً أبيض ولي إليه ميل ومحبة كثيرة، فطار بغتة من يدي. فلما استيقظت طرأ عليَّ قبض عظيم وحزن كثير ولم يبق من تلك النسبة والجمعية أثر. ولما حضرت صحبة حضرة الشيخ وقت السحر، عرف ملالتي وحزني، فسأل عن سببه. فعرضت عليه رؤياي، فقال: إن تعبيرها أنه قد حصلت لك نسبة حسنة في الصحبة ولما نمت رأيتها في صورة الباز الذي هو من أسباب الصيد بمناسبة أن تلك النسبة شيء يمكن أن يكتسب بها المعارف ويصطاد بها الحقائق، فلا تحزن فعسى أن يرجع الباز ثانياً إليك. والتفت إليَّ مقارناً لهذا الكلام، فظهرت نسبة حسنة وجمعية عظيمة في هذا المجلس ثانياً، وتبدّل القبض والملال إلى انبساط الحال وانشراح البال، وحصل سرور وفرح، فلم أقدر بعد مشاهدة هذا الحال أن أفارقه وأترك ملازمته. وكان ذلك سبب اتصالي وارتباطي به.

قال حضرة شيخنا: لما كان مولانا إسماعيل من أولاد مولانا سيف الدين، لزمنا أن نصرف الخاطر إلى أحواله لتحصل له نسبة حسنة وجمعية قوية، ففعلت ذلك. ثم أقام عندنا ولم يقدر أن يفارقنا، فظهرت في ذلك الأثناء طائفة أخرى من الأصحاب، وانعقدت الصحبة، فلزمه أن يشتغل بأمر الزراعة على حسب الضرورة لكفاية ما تحتاج إليه تلك الطائفة ليشتغلوا بفراغ البال من غير تفرقة الباطن وتشتت الحال بكسب ما يحتاجون إليه بالضرورة. ولما جوّزنا له هذا القدر من تحصيل الدنيا والاشتغال بها، توجه بكليته إليها فتطرق الخلل إلى شغله الباطني من هذه الحيثية. قال مولانا إسماعيل: اجتمع الأصحاب مرة في منزل الفقير بفركت، ومرت الصحبة على غاية من الحسن. فخطر على خاطر جميع الأصحاب: إنه إن حضر حضرة الشيخ في هذا المجلس تكون سعادة عظمى. فقدم حضرة شيخنا مقارناً لهذا الحال، ودخل المجلس بكيفية عظيمة. ولما وقع نظره على الأصحاب ورأى كلهم على جمعية الخاطر، أنشد هذا البيت: [شعر]

أوقعتم فيَّ سكر يا أهل سو داء على رغم ذوي الصفراء

فظهرت في باطن الأصحاب حالة قوية حتى سقطوا على الأرض وغابوا عن وجودهم وبقوا على ذلك مدة ثم قاموا واحداً بعد واحد بالتفات حضرة شيخنا، وقد

غشيت كلًّا منهم كيفية عظيمة حتى بقي أثرها في باطن بعض الأصحاب إلى ثلاثة أيام، وفي بعضهم إلى جمعة، وفي البعض الآخر إلى عشرة أيام أو أكثر على حسب تفاوت الاستعدادات والقابليات.

وأما الثاني: **فهو مولانا إسماعيل القمري**. وكان عالماً تقياً من تراكمة التبريز. قدم من هراة إلى سمرقند واختار ملازمة حضرة شيخنا. وكان يركب مع حضرة شيخنا في أكثر الأوقات، وكان حضرة شيخنا يتذكر معه العلم أحياناً في المجالس.

قال بعض الأصحاب: النسبة العلمية كانت غالبة في بادىء النظر على مولانا إسماعيل القمري، ولم يكن له كثير حظ من نسبة هؤلاء الطائفة. كان حضرة شيخنا يوماً قاعداً في حجرة بقرية شادمان، وكان مولانا إسماعيل القمري حاضراً فيه مع جمع من الخدّام وفي يد حضرة شيخنا شرح الشيخ سعيد الفرغاني على القصيدة التائية الفارضية المكتوب بقلم خواجة محمد پارسا قدّس سرّه، فقال حضرة الشيخ: أريد أن ينسخ هذا الشرح من يحسن خط النسخ ليكون معي في السفر دائماً، فمن كان له خط حسن من أهل المجلس فليكتب شيئاً حتى أراه، فالذي أستحسن خطه آمره أن يكتب هذا الشرح. ثم أمر بإحضار الورق والدواة والقلم، وكان لخطي النسخي صورة حسنة بقدر الإمكان فأردت أن أكتب بيتاً واحداً مضمناً بحسب حالي وأعرض على حضرة شيخنا في ضمنه آلم قلبي. ولما مددت يدي إلى الورق والقلم بادر مولانا إسماعيل القمري وأخذ الورق من يد الفقير بعنف مع أنه لم يكن خطه حسناً، فرأى حضرة شيخنا قصد الفقير ومبادرة مولانا إسماعيل وتعنيفه، ثم كتب بخط غير مطبوع هذا الحديث الموضوع: «زر غباً تزدد حبّاً»[1]، ثم قام وناوله حضرة شيخنا. فلما رأى خطه القبيح والحديث الغير الصحيح غضب عليه وقال: يا مولانا إسماعيل قد سئمت من صحبة كل يوم حتى تمنيت الغب، فقم الآن واقعد في مدرستي بالبلد مشتغلاً بالتدريس. فتخلص من صحبة كل يوم وأرسله إلى مدرسته في البلد مع مولانا لطف الله ومولانا سلطان أحمد وجمع آخر من الموالي. فكان

(١) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، ذكر مناقب حبيب بن مسلمة، حديث رقم (٥٤٧٧) [٣/ ٣٩٠] ورواه الطبراني في المعجم الكبير برقم (٣٥٣٥) [٤/ ٢١] ورواه غيرهما.

يجلس هناك وحرم من بركات دوام الصحبة والملازمة.

وأما الثالث: **فهو مولانا إسماعيل الشمسي**. وكان له علم تام وأهلية وقابلية، وتشرّف بتلقن الذكر من حضرة شيخنا. وكانت آثار الاشتغال بالطريقة ظاهرة فيه، وكان أصله من تراكمة التبريز. ولما قدم سمرقند في رفاقة مولانا إسماعيل القمري، وكان بينهما اشتراك في الاسم، لقّبه الأصحاب بـ: الشمسي، في مقابلة: القمري. وأرسله حضرة شيخنا بعد كونه في خدمته وملازمته عدة سنين إلى تاشكند ليشتغل بالتدريس في مدرسته هناك. فأقام فيه إلى آخر عمره.

وأما الرابع: **فهو مولانا إسماعيل الثالث**، وكان طالب علم جيد الطبع، حفظ الكتب المتداولة، ورأى أكثر الكتب المشهورة وطالعها. وجاء من هراة إلى سمرقند لمحض ملازمة حضرة شيخنا. ولما كان مولانا إسماعيل القمري ومولانا إسماعيل الشمسي في ملازمة حضرة شيخنا حين قدومه، قال له الأصحاب: ثالثاً، واشتهر به.

قال بعض الأصحاب: قال حضرة شيخنا قبل قدومه بأيام: سيجيء هنا رجل قابل مستعد. فقدم مولانا إسماعيل الثالث بعد عدة أيام من هراة إلى سمرقند، فأظهر حضرة الشيخ التفاتاً كثيراً إليه، وكان حين وصوله بين يدي حضرة شيخنا طبق مملوء من العنب الحسيني اتفاقاً، فأعطاه منه عنقوداً وتصرف فيه مقارناً لهذا الحال حتى تغير حاله وغلبت عليه كيفية الغيبة والذهول بعد استقراره في محله وسقط العنقود من يده على جنبه، فبقي كذلك مدة. ولما أفاق شدّ كمر الهمَّة وتهيّأ للخدمة ولم يقعد بالفراغ لحظة. وكان رجلاً جسيماً قوي الهيكل، وخدم في ملازمة حضرة شيخنا خدمات سنية، وكان حاضراً معه مدة حياته في السفر. ولما توفي حضرة شيخنا سافر إلى طرف الحجاز وأقام بمكة المكرمة بنيَّة المجاورة. وانتقل من الدنيا في تلك الأراضي المقدَّسة رحمه الله تعالى.

* * *

الخاتمة

في ذكر تاريخ وفاة حضرة شيخنا قدّس سرّه العزيز وكيفيّة ارتحاله وانتقاله من دار الدنيا إلى دار الآخرة

ولما تشرّفت بشرف استلام عتبته العلية مرة ثانية، تكلّم يوم الاثنين الرابع والعشرين من ربيع الآخر، سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة في مقدار عمره الشريف، وقال في أثناء الكلام: يتم عمري تسعين سنة بعد ثلاث سنين وأربعة أشهر.

وكان ابتداء مرضه في غرة محرم الحرام، سنة خمس وتسعين وثمانمائة. وتوفي ليلة السبت سلخ ربيع الأول من السنة المذكورة. فكانت مدة مرضه تسعاً وثمانين يوماً. وقال قبل وفاته بإثني عشر يوماً: لو بقيت الحياة يستكمل عمري تسعاً وثمانين سنة بعد خمسة أشهر ويشرع في التسعين.

قال بعض الأعزة: إن سرّ كون مرض حضرة شيخنا تسعاً وثمانين يوماً مطابقاً لسني عمره الشريف، هو حصول كرامة له من الله تعالى لهذا الحديث: **«حمى يوم كفارة سنة»**.

قال مولانا سعد الدين الأويهي، وقد كان في ملازمة حضرة شيخنا وخدمته مدة مرضه ليلاً ونهاراً: إن حضرة شيخنا توجه من محلة خواجة كفشير إلى قرية كمانكران ليلة الأربعاء العشرين من ربيع الأول سنة خمس وتسعين وثمانمائة وقت تحويل الشمس إلى برج الحوت، ونزل بستان محلة قوجيان وكان فيها ليلة الخميس، وأراد غداة يوم الخميس أن يتوجه إلى كمانكران من طريق مصر، فبقي في مصر يومه هذا وليلته لشدّة مرضه وغلبة الضعف عليه، وتوجه إلى كمانكران غداة يوم الجمعة. وكان يقف في الطريق آناً فآناً حتى وصل إلى كمانكران وقت العشاء من ليلة السبت، وكان فيه سبعة أيام، وزاد ضعفه من صباح يوم الجمعة إلى آخر اليوم ساعة فساعة وبالغ في حفظ أوقات الصلاة مدة مرضه مبالغة كثيرة. وكان يهتم ليصلّي الصلاة في أول وقتها اهتماماً كثيراً خصوصاً في أيام غلبة الضعف واشتداد

مرضه. ولما انتهى به الضعف إلى غايته، وقت المغرب من ليلة السبت سلخ ربيع الأول، قال: هل دخل وقت الصلاة؟ قال: نعم، فصلى المغرب بالإيماء. ولما مضى وقت يسير بعد دخول وقت العشاء، انقطع نَفَسه المبارك وتوجهت روحه إلى جوار رحمة الله، وتزلزلت الأرض وقت الظهر من يوم الجمعة بسمرقند حين حصل التغير لحضرة شيخنا، وقام فيه غبار كثير. وكان الناس في ذلك الوقت في المسجد الجامع، وكان لأكثر الخلق خبر عن اشتداد مرضه. ولما عاينوا تلك الزلزلة والعلامة العظيمة جزموا بوقوع صورة عليه، فخرج الخاص والعام من البلد بعد أداء صلاة الجمعة وتوجهوا إلى كمانكران، ثم تزلزلت الأرض زلزلة شديدة بسمرقند ثانياً وقت العشاء ساعة انقطاع نَفَسه الشريف. ووصل السلطان مرزا أحمد مع جميع أركان دولته وأعيان مملكته إلى كمانكران وقت المغرب، ولقي السلطان حضرة شيخنا بعد المغرب. وجاء المير درويش محمد ترخان ليلة السبت من عند السلطان بتمام الاستعجال. ووضع نعشه الشريف في المحفة وتوجهوا بها إلى البلد، وبلغوا بها محلة خواجة كفشير وقت الظهر، وبادروا إلى غسله وتكفينه وتجهيزه إلى الحال. وصلّى عليه خواص أهل البلد وعوامهم، ودفنوه فيها، وبنى أولاده الأمجاد على قبره الشريف عمارة عالية وقبّة سامية على أحسن الهيئة وأرفع الوضع.

وأخبر بعض أعزّة الأصحاب الحاضرين حين وفاته رؤية، وبعضهم سماعاً، عن خواجة محمد يحيى رحمه الله: إنه لما قرب انقطاع نَفَسه وكان بين المغرب والعشاء، وقد أسرجوا فيه مصابيح كثيرة، وصار البيت منوراً مثل النهار، ظهر من بين حاجبيه نور ساطع كالبرق اللامع بحيث غلب ضوؤه على أنوار المصابيح وتلاشت أضواؤها فيه واضمحلت؛ وشاهد ذلك النور كل من كان حاضراً في ذلك البيت، وانقطع نَفَسه المبارك بعد ظهور ذلك النور، أعلى الله درجته في عليين مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وروّح الله روح أسلافه وطوّل عمر أخلافه.

ونظم مولانا نور الدين عبد الرحمٰن الجامي قدّس سرّه السامي مرثية فيه وقطعة في بيان تاريخ وفاته، وكله مسطور في ديوانه الثالث؛ وهذه مرثيته: [مرثية]

لقد كان في روض الولاية دوحة ... أظلّت لأهل الفقر في طول عمرها

أتشبهها أغصان سدرة في العلى ... وقد فاق روض الخلد في بذل ثمرها

تسامت بفيض الجود دوماً فروعها ... كما أصلها آب لقاصد قعرها
غَدَت مغتدى المسترزقين بثمرها ... ومأوى ذوي الحاجات في طول دهرها
أخواجة عبيد الله ما سر قلبه ... بغير شهود الحق دنيا وغيرها
سرت صرصر الآجال في عام خمسه ... فأوهت جدار العمر منه بقهرها
بسلخ ربيع المنيَّة أنشبت ... بأحمد المختار فيه بظفرها
٨٩٥

أتزعم جامي هلكه هلك واحد ... بلى حادثات الدهر عمَّت بجورها
إذا ما أتت بشرى الوصال لعارف ... فكيف بقاء في الحياة وأسرها

قطعة:

بهشتصد ونودبنج درشب شنبه ... كه بود سلخ مه فوت أحمد مرسل
كشيد خواجه دنيا ودين عبيد الله ... شراب صافي عيش أبد زجام أجل
قراركاه دلش بادرر مدارج قرب ... معارج درجات مشاهد كمل

* * *

تاريخ إتمام الرشحات لمؤلفه عليه الرحمة والرضوان

رشحات عين حياتنا ... وصلت إلى روض المنى
فتبارك الله الذي ... أعطى الورى بركاتها
لما رأيت تمامها ... فشرعت في تاريخها
ما كنت عطشاناً له ... قد فاض من رشحاتها
٩٠٩

الحمد لله على الإتمام، ونسأل الله سبحانه حسن الختام، وصلى الله على سيِّدنا محمد رأس سلسلة الموجودات، ورابطة انتظام نظام الأنام ما دام لطائف المريدين بالأذكار جارية، وأحوال المرشدين إلى قلوب المستعدين سارية.

تمَّ

ذيل كتاب

رشحات عين الحياة

المسمى

نفائس السانحات
في تذييل الباقيات الصالحات

تأليف

الشيخ محمد مراد بن عبد الله القازاني المنزلوي

المتوفى ١٣٥٢هـ

ضبطه وصححه وعلق عليه

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم يا من بنعمته تتم الصالحات، ونسألك أن تصلّي على حبيبك أفضل الموجودات، وأشرف البريات، صلاة تنجينا بها من جميع الأهوال والبليات، وعلى آله المرتوين من رحيق زلاله وأصحابه الفائزين بمشاهدة جماله.

أما بعد، فيقول العبد الفقير أحقر الأنام، المتلجي إلى حرم ربّه المنعام، المرتجي من قبضه العام أنه: لما منَّ عليَّ بإتمام نقل الرشحات من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية حداني حادي الأشواق، أن أكتب في تراجم المشايخ الذين تأخر زمانهم من زمان مؤلف الرشحات عدة أوراق. وأنشدني حثاً عليه بكمال الاشتياق: [شعر]

فحدَّثتني يا سعد عنهم فزدتني ... جنوناً فزدني من حديثك يا سعد
هواهم هوى لا يعرف القلب غيره ... فليس له قبل وليس له بعد

وقد كان الاشتغال بتعريب الرشحات في أوان المفارقة الصورية والمهاجرة الضرورية عن ملازمة بقيّة السلف وقدوة الخلف من الكمالات الصورية والمعنوية، ومظهر الألطاف الإلهية والأسرار اللامتناهية من أعرض عن دنياه وأقبل بكليته إلى مولاه، سيدنا ومرشدنا السيد الأجل أبي عبد الله، مولانا الشيخ محمد صالح الزواوي النقبشندي المجددي المظهري المكي، لا زالت شمس إفادته مشرقة في قلوب الأخوان، وسحائب إفادته مفيضة مدى الأزمان، لتوجهه إلى المدينة المنورة لتخصصه بإفاضة الفيض على الطالبين في محل قطب الزمان، وغوث الأوان، سيدنا الشيخ محمد مظهري الأحمدي العمري عليه سحائب الرحمة والرضوان.

ولما عاد في الموسم إلى الحرم المكي، عود الغيث إلى الروض الماحل، والعقد إلى الجيد العاطل، عرضت هذه النسخة العليلة على عتبته العلية وسدته السنية

الجليلة، لا زالت ملتثم شفاه طبقة أهل الله وأبرزت له ما استكن في الضمير المنكسر. فأشار إليّ بذلك وبشرني بما هنالك، فامتثلت إشارته واغتنمت بشارته وبادرت إلى ثبته وكتابته مستعيناً بعناية الملك العلام، ومستمداً من أرواح مشائخنا العظام، وسمّيته بـ: «نفائس السانحات في تذييل الباقيات الصالحات». فأقول وبالله التوفيق، وبيده أزمة التحقيق، واسطة فيضان الفيوضات السبحانية، ورابطة سلسلة النقشبندية العلية، مولانا محمد المعروف بالزاهد الوخشواري قدّس سرّه هو أجلُّ خلفاء خواجة عبيد الله أحرار قدّس سرّه، وكان مثل مولانا القاضي محمد في اللطافة، وكمال الاستعداد، وإنما لم يذكره مؤلف «الرشحات» لعدم اتفاق نقل المعارف والحقائق عنه، فإنه إنما ذكر من ذكر من خلفائه في ضمن نقل شيء من المعارف عنه، كما قاله في أول الفصل الثالث من المقصد الثالث، وكذلك في أول ذلك المقصد أصله من قرية وخشوار وهي قرية من قرى حصار، قيل: إنه مع كونه متصفاً بالكمالات المعنوية والقابلية الذاتية كان مشغولاً بكسب الكمالات عند واحد من أكابر هذه الطائفة العلية، ثم جاء إلى سمرقند لتحصيل بركات صحبة خواجة عبيد الله أسرار قدّس سرّه، وأقام في قرية ورسين منتظراً لقدومه هناك. ولما قدم ورأى فيها مولانا محمد الزاعد، عظّمه وأكرمه وبايعه مولانا محمد الزاهد وأحيوا ليلتهم هذه بالصحبة. ولما كان فيه صفاء ذاتي وقابلية تامة، نال مرتبة الكمال والتكميل في هذه الطريقة العلية ببركة صحبة خواجة عبيد الله أحرار قدّس سرّه، ورجع إلى وطنه من هذا المحل بأمر شيخه ممتازاً بالإجازة والخلافة واشتغل بتربية الطالبين هناك إلى آخر عمره، وقبره أيضاً هناك يزار ويتبرك به.

* * *

* مولانا درويش محمد الأمكنوي قدّس سرّه: هو من أجلّة أصحاب خاله مولانا محمد الزاهد الوخشواري، وأكمل خلفائه. وهو وإن كان ممن بايع الخواجة عبيد الله أحرار قدّس سرّه من غير واسطة لكن كانت تربيته وبلوغه إلى مرتبة الكمال والتكميل وإجازته بالخلافة من مولانا محمد الزاهد عليه الرحمة. وسكن بقرية أمكنه، وهي قرية في ولاية كش، وقبره أيضاً هناك مشهور ومعروف يزار ويتبرك به.

* * *

* مولانا خواجكي الأمكنوي قدّس سرّه: هو خليفة والده الماجد مولانا

درويش محمد الأمكنوي قدّس سرّه بطريق الوراثة الظاهرية والباطنية وبلغ رتبة الكمال والتكميل بحسن تربيته ويمن همّته وبركة صحبته. وقد بايع مولانا محمداً الزاهد الوخشواري قدّس سرّه من غير واسطة. واسمه خواجة عبد الباقي، اشتغل مدة بتحصيل العلوم الظاهرية عند علماء سمرقند وبخارى، وطالع الكتب المتداولة، ودرس في العلم الظاهري بعد بلوغه ذروة الكمال فيه، وحصّل رتبة المولوية بسبب التدريس وجعلها ستراً وحجاباً لأحواله الباطنية. وكان يأمر من يحضر عنده لطلب الطريقة بالاستخارة، ولم يكن يقبل أحداً بدونها. وكان معاصراً لمولانا المخدوم الأعظم الدهبيدي خليفة مولانا القاضي محمد، وكان في صحبته. وأقام مدة في دهبيد بعد رحلته إلى دار البقاء لتعزية أولاده وأحفاده وتسليتهم. ثم رجع إلى وطنه وتوفي في شهور سنة عشر بعد الألف، وقبره في قرية أمكنة مشهور ومعروف، يزار ويتبرّك به.

* * *

• مولانا خواجة محمد الباقي بالله قدّس سرّه: ابن القاضي عبد السلام. ولد سنة إحدى أو اثنتين وسبعين وتسعمائة ببلدة كابل. وكان أبوه القاضي عبد السلام رقيق القلب جداً، كثير البكاء، وافر الحظ من قوله تعالى: ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ [التوبة: الآية ٨٢]. وأمه كانت من بنات السادات، ومن النساء الصالحات القانتات. كانت كثيرة الاعتناء بخدمة الدراويش والفقراء بنفسها مع كثرة الجَوَارِ في بيتها. قال لها ولدها خواجة محمد الباقي قدّس سرّه: إن من يقوم بأمر الخدمة موجود فينبغي لك أن تقعدي وتستريحي. فبكت وقالت: أي جريمة صدرت عني حتى يمنعني الله سبحانه عن شرف خدمة طالبيه وعباده الخاصة!، فتركها على حالها وكانت آثار الجذبات الإلٰهية وأنوار الهداية السبحانية ظاهرة في جبينه في حالة صباه. اشتغل أولاً بتحصيل العلوم الظاهرية عند أجلّة علماء عصره والتزم مولانا محمد صادق الحلوائي الذي هو علامة عصره بلا نزاع وقدم ما وراء النهر في رفاقته، وفاق في ملازمته جميع أقرانه ثم بدا له في ذلك الأثناء داعية الدخول في طريق التصوّف، وانبعث من باطنه شوق صحبة أولياء الله الكرام الذين هم في مسارح المشاهدة يسرحون. وتلى في سرّه: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام: الآية ٩١].

وصادف في بداية ترك تحصيل العلوم الرسمية إلى محفل واحد من أكابر

أفاضل ذلك العصر، فقال ذلك الفاضل بتقريب: ما أحسن لو كان خواجة محمد الباقي مداوماً على التحصيل والمطالعة أياماً حتى تبلغ مولويته وملكته في المطالعة إلى مرتبة الكمال والإكمال. فقال له الخواجة: أليس المراد من كمال المولوية والملكة أن تحصل قدرة مطالعة الكتب المتداولة على ما ينبغي، فآتوني بكتاب لا يقدر على مطالعته إلا صاحب بصر حديد، فعسى يحصل التشفي التام.

وبالجملة: تطرقت إلى طريق تحصيله للعلوم فترة تامة وجذبته الجذبات الإلهية إلى محفل قوم أشرقت في ضميرهم المنير شمس: «لي مع الله وقت»[1] فطاف حول مجلس كثير من كبار مشايخ وقته في بلاد ما وراء النهر التي هي معدن هذه الطائفة العزيزي الوجود، وزف عند بعضهم بعروس التوبة والإنابة، فأول من تاب على يده وأناب، الشيخ خواجة عبيد خليفة مولانا لطف الله، خليفة مولانا المخدوم الأعظم الدهبيدي، خليفة مولانا القاضي محمد خليفة قطب الآفاق خواجة عبيد الله أحرار قدّس سرّه. ولما لم تظهر فيه آثار الاستقامة أناب ثانياً على يد الشيخ افتخار حين قدومه بسمرقند، وكان من كبار مشايخ سلسلة خواجة أحمد اليسوي. ثم طرأت الفترة على عزيمته هذه أيضاً وظهر فيه ما ينافي طريق الاستقامة ثم جدد التوبة ثالثاً من غير صنع واختيار على يد الشيخ الأمير عبد الله البلخي، فكان في مقام حفظ الحدود أياماً، ثم هدر سد تلك التوبة أخيراً سيل تأيسر اسمه تعالى: المضل. ثم انعقدت صورة التوبة في المنام في شرف ملازمة خواجة بهاء الدين النقشبند قدّس سرّه، وظهر فيه ميل إلى طريقة أهل الله، فبحكم الغريق يتشبث بكل حشيش صار يتوجه إلى كل طرف ويسير، حتى وصل إلى ملازمة الشيخ بابا ولي الكبروي في بلدة كشمير. وكان منظوراً بنظرة عنايته. ولما كان الشيخ المذكور مجازاً من مشائخ السلسلة النقشبندية أيضاً هبت في ملازمته النفحات الربانية، من مشرق فيوضات هذه الطائفة العلية إلى روض استعداده، وظهرت فيه الغيبة المعهودة عند هذه الطائفة بعد انتقال الشيخ المذكور إلى دار القرار، حتى أخذت أرواح هؤلاء الأكابر في الظهور في المبشرات، وشرّفوه بالتلقينات، وظهرت قوة في نسبته بيمن توجههم، واتسعت دائرتها واتضح له الطريق.

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، برقم (٢١٥٩) [٢/٢٢٦] وأورده الهروي في المصنوع [١/٢٥٨].

ثم جذبته جذبة عنايتهم إلى خدمة مجمع الحقائق ومنبع الدقائق، مولانا خواجكي الأمكنكي قدّس سرّه، فأظهر له التفاتات كثيرة وعنايات جزيلة. ولما تفرّس مولانا علو فطرته وسمو استعداده وحدس أحواله العالية، ومواجيده السامية، جلس معه في الخلوة للصحبة ثلاثة أيام متوالية، وأطلعه في أثناء الصحبة على بعض الزوائد والفوائد. ثم قال: إن أمرك قد بلغ مرتبة الكمال والإكمال بعناية الله المتعال، وببركة تربية روحانية أكابر هذه السلسلة العلية، فينبغي لك أن تعود إلى طرف بلاد الهند فإنه يظهر فيه رونق هذه السلسلة بوساطتك، ويبلغ فيه كثير من المستفيدين عالي القدر كاملي الاستعداد إلى ذروة الكمال، فاعتذر إليه بأعذار عديدة على طريق الانكسار ورؤية قصور الأحوال، ولكن لم يترك مولانا إلحاحه وأمره بالاستخارة.

ولما نام بعد الاستخارة، رأى في منامه ببغاء، فقال: إنها طير مخصوصة ببلاد الهند، فإن كان السفر إلى بلاد الهند مباركاً فلتجيء هذه الببغاء عندي ولتقعد عليّ. فجاءت عنده وقعدت على منكبه فرمى إلى فمها ببزاقه وصبت هي أيضاً سكراً من فمها في فمه فوجد منه لذّة في دماغه، فأخبر شيخه بذلك فبشره بما هنالك وقال: قم وبادر إلى طرف بلاد الهند، فإنه سيحضر فيها صحبتك كامل الاستعداد ينتفع بك وتحصل لك منه أيضاً حلاوة وتظهر كمالاتك منه. فتوجه بموجب إشارته إلى طرف بلاد الهند وأقام سنة في بلدة لاهور، واغتنم صحبته فيها كثير من علماء تلك الديار وفضلائها. ثم ارتحل منها إلى دار سلطنة بلاد الهند الدهلي واختار للإقامة القلعة الفيروزية التي هي مشتملة على نهر كبير ومسجد عظيم، ومزيّنة بأنواع الزينة وموصوفة بصفاء الهواء. وأقام هناك إلى حين وفاته.

وكان قدّس سرّه صاحب الأذواق والمواجيد العالية، والأحوال السامية. كثير التواضع والانكسار، وكان يجتهد في ستر أحواله وسيرته السنية عن نظر الأغيار بل عن محرم الأسرار بأنواع الحجب والأستار، ولا يرى نفسه أهلاً لمقام الإرشاد. فإذا جاءه شخص لطلب الطريقة كان يقول: ليس عندي شيء من ذلك، ينبغي لك أن تطلبه من غيري. فإذا لقيت أحداً من هذه الطائفة مقتدى في الطريقة فنبهني على ما هنالك.

وكان يبعد عن نفسه مطلق الدعوى، بل كان يشتغل بخدمة الزوار واستمالة

قلوبهم ولا يتكلم إلا عن ضرورة إلا في مسألة مشكلة من حقائق هذه الطائفة، فكان يرضحها حق الإيضاح لئلا يميل صاحبها بلا إدراكها عن النهج القويم. وكان يمنع أصحابه عن القيام تعظيماً له ويعد نفسه كأحد منهم، ويحب المساواة معهم في سائر حالاته. وكان يقعد فوق التراب من غير حائل إظهاراً للتواضع والمسكنة، وكان ذا كيفية عجيبة وتصرفات عظيمة بحيث إذا وقع نظره على شخص كان يتغير حاله ويؤول إلى الخير مآله. وكان الناس في بابه مطروحين سكارى ودائرين حوله حيارى، قال الشيخ تاج الدين الهندي الذي كان من قدماء أصحابه وأجلّة خلفائه، وقد صحب بعده الإمام الرباني: ثم جاور الحرمين الشريفين، واشتهر هناك صيته وشهرته، وأخذ عنه أكابر أهل الحرمين الطريقة النقشبندية، كابن علان. وتوفي في الحرم المكي، ودفن في جبل قعيقعان، وقبره مشهور معروف هناك.

كان شيخنا الخواجة محمد الباقي مرة قاعداً على ساحل النهر، فجئت عنده، فقال لي: يا تاج الدين، يفاض عليَّ من الفيض السبحاني ما لو كان هذا النهر مداداً فأكتبه به لا ينفد أبداً ونفد النهر.

أرسل إليه الإمام الرباني مرة في ليلة من ليالي رمضان فالوذجاً مع خادم له بدوي غليظ الطبع، فلما انتهى إليه، كان الخدَّام والأصحاب كلهم في النوم، فقام بنفسه وأخذه من يد الخادم وقال له: ما اسمك؟ قال: باما، فقال: لما كنت في خدمة الشيخ أحمد فأنت معنا. فإن معنى باما بحسب الوضع واللغة الفارسية: معنا، فبمجرد وصول هذا الكلام إلى سمع الخادم، تغيّر حاله ورجع باكياً صائحاً كالسكران، ولما رآه الإمام الرباني على هذا الحال سأله عما جرى عليه؟ قال: لا أعرف شيئاً، غير أني أرى نوراً لا لونياً أخذ الدنيا كلها شرقها وغربها، أشجارها وأحجارها، سهلها وجبلها وأرضها وسماءها، لا أقدر أن أبيّنه. فقال: لعل حضرة شيخنا توجه إلى هذا الجانب وقابل هذه الذرة، فأشرقت أشعة شمسه فيها، وذلك النور من نوره. ولما حضر في الغد صحبته، نظر إليه وتبسم، وأمثال ذلك كثير يطول ذكرها.

وبالجملة: كان يحصل الذوق والشوق، والكيفية المعهودة عند هذه الطائفة للطالبين في أول صحبته ويجري لطائفهم بالذكر في أول التلقين. وكان ذلك للكل على سبيل التعميم، وذلك من إلحاقاته، قاله الإمام الرباني.

وكانت شفقته على الخلق على وجه: قام ليلة في أيام البرد عن فراشه، فلما عاد رأى في لحافه هرة نائمة فلم يرض بإيقاظها وتحريكه إياها وقعد إلى الصبح متحملاً لنكد البرد.

ووقع الجدب والقحط مرة في بلدة لاهور حين إقامته فيها، فلم يأكل في تلك المدة شيئاً، فإذا حضر عنده طعام كان يفرّقه ويقسمه على الجائعين ويقنع بنفسه بالتناول من ميراث: «أبيت عند ربي»(١) الحديث. ولما خرج من لاهور متوجهاً إلى دهلي، رأى عاجزاً في الطريق، فنزل عن دابته وأركبه عليها وصار يمشي متقنعاً لئلا يعرفه أحد. ولما قرب إلى المنزل أنزله وركب بنفسه لئلا يطلع عليه أحد. وكان في رؤية قصور الأحوال واتهام النفس على غاية لا يميز نفسه عن العامة فضلاً عن أصحابه الكملاء الفضلاء.

كان في جواره شاب يرتكب كل شيء من أنواع الفسق، وكان يتحمله مع اطلاعه عليه، فسعى خواجه حسام الدين في دفعه وتأديبه إلى الحكام، فأخذوه وحبسوه. ولما اطلع على ذلك غضب عليه وقال: لم فعلت كذلك؟ قال: يا سيدي إنه فاسق لا يبالي، يرتكب كل شيء، فأوجب التأديب والحبس. فقال: أواه، لما كنتم من أهل الصلاح والصفاء والتقوى رأيتم فسقه، وإلا فنحن لا نعرف الفرق بيننا وبينه فكيف نترك أنفسنا ونسعى به إلى الحكام!. ثم سعى في تخليصه وإخراجه من الحبس، فأخرجوه، فتاب وصار من صلحاء الأنام. وهكذا كان عادة الكرام.

وقصة الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه مع جاره الإسكاف الذي كان يجيء كل ليلة إلى بيته سكران، مشهورة معروفة. وكان إذا صدرت زلّة من أصحابه يقول: إن هذه من زلاتنا ظهرت منهم بطريق الانعكاس، فماذا يصنع هؤلاء الفقراء فيما لا اختيار لهم فيه!. وكان إذا أشكلت عليه مسألة فقهية يرجع إلى الفقهاء المتورعين ويستفتي منهم ما هو الحق والصواب، وكان يختار الأحوط في العبادات والمعاملات، ولهذا كان في ابتداء حاله يقرأ الفاتحة خلف الإمام مع كونه حنفي المذهب لكثرة الأحاديث الواردة في قراءتها وقوة دليلها، حتى قال صاحب «البحر»: اخترت الإمامة للعمل بالمذهبين.

---

(١) رواه إسحاق بن راهويه في المسند، حديث رقم (١٠٣٥) [٢/ ٤٦٣].

فرأى ليلة الإمام أبا حنيفة في منامه، فأنشده قصيدة مشتملة على مدحه ومشعرة بأن أكثر كبار الأولياء كانوا على مذهبه، فترك قراءة الفاتحة بعد ذلك. وهذه المذكورات نبذة من شمائله، وقطرة من بحر خصائصه.

ولما بلغ عمره الشريف أربعين سنة، قال: قيل لي: قد حصل الغرض الذي كان مربوطاً بوجودك. فعرض له المرض في أواسط جمادي الأخرى سنة اثنتين وعشرين بعد الألف. وقال في ذلك الأثناء: رأيت في المنام ناصر الملة والدين والشريعة خواجة عبيد الله أحرار قدّس سرّه فألبسني قميصاً، فإن تيسرت العافية فذاك وإلا فالكفن أيضاً قميص. فتوفي يوم الاثنين الخامس والعشرين من الشهر المذكور. ولما غسّلوه وكفّنوه وحفروا قبره، حمل نعشه الشريف جمع من مجاذيب أصحابه وتوجهوا به من غير شعور إلى خلاف جهة القبر ووضعوه في محل كان مروره قدّس سرّه.

صادف في حياته مرة هذا المحل، فاستحسنه ونزل فيه وصلّى ركعتين وانتثر إلى ذيله تراب من تلك البقعة فقال: إن تراب هذه البقعة يأخذ بذيلنا. فتذكر الأصحاب ذلك، نحفروا قبره هنالك ودفنوه فيه، فعمل خواجة حسام الدين عليه الرحمة بساتين في أطرافه وأجرى عليها المياه والأنهار، وذلك في قرب أثر قدم النبي ﷺ على ما هو المشهور فيما بينهم رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

* * *

* **غوث الواصلين، وقطب العارفين، برهان الولاية المحمدية، وحجة الشريعة المصطفوية، الإمام الرباني مجدد الألف الثاني، مولانا وسيّدنا الشيخ أحمد بن الشيخ عبد الأحد السرهندي الفاروقي النقشبندي، قدّس الله سرّه العلي**: يتصل نسبه بسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بثمان وعشرين واسطة. وكان آباؤه الكرام وأجداده العظام كلهم من صلحاء الأنام وعلمائهم وفضلائهم، كما ذكر أحوالهم بالتفصيل في «الروضة القيومية والجواهر العلوية»، فإن رمت الاستقصاء فعليك بهما، وإنما نذكر هنا قطرة من ذلك البحر.

كان والده الماجد قدّس سرّه صاحب أحوال عالية وأذواق سامية، عالماً في العلوم العقلية والنقلية، وكان في غاية من التفريد والتجريد. وكان يجوب البلاد مشتغلاً بإرشاد العباد. ولما صادف مروره سكندرة، وهي قصبة مشهورة في بلاد

الهند، وأقام فيها مدة، رأته امرأة من أشراف قبائل تلك الديار، صاحبة فراسة صادقة، وتوسمت فيه أنواع الفضائل وأصناف الكمالات. وكانت لها أخت موصوفة بالعفة والقناعة والخصال الحميدة، فعرضتها عليه. ولما كان ذلك قدراً مقدوراً، جاء إلى عرصة الوجود مع إبائه عن ذلك لتفرده وتجرده عما هنالك، فولد له منها الإمام الرباني منوِّر الألف الثاني، سنة إحدى وسبعين وتسعمائة في بلدة سرهند ولفظ خاشع في تاريخ ولادته.

وكان في صباه منظوراً بنظر عناية الشيخ شاه كمال القادري الذي هو شيخ أبيه في السلسلة القادرية، وعرض له المرض بعد أيام من ولادته، فجاء به والده عند شيخه المذكور، فقال بكمال الجذبة: لا تخف فإنه يكون عالماً عاملاً صاحب أحوال عالية ومعارف سامية، ذا عمر طويل. وجعل الشيخ لسانه في فمه ففاضت عليه فيوضات النسبة القادرية من ريق الشيخ في تلك الحالة. وكانت آثار الرشد والهداية واضحة من جبينه في صغر سنه، فإذا رآه صاحب فراسة كان يجري على لسانه في الحال من مشاهدة الآثار والأنوار ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النّور: الآية ٣٥].

حفظ القرآن المجيد في مدة يسيرة، ثم اشتغل بتحصيل العلوم وأخذ أكثر العلوم المتداولة عن والده الماجد، وتتلمذ أيضاً لمولانا محمد كمال الكشميري في ولاية سيالكوت، ولمولانا يعقوب الكشميري الذي هو من أجلة أصحاب مولانا الشيخ حسين الخوارزمي الكبروي ومن جملة خلفائه. وحصَّل سند الحديث بأولياته من القاضي بهلول البدخشي. وبرع في العلوم كلها على أقرانه، وأخذ النسبة الجشتية والقادرية عن والده الماجد، وشرَّفه والده بالإجازة والخلافة فيهما، وصار نائماً مقامه.

وفرغ من تحصيل العلوم الظاهرية والطريقة في سن سبع عشرة سنة، واشتغل بإفادة العلوم الظاهرية للطالبين وتسليك السالكين طريق رب العالمين في تينك السلسلتين العليتين سنين. وصنّف في ذلك الأثناء بعض الرسائل كـ: «الرسالة التهليلية». وورد الروافض مع كثرة قوتهم وشوكتهم في تلك الديار في ذلك الوقت، وغاية قربهم من سلطان الوقت مع كونه ممن يبغض الدين والمسلمين. ولكن لما كانت له حمية تامة في أمر الدين ورأى طغيان هؤلاء الطائفة الباغية الطاغية،

وتكفيرهم أئمة الدين وأصحاب سيد المرسلين، وإهانتهم الصدِّيقة، وتنقيصهم إياها رضي الله عنها وعن أبويها، لم يقدر أن يصبر على ذلك ولم يخطر بباله ما يكاد يحصل له من ضررهم هناك ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥﴾ [غافر: الآية ٤٥].

وكان قد أخذ حظاً وافراً من طريقة أكابر النقشبندية قدَّس الله أسرارهم باستماع أوصافهم من والده الماجد وبمطالعة رسائلهم. وكان مشتاقاً إلى ملاقاتهم، ولم يزل عطشان الطلب مع وجود تلك الكمالات. وكان وافر الاشتياق أيضاً إلى زيارة الحرمين الشريفين، ولكن كان أبوه يمنعه عن ذلك لفرد محبته له. ولما توفي أبوه سنة سبع بعد الألف، خرج من وطنه بنيَّة سفر الحجاز سنة ثمان وألف.

ولما دخل الدهلي، جاء عنده الشيخ حسن الكشميري، وكان من أحبابه وخُلص أصحابه. وكان في ملازمة الخواجة محمد الباقي في ذلك الوقت، فدله على صحبته ورؤيته وقال: إنه قد قدم هنا في تلك الأيام شيخ كبير من أكابر السلسلة النقشبندية صاحب تصرفات عجيبة، يحصل في صحبته في مدة يسيرة ما لا يحصل في أربعينات كثيرة. فبادر إليه وحضر لديه، ولما رآه الخواجة محمد الباقي، أظهر له التفاتاً كثيراً وعظَّمه وأكرمه. ولما شاهد فيه قابلية واستعداداً صار مشغوفاً به في أول رؤيته واستفسره عن منتهى سفره، فأظهر له ما أضمر من سفر الحجاز، فقال له: لو كنت في صحبة الدراويش ولو جمعة ثم توجهت إلى مقصودك مع أنه كان لا يقبل أحداً يحضر عنده لطلب الطريقة بدون الاستخارة النبوية فضلاً عمن يريد سفر الحجاز المبارك، فقبل أن يكون في صحبته جمعة واحدة. فظهرت فيه بعد يومين داعية البيعة في هذه الطريقة وزاد شوقه وذوقه، فأبرز ذلك للخواجة في الخلوة، فقبله من غير تردد وتوقف، وحصلت له في مدة يسيرة كيفيات عظيمة ثم قص عليه شيخه في الخلوة ما رآه في منامه بعد الاستخارة حين أمره بها شيخه الخواجكي الأمكنكي قبل ذلك بسنين كما تقدم. وغيرها من الرؤيا بما يدل على علو شأنه وقطبيته. وقال: أرى كل هذه الأوصاف فيك، فكان كذلك.

ثم اشتغل بالرياضات والمجاهدات ووظائف الأذكار والمراقبات في تلك الطريقة، ففتح الله سبحانه له أبواب العلوم اللدنية والمعارف اليقينية، وأسرار الولاية، والمقامات السنية، وأنوار الفيوضات والبركات الإلٰهية التي لا يسعها

ظروف العقول ويعجز عن إدراكها فهوم الفحول في مدة يسيرة، وهي شهران وبضعة أيام.

وكان شيخه الخواجة محمد الباقي يقول مراراً: إنه من المرادين والمحبوبين، وسرعة سيره من تلك الحيثية. فأجازه شيخه للإرشاد وأمره بالرجوع إلى بلاده لهداية العباد. فرجع إلى وطنه بألوف من الفتوحات وأنواع الحالات والكشوفات منشداً بلسان حاله ما صرح به في بعض مكاتيبه: [شعر]

إليك يا منيتي حجي ومعتمري إن حج قوم على ترب وأحجار

واشتغل بتربية الطالبين وإرشاد المسترشدين، وهو وإن كان ابتداء طريقه وسلوكه من الطريقة النقشبندية، ولكن ترقّى منها أخيراً إلى مقامات كثيرة عالية جداً حتى صار شيخه الخواجة محمد الباقي يستفيد منه هذه الطريقة الخاصة به كأحد المسترشدين، ويعامل معه معاملة المريد مع شيخه من غاية رعاية الآداب ونهاية التعظيم، ويحث أصحابه على متابعته وملازمته.

قال مولانا محمد هاشم البدخشي في «مقاماته»: قال سيدي المير محمد نعمان قدّس سرّه: لما مرض شيخنا خواجة محمد الباقي وصّى الأصحاب، تعميماً وتخصيصاً، بمتابعته ثم وصاني بذلك تخصيصاً، فقلت برعونة المشاركة في شيخ واحد: إن قبلة توجه الفقير ليست إلا أنت. فقال بالغلظة والخشونة: ما تظن أنت فيه! فإن ألوفاً من النجوم أمثالنا تتلاشى في أشعة شمس الشيخ أحمد وما نال من جاء قبله من المشائخ الكبار من أحواله إلا مقدار الخال. فلزمت بعد ذلك صحبته ونلت فيها ما نلت، والحمد لله على ذلك.

والحاصل: إنه سلّم إليه منصب الإرشاد في الطريقة النقشبندية والقادرية والجشتية، ولكن كان اعتناؤه في الطريقة النقشبندية. وإذا أراد منه أحد الطريقة القادرية كان يعلمها له، والجشتية كذلك، ولكن مع غاية الاجتناب من لوازم الجشتية من الوجد والتواجد والرقص والسماع وغيرها مما يخالف السنّة.

وانتشر صيت إرشاده وفيوضاته وبركاته في جميع أقطار الأرض وسار بثنائه الجميل الركبان في الطول والعرض، وألبس عليه خلعة: قطب الأقطاب، وأحيل الوصول إلى مدارج القرب ودرجات الولاية إلى التفاته، وصارت رحلة الأبدال والأوتاد إليه، وظهرت منه أنوار الهداية وأسرار الولاية، وحقائق عالية ومعارف

سامية يعجز عن تقريرها قلم اللسان ويفتر عن تحريرها لسان القلم، فإن أردت الاطلاع على حقيقة الحال فعليك بمطالعة رسائله، خصوصاً مكتوباته الشريفة، تجد فوق ما تصفه ألسنة الأقلام مما قد عجز عن إدراكه ألباب ذوي الأفهام فضلاً عمن تستر بحجب الأوهام. [شعر]

إن آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار(١)

وإن كنت معذوراً في الاطلاع على ما حوته مكتوباته لعدم الذوق فيك، فعليك بالتسليم ولوم نفسك قائلاً: كيف لا تشاهد نوراً قد ملأ الأرض شرقاً وغرباً وأنار الأنام عجماً وعرباً. [شعر]

وإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار(٢)

وهذا أدنى الإيمان لهذه الطائفة، وإياك والاعتراض، فإن أحسست نبذة منه في نفسك فاحكم على نفسك بالشقاوة والحرمان والبعد والخذلان، والعياذ بالله من ذلك. [شعر]

يا ناطح الجبل العالي ليكلمه أشفق على الرأس لا تشفق على الجبل(٣)

ولا تصغ إلى ما يقوله الجاهلون الغافلون وتفوه به الحاسدون الشامتون لقصور عقولهم ومرض في قلوبهم، فإن المرأ عدو لما جهله. قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: الآية ٣٩] الآية. وقال عزَّ من قائل: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: الآية ١١]، فإذا قيل ذلك في كلام رب العالمين فكيف سيقال في كلام المخلوقين! [شعر]

ومن ذا الذي ينجو من الناس سالماً وللناس قيل بالظنون وقال(٤)

---

(١) ينسب هذا البيت في الموسوعة الشعرية، إصدار المجمع الثقافي، أبو ظبي، إلى أديب إسحاق الدمشقي المولود سنة ١٢٧٢هـ والمتوفى سنة ١٣٠٢ هجرية. وهو أحد أبيات قصيدته البالغة اثنين وثلاثين بيتاً، وهي من البحر الخفيف، وتفعيلته:
يا خفيفاً خفت به الحركات فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن

(٢) لم أقف على قائل هذا البيت.

(٣) لم أقف على قائل هذا البيت.

(٤) أحد أبيات قصيدة للشاعر العباسي أبو العتاهية: إسماعيل بن القاسم بن سريد العيني العنزي المولود سنة ١٣٠ هجرية والمتوفي سنة ٢١١ هجرية. والبيت من البحر الطويل، وتفعيلته:
طويل له دون البحور فضائل فعولن مفاعيلن مفاعلن

قال الشيخ الأجل شاه ولي الله المحدث المفسر الدهلوي قدّس سرّه في ديباجة تعريب «رسالة رد الروافض» للإمام الرباني قدّس سرّه: ولقد جرت على الإمام قدّس سرّه سنَّة الله تعالى وعادته في أنبيائه وأوليائه من قبل من الابتلاء بإيذاء الظلمة والمبتدعين وإنكار الفقهاء المتقشفين، وذلك ليزيد الله سبحانه في درجاته ويلحق به الحسنات من بعد وفاته. ومنشأ الإنكار في كلماته عدم الوقوف على مقاصده العالية ومصطلحاته السامية، فحمل المنكرون كلامه على غير محمله وبالغوا في الإنكار والتشنيع عليه قدّس سرّه. والحق أن أصول كلماته وأساس مقاماته مما توارد عليه محققوا أهل الذوق والكشف عن آخرهم. غير أن له إشارات يستعظمها من يفهمها وهو أهلها ويبالغ في التنكير عليها من لا يعرف وهو محروم من بركاتها، فلا حاجة لنا إلى الذب والدفع عن الإمام الهمّام رضي الله عنه إلى إقامة الدلائل العقلية والنقلية على جواز ما ادعاه. ولله در القائل: [شعر]

وعيّرها الواشون أني أحبها ... وتلك شكاة ظاهر عنك عارها[1]

وبالجملة: قد بلغ أمره إلى أن لا يحبه إلا مؤمن تقي، ولا يبغضه إلا فاجر شقي اهـ.

وقد كتب الشيخ عبد الحق المحدّث الدهلوي قدّس سرّه في أوائل حاله اعتراضات لبعض معارفه ولكن رجع عنها أخيراً وصار من جملة أصحابه وصفوة أحبابه، وكتب إلى الشيخ خواجة حسام الدين خليفة الشيخ خواجة محمد الباقي قدّس سرّهما: إن محبة الفقير في تلك الأيام للشيخ أحمد سلّمه الله تعالى متجاوزة عن الحد ولم تبق في البين الحجب البشرية والغشاوة الجليلة أصلاً، ومع قطع النظر عن رعاية أخوة الطريقة والإنصاف وحكم العقل كيف ينبغي الإنكار والخصومة مع أمثال هؤلاء الأعزّة والأكابر، ولقد ظهر في باطني شيء أحسه بطريق الذوق والوجدان ويعجز عن تقريره اللسان، سبحان الله مقلّب القلوب ومبدّل الأحوال. ولعل أهل الظاهر يستبعد ذلك، وإني لا أدري كيف هذا الحال وعلى أي منوال انتهى.

(١) أحد أبيات قصيدة بلغت تسعة وثلاثين بيتاً، للشاعر أبي ذؤيب الهذلي: خويلد بن خالد بن محرّث المتوفى سنة ٢٧ هجرية. والقصيدة من البحر الطويل. (الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي ـ أبو ظبي).

قال الشيخ الأجلُّ سيدنا الشيخ عبد الله غلام علي الدهلوي بعد نقل هذا الكلام: يفهم من قوله: ولم تبق في البين الحجب البشرية والغشاوة الجبلية: إن تحرير الاعتراضات فيما سبق كان من طريق النفسانية لا لإظهار الحق والإنصاف، وهكذا جميع أحوال المعترضين فإنهم يعترضون عليه من غير تأمل وتحقيق فإنهم إن نظروا إلى كلامه بعين الإنصاف لما يرد عليه اعتراض أصلاً. انتهى.

ولقد قيّض الله سبحانه له قرناء وأصحاباً صلحاء، وعلماء فضلاء عرفاء كملاء، وبشّر في المبشرات بالمجددية في هذا الألف الثاني وأمر بإفشائها وإبلاغها الناس، واشتهر بلقب الإمام الرباني والمجدِّد للألف الثاني، واعترف بكونه مجدداً أكابر العلماء والأولياء في زمانه، مثل الشيخ فضل الله البرهانفوري، ومولانا الشيخ حسن الغوثي، ومولانا عبد الحكيم السيالكوتي، ومولانا جمال الدين الطالوي، ومولانا حسن القياداني، ومولانا ميركشاه، ومولانا المير مؤمن البلخيين، ومولانا يعقوب الصرفي الكشميري شيخه وأستاذه في الحديث والتفسير كما مر، والشيخ عبد الحق المحدِّث المحقق الدهلوي أخيراً، وغيرهم من العلماء والمشائخ في زمانه وبعده قرناً بعد قرن من غير إنكار من أحد إلاَّ شرذمة قليلة لا يعتد بهم. وذلك لاجتهاده في إحياء الشريعة النبوية والطريقة المصطفوية، وإماتة البدعة القبيحة، ونشره أنواع العلوم الدينية، وأصناف المعارف الصادقة اليقينية، واختصاصه بالمقامات العالية والحقائق السامية التي تتعلق بذات الحق سبحانه وصفاته وأفعاله، وتتلبس بالأحوال والمواجيد والتجليات والظهورات وغيرها مما لم يتكلم بها أحد من العلماء العظماء ولا واحد من الأولياء الكبراء، مثل انكشاف حقيقة الكعبة المعظمة، وحقيقة القرآن المجيد، والصلاة، والمعبودية الصرفة وغيرها من خصائصه مما يطول ذكره.

والحاصل: إن من نظر إلى أحواله في حال حياته من إحياء الشريعة والسنة السنية، وإماتة البدعة الشنيعة خصوصاً في بلاد الهند المحفوفة بظلمة الجهل والكفر والبدعة، وما حصل باجتهاده من أنواع أنوار الإسلام وآثار السنة، وما وقع بعد وفاته بسبب اجتهاد أولاده وخلفائه وخلفاء خلفائه إلى يومنا هذا في جميع أقطار الأرض من الطول والعرض، على وفق إخباره، بنظر الإنصاف وأبعد عن نفسه الاعتساف، حصل له اليقين بأن كلامه حق وصدق وأنه مجدد هذا الألف، وأن

أتباعه خيار هذه الأمة المرحومة.

وصدر عنه قدّس سرّه من الكرامات وخوارق العادات ما لا يعد ولا يحصى، وفائدة الكرامة إثبات أنه ولي، كما قال في «العقائد النسفية» لأنه يظهر بها أنه ولي ولن يكون ولياً إلا وأن يكون محقاً في ديانته. وكفى شاهداً على ولايته شهادة شيخه واستفادته منه ورعاية كمال الأدب معه، وتحريض أصحابه على متابعته وغاية استقامته على الشريعة الغراء حتى أنه قال في بعض مكتوباته: إن من طار في الهواء وترك شيئاً من المستحبات لا قدر له عند هذه الطائفة مقدار شعرة. ولكن نكتب هنا نبذة من تصرفاته للتبرك:

منها: أنه لما رجع إلى وطنه مأذوناً، رأى في استغراقه أن حفيد الشيخ كمال القادري ألبسه خرقة جده، ففتح عينيه فرآه قائماً بين يديه، فقام إليه ورحّب به وعظّمه، فألبسه في حال الشعور خرقة جده الشيخ المذكور وقال: إن إخراج خرقة جدي من البيت وإن كان في غاية الصعوبة ولكن لما صدرت الإشارة بذلك مزاراً لم أجد بداً منه. فلبسها ودخل في حرمه ثم خرج بعد مدة وقال لبعض خواص أصحابه: إنه وقع لي الآن أمر غريب، وهو: أني لما دخلت البيت بعد لبس الخرقة ظهرت أكابر القادرية من الشيخ الغوث الأعظم إلى الشيخ شاه كمال الكيتهلي، وأحاطوا بي، فتفكرت في نفسي: أني كنت وجدت التربية ومرتبة الكمال والإكمال من أكابر النقشبندية وقد وقع الآن ما وقع، فبينا أنا في هذا الفكر والتحير إذ ظهرت أكابر النقشبندية من لدن الخواجة بهاء الدين النقشبند إلى الخواجة محمد الباقي وقالوا لأكابر القادرية: إنه مريدنا ووجد التربية منا وبلغ مرتبة الكمال والإكمال بعنايتنا والتفاتنا وتوجهاتنا. فقال لهم أكابر النقشبندية: نعم ولكنه كان أولاً منظوراً بنظراتنا وملحوظاً بالتفاتنا، فبهذه الجهة هو منّا. فقام بينهما المشاجرة والمخاصمة فظهرت في ذلك الأثناء مشايخ الكبروية والجشتية، فأصلحوا بينهما وهذا يدل على علو شأنه ويشتمل على أنواع من الكرامات كما لا يخفى على المتأمل فيه.

كتب إليه واحد من الدراويش: إن هذه المقامات التي تبيّنها هل كانت حاصلة لأصحاب رسول الله ﷺ أم لا! فإن حصلت فهل كانت تحصل دفعة أم تدريجاً؟!.

فكتب إليه بأن جواب هذا السؤال موقوف على حضورك في الصحبة. فجاء إلى صحبته، فتوجه إليه وألقى إليه جميع نسبه ثم قال له: ماذا رأيت؟ فوضع رأسه على

قدمه وقال: تيقنت أن جميع مراتب الولايات كانت تحصل للأصحاب في أول صحبتهم برسول الله ﷺ.

دخل جماعة من أصحابه بلدة من بلاد الكفار بعيدة من بلاد الإسلام ورأوا فيها كنيسة خالية عن الناس، فكسروا الأصنام فيها، فهجم عليهم الكفار من جميع الأطراف والجوانب مجردين سيوفهم فاستغاث المخلصون بحضرته، فظهر في الحال وقال: لا تفزعوا يجيئكم المدد من الغيب. فظهرت في الحال طائفة من الفرسان لحمايتهم وخلصوهم من أيدي الكفار.

دعاه مرة عشرة أنفار من أصحابه للإفطار، فوعد كلهم، فحضر وقت الإفطار بيت كل منهم في آن واحد.

ولما حبسه السلطان نور الدين جهانكير خان بسبب كلمة حقة عنده، كان يخرج إلى صلاة الجمعة مع شدة الاحتراس. فلما شاهدوا منه تلك الكرامات مرات اعتذروا إليه وتضرعوا بين يديه وأخذوا الطريقة وصاروا من المخلصين له والملازمين لديه. وهذه نبذة من كراماته والقليل يدل على الكثير، والقطرة تنبىء عن البحر الغزير.

ولما أناف عمره الشريف إلى خمسين قال: قد ألهمت أن عمري يوافق عمر النبي ﷺ فلعله لا يتجاوز ثلاثاً وستين سنة. ولما كانت سنة اثنتين وثلاثين وألف ذهب إلى مرقد الشيخ معين الدين الجشتي قدّس سرّه للزيارة، فأعطاه متولي المرقد ستارة القبر برسم التبرك، فأخذها وقال: إن الشيخ أعطاني هذه لأجل الكفن. وفي تلك السنة قام ليلة للتهجد وبكى كثيراً مكرراً هذا البيت لمولانا الجامي بالفارسية: [شعر]

ما أقصر الأعمار في عهد الهوى ... يا حبذا لو عشت عمراً سرمدا

ثم عرض له ضيق النفس في أواسط ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين وألف، ثم قال: في محرم الحرام سنة أربع وثلاثين وألف يقع الانتقال من هذا العالم في مدة أربعين أو خمسين يوماً، وقد رأيت موضع قبري. وقال في الثاني والعشرين من صفر: قد بقي من عمري سبعة أو ثمانية أيام. وقسم الخلعة في الثالث والعشرين منه للدراويش بيده وأوصى أولاده بأن يكفنوه من صداق زوجته الكريمة، وأن يخفوا قبره.

ولما شاهد ملالة أولاده الأمجاد من هذا الكلام وكراهيتهم له قال: بل ادفنوني عند قبر والدي الماجد. وقال: اجعلوا بناء قبري من اللبن لينمحي أثره سريعاً. ثم استرضى من الخادم الذي أمرضه في السابع والعشرين من صفر وطلب الطست وقت الإشراق في ذلك اليوم لحاجة إنسانية، ولما لم يحضر الرمل ردها خوفاً من انتشار قطرات البول وصبر وقال: ردوني إلى فراشي. ولما ردوه واضطجع على شقه الأيمن جاعلاً يده اليمنى تحت خده على الطريق المسنون وشرع نفسه في التواتر وقال: صلّيت ركعتين وهما تكفيان لي الآن. وختم كلامه بلفظ الصلاة التي هي نسبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم غمض عينه عن الدنيا وكان ذلك يوم الثلاثاء السابع والعشرين من صفر سنة أربع وثلاثين وألف، وجعلوا تاريخ وفاته رفيع المراتب سنة ١٠٣٤ هجرية. نوّر الله مضجعه وقدّس سرّه، ثم صلّى عليه ولده الأكبر الشيخ محمد سعيد، مع الخواص والعوام ودفنوه في قرب المسجد مما يلي قبر ولده الأرشد الأكبر الشيخ محمد صادق قدّس سرّه.

* * *

*** مولانا مجد الدين محمد معصوم، الملقّب بالعروة الوثقى، ابن الإمام الرباني قدّس سرّهما:** لا يخفى أنه كان للإمام الرباني قدّس سرّه أربعة بنين، توفي أكبرهم: الشيخ محمد صادق قدّس سرّه بعد وصوله إلى مرتبة الكمال والتكميل، بل بعدما بشّره الإمام الرباني بقطبية سرهند، ولكن اخترمته المنية حين شبابه في حياة والده الماجد عام الوباء العام، فأسف عليه والده أسفاً كثيراً، سقى ثراه صيب الرحمة والرضوان.

الثاني: الشيخ محمد سعيد قدّس سرّه. ولقبه في هذه السلسلة: خازن الرحمة. وبشّر، والده بقطبية ما وراء النهر، فوقع وفق ما بشر، فإن أكثر أكابر ما وراء النهر كمولانا موسى خان الدهبيدي وخلفائه وخلفاء خلفائه منتسبون إليه. وكان في ذروة الكمال في جميع العلوم الظاهرية والباطنية.

ورابعهم: الشيخ محمد يحيى قدّس سرّه. وكان وقت وفاة والده صغير السن، فاستفاد العلوم والطريقة من أخويه الأكبرين، وبلغ مرتبة الكمال والتكميل.

وثالثهم: هو صاحب الترجمة، وإليه تنتسب مشايخنا الكرام وتنتهي إليه سلسلتهم عند الانتظام. ولادته في سنة تسع بعد الألف.

قال الإمام الرباني قدّس سرّه: إن ولادة ولدي محمد معصوم أورثت بركات كثيرة حيث تشرفت سنة ولادته بملاقاة شيخنا الخواجة محمد الباقي بالله والمثول بين يديه، وظهرت هذه العلوم والمعارف بسبب تلك الملاقاة. وبالغ الإمام الرباني قدّس سرّه في مدحه بعلو الاستعداد، وقال: إن لولدي هذا استعداداً ذاتياً للولاية المحمدية، وهو محمدي المشرب ومن جملة المحبوبين، وأن حاله في تحصيل نسبتي كحال صدر الشريعة صاحب «شرح الوقاية» حيث كان يحفظ ما يؤلفه جده بلا تأخير، فإن بينت سرعة سيره وسلوكه وطيه للمقامات وبلوغه أعلى الدرجات يكاد القريب يظن نفسه في البعد والحرمان ويزعم الواصل أنه في قطر الانقطاع والهجران.

ومن غاية علو استعداده تكلّم في التوحيد على مذاق الصوفية وهو ابن ثلاث سنين وقال: أنا الأرض وأنا السماء وأنا هذا وأنا ذاك، وهذا الجدار حق، وتلك الأشجار حق. حفظ القرآن المجيد في مدة ثلاثة أشهر وفرغ من تحصيل العلوم العقلية والنقلية وهو ابن ست عشرة سنة ثم اشتغل بإفادة الطالبين، ولقّنه والده الطريقة في أثناء التحصيل حين بلغ عمره إحدى عشرة سنة، وأمره بالذكر والمراقبة فواظب عليها وجمع بين القال والحال بكمال الاستقامة والورع والتقوى في جميع الأحوال.

ولما بلغ ذروة الكمالات ونهاية المقامات، وتشرّف بالأحوال والواردات، شرّفه والده الإمام الرباني قدّس سرّه بإجازة الإرشاد وألبسه خلعة الخلافة، وأمره بهداية العباد، وبشّره بالقيومية وقطبية الشام والروم وما والاها من البلاد. فوقع الأمر وفق بشارته حيث انتشرت خلفاؤه في تلك البلاد بين العباد واشتهر صيته وطريقته فيها اشتهاراً تاماً وإن عميت أبناؤها عن خفافيش المنكرين، فماذا تقول في مولانا الشيخ أبي سعيد وأولاده الكرام، وماذا تظن في مولانا خالد وخلفائه وخلفاء خلفائه، قدّس الله أرواحهم وأيّد أركانهم، وشيّد بنيانهم إلى يوم القيام. [شعر]

لقد ظَهَرْتَ فلا تخفى على أحد ... إلاّ على أكمه لا يبصر القمرا(١)

---

(١) ينسب هذا البيت إلى الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي وجاء في الموسوعة الشعرية إصدار المجمع الثقافي أبو ظبي على النحو التالي:

لقد ظهرت فما تخفى على أحد ... إلاّ على أحد لا يعرف الباري

والبيت من البحر البسيط، وتفعيلته:

إن البسيط لديه يبسط الأمل ... مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن

نعم، فما ذنب النجوم إن استصغرتها العيون. [شعر]

على نفسه فليبك من ضاع عمره   وليس له منها نصيب ولا سهم[1]

والحق أنه كان آية من آيات الله مثل والده الماجد، قد نوَّر العالم من ظلمات الجهل والبدع بيمن توجهاته العلية وأحواله السنة، وصار ألوف من الرجال محرماً للأسرار الخفية، وتحققوا بالحالات السنية بشرف صحبته العلية حتى قيل: إن جميع من بايعه في الطريقة بلغ تسعمائة ألف، وعدد خلفائه سبعة آلاف منهم: الشيخ حبيب الله البخاري، كان أعظم مشائخ خراسان وما وراء النهر في زمانه، قد نوّر بخارى بنور السنَّة والطريقة بعدما غشيتها ظلمة البدعة والهوى، وشرف بالخلافة والإجازة أربعة آلاف من مريديه بعد إيصالهم إلى رتبة الكمال والتكميل، وله خوارق مشهورة.

ومن خلفائه: الصوفي الله يار، صاحب «مسلك المتقين ومراد العارفين ومخزن المطيعين» بالفارسية، و«ثبات العاجزين» بالتركية، ترجمة «مراد العارفين»، ولصاحب الترجمة مكاتيب في ثلاثة مجلدات ضخمة مثل مكاتيب والده الماجد متضمنة لغوامض الأسرار واللطائف، ومبيِّنة لدقائق الآثار والمعارف، أكثرها في حل مغلقات معارف والده الماجد، ولننقل من جملتها هذا المكتوب من رسالة سيدنا الشيخ محمد مظهر برّد الله مضجعه للتبرُّك والاسترشاد:

أما بعد: فإن هذا تذكار من هذا العبد ضعيف الأفكار للأحباب أولي الأبصار: اعلموا أيها الإخوان المقصود من خلق الإنسان تحصيل معرفة الحق سبحانه الواضح البرهان والناس فيها متفاوتة الأقدام على حسب تفاوت الاستعدادات والأفهام، بعضها فوق بعض، وقد تكلم الكبراء فيها على قدر عرفانهم، ولكن القدر المشترك بين هذه الطائفة وما أجمعوا عليه الذي لا بد منه في مدارج القرب، أن المعرفة لا تتصور بدون الفناء في المعروف. [شعر]

من لم يكن عن نفسه متفانياً   لا يهتدي لحقيقة التوحيد

فينبغي للعاقل أن يتأمل في حاصل آمره وأفعاله ومآل اشتغاله وأحواله تأملاً

---

(١) أحد أبيات لامية الشيخ ابن الفارض: عمر بن علي، المولود سنة ٥٧٦ هجرية، والمتوفى سنة ٦٣٢ هجرية. والقصيدة من البحر الطويل، ومطلعها:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة   سكرنا بها من قبل أن يُخلق الكرم

جيداً بإمعان النظر، فمن حصلت له المعرفة المذكورة فطوبى له وبشرى. وينبغي أن لا يصرف هذا الحاصل إلى أمور ليس فيها طائل بل اللازم أن يجتهد في التجاوز عن الأصل كتجاوزه عن الظل، ومن لم يفتح له باب المعرفة وليس فيه ألم الطلب وحزن فقدان هذه الدولة العظمى، فالويل له كل الويل، حيث لم يخرج عن عهدة ما خلق لأجله ولم يؤد ما طولب به في هذه النشأة الدنيا، بل اشتغل بشيء آخر وعمَّر ما أمر بتخريبه، وصرف جواهر أعماره ويواقيت مواقيته في هوى نفسه وما لا يعنيه، وعطّل أرض استعداده مع حصول أسبابه. فواعجباً ممن شد رحله من هذه الدار التي هي محل الدعوة والتبليغ، إلى دار القرار، من غير تحصيل المطلوب في تلك المهلة اليسيرة مع وجود الدعوة به، فبأي وجه يذهب إلى حضرة صمديته تعالى في الآخرة، وبأي حيلة يبسط لسان العذر! فالانفعال عليه كل الانفعال، فإن عذاب البعد والحرمان أشد من عذاب الجحيم والنيران، كما أن لذّة القرب والوصال ألذّ من لذة النعيم في دار النوال. فيا ويلتا على مَن أعرض عن الله، ويا حسرتا على مَن فرط في جنب الله، ولا مجيء إلى الدنيا ثانياً ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ۝٧٢﴾ [الإسراء: الآية ٧٢]. [شعر]

وإني على خوف من البُعد والهجر فيبقى لنا غمّ إلى نهاية الحشر

انتهى. وله قدّس سرّه خوارق كثيرة وكرامات عديدة ليس هذا محل إيرادها، ولقد أغنى العيان عن البيان. توفي قدّس سرّه في اليوم التاسع من ربيع الأول سنة تسع وسبعين وألف.

* * *

*** قدوة أرباب الكشف واليقين وسلطان الأولياء والمتقين مولانا الشيخ سيف الدين قدّس سرّه:** هو خامس أولاد الشيخ محمد معصوم قدّس سرّه. ولادته سنة خمس وخمسين وألف. كان متصفاً بالعلم والعمل، معرضاً عما سوى الله عزَّ وجلَّ، معروفاً بالأخلاق الحسنة، وموصوفاً بالأوصاف الحميدة. أخذ الطريقة النقشبندية المجددية عن والده بعد فراغه من تحصيل العلوم المتداولة، وحصل الكمالات المعنوية، وبلغ إلى أقصى غايات القرب ونهاية المقامات الأحمدية.

وكان له جذب قوي وتصرف عال بحيث كان الناس يضطربون من قوة توجهاته ويبقون بلا اختيار في يده، وبالجملة: كان ذا حالات عزيزة وواردات سنية. ولما تمَّ

أمره وكَمُل بدره اختار للإقامة بلدة دهلي بأمر والده الماجد بعدما صدرت بها إشارة غيبية، فصار هناك مرجعاً للطالبين ومجمعاً للسالكين، وكان مقبولاً عند الخاص والعام حتى انسلك في سلك إرادته سلطان بلاد الهند محمد أورنك زيب عالم كيرخان مع أولاده الكرام وأمرائه الفخام واستفادوا منه علم الباطن. وعرض هو أحوال السلطان وترقّياته الباطنية على والده الماجد، وقال: إن آثار ولاية لطيفة الأخفى غالبة فيه جداً. فصحح والده ذلك بنظر الكشف وصدقه.

وكتب والده إليه: إن نزولك يظهر أتم وأكمل، وقوة إرشادك وكثرة وصول أثر الفيض إلى خلق الله منك، أثر ذلك النزول، وقد كتبت: إن السلطان وجد مبدأ تعينه صفة العلم فاحتظيت من مطالعته فوق الغاية حتى كدت أرقص من غاية الفرح والسرور، رزقه الله سبحانه حظاً وافراً من بركات هذه الصفة العالية الشأن إنه قريب مجيب. انتهى.

وكان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على رتبة لم يكن شيخ من المشايخ مثله، حتى كادت البدع ترتفع عن بلاد الهند في زمنه وتستأصل، ولذلك لقّبه والده بـ: محتسب الأمة.

ودعاه السلطان مرة إلى قصره فأجابه اتباعاً للسنّة، ولما رأى في جدار القلعة صوراً منحوتة في الأحجار توقف عن الدخول إلى القلعة بأمر السلطان بكسرها، فكسروها بأسرها ثم دخل فيها وشمّر السلطان ذيله لترويج الشريعة الشريفة وقمع البدع الشنيعة بيمن صحبته العلية واجتهد في اتباع السنّة السنية حتى حفظ القرآن في كبر السن. وكان يحيي الليالي، وكانت لمولانا الشيخ سيف الدين قدّس سرّه شوكة ظاهرة أيضاً حتى كان السلاطين والأمراء يقومون على أرجلهم بالأدب التام بين يديه، ولم يكن لهم مجال القعود لديه دون أن يلبسوا ألبسة فاخرة.

وقع مرة على قلب البعض، أن له كِبراً، فأشرف عليه وقال: إن كبري من ظلّ كبرياء الحق عزَّ وجلَّ. وكان يأكل من مطبخه كل يوم أربعمائة رجل وألف رجل مرتين مما يوافق طبعه وترغب فيه نفسه. وانتفع بفيضه الظاهري والباطني ألوف من الناس من الملوك والصعاليك وبلغ جمع كثير مرتبة الكمال والتكميل، جزاه الله خير الجزاء. توفي سنة خمس وتسعين وألف، ودفن في بلدة سرهند.

* * *

* **مولانا سيد السادات السيد نور محمد البداوني قدّس سرّه:** كان جامعاً بين علوم الظاهر والباطن، أخذ النسبة النقشبندية المجددية عن الشيخ سيف الدين، وبلغ عنده آخر المقامات الأحمدية. ثم اشتغل بتحصيل الفيوض عند الشيخ الحافظ محمد حسن وصحبه سنين. وهو من خلفاء الشيخ محمد معصوم قدّس سرّه ومن أولاد الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوي، فتشرّف بحالات عالية وواردات سامية، وطرا عليه استغراق قوي في أواسط أحواله ولم يصح منه إلى خمس عشرة سنة إلا في أوقات أداء الفرائض. وكان يحصل له تخفيف في ذلك الوقت، ثم يصير مغلوب الحال كالأول. ثم حصلت له أخيراً إفاقة تامة وصحواً أكمل، وكان ممتازاً بكمال الورع والتقوى واتباع السنة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام. وكان له اهتمام تام في تتبع آثار النبي ﷺ والتأدب بآدابه ورعاية طريقته، وكان لا يفارق كتب السير والأخلاق دائماً ليعمل بما فيهما.

وضع مرة قدمه اليمنى أولاً في بيت الخلاء على خلاف السنَّة خطأ، فطرأ على أحواله الباطنية قبض عظيم وامتد إلى ثلاثة أيام، ثم تبدّل حاله إلى البسط بعد تضرّع كثير. وكان يحتاط في اللقمة احتياطاً بليغاً، وكان يخبز بيده أقراصاً ويطبخها ويجعلها قوت نفسه أياماً، ويأكل كسرة منها عند اشتداد الجوع. ثم يشتغل بالمراقبة، وقد احدودب ظهره من كثرة مراقبته. وكان يقول: ما بقي في الطبيعة تعلق بكيفية الأغذية منذ ثلاثين سنة، بل آكل وقت الجوع كلما تيسر. وكان لا يجمع بين الإدامين من كمال تورعه، ولا يأكل من طعام الأغنياء أصلاً لعدم خلو أكثره عن ظلمة الشبهة.

جاءه طعام من بيت واحد من أهل الدنيا، فقال: تظهر منه ظلمة. ثم قال لمولانا مرزاجانجانان قدّس سرّه على وجه الالتفات: أمعن النظر في هذا الطعام، فتوجه إليه امتثالاً لأمره ثم قال: إن الطعام من وجه الحلال ولكن تطرقت إليه الظلمة والعفونة بسبب الرياء فيه. وإذا استعار كتاباً من أبناء الدنيا كان لا يطالعه إلى ثلاثة أيام قائلاً: بأن ظلمة صحبة الأغنياء غشيت غلافه وجلده فإذا زالت ظلمته ببركة صحبته كان يطالعه حينئذ.

وكان مولانا مرزاجانجانان قدّس سرّه يقول: يا أسفاً على أكابر الزمان السيد، فإنهم إن رأوه تزد قوة يقينهم بالقدرة الإلٰهية بمعاينة قدرته على خلق صاحب

كمال مثله. وكانت عيناه تزرفان بالدموع عند ذكره، ويقول: إن مكشوفاته كانت في غاية الصحة ومطابقة الواقع، بل يمكن أن نقول: ليس لأمثالنا أن نرى بعين الناس مثل ما يراه بعين القلب. وقال: إن نفسه القدسية كانت خالية عن التغير من مدح الناس وذمهم وكان الرضا والتسليم إلى القضاء من صفته.

سألني مرة الشيخ كلشن خليفة الشيخ عبد الأحد قدّس سرّهما: إن شيخك بأي مقام بشرك وإلى أين بلغ سيرك وسلوكك؟ فأظهرت له ما بشَّر به السيد وما وجدت في نفسي من حالات ذلك المقام وواردانه، فقال على سبيل التعجب والإنكار: إن شيخك يدعي دعاوى كبيرة، فإن تلك النسبة لا تشاهد في مقابر مشهورة. فشكوت إنكاره إلى السيد فقال: لم يضيق به صدرك، فإن علمه ليس بعلم الله حتى يكون محيطاً بكل شيء، وأنا لست نبياً حتى يكون الإنكار عليَّ كفراً، ولا ندَّعي الولاية حتى ينجر الإنكار إلى الفسق. ومع قوله هذا تركت ملاقاة الشيخ كلشن لقول شيخ الإسلام، الشيخ عبد الله الأنصاري الهروي قدّس سرّه: إذا أحببت من يبغض شيخك واختلطت به فالكلب أفضل منك. فوقعت الملاقاة بيننا بعد سنة اتفاقاً، فقال: لعلك هجرتني لإنكاري على شيخك! فقلت: نعم، فقال: قد أظهر الله لي كمال شيخك فإني كنت مرة قاعداً في السوق، فجاءت جماعة الركبان فقالوا: إن هذا شيخ مرزاجانجانان، فدخلت البيت من خلفه فوجدت بيته ملآن من النور والصفاء كأنه بيت الله يظهر من كل حجر ومدر منه كيفية إلٰهية لا يظهر مثله في أكثر قبور الأولياء. فذهبت عند السيد وعرضت عليه مدح الشيخ كلشن، فكما أن ذمه لم يؤثر فيه كذلك مدحه لم يكن موجباً لانبساطه.

توفي قدّس سرّه في ذي القعدة سنة خمس وثلاثين ومائة بعد الألف روَّح الله روحه ونوّر ضريحه وأفاض علينا من بركاته.

قيُّوم الطريقة الأحمدية، محيي السنَّة النبوية، فريد عصره، ووحيد دهره، مولانا شمس الدين حبيب الله مرزانجانجان، مظهر الشهيد قدّس سرّه: هو من السادات العلوية ويتصل نسبه بسيدنا علي كرَّم الله وجهه بثمان وعشرين واسطة بتوسط محمد ابن الحنفية. ولادته سنة إحدى عشرة بعد المائة والألف. وقيل: سنة ثلاث عشرة ومائة وألف، يوم الجمعة الحادي عشر من رمضان. وكانت آثار الرشد والهداية ظاهرة في جبينه وأنوار الدراية والولاية لائحة من حركاته وسكونه.

وكان آباؤه الكرام وأجداده العظام من الأمراء الفخام ذوي الاحتشام، وكانوا موصوفين بالأخلاق الحميدة والأوصاف الجميلة، ومعروفين بالمروءة والعدالة والشجاعة والسخاوة، وكمال الديانة. ثم لما بلغت النوبة والده الماجد ترك الجاه والمنصب باختياره واختار دولة الفقر والقناعة، وقسم أسباب المنصب والجاه على الفقراء والمساكين لرضى مولاه. واهتم في تربية ولده مولانا مرزاجانجانان اهتماماً تاماً وأكد عليه في تقسيم أوقاته لكسب الكمالات في صغر سنه لئلا يضيع عمره الشريف الذي لا بدل له فيما لا يعنيه، وعلّمه الآداب السلطانية، والفنون العسكرية، وسائر الصنائع الضرورية والمعارف اللازمة.

وكان يقول له: لو كنت أميراً كما هو دأب آبائك وأجدادك، تعرف قدر أرباب الصنائع والمعارف، فإن من لم يعرف شيئاً لا يعرف قدر أربابه، كما قيل شعر:

لا يعرف الوجد إلاّ من يكابده ولا الصبابة إلاّ من يعانيها[(١)]

وإن اخترت الفقر والتجرُّد كما هو مرضاي وظني فيك، فلا تقع حاجتك على أهل المعارف والصنائع. فصار ماهراً كاملاً في جميع الفنون بحيث إذا التقاه صاحب صنعة من الصنائع كان يعترف بمهارته وكماله فيها. وكان يعرف خمسين نوعاً من تقطيع السراويل، وكان يقول: إذا حمل عليَّ عشرون رجلاً مجرّدين سيوفهم وفي يدي عصا صغيرة لا يقدر واحد منهم أن ينال مني.

وقال: رأيت مرة في المنام سيدنا إبراهيم على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام، فأظهر لي ألطافاً وعنايات كثيرة. وكنت وقتئذ ابن تسع سنين، وإذا جرى ذكر أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه في تلك الأوقات كانت صورته المباركة تظهر لي في الحال، وقد رأيته بعين الرأس مراراً.

وقال: إن الله سبحانه جعل طبيعتي في غاية الاعتدال، وأودع في طينتي حظاً وافراً من رغبة اتباع السنَّة النبويَّة على صاحبها الصلاة والسلام. وذهبت مرة في صغر سني لزيارة الشيخ عبد الرحمٰن القادري عليه الرحمة مع والدي الماجد، وكان هو شيخه وقد ظهرت منه كرامات وتصرفات، وكان يتساهل في أفعال الصلاة،

---

(١) ينسب هذا البيت لأبي الشمقمق: مروان بن محمد، من شعراء العصر العباسي، ولد سنة ١١٢ هجرية وتوفي سنة ٢٠٠ هجرية. (الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي - أبو ظبي).

وكانت في قلبي نفرة منه من تلك الحيثية وكنت خائفاً من تكليف والدي بالبيعة إياه، فإن تارك السنّة المصطفوية لا يصلح للاقتداء به. فسألت والدي يوماً: إنه ما سبب مساهلته في أفعال الصلاة؟ فقال: لغلبة السكر عليه فهو معذور في ذلك. فقلت: أيصير مغلوب السكر والحال في أوقات الصلاة ويصحو في سائر الأوقات؟ فقال متحيراً: إن الحق سبحانه رزقك الفهم والذكاوة للاعتراض على شيخي. فكان هذا السؤال سبباً لامتناعه مما خفت منه.

وكان العشق والوله مركوزاً في طبيعته، وآثار الهيام والغرام ظاهرة من سجيته في صغر سنه حتى اشتهر بين الناس بصفة العشق وسمة الوله وهو ابن خمس. وكان يقول: من لم يمسح رأسه ووجهه بتراب ذلّ العشق والمحبة كيف يعرف لذة شوق السجدة التي صدرت على وفق حديث: «**إن الساجد يضع رأسه على قدم الله**»[1] فإن بعض تجليات الحق سبحانه في لحاظ العيون وبعضها في جذب سلسلة الذوائب، وإنما يعرف أقسام أذواق التجليات وتأثير جلوة العارض والحال يوجد أن المحبة الصادقة وما أشار الشيخ فخر الدين العراقي والشيخ أوحد الكرماني في أشعارهم وقرروه في اصطلاحاتهم إلى التجليات فهو صحيح، فمن ابتلي بمحبة الحسن الظاهري وعشقه فهو في الحقيقة من جذبة جمال الشاهد الحقيقي قد ألقى إليه الظل.

وقال: إن فائدة العشق المجازي هي حصول الحرارة في القلب واشتعال نيران المحبة الإلٰهية فيه بشرط عدم وقوع الملاقاة في البين، فإنه متى حصلت الملاقاة تضعف حرارة القلب بماء الوصال، ولذلك قيل: مَن ليس له عشق فهذا الطريق عليه حرام. وقد مر ذلك في «الرشحات».

ومن تلك الحيثية حصلت له مهارة تامة في صنعة الشعر، واشتهر بشهرة الشاعرية، وله ديوان في الغزليات وأشعار الأشواق بالفارسية جمعها بالتماس بعض الأعزّة. وكان يقول: الحسن ما حسَّنه الشرع والقبح ما قبَّحه الشرع. فإن كان في طريق الورع والتقوى أنوار وصفاء ولكن في طريق المحبة والهوى من لوعة الغرام أذواق وصهباء.

---

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

وبالجملة: أنه قدّس سرّه ما ترك مسلكاً من مسالك الكمالات إلاّ سلكها، وما سلك مسلكاً يطلب فيه الفضائل والكمالات إلاّ ملكها حتى فرغ من كسب الكمالات الظاهرية من العلوم النقلية والفنون العقلية بأسرها، فروعها وأصولها، في سن ثماني عشرة سنة. ثم مع جميع هذه الكمالات لم يسكن قلبه إليها أصلاً، بل صرف باز همته إلى طرف الصيد المقصود الأصلي، وسمع في ذلك الأثناء أوصاف سيد السادات ـ السيد نور محمد البداوني قدّس سرّه ـ الكاملة، فبمجرد استماع أوصافه اشتاق قلبه إلى لقائه، فوصل إلى صحبته فوجده فوق ما سمعه في كمال التشرع واتباع السنن النبوية والتخلّق بالأخلاق الإلٰهية. واستغرق في أنوار صحبته المباركة المورثة لصفاء القلوب، الموجبة لجلاء الكروب، وقرت عين يقينه من معاينة الشاهد المقصود فيه واطمأن قلبه هناك لما بان له أن شهود الحق إنما يتيسر بملازمة عتبته العلية، فسأله السيد عن سبب مجيئه، فعرض عليه غرضه من استفادة نسبة الأكابر، فقبله ولقنه الطريقة وتوجه إليه بلا توقف مع أنه كان لا يقبل أحداً من غير استخارة، فجرت لطائفه الخمس بالذكر في أول التوجه، وذلك من خصائصه قدّس سرّه.

وكان مشرفاً بالتجلي الصفاتي وتأثر باطنه تأثراً تاماً حتى رأى نفسه في المرآة في صورة شيخه وهيئته، وظهرت فيه محبة تامة وعقيدة راسخة ولوعة وهيام حتى ترك الطعام والمنام واختلاط الأنام بيمن صحبته وصار يدور حول الخرابات حافياً حاسراً رأسه، وكان يقنع بأكل قليل من أوراق الشجر عند اشتداد الجوع، وكان ملازماً له إلى أربع سنين. ثم شرّفه بإجازة تعليم الطريقة وإلباس خرقة الصوفية.

ولما توفي السيد، اقتبس الأنوار من مرقد، إلى ست سنين حتى ترقى حاله بتوجهات روحانيته من السير في الصفات والشؤونات وأصولها، ووقعت المعاملة في تجليات اسم الباطن ووقعت الكيفيات الغريبة والحالات العجيبة في نسبته. ثم رأى السيد مرة في منامه، فقال له: إن الكمالات الإلٰهية غير متناهية واللازم على الطالب الصادق أن يصرف عمره المتناهي في طريق طلب شيء لا يتناهى، والاستفادة من القبور غير واقع، فينبغي الرجوع لتحصيل مقامات القرب الإلٰهي إلى واحد من أكابر الأحياء.

وصدر عنه هذا الأمر غير مرة، فجاء عند الشيخ شاه كلشن، المار ذكره، وأظهر له إرادة كونه في صحبته، فقال: أنا رجل غير مقيد بآداب الطريقة مثل الملا

حتى أستمع السماع في بعض الأوقات وأصلي أحياناً منفرداً، وأنت كامل التشبث بالسنَّة النبوية والموافقة من شرط الاستفادة، فعليك الرجوع إلى محل آخر. فرجع إلى الشيخ قطب عصره محمد زبير حفيد الشيخ حجة الله النقشبند وخليفته، ابن الشيخ محمد معصوم قدّس سرّهم، فأظهر له التفاتاً كثيراً وقال لأولاده: إن ملاقاة أمثال هذه الأعزَّة المتصفين بالآداب الظاهرية والباطنية ينبغي أن تعد لازماً. فقبّل مولانا قدمه وأظهر له إرادته، فقال: أنت منَّا ومن شرط هذه الطريقة دوام الصحبة، ومحل إقامتكم بعيد، فلا يمكن حضور الصحبة في كل يوم والنسبة التي حصلت لك من السيد أصيلة وغزيرة، فإن اجتهدت في محافظتها تكفيك.

ثم رجع إلى الشيخ الحاج محمد أفضل قدّس سرّه والتمس منه التوجهات، فقال له: إن سلوكك كان على وجه البصيرة وحصل لك كشف المقامات وليس لنا كثير كشف وعلم بالمقامات، فلا تكون الاستفادة على أحسن الوجوه. ومع قوله هذا اختار الاستفادة منه وأقام عنده مدة عشرين سنة، وحصل منه فوائد جمة في ضمن تحصيل علم الحديث، وظهرت قوة في عرض نسبته.

قال قدّس سرّه: كان له استغراق في نسبة رسول الله ﷺ عند ذكر الحديث، وربما كانت تظهر منه الأنوار والبركات في تلك الحالة، وكأن صحبة النبي ﷺ حصلت معنى فإنه كان يشاهد توجه النبي ﷺ في ذلك الأثناء. وظهرت نسبة كمالات النبوة في غاية الوسعة، وكثرة الأنوار، واتضح معنى قوله ﷺ: «**العلماء ورثة الأنبياء**» فكان الشيخ المذكور شيخه في الحديث وشيخه في الصحبة.

ثم رجع إلى الشيخ الحافظ سعد الله رحمه الله، خليفة الشيخ محمد صديق فاختار فيه خدمة حمل نعليه وصحبه اثنتي عشرة سنة وحاز فيها فوائد جمة، وحصلت وسعة في نسبته. وقد توجه إليه في تلك المدة مرة واحدة لعدم طاقته وقوته على التوجه لضعفه وكبر سنه، فرجع إلى حضرة شيخ الشيوخ الشيخ محمد عابد السنامي قدّس سرّه فاستفاد منه إلى ثماني سنين. وقال: استفدت الولايات الثلاث مع كيفياتها ومعلوماتها وارداتها من السيد قدّس سرّه واكتسبت الكمالات الثلاثة والحقائق السبعة وغيرها بتوجهات الشيخ عابد رحمه الله في مدة سبع سنين. ثم توجه إليَّ من جميع المقامات من أولها إلى آخرها في سنة واحدة وسلك بي فيها بالسير المرادي، فحصلت فيَّ كيفيات جميع المقامات وحالاتها قوة أخرى، فأجاز

له الشيخ عابد في الطريقة القادرية والجشتية والسهروردية أيضاً وبشره بضمنينه المعروفة عند هذه الطائفة الموروثة ممن قال له النبي عليه الصلاة والسلام: «ما صبَّ الله في صدري شيئاً إلاَّ صببته في صدر أبي بكر»(١). وقال: «ما فضَّلكم أبو بكر بفضل صوم ولا صلاة، وإنما هو بشيء وقر في نفسه»(٢). وقال مرة في حقه حين كونه قاعداً في مقابلته: «إن شمسين قد تقابلتا»(٣) لا يمكن تمييز إحديهما عن الأخرى من غاية تشعشع أنوارهما، فإن توجهتا لتربية الطالبين لنوّرتا العالمين.

وقال شيخه الحافظ سعد الله في حقه: أنت بمنزلة والدي. وسوّى السيد يوماً نعله وقال: إن لك قبولاً تاماً عند الله. وقام له شيخه محمد أفضل وقال: قمت تعظيماً لنسبتك. وقال الشيخ ولي الله المحدِّث الدهلوي: إن جميع وجه الأرض عندنا كخطوط الكف، لا يخفى علينا شيء من أحوالها، وليس في هذا الوقت مثل مرزا جانجانان أحد في إقليم من الأقاليم ولا في بلدة من البلاد.

وبالجملة: استقر في مسند الإرشاد والخلافة بأنواع الكشوف والتصرفات والكمالات بعد شيوخه الأربعة وتزيَّن مسند الخلافة بوجوده المسعود، وتعلَّق ترويج الطريقة بذاته المحمود. فرجع إليه الطالبون من كل الجهات والجوانب، وشاع ذكره بين الأصحاب والأجانب، وجلس في مسند الإرشاد ودعوة العبَّاد إلى ثلاثين سنة بكمال الاتباع للسنَّة النبويَّة وغاية الاستقامة في الطريقة الأحمدية ونور العالم بفيوضاته الباطنية الأسعدية.

* * *

ومن أنفاسه القدسيَّة

إن الاشتغال بالطريقة إنما هو لحصول المحبة الإلٰهية، ويكون فرط المحبة أحياناً من المواهب، ولكن المداومة على الذِكر من فرائض طريق أولياء الله تعالى، فينبغي الإكثار من الذكر بترك جميع مرادات النفس، فإن القلب لا ينجلي من غير

(١) أورده الزرعي في نقد المنقول، فصل ما وضع في فضائل الصديق رضي الله عنه، حديث رقم (١٤٥) [١/ ١٠٤] وأورده العجلوني في كشف الخفاء، وباب فضائل أبي بكر [٢/ ٥٦٥].

(٢) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٢٢٢٨) [٢/ ٢٤٨] والهروي في المصنوع [١/ ٢٨٤].

(٣) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

ذكر كثير فإن ظهرت غيبوبة أو كيفية أخرى في أثناء الذكر ينبغي أن يجتهد في حفظها، فإن اختفت ينبغي أن يجتهد في الذكر ثانياً بتمام التضرُّع وكمال الانكسار ليداوم السالك على الذكر بهذا الوجه حتى يحصل له دوام الكيفية والحضور.

وقال: إن الإيمان الإجمالي بأن يقول: آمنت بالله وبرسوله وما جاء به النبي ﷺ من عند الله، وأحب ما يحبه الله ورسوله، وأبغض ما يبغضه الله ورسوله كاف في النجاة وإثبات كل مقدمة بدليل، إنما هو شأن العلماء المتبحرين وليس عامة المسلمين مكلفين بذلك.

وقال: إن تعظيم أولياء الله تعالى ومحبة عامة المشايخ الكرام لازم، ومن اعتقد في شيخه أفضلية على غيره من فرط محبته له لانتفاعه به واستفادته منه لا يستبعد ذلك منه.

وقال: إن العمل بالعزيمة وتحري طريق التقوى في غاية التعذر في هذا الوقت لفساد المعاملات، وكأن العمل بموافقة الشرع الشريف صار موقوفاً، فإن نيسّر العمل بموافقة الرواية الفقهية وطبّق ظاهر الفتوى مع اجتناب محدثات الأمور والبدع فهو غنيمة في هذا الزمان.

وقال: ينبغي للسالك أن يعمّر أوقاته ويستغرقها بالذكر والعبادة وحفظ مدركته عن الالتفات إلى السوى، وصون سرّه وهمّته عن التوجه إلى غير مفهوم لفظ الجلالة حتى تكون ملكة حضوره راسخة.

وقال: إن حاصل هذه التكلُّفات هو تهذيب الأخلاق على وفق مكارم صفات النبي ﷺ، فإنه ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: الآية ٤]. وقد ورد في الحديث: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»(١). وتنقص الصفات البشرية من تكرار النفي والإثبات، وطريقته: أن ينفي كل صفة من الأوصاف الذميمة على حدة بكلمة: لا، عند تكرار الكلمة الطيبة أياماً، وأن يثبّت مكانها حب الله تعالى حتى تزول عنه تلك الصفة الذميمة. وينبغي كسب المقامات على خلاف هوى النفس فعسى أن تبدل الذمائم

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى، باب بيان مكارم الأخلاق...، حديث رقم (٢٠٥٧١) [١٠/ ١٩١] والقضاعي في مسند الشهاب (٧٣٦ إنما بعثت...) حديث رقم (١١٦٥) [٢/ ١٩٢].

بالمحامد عند رعاية ذلك.

وقال: إن الحق أن الصفات الرذيلة تنكسر قوتها بعد التصفية والتزكية. وأما استئصالها بالكلية فليس ذلك بممكن، فكيف وقد ورد في الحديث: «**إذا سمعتم أن جبلاً انقلع عن مكانه فصدقوه، وإذا سمعتم أن جبلة أحد زالت عنه فلا تصدقوه**»[١] ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: الآية ٣٠]. وقال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن غضبي لم يزل عني ولكن كان أولاً في كفر صرف والآن يظهر في حماية الإسلام.

وقال: إن دوام المراقبة يورث القوة في نسبة الباطن وأشراف الملك والملكوت ينظر الموهبة، وكثرة ذكر التهليل تورث فناء الصفات البشرية، والإكثار من الصلوات على النبي ﷺ يورث الواقعات الحسنة ويحصل الانكسار والتواضع من كثرة النوافل، ويزيد النور والصفاء من كثرة التلاوة وذكر التهليل مفيد في الطريقة بشرط ملاحظة المعنى. وأما مجرد تكرار اللفظ فهو من بضائع ثواب الآخرة.

وقال: إن التكثير من تكرار اسم الذات مثمر لنسبة الجذبة الإلٰهية، ويفيد النفي والإثبات في السير والسلوك وقطع مسافة الطريق.

وقال: إن إدراك كيفيات الحالات الباطنية يرى محظوظاً في مرتبة الولايات، وأما في مرتبة كمالات النبوّة فلا شيء يوجد من أوصاف الباطن غير النكارة والجهالة، وأما فيما فوق كمالات النبوّة وإن كانت اللطافة واللالونية لازمة فيه، لكن يمكن فيه إدراك كيفيات الأحوال في الجملة.

وقال: إن لطافة النسبة المجددية ولا لونيتها سبب لإنكار الناس عليها، ولذلك إذا وصل سير السالك إلى الكمالات يحصل لي شك وتردد أنه: هل ترك الطريقة وانقطع عن السير والسلوك فإن وفّى العمر أوصل السالكين إن شاء الله من المقامات السافلة إلى المقامات العالية.

وقال: ومن أجلّة النعماء الإلٰهية في حق الفقير سوقه عبده هذا نحو المشايخ المكرمين وإثبات محبتهم ورسوخ عقيدتهم في قلبي، خصوصاً السيد والشيخ عابد

---

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

رحمهما الله، وإن لم أجد شرف صحبة رسول الله ﷺ ولكن أشكر الله سبحانه ألف ألف مرة على حصول سعادة صحبة هؤلاء الأكابر نائبي رسول الله ﷺ، وقد حصل بذلك ثمرة الحياة.

وكان قدّس سرّه موصوفاً بكمال الزهد والتوكل، وكان له استغناء تام عن الدنيا وأهلها. وكان لا يقبل هداياهم إلاّ قليلاً. وكان يقول: وإن ورد المنع عن رد الهدية ولكن لم يرد الأمر بوجوب أخذها أيضاً، رما هو يقين الحلية فآخذه بركة فإن جاء أحد من أصحابي بشيء من الهدايا على وجه الإخلاص والاحتياط فاقبله، وأما هدايا الأمراء والأغنياء فلا يخلو أكثرها عن شبهة تعلق حقوق الناس بها وما هو كذلك يعسر الخروج عن عهدة حسابه يوم الحساب لما ورد في «سنن الترمذي»: «**لا يزول يوم القيامة قدما ابن آدم حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وماذا عمل فيما علم**»[1]، فالتأمل في أخذ الهدايا ضروري.

قيل: كان مرة في أيام شدة البرد مرتدياً برداء خَلِق فقط، وكان النواب خان نيروزجنك حاضراً فيه، ففاضت عيناه بالدموع من مشاهدة هذا الحال وقال لواحد من مصاحبيه: ما أسوأ إقبالنا وما أبعدنا عن السعادة حيث إن ولياً من أولياء الله قد ثبت انتسابنا إليه ومع ذلك لا يقبل هديتنا! فقال له حضرة مولانا: إني نويت الصوم من قبول هدية الأغنياء وقد حان الآن وقت غروب شمس العمر، فإن أفسدت صومي يلزم عليَّ لكفارته عشرة لكوك من الروبية.

وكان يقل أيضاً من أكل طعامهم قائلاً: إن ظُلمة طعامهم تكدر نسبة الباطن، ولهذا قيل: شر الطعام طعام الأغنياء.

وكان قدّس سرّه ذا كشف صحيح، وفراسة صادقة، قال: إني أعرف الناس من نظرهم أنه ما جوهره الإنساني، وكيف استعداده، وذلك بيُمن تربية والدي الماجد، وأقرأ بنور الطريقة حرف السعادة والشقاوة من جبينهم فأميز بذلك الجنتي عن الجهنمي.

---

(١) رواه الترمذي في سننه، باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص، حديث رقم (٢٤١٧) [٤/ ٦١٢] والطبراني في الأوسط برقم (٧٥٧٦) [٧/ ٣٠٧] ورواه غيرهما.

وكان بيانه من الكشف الكوني والكشف القلبي وكشف القبور وكشف المقامات يطابق الواقع، وتفصيله ينجر إلى التطويل، وفي ذلك كفاية للمكتفي.

ولما انتفع به ألوف من الرجال وتشرّف زهاء مائتين بالإجازة والخلافة وبلغ من جملتهم خمسون رجلاً نهاية المقامات الأحمدية وصاروا أدلاء أرباب الطريقة العلية، وحان له من هذا الحضيض الرحيل، نودي إلى جوار الملك الجليل وقرع مفرعة التحويل، فتوفي شهيداً ليلة السبت العاشرة من محرم بعد المغرب سنة خمس وتسعين ومائة بعد الألف رحمه الله رحمة واسعة وقدّس سرّه ونوّر ضريحه، وأرَّخوا سنة وفاته بهذه الكلمات: عاش حميداً، ومات شهيداً. وأيضاً بقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ [النساء: الآية ٦٩]. ودفن في بلدة دهلي يُزار ويُتبرك به.

* * *

*** قطب فلك الإرشاد وغوث الأبدال والأوتاد مجدِّد المائة الثالثة عشر، نائب خير البشر، مولانا الشيخ عبد الله المشتهر بشاه غلام علي الدهلوي قدِّس سرّه:**

ولادته سنة ثمان وخمسين وألف في قصبة تبالة من نواحي بنجاب. يتصل نسبه بسيدنا عليّ كرَّم الله وجهه. وكان والده الماجد الشيخ عبد اللطيف رجلاً مرتاضاً كثير المجاهدة. رأى قبل ولادة الشيخ عبد الله سيِّدنا عليّاً كرَّم الله وجهه في منامه يقول: سم ولدك باسمي. ولما وُلد سماه علياً. فلما بلغ سن التمييز سمى نفسه بـ:غلام علي، تأدباً، واشتهر به.

وكان له عم جليل القدر حفظ القرآن الكريم في شهر واحد، فسماه بـ:عبد الله بأمر رسول الله ﷺ ـ ولعله في المنام أو في المبشرات ـ. طلبه والده عن وطنه الأصلي لأخذ البيعة عن شيخه ناصر الدين القادري، وكان ممن صحب الخضر عليه السلام، فتوفي هذا الشيخ ليلة وصوله إليه بقضاء الله سبحانه وتعالى فقال له والده: كنت طلبتك للبيعة فلم تتيسر فخذ الطريقة الآن ممن تشم منه رائحة الرجال. فتردد إلى مشايخ دهلي الموجودين في ذلك الوقت، مثل الشيخ ضياء الله، وشاه عبد العدل خليفتي خواجة محمد زبير وخواجة مير درد ولد خواجة ناصر المولوي فخر الدين، وشاه تانوا، وشاه غلام من السادات الجشتية وسائر الأعزّة. ولكن لم يطمئن قلبه إلى واحد منهم.

ولما وصل إلى خانقاه مولانا مظهر الشهيد سنة سبعين ومائة وألف، وكان عمره إذ ذاك قد بلغ اثنتين وعشرين، أنشد لسان حاله على حسب حاله: [شعر]

وجدت لسجدات المحبة سدّة وحين قصدت الأرض ألفيت أفلاكا

فالتمس منه الطريقة، فقال له: اذهب إلى محل فيه ذوق وشوق فإن هنا لحس حجر بلا ملح. فقال: هذا هو المنظور لدي. فقال له السيد: إذاً يبارك لك. فبايعه في حينه وواظب على حلقة الذكر والمراقبات إلى خمس عشرة سنة بكمال الرياضات والمجاهدات الشاقة، والصبر على الفقر والفاقة مع الإكثار من الأذكار والمداومة على الاستغفار وكانت وظيفته اليومية من النفي والإثبات عشرة آلاف، وتلاوة القرآن عشرة أجزاء غير التهليل اللساني، واسم الذات وسائر الأوراد والصلوات.

وقد قاسى الشدائد في بداية حاله وكان له أولاً شيء من وجه المعاش، فتركه واختار التجريد والتوكل ولم يترك في حجرته شيئاً غير حصير بال ولبنة يضع رأسه عليها. قيل: أغلق باب حجرته مرة من داخل وقال: إن مت مت في هذه الحجرة. فوصل إليه تأييد إلهي وجاء شخص وقال: افتح الباب، فلم يفتح، ثم قال: افتح الباب فإن لي معك شغلاً، فلم يفتح، فرمى روبيات من شقّ الباب ومضى، ففتح له باب الفتوح من هذا اليوم وكان يعمل على وفق الحديث النبوي، وأخذ السند في الحديث من أولاد الشيخ ولي الله المحدّث الدهلوي، وحفظ القرآن عند مرشده، ولكن كان يخفيه عن الناس ولا يطلع أحداً عليه. وكان قليل المنام، وقليل الطعام، فإذا رأى أحداً من أصحابه في نوم الغفلة وقت التهجد كان يوقظه. وكان الأغنياء يرسلون إليه أطعمة مطبوخة بالتكلفات، فلم يكن يأكل منها بل كان يكره أكلها للطالبين أيضاً وكان يقسمها على جيرانه.

وكان يحيي أكثر الليالي بالذكر والمراقبة، وكان نومه قعوداً على هيئة الاحتباء، ولم يكن يمد رجليه من غاية الحياء إلا قليلاً حتى كان موته على هيئة الاحتباء، وكانت غلبة الحياء عليه على وجه لم ينظر إلى وجهه في المرآة فضلاً عن النظر إلى وجوه الناس. وكان بعض أرباب الحاجة يأخذ شيئاً من أملاكه من غير إذنه، فإذا رآه كان يقلب وجهه إلى جهة أخرى تغافلاً عنه. وكان بعضهم يأخذ واحداً من كتبه ثم يجيئون بذلك الكتاب للبيع عنده فيعطي قيمته ويأخذه، فإذا قال له

شخص أحياناً: إن هذا الكتاب من كتبكم والعلامة موجودة فيه، كان يمنعه بالعنف ويقول: إن كاتباً واحداً يكتب كتباً متعددة فيجوز أن يكون مثله لا عينه. وكان يلبس الثياب الخشنة، فإذا أرسل له شخص ثوباً نفيساً كان يبيعه وكان ذلك عادته الكريمة في سائر الأشياء، فيشتري بثمنه ثياباً متعددة ويتصدق بها ويقول: إن انتفاع أشخاص أفضل من انتفاع واحد.

ولم يكن يذكر شيئاً من الدنيا في مجلسه الشريف، وكان مجلسه مثل مجلس سفيان الثوري، فإن تكلم فيه أحد بغيبة شخص كان يقول: إن أحق الناس بالذكر بالسوء أنا.

ذكر شخص مرة السلطان شاه عالم بسوء، وكان هو قدّس سرّه صائماً، فقال: يا أسفاً لقد ذهب الصوم. فقال له أحد الحاضرين: إنكم ما ذكرتم أحداً بسوء! فقال: نعم ما قلت شيئاً ولا ذكرت أحداً بسوء ولكني استمعت والمستمع شريك القائل.

وكان عادته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان لا يأخذه في ذلك لومة لائم. وكان الملوك والصعاليك سواسية عنده في ذلك، وكان تركه وتجريده على وجه كان سلطان الوقت وسائر الأمراء كثيراً ما يتمنون تعيين شيء لخرج الخانقاه فلم يقبل ذلك منهم أصلاً وكثيراً ما كان يقول: إن مطمعنا ومطمح نظرنا المواعيد الإلٰهية. قال الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝﴾ [الذاريات: الآية ٢٢] فكفى الله جميع مهماته الدنياوية والدينية، وأرسل مصارف رباطه من الغيب حتى كان يأكل من رباطه زهاء مائتين تقريباً، وكان معاشهم يتهيأ على الوجه الأحسن. وكان يقول: إن في الفقر فاء الفاقة، وقاف القناعة، وراء الرياضة، فمن أعطى كلاً منها حقها فقد نال فاء الفضل الإلٰهي، وقاف قربه تعالى، وراء رحمته سبحانه، وإلا فقد حصل له فاء الفضيحة، وقاف القهر، وراء الرذالة.

وقال: لا بد في هذه الطريقة من أربعة أشياء: اليد المكسورة، والرِجل المكسورة، والدين الصحيح، واليقين الصريح. فاليد المكسورة: إن لا تمدها إلى الأغيار بالسؤال، والرِجل المكسورة: إن لا تذهب بها إلى باب الأغنياء تاركاً باب المولى المتعال، والدين الصحيح: ما لا ينقص من آدابه شيء. واليقين الصريح: ما لا يعتريه شك.

وقال: إن طالب ذوق وشوق وكشوف وكرامات ليس بطالب الله. وقال: إن الصوفي من جعل الدنيا والآخرة وراءه وأقبل بكليته إلى مولاه، وقال: إن البيعة على ثلاثة أقسام: بيعة للتوسل بالمشائخ الكرام، وبيعة للتوبة عن المعاصي والذنوب العظام، وبيعة لكسب النسبة والوصول إلى مرتبة الرجال الفخام.

وقال: إن الناس على أربعة أقسام: عديم المروة، وصاحب المروة، وصاحب الجود والفرد. فعديم المروة: هو طالب الدنيا، وصاحب المروة: هو طالب العقبى، وصاحب الجود: هو طالب العقبى والمولى، والفرد: هو طالب المولى فقط.

وقال: إن الأولياء على ثلاثة أقسام: أرباب الكشف والعرفان، وأرباب الإدراك والوجدان، وأرباب الجهل والنكران. يعني بالأحوال الحاصلة والعرفان.

وقال: إن العقل النوراني ما يدل على المقصود من غير دلالة أحد، والظلماني: ما يسلك الطريق بمصباح هداية المرشد.

وقال: ينبغي للطالب أن لا يغفل عن المطلوب لمحة. [شعر]

هذا شراب محبة يا خسرو   من غير بذل الروح كيف تذوقه

وقال: حب الدنيا رأس كل خطيئة، ورأس كل خطيئة كفر. فينتج عن هاتين المقدمتين: إن حب الدنيا كفر. وقال: إن علامة زوال العين أن لا يقدر السالك على أن يقول: أنا، كما قال الخواجة عبيد الله أحرار قدّس سرّه: ما أيسر أن يقول: أنا الحق، وما أعسر إزالة: أنا وما أشكلها.

وقال: إن في الطريقة المجددية أربعة أنهار جارية: النقشبندية، والقادرية، والجشتية، والسهروردية. لكن الأولى غالبة.

وقد بلغ قدّس سرّه مرتبة التعشُّق برسول الله عليه السلام، فإذا ذكر اسمه الشريف عنده كان يضطرب من شدة وجده به، وكان له نهاية الذوق من أسرار القرآن العظيم، وكان يستمعه في صلاة الأوابين والتهجد من الشيخ أبي سعيد قدّس سرّهما، فإذا استمعه كثيراً في أوقات الشوق كان يمرض من الوجد ويقول: يكفي لا طاقة لي على الاستماع أزيد من ذلك. وكان يستمع أحياناً أشعار الأشواق ويعرض له الوجد من ذلك، ولكن لما كان كالجبل في التمكين كان يضبط نفسه عن إظهاره

ويقول: إن أبا الحسين النوري كان مرة يرقص وسيد الطائفة الجنيد قاعد فيه فقراء النوري إنما يستجب الذين يسمعون فقراء الجنيد ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: الآية ٨٨]. فإن الجنيد كان في نهاية الاستقامة ولذلك ضبط نفسه عما يخالف السنة. وكان تواضعه وانكساره مع وجود هذه الكمالات على مرتبة إذا دخل كلب بيته كان يقول: إلٰهي مَن أنا حتى أتوسل إليك بأوليائك فارحمني بحق مخلوقك هذا. وكذلك إذا جاءه شخص لطلب الحاجة كان يتقرّب به إلى الله تعالى. فجلس بهذه الكمالات في محل شيخه على مسند الإرشاد لهداية العباد، وتوجه الطالبون إليه من جميع البلاد من الأقطاب والأوتاد بعضهم بأمر النبي ﷺ في المنام، مثل السيد إسماعيل المذنيب، والشيخ أحمد الكردي وبعضهم، دلالة أكابر الأنام مثل مولانا الشيخ خالد الرومي، والشيخ محمد جان الباجوري وغيرهم قدّس سرّهم.

والحاصل: إن خوارق عاداته وكشوفه وكراماته وكثرة إرشاده خارجة عن حد البيان ومستغنية عن التبيان. وقد انتشر خلفاؤه وخلفاء خلفائه في جميع أقطار الأرض شرقاً وغرباً، عجماً وعرباً، ولا يزالون متزايدين على مرور الأزمان والأيام ولا يخفى ذلك على من ﴿كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق: الآية ٣٧].

وما انفك ينتسب إليه من الخواص والعوام من أدركه اللطف الإلٰهي وهو عند الله سعيد على رغم من أنكر فضلهم لخبث باطنه، وهو عن السعادة بعيد. ولنورد هنا شيئاً من قصائد قطب ديار الروم ذي الجنا حسين مولانا خالد الرومي الكردي الشهرزوري في مدحه قدّس سرّهما على وجه التبرك والاسترشاد والتيمُّن والاستشهاد. [قصيدة]

كملت مسافة كعبة الآمال ... حمداً لمن قد منَّ بالإكمال

وأراح مركبي الطليح من السرى ... ومن اعتوار الحط والترحال

إلى أن قال وأنالني أعلى المآرب والمنى ... أعني لقاء المرشد المفضال

من نور الآفاق بعد ظلامها ... وهدى جميع الخلق بعد ضلال

أعني غلام علي القرم الذي ... من لحظه يحيي الرميم البال

تمثيله ما ساغ إلا أنه ... ما نالش الأدباء في التمثال

هو يم فضل طود طول والكرم ... ينبوع كل فضيلة وخصال

نجم الهدى بدر الدجى بحر التقى … كنز الفيوض خزانة الأحوال
كالأرض حلماً والجبال تمكناً … والشمس ضوءاً والسماء معالي
عين الشريعة معدن العرفان … عون البرية منبع الإفضال
قطب الطريقة قدوة الأوتاد … غوث الخلائق رحلة الأبدال
شيخ الأنام وقبلة الإسلام … صدر العظام ومرجع الأشكال
هاد إلى الأولى بهدى مختف … داع إلى المولى بصوت عال
محبوب رب العالمين من اقتدى … بهداه قل يا قدوة الأمثال
كم من جهول بالهوى مكبول … نجاه من لحظ كحل عقال
كم من ولي كامل من صده … قد صدّ عنه عجائب الأحوال
كم منكر لعلو شأنه قد رأى … فأذاقه المولى أشد نِكال
معطي كمال تمام أهل نقيصة … ومزيل نقص جميع أهل كمال
أخفاه رب العز جل جلاله … في قبة الإعزاز والإجلال
يا أهل مكة حوله در طائفاً … واهجر حجازاً إن سمعت مقالي
ومبيت خيف دع وركض محسر … ومني منا والرمي للأميال
واسكن بذا الوادي المقدّس خالعاً … نعلي هوى الكونين باستعجال
حجر مقامك بالمطاف بلا صفا … من طوف حضرة كعبة الآمال
ما السعي إلاّ في رضاه بملتزم … ما الطوف إلا حوله بجلال
إلى أن قال فاروق إله العالمين بحقه … أدباً يليق بذا الجناب العالي
وأمدنا بلقائه وبقائه … وعطائه ونواله المتوالي
زد من حياتي في إطالة عمره … أدم الورى بحماه تحت ظلال

إلى آخرها . . . توفي قدّس سرّه يوم السبت الثاني والعشرين من صفر بعد الإشراق سنة أربعين ومائتين وألف وهو قاعد على هيئة الاحتباء مستغرقاً في مشاهدة جمال المولى رحمة الله عليه رحمة واسعة. وتاريخ وفاته، نوّر الله مضجعه وغيره أيضاً فيما أنشدوه بالفارسية.

* * *

* جامع الكمالات الظاهرية والباطنية، واقف أسرار الطريقة والحقيقة، مظهر العناية الإلٰهية، حافظ حدود الشريعة على وفق القرآن المجيد، مولانا الشيخ أبو سعيد، ابن الشيخ الصفي القدر، ابن الشيخ عزيز القدر، ابن الشيخ محمد عيسى، ابن الشيخ سيف الدين، ابن الشيخ محمد معصوم، ابن الإمام الرباني المجدِّد والمنوِّر للألف الثاني قدِّس سرّهم:

ولادته: ثاني ذي القعدة سنة ست وتسعين ومائة وألف في بلدة مصطفى آباد من أعمال رامپور. وكانت آثار الرشد والسعادة وأنوار الولاية والهداية لائحة من جبينه في صغر سنه بحيث لم يره أحد في اللهو واللعب على ما هو عادة الصبيان.

حفظ القرآن في سن إحدى عشرة سنة، وتعلَّم التجويد عن القارىء نسيم عليه الرحمة، وكان جيد القراءة، حَسن الصوت، مراعياً لحسن الترتيل. وكل من سمع قراءته كان يغيب عن نفسه، وأخذ حظاً وافراً من العلوم النقلية والفنون العقلية. قرأ أكثر الكتب الدرسية على المفتي شرف الدين، وقرأ بعضها على مولانا رفيع الدين المحدِّث ابن مولانا الشيخ ولي الله المحدِّث الدهلوي، وأخذ سند الحديث عن شيخه الشيخ عبد الله الدهلوي وخاله مولانا سراج أحمد، وعن الشيخ عبد العزيز ابن الشيخ ولي الله الدهلوي.

وفرغ من التحصيل وهو ابن تسع عشرة سنة وأخذ النسبة النقشبندية عن والده الماجد في أيام تحصيله، ثم التحق بصحبة الشيخ شاه دركاهي بعد تشرّفه بصحبة والده بأمره. وتتصل نسبة الشيخ المذكور بالشيخ محمد زبير قدِّس سرّه بواسطتين. وكان له استغراق دائم بحيث لم يكن له شعور عن أوقات الصلاة، بل كان ينبهه الناس بذلك. وكانت حرارة نسبته الباطنية على حد إذا التفت إلى مائة رجل مرة واحدة كانوا يغيبون عن أنفسهم، فكان في خدمته وصحبته اثنتي عشرة سنة بالرياضات الشديدة والمجاهدات الشاقة مثل دوام الصيام وترك المنام وتقليل الطعام، والعزلة عن الأنام. وبذل الشيخ المذكور له عنايات جزيلة، ثم شرّفه بالإجازة والخلافة في أيام قليلة وأجلسه في مسند إرشاده، وظهر له عنده قبول تام فيما بين الأنام، واجتمع لديه خلق كثير حتى بايعه الأطراف وظهر في حلقته الغيبة والوجد والشوق والصيحات والاضطراب والزعقات.

ولما كانت هذه الأمور مخالفة للطريقة المجددية ولازمة الزوال والارتفاع

فيها، فإن طريقة المجدد هي حصول الاطمئنان والسكينة والوقار والتواضع والانكسار ودوام الحضور والاعتبار على ما عليه الصحابة الكرام في صحبة خير الأنام، حيث كان سماعهم في تلاوة القرآن، وحضورهم في الصلاة على وجه الإحسان، وشيمتهم: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» والعصيان ولا يتعاطاها كل زمَّار ورقَّاص ولا ينالها إلاَّ الخواص.

كان يلوح له أن المقامات المجددية لم تحصل بعد وقد وجد أصحاب مولانا الشهيد على هذا المنوال. ولقى مولانا الشيخ عبد الله الدهلوي في بلد رامبور ورآه على غاية من هذه الأحوال، وكلما يطالع مكتوبات الإمام الرباني كان عطشه يزيد وعزمه يتجدد. فجاء أخيراً إلى دهلى في ذلك الوقت مملوءاً بالعلماء المحققين مثل أبناء الشيخ ولي الله الدهلوي قدِّس سرّهم، وكان مولانا الشيخ القاضي ثناء الله الباني بتي الذي هو من أجلة خلفاء مولانا مرزا جانجانان قدِّس سرّه وأقدم أصحابه وخلصهم حتى قال في حقه: إذا سألني الله سبحانه يوم القيامة: بأي هدية جئت؟ أقول: جئت بثناء الله الباني بتي حياً في ذلك الوقت. فكتب إليه للاستشارة في باب اختيار المرشد. فكتب في جوابه بكمال التعظيم: لا أحد من المشايخ الآن مثل الشيخ غلام علي، فالتحق بصحبته فاستقبله الشيخ بالتعظيم والتكريم وأشار إليه بأن يجلس في مسند إرشاده، فقال: ما جئت لهذا، بل جئت للاستفادة والخدمة. فتلقاه بالقبول وأظهر له التفاتاً كثيراً.

وكان شيخه الأول الشيخ شاه دركاهي حياً في ذلك الوقت وكثيراً ما كان يقول: لو لم يكن مرشدي الثاني مثل حضرة الشيخ، كان الخوف من المرشد السابق كثيراً، ولكن ما وصل إلى ضرر في كنف حماية حضرة الشيخ. وقد كتب الإمام الرباني قدِّس سرّه في بعض مكاتيبه: إن الطالب إذا لم يجد رشده عند شيخ ورآه عند شيخ آخر يسوغ له أن يذهب إلى خدمته من غير إنكار على شيخه الأول. وأيّد ذلك بنقل من خواجة بهاء الدين قدِّس سرّه وقال: إنه أخذ في ذلك فتوى من علماء بخاري. وكان صاحب الترجمة راسخ الاعتقاد وكثير المحبة لشيخه الأول. وقال: كان فيه كدورة عليّ أولاً ولكن لما جئت إلى رامپور زالت كدورته بالتمام والحمد لله على ذلك.

ثم شرّفه الشيخ بالإجازة والخلافة في السلاسل الثلاث: النقشبندية،

والقادرية، والجشتية، بعد كونه في صحبته شهوراً وأحال عليه أكثر مريديه وأخذ عنه التوجه كبار أصحابه مثل مولانا خالد الرومي، والسيد إسماعيل المدني. وكثيراً ما كان يقول لمريديه: ينبغي أن تكون إرادة المريد مثل إرادته حيث ترك المشيخة واختار المريدية. وكان يبالغ في تعظيمه ومدحه، فإذا قدم من سفر كان يستقبله حتى كان مرة مريضاً حين قدومه من السفر فقعد على سريره وقال: إحملوني إليه لئلا يفوت الاستقبال. فحملوه إلى مسجد الحكيم قدرة الله الواقع خارج الخانقاه بفاصلة يسيرة، فأظهر له أنواع الالتفات والألطاف، فكان في صحبته الشريفة على هذا المنوال خمس عشرة سنة، وتشرّف ببشارات هذه الطريقة مثل الضمنية والقيومية المعروفتين عند هذه الطائفة.

وكتب رسالة لطيفة في بيان الطريقة باستدعاء بعض أصحابه وعرضها على شيخه فاستحسنها غاية الاستحسان، وكتب في آخرها سطوراً في مدحها، وهي مسطورة في آخرها، وهذه الرسالة الآن دستور العمل بين الطالبين في الطريقة المجددية المظهرية السعيدية، ولا بد منها للطالبين، وقد عرّبها بعض الأكابر في مكة المكرمة.

ولما عرض المرض للشيخ عبد الله الدهلوي قدّس سرّه طلبه مراراً بمكاتيب عديدة ليجلسه في مسند إرشاده، وكان وقتئذ في بلدة لكنهو. ومما كتب إليه هذا المكتوب ننقله من رسالة مولانا الشيخ عبد الغني ابن الشيخ أبي سعيد قدّس سرّهما:

وبعد الحمد والصلوات، فليعلم أن المقامات والاصطلاحات التي قررها الإمام الرباني المجدّد للألف الثاني قدّس سرّه تظهر في كل درجة منها كيفيات وأنوار وحالات وأسرار، واختيار الطريقة بدون تلك الأشياء عبث فلم يضيّعون العمر! فإن لم تكن المقامات العشرة من مقام التوبة إلى مقام الرضى حاصلة في باطن السالك ولازمة فيه، فما الفائدة من هذه الطريقة؟ ويحصل في سير لطائف عالم الأمر أنواع الكيفيات، ويحصل في سير اللطيفة القلبية ـ أعني مراقبة الأحدية الصرفة ومراقبة المعية الغيبية والاستغراق وقطع التعلقات والمقتضيات الطبيعية وغيرها ـ ويحصل في سير لطيفة النفس الذي تستعمل فيه مراقبة الأقربية، والمحبة والاستهلاك والاضمحلال وارتفاع الأنانية وغيرها، ويرد الفيض في سير لطائف

عالم الخلق إلى العناصر الثلاثة سوى عنصر التراب، وتحصل المناسبة لتجليات اسم الباطن والملأ الأعلى عليهم السلام، وتهذيب اللطيفة القالبية. وفي الكمالات الثلاثة تحصل اللالونية ولطافة نسبة الباطن. وفي الحقائق السبعة تحصل وسعة الأنوار وبداهة ما كان نظرياً محتاجاً إلى الاستدلال وزيارة الأنبياء عليهم السلام في المنام أو في عالم المثال وأذواق المحبة الذاتية. [مصراع]

* إلى مَن يكون ميل ليلى وعطفها *

وقال آخر:

وما كل عبد يشتريه الخلائف   وما كل مَن تحت الثياب رجال

فإن نال سالك هذه الطريقة أمثال هذه العلوم والمعارف فمباركة له، وإلاَّ فقد اكتسب العجب والأنانية، فويل له، فكل من حصل في صحبته نلك الحالات فيها ونعمت وإلاَّ فهو شين على الطريقة ويلحق به العار بالمشايخ الكبار، والعجب من المريدين يشينون الطريقة ويزعمون أنهم أصحاب إرشاد، هداهم الله سبحانه إلى رضائه واشتياق لقائه آمين الحمد لله.

إن المولوي بشارة الله، صاحب الحافظ أبا سعيد صاحب سلّمهم الله وجعلهم سبباً لإشاعة الطريقة، قد حصّلوا مناسبة تامة لهذه المقامات، ورزق الله سبحانه وتعالى سائر الأعزَّة توفيق الاستقامة واتباع السنَّة ومحبة المشايخ والترك والإنزواء واليأس عن الخلق والرجاء من الحق سبحانه. وأسأله سبحانه هذه الحالات لي ولجميع أحبابي، وها أنا أكتب بألف انفعال ما يكتبه المشايخ في تحرير الإجازات من كلا اللفظين، فأقول: إن يدهم أفضل من يدي والسعة إياهم التي هي أقوى ذرائع السعادات والنجاة بيعة إياي يبارك الله فيهم بشرط الإعراض عن أهل الدنيا والقعود على باب الحق مكسور الرجل بتصديق وعد الكريم المطلق، وهم أركان طريقتي، وحاصل توجهاتي في طول عمري. اللهمَّ وفِّقني وإياهم لمرضاتك ومرضات حبيبك ﷺ واجعل آخرتنا خيراً من الأولى آمين آمين آمين.

وهذا أيضاً خدمة صاحب زاده عالي النسب، سامي الحسب، حضرة شاه أبي سعيد صاحب: سلّمكم ربّكم، السلام عليكم ورحمة الله، وقد استولى في تلك الأيام على الفقير مرض الحكة والضعف وشدة التنفس حتى عسر القعود والقيام على أنه قد عرض الوجع في الخاصرة من مدة زمان بحيث لا أتمكن من الصلاة على الإقعاء.

وقال الشيخ رفيع الدين: إن حضور أحد هذين ـ يعني المولوي بشارة الله ومولانا الشيخ أبا سعيد قدّس سرّهما ـ عندك على سبيل البدلية ضروري فمجيئكم في هذا الوقت في غاية المناسبة، فأوصل نفسك هنا مسرعاً. وقد استأذن المولوي بشارة الله لتمريض أهل بيته فمجيئه غير معلوم وقد أرسلت قبل هذا مكاتيب عديدة في طلبكم مع تبركات جديدة، ومن العجب عدم قصدكم للمجيء هنا، فإن الصحة مستحيلة للفقير بحسب الظاهر ويا أسفاً على تأخركم هذا القدر. [مصراع]

* وقد مال الملاح إلى المطال *

وأرى أن منصب آخر مقامات هذه الطائفة متعلق بكم، ولقد رأيت قبل ذلك في المرض السابق: إنك قاعد على سريري وشرّفوك بعطاء قيومية هذه الطريقة ولا قابلية لأحد غيرك لهذه التوجهات الغريبة والعجيبة، فبمجرد وصول هذا الكتاب توجه إلى هذا الجانب وأجلس مكانك هناك الشيخ أحمد سعيد وليكن ممداً بالدعاء بحسن الخاتمة ولقاء رب العزّة، ومشغولاً بالصلوات والاستغفار، وتكرار الكلمة الطيبة، وختم القرآن المجيد، وختم المشايخ الكبار واتباع سنن المصطفى ﷺ.

فحضر عنده حين حياته امتثالاً لأمره وجلس في مسند إرشاده بعد مماته بكمال التمكن والاستقامة، وتوجه إليه الطالبون من أطراف العالم وأكناف الأرض مثل الجراد، فصار واسطة فيضان الفيض الإلٰهي على قلوب السالكين وتشمّر لترويج الشريعة المصطفوية وتمهيد الطريقة النقشبندية الأحمدية مثل آبائه الكرام وأجداده العظام، وتجرّع مرارة الفقر والفاقة التي هي من لوازم هذه الطريقة العلية وشيمتها المرضية، بسبب كمال إيثاره الجبلي.

وكان موصوفاً بالأوصاف الحميدة والأخلاق الجميلة، مثل: المسكنة، والانكسار، والتواضع، والوقار. وحفظ مراتب الأنام مع نهاية الاشتغال والتحمُّل والصبر، وكان تحمُّله على حد لو كان أحد مثلاً منكراً على شيخه الشيخ عبد الله الدهلوي، كان يظهر المحبة له لغاية تحمله.

وجلس في مسند الإرشاد على هذا الوجه تسع سنين تقريباً، ثم توجه إلى الحرمين الشريفين سنة تسع وأربعين ومائتين وألف لأداء الحج، وأجلس مكانه خلفه الصدّق الشيخ أحمد سعيد قدّس سرّه. واغتنم مقدمه الشريف أهل كل بلد، ولما وصل إلى أرض الحجاز استقبله الشيخ محمد جان الباجوري عليه الرحمة والغفران، خليفة الشيخ عبد الله الدهلوي من جده، وكان بمنزلة شيخ الحرم في وقته، وقبره في

المعلى وراء قبة سيدنا عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنهما.

ولما دخل مكة المكرمة استقبله عظماء البلدة المكرّمة من القضاة والمفتين، وسائر العلماء والأمراء بكمال التعظيم ونهاية التكريم. وكانت مدة إقامته في مكة المكرمة قبل الحج وبعده ثلاثة أشهر تقريباً. وعرض له أنواع الأمراض من الإسهال والحمى في محرم الحرام وبلد الله الحرام، وغلب عليه اشتياق توجه المدينة المنورة لزيارة سيد الثقلين عليه الصلاة والسلام، فتوجه هناك، وكان أيام المولد الشريف فيها، ونال من خير البرية ﷺ أنواع العنايات وصنوف الألطاف، ودخل في ربقة إرادته أكثر سادات البلدة الطيبة وشرفائها واستفادوا منه الطريقة العلية.

ثم توجه إلى وطنه المألوف بألوف من الفتوحات والفيوضات راجعاً، ولما دخل بلدة لونك من بلاد الهند الواقعة على إحدى عشرة مرحلة من دهلي، زاد مرضه وظهرت فيه سكرات الموت يوم عيد الفطر من سنة خمسين ومائتين وألف، فأوصى ولده الأوسط الأمجد الشيخ عبد الغني قدّس سرّه، وكان معه في هذا السفر، باتّباع السنّة والاجتناب عن أهل الدنيا وقال: إن ذهبت إلى باب أهل الدنيا تكن ذليلاً وإلاّ فهم يهرعون إلى بابك مثل الكلاب. وقال: قد أجزتك بل أجزت عبد المغني بكل ما وصل إليّ من الأشغال والأوراد.

ثم قال: وقت أية صلاة هذا؟ فقال له المولوي حبيب الله: أية صلاة يريدها جنابك فلتصلّ - يعني وقت مباح - فقال: قد مضت هذه الليلة بتمامها في الصلاة. ثم أمر القارىء بقراءة سورة (يٰس) بعد الظهر، فاستمعها منه ثلاث مرات، ثم قال: يكفي، ما بقي إلاّ قليل. وكانت مسبحته تتحرك بالشهادة، فطار طير روحه نحو عالم القدس ما بين الظهر والعصر يوم عيد الفطر سنة خمسين ومائتين وألف، فحضر النواب وأهل البلد وغسّله المولوي حبيب الله مع سائر أهل القافلة، وصلّى عليه القاضي خليل الرحمٰن مع سائر الناس، ثم حملوا تابوته إلى دهلي. ولما أخرجوا نعشه من الصندوق في دهلي بعد أربعين يوماً ووضعوه في اللحد صار معلوماً كأنه غسّل الآن ولم يتغيّر منه شيء، وكان القطن الموضوع تحت نعشه في غاية الطيب، فأخذه الناس للتبرّك. ودُفن في قرب تربة شيخه، الشيخ عبد الله الدهلوي، بحيث صار قبر الشيخ وسط قبر مولانا الشهيد، ومولانا الشيخ أبي سعيد قدّس الله سرّهم، وأفاض علينا من بركاتهم. وتاريخ وفاته ينور الله مضجعه وغير ذلك بالفارسية.

* * *

عمدة المشايخ الكرام

وزبدة الأصفياء العظام، مرشد الأنام، وغوث الأيام، مولانا الشيخ أحمد سعيد ابن مولانا الشيخ أبي سعيد عليهما الرحمة والرضوان

ولادته في غرة ربيع الآخر سنة سبع عشرة بعد مائتين وألف في بلدة مصطفى آباد من أعمال رامپور على ثماني مراحل من دهلی.

وكانت آثار السعادة والهداية وأنوار الرشد والولاية ظاهرة من طلعته السنية حين صغره، وحفظ القرآن بحسن تربية والده الماجد. وحين توجه والده إلى خدمة الشيخ عبد الله الدهلوي ما كان يبلغ عمره عشر سنين، فحضر عنده معه وأخذ منه الطريقة، فأحبه الشيخ حباً شديداً وأظهر له التفاتاً كثيراً لما تفرس من علو استعداده. وكثيراً ما كان يقول: قد طلبت ولداً من كثير من الناس فلم يسمح به أحد إلاّ الشيخ أبو سعيد فإنه أحال ولده عليَّ فجعلته بمنزلة ولدي.

فشرع في تربيته، وأمره بالجمع بين القال والحال. فحضر عند علماء وقته امتثالاً لأمره وكان يحضر في أوقات الحلقة عند شيخه، وربما كان لا يجد مكاناً في الحلقة لازدحام الناس، فإذا وقع نظره الشريف عليه كان يدعوه لديه بالإشارة ويجلسه في طرف مسنده ويتوجه إليه زماناً طويلاً بتمام قوته. فقرأ أكثر الكتب المتداولة من المنقول والمعقول والفروع والأصول على علماء وقته، وكان أكثر استفادته من المولى فضل الإمام والمفتي شرف الدين، وأخذ الحديث عن تلامذة الشيخ عبد العزيز المحدث ابن الشيخ ولي الله المحدث الدهلوي مثل المولوي رشيد الدين خان وغيره. وأخذ كتب التصوُّف مثل «الرسالة النقشبندية» و«عوارف المعارف» و«إحياء العلوم» و«النفحات» و«الرشحات» ومكتوبات الإمام الرباني قدِّس سرّه، و«المثنوي» لمولانا الرومي عن شيخه بعضها بالقراءة وبعضها بالسماع. وقرأ عليه أيضاً بعض كتب الأحاديث مثل «سنن الترمذي» و«مشكاة المصابيح» وغيرهما.

وأدرك الشيوخ الثلاثة ـ أعني الشيخ عبد العزيز، والشيخ رفيع الدين، والشيخ

عبد القادر ـ أبناء الشيخ ولي الله المحدث الدهلوي رحمهم الله تعالى. وكان يحضر عندهم إما للزيارة وإما لتحقيق مسألة دقيقة، وإما لاستخراج معاني أشعار عربية وكانوا يعظّمونه غاية التعظيم. وأخذ سند الحديث عن الشيخ عبد العزيز، وقرأ بعض الكتب على خال والده المولوي سراج أحمد بن محمد مرشد بن محمد أرشد، بن فرخ شاه، بن محمد سعيد، ابن الإمام المجدد قدّس سرّهم، وكان عالماً عارفاً. وأخذ عنه سند الحديث المسلسل بالأولية إلى الإمام الرباني بواسطة آبائه الكرام المرقومين، ومنه إلى سيد الأنام سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

وتلمذ أيضاً على المولوي نور، وكان المولوي المذكور عالماً ذا نسبة قوية، وكان صاحب الترجمة يحيي أكثر الليالي بالمطالعة في أوان تحصيله، فإذا رآه والده الماجد في المطالعة عند قيامه للتهجد كان يقرأ هذا الحديث: «**إن لنفسك عليك حقاً، ولعينك عليك حقاً، ولزوجك عليك حقاً**» الحديث. ومع هذه الاشغالات كلها كان لا يترك الذكر والفكر والمراقبة وحضور الحلقة في أوقاتها أصلاً، وكان يأخذ التوجه عن والده الماجد بأمر شيخه عند المفارقة الصورية والمهاجرة الضرورية منه، بل في حضوره أيضاً.

وقال: أخذت التوجه عن والدي من جميع المقامات، وقرأت عليه بعض الكتب، ولذلك كان يكتب اسمه الشريف بعد شيخه في بيان سلسلته، وإلاّ فأصل بيعته وكسب نسبه وإجازته وخلافته من شيخه الشيخ عبد الله الدهلوي.

وبالجملة: فرغ من تحصيل المعقول والمنقول، والفروع والأصول، بكمال الاستقامة ونهاية المتانة قبل بلوغ عمره عشرين سنة، وأقبل بكليته على الطريقة العلية. وكان شيخه يقول له، من كمال عنايته له: إن التوجه ليس بمضنون منك حاضراً كنت أو غائباً. ولذلك عد مدة صحبته شيخه خمس عشرة سنة تقريباً.

وكتب الشيخ عبد الله الدهلوي قدّس سرّه في رسالته المؤلفة في حدود سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف: إن مولانا أحمد سعيد ابن الشيخ أبي سعيد قريب من والده في العلم والعمل وحفظ القرآن المجيد، وأحوال النسبة الشريفة، انتهى. وكان وقتئذ ابن عشرين، وكتب في مكتوبه أيضاً هكذا: سلّمكم الله سبحانه وتعالى أنتم الأربعة أنفار كلكم، فإن ارتباط المودة أفضل من القرابة، الشيخ أبا سعيد أسعده الله، الشيخ أحمد سعيد جعله الله تعالى محموداً، الشيخ رؤوف أحمد رأف الله به،

الشيخ بشارة الله جعله الله تعالى مبشراً بقبوله، بارك الله تعالى في عمر هؤلاء الأعزّة الأربعة وجعلهم سبباً لترويج الطريقة وكثّر أمثالهم آمين.

ونقل الشيخ محمد جان من لسانه أنه قال في حقه: إن هذا الولد أفضل من أبيه اهـ.

وبالجملة: قد تقررت رتبته عند شيخه بعد رتبة والده الماجد، بل فوقه باعتبار ما يؤول. وكان يحرر اسمه في كل كتاب كتبه في آخر عمره ويصفه فيه بعد وصف والده. ولا حاجة إلى الإطناب والتطويل، فإن المسك ما يفوح بنفسه لا ما يصفه العطّار، وقد فاح وراح.

ولما عزم والده الماجد على سفر الحج أجلسه على مسند إرشاده الذي هو مسند أشياخه من قبل كما مر، وقد أناف عمره إذ ذاك إلى اثنين وثلاثين، وفوّض إليه أمور الخانقاه كلها كلياتها وجزئياتها، ونظارة الكتب الموقوفة، فتزيَّن بوجوده المسعود مسند الطريقة المجددية: ونيط بذاته المحمود ترويج السيرة النقشبندية وإشاعة المعارف الأحمدية. فتوجه إليه الطالبون من أطراف شتى ونالوا منه حسب استعداداتهم فوائد جمة. ونشروا أنوار الهداية والعرفان في أطراف العالم من القرى والبلدان خصوصاً ممالك الهند وخراسان. وكان يحصل للطالبين في عدة أيام وساعات من قوة تصرفه وكثرة توجهه ما لا يحصل من صحبة غيره في مدة سنين وطول الأوقات.

وكانت همَّته مصروفة إلى الإفادة والاستفادة لئلا يبقى أحد محروماً. وكان يربِّي السالكين كلًّا منهم بما يناسب استعداده، خصوصاً وعموماً، ويحولهم من حال إلى حال إلى أن يرقِّيهم أوج الكمال والإكمال. وكان يسلك ببعضهم في ضمن درس علم القال ويأمر بعضهم بالانزواء والتبتل عن الرجال، ويترك بعضهم على حاله من الاشتغال، ويشرف بعضهم بالتوجه الغائبي على كل حال. وما كانت شفقته على الطالبين أقل من شفقة الأمهات على أولادهن حتى كان ظنّ كل من الطالبين أن لطفه الذي به ليس بغيره. وكان يتفقد أحوال كل منهم على حدة، ويعامل بهم على مقتضى الوقت والاستعداد. وكان لا يلوث الطالب الصادق بمتاع الدنيا الفانية، فإذا كان الطالب ضعيف الاعتقاد كان يداريه برعاية ظاهرية إلى أن تقوى حرارة طلبه.

وكان من يأكل الوظائف من أصحابه أزيد من ستين نفراً، وكان يحصل كفافهم

على أحسن الوجوه. وكان يشتغل أيضاً بتدريس العلوم الدينية وإفادة الحقائق اليقينية إلى طالب الحق جلّ وعلا من الحديث والتفسير والفقه والتصوُّف، خصوصاً مكتوبات الإمام الرباني ومثنوي مولانا الرومي عليهما الرحمة.

* * *

ومن أنفاسه النفيسة

قال: إن حصول هذه الحالات العالية، والوصول إلى الكمالات السامية، منوط بمحبة الشيخ المقتدى المفرطة والعقيدة الراسخة في المرشد المهتدي التي هي من جملة مواهب الحق سبحانه وتعالى حتى يحصل للسالك نقد الفناء في الشيخ الذي هو مقدمة الفناء المطلق، فمن شاهد في نفسه سمة منها ينبغي أن يغتنمها ويجتهد في إتمامها بالمحافظة على الآداب، ولذلك صارت وصية المشايخ الكبار بحفظ حرمة المرشد مقدمة على الكل فإنه أصل جميع أركان الطريقة الأنيقة وأساسها.

وقال: لا شيء للمبتدي أضر من التزوج، فمتى ابتلي بذلك أقبل على الدنيا، فمن أقبل على الدنيا أعرض عن المولى ويزول طلب الحق سبحانه عن قلبه كثيراً ما كان ينشد: [شعر]

تريد الله والدنيا الدنية ... وذاك من خيالات ردية

وقال: إن صحبة الأغنياء وأرباب التنعم سم قاتل للطالبين، ويحصل من صحبتهم سد ذي القرنين في مجاري الفيض، وتنسدل الحجب الظلمانية الكثيفة على وجه القلب. أما ترى كيف وصّى رسول الله ﷺ محبوبته أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضي الله عنها وعن أبويها حيث قال: «**إياك ومجالسة الأغنياء وأحبّي المساكين وقرّبيهم**»(١)، بل كان لا يحب أن يجلس الطالب كثيراً فيما بين الفقراء وإخوان الطريقة أيضاً.

وقال: ينبغي لمريد الحق أن لا يلتفت إلى أحد بل يتنفر عن غيره تعالى.

وقال: كان باب حجرة مولانا قدّس سرّه مغلقاً من ابتداء حضوره صحبة الشيخ قدّس سرّه إلى وقت رجوعه وما كان يخرج من غير ضرورة ولذلك فاز بمرتبة عالية.

---

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

ينبغي لمريدي الحق أن يكونوا كذلك، وقد كان في مريدي أشخاص على هذه الصفة فوصلوا بسببها إلى مرتبة الكمال.

وقال: قد اشتهر بين الناس أن الإمام الرباني منكر للتوحيد الوجودي، وهذا غلط وخطأ منهم، حاشاه عن ذلك، بل هو يقول: إن التوحيد الوجودي من معارف مرتبة القلب وأربابه من أهل الولاية، لكن الكمال وراء ذلك وهو ظهور أن العبد عبد والرب رب كما هو نسبة الصحابة والتابعين وأتباع التابعين رضي الله عنهم أجمعين.

وقال: إن تطبيق معارف التوحيد الوجودي على الشريعة الغراء ممكن بالتأويل كما فعله بعض الكبراء، وأما اعتقاد أنه عين الشريعة وتنزيل مشارب الأنبياء عليهم السلام والصحابة الكرام إليه من غير تأويل فهو من الجهالة، فإن قال ذلك مغلوب الحال فهو معذور. قال المجنون: الخلافة حق ليلى لا حق أبي بكر ولا حق علي، ولكن صاحب الشعور ملام ومطعون فيه بتفوهه به.

وقال: ينبغي في الصلاة رعاية جميع آدابها وشروطها المبيَّنة في الفقه والتوجه إلى حقيقة الصلاة، فإن فعل ذلك فلا حاجة إلى تكرار اسم الذات والنفي والإثبات، ويكون حينئذ قوله ﷺ: «**أن تعبد الله كأنك تراه**»[١] نقد وقت المصلي، ويظهر سر قوله عليه الصلاة والسلام: «**الصلاة معراج المؤمنين**»[٢] وعندي أن قوله عليه السلام: «**لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل**»[٣] إنما هو في الصلاة.

وكان قدّس سرّه ذا خلق حسن، حليماً، عالماً، متقناً، صبّاراً، قنوعاً، متواضعاً، متنافراً عن الدنيا وأهلها مستكرهاً لهم بحسب الباطن، وإن لم يقل لهم شيئاً في الظاهر حتى جاءه مرة نواب عالي الرتبة للإرادة فأجرى على لسانه كلمات باردة بين يديه حتى رجع عن اعتقاده فيه وقام من مجلسه مسرعاً. ولما انصرف قال:

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب سؤال جبرائيل النبي ﷺ عن الإيمان...، حديث رقم (٥٠) [١/ ٢٧] ورواه مسلم، باب بيان الإيمان و...، حديث رقم (٨) [١/ ٣٦] ورواه غيرهما.

(٢) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٣) هذا الحديث سبق تخريجه.

إن مجيء أهل الدنيا نحس وكل مقام وصل فيه قدمهم لا يبقى فيه البركة الباطنية، ولذلك قلت له كلمات باردة. وكان كثير الصفح والعفو، وكان يغض بصره عن زلات الإخوان بل كان ينسب زلاتهم إلى نفسه ويقول: إن القصور عندي، فإنه لو كان لي كمال لما صدر هذا الأمر منك بل ظهرت أوصافي الرذيلة منكم بطريق الانعكاس. وكان في غاية المسكنة والانكسار، ورؤية قصور الأعمال والافتقار، وكان لا يذكر أحداً بسوء إلاّ الفرقة الضالة الوهابية، فإنه كان يبيِّن قبائح أفعالهم وأقوالهم لتحذير الناس عنهم، بل صنف في رد مذهبهم المردود الباطل العاطل رسالة سماها «الحق المبين في رد الوهابيين» ولم يكن لهم مجال رفع الرأس في دهلي وقت كونه فيه مع قوة شوكتهم هناك. فجلس في مسند الإرشاد على هذا المنوال في بلدة دهلي من بلاد الهند سنين وأجاز بالإرشاد من المستعدين الكاملين مئين، ثم هاجر إلى الحرمين الشريفين في سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف في وقعة دهلي، واختار للإقامة المدينة المنورة، وأقام هناك في وسادة الإفادة إلى آخر عمره بكمال الاستقامة ونهاية المكانة، واجتمع إليه هناك علماء الأمة وعظماء الملة من جميع أقطار الأرض، شرقاً وغرباً، عجماً وعرباً، وصار واسطة فيضان فيوض الرحمن على أمة أشرف نوع الإنسان ورابطة انتظام السلسلة النقشبندية العلية الشأن.

وظهر له قبول تام عند الخاص والعام، ودخل في ربقة إرادته ألوف من خواص الأنام من بلد الله الحرام ومدينة النبي عليه الصلاة والسلام وسائر بلدان الإسلام، ورقاهم على أعلى مراتب الكمال، وألبسهم حلل الجمال. وكم من متجبر ترك في صحبته المال والجاه والمناصب، وأقبل بكليته على أسنى المطالب، وكم من رجال بلغ إلى أقصى المقامات، وكم تشرّف بخلعة الخلافة والكرامات. وما أحسن ما قال مولانا الفاضل النبيل، والكامل الجليل، الشيخ عبد الجليل المدني سلمه المولى الغني في منقبته قدّس سرّه: [قصيدة]

كذا فليكن سعي الفتى للمآثر ... وتجديد أعلام المعالي الدوائر
لعمرك هذا الفخر لا ما تعده الـ ... ـملوك ذوو التيجان يوم التفاخر
ومن مثل سلطان الطريقة أحمد ... سعيد جلا الأبصار قل والبصائر
منور أقطار البلاد بذاته ... وأولاده الغراء الكرام الأكابر
هو الشمس في وسط السماء بنورها ... تبدت ونور الهدى يبدو لناظر
هو الطود حلماً راسخاً في وقاره ... هو البحر علماً زاخراً بالذخائر

وكنز لأهل الفقر أصبح مغنياً ... فيا حبذا كنزاً لسد المفاقر
على نهجه إن شئت تظفر بالمنى ... ومنهاجه فاسلك سريعاً وبادر
على سيره سر إن قدرت مشمراً ... مجداً وعندي لست أنت بقادر
فذاك إمام العصر أوحد دهره ... فحاشا يضاهى في الملا بمناظر
له الرتبة العليا التي دون نيلها ... لمن رامها لا شك شق المرائر
وكيف لربات الخدور وإن سمت ... مبادرة الأسد الليوث الخوادر
فكم حائر لا يهتدي لسبيله ... أتاه فوافاه الهدى بالبشائر
وكم وارد للفيض أصبح هائماً ... أتاه فأمسى حامداً للمصادر
وكم مستغيث في دجى الليل أمه ... فصادف من إحسانه غوث ناصر
وكم من مريد جاء يشكو مريده ... فخلصه من شر أخبث ماكر
تطوف به عند المساء وغدوة ... رجال تحاموا عن قبيح المتاجر
فيفتح من أغلاق حصن قلوبهم ... مغالق تملى من صنوف الجواهر
ويسعدهم من نظرة بعد نظرة ... بأعلى مقام جلَّ عن وصف شاعر
ولا زال من خمر الوصال عليهم ... يدير كؤوساً كالبدور السوافر
إذا جنّهم ليل تجافت جنوبهم ... يسيلون دمعاً من عيون سواهر
سكارى ومن أنظاره في وجوههم ... علامات صحو غيّبت في السرائر
وينقلهم من حالة بعد حالة ... يرقّيهم في القرب أسنى المنابر
هم القوم حقاً ليس يشقى جليسهم ... ويسعد مَن يلقاهم في المحاضِر
فبادِر إليه واغتنم قرب وصله ... ونافس إذا ما نلت ذاك وفاخر
ولذ كلما نابتك في الكون حاجة ... بأعلى جناب منه في دفع ضائر
ومن حبّه كن دائماً متمسكاً ... يفح منك عرف فاق طيب المجامر

اهـ. قال ناعته: وبالجملة، فمناقبه الشريفة يكلّ عن حصرها كل بليغ ولو نظم النجوم في كلامه، وعلوّ شأنه لا تدركه ضعاف العقول، فكيف وسمّاك السماء دون مقامه، والتطويل في تعداد مناقب من هو غني عن المدح تقصير، ولا يدرك الآمل فيه غاية مرامه.

وبالجملة: استقر على وسادة الإفادة في مدينة النبي ﷺ أربع سنين، ثم نودي له بالرحيل وقرع مقرعة التحويل، فطار طير روحه نحو عالم القدس ورياض الأنس والتحق بالرفيق الأعلى، ونال رضوان المولى، وذلك سنة سبع وسبعين ومائتين وألف ما بين الظهر والعصر من يوم الثلاثاء الثاني من ربيع الأول روّح الله روحه ونوّر ضريحه. وأرّخوا سنة وفاته: عاش سعيداً ومات شهيداً، لما ورد في الحديث: «المبطون شهيد»(١). وأنشد مولانا الشيخ عبد الجليل فندي المدني سلّمه الله في تاريخ وفاته هذه الأبيات وكتبوها في الرخام ونصبوه على رأس قبره الشريف: [أشعار]

قضى قطب الأقطاب الشهير بأحمد	سعيد إمام العلم والحلم والهدى
منار طريق النقشبندية التي	لها جده في الألف أضحى مجددا
ومذ حلّ في ذا القبر ناديت أرّخوا	سعيداً شهيداً بالجنان مخلدا

ودفن في البقيع الغرقد في جوار قبة جامع القرآن سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه.

* * *

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب ما يذكر في الطاعون، حديث رقم (٥٤٠١) [٥/ ٢١٦٥] ورواه ابن حبان في صحيحه، ذكر الخصال التي تقوم مقام الشهادة لغير القتيل في سبيل الله، حديث رقم (٢ـ ٤٦٣) [٧/ ٤٦٢] ورواه غيرهما.

كشاف رموز الحقائق، مفتاح كنوز الدقائق، مرشد الأنام، قدوة الكرام، إمام العارفين وقطب الواصلين، مخزن العلوم الإلهية، ومصدر الفيوض اللامتناهية، سيدنا وسندنا الشيخ محمد مظهر ابن الشيخ أحمد سعيد، ابن الشيخ ابي سعيد قدّس الله أرواحهم وروّح أشباحهم ونفعنا ببركات انوارهم، وأروانا من بحر اسرارهم، وثبّتنا على محبّتهم، وحشرنا في زمرة خدّامهم آمين

اعلم أنه كان لمولانا الشيخ أحمد سعيد قدّس سرّه ثلاثة بنين، أكبرهم مولانا الشيخ عبد الرشيد صاحب رحمه الله تعالى. جلس مكان أبيه بعد وفاته باتفاق من أخويه وجميع أصحاب والده الماجد، ثم تحول إلى مكة المكرمة واشتغل هناك مدة بتربية الطالبين وتسليك السالكين. ثم ارتحل فيها إلى عالم الحقيقة، ودفن بالمعلى أمام قبة أم المؤمنين سيّدتنا خديجة الكبرى رضي الله عنها، وذلك سنة سبع وثمانين ومائتين وألف.

وأوسطهم مولانا الشيخ عمر صاحب رحمه الله تعالى، اشتغل قدّس سرّه بتربية الطالبين وتسليك السالكين في الحرمين الشريفين سنين، ثم توجه نحو وطنه الأصلي المألوف من بلاد الهند، وارتحل هناك من دار الفناء إلى دار البقاء رحمة الله عليه رحمة واسعة. وخلف كل منهما ولداً، وهما الآن مشغولان بتربية الطالبين في بلاد الهند.

وصاحب الترجمة قدّس سرّه هو أصغرهم سناً، ولادته ثالث جمادى الأولى سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف. ولد في جوف الخانقاه الواقع في دهلى، وتاريخ ولادته مظاهر محمدي، استخرج ذلك جده الأمجد مولانا الشيخ أبو سعيد وسمّاه

مظهر محمد مشيراً إلى كونه محمدي المشرب، وكان يحبه حباً شديداً ويقول: تفوح من هذا الولد روائح أولي العزيمة وسيكون ذا شأن عظيم وفيض عميم. فلم تخطىء فراسته ولم يخب رجاؤه وبشارته، حيث ظهر صدق مقالته بعد مضي أزمان وسنين، وبلغ مرتبة حق اليقين، وكان حين قال له جده هذا القول ابن سنة.

قال قدّس سرّه في حاشية هذا القول: وكنت أترقب ذلك الشأن حتى ظهر بعد ثلاث وثلاثين سنة حين تطاول الناس عليّ واستضعافهم إياي، وتكلُّمهم فيما ليس بحق، وعدم انزعاجي منها بتثبيت الله تعالى وفضله ورحمته، فقيل لي هاهنا فليتنبه: [شعر]

وكم لله من لطف خفي　　　يدق خفاه عن فهم الزكي

انتهى. أخذه جده مرة من حجر الحاضنة ووضعه في حجره وقال في أذنه: الله، فارتعدت منه فرائصه واضطرب اضطراباً شديداً، فنشأ قدّس سرّه في حجر العلم والهداية ومهد الفيض والولاية، وأرضع من ثدي الأسرار والعرفان، وسقي من عين الإيمان والوجدان. ولذلك كان ظاهر الحجة وباهر البرهان، حفظ القرآن في سن تسع، وقرأ أكثر الكتب الدينية والآلية والتصوُّف على والده الماجد، وتلقن الطريقة العلية أيضاً عن والده في صغر سنه، وأمره بالمراقبة الأحدية، وتشرّف بدوام التوجه والإقبال إلى الله ودوام انتظار الفيض الذي هو مقدمة دوام الحضور ومباديه.

وفرغ من تحصيل العلوم الظاهرية والباطنية وهو ابن اثنتين وعشرين سنة، وشرّفه بالإجازة المطلقة، وأمره بالتوجه إلى المريدين في حضوره، وأحال عليه جماعة من مريديه، وقرأ مكتوبات الإمام الرباني قدّس سرّه على والده الماجد بغاية التحقيق ونهاية التدقيق مرتين، ولهذا كان في حل معضلات المكتوبات، ودفع إشكالاتها آية من آيات الله.

وغلب عليه قدّس سرّه شوق زيارة الحرمين الشريفين، فاستأذن والده الماجد، فأذن له على كره منه بعد اللتيا والتي، فتشرّف هناك بأنواع العنايات وأصناف الكرامات من سيد الكائنات وصاحب المعجزات ﷺ وعاد إلى خدمة والده بأنواع الفتوحات. ولما وصل إلى بمبي راجعاً أرسل والده الماجد هذا المكتوب إليه مستدعياً مثوله لديه. وبعد السلام المسنون والدعوات الموجبة للترقيات من المحترق بنار البعد والهجران أحمد سعيد المجددي المعصومي، فليعلم ولدي الأعزّ الأرشد

حاج الحرمين الشريفين سلّمه الله تعالى وأوصله إلى غاية ما يتمناه أن مكتوب ذلك الولد قرة العين ومسرة الأذنين، والمؤرخ بعشرين من صفر المشتمل على نزوله من المركب ودخوله في بمبي قد وصل وأورث القلب مسرات غير متناهية فسجدت لله تعالى شكراً وقلت: [شعراً]

أهلاً لسعدى والرسول وحبذا	حب الرسول لحب وجه المرسل

غيره:

انصف أيا فلك زاه مصابيحه	من أي هذين قد عمت تفاريحه
شمس بها عالم تمت مصالحه	أم بدري البساد من شام لوائحه

فليرجع الآن مسرعاً بمنطوق حديث: **«من قضى نهمته فليعجل إلى أهله»**[1]، اللازم الوثوق من الطريق الكبير الذي توجه منه، وحيث إن ذلك الولد قد تجاوز الصورة ووصل إلى المعنى فأي مصلحة له الآن في صورة ينبغي أن تجيء بمعية الحق سبحانه، ماذا تصنع معية خواجة أمراً سر الله سبحانه المشتاقين بإدخال قرة العين بالخيرية التامة الوطن المألوف، وينجينا من جذبات الاضطراب، فإن يوماً واحداً في مفارقة قرة العين يساوي سنة كاملة ولا راحة لي بدونه. انتهى.

فعاد إلى خدمته مسرعاً وعرض عليه ما عرض له من أنواع الفتوحات في المدينة المنورة فصححه وبشره بأنواع البشارات، وتلك العرائض مذكورة مع جواباتها في آخر «المقامات السعيدية» فليراجع.

ثم هاجر إلى الحرمين الشريفين مع والده الماجد في وقعة دهلي واستفاد هناك واستفاض وأفاد. وأفاض تارة في مكة، وتارة في المدينة، وأحياناً في الطائف. وكان والده يحبه حباً شديداً ويجعله إماماً في صلاته ويسمع منه القرآن خصوصاً في مرض موته. ولما توفي والده الماجد وتوجه أخواه الأكبران إلى مكة المكرمة، استقر في وسادة الإفادة بغاية التمكن والرشادة وتصدى للدعوة والهداية، وكان وقتئذ ابن تسع وعشرين. وتعلق بذاته منصب القيومية في الطريقة المجددية الأحمدية لما كان مظهراً للأسرار الإلهية ومصدراً للآثار النبوية، ومهبطاً للأنوار اللامتناهية، وملتقى لبحار العلوم الشرعية والمعارف اليقينية. فقام برفع أعلام معالم الشريعة

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

المحمدية، وبثّ أسرار الطريقة النقشبندية الأحمدية فطار صيت إرشاده في الأقطار كاشتهار الشمس في رابعة النهار، فأكب عليه الطالبون الأخيار والسالكون الأبرار والتزموا صحبته المحفوفة بالأنوار واعتكفوا في عتبته آناء الليل والنهار، فانتهت إليه رئاسة الإرشاد وتربية المريدين، وسلّمت إليه هداية العباد وإرشاد السالكين، فأصبح غوث الوقت حكماً وعلماً وتحملاً وناصر الحق قولاً وعملاً وفعلاً.

وكان قدّس سرّه من العلماء الربانيين جامعاً بين المعقول والمنقول، حاوياً للفروع والأصول، مطلعاً على دقائق المعارف وحقائق الحكم، ما من فن من فنون العلوم إلاّ وقد كان له فيه يد طولى وبيان شاف وحظ واف، فأفاد العلوم الدينية للطالبين ورقى مدارج القرب للسالكين، وكم رد إلى الله عاصياً، وكم ذكر الله سبحانه ناسياً، وكم نوّر بالحضور قلباً قاسياً، وكم اهتدى بهديه من كان يتيه في تيه الضلال حيارى، وكم صحا بإرشاده من كان من خمر الغفلة سكارى، وكم أطلق من أغلال الهوى أسارى.

واجتمع إلى بابه العلماء والصلحاء من جميع الآفاق وبذل لهم أنواع الألطاف والأشفاق، وكان عالماً بأدواء القلوب ودوائها وكان طريقته في تربية السالكين مثل طريقة آبائه الكرام ومشايخه العظام من غير تبديل وتغيير بزيادة أو نقصان، سالكاً فيه طريق الاقتصاد، شاخصاً ببصره إلى: «سدّدوا، وقاربوا»(١). وملاحظاً معنى: «بشّروا ولا تنفروا»(٢). وكان يأمر كلاً من الطالبين بما يناسبه من وظائف الأذكار ومنهم من يأمره بالمجاهدة والرياضة والعزلة عن الأغيار، ومنهم من كان يفوض إلى يده زمام الاختيار.

وكان اعتناؤه بالعلماء وطلبة العلوم أكثر، والتفاته إليهم أوفر. وكان كثير الحث على طلب العلوم لما شاهد من فشو الجهل وأنواع البدع في العالم. وكان لا يكلفهم بكثرة الأذكار على وجه يفضي إلى ترك التحصيل. اللهم إلاّ من كان قد

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب القصد والمداومة على العمل، حديث رقم (٦٠٩٨) [٥/ ٢٣٧٣] ورواه مسلم في صحيحه، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله. . .، حديث رقم (٢٨١٨) [٤/ ٢١٧١] ورواه غيرهما.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، باب في الأمر بالتيسير. . .، حديث رقم (١٧٣٢) [٣/ ١٣٥٨] ورواه أبو داود في سننه، باب في كراهية المراء، حديث رقم (٤٨٣٥) [٤/ ٢٦٠] ورواه غيرهما.

نفسي وطره من العلوم وأراد في زيادة ما له عنه غنى، فينبهه على أن الاشتغال بذكر المولى هو الأولى، وبنى مدرسة عالية في المدينة المنورة بباب البقيع ثلاث طبقات مشتملة على جميع ما يحتاج إليه من خزانة الكتب ومحل التدريس ومحل اجتماع الإخوان للذكر، وكان ذلك بمجرد علو الهمة ومحض فضل الله تعالى، وكان عاشقاً لرسول الله ﷺ فانياً فيه، وأوصافه باقية به وبأسراره وأنواره. وكان صحيح الكشف، وصادق الفراسة، وكثير الإشراف على بواطن المريدين وقويّ التصرف فيهم، وصاحب خوارق العادات وأنواع الكرامات.

وكان من عاداته الشريفة ختم القرآن الكريم في كل أسبوع مرة واحدة وختم صحيح البخاري في كل شهر، وختم صحيح مسلم في كل عشر ذي الحجة، وصوم عشر كل محرم، وصوم يوم الاثنين والخميس وأيام البيض، وكل ذلك مع اجتماع الإخوان للختم وأخذ التوجه منه في كل يوم ثلاثة أوقات: بعد الإشراق، وبعد الظهر، وبعد المغرب، وقت زيادة طول الليالي على النهار، وبعد العصر في عكسه.

وكان يدرس في العلوم الظاهرة في أثناء ذلك من الأحاديث النبوية وكتب الصوفية خصوصاً مكتوبات الإمام الرباني قدّس سرّه. وله رسائل لطيفة في آداب الطريقة، ومناقب والده الماجد صغرى وكبرى.

* * *

ومن كلماته القدسيّة

إن أهم ما ينصح به الإخوان الكرام أن يكون شغلهم بالله تعالى على الدوام، وأن يصرفوا جميع هممهم إلى ذكر الله الملك العلّام بلا غفلة لمحة عنه سبحانه حتى يحصل الحضور التام ويزول التعلّق حبّاً وعلماً بما سواه من الأنام.

وقال: خلاصة الحياة الطيبة تفويض الأمور إلى الله تعالى ورؤية تقلب الأحوال من تقدير الملك المتعال، وعدم التكلم بلم وكيف في الوقائع والحوادث، وترك المعارضة وعدم المضايقة مع الكون الحادث، وتقوية القلب بتفكر مواعيد الحق تعالى، وتذكُّر خزائنه الغيبية، واليأس من نفسه ومن الخلق بالكلية.

وقال: من آثار المحبة إيثار ما تحب لمن تحب بكمال الرغبة والسرور، فمدعي المحبة إن خالف المحبوب وهرب من بلائه فهو كاذب مغرور وإن زعم أنه مع ذلك مقبول فهو شقي مهجور.

وقال: إنما يصير الطالب مريد الله تعالى عزَّ وجلَّ إذا كان جميع مراداته مسلوباً عنه سوى رضا الله تعالى، وكان تحت قضائه تعالى كالميت بين الغسّال.
أقول هذا ناظراً إلى ما قيل: [شعر]

تكون مريداً ثم فيك إرادة إذا لم ترد شيئاً فأنت مريد

وكان قدّس سرّه صحيح التوكل، قوي الجنان، زاهداً في الدنيا وأهلها. ما كان يدخر شيئاً من الدنيا بل كان يصرف ما يحصل من الفتوح الغيبي في أمور الخانقاه وحوائج فقراء أصحابه، وما كان يهاب الأمراء والوزراء بل كان الكل يهابونه، وما كان يحصل له الفرح والسرور من مدائح الناس كما يحصل ذلك لأهل الغرور ولا الغم والحزن من ذمهم أيضاً، بل كان مدح الناس وذمهم عنده على حد سواء.

وكان قدّس سرّه كثير التواضع وشديد الحياء والانكسار، ومع ذلك محفوفاً بأنوار الهيبة والجلال والوقار. وكان مجلسه مجلس علم وإفادة وهداية ورشادة لا ينتهك فيه الحرم ولا يذكر فيه غيبة أحد، وكان شديد التحرز عن أمثال ذلك. وترى رسالته المسماة بـ«المقامات السعيدية» مشحونة باتهام نفسه الشريفة وذمها خصوصاً في آخرها، فارجع إليها إن شئت تعرف صدق هذا المقال.

توفي قدّس سرّه مبطوناً ليلة الاثنين الثانية عشر من محرم الحرام سنة إحدى وثلاثمائة بعد الألف، ودفن صباح ليلة وفاته بعد الصلاة عليه بجمعية كبيرة لم ير مثلها في البقيع الغرقد بجنب قبر والده الماجد قدّس الله روحه وروح شبحه ونور ضريحه وأفاض علينا من بركاته.

وقد نظّم فضلاء العصر مراثي كبيرة مشتملة على تاريخ وفاته ليس هذا المختصر محل إيراد جميعها، ومن جملتها مرثية العالم الرباني الشيخ آخون جان البخاري سلّمه الباري مشتملة على أربعة وثلاثين بيتاً من بحر الرجز مطلعها:

الله حي دائم عزَّ وجلَّ وليس للغير وجود في الأزل

إلى أن قال:

ألا ترى إلى جناب المرشد فخر الزمان الشيخ مظهر انتقل
شمس سماء الكشف والمعارف بدر ذرى الأرشاد للفيض محل

قطب مدار الدين والهداية شمع منار الاقتداء الغوث الأجل
ينبوع أنوار الصفاء والوفاء مشكاة أنوار الفيوض لم يزل
منشأ أنوار الفنون والحكم مبدأ آثار العلوم والعمل
مصدر أسرار اليقين والهدى مظهر أطوار المشايخ الأول
ذو النون مصره ويحيى عصره أبو يزيد أو جنيد في المثل
مجدِّد المسلك للمجدِّد للنقشبند تابع نعم البدل
هو الذي بكل فضل ارتدى وللكمالات الجليلة اشتمل
وسار أفلاك المقامات العلى حتى من الحالات أقصاها وصل
أضاء عالم القلوب مسدة بفيضه مثل الضيا ثم أفل

إلى أن قال:

عليه رضوان الإله الصمد في جنة الفردوس منتهى الأمل
لما قضى سُئلت عن تاريخه فقلت أرخوه: بالخلد دخل

وخمسها تخميساً لطيفاً صديقنا مولانا الشيخ أحمد ضياء الدين أفندي القزاني سلّمه الله وملّكه نواصي الأماني، المدرِّس الآن في الحرم النبوي. ولا بأس بإيراد بعضها على وجه الاسترشاد لئلا يخلو الكتاب من آثار الأحباب. قال: [تخميس]

لهفي ولهف الناشد والمنشد على ذهاب الأمجد فالأمجد
يا حسرة الراشد والمسترشد ألا ترى إلى جناب المرشد
فخر الزمان الشيخ مظهر انتقل بحر الهدى غيث الندى للعاكف
ومعدن الإحسان والعواطف ومنبع الإشفاق والعوارف
شمس سماء الكشف والمعارف بدر ذرى الإرشاد للفيض محل
لا تعجبوا من فضله وفخره والأوليـاء كلهم بنصره
منصور يومه وبشر دهره ذو النون مصره ويحيى عصره
أبو يزيد وجنيد في المثل يدعى بفاروقهم والأحمدي
في سلكهم كالجوهر المنضد بالسند العالي الجلي المجيد
مجدد المسلك للمجدد للنقشبند تابع نعم البدل

بذاك أعني سيفه المهندا محمد المظهر بن أحمدا
وجده أبو سعيد المهتدا وهو الذي بكل فضل ارتدى

وللكمالات الجليلة اشتمل، إلى آخره بطوله، وفي ذلك كفاية للمسترشدين.

ومنها مرثية مولانا الشيخ إبراهيم الغزنوي عامله الله بلطفه الخفي والجلي، خليفته الجليل ونديمه النبيل ومعدن الفضل الجزيل، وقد خمسها هذا العاجز. ولنورد بعضاً منها مع تخميسها بألف خجالة: [مرثية]

أشكو إلى مولاي دهري باكياً لما غدا ربع الفضائل عافيا
متفقداً لجناب مظهر نادياً
يا سيدي يا مظهر الأنوار يا من حبه أضحى بروحي ثاويا
بان العز مذ بنت عن ذاك المحل
قد حل ما كنت منه في وجل من غمرة لا تنقضي حتى الأجل
أتراك تدري أنني أنا لم أزل طول الدهور على فراقك باكيا
ولكنت لا أرضى بالوصال بما مضى فقنعت رغماً بالخيال لا الرضا
أبقيتني متقلباً جمر الغضا وتركتني من نار هجرك في لظى
ومن احتمى الأسف الطويل الكاويا
شق الجيوب محرم لكن في ذاك الأسى شق القلوب لا يفي
ام كيف لا اقضي الأسى بتلهف
تبكي ليال الصوم حين تراك في جنات عدن في نعيم لاهيا
أعظم بها من رزئة في كل حي من أنس أو جن سرت وبكل شيء
أورثت للعين البكاء والقلب كي
والعيد يبكي حين لا يلقاك بيـ ـن الناس في ثوب الملاحة ماشيا
أضحى بك الدين القويم مسدداً وطريق جدك أحمد متجددا
فمن اقتدى بك يا سيدي فقد اهتدى يغشاك رضوان الكريم مؤيدا
ما ناح قمري لألف باكيا

انتهى. ومنها مرثية مولانا الشيخ عبد الجليل أفندي المدني سلمه الله تعالى:

[مرثية]

لِفَقْدِ إمام العصر أظلمت الأرض ... وضاق علينا طولها الرحب والعرض
وزالت عن الدنيا البشاشة والبهاء ... وجف جناب من غضارتها غضّ
وأصبح من فقدانه القلب ذائباً ... به لوعة يكفيه عن كلها البعض
وصرنا حيارى كاليتامى لفقده ... وقد حال من دون الفريض لنا الحرض
لئن خضنا رزء فقد عمنا به ... مصاب له تبكي السماوات والأرض
لعمري هو الغوث المجدد مظهر ... محمد أوصاف لأسراره فيض
إمام به تجلى القلوب من العمى ... ويغسل ما فيها من الدنس الحرض
على بابه من كل قوم عصائب ... بمقصودهم من فيض راحته يمضوا
طبيب لأدواء القلوب مجرب ... إذا اختلت الألباب فهو لها حمض
له رأفة بالطالبين ورحمة ... فما أحد إلا ومنها له فرض
سما وعلا فضلاً ومجداً وسؤدداً ... ولم يتدنس بالعيوب له عرض
له همم تعلو على الشمس رفعة ... وكل كمال كان فهو له روض
أياديه بالإحسان والبر فاضتا ... وراحته من شأنها البسط لا القبض
لقد كملت فيه المكارم كلها ... وفيه السخاء والجود والكرم المحض
حليم سليم القلب بالصفح معلن ... وعمن يسيء الفعل شيمته الغض
وفي نصرة الإيمان والحق لم يخف ... ولم يتحرك من فرائصه نبض
على ما رأى الحساد منه وشاهدوا ... من الغيظ في الأحشاء أنملهم عضوا
وينقض ما أعيا الرجال بنقضه ... وليس لما قد كان أحكمه نقض
وينهى عن الأمر الذي هو منكر ... ويأمر بالمعروف كان له حض
سقى جدثاً واراه صيب رحمة ... من العفو والغفران ليهمي ويرفض
فأعيننا تذري الدموع سوافحاً ... وأجفاننا مذ غاب ما مسها غمض

انتهى. وخلف قدّس سرّه أربعة من الأولاد، أكبرهم الشيخ بهاء الدين أحمد. كان حين وفاته ابن ست سنين. حفظ القرآن الكريم باجتهاد وصيه وخليفته سيدي

السيد وعمره إذ ذاك عشر سنين. وحصل إلى الآن مبادىء العلوم، ويلوح فيه آثار الرشد والهداية والفهم والدراية، والمرجو من الله سبحانه أن يكون مثل آبائه الكرام محيياً لطريقتهم دون أن يضيع سعي سيدي السيد، وأن لا يخيب ظنه فيه آمين.

وخلفاؤه قدّس سرّه في بلاد الهند وخراسان وما وراء النهر، وأضلاع الروم، والقزان، لا يحصون كثرة. وهذا المختصر لا يسع ذكر كلهم مع عدم وقوف هذا العاجز على أحوال كل منهم. ولنذكر هنا نبذة من أحوال من عيَّنه لمكانه بعده:

* * *

عمدة العلماء المحققين، وقدوة الكبراء المدققين، ونخبة الصلحاء المتورعين، وزبدة الكملاء المتشرعين، العالِم الرباني مولانا الشيخ عبد الحميد أفندي ابن الحسين الداغستاني الشرواني محتداً، المكي موطناً ومدفناً، وارى قبره اللطف السبحاني آمين

كان عالماً في العلوم الظاهرية والباطنية، متقناً محققاً في جميع الفنون، عارفاً بالألسن الثلاثة: العربية والفارسية والتركية.

أخذ العلوم أولاً في بلاده ثم رحل إلى بلاد الإسلام، وقدم القسطنطينية ومصر وأخذ فيهما عن علماء أجلّاء وفضلاء أدّلاء، مثل الشيخ مصطفى الوديني أستاذ الكل، والشيخ إبراهيم الباجوري صاحب التصانيف المفيدة. وبلغ من العلوم ذروتها، ثم قدم مكة المكرمة واستوطن بها واشتغل بالتدريس والإفادة. وكان فيه عطش طلب الحق في مبادي حاله وتردد بهذا السبب إلى مشايخ وقته وأخذ منهم التوجهات، ولكن لم يطمئن قلبه إلى أحد منهم.

ولما قدم سيدنا الشيخ محمد مظهر قدّس سرّه مكة المكرمة حاجّاً من بلاده في سفره الأول، استدعى منه الطريقة، فاعتذر إليه في ذلك الوقت بسبب عدم توقفه. ولما قدم مولانا الشيخ أحمد سعيد قدّس سرّه مكة المكرمة مهاجراً من بلاده بايعه في الطريقة بإرادة صادقة وعقيدة راسخة، وترك التدريس، ولازم صحبته الشريفة، وصرف الشيخ قدّس سرّه إليه التفاتاً كثيراً وتوجهات قوية.

ولما توجه الشيخ إلى المدينة المنورة في ربيع الأول فوضه إلى سيدنا الشيخ محمد مظهر قدّس سرّه واختص به اختصاصاً تاماً ونال منها فوائد جمة، وتوجه معه إلى المدينة المنورة في رجب من العام المذكور بسبب شدة ارتباطه به ومحبته له. واختص بعناية من سيد الكائنات عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات، وصدق شيخه ما شاهده من عنايته ﷺ وقال: قد قبلوه والحمد لله على ذلك. ثم شرّفه

بالإجازة والخلافة بعد ملازمته صحبته مدة، وألبسه جبته المستعملة ودعا له طويلاً وقال: أجزت مولانا عبد الحميد ولم آل جهداً في لقاء نسبة كبرائنا إليه إن شاء الله تترتب الثمرات عليها، وحال هذا السلوك وحصوله يستدعي مدة. [شعر]

الأوحـــدي رأى الـــمـــحـــن ســـتـــيـــن عـــامـــاً اســـتـــحـــن

حـــتـــى أتـــتـــه لـــيـــلـــة فـــيـــهـــا بـــدا الـــبـــخـــت الـــحـــســـن

وقال: إذا كان حبل المحبة لأهل النسبة المجددية قوياً فلا غم حينئذ أصلاً بجذبه جميع كمالاتهم تدريجاً إن شاء الله تعالى، فاللازم صرف الأوقات في الأذكار والأشغال المعمولة. وقال لسيدنا الشيخ محمد مظهر قدّس سرّه: لا تقصر في التوجه إليه. فامتثل أمره وشرّفه بالتوجه الغائبي دائماً وصحبه بعد ذلك مراراً في أوقات متفرقة بل كان كأنه لم تنقطع الصحبة بينهما أصلاً بسبب كثرة المراسلات والمكاتبات بينهما. واشتغل إلى آخر عمره بتدريس علوم الدين للطالبين وتربية السالكين في مكة المكرمة.

وكان قدّس سرّه وقوراً، مهيباً، حسن السمت، كثير الصمت. وكان يجتمع عنده الإخوان صباحاً ومساء في باب الزيادة لقراءة ختمات المشايخ المعمولة في هذه الطريقة العلية. وأخذ التوجهات السنية، وكان بعد حلقة الصبح يشتغل بدرس التحفة لابن حجر في فقه الشافعي رضي الله عنه، وكان شافعي المذهب، شديد الصلابة فيه حتى أن بعض الجهلة كان ينسبه إلى التعصب، وذلك خطأ منه لعدم معرفته الفرق بين التصلّب والتعصّب، فإن الأول محمود والثاني مذموم.

وكان أكثر الأولياء الكبار متصفين بالصلابة، يظهر ذلك بالمراجعة لتراجمهم، فإن من أحسن الظن بنفسه وسكن إلى رأيه واسترسل بعقله، لا يجيء منه شيء. وكان يحب الخلوة ويكثر العزلة، وكان بعد أكل غدائه يذهب إلى حجرته في المدرسة السليمانية ويقعد فيها إلى العصر مشتغلاً بوظائفه من الأذكار والتلاوة والمراقبة والمطالعة لا يأذن لأحد بالدخول عنده في حجرته غير أولاده في غير يومي الجمعة والثلاثاء، فمن كان له حاجة إليه كان يعرضها عليه في هذين اليومين. وكان محافظاً على أوائل أوقات الصلوات ومتحرياً للاحتياط، وكثيراً ما كان يصلي في المقام الحنفي أو يمينه أو خلفه لفضيلة قرب الإمام وسنية اتصال الصفوف إلا في أيام الحر للعذر، يعني: في الظهر والعصر.

وكان في تربية الإخوان سالكاً مسلك الاقتصاد في جميع أحوالهم مثل مشائخه

الكرام، وكانت النسبة العلمية غالبة عليه ولذلك ما ذهبت إلى خلوته إلا ورأيته في المطالعة خصوصاً في تصحيح حاشيته للتحفة، وهي في ثماني مجلدات ضخمة مشحونة بفوائد التحقيقات وشوارد التدقيقات.

واجتمع عنده من بلادنا في زمن الفقير ستة أو سبعة أنفار ولم يعين لأحد منهم مقداراً معيناً من الذكر، بل كان يكتفي بالحث على صرف الأوقات في الأهم والمحافظة على نسبة الحضور في جميع الأمور لكونهم من طلبة العلوم سوى واحد منهم فأمره بمقدار معين لاحتياجه إلى التكثير لكونه من أهل الدنيا، وكان ذا بيان واضح في تعليم المقامات، بل ربما كان يرسم الدوائر بيده للتفهيم ويكتب تحتها كلاماً فيه حظة المراقبة.

وكان جسوراً في تعليم ذكر الرابطة، بل كان يحث عليها عند تعليم كل مقام ويعتني بها. أخذ عنه واحد من جماعتنا الطريقة بواسطة الفقير والتزم الصحبة، فبعد أيام كنت أشاهد منه التغير ولم أعرف سببه ولم أسأله عنه لعدم ماموريتي به. فجاءني يوماً وشكى حاله وقال: قال لي سيدي الشيخ أنك لا تحسن الرابطة. فسألته حينئذ عن كيفية اشتغاله بالرابطة، فقال: كلما شرعت في الرابطة تغشى عيني ظلمة كالجبل فلا أقدر عليها. فعلمت أنه غلب عليه هيبته قدّس سرّه وجلاله فأمرته باستحضاره بصورة اللطف والجمال ففعل وحسن حاله وترقّت أحواله. وقد عيّنه قدّس سرّه سيدي الشيخ محمد مظهر للجلوس مكانه بعده، كما سنبينه إن شاء الله تعالى فيما سيأتي.

توفي قدّس سرّه ليلة الخميس السادسة والعشرين من ذي الحجة سنة إحدى وثلاثمائة وألف قبل حولان الحول من وفاة سيدي الشيخ محمد مظهر قدّس سرّهما بستة عشر يوماً، ودفن في المعلى أمام قبة سيدتنا خديجة الكبرى أم المؤمنين رضي الله عنها، بعد الصلاة عليه بجماعة عظيمة مع كونها في غير أوقات الفريضة واشتغال الناس لخروج القافلة إلى المدينة المنورة في ذلك اليوم. وامتد إيصال نعشه الشريف إلى المعلى إلى أزيد من ساعة لازدحام الناس في حمل نعشه. وكان بعض المؤذنين ينادي جنب نعشه بأعلى صوته في الطريق ويقول: أيها الناس إيش تشهدوا فيه! فيقولون: إيش نشهد فيه غير الخير.

وبالجملة: كان يوم موته ودفنه يوماً مشهوداً رحمة الله تعالى عليه رحمة واسعة وروّح روحه ونوّر ضريحه وجزاه الله عنا وعن سائر الإخوان خير الجزاء آمين بحرمة النبي الأمين. ومن جملة ما أنشد هذا العاجز سامحه الله في صورة المرثية هذه

الأبيات مورياً في بعضها: [شعر]

لقد حلَّ في دار القرار وحيد عصره شيخنا عبد الحميد وخيَّما
وآثر ما عند المهيمن تاركاً على شأننا شهر الفتوح محرما
وأخلفنا كل الرزية بعدما أذاق لنا كأس الهناء وأطعما
وأخلف كل العالمين بحسرة وأحرق سوداء الفؤاد وأضرما
فأضحى لنا باب الزيادة مغلقاً وباب الصفا طراً وضاق وأظلما
أعيني جودا بالذي بخلتما بأنواعه دراً عقيقاً وعندما
بأطلال من كانت رياضات بفيضه فعادت قفاراً مذ قلاها وأتهما
فيا رب عامله بما أنت أهله وأسكنه في أعلى الجنان تكرُّما

* * *

قبلة أرباب الفضائل، كعبة أصحاب الفواضل، رحلة الفحول والأماثل، قدوة العلماء الأفاضل، ذو النسب الطاهر والحسب الباهر، جامع المآثر وحاوي المفاخر، بقية السلف، حجة الخلف، منبع الجود، مركز الشرف، مرشد الأنام ومصباح الظلام وملاذ الكرام، أفضل مشائخ الأيام، الفرع الباسق من دوحة السيادة الصاعد من حضيض العادة إلى ذروة السعادة، المتمكن في وسادة الإفادة، السيد المطواع قائد المسترشدين في خير البقاع بلا نزاع، ما من فضيلة إلا هو لها حاوي، سيدنا ومولانا الشيخ أبي عبد الله السيد محمد صالح، ابن مولانا السيد عبد الرحمٰن المعروف بالزواوي، مدّ الله ظلال جلاله على رؤوس الإخوان، وأمطر نوال أفضاله مدى الأيام والأزمان.

هو خليفة سيدي الشيخ محمد مظهر قدّس سرّه وقائم مقامه، وولي عهده على الإطلاق، ونائب منابه، ورابطة التئام السلسلة النقشبندية المجددية السعيدية المظهرية، وواسطة عقد انتظامها، وناشر ألوية الولاية الأحمدية، ورافع أعلامها. أصله من السادات الكرام، ومولده ومنشؤه بلد الله الحرام.

أخذ العلوم في صباه من سادات أجلاء، وأئمة أدلاء، وعلماء أعلام في بلد الله الحرام، وبرع في جميع العلوم على أقرانه من الأنام، وله مدّ ظلّه مهارة تامة في سائر العلوم نقلياتها وعقلياتها، خصوصاً في رياضياتها التي هي أعزّ من الكبريت الأحمر في تلك الديار. ثم اشتغل سنين بالتدريس وإفادة الطالبين وإشاعة علوم

الدين في البلد الأمين، ثم صرف خاطره نحو تحصيل العلم اليقين لما لاح أنه هو المفيد المنجي يوم الدين، فأخذ الطريقة النقشبندية العلية عن سيدي الشيخ محمد مظهر قدّس سرّه واختص به اختصاص الحميم بالحميم.

قال مدّ ظلّه في معرض التعريض على الاشتغال بهذه الطريقة والإعراض عن غيرها حكاية عن بداية حاله: إنه كان واحد من العلماء يحسدني حين اشتغالي بالتدريس ويقول: من أين له هذه العلوم؟ وكنت له أقول على ما يلزم: من أين! فليجيء عندي وليختبرني فإن عجزت عن جوابه فليقوموني من مكاني. فما لبث إلا أن دخل في الطريقة وأقبل بكليته عليها وترك حسده وكل ما ينافيها، فصرت أحسد، لحاله هذه - يعني: أغبط - وظهر لي في هذا الوقت سر قول القائل: [شعر]

كانت لقلبي أهواء مفرقة فاستجمعَت مذ رأتك العينُ أهوائي
وصار يحسدني من كنت أحسده وصرت مولى الورى إذ صرت مولائي
تركت للناس دنياهم ودينهم حباً لذكرك يا ديني ودنيائي(١)

ثم بادرت في أثره أيضاً إلى طريق القوم.

وقال: لما كان سيدي الشيخ محمد مظهر مشغولاً بتربية الطالبين في مكة في مبادي حاله، وكان حوله جماعة من الهنود والسليمانية، كنت كلما أمر بحلقته أتعجب وأقول: ماذا يصنع هؤلاء، وما بضاعتهم من العلم والعمل؟ وكنت وقتئذ مشغولاً بالتدريس وعندي تلامذة كثيرون من أولاد العلماء والخطباء، وربما كان يحصل لي من هذا الوجه نوع غرور كما هو ديدن المدرسين إلا من عصمه الله، وكلما أمر بحلقته كان يرمقني، فألقى الله سبحانه في قلبي إرادة طريقة القوم فحضرت عند الشيخ عبد الحميد أفندي رحمه الله وأظهرت له ما هو مضمر في قلبي وشاورته في اختيار الشيخ، ففرح غاية الفرح وقال: أين أنت من شيخنا! قلت: ومن شيخكم؟ قال: الشيخ محمد مظهر. فلما حضرنا عنده وأظهرت له الإرادة قال: من

---

(١) هذه الأبيات هي للشيخ الحسين بن منصور الحلاج المقتول سنة ٣٠٩ هجرية. وتتمة الأبيات هي:

ما لامني فيك أحبابي وأعدائي إلا لغفلتهم عن عُظم بلوائي
أشعلت في كبدي نارين واحدة بين الضلوع وأخرى بين أحشائي

والأبيات من البحر البسيط، وتفعيلته:

إن البسيط لديه يبسط الأمل مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن

نحن! وما بضاعتنا حتى تستفيد منا بل اللازم علينا أن نحضر عندكم لنستفيد. وكأنه عرض لما كان يخطر في بالي. اهـ. وصرف له سيدي الشيخ محمد مظهر ألطافاً كثيرة وعنايات جزيلة.

قال مدّ ظله: لما ذهبت إلى المدينة لملازمة سيدي الشيخ بنية الإقامة أظنه قال إلى رجب: كنت أحضر الحلقة في الأوقات الثلاثة مع عموم الإخوان غير ما كنت ألازمه في سائر الأوقات، ثم قلت له: إني أريد أن تأمر واحداً من كبار أصحابك أن يتوجه إليَّ في وقت خاص، فقال: لا بل أنا أتوجه إليك بنفسي. فصار يتوجه إليَّ فقط بعد العشاء زماناً طويلاً، ثم لما جاء الوقت الموعود لم يأذن لي بالرجوع وأخر إلى وقت آخر. ولما مضى الأجل لم يأذن لي أيضاً وقال: ما حصل المقصود فما فائدة السفر؟ قال فقلت: بماذا تأمرني متى يحصل المقصود؟ فقال: ماذا أصنع أنا يحصل في الصحبة ما يحصل ثم تذهب عند هذا ويجيء عندك ذاك فيضيع، فلزمت بعد ذلك بيتي وأغلقت بابي والتزمت العزلة وتركت الجلوة، فإذا جاء أحد على عادته الأولى كان يصفق أهل البيت فينصرف فلما اطلعوا على أن ذلك بقصد مني تركوني على حالي فاسترحت وبفراغ البال اشتغلت، ثم أذن لي سيدي الشيخ بعد مدة بالرجوع.

وقال مولانا الفاضل الشيخ جعفر أفندي الداغستاني سلّمه الله مرة بالتقريب: إن التفات سيدي الشيخ محمد مظهر وعنايته له لم تكن بأدون من التفاته وعنايته لمولانا المرحوم والمغفور له الشيخ عبد الحميد أفندي، بل كانت أزيد. وقال بعد هذا: كنت مرة في حلقة سيدي الشيخ محمد مظهر، فشوهد لي نور ساطع من سيدي الشيخ وامتد مثل العمود نحو واحد من الأصحاب، فنظرت فإذا هو الشيخ السيد محمد صالح. اهـ.

وبالجملة: أنه نال من العنايات والألطاف ما لم ينل غيره من الأصحاب عشر عشيره. وسافر من مكة إلى المدينة سبعاً أو ثماني مرات لمحض الاستفادة ومجرد تحصيل صحبته السنية غير ما صحبه في مكة والطائف، وهو مد ظله شديد الاتباع، راسخ الاعتقاد، حريص على الاقتداء به في جميع أحواله وأفعاله كامل الاتحاد، فبهذه نال منه ما نال.

قال: قال سيدي الشيخ محمد مظهر قدّس سرّه مرة في الطائف إخباراً عن نفسه تحريضاً لغيره بأن: قلبي على وجه لو مد حتى جميع أهل الدنيا بجميع وجوه المدائح لا يحصل في قلبي ذرة من الفرح، ولو ذمني جميع من في الدنيا بجميع

وجوه المذمة وأنا بريء منها لا يصيبني شيء من الحزن والغم. قال: فقلت له: فما السبيل إلى تحصيل ذلك! هل هو يحصل بكثرة الأذكار والصلوات أم بارتكاب الرياضات والمجاهدات؟ قال: لا، بل هو موهبة من الله، فإن لم تكن فبالتقليد كتقليد صاحب الجمل. وكان هذا تلميحاً إلى قصة، ثم بيَّن تلك القصة وقال: إن واحداً من الأكابر قال مرة لأصحابه: اصعدوا بالجمل إلى سطح البيت، وفيهم العلماء والفضلاء، فوقعوا في التحيُّر والتعجب بأن الجمل كيف يصعد به إلى السطح، وقام من بينهم واحد من الفقراء لا يعتد به، وجاء بالجمل عند الباب وأخذ يتفكر ويتردد في الصعود به إلى السطح، فقال له الشيخ: خل واترك الجمل، فلم يعلم أحد منهم أنه ما سبب أمره أولاً وما سبب نهيه ثانياً، ولكن تبيَّن خلوص ذلك المباشر وصحة عقيدته التي يتفرغ عليها الامتثال والمبادرة إلى الائتمار من غير تفكر ونظر في حكمة أمره وعلته. وكثيراً ما كان يحكي ذلك وقت التحريض على المتابعة والتقليد بالمشايخ وعدم مخالفتهم.

وقال: صحبت سيدي الشيخ محمد مظهر مدة خمس وعشرين سنة على هذا الوجه، ولذلك امتاز من بين الأصحاب امتيازاً كلياً.

ثم أنه لما ظهر لسيدي الشيخ محمد مظهر روح الله روحه علامة الانتقال من هذه الدنيا الفانية إلى الدار الباقية بإعلام من الله تعالى وإظهاره له، كتب كتاباً إلى مكة بتفويض مكانه وجميع أصحابه وأموره إلى أحد ثلاثة من خلفائه الكبار هناك، وجعل لهم فيه الخيار، أعني مولانا المرحوم الشيخ عبد الحميد أفندي الداغستاني الشرواني ثم المكي، والسيد محمد المكي، ومولانا الشيخ السيد محمد صالح الزواوي المكي. فأما السيد محمد فإنه توفي قبل سيدي الشيخ محمد مظهر وبقي الاثنان بعده. وحينما توفي سيدي الشيخ محمد مظهر كان سيدنا الشيخ صاحب الترجمة مد ظله في بلاد جاوة، فالتجأ الأصحاب كلهم إلى مولانا الشيخ عبد الحميد أفندي رحمه الله. ولما أحس هو بأمور كثيرة لازمة التغيير وتيقن أنه لا يقدر على تغييره ورده إلى الشريعة في هذا الزمان السيء، اعتذر إليهم بكبر السن واستيلاء الضعف عليه وعجزه عن السفر بهذين السببين.

دخلت عليه مرة في ذلك الأثناء بعد صلاة الجمعة، ثم دخل عليه بعض كبار تلامذته، فجرى الكلام في هذا الباب فأظهر الأسف على ضعف الإسلام وقلة الأعوان على الحق بل على عدمهم، وقال على سبيل التمثيل: إن واحداً من الملوك السابقين ظهر في رأسه جراحة عجز الأطباء عن دوائها، فقال حكماء اليونان: إن

لها دواء ولكنه عزيز الوجود، عسير الحصول. فقال الملك: ما هو كيف يعسر علينا تحصيله!، فقال: هو مرارة إنسان صفاته كذا وكذا يوضع فيها تبرأ بإذن الله. فاستفتى الملك من العلماء بأنه: هل يجوز قتل إنسان لأجل هذا؟ فأفتوه بأنه يجوز ارتكاب ضرر خاص لدفع الضرر العام. فأمر السلطان بطلبه فوجد بتلك الصفة صبي عند فقير فعرضوا عليه أموالاً عظيمة لدفع ولده إليهم. فرضي الفقير وأم ولده أيضاً لمقاساتهما شدة الفقر، فجاؤا بالولد الميدان ليقتلوه والسلطان مشرف عليه، فلما تيقن الصبي بالقتل ضحك، فلما رأى الملك ذلك دعاه، فلما امتثل بين يديه قال: أبك جنون يا ولد؟ قال: لا، قال: فما سبب الضحك في مثل هذا الحال؟ قال: تعجبت من انقلاب أحوال الزمان فإن الصبي إذا أصابه ظلم من أحد يشتكي أولاً إلى أمه، فإن لم يحصل له التشفي يشتكي إلى أبيه، فإن لم يكن أبواه يشتكي إلى القاضي، فإن لم يجد عنده خيراً يتظلم عند السلطان، والآن باعني أبواي وأفتى العلماء بقتلي ورضي الملك بذلك ولم يبق غير الحق سبحانه مالك الملوك والممالك، فكيف لا أتعجب مما هنالك؟ فلما سمع الملك ذلك امتلأت عيناه بالدموع وقال: خلوا سبيله فإني رضيت بكل ما يصيبني من هذه الجراحة ودعاه عنده وقبّل رأسه وعينه وأعطاه أموالاً جزيلة، فشفاه الله تعالى لترحمه له، ثم قال: إن الشريعة صارت الآن مثل هذا الصبي جيء بها في الميدان يقطعونها إرباً إرباً، ولكن لا يوجد أحد يرحمها وينصرها. فكتب إلى سيدنا الشيخ السيد مد ظله يعلمه بوفاة سيدي الشيخ محمد مظهر روح الله روحه ويستدعيه للجلوس في مكانه بالسعادة، فقدم قبيل الحج مكة المكرمة. ولما انقضى أيام الحج وتهيأ سيدنا الشيخ السيد، دامت إفادته، توفي مولانا الشيخ عبد الحميد أفندي، نوّر الله ضريحه إلى رحمة الله، فظهر من ذلك أيضاً سر اعتذاره واختياره التقاعد عن التوجه إلى المدينة. وبقي الإخوان، أعني مريدي مولانا الشيخ عبد الحميد أفندي رحمه الله، حيارى لكونه لم ينصب أحداً مكانه، فالتجأوا إلى سيدنا الشيخ السيد مدّ ظله فلزمه التوقف لجمع شملهم بالضرورة، فجلس بعد أيام التعزية مجلسه وانقاد جميع الإخوان أمره، والتزموا طاعته، واغتنموا صحبته، واعتكفوا في عتبته، وبادروا إلى خدمته وقالوا: الله أعلم حيث يجعل ولايته حين شاهدوا شفقته ومرحمته وحرصه عليهم وعنايته. وبقي في مكة وقتئذٍ إلى أواسط جمادى الأخرى لا يفتر عن الإفادة في كل يوم ثلاثة أوقات، زاد حلقة بعد الظهر أيضاً واستكرى مدرسة من باب العمرة لخصوص هذه الحلقة وصار يجيء المكاتيب من المدينة في تلك المدة تترى يشتد حزنه هناك،

فتوجه في أواسط الجمادي الأخرى من طريق البر بتسعة أجمال توكلاً على الله مع أن معه من النقود والأثاث ما لا يحصى وقد استأذن في ذلك الوقت واحد من كبراء الهند والي الحجاز أن يخرج قافلة مشتملة على أزيد من مائة جمل فلم يأذن له لعدم أمن الطريق، فوصل إلى المدينة بالخير والسلامة والعافية والسعادة من غير أن يصيبه شيء من الآفة ببركة توكله وانقياده لأمر شيخه، بل بتوجه روحانيته ﷺ وروحانية جميع مشائخه الكرام.

فقرّت بقدومه المسعود عيون الإخوان واستقر في وسادة الإفادة بكمال التمكن والاطمئنان، وتزيَّن مسند الإرشاد بوجوده الشريف بعدما تعطل منذ أزمان، واستسلم منصف الإرشاد إليه، وانقادت رتبة الهداية إليه، وتذلّلت ولاية دعوة العباد بين يديه، واتفقت كلمة الإخوان على تفويض زمام الاختيار إليه، فأصبح عم فيضه شيخ الحرمين ومجمع البحرين، وفائق النيرين، فأنشأ لسان الحال يقول تحدُّثاً بنعمة من إليه يرجع الأمر كله ويزول: [قصيدة]

حمداً لمن هو كامل في ذاته ... وفعاله وشؤونه وصفاته
أبدى لنا من دوحة نبويَّة ... فرعاً عديم المثل في بركاته
وهو الذي فاق الورى كأصوله ... بعلو شأنه كله وثباته
مغنٍ ببذل ثماره لمن اجتبى ... يا سعد مَن يقتات من ثمراته
يروي المكارم كابراً عن كابر ... حلو الشمائل من جميع جهاته
أعني به السيد محمد صالح ... من تنهض الأموات من لحظاته
هو روض فيض سلم التوفيق ما الـ ... ـمنهاج إلا بعض تلويحاته
مفتاح كنز دقائق غواص بحـ ... ـر حقائق كشاف رمز نكاته
مصباح ليل طريقة مشكاة أنـ ... ـواراً لحقيقة مظهر نفحاته
طور التجلي صدره وفؤاده ... وادي شهود الذات دون صفاته
هو قطب بسطام الزمان غير أنـ ... ـه ما بد سبحاني في كلماته
سياح بيداء المقامات العلى ... سياح تيار البقاء بذاته
ترياق سم جهالة إكسير دا ... ء ضلالة فاسلك طريق نجاته
بشراكم يا معشر الإخوان قد ... عاد الطريق به إلى حالاته
وتجددت آثاره وتفتقت ... أزهاره فالنور في روضاته

وتمطرت أرجاؤه واستثمرت — أغراسه فانظر إلى نخلاته
قل للذي هو عاكف في بابه — نلت المنى والقصد في صحباته
طف حوله منضرعاً بصفاء قلبك — واسع ثمة إلزمنّ عتبياته
احزم بصدق عزيمة وانزع ثيا — ب هزيمة واصعد إلى عرفاته
واسكن بواد الجمع ثم مشاهداً — لعجائب الملكوت في مرآته
واحلق رؤوس الطمع عن كل الورى — والبس رداء توكل وأناته
هناك عل الله يبدي ما خفي — طول الدهر عليك من آياته
لا تخش من عجز عن إدراك المنا — زل واعتصم بالحبل من جذباته
لا تيأسن إن زُلت الأقدام في — ليل السرى والعفو من عاداته
كم من مريد جاءه يشكوه — سوء حاله نجاه من ورطاته
كم من جهول شانه بسفاهة — فأذاقه مولاه من نكباته
يا مدعي نيل الذي قد ناله — دع عنك هذا والتزم خدماته
هل ثعلب يتنافس الليث الذي — ما كان يقرب قط من غاباته
هب قد حكيته في ظواهر حاله — لكن فاتك جل مخفياته
أيظن لاح أنني أبغي به — بدلاً أراه يهيم في جهلاته
دع عنك لومي يا عذول بحب مَن — أسخطت أنصح منك في مرضاته
ألام في حبي بني الزهراء أم — فيمن سما بدلائل خيراته
فبحبه ما دمت في قيد الحياة — لأعصينك عاذلي وحيياته
أعددته زخر الكل ملمة — ورجوته للمحشر في عرصاته
وهجرت أحبابي وقمت ببابه — لأنال ما أملت من نظراته
وغدوت أنشد قول آزاد علي — متمثلاً بالبيت من أبياته
يا صاح إن تذهب فأنت بخير — إني نذرت المكث في عتباته
أنا غرس روضته سقيت بماء فيضه — ها أنا ريان من كاساته
لو أن لي في كل منبت شعرة — من ألسن أثني على نعماته
لم أقض حق الشكر في ألف لوا — حدة ولو أطنبت في مدحاته

نـالله يـكـلـؤه ويـبـقـيـه عـلـى عـزّ مـنـيـع فـي عـلا درجـاتـه
ويـزيـد مـن عـمـري عـلـى أيـامـه ويـمـد إخـوان الـصـفـا بـحـيـاتـه
ثـم الـصـلاة عـلـى الـنـبـي وآلـه ودعـاتـه لـطـريـقـه وهـداتـه

هذا وإن جرأتنا لمثل ذلك وإن كانت من غاية إساءة الأدب ومصداق ما قيل فيما مضى ببيت من أبيات العرب: [شعر]

ونظمنا الحصى مع الدر في سمط وقـلـنـا الـعـبـيـر مـثـل الـرغـام

فإن مدحنا لا يفيده غير نقيضه ولكن ولكل امرء ما نوى، فإن مرادنا ليس استقصاء أوصافه الجميلة بل إظهار نبذة من شكر نعمته الجزيلة، والله سبحانه يقول: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق: الآية ٧]، وهذا مما آتانا الله، ولله در القائل: [شعر]

ومـا بـلـغـت كـف امـرىء مـتـطـاول إلـى الـمـجـد إلا كـان مـا نـال أطـول
ولا بـلـغ الـمـهـدون فـي الـقـول مدحـة وإن أكـثـروا إلا ومـا فـيـه أفـضـل

فلنرجع الآن إلى ما نحن فيه ونقول: إنه مد ظله لما تمكن في مكان شيخه صرف عنان همته لترتيب أمور الخانقاه وتقسيم تركته وإجراء الأمور وفق وصيته، خصوصاً في تربية ولده الأكبر، فإنه قاسى الشدائد في ذلك وشرد راحته واجتهد وبلغ من الاجتهاد غايته حتى أخرجه إلى الفعل بإعانة نجله السعيد المسعود مولانا السيد عبد الله دامت بركاته. وقد وقع ما قرره مولانا الشيخ عبد الحميد أفندي طاب ثراه وخافه من غير تخلف، وذلك لتأخر الزمان وقلّة الأعوان. ولكن لما كانت نيّته صادقة وعقيدته راسخة أعانه الله سبحانه وتعالى ونصره، وكذلك يعينه وينصره إلى أن يظهر الحق ويبطل الباطل إن شاء الله تعالى، فإن الحق يعلو ولا يعلى عليه، ومن يتوكل على الله فهو حسبه. فإن مراده، دام فيضه، ليس إلا إحياء أولاد شيخه وذريته، وإبداء ما اندرس من آثاره والقيام بموجب وصيته وتربية جميع الإخوان نحو ما كان في وقت حياته، فإنه سلّمه ربه شديد الحرص في تربية الإخوان وترقّيتهم ويحثهم على الاجتهاد في الطريقة بقاله وحاله، بل كثيراً ما يمدهم بماله ويقول: لو أن فقيراً لا يعبأ به بجيئني لأخذ الطريقة فهو أحب إليّ من خمسين رجلاً من الأذكياء يطلبون مني قراءة «المطول» مثلاً.

وقال: إن هؤلاء الفقراء لا ثياب لهم غير إزار ورداء خلقين يذكرون الله سبحانه وتعالى ليلاً ونهاراً، يملؤون عيني دون أرباب الجباب الحرير.

وقال: إن بعض الناس يقول: كيف نضيّع خمس سنين أو ست سنين في تحصيل هذه الطريقة مع أن العاقبة مجهولة، أتحصل في تلك المدة أم لا!. وهذا القول يدل على بعدهم عن ساحة السعادة، فإن الإنسان إذا ضنّ بخمس سنين من عمره في طلب الحق سبحانه وتعالى ففيماذا يصرف جميع عمره؟!.

وقال في هذا المعنى أيضاً: ينبغي للسالك أن لا يسأم ولا يضجر عن الطلب، بل اللازم أن يدوم ويصبر على الشدائد والتزام الباب بكمال الأدب قائلاً: [شعر]

لن أبرح الباب حتى تصلحوا عوجي ... أو تقبلوني على عيبي ونقصاني

ألا ترى أن سائلاً لو قرع باب واحد من كرام الناس وألحّ في السؤال فلا جرم يستحي من رده محروماً بل يرده بكسرة الخبز التي هي مقصوده. وما يطلبه الطالب من الطريقة لأهون على الله من كسرة خبز بالنسبة إلى هذا الكريم، فكيف يرد طالباً صادقاً وهو أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين ولكن لا بد من الجد والصبر.

وقال: إن بعض السالكين أراه مغموماً ومهموماً دائماً لظنه عدم حصول النسبة، وليس الأمر كذلك، فإن من داوم الذكر والصحبة لا بد من أن يحصل له النسبة، ولكن لما كان حصولها على سبيل التدريج لا يظهر له شيء فيزعم أنه لا يحصل له شيء فيغتمّ بذلك وهذا كمن يعطي ولده للخطاط ليعلمه الخط فيستكتب منه الخطاط في ساعته ويحفظ ما كتبه عنده ثم يترقّى الولد في الخط شيئاً فشيئاً وأبوه لا يشعر بذلك. فبعد مضي أيام يقول للخطاط: إن ولدي ما تعلّم شيئاً، فيخرج الخطاط ما كتبه الولد أولاً فيقابله بما كتبه في ذلك الوقت، فيتميز الغث من السمين، وكذلك هنا يعرف المرشد تباين الحالين ولكن أمر الطريقة لما كان أمراً معنوياً غير محسوس لا يمكن تفهيمه إلا بالتمثيل.

وقال في بيان سر عدم حصول هذه النسبة دفعة: أنه سأل واحد شيخه عن ذلك فقال: لو أن جواداً مثلاً لو أعطى مالاً جزيلاً لواحد من الفقراء ربما لا يكون لهذا المال قدر عنده ويصرفه فيما لا يعنيه ويفنيه في أيام قلائل ويبقى محتاجاً مفلساً، بخلاف ما إذا أعطاه تدريجاً فإنه ينفعه ويجد منه بركة عظيمة.

أقول: وهذا كما قيل: إن المحصول بعد الطلب أعز من المنساق بلا تعب مع ما في حصولها دفعة واحدة من فوات المقصود: أعني: حصول البصيرة في معرفة عقبات الطريقة فإنه كلما كانت مدة السلوك أطول كانت البصيرة في معرفة عقباتها ومقاماتها أوضح وأكثر.

وقال في بيان مضرة الدنيا وبيان ماهيتها: دنياك ما يشغلك عن مولاك فلو إن سبحتك تشغلك عن مولاك فهي دنياك. وقال تأييداً لذلك: إن واحداً من صلحاء الأنام كان يشتغل باصطياد السمك لقوت عياله وكان له ابن، فسمع مناقب واحد من أكابر زمانه وأوصافه الحسنة فتوجه لرؤيته وزيارته، فلما صار إليه رأى جمعاً عظيماً لديه يأمر ذا بذا وذاك بذاك بحيث لا يفرغ من شغل الدنيا أصلاً. فخطر على قلبه أنه: قد ضاع تعبه وأن حال أبيه أحسن من حاله. فأشرف الشيخ على خاطره هذا وقال: نعم إن حال أبيك أحسن لو لم يكن قلبه مربوطاً ومعلقاً بشوك السمك - يعني بذلك: إن الضرر في شغل القلب بها حصلت هي أولاً -.

وقال في ترغيب بعض فقرائه في إفادة المبتدئين وتعليم الطالبين بعدما نقل حديث النبي ﷺ وهو: «أن أحب عباد الله إلى الله الذين يحببون الله إلى عباده ويحببون عباد الله إلى الله»[1] الحديث: ينبغي أن يغتنم ذلك وأن لا يتساهل فيه ولو كان طالباً واحداً من غير سآمة وملالة فيه، ألا ترى أن واحداً لو قرأ الألفية مثلاً وحفظها فطريق المحافظة عليها أن يقرأها المبتدئين، فلو فعل ذلك ولو واحداً تتمكن في ذهنه ولا ينساها وإن استنكف عن ذلك. وقال: إن فلاناً عنده جمع عظيم وأنا لست بأدون منه، فكيف أضيّع عمري في تعليم واحد! فقد ضيّع عمره وحاصله من حيث لا يدري وهنا أيضاً كذلك.

* * *

---

(١) رواه ابن حبان في التوبيخ والتنبيه، الدين النصيحة، حديث رقم (١٥) [١/ ٢٢] ورواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول في سر العمل وعلانيته [٤/ ٧٦].

وحيث انتهى بنا جياد الأقلام إلى هذا المقام وفرغنا من ذكر نبذة يسيرة من أحوال مشايخنا الكرام أفاض الله علينا من بركاتهم إلى قيام الساعة وساعة القيام، ودفع عنا بحرمتهم نكبات الدهر وحوادث الأيام عَنَّ لنا أن نذكر نبذة من مناقب قطب زمانه وغوث أوانه ذي الجناحين ضياء الدين مولانا خالد قدّس سرّه حسبما التقطناه من موائد كتب الكبراء واستفدناه من فوائد تراجم الفضلاء وأحوال بعض خلفاء سلسلته الموجودين الآن لئلا يخلو الكتاب من ذكر مناقبهم السامية وأحوالهم العالية وتتميماً للفائدة للإخوان ذوي الوفاء ورغبة في دعائهم حينما طاب قلبهم وصفا سالكاً في ذلك مسلك الإيجاز والاختصار ومجانباً نهج الإطالة والاستكثار، فإن القطرة تنبىء عن الغدير واليسير يدل على الكثير، فأقول وبالله التوفيق:

اعلم أن مولانا خالد قدّس سرّه ابن أحمد بن حسين الشهرزوري يتصل نسبه بذي النورين سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه من طرف أبيه وأمه من السادات العلوية. ولد سنة ألف ومائة وتسعين تقريباً بقصبة قره داغ من بلاد شهرزور من ملحقات ولاية بغداد، وهي عن السليمانية نحو خمسة أميال ونشأ فيها وقرأ ببعض مدارسها القرآن و«المحرر» للإمام الرافعي من فقه الشافعية، و«متن الزنجاني من الصرف» وشيئاً من النحو، وبرع في النثر والنظم قبل أن يبلغ الحلم.

ثم رحل لطلب العلم إلى النواحي الشاسعة وحصل فيها كثيراً من العلوم النافعة ورجع إلى نواحي وطنه، فقرأ فيها على العالِم العامل والفاضل الكامل السيف الهندي السيد عبد الكريم البرزنجي، وعلى العالم الصالح الملا صالح، وعلى الكوكب السياري الملا إبراهيم البياري، وقرأ شرح الجلال على تهذيب المنطق بحواشيه على العالم النحرير الملا عبد الرحيم الزياري المعروف بملا زاده، وقرأ على غيره أيضاً، ورجع إلى السليمانية فقرأ فيها وفي نواحيها «الشمسية» و«المطول» و«الحكمة» و«الكلام» وغير ذلك. وقدم بغداد وقرأ فيها «مختصر المنتهى في الأصول» ورجع إلى محله المألوف.

وراوده بعض الأمراء على التدريس فأبى ورحل إلى بعض البلاد وقرأ فيه

الحساب والهندسة والإسطرلاب والهيئة على الفاضل الشيخ محمد نسيم وكمل عليه المادة على العادة، فرجع إلى وطنه وقد فاق أبناء زمنه، ما سأل عن عويصة إلا وحلّها ولا عن مشكلة إلا وأزال إشكالها. وله الصيت العظيم في العلوم المنطوق منها والمفهوم. وقد مدحه علماء عصره بذلك وأقروا بفضله، ولم ينكروا ما هنالك.

ولما بلغ قدّس سرّه من علوم الظاهر الغاية، ونصب للتدريس والإفادة أرفع راية، اشتاق قلبه إلى تحصيل المعارف اليقينية والعلوم اللدنية من صحبة أرباب القلوب وطلب الدلالة عليهم من علام الغيوب لتيقنه أن الاقتصار على الأولى من غاية القصور، وأن الكمال إنما هو في الجمع بينهما حسب المقدور، فصار يبحث عن أحوال أهل الكمال ويفتش عن أوصاف رجال الحال، حتى توجه في أثناء ذلك بماله الحلال إلى بيت الله الحرام ومدينة النبي عليه الصلاة والسلام رجاء أن يظفر ببغيته ويفوز بمنيته.

وتعدّى في مسيره ذلك من الشام، فاجتمع بها بمحدث عصره العلامة محمد الكزبري، فأجازه العلامة المذكور بجميع مروياته. واجتمع أيضاً بالشيخ مصطفى الكردي فأجازه أيضاً بجميع إجازاته الحديثية وبالطريقة العلية القادرية. ثم خرج من الشام فلما وصل إلى مدينة الحبيب محط آمال كل أريب وأديب، جعل يفتش عمن يصلح للإرشاد ويرشد إلى طريق الصلاح والسداد، قال قدّس سرّه: فلقيت فيها شخصاً من أهل اليمن تلوح فيه آثار البركة واليمن وعليه سيماء الصالحين والعلماء العاملين، فاستنصحته استنصاح الجاهل المقصر من العالم المنتصر، فنصحني بأمور من جملتها ما قال: إياك والمبادرة إلى الإنكار على ما تراه في مكة المكرمة من الأفعال الصادرة من القاطنين بها أو من الزوار وإن خالف في بادىء النظر ظاهر حاله ظاهر أقوال الرسول ﷺ وأفعاله.

فلما وصلت إلى مكة المكرمة الشريفة وزرت الكعبة المعظمة المنيفة، بكّرت يوم الجمعة إلى الحرم لأكون كمن تصدّق ببدنة من النعم، فجلست مستقبل الكعبة الغراء أقرأ «دلائل الخيرات» إذ الصلاة على النبي ﷺ من أعظم القربات، فرأيت رجلاً ذا لحية بيضاء كالثغام وعليه زي العوام من الأنام قد أسند إلى الشاذروان ظهره ووجّه نحوي وجهه، بل فكره. فحدّثتني نفسي: إن هذا الرجل لا يتأدب مع الكعبة ولا يراقب في ذلك ربه، ولم أظهر له ما وقع في الضمير ولم يطلع عليه سوى

اللطيف الخبير، فقال: يا هذا أما علمت أن حرمة المؤمن عند الله فوق حرمة بيت الله المعظَّم، وكعبة فضله أعلى كعباً من الكعبة وأعظم؟ فلماذا تعترض عليَّ باستدباري الكعبة وتوجهي إليك وإدباري عنها وإقبالي عليك؟ فهلا راعيت النصيحة التي كنت تلقيتها في المدينة ممن هو معتمد لديك وتركت الاعتراض على ما صدر عني بين يديك؟!. فلما قال ذلك لم أشك أنه من الأولياء الذين سترهم الله سبحانه تحت قبابه، والصلحاء الأصفياء الذين أخفاهم الله عن نظر الأغيار بعدما أرواهم من بحر علمه اللدني وعبابه، فقمت مسرعاً إليه وقبلت يديه وسألته أن يسامحني ويعفو عني وأن يستر زلّتي ويغفر لي ما صدر عني، وطلبت منه أن يدلني على طريق الهدى والرشد. فأشار إليَّ بأنه لا يكون ذلك الفتوح هنا بل ذاك في بلاد الهند، فحصل لي يأس من لقاء شيخ مرشد في بلد الله الحرام ومدينة النبي عليه الصلاة والسلام. فرجعت بعد أداء المناسك وقضاء المآرب والمرام إلى بلاد الشام.

ثم إنه قدّس سرّه رجع إلى وطنه من بلاد السليمانية وشرع في تدريس العلوم العقلية والنقلية وهو في غاية الشوق والغرام ونهاية الظمأ والأوام، لا كاشتياق الظمآن إلى الماء الزلال إلى لقيا مرشد يرقيه من حضيض النقصان إلى ذروة الكمال. فبينما هو في هذا الفكر والخيال إذ ورد إليه واحد من رجال الحال يقال له: المرزا محمد رحيم بك الهندي، ويقال له: محمد درويش العظيم آبادي السياح في أكثر بلاد الإسلام لملاقات الرجال، المتوفى في شهر سبز من بلاد ما وراء النهر. فاجتمع به مولانا قدّس سرّه، وبسبب عطشه في الطلب أظهر له سره من مزيد تشوقه إلى الطريقة وغرامه ووفور رغبته بالسلوك وهيامه، وشكى إليه من عدم مرشد كامل ومربٍّ واصل. فقال له: إني درت جميع البلاد وزرت الصالحين من العباد، فلم أر مثل شيخي أحداً يكون عالماً بدقائق الإرشاد والسلوك وعارفاً بمنازل السائرين إلى ملك الملوك وهو الآن مقيم من بلاد الهند في دهلى يقال له: الشاه عبد الله غلام علي النقشبندي المجددي. وقد حققت إشارة بوصول مثلك هناك إلى المقصود الأبدي والمطلوب السرمدي. فانتقش هذا القول في لوح قلبه وأخذ بمجامع لبّه، فرحل سنة ألف ومائتين وأربعة وعشرين إلى بلاد الهند ماشياً على قدميه بترك الكل من الطلبة وسائر الأسباب. ومر في مسيره هذا بكثير من بلاد العجم، وباحث فيها علماء تلك الأمم وألزمهم وأفحم.

قال قدّس سرّه: لما وصلت إلى قصبة فيها العالِم النحرير والوالي الكبير أخو

شيخنا في الطريقة والإنابة إلى مولاه الشيخ المعمر ثناء الله الپاني پتي النقشبندي، القائل في حقه شيخه حبيب الله مولانا ميرزا جانجانان قدّس سرّه: إذا قال الله سبحانه يوم القيامة: بأية هدية جئتنا، أقول: جئت بثناء الله الپاني پتي.

فبتّ عنده ليلة، فرأيت في المنام: إنه قد عضّ خدي بأسنانه المباركة يجرني إليه وأنا لا أنجر، فلما أصبحت ولقيته قال لي من غير أن أقص عليه رؤياي: سر على بركة الله تعالى إلى خدمة أخينا وسيدنا الشاه عبد الله. مشيراً أن الفتوح إنما يكون لي عنده ويحصل فيه المقصود، وهناك تؤخذ المواثيق والعهود ولديه تنجز الوعود. فعلمت أنه صرف همته ليجذبني إليه ولكنه لم يتيسر لقوة جاذبة شيخي المحول فتوحي عليه. فرحلت من تلك القصبة أقطع الأنجاد والأوهاد إلى أن وصلت دهلى المشتهر بشاه جهان آباد وقد أدركتني نفحاته قبل وصولي بنحو أربعين مرحلة، وهو أخبر قبل ذلك بعض خواص أصحابه برفودي إلى أعتاب بابه.

ثم إنه قدّس سرّه أنشأ ليلة دخوله قصيدة عربية يذكر فيها وقائع سفره هذا ويتخلص بمدح شيخه قدّس سرّه إلى هنا أخذنا أكثره من الفيض الوارد على روض مرتبة مولانا خالد للسيد محمود الألوسي رحمه الله تعالى المفتي في بغداد سابقاً. وقد ذكرنا أكثر القصيدة في ترجمة مولانا الشيخ عبد الله الدهلوي قدّس سرّه، فليراجع هناك، ومطلعها:

كملت مسافة كعبة الآمال حمداً لمن قد منَّ بالإكمال

إلخ. وله قدّس سرّه ديوان مشتمل على قصائد عربية وفارسية وكردية في مدح شيخه وغيره من الغزليات والمقطعات في غاية السلاسة ونهاية الجزالة، خصوصاً قصائده الفارسية.

قال مولانا الشيخ أبي سعيد المجددي نور الله ضريحهما في مناقب شيخه الشيخ عبد الله الدهلوي قدّس سرّه في ترجمة صاحب الترجمة: إن حضرة الشيخ - يعني الشيخ عبد الله الدهلوي - كان يقول: إن أشعاره مناسبة بأشعار مولانا الجامي قدّس سرّه السامي والحق أنه كذلك. ولنورد هنا شيئاً من تخميسه لقصيدة من قصائد مولانا الجامي الفارسية ليعرف به أربابه مرتبته: [مخمس]

كرچه در صورت در ذرات جهان جلوه كرى

كاه در حور نمايند وكاه در بشرى

لسـيـك چـون ذات تـواز ‏ زنـك حـدوثـسـت بـري
نـه بـشـر خـوانـمـت أي ‏ دوسـت نـه حـورونـه پـري
أيـن هـمـه بـرتـوحـجـا بـسـت ‏ وتـوچـيـزي ديـكـري

وبعد أن وصل إلى بابه وألقى عصا التسيار على أعتابه، تجرّد عما عنده من حوائج السفر وأنفق جميعه على المستحقين ممن حضر. فأخذ الطريقة النقشبندية المجددية بعمومها وخصوصها ومفهومها ومنصوصها، واختار لنفسه هناك خدمة تهيئة الماء للفقراء. وكان يقعد وقت اجتماع الإخوان في صف النعال مطرقاً رأسه كسراً لرعونة النفس. وبقي هناك مدة تسعة أشهر لا يعرف غير شغله ولا يختلط بالناس أصلاً، بل كان يغلق باب حجرته في غير أوقات الحلقة والخدمة ويشتغل بوظيفته.

وكان علماء الهند يريدون مخالطته ومجالسته وربما كانوا يتوسلون إليه بالشيخ أحمد سعيد قدّس سرّه فيقول له في معرض الاعتذار: أنا ما جئت هنا لمخالطة الناس بل فراراً عن الاستئناس بالناس الذي هو من علامة الإفلاس. ثم اجتمع أخيراً بالشاه عبد العزيز ابن الشاه ولي الله الدهلوي، ملك العلماء في عصره، وذلك بإشارة شيخه فأجازه بجميع ما يجوز له روايته.

ولما تمت مدة خدمته على هذا المنوال تسعة أشهر، وهي المدة التي تتم فيها الخلقة الصورية، تمت خلقته المعنوية وآن أن يتولد بالولادة المعنوية الثانوية بأن يخرج من المقتضيات البشرية. شرّفه شيخنا بالإجازة المطلقة والخلافة التامة بإشارة روحانية مشايخ النقشبندية قدّس الله أسرارهم العلية في الطرائق الخمسة: النقشبندية، والقادرية، والسهروردية، والجشتية، والكبروية. وأجازه أيضاً بجميع ما يجوز له روايته من الأحاديث والتفاسير والتصوف والأحزاب وغير ذلك مما يعتني به أولو الألباب. ثم أمره أمراً مؤكداً أن يعود إلى وطنه والاشتغال بإرشاد المسترشدين وهداية المهتدين، وتربية الطالبين، وتسليك السالكين. فقال له: كيف أقدر على الاشتغال بإرشاد العباد في تلك البلاد وفيها السادة الحيدرية والبرزنجية وهم في غاية الاعتبار ونهاية الحيثية! فإذا تصدّيت للإرشاد لا آمن من أن يحصل من طرفهم موانع وأذية. فقال له شيخه: اذهب فإنهم سيكونون خدامك وكذلك سائر رؤساء تلك البلاد يقبّلون أقدامك. ثم قال له: ماذا تريد فأزيد؟ قال: أريد الدين والدنيا لتقوية الدين. فقال له شيخه: برو همه رابشما دادم، يعني: اذهب أعطيتك الكل.

فتوجه مولانا نحو بلاده وشيّعه شيخه إلى مشهد الشيخ عابد السنامي، وهو على أربعة أميال من البلد على ما قالوا، وبشره وقت الوداع بقطبية تلك الديار. وقال بعدما فارقه: خالد برد، يعني: أخذ خالد. فرجع إلى وطنه بأنواع الفتوحات وأصناف السنوحات، سنة ست وعشرين ومائتين وألف، فاستقبله علماء البلدة وأعيانها وكافة خواصها وعوامها. وصار ذلك اليوم كالعيد عندهم ولم يظهر لهم الإرشاد في ذلك الوقت. فبعد مدة قليلة رحل إلى بغداد بإشارة غيبية من شيخه في أيام ولاية سعيد باشا ابن سليمان باشا فشرع حينئذ في الإرشاد بعد زيارة مشاهد الأولياء الأمجاد، ثم رحل بعد خمسة أشهر إلى السليمانية بإشارة معنوية من شيخه وسائر أولياء بغداد، وأعلن فيها الإرشاد. فحينئذ تحركت عروق الحسد من الحساد فشرعوا في تأليف رسائل في ذمه وتضليله بل وتكفيره، وأرسلوها إلى والي بغداد. فلما اطّلع الوالي على ما حوته الرسالة من الكلام الخالي كالخشف البالي، رماها من يده ولم يبال وقال: إن لم يكن حضرة الشيخ خالد مسلماً فمن المسلم! سبحان الله ما صاحب هذه الرسالة إلاّ مجنون أو أعمى الله بصيرته من شدة حسده، نعوذ بالله، نعوذ بالله. هذا بعينه كلام الوالي.

ثم أمر الوالي العلماء برد تلك الرسالة وإرسالها إلى المعاند، فألّف العلماء رسائل عديدة مفيدة وختموها بخواتم العلماء وأرسلوها إلى الحساد، فلم تروج أباطيلهم ولم تؤثر تضاليلهم، بل انطمست آثارهم وانمحت أخبارهم وأعلام مولانا منصوبة ومرفوعة وأنوارهم مطلوبة، وأخبارهم على الألسنة مذكورة، وفي الكتب إلى يوم القيامة مسطورة، وعلى مرور الأزمان منشورة. وكذلك حال كل المنكرين مع حال أولياء الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٤] الآيات الثلاث، فجلس مولانا قدّس سرّه في مقام الإرشاد بكمال التمكين وانكب إلى بابه العلماء من كل قطر بعيد وطار صيته في الآفاق وانتفع به خلق كثير لا يمكن درج أساميهم في هذه الأوراق حتى قيل: إنه كان يقف قدامه زهاء خمسمائة نفس من العلماء على أقدامهم، فقس على ذلك غيرهم من أقوامهم.

وأحيا بالتدريس ما اندرس من علوم الدين كالتفسير والحديث والفقه والتصوّف، واقتفى في ذلك أثر الأئمة المجتهدين. ثم رحل في أيام ولاية داود باشا

بيغداد إلى ديار الشام، وحصل له هناك قبول تام بين الأنام من الخواص والعوام والعلماء الأعلام كَمُحَشِّي الدر المختار السيد العلامة ابن العابدين. وصنّف فيه رسالة سماها «سل الحسام الهندي لنصرة مولانا الشيخ خالد النقشبندي». ولما أفاض فيها فيوضات النقشبندية المجددية مدة أعوام، وأرشد من استرشده من الخاص والعام، ارتحل إلى دار السلام ورحمة ربه الملك العلام وذلك في شهور سنة اثنتين وأربعين بعد المائتين وألف من هجرة من له تمام العزّ وكمال الشرف.

توفي قدّس سرّه بالطاعون الذي بشّر بالشهادة لمن مات به. قيل لما حان حمامه وقرب من عمره ختامه: رأى العلامة ابن العابدين في منامه كأنه يصلي على سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه في الجامع الأموي، فلما أصبح وحضر صحبة مولانا قدّس سرّه قص عليه رؤياه، فتبسم مولانا وقال: إن تعبير رؤياك أني أموت قريباً وأنت تصلّي عليّ في الجامع الأموي لأني من أولاد عثمان رضي الله عنه. فتوفي مولانا بعد أيام قلائل بالطاعون وصلّى عليه العلامة ابن عابدين في الجامع الأموي كما ذكر، ودفن هناك في الصالحية، رحمه الله تعالى رحمة واسعة ونوَّر ضريحه وروَّح روحه، وأفاض علينا من بركاته وبركات سائر الأكابر، وهذا من بعض كراماته، وكراماته قدّس سرّه كثيرة.

ومن أعظم كراماته: اعتقاد أكابر علماء عصره فيه وانقيادهم له، وكونهم من جملة مريديه وخدامه كما قال بعض الأكابر: إن انقياد علماء الظاهر لواحد من المشايخ من أعظم الكرامات. قال مولانا الشيخ عبد الغني محدِّث عصره ابن مولانا الشيخ أبي سعيد قدّس سرّهما، قيل: إنه نصب أربعة أشخاص في محله متعاقباً، وقال: يجلس في مجلسي بعدي فلان، ثم فلان، ثم فلان، كما فعله النبي ﷺ في غزوة مؤتة. فمات كلهم في هذا الطاعون متعاقباً على الترتيب الذي ذكره. والقائم مقامه الآن الشيخ عبد الله سلمه الله، نسمع أنه شيخ عظيم ومرشد كبير، انتهى.

وخلفاؤه قدّس سرّه وخلفاء خلفائه إلى زماننا هذا كثيرون جداً ومنتشرين في الآفاق والأقطار، ذكر كلهم يستدعي كتاباً كبيراً كما قال الشيخ عبد الغني، وسيدنا الشيخ محمد مظهر قدّس سرّهما في رسالتهما. والظاهر أن المراد بالشيخ عبد الله المذكور في كلام الشيخ عبد الغني قدّس سرّه هو الشيخ عبد الله الهروي فإنه ذكر في

«الزهر الوردي» في مناقب الشيخ خالد النقشبندي للشيخ أبي بكر الإحسائي الملخص من «أصفى الموارد في أخبار الشيخ خالد» للعلامة الشيخ عثمان النجدي نقلاً عن حصول الأنس في انتقال مولانا خالد إلى حظيرة القدس للشيخ إسماعيل الغزي رحمه الله تعالى أنه قال: ناداني مولانا خالد رأجلسني أمامه وقال: اسمع ما أقول لك ولا تخالفني، إني قد أقمت بعدي على سجادة الإرشاد إسماعيل وجعلته وصياً على أولادي وناظراً على كتبي وبعده محمد ناصح، وبعده عبد الفتاح، وبعده أنت آمراً ناهياً على الجميع، واوصيت بثلث مالي يخرج منه ألف قرش لإسقاط الصلاة ويصرف الباقي على حوائج المريدين. وكرّر هذه الوصية عند خلفائه مراراً، وقال في بعضها بعد ذكر الإسقاط: على أني والله منذ فرضت عليَّ الصلاة ما فاتتني صلاة ولا صلاة الضحى والتهجد. اهـ.

والشيخ محمد ناصح، توفي في ذلك الطاعون. ولما أصاب الطاعون الشيخ إسماعيل القائم مقام الشيخ قال: أجلست بعدي على سجادة الإرشاد سيدي الشيخ عبد الله الهروي وذلك بإشارة سبقت من مولانا. ولما حضرت الوفاة للشيخ عبد الله الهروي أقام مقامه الشيخ العلامة محمد بن عبد الله الخاني رحمه الله تعالى صاحب «البهجة السنية». وأقام هو عند وفاته مقام الإرشاد ولده الأكبر الأرشد الأمجد الشيخ محمد بن محمد الخاني أدام الله تعالى بقاءه.

وأما الشيخ الفاني عن الوجود الإنساني العارف الرباني عبد الله الأرزنجاني خليفة مولانا خالد، فبعدما شرّفه بالخلافة التامة أرسله إلى أرزنجان للإرشاد ثم أرسله إلى أضروم، ثم إلى القدس، ثم خصه بالإرشاد في مكة المكرمة، وأوصاه حين أرسل إلى مكة بأن لا يقبل صدقة ولا هدية والقيام بأمر الإرشاد حسبة لله، وقال: نحن نرسل ما نحتاج إليه من الشام إلى مكة في كل عام ما لم ينشب بنا مخالب الحمام. وأرسل له ما يحتاج إليه مدة حياته. ولما حجّ آخر حججه أمر الشيخ سليمان بن حسن القريمي أن يصحبه وأن لا يفارقه.

ولما حضرت الوفاة للشيخ عبد الله المذكور أقام الشيخ سليمان مقامه وأمر سائر أصحابه بالمتابعة والاستقامة. ولما حضرت الوفاة للشيخ سليمان القريمي أقام مقامه الشيخ سليمان الزهدي بن حسن الميخالجي أدام الله بقاءه وأمر سائر أصحابه بالمتابعة والاستقامة، وهو الآن في مقام شيوخه المذكورين مشغول بإرشاد الطالبين

وتسليك السالكين. لقيه الفقير مراراً وتشرّف بصحبته وهو سلمه مولاه منزو ومنقطع عن الأغيار، مشغول بذكر الواحد القهار، عالم في العلوم الظاهرية والباطنية.

وله عدة رسائل في الفقه والتصوف وكذلك مكاتيب فيه، نفع الله تعالى به عباده.

* * *

ومن جملة من أدركناه ولقيناه وتشرّفنا بشرف صحبته ونظر عنايته مراراً من خلفاء الخالدية في مكة المكرمة الشيخ خليل باشا أعطاه الله تعالى ما شاء:

قد ترك الرياسة الظاهرية واشتغل بنشر الكمالات الباطنية، وخدمة الفقراء والطالبين، وتربية المريدين والسالكين. ولما تيقن أنه هو الأولى عند المولى، وأنه هو النافع له في المعاد والمحبوب عند رب العباد، ولا نظير له في السخاء وبذل الموجود، وكأن طينته عجنت بماء الجود، ولا يخفى على كل أحد، أن ترك الرياسة الحاصلة واختيار طريق الفقراء والدراويش شيء عظيم.

أخذ الطريقة عن الشيخ عبد الله أفندي المكي وتشرّف منه بشرف الإجازة بالإرشاد واستفاد أيضاً من والده الماجد الشيخ يحيى بي المهاجر الداغستاني عن الشيخ عبد الله الأرزنجاني المكي المذكور آنفاً، والشيخ يحيى بي هذا ترك الرياسة وهاجر من وطنه إلى مكة المكرمة، واختار طريق الفقر. وزوَّج شيخه الشيخ عبد الله أفندي المكي كريمته، وزوَّج الشيخ موسى أفندي القزاني الاسترخاني، أخاه في الطريقة كريمته الأخرى وهذا يدل على غاية محبته للطريقة وأهلها.

وأقدامهم في زماننا هذا وأشهرهم وأسبقهم قدماً، علماً وحالاً وإفادة وإفاضة مولانا الشيخ أحمد ضياء الدين أفندي الكمشخانوي. أخذ الطريقة عن الشيخ أحمد بن سليمان الذي هو من عظماء خلفاء مولانا خالد قدّس سرّه بعدما بلغ من العلم غايته واشتغل في صحبته باكتساب الكمالات مع التزام الرياضات والمجاهدات.

ولما بلغ في صحبته أوج الكمال وانتشى من صهباء الوصال، شرّفه شيخه المذكور بإجازة إرشاد العباد، فتشمّر لتربية الطالبين وتحزم لتسليك السالكين في قسطنطينية المحمية فاشتهر صيته اشتهار الشمس في رابعة النهار، وأكب عليه الفضلاء والعلماء من جميع الأقطار. وبلغ في ملازمته كثيرون مرتبة المقربين

الأخيار، وحازوا قصب السبق على أقرانهم في مضمار علوم المناولة والأسرار وانتشروا في الآفاق مثل الجراد، واشتغلوا في كل قطر من الأرض بهداية العباد وله دامت إفادته تصانيف كثيرة شهيرة مثل «جامع أصول الأولياء» و«راموز الأحاديث». وقد حضرت مجلس إقرائه «راموز الأحاديث» عام ست وثلاثمائة وألف في قسطنطينية حين مسافرتي إلى طرف الوطن وفيه جمع عظيم من الفضلاء.

ثم دخلت خلوته مع اثنين من خواص أصحابه يقرءان عليه الكتاب المذكور، فكنت في صحبته ما بين الظهر والعصر وقد طرأ عليه ضعف كلي لكبر سنه وكان بحيث لا يقدر على الجلوس إلاَّ مستنداً إلى المساند ولا يقدر على المشي إلاَّ متكئاً على أصحابه، ولا يفهم كلامه إلاَّ من ألفه ومع ذلك يقطر نور الفيض من وجهه الشريف وأثر مشاهدة الجمال الحقيقي ظاهر من عينيه والغالب على مريديه الحرارة والشوق والاضطراب وغيرها من أحوال القلب أفاض الله علينا من بركاته وبركات جميع الكبراء آمين.

* * *

ومن جملتهم في زماننا مولانا الشيخ محمد ذاكراً أفندي القزاني الجيسطاوي أدام الله بقاءه:

هو أشهر خلفاء الخالدية في ديارنا ومقتدى الكل بحيث لم يبق ناحية من نواحي بلاد قزان إلا وقد انقاد له علماؤها العظماء وفضلائها الكملاء. وهو سلّمه الله عالم في جميع العلوم العقلية والنقلية تفقه على المولى العالم أوحد أهل عصره في مصره الشيخ المرحوم المغفور له عبد الله المجكرومي، ثم اشتغل بالتدريس وإفادة العلوم في بلده سنين كثيرة، وانتفع به خلق كثير ثم أخذ الطريقة الخالدين، وتلقن الذكر عن الشيخ محمد أفندي الداغستاني الإلمالي عن الشيخ يونس الخالدي عن الشيخ عبد الله المكي الأرزنجاني، وهذا الذي ذكرناه نقلناه عن خط الشيخ ذاكر أفندي بيده، ولكن سماعنا من الشيخ خليل باشا: إن يونس أفندي أخذ الطريقة عن الشيخ يحيى بي وأنه ما لقي الشيخ عبد الله المكي، والله سبحانه أعلم بالصواب ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٠].

وأخذ محمود أفندي أيضاً عن الشيخ هاشم أفندي اليمشاني عن الشيخ ضياء الدين ذبيح الله الشرواني، عن مولانا خالد قدّس سرّه. وقد تشرف راقم هذه

الحروف بشرف صحبته مراراً كثيرة.

* * *

ومن جملتهم في ديارنا الشيخ الحاج زين الله أفندي أطال الله بقاءه:

بايع أولاً بعد بلوغه رتبة الكمال في علم الظاهر منطوقاً ومفهوماً، الشيخ عبد الحكيم الجارد أقلي النقشبندي المجددي، وصحبه سنين. ثم لما حجّ حجة الإسلام، بايع الشيخ أحمد ضياء الدين الكمشخانوي الأستنبولي المذكور آنفاً، وبقي في صحبته مدة وجلس الأربعينات فشرفه بإجازة الإرشاد والخلافة التامة.

ولما رجع إلى وطنه اجتمع عنده خلق كثير واشتهر في مدة يسيرة اشتهاراً تاماً، وكثر في حلقته الصيحات التي لم تعهد في تلك الديار قط، وهي من لوازم الطريقة الخالدية في الأغلب الناشئية من مقام القلب على ما بيّنه مشائخنا قدّس الله أرواحهم. فلما رأى ذلك خلفاء شيخه الأول وفي قلبهم ضغينة عليه بتركه شيخهم واشتهاره بهذا الاشتهار في مدة يسيرة اغتنموا الفرصة ووشوا به إلى الحكام ونسبوا إليه ما لا ينسب إلى مسلم واتهموه بتهمة كبيرة واجتهدوا اجتهاداً بليغاً في هذا الباب حتى نفوه عن بلده إلى ناحية ليس فيها ولا في قربها نسمة مسلمة، فقاسى الشدائد فيها وابتلي ابتلاء شديداً سنين، ثم فرّج الله عنه سبحانه، فأعاده الروس إلى بلده فهو الآن في بلدة طرويسكي في ناحية الشرق من بلاد قزان.

وجاء لزيارة بيت الله الحرام وقبر النبي عليه الصلاة والسلام عام تخلص من الفتنة ثم رجع إلى البلدة المذكورة، وهو الآن مشغول فيها بالتدريس وتربية الطالبين وتسليك السالكين، ولم يقدر الحساد أن يضعوا عن جليل قدره عن الأول بألف مرة ورآه الفقير حين قدم مكة المكرمة في سفره الأخير وتقع بيننا المراسلات والمكاتبات من ذلك الوقت في كل عام. وهو سلمه مولاه جُبل على الجود والسخاء ومكارم الأخلاق وجودة الطبع وشدة الذكاوة، كثّر الله سبحانه أمثاله وأدام إفاضته وإفادته إلى يوم القيامة.

واعلم أن لسيدنا الشيخ محمد مظهر قدّس سرّه وسيدنا السيد مدّ ظله عدة خلفاء في بلادنا، فلا بد لنا من ذكرهم على الإجمال.

أولهم: الشيخ ملا نعمان أفندي: استفاد الطريقة النقشبندية السعيدية من شيخنا

الشيخ محمد مظهر المجددي قدّس سرّه سنين قبل ورود الفقير إلى هذه الديار، ورجع إلى وطنه مأذوناً، واشتغل في قرية بقرب أوفى بالتدريس، ولم أسمع أنه يشتغل بتربية الطالبين أم لا. ورأيته حين قدم حاجاً وهو سلمه مولانا موصوف بغاية الاستقامة.

والثاني: مولانا الشيخ محمد شريف أفندي: بايع شيخنا المذكور، روح الله روحه، وداوم على صحبته سنين كثيرة بغاية الاستقامة. ثم شرفه بالإجازة والخلافة ثم رجع إلى وطنه واختار بلدة طرويسكي المار ذكرها آنفاً للإقامة لما أن أخاه مولانا الشيخ جمال الدين أفندي كان مدرِّساً بها بعد أن درَّس في أكبر مدارس بخارى سنين، فصار فيها شريكاً لأخيه المذكور في الإمامة. ونسمع أن له مريدين هناك. وهو سلمه ربه في غاية الانقطاع عن الناس، كثير الصمت، قليل الكلام جداً، أطال الله بقاءه.

والثالث: مولانا الشيخ ملا أحمد صفا أفندي الطاش بلكوي أدام الله بقاءه: قدم حاجاً، وجاور بالمدينة المنورة سنة، وداوم على صحبة شيخنا المرحوم المبرور مداومة تامة، وتشرّف بالإجازة والخلافة. ورجع إلى وطنه ثم عاد إلى الحرمين ثانياً وقعد في المدينة أشهراً، وصحب في تلك المدة سيدنا السيد مد الله تعالى ظلال جلاله، وهو الآن في وطنه مشغول بالتدريس وعبادة مولاه والذكر والفكر. ولم أدر أنه يشتغل بتربية الطالبين أم لا!.

والرابع: مولانا الشيخ عبد الحنان أفندي البرجاني: قدم المدينة من بخارى بعد فراغه من تحصيل العلوم، وبايع شيخنا المذكور وداوم على صحبته سنين. واستفاد الطريقة المجددية إلى القوس، فشرّفه بالإجازة قبيل وفاته نور الله مرقده. ثم قدم مكة ولازم سيدنا الشيخ عبد الحميد أفندي الشرواني نوَّر الله مرقده أشهراً، واستفاد في صحبته الكمالات الثلاث وأجازه أيضاً بتلقين الطريقة كما أجازه شيخه. وهو الآن في بلاده مشغول بالتدريس.

والخامس: مولانا الشيخ عبد الحق أفندي سلمه الله: استفاد الطريقة من شيخنا المذكور قدّس سرّه في أثناء تحصيل العلم إلى الحقائق ثم استفاد الحقائق إلى الآخر من شيخنا الشيخ عبد الحميد أفندي برد الله مضجعه. ثم أتم سلوكه بأخذ التوجه فيما بقي من المقامات في صحبة سيدنا السيد، متعنا الله بطول بقاءه، فشرّفه

بالإجازة. ثم رجع إلى وطنه واستوطن في بلدة سيم وفولاد في طرف الشمال وصار إماماً مدرساً بها سلمه الله.

والسادس: مولانا وصديقنا الشيخ خير الله أفندي ابن الشيخ زين الله أفندي الملقب بالأمير خليفة: استفاد الطريقة من سيدنا الشيخ محمد مظهر سنين، ثم بعد وفاته استفاد في مكة من سيدنا الشيخ عبد الحميد أفندي شهوراً. ثم بعد وفاته استفاد باقي المقامات المجددية كلها من سيدنا السيد أدام الله تعالى بركاته. وشرفه السيد بالإجازة المطلقة في الطريقة وسائر العلوم، فرجع إلى بلده وصار إماماً ومدرِّساً في محروسة قارغالي، واشتهر فيها إشتهاراً تاماً، وانكب عليه الطلبة من جميع الجوانب ولا يزالون يتزايدون عاماً فعاماً مثل الجراد، وهو حفظه مولاه مشمر عن ساق الجد في التدريس في علم الظاهر، لكن لا يعلم له إلى الآن تعليم الطريقة، ولعل ذلك لمكان والده الماجد وسائر خلفاء شيخ والده سلمهما الله، وإلا فله دام فيضه حال قوي بحيث لو اشتغل بالتربية بحسب الباطن لانكب عليه الطالبون أكثر من طلبة علوم الظاهر.

* * *

[كيفيّة طريقة مشايخ الطريقة النقشبندية]

وإلى هنا انتهى التراجم إجمالاً بحسب علم الفقير ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: الآية ٧٦]. ثم أردنا أن نبيِّن نبذة من **كيفية طريقة مشايخنا الآن على سبيل الإجمال**، فنقول وبالله التوفيق وبيده أزمة التحقيق:

قال الأكابر رحمهم الله ونفعنا بهم: إن أول ما يتنبه العبد لطلب الحق سبحانه وسلوك طريقه بخطرة سماوية من الله وتوفيق خاص إلٰهي، ويقال لتلك الخطرة في اصطلاحهم: تجلياً إرادياً، يعني: تجلي الحق سبحانه لعبده بصفة الإرادة، كما مر. وتلك نعمة عظيمة يجب على صاحبها أن يقوم بحقها وأن يجتهد في حفظها، فإنها سريعة الزوال وطريق حفظها أن يسلمها إلى كامل مكمل عالم بالطريق فإن لم يفعل ذلك فقد ضيعها على ما حكمت به المشاهدة وشهدت به التجارب من زمان السلف إلى زماننا هذا قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل.

ومعرفة هذا الكامل المكمَّل إنما هو بالاستدلال بظاهر حاله من استقامته في الشريعة المصطفوية واتباعه للسنة النبوية، وتمكنه في طريق السادات الصوفية. فإن انضم إلى ذلك وجود الأحوال والتصرفات في بواطن المريدين فهو الغاية، فإذا وجد مثل هذا الشخص وحضر عنده وأظهر له إرادته فأول ما يلقنه هو:

التوبة: فإنها أول المقامات وأساس الكل، وكيفيتها: إن يظهر الندم بالصدق والخلوص على ما فرط منه فيما سبق، وأن يرد المظالم إن أمكن، وأن يستغفر ويدعو لصاحب الحق بالخير إن لم يمكن، وقضاء حقوق الله تعالى كالصلاة والصوم والزكاة والندم والاستغفار على ما لا يمكن قضاؤه كشرب الخمر والزنا، وأن يعزم بقلبه على أن لا يعود إلى الذنوب أبداً. ثم أن يقول بلسانه بتلقين المرشد آخذاً بيده امتثالاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: الآية ١٠]، فإن المشايخ ورثته ونوّابه ﷺ بعدما قرأ الفاتحة مرة والإخلاص ثلاثاً وأهدى ثوابها إلى أرواح المشايخ الكرام والاستمداد منهم، بسم الله الرحمٰن الرحيم، أستغفر الله ربي من كل ذنب وأتوب إليه ثلاثاً، لا إله إلا الله محمد رسول الله ثلاثاً، أشهد أن لا إله

إلاّ الله وحده وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، رضيت بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبسيِّدنا محمد نبيّاً ورسولاً ﷺ. ويقرىء المرشد هذا الدعاء أيضاً من شاء ثلاثاً: اللهمّ مغفرتك أوسع من ذنوبي، ورحمتك أرجى عندي من عملي. وهذا يقال له في اصطلاحهم: البيعة في الطريقة والدخول فيها وتلقُّنها وأخذها.

وللتوبة شروط كثيرة لا تكاد تحصر، ذكرت في المطولات كـ«الإحياء» و«عوارف المعارف» و«قوت القلوب» وغيرها، وكلها لازمة هنا فينبغي تتبعها والعمل بموجبها. ومن أهمها تصحيح النيَّة فإن بها يحصل تصحيح البداية وبتصحيح البداية يحصل تصحيح النهاية.

قال شيخ الإسلام عبد الله الأنصاري الهروي قدّس سرّه في كتابه «منازل السائرين»: واعلم أن العامة من علماء هذه الطائفة والمشيرين إلى هذه الطريقة اتفقوا على أن النهايات لا تصح إلاّ بتصحيح البدايات، كما أن الأبنية لا تقوم إلاّ على الأساس. وتصحيح البدايات هو إقامة الأمر على مشاهدة الإخلاص ومتابعة السنة وتعظيم النهي على مشاهدة الخوف ورعاية الحرمة والشفقة على العالم ببذل النصيحة وكف المؤنة ومجانبة كل صاحب يفسد الوقت وكل سبب يفرق القلب. انتهى ما تعلق الغرض به.

وقال في «حدائق الحقائق»: أول مقدمات التوبة هو الانتباه، وثاني مقدماتها هجران رفقاء السوء، فإنهم يمنعون عن التوبة والاستقامة عليها، ويوقعون التائب في المعاصي قولاً وفعلاً وحالاً ويضيعون بضاعة انتباهه لكونها ضعيفة في أول الأمر. اهـ مع زيادة.

قال الشيخ أبو مدين المغربي قدّس سرّه: من علامات صدق المريد فراره عن الخلق، وهذه حالة الرسول ﷺ في خروجه وانقطاعه عن الناس في غار حراء للتحنث، أي: للتعبد.

وقال مولانا الجامي في شرح هذا القول: أجمع محققوا الصوفية على أن العزلة بالجسم سنة كاملة واجبة على أهل الطريق في بداية الحال إلاّ من صحبة المرشد وخدمته. انتهى.

وقال النيسابوري في «تفسيره» عند قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: الآية ٢٥] الآية، قيل: علامة قبول التوبة هجران إخوان السوء وقرناء الشر

ومجانبة البقعة التي باشر فيها الذنوب والخطايا، وأن يبدل بالإخوان إخواناً وبالأخدان أخداناً وبالبقعة بقعة، ثم يكثر الندامة والبكاء على ما سلف منه والأسف على ما ضيّع من أيامه ولا تفارقه حسرة ما فرط وأهمل في البطالات ويرى نفسه مستحقة لكل عذاب وسخط.

وقال سيدي الشيخ محمد مظهر روح الله روحه ونور ضريحه: ولا يصحب الأغيار ـ وهم الذين لا يعتقدون في مشائخ الطريقة ـ خصوصاً مع من يتكلم في شيخه، أو لا يحبه، أو يكون الشيخ معرضاً عنه، فإن المجالسة معهم سم قاتل، فليجتنب ذلك أشد الاجتناب. انتهى.

فعلم من ذلك أن من خالف ذلك لم يدخل في الطريقة بعد وإن سرد في الظاهر إلى آخر المقامات بل حفظ أساميها دون أن يضع قدمه فيها، ثم طريق السلوك ثلاثة: طريق الصحبة، وطريق الذكر، وطريق المراقبة، كل ذلك موصل بنفسه رعاية شروطه من غير توقف أحدها على الآخر.

والصحبة على نوعين: صحبة بحسب الظاهر، وصحبة بحسب الباطن. ويسمى الأخير عندهم: رابطة، يعني: ارتباط المريد بالشيخ بحسب المحبة والعلاقة المعنوية الروحانية وتقويه به على ما قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف: الآية ١٤] وقوّيناها بالصبر على هجران الأوطان والفرار بالدين إلى بعض الغيران وجسرناهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالإسلام، وكل من صبر على أمر فقد ربط نفسه عليه، وحاصلها: تألف قلب المريد، بقلب شيخه وهو نعمة عظيمة ولو بواحد من آحاد المؤمنين حيث قال الله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٦٣] الآية. فما ظنك لو كان ذلك بواحد من صاحب دولة لائقة بالوساطة بين المريد المستوطن في حضيض البعد والهجران وبين الملك المنان، أو هي توسل المريد بشيخه إلى الله تعالى وهو أيضاً أمر مطلوب ومحمود. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: الآية ٣٥] الآية.

والوسيلة تعم كل ما يصلح أن نتوسل به طاعة أي كان، أو واحداً من أولياء الله تعالى يدل على ذلك آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: الآية ٥٧]. قال المفسرون: هي القربة إلى الله عز وجل

والدرجة العليا. وعن ابن عباس: هم عيسى وأمه، وعزير والشمس والقمر والنجوم، أيهم أقرب، بدل من واو يبتغون، وأي موصولة، أي يبتغي من هو أقرب منهم الوسيلة إلى الله، فكيف بغير الأقرب! أو ينظرون أيهم أقرب إلى الله فيتوسلون به. ولا ينكر على ذلك إلاَّ أهل الغرة بالله، فكيف وقد قال العلماء في مفتتح الكتب في بيان حكمة الإتيان بالصلاة على النبي وآله وأصحابه: ينبغي للعاقل أن يستعين في جميع أموره وكل شؤونه بجناب الحق سبحانه وتعالى ويسأله إفادة طلبه وإفاضتها وإنجاح بغيته دنياوية كانت أو دينية، عاجلة كانت أو آجلة، لكن لا بد من نوع الملائمة والقرب المعنوي بين المفيض والمستفيض. ولكوننا متعلقين غاية تعلق بالعلائق البشرية والعوائق البدنية، ومتدنسين بأدناس اللذات الحسية والشهوات الجسمية، وكونه تعالى في غاية التقدس والتنزُّه تكون الملائمة منتفية رأساً، فاحتجنا في سلوك سبيل الاستفاضة منه جل وعلا إلى متوسط له وجه تجرد ووجه تعلق، فبوجه التجرُّد يستفيض من الحق، وبوجه التعلق: يفيض علينا. وهذا المتوسط أشرف أصحاب الوحي وأعظمهم رتبة نبينا ﷺ. ولما كانت ملائمة الآل والأصحاب بالنبي ﷺ أكثر من ملاءمتنا له، وملاءمتنا للآل والأصحاب أكثر من ملاءمتنا له عليه الصلاة والسلام جرت العادة بالتوسل بهم بالصلاة والسلام. وكلما كانت الملائمة أكمل وأوفر كان أمر الاستفاضة أتم وحصول الإفاضة أكثر. ولا شك أن ملاءمتنا بالمشايخ الكرام أكثر من ملاءمتنا بالآل والأصحاب العظام فضلاً بالنبي ﷺ، والملك العلام وهذا معنى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: الآية ٥٧].

وقد صنف في هذا الباب رسالات كثيرة، ومر في «الرشحات» في مواضع عديدة ما فيه شفاء للمتبصر، ورسالتنا هذه ليست للمنكر حتى نحتاج إلى إقامة الحجة وإتيان الدليل، وإنما أوردنا هذا القدر للتوضيح والتنبيه والاستبصار والاسترشاد وإلا فكيف ينكر على ذلك، وقد مر توسل الشيخ عبد الله الدهلوي قدّس سرّه بذوي الحاجات والكلاب عند ترجمته! . ونقل عن الخواجة بهاء الدين قدّس سرّه أنه كان يضع وجهه المبارك على نقش أقدام الكلام تواضعاً وتوسلاً إلى الله تعالى بها لكونها مخلوقة لله تعالى، وأمثال ذلك كثيرة لا تخفى على من تتبع أحوالهم.

وكيفيتها: استحضار صورة شيخه في خياله وملاحظة معينه المعنوية الروحانية

معه في جميع حالاته برعاية كمال الأدب وغاية التعظيم له على ما مر في «الرشحات» عند ذكر خواجة عبد الله الإمامي الأصفهاني وخواجة حسن العطار في المقالة، وفي المقصد الثالث منها في غير موضع، فارجع هناك تجد الغاية.

وأما **الصحبة بحسب الظاهر فهي**: إن يلتزم المريد صحبة شيخه الذي أخذ عنه الطريقة دائماً برعاية الآداب الظاهرية والباطنية، ونفي وجوده بأنه لا شيء محض وليس عنده شيء من الكمالات من غير التفات إلى غيره من المشائخ معتقداً أنه الباب الذي يدخل منه إلى عالم الحقيقة وإن غيره من الأبواب قد سد دونه فينعكس ما في قلب شيخه على قلبه بجاذبة المحبة وتأخذ أنوار المشاهدة الإلٰهية في اللمعان في قلبه. وقد قال المشائخ: إن هذا الطريق أسهل وأشد إيصالاً إلى المطلوب من بين الطرق الثلاثة، ومر ذلك أيضاً في «الرشحات». ولا بد من دوام الصحبة، ودوامها بحسب الظاهر متعسر، وأما بحسب الباطن: فلا تنقطع أصلاً لمن راعاها.

وأما **طريق الذكر فهو** أيضاً على نوعين: ذكر اسم الذات، وذكر النفي والإثبات.

فذكر اسم الذات: هو الاشتغال بذكر لفظة الجلالة: الله، من اللطائف السبعة على الترتيب المعهود عندهم:

فأولها: **لطيفة القلب**، وهي لطيفة ربانية مودعة في الجانب الأيسر، مائلة إلى تحت الثدي والجنب بفاصلة إصبعين. ونسبتها إلى القلب الجسماني الصنوبري الشكل الموجود في جميع الحيوانات نسبة الصبي إلى المهد. وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان عند الأكثر وتسمى: حقيقة جامعة. وتسميها الحكماء: بالنفس الناطقة، ويسميها بعضهم: لطيفة إنسانية.

وكيفية الاشتغال بالذكر: منها: أن يخلي القلب عن الخواطر وحديث النفس، بل عن جميع ما سوى الله تعالى بقدر الإمكان بعد تقديم الرابطة ويقول بلسان الخيال من هذا المحل: الله الله، ملاحظاً مفهومه بأنه ذات موصوفة بجميع صفات الكمال، ومنزهة عن سمة النقصان والزوال كما آمنا به وصدقناه من غير أن يتصور صورة قلبه وبلا حبس نفسه، بل يترك نفسه على حاله ولا يلاحظ صفة من صفاته سبحانه وتعالى لئلا ينزل عن ذروة الذات إلى وادي الصفات، فإن مطمح نظر هذه الطائفة العلية هو أحدية الذات دون الأسماء والصفات بخلاف سائر الطرق. ولا يحرك رأسه وسائر أعضائه باختياره ولا بد من توجه السالك إلى قلبه بكليته ويقلبه إلى الله تعالى في جميع أنواع الذكر، فإن حصول النسبة بدون هذين الأمرين محال.

ويقال لهذا الوقوف القلبي، كما مر في أول المقالة. ولا بد أيضاً من حفظ القلب من هجوم الخطرات إليه، ويقال لذلك: نكهداشت، كما مر.

وأما العزلة عن الناس فليس ذلك بشرط في الطريقة النقشبندية إلاّ عن الأغيار، فهو من أهم المهمات بإجماع المشايخ كما مر آنفاً، ولا يشترط أيضاً غض البصر، ومع ذلك لو فعل هذين الأمرين يكون حسناً، فإنهما أجمع لهم وأنقى للخواطر. وقد ورد بهذين آثار كثيرة عن كبراء هذه الطائفة وليس هذا موضع إيرادها.

ولا يقال: إن بناء طريقة هؤلاء الأكابر على الخلوة في الجلوة لأن تلك الجلوة ليست مع كل أحد، بل مع المرشد والإخوان. وأما القعود في الأربعينيات فليس هو من مختارات مشائخنا الكرام من لدن شيخ شيوخ العالم الخواجة عبد الخالق الغجدواني إلى هذه الأيام، وإنما اعتناؤهم بالصحبة برعاية شروطها ففي اختيار الأربعين تفويت هذه الصحبة التي هي سنة النبي ﷺ من غير نكير.

قال الإمام الرباني قدّس سرّه السامي في بعض مكاتيبه: إنه لما كان بناء الطريقة النقشبندية على اتباع السنة اختاروا الصحبة لكونها سنة واجتنبوا الأربعنات لعدم كونها في الصدر الأول نكل صحبة عند هؤلاء الطائفة تعدل أربعيناً واحداً، وقد اختار الأربعين من كبار متأخري النقشبنديين مولانا خالد الشهرزوري قدّس سرّه لشيء بدا له، ومشى أتباعه على ذلك ولا يعترض عليه إلا من تعرض لحتفه فإنه مولانا خالد، فيشتغل السالك بكمال الجد وتمام الاجتهاد بعد سد مجاري الوساوس والخطرات، أعني: الحواس الخمس الظاهرة بحفر حوض قلبه بمعول ذكر اسم الذات وتطهيره من الأنجاس والأدناس ينبع من أطرافه ينابيع الحكمة والحقائق الإلٰهية والمعارف اليقينية صافية عن كدورات الوساوس الشيطانية والخطرات النفسانية، فإن استصعب عليه شيء مما تصلب في قعره وتحجر، فليشتكي إلى شيخه ومرشده كما فعل سلمان الفارسي رضي الله عنه، رئيس هذه السلسلة، وقت حفر الخندق، فإن الشيخ يدفعه بمعول توجهه فعسى أن تلمع من تحت معوله برقة يشاهد السالك بها قصور صنعاء عالم الأرواح وحدائق شام عالم الحقيقة ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝٢٠﴾ [إبراهيم: الآية ٢٠].

ويداوم على الذكر على هذا الوجه إلى أن تجري لطيفة قلبه بالذكر، بمعنى أنه متى توجه إلى قلبه تجده ناطقاً بالذكر وحاضراً بالله لا أنه تحصل له الحركة، فإن ذلك ليس بلازم ولا مستحيل الحصول.

والعمدة في كل الأذكار هي: الوقوف القلبي، وتعيين العدد ليس بشرط، فإن ذلك لم يرد من المتقدمين كما عرفت في «الرشحات» بل اللازم استغراق الأوقات بالذكر والمداومة عليه آناء الليل والنهار.

ولكن لما رأى مشايخنا المتأخرون تقاعد الهمم وتكاسل المريدين عن المداومة تداركوا ذلك بتعيين العدد واختلفوا في مقداره، فمنهم من كلف بالكثير من غير فرق بين مستعد وغيره، ومنهم من تمسك بقول النبي ﷺ على ما في «البخاري» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لن ينجي أحداً منكم عمله، سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيء من الدلجة والقصد القصد تبلغوا»**(١).

وعن عائشة رضي الله عنها: إن رسول الله ﷺ قال: **«سددوا وقاربوا واعلموا أن لن يدخل أحدكم عمله الجنة، وإن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ»**(٢). وعنها أيضاً: سألت رسول الله ﷺ: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: **«أدومها وإن قل»**(٣). وقال: **«كلفوا من الأعمال ما تطيقون»**(٤).

وعنها أيضاً عن النبي ﷺ: **«سددوا وأبشروا»**(٥) وهذا اختيار مشايخنا قدّس الله أسرارهم، فإنهم كانوا يعاملون مع كل واحد من المطالبين على حسب استعدادهم، كما مر في تراجمهم، ولكن لا ينبغي أن ينقص من خمسة آلاف في المَلَوَيْن من كل لطيفة وينبغي أن يزيد شيئاً فشيئاً بالتدريج وذلك مع مصاحبة حضور القلب وبدونها لا فائدة للذكر معتد بها غير ثواب الآخرة، وهو نصيب الأبرار. ونظر هذه الطائفة ليس في غير الحق سبحانه ورضائه، ورجاء الثواب عندهم يعد من

---

(١) باب القصد والمداومة على العمل، حديث رقم (٦٠٩٨) [٥/ ٢٣٧٣] ورواه البزار في المسند برقم (٣١٢١) [٨/ ١١٨] ورواه غيرهما.

(٢) صحيح البخاري، باب القصد والمداومة على العمل، حديث رقم (٦٠٩٩) [٥/ ٢٣٧٣] ورواه مسلم في صحيحه، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله...، حديث رقم (٢٨١٨) [٤/ ٢١٧١] ورواه غيرهما.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، باب القصد والمداومة على العمل، حديث رقم (٦١٠٠) [٥/ ٢٣٧٣] ورواه مسلم في صحيحه، باب فضيلة العمل الدائم...، حديث رقم (٧٨٣) [١/ ٥٤١] ورواه غيرهما.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في المصنف، حديث رقم (٣٤٣٤٣) [٧/ ٨٠].

(٥) رواه البخاري في صحيحه، باب القصد والمداومة على العمل، حديث رقم (٦١٠٢) [٥/ ٢٣٧٣] ورواه ابن حبان في صحيحه، ذكر الإخبار عما يجب على المرء من لزوم التسديد..، حديث رقم (٣٥٨) [٢/ ٧٣] ورواه غيرهما.

الذنوب، ولهذا قيل: «حسنات الأبرار سيئات المقربين»[١].

وينبغي أن يقول بعد مائة أو مائتي مرة من كل ذكر بلسان الخيال بغاية التواضع والتضرع والانكسار والاستحياء والانفعال: إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي، أعطني محبتك ومعرفتك، ولينظر هل هو صادق في هذا الكلام أم لا! وليجتهد أن يكون متصفاً بمفهومه في الواقع، ويتضرع إلى الله تعالى دائماً ولا يفارق التضرع أبداً، وليكن وقت اشتغاله بالذكر فارغ البال من جميع الأشغال والتفرقة والأهوال خصوصاً في حضور المرشد.

فإذا حصل للقلب نسبة الحضور مع الله، وجرى بالذكر على ما مر، فليشتغل من لطيفة الروح على هذا المنوال بأمر شيخه وتلقينه ولا يسأل ذلك من شيخه، بل ينتظر أمره، فإنه أعلم بحاله منه.

وهي لطيفة مودعة في الجانب الأيمن، مائلة إلى تحت الثدي والجنب بفاصلة إصبعين وهي في مقابلة لطيفة القلب، ثم بعد تمام أمرها يشتغل من لطيفة السر على المنوال السابق بأمر شيخه، وهي لطيفة مودعة في جنب الثدي الأيسر مائلة منه إلى وسط الصدر بفاصلة إصبعين، ثم يشتغل من لطيفة الخفي وهي لطيفة مودعة في جنب الثدي الأيمن مائلة منه إلى وسط الصدر كذلك بفاصلة إصبعين.

ثم من لطيفة الأخفى، وهي لطيفة مودعة في وسط الصدر.

ثم من لطيفة النفس، وهي لطيفة مودعة في وسط الجبهة.

ثم من لطيفة القالب، ومحلها تمام البدن حتى يجري الذكر من كل منبت شعرة، ويقال له: سلطان الأذكار.

واعلم أن خمسة من هذه اللطائف السبعة عند هذه الطائفة من عالم الأمر، أعني: لطيفة القلب والروح والسر والخفي والأخفى، والخمسة الباقية، أعني: النفس والقالب الذي هو مشتمل على لطائف العناصر الأربعة من عالم الخلق، وقد مر معنى عالم الأمر والخلق في «الرشحات» فراجعها. ولكل لطيفة من لطائف عالم الأمر أصل فوق العرش متعلق باللامكان وحصل لتلك اللطائف نسيان وذهول عن أصولها بسبب العلائق الجسمانية والعوائق الدنياوية والحظوظات النفسانية، فاحتيج لتذكير أصولها إلى شيخ كامل مكمِّل وذكر كثير حتى يحصل لها ميل إلى أصولها

---

(١) هو من كلام أبي سعيد الخراز كما رواه ابن عساكر في ترجمته وهو من كبار الصوفية، مات في سنة مائتين وثمانين. (العجلوني، في كشف الخفاء، حديث رقم (١١٣٧) [١/ ٤٢٨].

وتنجذب بالجذبات الإلٰهية فتصل إلى أصولها، ثم إلى أصول أصولها، ثم وثم إلى أن تصل إلى الذات البحت من غير احتجاب بالصفات والشؤونات، ويقال له: التجليات الذاتية. فيحصل لها الفناء الأتم والبقاء الأكمل، وأما قبل وصولها إلى أصولها لا تحصل لها الفناء، فأصل القلب الأفعال الإلٰهية فيكون فناؤه في التجلي الأفعالي. وعلامة فنائه: اختفاء أفعال السالك وأفعال جميع المخلوقات عن نظره، وعدم رؤيته غير فعل فاعل حقيقي. ويقال للولاية القلبية: ولاية آدم عليه السلام. ويقال للسالك الواصل من هذه الولاية: آدمي المشرب. وأصل الروح الصفات الثبوتية ففناؤه في التجلي الصفاتي الثبوتية وعلامة هذا التجلي اختفاء صفات السالك وصفات جميع الممكنات عن نظره ورؤيته إياها مسلوبة عن الممكنات منسوبة إلى الحق سبحانه. ويقال لولاية الروح: ولاية نوح، وولاية إبراهيم عليهما السلام. ويقال للسالك الداخل من تلك الولاية: إبراهيمي المشرب.

وأصل السر: الشؤونات الذاتية، وعلامته: وجدان السالك ذاته مستهلكاً في ذاته تعالى، ويقال لولاية السر: ولاية موسى عليه السلام، وللسالك الواصل منها: موسوي المشرب.

وأصل الخفي: الصفات السلبية، ففناؤه في التجلي الصفاتي السلبي. وعلامته: مشاهدة السالك تفرده تعالى وتجرده عن جميع العالم، وما يناسبه. ويقال لولاية الخفي: ولاية عيسى عليه السلام، وللسالك الواصل منها: عيسوي المشرب.

وأصل الأخفى: الشأن الجامع. ففناؤه في التجلي الشأني الجامع. وعلامته: حصول التخلق بأخلاق الله تعالى للسالك. ويقال لولاية الأخفى: الولاية المحمدية، . وللسالك الواصل منها: محمدي المشرب. فاحفظ ذلك فإنه كثيراً ما يقع في كلام هذه الطائفة الولاية الآدمية والولاية الإبراهيمية وغيرها، فمن لم يعرف هذا لم يعرف ذلك.

وربما يراقبون بملاحظة أصول هذه اللطائف بأن يجعل قلبه في مقابلة قلب نبينا محمد ﷺ ثم يعرض على الحق سبحانه بالخيال: إن أفض عليَّ من فيض التجلي الأفعالي الذي وصل من قلب سيدنا محمد ﷺ إلى قلب آدم عليه السلام.

ويقول في الروح: أفض عليَّ من فيض التجليات الصفاتية الثبوتية الذي وصل من روح نبينا ﷺ إلى روح سيدنا نوح وسيدنا إبراهيم عليهما السلام جاعلاً روحه في مقابلة روح سيدنا محمد ﷺ وهكذا في البواقي. ويجعل في تلك المراقبة لطائف المشايخ كالمنظرة.

ولكل لطيفة من لطائف عالم الأمر نور على حدة ربما يظهر في أثناء السلوك لمن له كشف. فنور القلب أصفر، والروح أحمر، والسر أبيض، والخفي أسود، والأخفى أخضر، ونور النفس بعد التزكية يظهر بلا كيف ولون.

وأصل كل لطيفة من لطائف عالم الخلق أصل لطيفة من لطائف عالم الأمر، فأصل النفس أصل القلب، وأصل الهواء أصل الروح، وأصل الماء أصل السر، وأصل النار أصل الخفي، وأصل التراب أصل الأخفى.

وأما النفي والإثبات فقد مر تفصيله مستوفى مع شروطه في «الرشحات» فلا نعيده هنا، لكن لا يشتغل به إلا بعد دخوله في المراقبة.

* * *

[طريق المراقبة]

وأما طريق المراقبة، وهي في اللغة بمعنى الانتظار، وفي اصطلاح هذه الطائفة: حفظ القلب عن الخواطر وانتظار الفيض الإلٰهي من غير ذكر ورابطة مرشد واستدامة علم السالك باطلاع الرب عليه في جميع أحواله. ويدل على ذلك آيات من القرآن كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: الآية ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: الآية ٦١]، وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: الآية ١٦]، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة: الآية ٨٥]، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: الآية ٤] وأمثال ذلك كثيرة وردت في القرآن لتعليم الله عباده أنه حاضر معهم وناظر إليهم لا تخفى عليه خافية، فمن لاحظ ذلك في جميع أوقاته يحصل له حضور عظيم البتة ومن لم يلاحظ بل لاكها بين لحييه لا يحصل له شيء غير الخسارة. قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: الآية ٨٢].

* * *

[علامة الإيمان بالشيء]

وعلامة الإيمان بالشيء: الجريان والعمل بموجبه، وترك الجريان والعمل بموجبه من علامة الظلم بالكفر به، فيستحق الخسارة كل الخسارة. ومن الظالمين من يسميها صمتاً كاذباً من غاية جهالته ونهاية غوايته. ويدل عليها أيضاً أحاديث كثيرة، منها: ما في «الصحيحين» عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن

النبي ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[(١)]. وعن النبي ﷺ أنه قال: «فكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة»[(٢)] أخرجه أبو الشيخ كذا في «الجامع الصغير». وعنه ﷺ: «إن لله في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها»[(٣)]، وانتظار الفيض من الله هو عين التعرض لنفحات الله، فمن لم ينتظر لا نصيب له منها كمن دخل تحت السقف والجدار وقت نزول الأمطار، ونسبة فيض رحمة الله تعالى متساوية للكل ولكن النقصان من القابل. نسأل الله سبحانه وتعالى كمال القابلية.

* * *

[مراقبة الأحدية]

فأول مراقبة في الطريقة النقشبندية هي: **مراقبة الأحدية**، وهي ملاحظة ورود الفيض من الذات الأحد الموصوفة بجميع صفات الكمال المنزهة عن جميع النقائص والزوال على لطيفة القلب بواسطة الشيخ، وفيها يحصل الحضور مع الله تعالى والغفلة والذهول عما سواه سبحانه. فإن امتد الحضور إلى ساعتين فهو علامة لقطع تمام دائرة الإمكان التي هي أول دوائر تنكشف للسالك حين سلوكه إن كان له كشف عياني، فكلما قطع شيئاً من الدائرة تظهر للسالك بالنورانية والتشعشع على قدره، والذي لم يقطع بعد يرى مظلماً بلا نور كطرف شمس حين الكسوف، فإن قطع كلها تظهر له تمامها كقرص الشمس، وإن لم يكن له كشف فعلامة قطع تمامها حصول الحضور على ما قلنا. وبعضهم جعل رؤية الأنوار علامة لقطع تمامها، ونصف دائرة الإمكان هذه من مركز الأرض إلى محدب العرش، ونصفها الباقي فوق العرش حيث لا خلاء ولا ملاء وهو المراد من قولهم: اللامكان، وهذه صورتها.

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

(٢) ورد بلفظ: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة» رواه ابن أبي شيبة في المصنف من كلام الحسن البصري، برقم (٣٥٢٢٣) [٧/ ١٩٠] وورد بلفظ: «تفكر ساعة خير من عمل دهر من الدهر»، رواه أبو الشيخ في العظمة، ما ذكر من الفضل في المتفكر. . .، حديث رقم (٤٨) [١/ ٣٠٥] وروى الحديث غيرهما.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط، من اسمه محمد، حديث رقم (٦٢٤٣) [٦/ ٢٢١]، قال العجلوني في كشف الخفاء: «ذكره في الإحياء، وقال العراقي في تخريج أحاديثه: رواه الترمذي الحكيم في النوادر والطبراني في الأوسط من حديث محمد بن مسلمة» حديث رقم (٧٠٨) [١/ ٢٦٩].

وانكشاف مقامات القرب لأهل الكشف في صورة الدائرة إنما هو لعدم اتصافها بالجهة وإلا فأين الدائرة هناك؟.

* * *

[مراقبة المعيَّة]

والثانية: مراقبة المعية على وفق قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: الآية ٤] بأن يلاحظ ورود الفيض من الذات التي هي معه ومع كل ذرة من ذرات العالم معية بلا كيفية على لطيفة القلب أيضاً. وفي هذا المقام يوجب الترقي للسالك التهليل اللساني مع رعاية الوقوف القلبي وملاحظة المعنى بأن يلاحظ وقت النفي نفي وجوده ووجود جميع ما سوى الله تعالى أو ما يراد نفيه بخصوصه. ووقت الإثبات إثبات الحق تعالى على ما مر في النفي والإثبات. ويستعمل هذه المراقبة في الولاية الصغرى التي هي ولاية الأولياء ومورد الفيض فيها لطيفة القلب، وتنكشف لأهل الكشف هنا دائرة ثانية يقال لها: دائرة الأسماء والصفات ودائرة الولاية الصغرى، وهذه صورتها.

والسير هنا يقع في تجليات الأفعال الإلهية ويحصل أيضاً في هذا المقام التوحيد الوجودي والذوق والشوق والتأوه والصيحات والاستغراق والغيبية ودوام الحضور ونسيان السوى الذي هو عبارة عن فناء القلب. وفي هذا المقام علامة من جميع المقامات الفوقانية بطريق الظلّية.

فإذا قطع السالك هذه الدائرة بعناية الله سبحانه وتوجه المرشد وجذبه وحصل له الحضور التام، يشرع في تزكية النفس التي محلها وسط الجبهة ويضع قدمه بعون الله تعالى في دائرة الولاية الكبرى التي هي ولاية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهي دائرة كبيرة مشتملة على ثلاث دوائر صغيرة وقوس.

* * *

[دائرة الأقربية]

الأولى: دائرة الأقربية التي أشير إليها بقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: الآية ١٦]. فيلاحظ فيها ورود فيض من ذات الحق سبحانه باعتبار كونها أقرب إليه من حبل الوريد ومنشأ للدائرة الأولى من الولاية الكبرى على لطيفة النفس وسائر اللطائف الخمس بواسطة الشيخ والمداومة على تكرار التهليل باللسان

والخيال برعاية شروطه تورث الترقي في هذا المقام. وهنا يحصل الحضور ودوام التوجه إلى الله سبحانه والعروج والنزول والجذبات مثل مقام القلب، بل يحصل الانجذاب هنا لجميع البدن بالتدريج. وأحوال هذا المقام ليس فيها كيفيات أحوال مقام القلب وذوقها، ولكن إذا حصلت قوة لنسبة لطيفة النفس تكون أحوال القلب منسية بالكلية. وإلى هنا تنتهي الطريقة النقشبندية قدَّس الله أسرارهم العلية. [شعر]

ومن بعد هذا ما يدق بيانه   وما كتمه أحظى لدي وأجمل

وما فوق ذلك من المقامات فمما اختص به الإمام الرباني، ويقال لمن سلكه: مجددياً. وقد قطع جميع المقامات المجددية أولاده وأحفاده وخلفاؤه وخلفاء خلفائه إلى يومنا هذا، وتحققوا بأحوالها كلها لكن بعد جهد بليغ واجتهاد كثير ورياضة شاقة ومجاهدة شديدة، وترك مقتضيات النفس والطبيعة، وبذل الروح والمهج في أزمنة طويلة، كما وقعت عليها في تراجمهم، والآن قد تقاعست الأمم وتقاعدت الهمم وصار السالكون بحيث لو وجد فيهم من يتم سلوك الطريقة النقشبندية على وجه التفصيل فهو غاية الغنيمة. وانحصرت هممهم في أخذ التوجه إلى آخر المقامات المجددية ويزعمون أن ذلك هو السير والسلوك، هيهات هيهات.

* أين الثرى من السماك الأعزل *

فلا جرم لا يحصل لهم غير العجب والغرور والأنانية، ولهذا اقتصر أكثر مشايخ ما وراء النهر على طريقة النقشبندية القديمة من منذ أزمان، أعني: زمان الشيخ موسى خان الدهبيدي خليفة الشيخ عابد السنامي، وأخي مولانا مرزا جانجانان في الطريقة قائلين: إنه لا مصلحة في الزيادة على ذلك. وقد أردت أن أكتفي ببيان هذا القدر قائلاً: [شعر]

ويكفيك من ذاك المسمى إشارة   فدعه مصوناً بالجمال محجبا

ولكن لما ورد الأمر من سيدي ببيان جميعها مكرراً لم أجد بداً من الامتثال وبيانها على سبيل الإجمال بالضرورة، فأقول مستعيناً بالله سبحانه:

والثانية: من دوائر الولاية الكبرى: **دائرة المحبة**، التي أشير إليها بقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: الآية ٥٤]، فيراقب فيها ورود فيض من ذات الحق سبحانه من حيثية كونها محبة له وكونه محباً لها، وباعتبار كونها منشأ للدائرة الثانية

من الولاية الكبرى التي هي أصل الدائرة الأولى منها على لطيفة النفس فقط.

* * *

[دائرة المحبة]

والثانية: أيضاً دائرة المحبة، ومراقبتها مثل مراقبة الثانية إلا أنه يبدل هنا قوله للدائرة الثالثة منها التي هي أصل الدائرة الثانية منها على لطيفة النفس.

والقوس هو أيضاً قوس المحبة، فيفعل فيه ما فعل فيما قبله بتبديل قوله للدائرة الثالثة: إله، بقوله للقوس الذي هو أصل الدائرة الثالثة منها.

وهذه الأصول الثلاثة المذكورة اعتبارات في حضرة الذات ومبادىء للصفات والشؤونات، ويحصل في هذا المقام انشراح الصدر والصبر والشكر والرضا والتسليم، ويرتفع الاعتراض على قضاء الحق سبحانه وقدره وتصير الاستدلاليات بديهيات بحيث لا يبقى الاحتياج إلى الدليل في قبول التكليفات الشرعية ويحصل أيضاً الاستهلاك والاضمحلال والتوحيد الشهودي وانتفاء الأنانية لحصول اليقين بكون الوجود وتوابعه منسوباً إليه تعالى بحيث لا يقدر على إطلاق أنا على نفسه، وغير ذلك من ارتفاع الرذائل وحصول الخصال الحميدة.

* * *

[السير والسلوك في الاسم الباطن]

وبتمام قطع دائرة الولاية الكبرى يتم السير في الاسم الظاهر، فيقع السير والسلوك بعد ذلك في الاسم الباطن ويضع السالك قدمه بعنايته تعالى في دائرة الولاية العليا التي هي ولاية الملائكة الكرام عليهم الصلاة والسلام.

ويشرع هنا في تزكية العناصر الثلاثة التي هي أجزاء هيكله الجسماني سوى عنصر التراب وتكرار التهليل والمداومة على صلاة النوافل يورث الترقي في هذا المقام، وهنا يحصل التوجه والحضور والعروج والنزول للعناصر الثلاثة المذكورة، وتحصل للباطن وسعة عجيبة، وتحصل المناسبة أيضاً بالملأ الأعلى بل ربما تظهر الملائكة الكرام وتدرك أسرار لائقة بالإخفاء والستر.

قال الإمام الرباني قدّس سرّه: ولما انتهى سيري إلى نهاية الولاية الكبرى توهم لي أن قد تم الأمر، فنوديت في سري: إن كل ذلك تفصيل الاسم الظاهر

الذي هو أحد جناحي الطيران والاسم الباطن أمامك بعد. ولما أتممت السير في الاسم الباطن تيسر جناحا الطيران إلى عالم القدس ومحل الأنس، فإذا حصل للسالك ذلك يقع سيره في كمالات النبوَّة.

وهي عبارة عن دوام التجلي الذاتي من غير حجب الأسماء والصفات، فيراقب هنا ورود فيض من ذات الحق سبحانه البحت باعتبار كونها منشأ لكمالات النبوَّة على لطيفة عنصر التراب فقط. وفي هذا المقام العالي قطع مسافة نقطة أفضل وأولى من قطع جميع مقامات الولاية، وهنا يحصل الحضور بلا جهة وتزول أمثال الاضطراب في الطلب والانتظار والوجد ولا مجال هنا للحال والمقامات والمعرفة، فإن من لوازم هذا المقام نكارة نسبة الباطن وجهالتها، والوجدان والإدراك من علامة عدم الوصول لا تدركه الأبصار شاهد عدل لهذه الأسرار، ويحصل هنا أيضاً صفاء الوقت وحقيقة الاطمئنان وكمال الوسعة في نسبة الباطن.

ومعنى التجلي الذاتي بلا حجب الأسماء والصفات ليس هو ظهور الذات، تعالت وتقدَّست، هيهات، فإن معنى التجلي ظهور شيء في مرتبة ثانية أو ثالثة أو رابعة إلى ما لا نهاية، بل هذا مبني على اصطلاحات الإمام الرباني قدَّس سرّه من أن فوق الأسماء والصفات شؤونات واعتبارات كما بيَّنه في مكاتيبه ويشير إليه قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: الآية ٢٩]، وقوله ﷺ: «إن لله سبعين ألف حجاب»[١] الحديث، وما قال القائل: [شعر]

تبارك الله وارث ذاته حجب ... فليس يعلم غير الله ما الله[٢]

صادق في هذا المقام، فإذا قطع ذلك يقع سيره في كمالات الرسالة.

فيراقب هنا ورود فيض من ذات الحق سبحانه البحت باعتبار كونها منشأ لكمالات الرسالة ومورد الفيض من هنا إلى آخر المقامات الهيئة الوحدانية التي تقررت وثبتت بعد تزكية اللطائف العشرة وتصفيتها وفق ما تقدم، وتلاوة القرآن

---

(١) ونصه: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ دون سبعين ألف حجاب من نور وظلمة وما يسمع من نفس شيئاً من حس تلك الحجب إلاَّ زهقت» رواه الطبراني في الكبير من حديث موسى بن عبيدة الربذي عن أبي حازم، حديث رقم (٥٨٠٢) [٦/١٤٨].

(٢) لم أقف على قائل هذا البيت.

المجيد والصلاة بطول القنوت نورث الترقي في الكمالات الثلاثة وما فوقها إلى آخر المقامات. ثم يقع سيره في كمالات أولي العزم فيراقب ورود فيض من ذات الحق سبحانه من حيثية كونها منشأ لكمالات أولي العزم على الهيئة الوحدانية، ويشرع في الأذكار والأوراد المأثورة المستعملة صباحاً ومساءً من هذه المقامات، وتورث فائدة عظيمة ولا ينبغي أن تكون تلاوة القرآن أنقص من ثلاثة أجزاء وكلما كانت أزيد كانت أنفع وأولى.

ثم مراقبة حقيقة الكعبة الربانية التي هي عبارة عن ظهور سرادقات عظمة الذات الإلٰهية وكبريائها.

فيلاحظ ورود فيض من ذات الحق سبحانه باعتبار كونها مسجودة لجميع المكونات، ومنشأ لحقيقة الكعبة. وهنا تكون عظمة الحق وكبرياؤه تعالى مشهودة وتستولي الهيبة على باطن السالك. فإذا حصل الفناء في هذه المرتبة المقدسة والبقاء بها يجد السالك نفسه متصفاً بهذا الشأن ويترنم لسان حاله بأفصح تبيان: [شعر]

وكل الجهات الست نحوي توجهت ... بما تم من نسك وحج وعمرة[1]

ثم **مراقبة حقيقة القرآن المجيد**: إن يلاحظ ورود فرض من ذات الحق سبحانه المقدسة والمنزهة عن الكيف باعتبار كونها منشأ لحقيقة القرآن المجيد. وتظهر هنا بواطن كلام الله، ويجد السالك كل حرف من حروف الكلام المجيد موصلاً إلى المقصود ويكون لسان القارىء وقت قراءة القرآن كالشجرة الموسوية. وعلامة انكشاف أنوار القرآن المجيد: عروض الثقل لباطن السالك وكأن في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝﴾ [المُزمّل: الآية ٥] إشارة إلى هذا.

ثم **مراقبة حقيقة الصلاة** بأن يلاحظ ورود فيض من كمال وسعة الذات المنزَّهة عن الكيف، المنشأ لحقيقة الصلاة على الهيئة الوحدانية ويضيق نطاق البيان عن وصف علو هذا المقام.

ثم **مراقبة المعبودية الصرفة** التي هي أصل الكل وملاذ الجميع، ولا مجال هنا للوسعة أيضاً، وإلى هنا ينتهي السير القدمي، ولكن لا منع للسير النظري فيراقب هنا

---

(١) أحد أبيات تائية ابن الفارض المشهورة البالغة سبعمائة وستين بيتاً، ومطلعها:
سَقَتْني حُمَيَّا الحُبِّ راحَةُ مُقْلتي ... وكأسي مُحَيَّا مَنْ عن الحُسنِ جَلَّتِ

ورود فيض من الذات المعبودة الصرفة، وهنا تتحقق حقيقة الكلمة الطيبة: لا إله إلاّ الله، ونفي عبادة الآلهة الباطلة، وإثبات المعبود الحقيقي الذي لا مستحق للعبادة سواه ويظهر هنا كمال الامتياز بين العابدية والمعبودية والترقي في هذه المرتبة المقدّسة موقوف على المواظبة على الصلاة التي هي وظيفة المنتهيين.

وإلى هنا ينتهي السير في الحقائق الإلٰهية والترقي فيها إنما يكون بالتفضل الإلٰهي وبعده يقع السير في حقائق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والترقي فيها منوط بمحبة سيد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

اعلم أن الحق سبحانه يحب ذاته كذلك يحب أسمائه وصفاته، وكل واحد من هذه المحبة لها اعتباران: المحبية، يعني المصدر المبني للفاعل. والمحبوبية: يعني المصدر المبني للمفعول، وظهور كمالات المحبية والمحبوبية يعني: المصدر المبني للمفعول، وظهور كمالات المحبية والمحبوبية الذاتيتين إنما هو في الحبيب الأكرم ﷺ، وظهور كمالات المحبية الذاتية في كليم الله وظهور كمالات المحبوبية الصفاتية والأسمائية في خليل الله على نبيّنا وعليهما الصلاة والسلام. فيكون أول شروع سير السالك في الكمالات الصفاتية والحقيقة الإبراهيمية إلى مقام الخلة كناية عنها.

فيراقب هنا ورود فيض من ذات الحق سبحانه باعتبار كونها منشأ للحقيقة الإبراهيمية والإكثار من الصلوات المعهودة المستعملة بعد التشهد يورث الترقي في هذا المقام ويحصل هذا الأنس الخاص بالله.

ثم يقع سير السالك في الحقيقة الموسوية التي هي كناية عن المحبية الصرفة، فيراقب هنا ورود فيض من ذات الحق سبحانه باعتبار أنها محبة لنفسها ومنشأ للحقيقة الموسوية على الهيئة الوحدانية. ومن لوازم هذا المقام ظهور الدلال والاستغناء مع وجود المحبية الذاتية كما صدر عن موسى عليه السلام: إن هي إلاّ فتنتك، والإكثار من هذه الصلوات، اللهمَّ صلِّ على محمد وآله وأصحابه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين خصوصاً على كليمك موسى الذي يورث الترقي في هذا المقام.

وفوق هذا المقام مرتبة حقيقة الحقائق التي هي عبارة عن الحقيقة المحمدية، فيراقب ورود فيض من ذات الحق سبحانه باعتبار كونها محبة محبوبة لذاتها ومنشأ للحقيقة المحمدية، وإنما قيل للحقيقة المحمدية: حقيقة الحقائق، لأن سائر الحقائق

سواء كانت حقائق الأنبياء الكرام أو الملائكة العظام كالظل لتلك الحقيقة.

ثم **الحقيقة الأحمدية**، فيراقب ورود فيض من ذات الحق سبحانه باعتبار كونها محبوبة لنفسها ومنشأ للحقيقة الأحمدية والإكثار هنا من: اللهمَّ صلِّ على سيِّدنا محمد وأصحاب سيِّدنا محمد أفضل صلواتك وعدد معلوماتك وبارك وسلِّم، كذلك يورث الترقي في هذا المقام.

وبعد طي مقام الحقيقة الأحمدية يقع السير في مرتبة الحب الصرف الذي هو أول ما ظهر من غيب الذات المطلق والمنشأ لظهور الخلق وإيجاد المكونات كما أشير إليه في الحديث القدسي: «**كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف**»[1].

فيراقب هنا ورود فيض من ذات الحق سبحانه باعتبار كونها منشأ للحب الصرف، هذه المرتبة هي الحقيقة المحمدية في التحقيق، وما تقدم فإنما هو ظلها، وفي قول: «**لولاك ما خلقت الأفلاك، ولولاك لما أظهرت الربوبية**» رمز إلى هذا.

وبعد ذلك مرتبة **اللاتعين**، وحضرة الإطلاق فيراقب هنا ورود فيض من حضرة الذات المنزَّهة المقدَّسة عن جميع التعينات. ويقال لهذه المرتبة: غيب الهوية، وغيب المطلق، وأبطن البطون، وهي مرتبة استهلاك جميع النسب والاعتبارات والشؤونات، وقد تقدم بيانها في أوائل «الرشحات» والله أعلم. وهذا هو نهاية المقامات المجددية المعمولة في طريقة مشايخنا، وهنا مقامات أخرى مثل دائرة السيف القاطع الواقعة حذاء دائرة الولاية الكبرى ودائرة القيومية الناشئة من كمالات أولي العزم المختصة بالقيوم، ودائرة حقيقة الصوم الواقعة حذاء حقيقة القرآن لكنها غير مشهورة وغير معمولة في طريق مشايخنا الكرام، ولهذا ضربنا عن ذكرها صفحاً.

واعلم: أنه قد كثر السؤال بين الإخوان عن معنى المنشأ وعن حقائق الأنبياء إنها قديمة أو حادثة ممكنة أو واجبة؟ وجواب **الأول**: أن المنشأ اسم مكان من نشأ، بمعنى: مكان الظهور والطلوع والصدور وكثيراً ما يستعمل في معنى العلة، والسبب والباعث لظهور شيء ووجوده كما يقال: منشأ هذا الأمر كذا بمعنى: سبب

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٢٠١٦) [٢/ ١٧٣].

ظهوره وعلته والباعث عليه.

وجواب الثاني: قال الإمام الرباني في المكتوب الحادي والعشرين من المجلد الثالث: فإن قيل: إن هذا التعين الحبي الذي هو التعين الأول والحقيقة المحمدية، هل هو ممكن أو واجب حادث أو قديم؟ قلت: إن ذلك التعين تعين إمكاني ومخلوق حادث. قال عليه الصلاة والسلام: «أول ما خلق الله نوري» وكل ما هو مخلوق ومسبوق بالعدم فهو ممكن، وكل ممكن حادث. فإذا كانت حقيقة الحقائق ممكنة حادثة تكون سائر الحقائق ممكنة وحادثة بالطريق الأول. انتهى منتخباً. كيف لا، وقد قال الشريف العلامة في «شرح المواقف» بعد بسط الكلام في الماهية التي هي مرادف الحقيقة: فالمجعولية بمعنى الاحتياج إلى الفاعل من لوازم الماهية الممكنة مطلقاً، فإنها أينما وجدت كانت متصفة بهذا الاحتياج. اهـ.

وكل ما هو محتاج مجعول ممكن حادث، وأما على مذهب الشيخ الأكبر قدّس سرّه فماهيات الممكنات عبارة عن الصور العلمية، ويقال لها: الأعيان الثابتة، يعني في علم الواجب لا في الخارج، فإنها ما شمت رائحة الوجود عنده فلا تكون مجعولة لأن كل مجعول موجود وما ليس له وجود كيف يكون مجعولاً، وكيف يكون واجباً قديماً! فحقائق الممكنات لها ثبوت في علم الله لا وجود، كذا قال العارف الجامي في «شرح اللمعات».

وها هنا مظنة مزلة الأقدام بتوهم تفضيل الإمام الرباني وأتباعه الذين بلغوا نهاية المقامات المجددية على مشائخهم العظام مثل الخواجة بهاء الدين النقشبند، لأنّا قلنا: إن نهاية الطريقة النقشبندية هي مراقبة الأقربية وما فوقها مجددية، ولا شك أن صاحب المقام الفوقاني أفضل من صاحب التحتاني، ودفعها منع عدم وصولهم إلى آخر المقامات المذكورة.

غاية ما في الباب: أنهم ما قطعوها على التفصيل ولا يلزم من ذلك عدم حصولها تدريجاً، كيف لا وقد قال الشيخ موسى خان الدهبيدي قدّس سرّه وهذا القدر إجمال جميع المقامات، فإن وجدت الاستقامة بعد تكميله يخرج هذا الإجمال إلى التفصيل وهذا بعينه معنى قول الإمام الرباني. وفي هذا المقام يعني الولاية الصغرى علامة من جميع المقامات الفوقانية بطريق الظلية.

قال مولانا ميرزا جانجانان قدّس سرّه على ما نقل عنه مولانا الشيخ عبد الله

الدهلوي في «مقاماته»: لا ينبغي أن يعتقد مساواة الإمام الرباني أكابر المشائخ أو أفضليته عليهم بسبب بيانه للطريقة الجديدة وكثرة تحريره لمقامات طريقته وكمالاتها، وكثرة إرشاده بحيث قد زاد من وصل إلى تلك المقامات وفاز بالواردات من زبدة أصحابه على ألوف. ولا شبهة في تلك المقامات أصلاً، وبلغ ثبوتها حد التواتر بإقرار ألوف من العلماء والعقلاء، فإن هؤلاء الكبراء من مشايخه.

وقال في بعض مكتوباته في جواب سائل سأله عن فضل الإمام الرباني على الغوث السبحاني الشيخ عبد القادر الجيلاني قدّس سرّهما، وعن عكسه: إن الفضل على قسمين: جزئي وكلي. ومن الظاهر أن السؤال ليس من الفضل الجزئي ومناط الفضل الكلي زيادة القرب الإلٰهي وذلك أمر باطني لا مدخل للعقل في مثل هذه الأمور. والقدر الممكن سؤاله قلة المناقب وكثرتها، ويمكن إدراك المطلوب بذلك لكن لا مجال للقطع، والنقل عبارة عن الكتاب والسنة وإجماع الأمة في القرن السابق، ووجود هذين الشيخين متأخر من زمان ورود الكتاب والسنّة وإجماع الأمة. فالأصول الثلاثة الشرعية ساكتة عن هذا والكشف المحتمل للخطأ لا يكون حجة على المخالف، وأقوال المريدين لا تخلو من غلو المحبة لمشائخهم فهي ساقطة عن الاعتبار، وليس في نظرنا صاحب كشف يحيط بكمالاتهما ويحكم جزماً بالفضل الكلي لأحد الطرفين. فالطريق الأسلم تفويض هذا الأمر إلى العلم الإلٰهي، والسكوت عن هذا الفضول والإقرار بفضائلهما وعدم تحريك اللسان ملازماً للأدب فإن هذه المسألة ليست من ضروريات الدين حتى يكون التكلم فيها ضرورياً.

وقال أيضاً في جواب من سأل عن ذلك جواباً شافياً: إن كلًّا منهما مرشدي وهادي إلى الطريق، وغمامي رحمة إلٰهية يمطران على الفقير. ويكفي لإرواء أحدهما ولا أدري أن أيّاً منهما أقرب إلى السماء. انتهى.

وهذا الذي بيّناه من لوازم الطريقة، بل هو نفسها، لا بد من رعاية كله للسالك. وأما هذه الختمات فالمروي منها من قدماء أكابر النقشبندية هو ختم خواجكان. وكانوا يستعملونه عند ظهور حادثة ووقوع بلية برعاية شروطه من عدم الزيادة على الأعداد المعينة والنقص عنها، ويرصفون همتهم لدفعها لا أنهم كانوا يستعملونه في جميع الأوقات، وإنما كان استعماله واستعمال غيره من الختمات على سبيل الدوام عند مشائخنا المتأخرين، ويمكن اختيارهم ذلك على الدوام لأمرين:

أحدهما: كثرة الحوادث والبلية في زماننا بحيث لا يخلو منها وقت كما يحكم به المشاهدة.

والثاني: إن لكل مقام مقالاً، ولكل ميدان رجالاً. فإنهم لما رأوا عدم تأثر بعض الطالبين من طريق الخفية واحتظاظهم به اختاروا المداومة على تلك الختمات من أجلهم وذلك جائز بل مطلوب، وليس بتغيير للطريقة. وكيفيته: إن يقرأ أولاً سورة الفاتحة سبع مرات، والصلاة على النبي ﷺ مائة مرة، وألم نشرح تسعة وسبعين مرة، والإخلاص ألفاً، ثم الفاتحة سبعاً، ثم الصلاة مائة، ويزاد في آخره هذه الكلمات السبع مائة مائة: يا قاضي الحاجات، يا كافي المهمات، يا دافع البليات، يا رافع الدرجات، يا شافي الأمراض، يا مجيب الدعوات، يا أرحم الراحمين، ثم يهدي ثوابه إلى أرواح المشايخ خصوصاً الخواجكان، أعني: من الخواجة عبد الخالق إلى الخواجة بهاء الدين النقشبند قدّس سرّهم، ويسئل حاجته يستجاب بإذن الله تعالى. ثم ختم الإمام الرباني وهو: لا حول ولا قوة إلاّ بالله، خمسمائة مرة ويزاد في رأس كل مائة: العلي العظيم، والصلاة في أوله وآخره مائة مائة ثم يهدي ثوابه إليه، ثم ختم سيدي محمد مظهر وهو: المعوذتين وبينهما الاستغفار بهذه الصيغ: أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلاّ هو الحيُّ القيُّوم وأتوب إليه، ثلاثمائة وعشرين مرة ثم يهدي ثوابه إليه، وهذه الختمات تستعمل عندنا في حلقة المغرب.

ثم ختم الغوث الجيلاني: وهو حسبنا الله ونعم الوكيل خمسمائة مرة، والصلاة في أوله وآخره مائة مائة، ثم يهدي ثوابه إليه.

ثم ختم الخواجة النقشبند، وهو: يا خفي اللطف أدركني بلطفك الخفي، خمسمائة مرة، والصلاة أولاً وآخراً مائة مائة ثم يهدي ثوابه إليه.

ثم ختم محمد معصوم وهو: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، خمسمائة مرة، والصلاة أولاً وآخراً مائة مائة. وهذه الختمات الثلاث تستعمل عندنا في حلقة الصبح. وأما عدّهم بالحصاة، فإنما هو للتسهيل فإنه كلما يحضر شخص يعطونه عدداً معيّناً من الحصاة فيستعمل بقدره بخلاف ما إذا استعملوه بسبحة، فإنه كلما يحضر أحد في أثناء الختم يحتاج حينئذ أن يقول لكل من الحاضرين أن: استعملوا الآن هذا القدر، وهذا كما ترى.

وإنما قلنا: إن ما بيَّناه هو الطريقة دون غير، لتنبيه الطائفتين، أعني: **القاصرين عن إدراك حقيقة الطريقة** المغترين بظاهر صورتها، المتشبهين بأهلها، المقتصرين على تلك الختمات زعماً منهم أنها هي الطريقة، وقد عمَّ ذلك أكثر البلدان خصوصاً ديار ما وراء النهر التي كانت هي أولاً معدن هذه الطريقة ومقر أهلها، بل منبع العلوم وروضة جميع الفضيلة، وصاروا الآن يقفون الضياع والعقار لهذه الختمات ويحضرون يومين من كل أسبوع في المساجد والرباطات، ويستعملون هذه الختمات وينفقون محصول الوقف على من يحضر فيها، ويحسبون أن ذلك هو الطريقة مع أن الوقف والوصية بالختمات باطلة والأكل منه حرام في مذهب الحنفية. وقد علمت أن هذه الختمات ليست من حقيقة الطريقة ولا من لوازمها.

والطائفة الثانية: المنكرون على الطريقة وأهلها لما رأوا من أحوال الطائفة الأولى زعماً منهم أن هذه الختمات هي الطريقة لا غير، وأنها بدعة، حتى سمعت أن بعضهم ألّف رسالة في ردها، ونحن نساعدهم في ذلك فإنهم لا يردون على الطريقة بل يذبون عنها في الحقيقة بالرد على الطائفة الأولى، ونقول: ليت مشائخنا قدّس الله أسرارهم، لم يكثروا من ذلك، فإن المتوسط الذي لم يبلغ مرتبة دوام الحضور ولم يتميز ظاهره من باطنه يتضرر منها وتوجب له الوساوس والخطرات، ولا مرد لذلك فإنه مما حكمت به المشاهدة وشهدت به التجارب، ولكن لهم في ذلك غرض صحيح كما مر.

ثم هاهنا شيء آخر موجب لزلة قدم هاتين الطائفتين ذكره الإمام الغزالي في بعض مصنفاته، ولا بأس بإيراده هنا على وجه الاختصار. وهو هذا:

وقد علم مما سبق شرف جوهر القلب وصار طريق الصوفية واضحاً، وأظنك قد سمعت من الصوفية قولهم: إن العلم حجاب عن هذه الطريقة، فتنكر عليهم بأنه إذا كان شيء بحيث يكون العلم حجاباً عنه كيف يقدم عليه؟ أم كيف يرغب فيه؟ وأي فضيلة له؟!، فلا تنكر على ذلك فإنه حق وصدق. فإن الاشتغال بالعلم الذي يحصل من طريق المحسوسات يكون حجاباً عن هذه الأحوال البتة، فإن القلب مثل الحوض والحواس الخمس مثل الأنهار الخمسة ينصب منها الماء فيه، فإن أردت أن تملأ الحوض بالماء الطاهر الصافي فتدبيره: إن تسد هذا النهر أولاً حتى لا ينصب فيه ماء من خارج، ثم تفرغ الحوض من الماء والطين الأسود ثانياً، ثم تحفر قعر

الحوض ثالثاً لينبع الماء الصافي من داخل الحوض، فإن الحوض ما دام مشغولاً بالماء الذي ورد عليه من خارج لا يمكن نبع الماء من داخله، وإن سلمنا لا يكون طاهراً صافياً لاختلاطه بالماء النجس، وكذلك لا يحصل العلم من داخل القلب حتى يكون خالياً من كل علم حصل من خارج. وأما لو امتنع العالم عن تعلم العلم ولم يشغل قلبه بما تعلم سابقاً فلا يكون عمله السابق حجاباً له عن الطريقة بل يمكن أن يكون سبباً للفتوحات، وكذلك إذا خلى السالك نفسه عن الخيالات والمحسوسات لا تكون الخيالات السابقة حجاباً له.

وسبب كون العلم حجاباً هو: إن شخصاً لو تعلّم علماً مع دلائله وبراهينه على ما بيّن في فن الجدل والمناظرة، وأقبل عليه بكليته، واعتقد أن ليس وراء هذا علم أصلاً، فإن وقع شيء على قلبه من خطرات سماوية يقول: إن هذا خلاف ما أنا سمعته وعلمته وكل ما هو خلافه فهو باطل. فلا يمكن لمثل هذا الشخص انكشاف حقيقة الأمور، فإن هذه الاعتقادات التي يعلمونها عوام الخلق إنما هي صورة الحقيقة لا عينها. والمعرفة التامة هي خروج تلك الحقائق من الصورة إلى العين كخروج اللب من القشر. ومن المعلوم أن من تعلّم طريق الجدل في نصرة الاعتقاد الحق وحراسته لا تنكشف له الحقيقة أصلاً، فكيف يظن أن هذا هو الحقيقة لا غير؟ فمن ظن ذلك يكون ظنه حجاباً له عن الحقيقة. ولما كان هذا الظن غالباً فيمن تعلم شيئاً من هذه العلوم لا جرم يكون هذا القوم محجوبين غالباً، فمن خرج من هذا الظن لا يكون العلم حجاباً له. فإنه معتقد أن وراءه شيئاً آخر أعلى من علمه ومتطلع عليه. وإن تيسر لمثل هذا الشخص فتح فقد بلغت درجته الكمال، ويكون طريقه أشد أمناً وأوضح ممن لم يترسخ قدمه في العلم قبل، فإنه يمكن أن يبقى في عقدة الخيال الباطل مدة مديدة، بل تكون شبهة يسيرة حجاباً له والعالم يكون محفوظاً من مثل هذا الخطر.

يقول الفقير راقم هذه الحروف: لما ورد واحد من الإخوان من المدينة المنورة عام وفاة سيدي الشيخ محمد مظهر نور الله ضريحه، سأله مولانا الشيخ عبد الحميد أفندي روح الله روحه، أن قلوب الإخوان تميل إلى من من بينهم للجلوس في مسند الإرشاد على تقدير عدم توجه المعينين، فسمى ثلاثة أشخاص، فقال: نعم، إن فلاناً لا عيب فيه غير أنه لا علم له وهذا المقام لا بد له من علم كثير.

وهذا مطابق للواقع، فإن كل واحد من أكابر هذه السلسلة من أولها إلى آخرها كالجبل الشامخ في العلم، والحمد لله على ذلك.

وهذا الذي ذكرناه آنفاً حال من له علم فقس على ذلك حال من لا علم له، ويظن أنه من أهل العلم وأنه حاز جميع الكمالات ولم يفته منها شيء. وقد علم أن في «شرح المقاصد» و«شرح العقائد» دلائل التوحيد وبراهينه، وزعم أن من لم يعرفها لا يصح إيمانه ويزدري بالعوام ويعد نفسه من الخواص ولا يدري المسكين أن معرفة الدلائل ليست هي معرفة إنها مسطورة في الكتب الفلانية، بل هي معرفة ترتيبها بشروطها ولوازمها المقررة في كتب الميزان وهو عاجز عن ترتيب برهان التطبيق الذي هو أشهر دلائل إبطال التسلسل الموقوف عليه إبطال جريان سلسلة الممكنات لا إلى نهاية المستلزم لقدم العالم المستلزم لعدم استناد الممكنات إلى الواجب، فكيف بإصبعها، وكيف يظن أن الدليل العقلي يعطي أعلى المطالب ويفيد أسنى المقاصد خصوصاً على أصول الأشعري وإلا فما فائدة البعثة؟!.

وقد ألّفت في إثبات وجود الواجب بطريق الدليل العقلي رسائل كثيرة، ومن أحكمها وأمتنها رسالة العلامة الدواني. وقد أورد المحشون على كل دليل منها إشكالات كثيرة كما لا يخفى على أربابها، ولهذا قال الإمام فخر الدين: ليت كتيبه فن العقليات، وابن بجدتها، وأبو عذرتها. [أشعار]

نهاية أقدام العقول عقال ... وغاية سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقال[1]

حتى نقل عنه أنه قال حين احتضاره بعد قصة طويلة: اللهمَّ إيماناً كإيمان

(١) هذه الأبيات هي للإمام فخر الدين الرازي: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن علي البكري المتوفى سنة ٦٠٦ هجرية. وتتمة الأبيات هي:

وكم قد رأينا من رجال ودولة ... فبادروا جميعاً مسرعين وزالوا

وكم من جبال قد علت شرفاتها ... رجال فزالوا والجبال جبال

(انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان: أحمد بن محمد بن خلكان البرمكي الإربلي أبو العباس، المولود سنة ٦٠٨ هجرية والمتوفى سنة ٦٨١ هجرية).

العجائز. فلنرجع إلى ما كنا فيه ولنبين بطلان زعم الطائفة الأولى، أعني: القاصرين المغترين. قال الإمام الغزالي رحمه الله: ومعني: لا تنكر على قولهم: إن العلم حجاب ذا سمعة من صاحب استقامة بلغ مرتبة المكاشفة. وأما من عرى عن لباس التقوى والاستقامة وتشبه بالقوم في الجلوس على السجادة، وأطلق لسانه بمذمة العلم والعلماء، فهم شياطين الأنس يضلون الخلق عن الطريق المستقيم، وأعداء الله تعالى ورسوله، فإنهم يذمون ما مدحه الله ورسوله، فإن الله ورسوله دعا الخلق بالعلم لا بالحال، وهؤلاء المتشبهون المبطلون إذا لم يكونوا من أهل الحال وخلوا عن حلية العلم كيف يصح لهم التقول بهذا الكلام، بل ينبغي أن لا يفضل كل حد حصل له شيء يسير من أحوال الصوفية، وإن كان صاحب استقامة في الواقع على كل عالم فإنه يرى لأكثر الصوفية شيء من أوائل الأحوال فيقعون فيه ويتعلقون به فلا يتم أمرهم بل الفضل على العلماء لشخص كان كاملاً في الأحوال بحيث يعلم كل علم يتعلق بهذه الأحوال من غير تعلم يعلمه غيره بالتعلم. ومثل هذا نادر جداً، فينبغي أن يعتقد في أصل طريق التصوُّف وفضل أهله، وأن لا يسيء الاعتقاد فيهم بسبب هؤلاء المتشبهين المبطلين، وكل من يطعن منهم في العلم والعلماء فاعلم أنه لا حاصل له. انتهى.

أقول: ولهذا ينبغي للسالك أن لا يتطلع على الأحوال، وأن لا يغتر عند ظهورها. فإن من تطلع على شيء يسكن إليه قلبه عند حصوله البتة، فإن المقصود ليس هذه الأحوال بل ما هو وراءها، فإن ظهر منها شيء ينبغي أن يغتنمها ويشكر الله تعالى فإنه علامة صحة سيره وسلوكه ثم ينبغي أن يترقى منه. وإن لم يظهر منها شيء ينبغي أن لا يغتم لذلك لعدم كونها مقصوداً. بل قال المشايخ: إن عدم ظهورها أسلم للسالك لما مر آنفاً. وقالوا: إن هذه الأحوال بمثابة السكر والزبيب يعطاها أطفال الطريقة ليتسلوا بها، فكما أن الأطفال لا يعطون السُّكَّر والزبيب إلا عند بكائهم، كذلك أطفال الطريقة لا يعطون الأحوال غالباً إلاَّ ضعاف القلوب منهم دون الأقوياء. فإن مطمح نظرهم وراء الأحوال، وقد مر في ترجمة الشيخ عبد الله الدهلوي: إن طالب الأحوال ليس بطالب الحق عز وجل.

وقال رئيس أهل المعقول في إشاراته: من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني. يعني: من طلب المعرفة لأجل المعرفة نفسها فقد قال بالثاني حيث لم يجرد نيّته للمعروف، يعني: الحق سبحانه، بل طلب شيئاً معه، يعني: المعرفة. ومن وجد

العرفان كأنه لم يجده فقد خاض لجة الوصول، يعني: لو كان وجود المعرفة مساوياً عنده مع عدمها لكونها غير مقصود في نفسها، بل لغيرها، فهو علامة على أنه خاض في لجة بحر الوصول حيث لم ير غير المعروف، فكيف يرى غيره تعالى من استغرق في شهوده وغاب عن وجوده، رزقنا الله سبحانه وتعالى من هذا الحال بمنه وكرمه ولطفه، وهذه نبذة من بحر آداب الطريقة التي لا بد من رعايتها لمن سلكها ووراءها أشياء كثيرة لا مطمع لاستقصائها. فمن أراد الاطلاع عليها فعليه بـ«الرسالة القشيرية» و«عوارف المعارف» و«إحياء العلوم» وغيرها، بل لا بد من تتبع هذه الكتب للسالك الحقيقي والعمل بما فيها بقدر الإمكان.

وهذا الكتاب، أعني: «الرشحات» من أوله إلى آخره مشحون ببيان آداب هذه الطريقة العلية خاصة، فمن ظفر به وعمل بما فيه فقد صادف البغية، فإن فيه غنية وكل صيد في جوف الفرا، وليكن هذا آخر ما أردنا إيراده في هذه المجموعة. والحمد لله أولاً وآخراً وباطناً وظاهراً وصلى الله على خير خلقه محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه وخيار أمته أجمعين إلى يوم الدين.

والمرجو من كرم الكرام، وفضل ذوي الفضول العظام، أن يصلحوا ما عثروا عليه فيها من الخطأ والخلل، وأن يستروا ما وقع فيها من الزلل وأن يردوه إلى الصواب دون أن يستعجل باللوم والعتاب، فإنّا لا ندّعي أن كل ما حررناه مصون عن الخطأ والشبهة والارتياب، بل إن أصبنا الهدف فليس ذلك على الله بعزيز، وإن أخطأناه فليس ذلك من شأننا بغريب. ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، ومما زلّ فيه الأقدام أو طغى به الأقلام. [شعر]

أستغفر الله من قول بلا عمل لقد نسبت به نسلاً لذي عقم

والمسؤول ممن طالع هذا الكتاب وانتفع به وصفّى وقته وطاب، أن يذكر هذا العاجز بدعاء حصول كل خير واندفاع كل شر وضير، وصلى الله على أشرف المرسلين سيد الكونين محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأولياء أمته أجمعين.

وقع الفراغ من نقله إلى البياض ضحى يوم الاثنين، الثاني والعشرين من رجب سنة ثلاث وثلاثمائة وألف، في بلد الله الحرام شرّفه الله تعالى إلى قيام الساعة وساعة القيام بجاه نبيّه وحبيبه عليه الصلاة والسلام، على يد جامعه الفقير محمد مراد القزاني، ملّكه الله سبحانه نواصي الأماني.

ولنختم الكلام بالتوسل إلى الله سبحانه بمشائخنا الكرام امتثالاً لقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المَائدة: الآية ٣٥] الآية.

نسألك اللهمَّ متوسلاً بجاه سيِّدنا محمد رسول الله ﷺ، وبجاه سيِّدنا أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه، وبجاه سيِّدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه، وبجاه سيِّدنا قاسم بن محمد بن أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنهم، وبجاه سيِّدنا جعفر الصادق رضي الله عنه، وبجاه سيِّدنا أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه، وبجاه سيِّدنا أبي الحسن الخرقاني رضي الله عنه، وبجاه سيِّدنا أبي علي الفارمدي رضي الله عنه، وبجاه سيِّدنا أبي يعقوب يوسف الهمداني رضي الله عنه، وبجاه سيِّدنا عبد الخالق الغجدواني رضي الله عنه، وبجاه سيِّدنا عارف الريوكري رضي الله عنه، وبجاه سيِّدنا محمود الإنجير فغنوي رضي الله عنه، وبجاه سيِّدنا عزيزان علي الراميتني رضي الله عنه، وبجاه سيِّدنا محمد بابا السماسي رضي الله عنه، وبجاه سيِّدنا الأمير كلال رضي الله عنه، وبجاه سيِّدنا إمام الطريقة وبرهان الحقيقة السيد بهاء الدين النقشبند رضي الله عنه، وبجاه سيِّدنا علاء الدين العطار رضي الله عنه، وبجاه سيِّدنا يعقوب الكرخي رضي الله عنه، وبجاه سيِّدنا عبيد الله أحرار رضي الله عنه، وبجاه سيِّدنا محمد الزاهد رضي الله عنه، وبجاه سيِّدنا درويش محمد رضي الله عنه، وبجاه سيِّدنا خواجكي الأمكنكي رضي الله عنه، وبجاه سيِّدنا محمد الباقي بالله رضي الله عنه، وبجاه سيِّدنا الإمام الرباني المجدد للألف الثاني الشيخ أحمد الفاروقي السرهندي رضي الله عنه، وبجاه سيِّدنا محمد معصوم رضي الله عنه، وبجاه سيِّدنا سيف الدين رضي الله عنه، وبجاه سيِّدنا السيد نور محمد البداوني رضي الله عنه، وبجاه سيِّدنا حبيب الله مرزا جانجانان مظهر الشهيد رضي الله عنه، وبجاه سيِّدنا عبد الله الدهلوي رضي الله عنه، وبجاه سيِّدنا أبي سعيد الأحمدي رضي الله عنه، وبجاه سيِّدنا أحمد سعيد الأحمدي رضي الله عنه، وبجاه سيِّدنا محمد مظهر الأحمدي رضي الله عنه، وبجاه سيِّدنا عبد الحميد أفندي الشرواني المكي رضي الله عنه، وبجاه سيِّدنا السيد محمد صالح الزواوي المكي مد الله ظلال جلاله وأفاض علينا من نوال أفضاله، أن تنظر إلى عبيدك العاجز الفقير الحقير اللاشيء محمد مراد، بنظر العناية والرحمة والرأفة، وأن تفيض على قلبه من بحار معرفتك ومحبتك رشحة، وصلى الله على سيِّدنا محمد وعلى آله وأصحابه ما التثم الأرواح بالإشباح، وما انتشى عارف بكؤوس الأسرار وصاح وباح. تمّ.

وهذه قصيدة فارسية مشتملة على بيان أوصاف النقشبندية لصاحب «الرشحات» ولم نوفق لترجمتها، فطويناها على غرها وأثبتناها في هذا المحل. [قصيدة]

نقشبندية عجب طائفة پركارند   كه چوپر كاردرين دائرة سربسركارند
همة كردآمده برمركز يك دائرة أند   همه واقف شده أزكردش يك پركارند
نقشبند ندولي بند بهر نقش نيند   هردم أزيو العجبي نقش ديكر پيش آرند
هر زمان بوقلمون واربرنكي ديكرند   وين عجبتر كه زرنك دوجهان بيزارند
كرچه در ظاهر عامند بباطن خاصند   كرجه در صورت خصمند بمعنى يارند
آب نيلندولي برلب قبطي خونند   روح محض أندولي برخر عيسى بارند
كرچه مرء آت صقيلند حبش رازنكند   كرچه كلزار خليلند حطب رانارند
درقبـاروش آل عبـايساد دهنـد   نه جـو زراق وشان خرقهٔ أزرق دارند
سترو تلبيس بود شيوۀ أين عياران   متلبس بصفات ملكي سيارند
ستراين كثرت موهوم دران وحدت صرف   جشم دارند أزان بوسر استغفارند
نكنند كثرت آثار درايشان تأثير   خويش رادوخته برمبدأ أين آثارند
پاس أنفاس بود خصلت أين شاه وشان   پاسبانا نندولي پادشه أخيارند
دم نكه داشته چون نافهٔ مشكند وكر   لب كشايندروان پر ورصد عطارند
خامشا نندولي وقت سخن طوطي وار   همه شيرين حركات وشكرين كفتارند
نجم آساهمه راخلوت در أنجمنست   شمع هر أنجمن وورنق هربازارند
چون مه هاله نشنين شان سفراندر وطنست   بتن استاده بدل دركشش ورفتارند
حال أين كرم روان تحسبها جامدة إست   ليكن أفسرده دلان جون خودشان پندارند
أهل دل قافلهٔ كعبة عشقندولي   أين جكرداران آن قافلة راسالارند
درسيه خانهٔ صحراي فناكرده نزول   خيمه برترزده أزنه تتق ژنكارند
هريكي سدانا نندبميدان جهان   كوهي أزلومة لائم بكهي نشمارند
ماهيا نندكه دربحر صفارا ست روند   همجو خر چنك لب جوى نه كز رفتارند
برلب تشنه دلان روح فزا يا قوتند   دركف وسوسه كيشان زرمشت أفشارند
ديده پاكانند بلي روشن ديدهٔ باك   سردبن دارانديل برسردين دستارند
شاهد شاه وجوبنددريس دارولي   نه جو منصور سرعر بده جوي دارند
ميرسدشان رطب معرفت أزنجل وجود   يا رب إز بخت خوداين قوم چه برخوردارند

هفت بيت أزغزل بي بدل عارف روم كه همه باخبران واله آن كفتا رند
ميكنم تضمين كاند رصفت أين پاكان آن كهرها شرف عقد ثريا دارند
جون صدف كوش نه وجاي ده أندردل صاف أين غزل راكه بجز عقد درش نشمارند
هله هش داركه درشهر دوسه طرا رند كه بتدبير كلاه أزسرمه بردارند
دوسه رندندكه هشياردل وسر مستند كه فلك رابيكي عربده درچرخ آرند
صورتي أندولي دشمن صورتهاند درجها نندولي ازدوجهان بيزارند
يارآن صورت غبيند كه جان طالب أوست همجو جشم خوش أو خير كش وبيمارند
سرها نند كه تاسرندهي سرند هند ساقيا نند كه أنكور نمي أفشار ند
كر بكف خاك بكير ندزرسرخ شود روز كندم دروند وبشب جوكارند
مردمي كن مرواز صحبتشان مردم شو زانكه أين مردم ديكر همه مردم خوارند
أي صفي مردمي آموز أزيشان كايشان مردم ديده° بينائي أولو الأبصار ند
نور اين مردمك ديده° بيناكه بود آنكه زواهل نظر چشم عنايت دارند
قطب آفاق شه كون ومكان خواجه عبيد كزعموم نعم أو همه روزي خوارند
نير عالم توحيدكه إزمشكاتش همه ذرات جهان مقتبس أنوارند
خواجه° زمره° أحراركه شاهان جهان بردر خدمت أو بنده° وخدمتكار ند
دين پناها توي آن قبله° مخلوقاتكه خلق بيخو دازهر جهتي روى بوى مى آرند
همه باطوق وفاحلقه بكوشان تواند كر عبيد ند درين راه وكراحر ارند
جاهلاني كه سرا زربقه° أمرت پيجند درجرا كاه بلاهت خربى أفسارند
كه سراسيمه فتاده بته تيه ضلال كاه حيرت زده دربادية° أدبارند
ناكسا نيكه زاحسان تو محروم زيند برلب بحر جكر تشنه جوبو تيمارند
آن حريفانكه مي إز ساغر عشقت نوشند كرچه بس بيخود ومستند عجب هشيارند
بيخود انرا بجناب تو دمادم كششيست بيدلان درخم قلاب توماهي وارند
ما هي بحر توام واز صدف مدح توپر جون صدفها كه لبالب زدر شهوارند
هركه شد غرقة بحر تو فزود آب رخش أهل ساحل جو صدف ريزة بيمقدارند
جاودان غرقة درين بحر صفا باد صفي هركزش يا رب ازين بحر بيرون نكذا رند

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المرسلات: الآيات ١٨٠ ـ ١٨٢]، وصلى الله على سيِّدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

رباعي لصاحب الرشحات بالفارسية

آن كـرم روان كـه عـالـم إز غـلـغـلـة شـان بـربـود سـفـر فـتـاد أزيـن مـرحـلـة شـان
بيجاره صفـي چون سـككي سـوخته پاي أفـتـان وخـيـزان در عـقـب قـافـلـة شـان

وله رباعي بالفارسية أيضاً في تاريخ الإتمام: [رباعي]

آمـد رشـحـات مـا كـثـيـر الـبـركـات چـون آب خـضـر منـفـجـر إز آب حـيـات
يـا بـنـد مـحـاسـبـان سـنـجـيـده صـفـات تـاريـخ تـمـامـش إز حـروف رشـحـات

* * *

صورة تقريظ الشيخ سليمان الزهدي النقشبندي الخالدي رحمه الله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المحمود الذات وحميد الصفات، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد أشرف البريات، وعلى آله وأصحابه الفائزين بمشاهدة الآيات البيِّنات، وبعد: قد اطلع الحقير على ترجمة «رشحات عين الحياة» من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية السهلة الألفاظ، والعذبة اللذات، فوجدتها من حسن التأليف ولطف الترصيف على أقصى الغايات. ولقد أفصح المترجم بحسن التعبير عن مقام المترجم بحسن التعبير عن مقام الكرام ومناقب السادات، رزقه الله الحسنى وزيادة، ورفعه إلى المقام الأسنى في زمرة السادة، ونفع الله تعالى المسلمين بطبعها كما نفع العامة بأصلها آمين.

كتبه المسكين المستهام

سليمان الزهدي الخالدي النقشبندي

فهرس المحتويات

تقديم ٣
ترجمة المؤلف الشيخ حسين الكاشفي ٠٠٠ ـ ٩١٠ هجرية ٧
ترجمة المُعَرِّب الشيخ محمد مراد ٠٠٠ ـ ١٣٥٢ هجرية ٧
ما شاء الله كان ٨
المقالة في ذكر طبقات أكابر السلسلة النقشبندية قدّس الله أرواحهم العلية من أولها
إلى آخرها على وجه الإجمال والتفصيل ١٧
سابق الفرسان سيدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه ٢٥
الإمام أبو عبد الرحمٰن قاسم بن محمد بن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه ٢٨
مجمع البحرين وملتقى النهرين الإمام الحاذق سيدنا جعفر الصادق ابن الإمام
محمد الباقر بن الإمام علي زين العابدين ابن الإمام حسين رضي الله
عنهم أجمعين ٣٠
سلطان العارفين أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه ٣٣
الشيخ أبو الحسن الخرقاني قدّس الله سرّه ٣٥
الشيخ أبو القاسم الجرجاني قدّس سرّه ٣٧
الشيخ أبو علي الفارمدي قدّس سرّه ٣٨
حضرة الشيخ الخواجه يوسف أبو يعقوب الهمداني قدّس الله سرّه ٤٠
الشيخ الخواجة عبد الله البرقي قدّس سرّه ٤١
الشيخ الخواجة حسن الإنداقي قدّس سرّه ٤١
حضرة الخواجة أحمد اليسوي رحمه الله وقدّس سرّه ٤٢
حضرة الخواجة بهاء الحق والدين محمد، المشتهر بالنقشبند، قدّس سرّه العزيز ٩٣
ذكر كيفية انتقال حضرة الخواجة قدّس سرّه وتاريخ وفاته ٩٥
حضرة الخواجة محمد بارسا قدّس سرّه ٩٧
ومن خوارقه للعادات قدّس سرّه ١٠٠
حضرة الخواجة علاء الدين محمد العطار قدّس سرّه ١٢١
ذكر وفاة الخواجة علاء الدين قدّس سرّه ١٣١
فصل في طريقة التوجه برسم العلائية وتربية النسبة الباطنية ١٤١
مولانا درويش أحمد السمرقندي رحمه الله تعالى ١٤٥
ذكر نبذة من لطائف مولانا قدّس سرّه ١٥٩

ذكر شيء من أحواله الباطنية ١٦٢
ذكر فوائد أنفاسه النفيسة قدّس سرّه ١٧٢
من خوارقه للعادات قدّس سرّه ١٧٨
حضرة مولانا نور الدين عبد الرحمٰن الجامي قدّس الله سرّه السامي ١٨٦
ذكر اشتغال حضرة مولانا الجامي بتحصيل العلوم في مبادي حاله، وتردُّده إلى أهل الفضل والكمال في عنفوان شبابه ١٨٧
ذكر وصول حضرة مولانا الجامي إلى صحبة مولانا سعد الدين قدّس سرّه ١٩٠
رقعة ١٩١
ذكر ملاقاته المشايخ الكبار من صغر سنه إلى نهاية أمره ١٩٢
الرقعة الأولى ١٩٦
الرقعة الثانية ١٩٦
ذكر توجه مولانا الجامي إلى سفر الحجاز وبيان ما وقع له في هذا السفر بطريق الاختصار والإيجاز ١٩٩
ذكر بعض خوارقه للعادات قدّس سرّه ٢١٠
ذكر تاريخ وفاته قدّس سرّه وبيان ثمرات شجرة ولايته ٢١٧
ذكر فوائد أنفاسه المسموعة ٢٢١
مولانا شهاب الدين أحمد البرجندي رحمه الله تعالى ٢٣١
ذكر ملاقات مولانا علاء الدين الشيخ عبد الكبير الحضرمي باليمن قدّس سرّهما ونقلياته عنه ٢٣٦
ذكر أنفاسه النفيسة قدّس سرّه ٢٣٨
من خوارقه للعادات ٢٤٤
مولانا شمس الدين محمد الروجي قدّس سرّه ٢٤٧
ذكر صحبة مولانا شمس الدين محمد مع الشيخ عبد الكبير اليمني قدّس سرّهما وبعض كلماته المسموعة من الشيخ ٢٥٩
ذكر فوائد أنفاسه النفيسة المسموعة ٢٦٠
ذكر خوارقه للعادات قدّس سرّه ٢٦٣
ذكر كيفية انتقاله من عالم الفناء إلى عالم البقاء ٢٦٦

المقصد الأول

في ذكر آباء حضرة شيخنا وأجداده وأقربائه إلخ

الفصل الأول من المقصد الأول: في ذكر آبائه وأجداده وأقربائه ٢٧١
الفصل الثاني من المقصد الأول: في ذكر ولادة حضرة شيخنا وأحواله في أيام صباه وذكر نبذة من شمائله وأخلاقه ٢٨٦
ذكر فقر حضرة شيخنا وتجرّده في مبادي أحواله ٢٩٢

ذكر غنى حضرة شيخنا وتموله في نهاية كماله ٢٩٤
ذكر خدمة حضرة شيخنا لكافة الأنام وشفقته على الخواص والعوام ٢٩٧
ذكر مراعاة حضرة شيخنا للآداب مع كافة الخلق وخدمته لهم ٢٩٨
ذكر إيثاره وشفقته ومرحمته لأصحابه وسائر الفقراء ٢٩٩
الفصل الثالث: في ابتداء سفره ورؤيته المشائخ الكرام قدّس الله أسرارهم ٣٠١
ذكر صحبته مع السيد قاسم قدّس سرّه في سمرقند وخراسان ٣٠٣
ذكر صحبة حضرة شيخنا مع الشيخ بهاء الدين عمر قدّس سرّه ٣٠٩
ذكر ملاقاة حضرة شيخنا مولانا يعقوب الكرخي قدّس سرّهما ٣١١

المقصد الثاني

في ذكر بعض الحقائق والمعارف والدقائق واللطائف والحكايات والأمثال التي سمعنها من حضرة شيخنا من غير واسطة في خلال الأحوال

الفصل الأول: في ذكر المعارف واللطائف المتعلقة بمعاني الآيات والأحاديث وكلمات أولياء الله تعالى ٣١٥
الفصل الثاني: في بيان الحقائق والدقائق والحكايات التي نقلها عن المشائخ المتقدمين والمتأخرين قدّس الله أرواحهم ٣٢٥
الفصل الثالث: في بيان كلماته الخاصة التي جرت على لسانه من كل باب وما صدر عنه في أثناء الصحبة من المخاطبات لأهل البداية والنهاية ٣٤٠

المقصد الثالث

في بيان بعض تصرفات حضرة شيخنا قدّس سرّه

ولنذكر ما ثبتت صحته منها بنقل الثقات والعدول في ثلاثة فصول: ٣٦٩
الفصل الأول: في ذكر تصرفاته الغالبة على السلاطين والحكام وغيرهم من جبابرة الأنام بتسلّط قوّته القاهرة ٣٧١
ذكر غلبة السلطان أبي سعيد على المرزا عبد الله بالتفات حضرة شيخنا ٣٧٢
ذكر مجيء المرزا بابر لمحاصرة سمرقند ورجوعه خائباً بالتفات حضرة شيخنا قدّس سرّه ٣٧٥
ذكر مجيء السلطان محمود لمحاصرة سمرقند ورجوعه مقهوراً ومغلوباً ٣٧٧
ذكر إصلاح حضرة شيخنا ما بين السلاطين الثلاثة المخالفين في معركة واحدة ٣٨٠
الفصل الثاني: في بيان خوارقه للعادات التي نقلها بعض الأعزّة والأكابر وأهل زمانه غير أولاده وأصحابه ٣٩٢
الفصل الثالث: في ذكر كراماته ومقاماته التي شاهدها منه أولاده الكرام أو كُمّل أصحابه العظام، ونقلوها عنه ٤٠٤
الخاتمة ٤٤٩

في ذكر تاريخ وفاة حضرة شيخنا قدّس سرّه العزيز وكيفيّة ارتحاله وانتقاله من دار الدنيا إلى دار الآخرة ٤٤٩
تاريخ إتمام الرشحات لمؤلفه عليه الرحمة والرضوان ٤٥١

ذيل كتاب رشحات عين الحياة
المسمى نفائس السانحات في تذييل الباقيات الصالحات

ومن أنفاسه القدسيّة ٤٨٢
عمدة المشايخ الكرام وزبدة الأصفياء العظام، مرشد الأنام، وغوث الأيام، مولانا الشيخ أحمد سعيد ابن مولانا الشيخ أبي سعيد عليهما الرحمة والرضوان ... ٤٩٨
ومن أنفاسه النفيسة ٥٠١
كشاف رموز الحقائق، مفتاح كنوز الدقائق، مرشد الأنام، قدوة الكرام، إمام العارفين وقطب الواصلين، مخزن العلوم الإلهية، ومصدر الفيوض اللامتناهية، سيدنا وسندنا الشيخ محمد مظهر ابن الشيخ أحمد سعيد، ابن الشيخ أبي سعيد قدّس الله أرواحهم وروّح أشباحهم ونفعنا ببركات أنوارهم، وأروانا من بحر أسرارهم، وثبّتنا على محبّتهم، وحشرنا في زمرة خدّامهم آمين ٥٠٦
ومن كلماته القدسيّة ٥١٠
عمدة العلماء المحققين، وقدوة الكبراء المدققين، ونخبة الصلحاء المتورعين، وزبدة الكملاء المتشرعين، العالِم الرباني مولانا الشيخ عبد الحميد أفندي ابن الحسين الداغستاني الشرواني محتداً، المكي موطناً ومدفناً، وارى قبره اللطف السبحاني آمين ٥١٣
كيفيّة طريقة مشايخ الطريقة النقشبندية ٥٤٢
طريق المراقبة ٥٥١
علامة الإيمان بالشيء ٥٥١
مراقبة الأحدية ٥٥٢
مراقبة المعيّة ٥٥٣
دائرة الأقربية ٥٥٣
دائرة المحبة ٥٥٥
السير والسلوك في الاسم الباطن ٥٥٥
رباعي لصاحب الرشحات بالفارسية ٥٧١
صورة تقريظ الشيخ سليمان الزهدي النقشبندي الخالدي رحمه الله تعالى ٥٧٢